تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية

المجلد الثانى

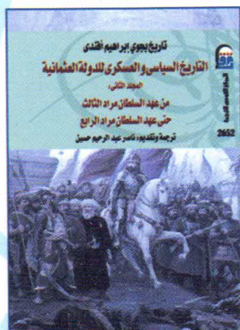
من عهد السلطان مراد الثالث
حتى عهد السلطان مراد الرابع

ترجمة وتقديم : ناصر عبد الرحيم حسين



المركز القومى للترجمة

2270



يعد "تاريخ بجوى" الذى هو بين أيدينا من أمهات المصادر التاريخية عند الأتراك العثمانيين الذين اهتموا بالتأريخ باعتباره نافذة للاطلاع على أمجادهم وبطولاتهم وأيضا وسيلة لتخليد ذكراهم على مر العصور.

وقد جمع هذا المجلد بين صفحاته التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية منذ عهد السلطان مراد الثالث حتى عهد السلطان مراد الرابع. كما تعرض للوزراء العظام والوزراء ومشايخ الإسلام والدفتردارية والنشابجية والأعمال الخيرية المصاحبة لعهد كل سلطان من السلاطين، مما جعل من هذا الأثر مرجعا لكل من يريد أن يبحث أو يتحرى عن رجالات الدولة العثمانية على مر العصور.

تصميم الغلاف: رحاب حسن

تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى و العسكرى للدولة العثمانية

المجلد الثانى

من عهد السلطان مراد الثالث حتى عهد السلطان مراد الرابع

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2270
- تاريخ پچوى إبراهيم أفندى: التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية (المجلد الثانى)
من عهد السلطان مراد الثالث حتى عهد السلطان مراد الرابع
- ناصر عبد الرحيم حسين
- اللغة: الفارسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

تاريخ پچوى

جلد ثانى

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى و العسكرى للدولة العثمانية

المجلد الثانى

من عهد السلطان مراد الثالث
حتى عهد السلطان مراد الرابع

ترجمة وتقديم

ناصر عبد الرحيم حسين



2015

تاريخ بجوى إبراهيم أفندى: التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية/ ترجمة وتقديم: ناصر عبد الرحيم حسين. ـ القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥.

مج٢؛ ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)

المحتويات: من عهد السلطان مراد الثالث حتى عهد السلطان مراد الرابع

تدمك ٥ ٠١٨٢ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الإمبراطورية العثمانية.

٢ ـ الإمبراطورية العثمانية ـ الأحوال السياسية.

أ ـ حسين، ناصر عبد الرحيم (مترجم ومقدم)

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٤/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 92 - 0182 - 5

ديوى ٩٥٣,٠٩

المحتويات

الدولـة العثمانيـة
خلال فترة حكم السلطان مراد الثالث
٩٨٢ ـ ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م

الدولـة العثمانيـة
خلال فترة حكم السلطان «محمد الثالث»
١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ = ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣م

الدولـة العثمانيـة
خلال فترة حكم السلطان «أحمد الأول»
١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ = ١٦٠٣ـ١٦١٧م

الدولـة العثمانيـة
خلال فترة حكم السلطان مصطفى الأول وعثمان الثاني
وتولية مصطفى الأول العرش مرة ثانية
١٠٢٦ - ١٠٣٢هـ = ١٦١٧ - ١٦٢٣م

الدولـة العثمانيـة
خلال فترة حكم السلطان «مراد الرابع»
١٠٣٢ - ١٠٤٩ هـ= ١٦٢٣ - ١٦٤٠م

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان مراد الثالث

٩٨٢ ـ ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م

في ذكر سلطنة السلطان مراد خان بن السلطان سليم خان المغفور له

كان قد ولد سعادته في اليوم الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، وفي يوم الأربعاء الموافق الثامن من رمضان المبارك سنة ٩٨٢ هجرية[١]، تسنم العرش المأنوس بالسعادة، وفي أثناء الحرب التي نشبت في صحراء «قونية» بين والده عالي المكانة وأخيه الأصغر المرحوم «سلطان بايزيد»، كان قد بلغ من العمر اثني عشر عامًا؛ حيث حضر تلك المعركة التي أدمت القلوب، وشاهد تلك الحرب المنغصة للروح من برج قلعة «قونية»، وبعد ذلك، عندما أراده جده عالي النسب حضرة السلطان سليمان خان مشاهدة جماله وكماله، أمر بإحضاره إلى مدينة القسطنطينية المحمية، وبذلك نال مناه بمشاهدة وجهه المبارك وبالتمتع بحديثه العذب عدة أيام.

وبعد فترة أعاده إلى أبيه عالي المقام وبصحبته أموال كثيرة لا تحصيها الأرقام ولا الأوهام وبعض التحف اللائقة والهدايا الفائقة، ولما بلغ أشده ببلوغ عمره المبارك ثماني عشرة سنة، أحسن عليه بسنجق «مغنيسيا»، وهكذا افترق عن والده عالي الشأن في «كوتاهيه»؛ وقصد لواءه المحفوف بالسعادة.

ـ أوصافه المباركة:

كان قصيرًا جدًا، وكان جسده أبيض، وعيناه عسليتين، وكانت حواجبه كلفاء تزيده جمالًا، وكان متوسطا في اللحم والشحم، أما طبعه فكان فطنًا جدًا وذا دراية بالأمور، وكان مُطّلِعا وواقفا على روح الكلام ومعانيه المجازية.

ولما كان يميل إلى جانب التصوف في أبياته وأشعاره وأوضاعه وأطواره وكان كل كلامه الشبيه بالدر يدور حول إثبات «وحدة الوجود»، ولما كانت سليقته اللطيفة سابحة وسائلة في البحر اللامتناهي، كانت غزلياته التي أرسلها لمسايرة شعراء عصره تدور في

---

(١) الموافق سنة ١٥٧٤م.

ذلك الوادي، وكان شعراء عصره أيضًا يتحدثون عن لطف طبعه الهمايوني، وفي أكثر الأيام كان عازفو العود ذوو الألحان الجميلة والأنغام العذبة والحديث العذب والرقيق، وأرباب القصص البهيجة، وأرباب اللعب والطرب وأصحاب اللهو والشغب الذين كانوا في الممالك المحروسة، وربما العرب والعجم يجتمعون داخل مجلسه الهمايوني على طريق المناوبة، ويقوم كل واحد من هؤلاء بإظهار قدرته ومهارته ولطفه وشطارته؛ حيث يسعد بإحسان السلطان عليه بحفنة من الذهب، ثم يمضي لحال سبيله، ولنورد هنا طرفة من طرائف أحد الظرفاء.

لطيفـة

بعد أن يبدى أحد المهرجين شطارته ومهارته، عند قيام السلطان حسن الاسم بالإنعام عليه، يقول: «لا يا سلطاني، إنني اليوم لا أريد ذهبًا وإنما أريد مائة عصاة»، وعندما يسأل السلطان عن سبب ذلك، يقول المهرج: «اضربني خمسين عصاة منهن الآن، وبعد ذلك اسألني»، فيأمر السلطان قائلًا: «فليُضرب»، فلما ضُرب الخمسين عصاة، يقول: «قف، يوجد لدي شريك، فلتعط له الخمسين الأخرى»، وعندما سُئل عن شريكه، قال: «بينما آخذ الإنعام وأذهب، كان «بوستانجى» الذي يأتي ليدعوني كل يوم، كان يأخذ الإنعام من يدي قائلا: «إنني أحضرتك، إذن نصفها لي»؛ فاليوم يجب أن يكون نصف ضربات العصا أيضًا نصيبه، وعلى هذا، فبعد أن نال السلطان حامي العالم حظه من هذه اللطيفة، وبعد أن قام بزيادة إحسان المهرج إلى الضعف وضرب «بوستانجى» الخمسين عصاة الأخرى، تفضل بالتنبيه على المهرجين بعدم القيام بتكرار مثل هذا الوضع فيما بعد.

وكل يوم كان يمر على هذا النسق، وبعد أداء صلاة العصر، كان السلطان ينهض ويذهب مختالًا إلى داره المحفوف بالسعادة، وكان يحمد الله تعالى كثيرًا ويشكره حتى كان يقول: «هكذا مضى يومنا هذا أيضًا»، وكان مغرمًا بالنساء بدرجة عالية حتى كان عدد النساء اللاتي أخذهن إلى فراشه في الحرم المحترم أحيانًا يبلغن أقل من أربعين وأحيانا

أكثر من هذا العدد، وقبل ذلك بعدة سنين كان يقضي عمره المبارك مع «صفية سلطان» والدة السلطان «محمد خان»؛ على أن ذلك كان مخالفًا لرضا والدته حضرة «نوربانو سلطان»، ولهذا كانت تغريه باستمرار ببعض الجواري الحسان، فإنه كان يعزف عنهن، وفي ذات يوم، وبينما كان يتنزه في أحد البساتين مع أخته «أسمى خان سلطان» التي كانت حليلة الصدر الأعظم «محمد باشا الطويل»، قامت بإحضار فتاتين جميلتين لا مثيل لهما؛ أي فتاتين بكر حسان إلى مجلسه الهمايوني؛ وجعلتهما يعزفان على العود لبعض الوقت، وعندما لاحظت رغبة السلطان صاحب السعادة فيهما وميله الشديد لهما، جادت بهما وأرسلتهما إلى السراي العامرة، ولما أراد السلطان صاحب السعادة أن يقضي المرام بوصالها وهو في غاية الرغبة، لم يكن سهم المراد مناسبًا لذلك، ولم يبلغ سهم المقصود الهدف، فبينما كان يركض سريعًا في مكان آخر، شعر بالضعف والخمول في هذه المرة وأن هذا ليس بحكم السن، وإنما الأمر هو مكر وخديعة من أحد الماكرين.

ولما علمت «والدة سلطان» بتلك الأحوال، دفعت بعض الجواري التابعين لـ «خاصكي سلطان»[1] إلى طائفة «طواشي»[2] لتعذيبهن، وأمرت أيضًا بإحضار النساء اللائي كن تحت نكاح بعض الأشخاص، وأخيرا عرفت وأحضرت من قام بتلك المكيدة، وحُلت عقدة المراد على مقتضى الفؤاد واستقام حاله، وبعد ذلك، رغب كثيرًا

---

(١) خاصكي سلطان: تعبير يستخدم بخصوص من يحظون بحفاوة السلاطين من الجواري، ويحق من يلد الأطفال منهم، وقد أهمل هذا التعبير فيما بعد؛ وكان يطلق على المتزوجات منهن «امرأة»، ويطلق على أقدم امرأة «رئيسة النساء»؛ وبسبب تعدد النساء، كان يقال: «المرأة الأولى»، «المرأة الثانية»، «المرأة الثالثة»، «المرأة الرابعة».

- Mehmet Zeki Pakalın: Osmanlı tarih deyimleri ve terimleri sözlüğü, C. 1, İstanbul 1993, S. 754.

(٢) طواشي: هو تعبير يستخدم بدلًا من «خادم»، والطواشية تعني: خصي الرجل وحرمانه من التناسل، والطواشية موجودة منذ القدم، فهي كانت عادة شائعة عند الأشوريين والبابليين والمصريين، وانتقلت من هؤلاء إلى اليونانين، ثم انتقلت منهم إلى أهالي الروم والفرنجة، وعلى الرغم من أنهم خدم ، فإن التواريخ سجلت أسماء بعض الرجال الذين نالوا الشهرة والبطولة منهم وشغلوا المناصب المهمة عبر العصور المختلفة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 422 – 423.

في الجواري والخليلات بالقدر الذي صارت فيه الجارية التي ثمنها مائتا ذهبية تباع بثلاثة أو أربعة آلاف ذهبية، ولكن في النهاية أورثته كثرة الجماع مرض المثانة؛ وصار ذلك باعثًا على فناء جسده المبارك.

- في ذكر أولاده وبناته:

إن عدد الذكور والإناث الذين أنجبهم يزيدون عن الحد والقياس، وعند وفاته لحق أبناؤه الأمراء التسعة عشر بزمرة الشهداء بموجب القانون العثماني المنحوس، وعند وفاته أيضًا كان لديه من الإناث ست وعشرون بنتا عفيفة، وذلك خلاف «عائشة سلطان» التي زوجها لـ «إبراهيم باشا»، و«فاطمة سلطان» التي تم تزويجها لـ «خليل باشا»، وقد بقي من جملة هؤلاء أربعة أو خمسة فقط؛ حيث زوج السلطان واحدة منهن لـ «نقاش باشا»، وواحدة أخرى لـ «داود باشا»، وأخرى لـ «قبوجي باشي طوبال محمد أغا».

في ذكر بعض الوقائع المتعلقة بالصدر الأعظم التي وقعت بعد جلوس السلطان على العرش

عندما قام الصدر الأعظم «محمد باشا الطويل» بإقصاء الشخصين المقربين المعروفين باسم «عمر أغا» و«فرهاد أغا»، وهما من أغوات حضرة المرحوم والمغفور له سلطان سليم خان عن خدمة الدولة ببعض الحجج؛ وربما بإبعادهما عن الدنيا الفانية، وعندما لم يستفد بعض الأغوات من جلوس السلطان مراد على العرش حسب الطريقة المتبعة، وربما تم إذلالهم وتحقيرهم وإنزالهم من مناصبهم التي كانت رتبتهم؛ صار المقربون من السلطان سامي المكانة غير آمنين على أنفسهم، وكان هؤلاء، بينما كان السلطان مراد لا يزال في السنجق الهمايوني، لا يترددون في قول ما يقدح ويذم في الصدر الأعظم كقولهم: «إننا لا نريد الجلوس الهمايوني للسلطان صاحب السعادة طالما محمد باشا على قيد الحياة»، وكانوا يظهرون الانكسار قائلين فيما بينهم: «من المؤكد أنه سيرانا كثيرًا في البلاط السلطاني، ومن ثم فإنه سيُطرد كل واحد من هناك بحجة ما».

ومن جملة هؤلاء: «أويس باشا» الذي نال ذات يوم شرف صحبة حضرة ولي العهد صاحب السعادة أثناء الصيد وذلك حينما كان قاضي «تيره»، ومع أنه كان تركيًا عصبيًا، فإنه لما كان خبيرًا بآداب الملوك، فإنه يدخل إلى قلب جناب الأمير أي ولي العهد، واتفق أنه توفي دفتر داره في تلك الأثناء، فعرض الأمر على أبيه صاحب العظمة؛ وطلب منه الإحسان بمنصب الدفتر دارية عليه، ولما كان المشار إليه ليس مطمئنا أكثر من أولئك، فبينما كان السلطان متوجهًا مع سائر مقربيه للجلوس الهمايوني، وفي أثناء الطريق، يأخذ التعهدات الهمايونية بألا يحل به سوء بتحريض «محمد باشا»، ولما أدرك «محمد باشا» أنه ضده، حرض السلطان قائلا: «كان شمس باشا مصاحبًا لأبيكم وجدكم عالي المقام، وهو شيخ وقور وخبير بأحوال العالم وصاحب دراية بالأمور وخادم مستحق للمكافأة وبالخاصة أستاذ في مهنة «طوغانجى»؛ أي مربي طيور الصيد، وهو لائق بالصحبة كلما يتفضل السلطان بالتوجه للصيد والقنص»، وعلى هذا أمر السلطان بإحضاره أيضًا أثناء جلوسه على العرش.

ولما كان أيضًا خاطر «قاضي زاده» الذي كان قاضي عسكر «روم إيلي» يشوبه الحزن من الوزير المومأ إليه، كان كلامه لا يخلو من تأليب السلطان عليه إذ كان يقول للسلطان صاحب السعادة باستمرار وباتفاق مع الآخرين: «لا تعتمد على الوزير، فالذين رقّاهم، إما من مقربيه أو ممن أخذ الرشوة منهم، فمن المؤكد لديه غرض فاسد».

ومن أجل هذا طلب السلطان عروض حال الرعية في فترة ما، حتى إن «شمس باشا» كان قد نظم كلامًا مرتجلًا في هذا المضمون: «سلطاننا يجيد صيد الرقاع»، فكلما همَّ بالركوب أو كلما خرج إلى الجامع الشريف، كانت تقدم له ألف وربما ألفا عرض حال، ولم يكن من الممكن قراءتها أو الإجابة عليها، بل لم يكن ممكنا إيجاد أصحابها، وفي النهاية يتفضل بالقول في نفسه: «لو كان هذا ممكنًا، لفعله أحد أجدادنا ولسار الأمر في هذا الطريق»، وقام بحصر الإنعام والإحسان في خط همايوني، واستمر الأمر على

هذا النحو حتى أصبحت أوامر الأحكام دون الاعتبار، وبدأ قضاة النواحي بالقول لأصحاب المصالح: «فلتحضر الخط الشريف!»، وحتى هذا الوقت كان الناس لا يعرفون على الإطلاق: ما الخط الهمايوني، وكان لا يخطر أيضًا بخاطر الرعية.

وفي هذه الأثناء، اتفق أن عرض الصدر الأعظم بعض مخالفات دفتر دار «أويس چلبي» بتحريض من الـ «لالا»، حيث استصدر فرمانًا بتفتيشه، وبدأ في تنفيذ الأمر؛ وما إن ظهرت بعض المخالفات للمواد القانونية حتى ورد الخط الشريف بعزله، وبعد عدة أيام أحسن السلطان عليه بمنصب «دفتر دار ثان»، وقبل مرور شهرين، عزل «لالا زاده أفندي»؛ ووجه إلى «أويس چلبي» منصب «باش دفتر دار ثان»، وفي هذه المرة كانت ترد تذاكر رئيس الدفتر دارية باش دفتر دار إلى الركاب الهمايوني دون انقطاع، وأصبحت بعض المناصب توجه بتلخيصه، كما كانت تعطي أيضًا بتقرير «قاضي زاده» مناصب أمراء الأمراء وأمراء السناجق والقضاة الذين في درجة غير رفيعة، وصفوة القول، فبينما كان الباب المختص بالتعيينات واحدًا، أصبح هذا الباب يفتح من عدة أماكن.

ومع أن المرحوم الوزير مصطفى باشا والي «بدون» الذي كان صاحب صولة وفائق الأقران في السخاء والكرم كان ابن عم الوزير الأعظم، فإنه أرسل «مير آخور كبير»[1] «فرهاد أغا» إلى «بدون»، وكلف بقتله بحجة نزول صاعقة بقصور ومصنع بارود «بدون»، ولم يكتف بهذا أيضًا، بل قام بصلب كتخدا «نشانجي فريدون بك» الذي كان بمثابة عينه التي يرى بها ويده التي يبطش بها، ونفاه عن البلد، وقام بضم مقاطعات زعامت[2] كتخدا «خسرو باشا» و«سنان أغا» وكانت زعامت كل واحد

(١) مير آخور: هو لقب كان يلقب به الموظف الذي يرعى شئون الخيل في السراي. وكان «المير آخور» ينقسم إلى قسمين «مير آخور كبير»، و«ميرآخور صغير» وكان يقال على هؤلاء «مير آخور أول» و«مير آخور ثان».

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 541.

(٢) زعامت: هو تعبير كان يطلق على ما يعطي لموظفي الدولة والسراي والمحاربين من الأراضي التي تعد أراضي أميرية في عهد محمد الفاتح ... ففي عهد فتوحات الدولة العثمانية، انقسمت الأراضي إلى قسمين

منها يقدر خراجها بمائتي ألف أقچة، ضمها للخواص الهمايونية قائلًا: «يبلغ دخلها أربعين أو خمسين حمل أقچة»؛ واستصدر أمرًا بإبعادهم عن الخدمة. وخلاف هؤلاء، وبهذه الطريقة أخذ مقاطعات زعامت لأربعة وعشرين من مقربي السلطان وضمها إلى الخواص الهمايونية، وأمر أن يعطوا بدلًا منها مقاطعات خاص تيمار وزعامت التي بلا دخل، وكان الدفتر دار «أويس چلبي» لا يسأم دائمًا من الكتابة والإيماء إذ يقول: «فليز هو [أي الصدر الأعظم] هل يكون شيئًا جميلًا عندما تصبح الإهانة التي لحقت بمقربي السلطان، لأتباعه»، ومهما يكن من أمر، فقد كانت الإهانة تقع بالمرحوم الصدر الأعظم على هذا المستوى؛ فإنه كان لا يتغير قط، وكان دائمًا يتصرف كما يريد السلطان، وكانت أوضاعه وأطواره تكذب افتراءات واتهامات أعدائه التي لا أساس لها؛ وكان أيضًا صاحب عظمة وكلامه مرتبًا جدًا، وكلما قابل السلطان صاحب السعادة، كان يظهر من الأوضاع الهمايونية الندم على الجفاء الذي لحق بالصدر الأعظم.

في ذكر شفقة المرحوم «أويس باشا» ورحمته

عندما قُتل المرحوم «مصطفى باشا»، عهد بإيالة «بدون» إلى «أويس باشا» المشار إليه والذي كان «باش دفتر دار» وأنا هذا الحقير المملوء بالتقصير كنت حينئذ صغيرًا جدًا، ولكن ما حدث في ذاكرتي كأنه طيف خيال، إذ تصادف أن مات حينئذ شقيقان لي في آن واحد بأمر واهب الحياة وخالق الموت، وهكذا فقد أصبح الإقطاع المعروف باسم «زعامت» والذي يملكه أحدهما والإقطاع المعروف باسم «تيمار» الذي يملكه الآخر والذي يقدر دخله بنحو ستة عشر ألف أقچة ميراثًا شاغرًا، ويذهب المرحوم والدي إلى «أويس باشا»، ويتوسل إليه من أجل هاتين المقاطعتين الزعامة والتيمار، ويعطي له عطية

«تيمار» و«خاص»، وانقسمت التيمارات بعد ذلك إلى قسمين، فما بلغت إيرادته أو دخله ٢٠ ألف أقچة كان يقال عليه «تيمار»، والذي بلغت إيرادته أكثر من عشرين ألف وحتى المائة ألف يمسى «زعامت»، أما الأراضي التي بلغ دخلها أكثر من مائة ألف أقچة كانت تسمى «خاص». وألغيت الزعامة كالتيمار عام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 679.

تقدر بثلاثة آلاف وخمسمائة غروش؛ فيلبي «أويس باشا» له رغبته أيضًا، وقد سمعت من لسان المرحوم والدي: أنه في تلك الليلة وبعد العشاء، قام رئيس فرقة البوابين بتحميل الأكياس نفسها، التي أعطيتها، على بعض الأشخاص البسطاء وأتى بها، وقال: أرسلها إليك الباشا صاحب السعادة مرة أخرى، وبسبب أن عطيتنا لم تقبل، ظننت أن مقاطعتي التيمار والزعامة قد أعطيتا لشخص آخر؛ ولذا لم تذق عيني طعم النوم حتى الصباح، وفي الصباح الباكر، وصلتُ إلى مجلس صاحب السعادة ومرغت وجهي بتراب قدمه وتوسلت إليه، وقلت: «لا تطفئ موقدي ولا تكويني بنار العزل»، فتفضل بالرد عليَّ بقوله: «ماذا حدث؟ لقد أعطيناك الزعامة والتيمار يا .....». فقلت: «يبدو يا سلطاني أنه لما رددت هديتنا، ظننت أنها أي المقاطعتين أعطيتا إلى شخص آخر». فقال المرحوم «أويس باشا»: «لا والله، لم نتراجع عن عطائنا، وأن تكون العاقبة أن يرحل ولداك البطلين، وأقوم أنا بأخذ هذا القدر من المال، فهذا القدر من عدم المروءة لا يفعله حتى الكافر، فأنصفتك وأرسلت لك نقودك»، نسأل الله أن ينصفه، فهل هناك من يفعل هذا الإحسان في هذا العصر؟ فيتغمده الحق تعالى برحمته، وليعوضه بالجنة.

قيام شمس باشا بجعل السلطان المغفـور له يأخذ الرشوة لأول مرة

إن قول «شمس باشا»: «لقد جعلت السلطان يأخذ الرشوة، وبهذا فإنني أخذت ثأر «قزل أحمد لو» من الدولة»، هو كلام مشهور على لسان الرعية، وإذا قيل: لم يكن هناك شخص لم يسمع هذا الكلام منذ ذلك العصر، فإن ذلك لا يعدو الحقيقة، وقد كتب المرحوم «عالي أفندي» في تاريخه ما يلي:

لقد كنت ذات يوم في الخلوة الخاصة بـ «شمس باشا»، فلما افترق عن السلطان صاحب السعادة، أتى بكمال البهجة والسرور وقال لكتخداه «قوجى كتخدا»: «لقد أخذت اليوم ثأر «قزل أحمد لو» من آل عثمان، فكما سكبوا الماء في موقدنا، قمت أنا أيضًا بإعداد المقدمة التي ستطفئ موقدهم»، فانقبض كتخداه «قوجى كتخدا»، وقال:

«كيف؟». فقال «شمس باشا»: «جعلتهم يتذوقون الرشوة، حتى وإن كانت اللقمة كبيرة نسبيًا إذ تبلغ أربعين ألف ذهبية فإنني جعلته يبلعها، وبعد ذلك لن ينتهوا عن أخذ الرشوة ولن تجد دولتهم الاستقرار مع الرشوة»، وأظهر «شمس باشا» غاية الفرح والسرور، وقد ورد بخاطري [خاطر عالي أفندي] وقلت بطريق المداعبة ما يلي: «لقد بدأت الرشوة أول مرة في الدولة الإسلامية بخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه الذي تفخرون بأن تكونوا من نسله؛ حيث قام بإعطاء البواب قطعتين ذهبيتين من أجل الدخول لحضرة الخليفة قبل خصمه، وذلك في خلافة حضرة عثمان رضي الله تعالى عنه»، وإن الرشوة التي أعطيت وأخذت ثابتة بكلام الأكابر ومصرح بها في بعض التواريخ. فقلت: [أنا عالي أفندي]: «أنتم أيضًا سلكتم طريق جدكم وامتثلتم لسنته السيئة»، فانفعل «شمس باشا» كثيرًا، ووقف قليلًا وهز رأسه وقال: «أنت تفهم كثيرًا جدًا يا «عالي»».

تفصيل أحوال شمس باشا

إذا فصلنا القول عن بعض أحوال «شمس باشا» وأوضاعه الذي عاصر ثلاثة سلاطين مرموقي المكانة، وكان قد بلغ شرف صحبتهم في أكثر رحلاتهم إلى الصيد والقنص، مما أكسبه قدرًا من الشهرة الزائفة، فإنني آمل أن يكون أكثرنا معذورا.

كانت أوضاع المذكور وأطواره تتسم باللامبالاة. فطبيعته؛ مضحكة، ومذهبه؛ ادعاؤه المعرفة أمام الخلان وكان سالكًا للمحاورة الأدبية، وممسكًا جدًا، وكان رجلًا كثيرًا ما يقصد في كلامه إلى الإبهام، وكان لا يوجد لديه أي تقيد بالشرف والآداب قط، وكانت سليقته الشعرية ليست لائقة بالثناء وأيضًا ليست منفرة بشكل تام، وقام بنظم (وقاية)[1]، وجعل المرحوم «أبو السعود» عليه رحمة الودود يوقع عليها، وكانت تحتوي

(١) هي الشروح التي قام بها صدر الشريعة لـ «هداية» كتاب الفقه المشهور. وترجمها «شمس باشا» إلى اللغة التركية.

على حوالي خمسمائة بيت، وقد رأيتُ [أنا بجوى] النسخة التي كانت بخط يده نفسها وهى موجودة الآن في يد هذا الحقير[1]، وكانت في يد دلال في إستانبول؛ فأردت شرف إمضاء المرحوم «أبو السعود أفندي» المبارك، فاشتريتها بأربعين أقچة، ويتضح قدرها من قيمتها، ولما أدرج في هذه الأبيات تفصيل أحواله وبيان أن سلسلة نسبه تنتهي إلى حضرة خالد بن الوليد [رضي الله عنه]، فقد قمت بنقل هذه الأبيات التي توضح ذلك من هذه النسخة في هذا الموضع بعينها. (وهي هذه):

لا يعدُ شيء إن كان شمس في الدنيا فريد	فإن جدي الأعلى خالد بن الوليد
فقد كان بطلًا لا نظير له أبدًا	وكأنه في ميدان الوغى ثعبان
فهو لفتح الكعبة بادى	ودائمًا للعسكر هادى
وكلما رأى رسول الله خالدًا	قال: هذا سيف الله
إذا مدّ «شمس» السيف للشخص في المعركة	يسلم الروح فتنطلق من صدره
كان قد أصبح «نور الدين بن خالد» شهيدًا	وكان قد صار في الدنيا فريدًا
وكان شمس الدين ابن نور الدين	هكذا كتب في الكتب أهل اليقين
وكان يعقوب بن ذلك القائد	محبوبًا جميلًا في شكل «يوسف»
وبعد ذلك أصبح ابن يعقوب «على»	ومنه صار «بايزيد ولى»
وابنه المحبوب «إسفنديار»	الذي استقر في «قسطموني»
وإبراهيم ابن إسفنديار	وهبه الكريم أيضًا ابنًا
وكان اسمه «قزل أحمد لو»	ونال مرامه من تلك الدنيا
ووالدي هو ابن أحمد	وفضلى خلاف هؤلاء
فاسمه الطاهر محمد ميرزا	فليدخل سيد الشهداء دار الخلد

(١) المقصود «بجوي إبراهيم أفندي».

فاتصل الوالد بالتسلسل بـ «خالد»   والأم منتسبة لآل عثمان
فنحن خدم آل عثمان   حتى انقراض الدهر
كنا ابنين كريمين   مرفوعين المهمة بين الناس
اسمي هو أحمد، ولكن   لو قيل «شمس باشا» فلا شيء
واسم الأخ مصطفى   وهكذا أتينا للوجود وقضينا الأيام
ويبدو أن أحدنا لم ير الآخر   وعندما كنت أميرا كنا أحياء
وفي لحظة جلوس «محمد خان»   من آل عثمان على العرش
كان جدنا خادمًا لذلك السلطان   فوصل إلى ذلك البلاط وخدم فيه
وصار خادمه من الروح والقلب   وأخذنا معه حتى حل بإستانبول
ولما وصلت الدولة إلى السلطان سليمان   اجتهدت كثيرًا في خدمته
وإنني الفقير والحقير والمسكين   بينما كنت شريدًا في الدنيا

كانت الهمة من السلطان سليمان   وفجأة حلت العزة على رأسي
وأرسل الخطابات بالشفاعة   وعرضني بالاستقامة
وأبرم السلطان سليمان   وأعطى للفقير الشام
وخدمت فيها عدة سنين   حتى صارت العظمة والعزة صديقا لي
وبدلوا منصبي إلى الروم   وفيها أكملت شرفي
وفيها كانت عناية السلطان   فأحسن عليَّ بالأناضول
ووجدت منزلتي في صدر العزة   فصرت أمير أمراء الـ «روم إيلي»
وعُزلت كثيرًا ومرضت وسقمت   وبجوابي هذا كان التيمار
وكنت أرضى بالقضاء الحق   وحاربت وغزوت كثيرًا
وفي لحظة كنت سردارًا للعسكر   وفتحت معه «سكتوار»

وبينما كانت حياة السلطان تمضي هكذا ... فجأة عزم على روضة الجنان
يا إلهي أَنِر مقامه ... وابعث برحمتك السرور في روحه
وأتى سلطان العالم وجلس على العرش ... وأسعد القلوب الحزينة
ورأوا الخادم الذي صار شيخًا ... وذبل ورد عمره مع الخريف
فأحسن علينا بالتقاعد ... وأتى مكان الشيخ شاب يافع
فلندع للسلطان سليم خان ... فالمدح والثناء فرض للسلطان

ولكن المرحوم «أبو السعود أفندي» - فليتغمده حضرة الحق سبحانه وتعالى برحمته - مع أنه تفضل بالتوقيع على منظومة الباشا مع التوصيف والتعريف به أي بـ «شمس باشا» في إمضائه الشريف بقوله: «معيد ماهر وشاعر مجيد قد ملك الممالك العرفانية بحكم الفضل والمهارة، كما ملك الممالك السلطانية بحكم الإمارة والوزارة»، فإنه إذ قيل: إنه أشاع جهله بطريقة لطيفة وظريفة، وربما قام بنشر المعنى، فإن ذلك لا يعدو الحقيقة، وكان «شمس باشا» قد بدأ مطلع منظومته بذلك المطلع:

غاية الحق تكون ببسم الله ... فهداية الله علينا وفيرة

وواضح في تلك النسخة المذكورة أن حضرة المنلا[1] «أبو السعود أفندي» أيضًا يمحو المصرع الثاني ويكتب بدلًا منه بقلمه المبارك هذا المصرع:

(١) منلا أو ملا: هو لقب يطلق على العلماء الذين أحرزوا درجة المولوية. وكانت تكتب في صورة «منلا» أو«ملا»، وكان يستخدم لقب «منلا» بحق من يشغلون الوظائف العلمية والاجتماعية العليا. وكان يقال على الطبقة الأولى من القضاة «منلا». وكان المدرسون لا ينادون على طلبة المدرسة بأسمائهم ولكن كانوا يخاطبونهم بالقول: «منلا».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 549.

* وبحمد الله يجد الكلام الرونق* وخلاف هذا، فغالبًا ما يكون قد محا بعض الألفاظ في ثلاثين أو أربعين موضعًا في النسخة نفسها، وقام بتصحيح إملاءاته في بعض الأماكن، وبعد الإمضاء، حرر تذكرة وأرسلها إليه وصورتها على النحو التالي:

كان أغلب الظن أن شمس باشا حينما نظم:

غاية الحق تكون بيسم الله   وبحمد الله يجد الكلام الرونق
فهداية الله علينا وفيرة   وليس هناك نهاية للطفه وإرشاده

كان قد راعى أحباؤك الصنعة وكتب مصراعا واحدا لكل بيت على أسلوب «المهلهل» الذي أرسله إلى أخته، ومن ثم أرسلت هذه النسخة إلينا لامتحاننا، ولم تكن هناك قدرة ولا طاقة لإدراك مثل هذه الرموز الخفية؛ بسبب تزاحم الأشغال وتراكم الأحوال، فينبغي عليك أن تبذل الهمة لصيانتنا من تكليف ما لا يطاق.

كتبه الحقير أبو السعود عفي عنه

ولما ذكر المهلهل بحسب اقتضاء المكان، فما هو الوهم الذي اعترى حضرة المنلا؟ ومع أنه ليست هناك ضرورة لإيضاح هذا المعنى؛ بسبب شهرته الذائعة، فإنه كان من الضروري ذكره في هذا الموضع، وخلاصة الكلام على النحو التالي:

يقع شاعر فاضل من فصحاء العرب يعرف باسم «المهلهل» أسيرًا في قبضة العدو، فلما قرر قتله، يُوصي عدوه بأن يأمر بتوصيل ذلك المصرع إلى أخته:

* يـا بنـات الحـي إن أباكمـا *

ولما كانت أخته على كمال من الفراسة والذكاء، تأمر بأخذ ذلك الرجل إلى الحاكم في ذلك الوقت مدعية بأنه يلزم أن يكون الشطر الثاني لهذا المصراع بحسب مقتضى سياق الكلام هو:

* قتيـل قاتـلاه قـد أتاكمـا *

وبعد تقصي الأمر وتتبعه، اتضح أن المرأة أصابت في فراستها وأن هذا الرجل قام بقتل المهلهل.

الوزراء العظام الذين كانوا في عهده الهمايوني

ـ الوزير الأعظم الجليل محمد باشا الطويل:

كان وزيرًا أعظم منذ عهد سليمان خان، وقد مرت ترجمة سيرته بالتفصيل في زمرة الوزراء العظام الذين خدموا في عهد سليمان خان.

ـ الوزير الأعظم أحمد باشا:

وقد سبق أيضًا ذكر مجمل أحواله، فقد صار وزيرًا أعظم بدلًا من المرحوم «محمد باشا»، وكان يتصرف على كمال العدالة والإنصاف، ولم يرغب في الرشوة أو يميل إليها قط، وكان على علم من أن أجله المقدر قريب وأنه ليس له نصيب من دولته الفانية؛ فلم يسر على الدرب الذي سار عليه أسلافه من الرشوة، وبعد أن تولى منصب الصدارة لمدة أربعة أشهر، انتقل إلى جوار الحق؛ بسبب مرض المثانة.

ـ الوزير الأعظم قوجه سنان باشا:

كان وزيرًا كبيرًا، أرناءوطي الأصل، وصاحب مال كثير، وهو الأخ الأصغر لـ «إياس باشا» الذي كان قد قتل بتهمة أنه لم يتعقب الأمير السلطان «بايزيد» في حربه مع الأمير السلطان «سليم» حينما كان أمير أمراء «أرضروم»، وأمده بالنعال والمسامير التي احتاجها؛ وهو الأخ الأكبر لـ «محمود باشا» أيضًا، وبعد أن وصل إلى المناصب المرموقة؛ مثل توليه مصر والشام ثم حلب، صار وزيرًا وأُرسل لفتح اليمن وعدن، وبعد ذلك، بينما كان قائدًا على حملة العجم، أصبح وزيرًا أعظم.

وعلى كل فقد صار وزيرًا أعظم خمس مرات، وصار سردارًا أي قائدًا للجند الذين شعارهم النصر خمس مرات أيضًا، فكان قائدًا على اليمن وتونس و«خلق الواد» في

عصر سليم خان؛ حيث حالفه التوفيق في فتح الممالك المذكورة وعاد مسرور الفؤاد، وبعد ذلك، لما أصبح سردارًا على حملة العجم، فعلى الرغم من كونه وزيرًا أعظم، فإنه خرج وعاد بلا فائدة؛ وعُزل من منصب الصدارة؛ بسبب أنه لم ينجح في المهمة، وصار وزيرًا أعظم مرة ثانية؛ حيث عُين سردارًا على حملة بلاد المجر، ففي السنة الأولى، قام بفتح قلاع «يسپرم» و«پولاطه»؛ وفي السنة الثانية، هزم طابور عسكر العدو الذي كان تجاه قلعة «يانق»، وقام بفتح قلاع «يانق» و«تاتا» و«پاپا» و«سمارتين»، وفي مرة أخرى عُين سردارًا على حملة الأفلاق العصاة؛ ولكنه عاد منهزمًا، وسيرد تفصيل كل واحدة من تلك الأحداث في موضعها إن شاء الله تعالى.

وكان قوجه سنان باشا مغرورًا وأنانيًا وهائجًا وثائرًا في كلامه، وبسبب كثرة ماله، كان الناس يقولون عنه: إنه تعلم علم الكيمياء[١].

- الوزير الأعظم سياوش باشا:

كان محبوبًا ومرغوبًا من قِبَل حضرة المرحوم والمغفور له السلطان سليم خان عليه الرحمة والغفران، وبعد أن تقلد رتبة «باش قبوجي باشى» أي رئيس رؤساء خدم الباب، ثم «مير آخور كبير»، صار أغًا لفرقة الإنكشارية، ثم أمير أمراء للروم إيلي، وبعد ذلك وصل إلى رتبة الوزارة؛ وأصبح وزيرًا أعظم ثلاث مرات، وتُوفي إلى رحمة الله بينما كان متقاعدًا، وكان صاحب دولة وهو خرواتي الأصل وأحواله معتدلة وغير مائل للرشوة وقائلًا لكلمة الحق.

- الوزير الأعظم عثمان باشا ابن أزدمور باشا:

وهو ابن المرحوم «أزدمور باشا»؛ وكان قد ذُكر من قبل في غزوات الوزير «سليمان باشا» أن المشار إليه من بقايا الجراكسة في مصر، وأنه دخل إلى سفينة الوزير «سليمان باشا» التي من نوع «باشترده» بحصانه بينما كان الوزير «سليمان باشا» متجها لفتح اليمن وعدن وميناء «ديو» و«دمن»، وكانت أمه سيدة عفيفة من نسل الخلفاء العباسيين.

(١) المقصود بذلك أنه تعلم العلم الذي يقوم به بتحويل المعادن العادية إلى ذهب.

وبينما كان الوزير المشار إليه في التاسعة عشر من عمره، وصل إلى رتبة (بلوك أغاسى)؛ أي أغا فرقة في مصر، وبعد ذلك أُلحق بأمراء «مصر»؛ ووصل إلى رتبة أمير الحج، وبعد ذلك كان قد بلغ عمره الخامسة والعشرين، فصار أمير أمراء لإيالة الحبش التي فتحها والده، ولما استولى «مطهر لنك» وبعض الأشرار الذين على المذهب الزيدي على ملك اليمن، نُصب «عثمان باشا» مرة أو مرتين واليًا على الإيالة المذكورة، وبعناية الله تعالى، قام بتخليص ملك اليمن من يد المذكورين، وبعد ذلك، صار أمير أمراء لـ «لحسا» عدة مرات، ثم أمير أمراء البصرة، ثم أصبح واليًا على «ديار بكر»، وفي النهاية بقي في «شيروان» برتبة وزير، وهناك وفق في فتح باب الأبواب المعروف باسم «تيمور قبو»، وبعد ذلك انتقل من «دشت قبچاق» إلى «كفه»، ومنها إلى القرم، وأوقع العقاب بالخان خان القرم الذي كان قد أعلن العصيان والطغيان، ثم عاد إلى الآستانة السعيدة، وبعد أن بقي في درجة «وزير ثان» أسبوعًا، صار وزيرًا أعظم، وقد تولى منصب الوزارة في «إستانبول» شهرًا أو شهرين فقط؛ ثم تحرك في أيام الشتاء وتوجه إلى «قسطموني»، وهناك قام بجمع العسكر؛ حيث وصل في ربيع الأول إلى «تبريز»، وقام بفتحها، وبنى بها قلعة، وعين الوزير «خادم جعفر باشا» أمير أمراء عليها. وفي هذه الأثناء انتقل إلى رحمة الرحمن، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الأعظم خادم مسيح باشا:

كان في أثناء جلوس سليم خان على العرش، يشغل رتبة «كيلارجي باشى»؛ أي رئيس موظفي بيت المئونة، وفي ذلك الحين شب حريق في بيت المئونة العامرة، ووجهت إليه إيالة مصر على إثر إحضاره وإعداده المهمات والمستلزمات، وأكثر الناس ـ أي أهل الديوان الهمايوني ـ من الحديث عنه ورأوا أنه غير مناسب للولاية، ولكن لما وصل المشار إليه إلى مصر، حكم خمس سنوات كاملة على أساس من العدل والإنصاف، حتى أنسى أهل مصر الولاة السابقين عليه، وبعد ذلك صار وزيرًا في الآستانة، ولما عُين عثمان باشا سردارًا، صار هو «قائم مقام» له، وعندما أتى خبر وفاة عثمان باشا، عُهد إليه بمنصب الوزارة العظمى، وحكم وتصرف في ذلك المنصب بكمال العدل والإنصاف؛ وكان

مستقلًا في حكمه ورأيه بالدرجة التي كان لا يقول فيها سوى كلمة واحدة أثناء الحكم، وكان أحيانا يقوم بمساعدة أرباب الحاجات وأحيانًا لا يقوم بذلك، وإذا أصروا على الجدال معه ثانية، كان يقول: «هيا انصرف، وإلا أمرت الآن بقتلك»، فكان لا يطيل في كلامه.

وأراد خادم مسيح باشا أن ينصب «كوچك حسن بك» بدلًا من رئيس الكتاب «حمزة چلبي»، فإنه لم توافق السلطنة على هذا، ولما قام بالعرض على الآستانة والتلخيص مرة أو مرتين، صدر الفرمان الشريف: «الواجب عليك هو التعامل مع ما قمنا بتنصيبه»، وعلى هذا طلب التقاعد قائلًا: «لا أريد أن أتعامل مع شخص لا يكون معينًا ومساعدًا لي بصدق، ولا أريد أن أكون من الوزراء الذين لم يكونوا قدر كلمتهم»، وقد ظل متقاعدًا حتى ترك العالم الفاني، وعُهد بمنصب الوزارة العظمى إلى «سياوش باشا» ثانية، وكان «خادم مسيح باشا» قد بنى جامعًا شريفًا في «إستانبول» وله أيضًا بعض أعماله الخيرة. رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير الأعظم فرهاد باشا:

كان أرناءوطي الأصل؛ ولكن كان رجلًا عظيمًا، عاقلًا، وصلبًا، وتقيًا، يخشى العيب والعار، وأصبح أغا لفرقة الإنكشارية بعد أن كان في رتبة «مير آخور» أي أمير الإسطبل، ثم صار أمير أمراء «الروم إيلي»، وبعد ذلك أصبح وزيرًا، وعُين سردارًا على العجم بعد «عثمان باشا»، ففي السنة الأولى، قام بتحصين قلعة «تبريز» بضم بعض الأبراج إليها؛ وقام بإكمال ذخيرة كل القلاع المفتوحة وسائر مهماتها، وفي السنة الثانية، قام بفتح إيالة «گنجه»، وعقد الصلح مع شاه العجم وأحضر ابن أخيه «حيدر ميرزا» كرهينة إلى الآستانة السعيدة، وأصبح وزيرًا أعظم بدلًا من «سنان باشا»، ثم عُزل بعد ذلك، ولما أصبح سنان باشا سردارًا على بلاد المجر صار هو «قائم مقام» لبلدة «له»، وفي ذلك الحين، ولما تم جلوس محمد خان على العرش، أصبح وزيرًا أعظم للمرة الثانية، وبينما كان سردارًا على حملة الأفلاق العصاة، جاء سنان باشا وعُين وزيرًا أعظم وسردارًا بدلًا

منه؛ وأُرسل رجل بالأمر الشريف لقتله؛ فإنه كان قد أتى إلى الآستانة السعيدة، وبعد أن اختفى فترة، حصل على إذن بالبقاء في حديقته، إلا أن سنان باشا بذل جهدًا جهيدًا لإفناء وجوده، وفي النهاية، قام «بوستانجى باشى» ذات يوم بنقله من حديقته إلى «يدى قله»؛ حيث قام بقتله، رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر الوزراء الكرام الذين لم يصلوا إلى مرتبة الوزارة العظمى

ـ الوزير الثاني لالا قره مصطفى باشا:

كان بوسنوي الأصل؛ وهو من العائلة المعروفة باسم «صقولو بك»؛ والأخ الأصغر للوزير «دلى خسرو باشا»، ولما كان معلمًا لولى العهد أثناء حرب الأمراء أي أبناء السلطان، فقد سبق تفصيل أحواله أثناء الحديث عن الوزراء الذين كانوا في عصر سليمان خان، وأصبح «سر تراش خاص»؛ أي رئيس الحلاقين الخاصين بالمرحوم السلطان سليمان، وبعد ذلك عُين سردارًا لفتح جزيرة «قبرص» في عصر سليم خان، وقام بفتح الجزيرة المذكورة بتمامها، ثم أصبح سردارًا على حملة العجم؛ حيث قام بفتح قلاع «شيروان» و«باب الأبواب» و«تفليس» و«قارص»، وعندما خرج عليه «توقاق خان» بعسكر جرارة في صحراء «چلدران»، مُني بالهزيمة بعد حرب ضروس، وكان صاحب دولة ومجاهدًا وغازيًا وشديد المراس، وصاحب وقار؛ وأعماله الخيرية وحسناته وفيرة، ومن جملة أعماله الخيرية ما يقع في «أرضروم»، وفي القصبة المعروفة باسم «إيلغون»، وفي الشام الشريفة، وفي القصبة المعروفة باسم «منظره» القريبة من الشام، وجوامعه الشريفة وعماراته اللطيفة من آثاره الخيرية.

ويروى أنه وصل ذات يوم إلى زيارة حضرة أبي أيوب الأنصاري، فاختار مكانًا؛ ليكون مدفنًا له، وفي الحال يبيع ويشترى مع مُتَوَلِّي هذا المكان، ويعطيه قيمته من المال؛ ثم يذهب إلى مزرعته وهو في غاية السعادة والسرور، وفي أثناء حديثه مع أبناء «فرهاد باشا» الذين كانوا غير أشقاء، يقول: «بقي من عمرنا سبعة عشر يومًا»، فيواسيه هؤلاء

قليلًا على سبيل إنكار ذلك الادعاء قائلين: «عجبًا! إنكم تتطيرون»؛ ويضيفون قائلين: «لقد كبر الباشا العظيم جدًا واختلط كلامه»، وعندما يحل اليوم السابع عشر، وبينما كان معافى وسليمًا في حديقته، يشعر بعلامات الموت في نفسه، فيذهب بسرعة إلى قصره، وما إن وصل إلى قصره حتى أسلم روحه؛ وكانت سنوات عمره قد تجاوزت السبعين، وتوفي في اليوم الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٩٨٨ هجرية[١]، رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير جعفر باشا:

كان سلحدارًا للسلطان سليمان المغفور له في حملة «سكتوار»، ولما كان خطه مشابهًا للخط الشريف للسلطان صاحب السعادة، فقد كان المشار إليه في فترة ضعف السلطان واضطرابه، وحتى بعد وفاته أيضًا، يكتب الخط الهمايوني المكتوب بالرأي الصائب للمرحوم الوزير الأعظم، ولما كان معينًا ومساعدًا للوزير الأعظم في كتم أسرار وفاة السلطان، فقد أصبح الوزير الأعظم سعيدًا جدًا من تصرفاته الموافقة لإرادته في ذلك الحين؛ ومن ثم زوَّجه ابنته، وبينما رُقِّي من رتبة «قبوجي باشي»؛ أي رئيس خدم الباب إلى رتبة أغا فرقة الإنكشارية، فإنه عُزل بسبب عدم اهتمام جند الإنكشارية في إخماد الحريق العظيم الذي شب في إستانبول في عصر سليم خان، وبعد ذلك صار أمير أمراء «الروم إيلي»، ثم أصبح وزيرًا، وكان رجل دولة غاية في الشدة وصاحب وقار، وانتقل إلى جوار الرحمة في تاريخ خمس وتسعين وتسعمائة هجرية[٢]، رحمة الله تعالى عليه.

- أمير الأمراء المقتول الوزير محمد باشا:

وهو أرمني الأصل، وعمل ضمن غلمان «بشين أوغلو قيا بك» الذي كان ماهرًا بدرجة فائقة في مهمة تربية طيور الصيد (طوغانجيلق)، ولما اكتسب هو أيضًا المهارة التامة في هذه المهنة، قام الأمير المذكور «بشين أوغلو» بضمه إلى الهدايا التي أهداها إلى

---

(١) الموافق ١٩/ ٨/ ١٥٧٩م.

(٢) الموافق ١٥٨٦ - ١٥٨٧م.

السلطان صاحب السعادة وأرسلها إليه، ولما كان ولي العهد الشاب المحظوظ مغرمًا بالصيد والقنص في السنجق الهمايوني، قام السلطان صاحب السعادة أيضًا بإرساله إليه، وكان قد اشتهر باسم «قره محمد» أثناء خدمته لولي العهد عالي المكانة، وبعد ذلك، لما تيسرت السلطنة لولي العهد، عُين «محمد باشا» رئيسًا لمربي طيور الصيد، ولما خرج إلى الخارج [أي خارج الحرم السلطاني]، أصبح على الترتيب «چاقرجى باشي»[1]، ثم أمير الإسطبل الكبير، ثم أصبح أغا لفرقة الإنكشارية، ومن ثم أصبح أمير أمراء للروم إيلي، ولما قام إبراهيم باشا الذي خطب ابنة السلطان والمكلف بالذهاب إلى مصر بالعرض على السلطان بأن يأخذ «محمد باشا» إلى جانبه بقوله: «إذا كان السلطان قد ربى المذكور وصار يصاحبه في الصيد والقنص، فإن مصاحبته لا تخلو من الاستمتاع باللطائف وذلك علاوة على مهارته في الصيد»، أُذن له باصطحابه، وفي الأمر نفسه، فقد كان رجلًا مزاحه ولطائفه تبعث على الضحك كثيرًا ولم يكن ثقيل الظل، فلما رآه السلطان صاحب السعادة بهذه الأوصاف، صار سعيدًا جدًا واتخذه صاحبًا له في كل الأوقات، ثم طالب بأن يدخل حجرة العرض قبل الوزراء قائلًا: «إن أمراء أمراء الروم إيلي في عصر أجدادكم عالين المكانة قد اعتادوا الدخول للعرض».

وفي ذلك الحين كان الوزير الأعظم عثمان باشا متوجهًا لفتح «تبريز»، فلما رأى حالة أمير الأمراء المومأ إليه في مجلس السلطان، وكّله بعرض أموره الضرورية، فأخذ أمير الأمراء المومأ إليه «محمد باشا» الإذن بالدخول للعرض بمفرده على الوجه المشروح.

(١) جاقرجي باشي: كان الجاقرجي واحدا من الموجودين في معية السلطان، وواحدًا من مقربيه الذين يذهبون للصيد معه سويًا. وكان هؤلاء يحملون طيور الصيد المعروفة باسم «جاقرجي»، ويستخدمونها في الصيد، ويقومون بتربيتها. وكانوا يطلقون على رئيسهم اسم «جاقرجي باشي»؛ أي رئيس حاملي طيور الصيد. وكان هؤلاء يصعدون إلى أوكار الصقور من نوع «جاقر» في الجبال، ويأخذون صغارها ويربونها كطيور صيد من أجل القصر الهمايوني. وكان يلقب أصحاب التيمار الذين يقومون بتربية طيور الصيد هذه، والفئة التي كانت لا تدفع ضرائب قط لقب «جاقرجي».

- Midhat Sertoğlu: Osmanlı Tarih Lûğatı, İkinci Bask İstanbul 1986, S. 69.

وخلاف هذا، فعلى إثر زواجه بواحدة من زمرة «خاص أوضه لقلري» ازداد تقربه للسلطان من عدة وجوه، ولكن المذكور «محمد باشا» لم يقنع بهذه المرتبة، فصار يتدخل في جميع الأمور، وكان يظهر للسلطان عكس ما كان الوزير الأعظم وقضاة العسكر والدفتر دارية يعرضونه ويكذبهم. وعاد «إبراهيم باشا» من مصر، وإذا كان قد أوصل المذكور [محمد باشا] بحسن تربيته له إلى هذه المرتبة، فقد تبدل الوفاق الذي كان بينهما إلى شقاق، وتحولت محبتهما إلى عداوة.

وفي هذه الأثناء، كانت السكة أي العملة الهمايونية مضطربة بالدرجة التي قسموا فيها الأقچة الواحدة إلى أربعة، وحينما ظهر النقص في الأقچة، أخذوا هذه الأقچة المقسمة إلى أربعة ووزعوا على أصحاب المعاشات من هذه النقود، وقالوا للذين تحدثوا من جند البلوكات، وأغوات الفرق العسكرية: «ماذا ينبغي أن نفعل؟ إن هذه النقود تحصيل أمير الأمراء»، ورُفعت الرقاع إلى الركاب الهمايوني عدة مرات، ووصلت الأسعار؛ بسبب السكة الهمايونية إلى الدرجة التي توقف فيها الناس عن البيع والشراء، حتى قالوا: حل اختلال كلي على الممالك السلطانية، وفي النهاية، كُلف أمير الأمراء «محمد باشا» بتصحيح السكة الهمايونية، وبهذا السبب، فُرضت الضرائب على الرعايا وأرباب التيمار بدعوى أن الخزينة العامرة حل بها نقصان أكثر من ألف حمل أقچة، وأُرسل الرجال المكلفون بجمع المال بالأوامر المشددة والمؤكدة إلى كل ناحية، وفي تلك الأثناء، لما كان من الضروري توزيع معاشات جند خدم الباب أيضًا من الخزينة العامرة، فقد جاء ثلاثة أو أربعة آلاف رجل من جند البلوكات إلى الديوان الهمايوني، وقالوا: «إن الخلل الذي حل على الرعية هو من فساد ومكر أمير الأمراء «محمد باشا»، وإننا لا نريد العلوفة وإنما نريد رأسه»، ومع أن الوزراء وقضاة العسكر قاموا بتهدئتهم والإحسان عليهم، فإن ذلك لم يُفد، ومن ناحية أخرى فقد صدر من جانب السلطنة الأمر الذي أنقذ رأس المذكور بقوله: «أعط لهم ما يريدون»، فامتلأت ساحة الديوان بالأكياس من الخزينة الداخلية، إلا أن طائفة الخدم يتقدمون ويعيدون هذا الكلام الموحش عدة مرات بعضهم على طريق الكتابة وبعضهم تصريحًا: سوف نقتل كل من

يمد يده إلى هذه النقود، وإذا قام سلطاننا صاحب السعادة بالمرور من بين جميع خدمه، ورجح هذا، فإننا أيضًا نريد سلطانًا سوف يرجح خدمه، وأخيرًا أخذوا «محمد باشا» من بين الوزراء بالإكراه، وحملوه إلى ميدان الإعدام وقاموا بقطع رأسه، وكان ذلك في سنة ٩٩٧ هجرية[1]، وبعد ذلك قاموا بإخراج المسكين الدفتر دار «محمود أفندي» من المكان الذي يختفي فيه بدعوى أنه قريب الصدر الأعظم؛ وأمروا بتلطيخ لحيته البيضاء بدم كذب بلا ذنب أو جريرة، وأصلًا كان لا يوجد شخصٌ من السباهية أو من غيرهم يعرف اسمه، ولأجل مقولة: ينبغي ألا يحمل الأمر على غرض محض وليقال: قد كانت إزالة أمير الأمراء غير مقصودة، فقد أُهدر دمه، ومع أنه لم تكن له أي علاقة مع هؤلاء، فقد قاموا بهذا الظلم والجور قائلين: «فليقتنع السلطان صاحب السعادة»، وبسبب أن هذا الوضع العجيب الذي لم يحدث في الدولة العلية حتى هذا اليوم قد حدث في زمن السلطان صاحب السعادة، فقد أصبح مضطربا ومتألمًا جدًا حتى وصل إلى درجة أن انفجرت مرارته وكاد يهلك بحمية شرف السلطنة، ورفع رأسه إلى السماء، وذرف دموع عينيه، ودعا بالسوء على طائفة الخدم وأظهر عصاة هذه الطائفة الندم لعدم قتلهم جملة الوزراء، وبعد ذلك كلما كانوا يتذكرون هذا الحدث، كانوا يظهرون الأسف قائلين: «لقد فوتنا الفرصة».

كان «جوجه جعفر» من الأغوات الذين كانوا مقربين، وموجودين داخل الحرم الهمايوني، ومن ثم كان من خواص الخواص، وعندما أُخرج للخارج [أي خارج الحرم السلطاني] إثر جلوس سلطان محمد خان على العرش، لجأ إلى حماية ولي نعمتي[2] المرحوم الوزير الأعظم «لالا محمد باشا» بسبب أنه كانت تربطه به قرابة ما. وقد سمعت منه ما يلي:

لما دخل السلطان صاحب السعادة إلى الحرم المحترم في ذلك اليوم واليوم التالي، أمر بإحضار عازفي العود والمغنين والظرفاء وأصحاب اللطائف؛ وأبدى الصفاء واللذة والسرور والفرح بدرجة كبيرة تفوق عادته الهمايونية، وفي هذه الأثناء، قال واحد ممن

---

(١) الموافق ١٥٨٨م - ١٥٨٩م.

(٢) المقصود ولي نعمة المؤرخ «بجوي إبراهيم أفندي».

هم مصرح لهم بالكلام: «الحمد لله تعالى، عندما سمعنا بالأمس أن سلطاننا مضطرب من تصرف بعض عديمي الأدب، كنا قد أصبنا بالغم، فليغتم كل أعدائكم، والآن فهم نادمون على ما ارتكبوه»، وعلى هذا فقد تفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «هذا صحيح، كنت قد تألمت لفترة ما، ولكن منذ فترة كان يدور بداخلي هذا الخلجان؛ وهو أنه جاء ملك «بج» الذي كان أشد أعدائنا بخراج سنتين، وأتى الشاه أيضًا الذي هو أشد من هذا الملك عداوة بتقديم ابن أخيه كرهينة، فمن المؤكد أن الفلك لا يدور في كل وقت على وفق المراد، وكنت أخاف من أن يلحق دولتنا ضرر من أي مكان، وإن شاء الله تعالى، قمنا بدفع الغم بهذا، ولم أعد أعاني من ظلم أعدائنا، وإنما من ظلم عدد من عديمي الاعتبار الذين لا يعرفون قدر أنفسهم، وبهذا قمنا بمحو تلك الغائلة من نفسي»، والكلمة جرت الكلمة، ولما كانت الحادثة نادرة، فقد فصلت دون قصد، والآن علينا أن نعود إلى الموضوع ثانية.

فلما قام هؤلاء القوم الضالون بهذا التصرف غير السليم على هذا النحو، دفعوا رأس أمير الأمراء المسكين أمامهم، راكلين له بالأقدام مثل الطوب حتى أحضروه متدحرجا إلى الميدان المعروف باسم «آت ميداني»، ولم يكن ممكنًا أخذه من أيديهم بأي وجه، وبعد ذلك قام كتخدا «محمد باشا» بتوزيع أربعمائة ذهبية عليهم وأخذ الرأس من أيديهم، وضمه إلى جسدها، وقام بدفنه، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الثاني داماد إبراهيم باشا والوزير الثالث جراح محمد باشا:

كان المشار إليهما في رتبة وزير ثان وثالث أثناء واقعة أمير الأمراء المقتول الوزير «محمد باشا»، وقد تم عزلهما سويًا مع الوزير الأعظم «سياوش باشا»، ثم صار كل منهما أيضًا وزيرًا أعظم في عصر السلطان محمد خان، وإن شاء الله تعالى ستُذكر أحوالهما في موضعها.

ـ الوزير خليل باشا:

كان صهرًا للسلطان، وكان متصرفًا على منصب قيادة الأسطول الهمايوني مع رتبة وزير لفترة طويلة، ثم توفي.

ـ الوزير خضر باشا:

كان صهرًا للسلطان بعد وفاة الوزير «خليل باشا»؛ ووصل إلى مرتبة الوزارة في ولاية «مصر»؛ وتوفي معزولًا.

ـ الوزير جغالة زاده سنان باشا:

كان قائدًا للأسطول الهمايوني مع رتبة وزير لفترة طويلة، وقام بالإغارة على بعض جزر الكفار بالأسطول الهمايوني؛ وبعد ذلك أصبح صدرًا أعظم في اليوم التالي ليوم المعركة في حملة «أكره»، ثم عزل ثانية بقرب «أدرنة»، وعُين إبراهيم باشا وزيرًا أعظم بدلًا منه، وبعد ذلك عُين قائدًا على حملة العجم؛ حيث مُنِيَ بالهزيمة، ولما وصل إلى «ديار بكر»، مات مقهورًا.

ـ الوزير بويالو محمد باشا:

عين وزيرًا مرتين، وعزل، ثم توفي بعد ذلك.

ـ الوزير خادم جعفر باشا:

كان رجلًا شجاعًا وجسورًا؛ وهو مجري الأصل، من سنجق «كوله»، وبينما كان يشغل رتبة رئيس بيت المئونة، أصبح أميرًا على سنجق «كوله»، ثم صار أمير سنجق «أستوني بلغراد»؛ وقام بعدة غزوات على الكفار، والآن يطلق على أحد الأماكن في «أستوني بلغراد» اسم «جعفر باشا بوصوسى» ـ أي مكمن جعفر باشا ـ ثم أصبح أمير أمراء «طرابلس الشام»، وبعد ذلك ولما تم إعادة بناء قلعة «تبريز»، كان قد عهد إليه بخراج «ديار بكر» كمقاطعة «أربالق»[1] مع رتبة وزير؛ حيث بقي فيها لحراستها، وما قام به المشار إليه ضد القزلباش والكورج لم يفعله أى شخص من الحكام العثمانيين،

---

(١) أربالق: هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامى» في «قاموس تركى»: هى المخصصات التى تعطي عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمى.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 84.

ومن جملة تلك الأعمال، أنه قام بأسر «سيمون خان» حاكم «كورجستان» وأرسله إلى الآستانة السعيدة، وبعد ذلك عين أيضًا سردارًا على بلاد المجر، وشارك أيضًا في حملة «أكره»، ثم قصد «تبريز» ثانية، وبعد عام أو عامين، وبينما كان متصرفًا على إيالة «تيمور قبو»، ودع العالم الفاني، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير «مصطفى باشا» فائق الأقران:

هو مصطفى باشا المشهور والمعروف من ولاة إيالة «بدون»، وهو ابن عم الوزير الأعظم «محمد باشا»، وبينما كان أمير سنجق على البوسنة، قام بفتح قلعة «قروبة» وبعض القلاع والحصون هناك، وعندما توجه المرحوم السلطان «سليمان القانوني» صوب «سكتوار»، كان قد عهد إليه بـ «بدون» بدلا من «أرسلان باشا»، وبعد ذلك رُقي إلى رتبة وزير في عصر السلطان «سليم خان»، وأصبح متصرفًا على «بدون» فترة من الزمان تقدر بحوالي ثلاثة عشر عامًا، وإذا كان قد عقد الصلح مع الأعداء على ألا تطلق المدافع بين الطرفين، فإنه تمكن في زمنه الشريف من ضم بعض القلاع والحصون إلى الممالك السلطانية بطرق مختلفة.

ومن جملة تلك القلاع، قلعة «فيلك» الواقعة على صخرة صماء والتي لم ترَ عين الفلك مثيلًا لها، فيقوم أربعون من الغزاة بوصل سُلَّمين أو ثلاثة ببعضهما البعض من صخرة مسطحة موجودة قرب خندقها، ويدخلون إلى داخل القلعة من فتحة المزغل بسلم يتكون من أربعين درجة، ومن غرائب المصادفات وكمال حسن اعتقاد الغزاة أنه كان هناك مدفع من نوع «باليمز» في ذلك المزغل الذي كان من الممكن أن يشوى عشرين رجلًا بنيرانه التي يحدثها، فيقوم أحد الغزاة المعروف باسم «باك حسن» بمد يديه من درجة السلم إلى صفوف الحجارة الواقعة على جانبي المزغال، ويستند إليها، ثم يهم بدفع المدفع من المزغال بصدره، ولكن لما رأى أن هناك مانعًا للدخول، يضع هذه المرة رأسه على المدفع، ولكن كانت قدرته على تحريكه فيها شيء من الصعوبة؛ فيقول: «الله جل شأنه»، وفي الحال يتحرك المدفع من مكانه قدر خطوتين بأمر الله تعالى، ويتسع

المكان أكثر مما يريدون للدخول، وبعد ذلك يقومون بالدخول للقلعة، ويفتحونها، والأمور التي تفيض بالعبرة في هذا الفتح نادرة الوقوع كثيرة، ولكن بسبب أن انتزعت القلعة المذكورة من أيدي المسلمين، فلو فُصلت سائر أحوالها، نكون قد أطلنا الحديث بلا فائدة، وعمومًا فإن مثل هذه الانتصارات الخارقة للعادة والفتوحات التي وفق فيها الغزاة في الزمن الشريف للباشا المومأ إليه كثيرة جدًا.

وكان المرحوم يفوق «حاتم» في السخاء والكرم؛ فكلما امتطى جواده، كان ينزل ويركب معه أربعمائة أو خمسمائة ملازم، وقطعًا كان ينعم على هؤلاء في ذلك اليوم بكيسين أو ثلاثة أكياس أقچة، وفضلًا عن أنه كان يعطي مقاطعات التيمار والزعامت ذات الدخل الوفير، كان يقوم أيضًا بالإحسان بعدة آلاف أقچة تحت اسم «مصاريف طريق ومصاريف حصان»، وكان يقوم بتجهيز كل يتيمة وأرملة طبقًا لحالتها التي عرضتها عليه، ويزوجها لشخص؛ حتى كان يعطيها مقاطعة من نوع «ديرلك» لتدبير أسباب المعيشة ويوطنها بها.

ولم تكن هناك نهاية لأبنيته الخيرة وآثاره مثل: سور الحي الخارجي لـ «بدون»، ومصنع بارودها، وبعض الأبراج الملحقة بالقلعة والأبراج العظيمة لـ «سكتوار» و«أستونى بلغراد»، وبصفة خاصة، لا يسع هذا المختصر لتفصيل القول عن حماماته في عيون الماء الساخنة وجوامعه المباركة ومدرسته الجميلة الموجودين في «بدون»، وخاناته وعماراته التي كانت على الطريق إنما هي من أعماله الخيرية وحسناته، ويرجى أن يكون مأجورًا ومثابًا عند الله تعالى.

وفي النهاية لم يكن الوزير المذكور بعيدا عن كيد العدو؛ إذ اتُهم بنزول الصاعقة بسراي «بدون» وبمخازن بارودها؛ فأتى «فرهاد باشا» أمير الإسطبل السلطاني الكبير؛ فكان باعثًا وسببًا لوصوله إلى رحمة الرحمن، رحمة الله تعالى عليه، وكان ذلك في سنة ٩٨٦ هجرية [1].

---

(١) الموافق سنة ١٥٧٨ ـ ١٥٧٩م.

ـ الوزير خادم حسن باشا:

بينما كان محافظ «گنجه» برتبة وزير، تم عزله، ولما جاء إلى الآستانة السعيدة، دخل في سلك الوزراء؛ وتوفي بعد ذلك.

ـ الوزير علي باشا:

كان يلقب بـ «قلايلى قوز»، وكان شخصًا وقورًا وخبيرًا جدًا بالحروب، وحسن المظهر والقيافة، وقد أرادت «أسمى خان سلطان» حليلة الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل» أن تتزوج به، فبينما كان متصرفًا على «بدون»، ورد الخط الشريف من أجل ذلك، وعند مفارقة أهله وعياله بعد الطلاق، كان بكاؤهم واستغاثتهم قد جعلت جبال وأحجار «بدون» تبكي عليهم، وفي تلك الأثناء، ذُكر ذلك الحدث باسم «واقعة عظيمة»، ولكن الدعاء السيئ لمطلقته أورت الفناء لعمر «أسمى خان سلطان»؛ حيث توفيت قبل مرور وقت طويل، أما هو فقد طلب «بدون» ثانية، وفيها ودع العالم الفاني، ومرقده يقع على هضبة في الحي الخارجي لـ «بدون»، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير بايزن يوسف باشا :

كان مشهورًا بلقب «بايزن» لأنه كان رجلًا من الفرنجة، ولما كان غضوبًا، لم يكن هناك رجل من الخمسمائة، وربما من الألف من نوابه وأغواته قد سلم من الضرب بعصاه، ورُقي من رتبة أغا فرقة الإنكشارية إلى رتبة أمير أمراء «بدون» وإن ما حدث من هجوم على المرعى في «بدون»، وهزيمة الكفار كان قد حدث في عصره، ووجهت إليه «بدون» ثانية مع رتبة الوزارة، وبعد ذلك، بينما هو في سلك الوزارة في «إستانبول»، قام خدمه بقتله؛ بسبب عادته السيئة وهي الضرب بالعصا.

ـ الوزير حسن باشا ابن الوزير الأعظم محمد باشا:

كان قد أصبح واليًا لمعظم إيالات الساحل الآخر [المقصود الأناضول] في حياة والده وبعد وفاته، ويروى أنه حينما كان واليًا على «بغداد» كان يخرج إلى صلاة الجمعة

في طور وطرز السلاطين؛ فلما علم والده بالوضع، قال في نفسه: «احذر! هناك من يشكون منه، لو انتقل الأمر للسلطان، سيكون سببًا لغيظه»؛ ولذا عرض على السلطان عزله، ولكن السلطان صاحب السعادة يشير بقوله: «لا ينبغي ألا يُعزل؛ ولكن ليرفع تلك الشكوك والأضرار»، وربما كان قد أُبلغ جناب حضرة السلطان بهذا الوضع من قبل.

وكان «حسن باشا» رجلًا وجيه المظهر جدًا وفائق الأقران وذا مكانة عالية، ولكن كان مغرورًا ومتكبرًا ولا يرى إلا نفسه، حتى كان ينظر للشخص بتكبر، وكان أيضًا لا يلتفت إلى أقرانه ولا حتى إلى من هم فوقه، وكان يوجد لديه سلوك غريب بهذا القدر الذي لم يُر أو يسمع بمثله عند أي أحد من أصحاب الدولة، فمثلًا، كان عاشقًا ومفتونًا بغلام، فيجعله في رتبة محافظ الخزينة، ويلبسه الملابس التي يرتديها هو، ويركبه جوادًا مثل الجواد الذي يمتطيه، وكان طاقم جوادهما واحدًا، وكان كلاهما يلف عمامة سليمية[1]، وبينما يوجد في الموكب هذا القدر من الأمراء والكبراء، فإنه لم يكن يُقرِّب واحدًا منهم إلى جانبه، ولكن كان يرافق ويصطحب ذلك الغلام ويذهب معه، وربما كان يسحب رأس الجواد الذي يمتطيه الغلام إلى محاذاة جواده أثناء السلام على الموكب، وهكذا كانت عادته سواء كان في الروم إيلي أو الأناضول، وأقام له أيضًا خيمة فائقة ملاصقة لخيمته، وكان يرسل الصغير والكبير وأمراء الأمراء والأمراء الذين جاءوا لملاقاته إلى حافظ الخزينة بعد النائب، وبعد ذلك كان هو يقابلهم، وكان هناك فردان من

---

(١) سليمية: هو نوع من الطرابيش. كان السلاطين العثمانيون في عهودهم الأولى يرتدون غطاء رأس مدبب الطرف مصنوع من الوبر الخراساني، وكانوا يلفون عليه عمامة. وكان السلطان الفاتح يرتدي غطاء رأس يعرف باسم «مجوزة»، أما السلطان سليم فقد أوجد غطاء الرأس المعروف باسم «سليمي» نسبة لاسمه. وكان طول هذه العمامة خمسة وستين سنتيمترا. وكانت هذه العمامة في شكل أسطواني أعلاها أوسع من فتحتها. وكان يلف عليها قماش من نوع «تلبند». وبعد ذلك أصبح ارتداء العمامة السليمية عادة عند كل من «أغا دار السعادة»، والوزراء العظام سواء في الحرب أو في السلم، وكتخدا طائفة خدم الباب، وأغا الإنكشارية، ورئيس الكتاب والدفترادرية.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 310.

رؤساء البوابين وهما من أغواته الذين رقّوا من رتبة «خزينة دار»، كانا يرتديان ملابس مثل ملابس الباشا، سواء لبس الباشا من نوع «أطلسى» أو «كمخا» أو «سراسر» أو «ديبا» أو أيا يلبس، وكانا يتحركان معه سويًا أينما ذهب، وعندما يعقد الوزير حسن باشا الديوان كانا يقفان أيضًا تجاهه.

ورأيته عدة مرات في تحصينات «أكرى»، كان يرتدى ثوبًا أحمر من نوع أطلسى العنترى، وكان يتوشح بالحزام المرصع بأربع وربما بخمس قطع ذهبية ومرسوم عليه طائر العنقاء، وكان هذا التصرف أيضًا وضعًا خاصًا به، ولكن الأغرب من كل هذا، أنه عندما كان أمير أمراء «بغداد»، وكان يضع عرشًا تحت اسم «قصر الفردوس» من الفضة قيمته أربعون أو خمسون ألف غروش، ويضع عليه أيضًا أشياء على هيئة أشجار. وحدائق وثمار من نوع الأرنج والرمان من الفضة الخام، ويقوم بترتيبها وتزينها بشكل يحير العقول، وعندما حُصر في قلعة «توقات»، وفي أثناء مجيء حرمه وخزينته من «بغداد» يقع في قبضة «دلى حسن» العاصي، فيقوم بتوزيع الخزينة وتقسيمها. وأمر «دلي حسن» بنصب «قصر الفردوس» الموجود في الخزينة، وجعل أشقياءه يشاهدونه، ويأخذون بعض العبر منها، ويذكر نائبه «شاه ويردى كتخدا»: أنهم لم يتعرضوا للجواهر الخاصة بحرمه ونسائه أو أي شيء آخر قط.

والحقيقة هو أنه لا يُتصور أن يوجد لطف فوق لطف المرحوم، ولكن بينما كان لطفه على هذه الدرجة العالية، فإنه لم يُر صاحب دولة ثابت القدم في وجه العدو مثله، فلما قتل واستشهد معظم أصحاب الدراية وأبطال «بدون» و«بشته» وسائر قلاع الحدود، وفي الوقت الذي أُصيبت فيه الحدود بالضعف والهزيمة، وتيسرت الفرصة والغنائم للأعداء، لم ينكر أى فرد في تلك الحدود بطولته وقوة سيفه، وفي الأمر نفسه، كان ينجو من كل معركة مجروحًا، وما لم يجرح، لم يكن يتزحزح من مكانه، فإنه مُنىَ بالقهر من عظم غروره.

لو تسمع أقول لك لا تكن مغرورًا فكل مغرور قطعًا مقهورًا

وفي النهاية تحصن بقلعة «توقات» منهزمًا في محاربة «جلالي» أي العصيان؛ وترك العالم الفاني من جراء ضربة بندقية لأحد جنود الطائفة المعروفة باسم «سكبان»[1]، رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير محمد باشا ابن الوزير الأعظم سنان باشا:

كان قد أعطي له والده رتبة وزير، وكان يبدله مع «حسن باشا» أحيانًا في «بدون» وأحيانًا في الروم إيلي أثناء محاصرة قلعة «يانق»، وكان يقلد «حسن باشا» في أكثر أوضاعه، ولكن كما كان «حسن باشا» مشهورًا بين الناس بتلك البطولة، كان محمد باشا مشهورًا بخلاف ذلك، ففي الأمر نفسه، فإنه لو رأى عدوًا كان يضطرب قلبه، ويتزلزل قدم ثباته، ولم يكن به أي بشاشة في طلعته، ولكن كان ذكيًا جدًا في ذاته، وكان قائد عسكر الإسلام في محاصرة «أسترغون»؛ حيث عاد منهزمًا وسلم جملة جيشه للأعداء، ولما أصبح قائدًا لدفع طائفة «جلالي» في الساحل الآخر [المقصود الأناضول]، لم ينفذ الأمر الذي كلف به، ولكن على إثر تقليده لطائفة «جلالي» في أوضاعهم وأطوارهم، دار حوله الشك بأنه صار جلاليًا، إلا أنه عُفي عن زلته بالتماس والدة المرحوم السلطان «أحمد»؛ وعاد إلى الآستانة السعيدة، وقد وُبخ يوم الديوان بالقول: «أين أحزمة ذلك الجلالي؟»؛ وبعد ذلك قتل، حتى لما استفسرت والدة السلطان من السلطان صاحب السعادة بالقول: «لماذا أخلفتم؟» يروى أن السلطان صاحب السعادة تفضل بالقول: «كان المراد هو أن يأتي ويحضر إلى الديوان، فحضر ونال جزاءه»، رحمة الله تعالى عليه، وكان ذلك في سنة ١٠١٢ هجرية[2].

---

(١) سكبان: هو تعبير كان يستخدم كلقب لمختلف الجماعات. وكان ينطق هذا اللقب فيما بين الناس بـ «سيمان». وكان يطلق على قسم من الأقسام الثلاثة التي تشكل معسكر الإنكشارية اسم «سكبان». كما كان يسمى القسمان الآخران باسم «بلوكات الأغا» أو «جماعة». وكان يطلق على جند المشاة (البيادة) في عهدي أول سلطانين من السلاطين العثمانيين وهما «عثمان» و«أورخان» لقب «سكبان»؛ أي حراس الكلاب اقتباسًا من مهنة الصيد.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 145 – 146.

(٢) الموافق سنة ١٦٠٣م.

العلماء الكبار الذين كانوا في زمنه الشريف

ـ المولى شيخ الإسلام حامد أفندي:

كان شيخًا للإسلام عند الجلوس الهمايوني للسلطان على العرش؛ حيث أُبقي في ذلك المقام كما هو، وتوفي سنة خمس وثمانين وتسعمائة هجرية(1).

ـ المولى سعد الدين أفندي معلم السلطان:

لما كان المومأ إليه المعلم السلطاني في السنجق الهمايوني، فقد أصبح بعد جلوس السلطان على العرش مرجع العلماء العظام والوكلاء ذوي الاحترام في ذلك المقام الرفيع، وكان يُدعى أحيانا إلى المجلس الهمايوني السلطاني؛ حيث كان السلطان يستشيره في أمور الملك والدولة، وكان السلطان قد أقره في منصب الأستاذية وجعله صاحب عز واعتبار حتى آخر العمر الشريف للسلطان المغفور له، وسيرد جزء من سيرته الذاتية أيضًا عند ذكر جلوس سلطان محمد خان.

ـ المولى قاضي زاده أفندي:

كان قاضي عسكر «الروم إيلي»، ولما توفي المرحوم «حامد أفندي»، صار مفتيًا مكانه، وبقي في مقام الإفتاء ثلاث سنوات فقط، ورحل إلى جوار رب العزة سنة ٩٨٨ هجرية(2).

ـ المولى معلول زاده:

بينما كان «قاضي عسكر الروم إيلي»، صار مفتيًا بدلًا من المرحوم «قاضي زاده أفندي»، ولكن لما رفع «خواجة سعد الدين أفندي» بعض فتاوى «معلول زاده» إلى جناب السلطان قائلا: «إنها فتاوى خاطئة»، أمر السلطان بعزله، وقد كان يقوم بالإفتاء علاوة على عمله كنقيب للأشراف، فلما عُزل، بقي في منصب النقابة فقط.

---

(١) الموافق ١٥٧٧ ـ ١٥٧٨م.

(٢) الموافق ١٥٨٠ ـ ١٥٨١م.

- المولى چوى زاده أفندي:

وُقِّر بإسناد خدمة الفتوى الشريفة إليه بدلا من «معلول زاده»، وكان مشهورًا جدًا بالفقه بين العلماء، وتوفي سنة ٩٩٥ هجرية.

- المولى شيخي أفندي:

لما كان أقدم المتقاعدين من منصب قضاة العسكر، فقد صار مفتيًا بدلًا من «چوى زاده»، وُعزل في واقعة أمير الأمراء.

- المولى بوستان زاده أفندي:

عُين مفتيا بدلا من «شيخى أفندي»، وستردُ بعض وقائعه في مكانها.

- المولى زكريا أفندي:

عُين مفتيًا بدلًا من «بوستان زاده أفندي»، وبعد ذلك توفي فجأة سنة إحدى وألف هجرية، وصار «بوستان زاده أفندي» مفتيًا بدلا منه مرة أخرى، وظل مفتيًا حتى توفي في عصر الدولة المرادية.

- المولى عبد الرحمن أفندي:

كان قد عين قاضي عسكر في زمن دولة سليمان خان وسلطان سليم خان، وكان قد صار قاضي عسكر أيضًا في الدولة المرادية أي في عهد مراد الثالث قرابة عام واحد، وفي النهاية توفي سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة هجرية.

- المولى محشي سنان أفندي:

كان قاضي عسكر الأناضول في عصر السلطان سليمان خان، وبعد ذلك كان قد فضل التقاعد بمائتي أقچة، وانتقل إلى جوار الرحمن في عام ٩٨٦ هجرية، وكان عالمًا عاملًا معدودًا من فضلاء الدهر، وربما ليس له قرين.

ـ المولى أخي زاده أفندي:

كان متقاعدًا من منصب قاضي عسكر الأناضول بمائة وخمسين أقچة، وانتقل إلى رحمة الرحمن سنة ٩٨٩ هجرية.

ـ المولى حسن بك:

وهذا أيضًا، بينما كان متقاعدًا من منصب قاضي عسكر الأناضول، توفي إلى رحمة الله، ونظرًا لأنه لا يمكن حصر العلماء الذين عاشوا في الدولة العلية، فقد أكتفي بهذا القدر.

المشايخ الكبار الذين كانوا في زمن دولته في القسطنطينية المحمية

ـ الشيخ شجاع:

كان من متصوفة «أمى سنان»، وبينما كان السلطان صاحب السعادة في «مغنيسيا»، كان في الخلوة، وربما كان قد اكتفى برعاية حديقة بعض الكبار، وفي إحدى الليالي، يرى السلطان صاحب السعادة رؤية: يعني يصعد سلمًا أكثر من عشرين درجة؛ وتستقر تحت قدمه عشرون أو ثلاثون قبة عالية القدر، وفي هذه الأثناء يريد أن يرى ابنيه سلطان محمد وسلطان محمود، ولكن لم يتمكن من رؤيتهما، ثم يستيقظ من نومه بينما كان ينزل ثلاث أو أربع درجات من ذلك السلم.

وفي اليوم التالي، لما روى هذه الرؤية في دار سعادته، كانت «راضية خاتون» المعروفة باسم «كتخدا قادين» تعرف الشيخ المذكور، وكانت تسمع أنه يفسر الأحلام، فتستأذن من السلطان صاحب السعادة، وتكتب رؤيته وترسلها إلى الشيخ. فيقوم الشيخ بالتفسير بأن سنين سلطنته تكون بعدد درجات السلم، وسوف يفترق عنه أبناؤه بمقتضى الحال، وسوف تستقر الممالك تحت حكمه بعدد تلك القباب العالية.

ومن حكمة الله أن تعبيره يوافق تقدير الواقع، ويبشر بالسلطنة في الأيام المعهودة، وبعد ذلك، يجوز شرف الدخول إلى المجلس الهمايوني للسلطان مرة أو مرتين، نظرًا للتفسير المقبول الذي فسره الشيخ، علاوة على حسن تربية «راضية خاتون»، ولما رأى الشيخ أيضًا أن السلطان صاحب السعادة يغلب عليه حسن الظن وذو قلب طاهر، يصير حر التصرف، وأخيرًا ينال حسن ثقة السلطان صاحب السعادة بالقدر الذي لا يدع هناك شكًا في أنه أصبح قطب العالم، ويحضره إلى «إستانبول» في معيته، ويحسن عليه بقصر عالٍ.

ولكن عندما اشتهر باعتباره شيخًا للسلطان، رجع إليه أرباب الحاجات وأمطروا عليه الهدايا والرشاوى بالقدر الذي أصبح فيه في وقت قصير صاحب حدائق عديدة ومخازن وأحواض بناء زوارق ومحلات شراب [خمارات] تعرف بـ «عقار»، حتى صار يعاني من إدارتها، أما رجال الدولة فراحوا يبرزون مساوئه قائلين: «صار يعقد مجالس المجون مع شباب إستانبول المعروفين وشخصياتها اللطيفة»، حتى إنهم رفعوا العروض إلى السلطان صاحب السعادة قائلين: «اليوم ينال حضرة الشيخ المرام من الحظ في منادمة محبوبة في حديقة فلان، ولو لم يصدق ذلك، فليرسل الرجال الثقات وليتجسس الأمر»، ولكن السلطان صاحب السعادة لم يصغ لذلك قائلا: «ليس الشيخ من النوع الذي يعرفه الخلق!»، ولكن كلما وصل والتقى بالسلطان، كان مقررًا أن ينال في كل مرة كيسًا أو كيسين من الذهب الفلوري[1] عن هذه المصالح التي يباشرها، وفي النهاية لم ينفعه الإحسان والرعاية السلطانية ولا الأموال الحرام التي جمعها، وودع العالم الفاني في سنة ٩٨٨ هجرية.

---

(١) فلوري: اسم أطلقه العثمانيون قبل القرن الحادي عشر الميلادي على العملة الذهبية المعروفة باسم «فلوري» أو «فلورين» المسكوكة في «فلورانسا»، والموجود عليها صورة زنبق، وأطلقوا هذا الاسم بصورة عامة على الذهب المسكوك في البلدان الغربية. وكان يطلق على هذا لقب «فلوري».

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 114.

ـ الشيخ محرم أفندي:

كان واعظًا ومرشدًا ووليًا مستجاب الدعوة في جامع السليمانية المبارك، وتوفي إلى رحمة الله في جمادى الآخرة سنة ٩٨٣ هجرية.

ـ الشيخ يولق محمد چابي:

كان موجودًا في جامع الشهزاده.

ـ الشيخ محمد أفندي:

كان يُلقي الوعظ والتفسير الشريف للقرآن في «أيا صوفيا».

ـ الشيخ واعظ أمير أفندي:

كان واعظًا في جامع السليمانية، ولما كان يجيب على تساؤلات الناس بوضوح، راح شباب «إستانبول» يكتبون التساؤلات الغريبة، ويرسلونها إليه، فكان يتجمع في مجلسه بسبب هذه التساؤلات رجال كثيرون، ولذلك كان قد منع من الوعظ مرة أو مرتين.

ـ الشيخ خضر أفندي:

كان يعرف باسم «يايا باشي زاده»، وكان شخصا حديثه مؤثرًا وصحبته لذيذة.

ـ الشيخ تتار إبراهيم أفندي:

كان واعظًا في جامع «سلطان محمد» المبارك، وكان يقرأ ويروي التفسير الشريف للقرآن من ذاكرته.

ـ الشيخ شعبان أفندي:

كان جالسًا على سجادة الإرشاد في زاوية أمير بخارى عليه رحمة الباري، وكان حريصًا على إرشاد الطالبين، وقد أتى السلطان صاحب السعادة عدة مرات إلى الزاوية المذكورة؛ لغرض الزيارة والتحدث مع حضرة الشيخ، ونال بدعائه الخير، وكانت

استفسارات السلطان التي يدور معظمها حول التصوف تردده كثيرًا على حوزة الشيخ.

- الشيخ قورد أفندي:

كان رجلًا صاحب كمال وأهل ومال، وكان ليس له نظير وبالخاصة في تفسير الرؤى.

- الشيخ محمود أفندي:

عندما توفي المرحوم الأسكداري «تتار إبراهيم أفندي»، كان قد عينه الوزير الأعظم «فرهاد باشا» واعظًا في جامع المرحوم السلطان «محمد خان» بتوصية المرحوم «صنع الله أفندي» «قاضي عسكر الروم إيلي»، وسَتَرِد سائر أحواله في مكانها إن شاء الله تعالى.

في ذكر الفتوحات والغزوات التي وقعت في زمنه المقرون بالنصر

- تعيين «لالا قره مصطفى باشا» قائدًا على العجم:

قام «خسرو باشا» أمير أمراء «وان» في شوال المكرم سنة ٩٨٥ هجرية[1]، بإرسال عرض حال إلى الركاب الهمايوني وأحاطه علمًا بأن «إسماعيل الثاني بن طهماسب شاه» الذي كان شاه ولاية العجم قد توفي، وأن أخاه الضرير المعروف باسم «محمد خدا بنده» صار شاهًا مكانه، وقد أشار لذلك بقوله: «إن هذه الفرصة هي غنيمة عظيمة، وإن هذا الوقت هو الوقت الذي سيُنتقم فيه من العدو»، ولما عرضت تلك الأحوال على مجلس السلطان حسن الحال، أمر في الحال بأن يعين قائدًا وأن تجهز الاستعدادات للحملة، ولكن لما كان ذلك الإجراء مخالفا لرغبة الصدر الأعظم «محمد باشا» فقد سعى بجهد جهيد، وصرف ما في مقدوره وجل همته لمنع ذلك الأمر ودفعه، وقام بعرض العقبات التي يراها على جناب السلطان عدة مرات، ومن جملة تلك العقبات التي ذكرها قوله: «سيثور

(١) الموافق ديسمبر ١٥٧٦ - يناير ١٥٧٧م.

هؤلاء الخدم، وستزيد الاحتياجات والمصاريف، وسوف يسحق الرعايا من التكاليف العرفية ومن تجاوزات العسكر، حتى ولو فتحت ديار العجم، فلن يقبل رعاياها أن يكونوا رعية لنا، وما سَيُحَصَّل من الخارج لا يكفي مصاريف الحملة»، وراح يبين تلك العقبات الكثيرة بقوله: «ماذا جنى جدكم الأعلى الذي مأواه الجنة حضرة السلطان سليمان؟ فأي غم وأي قهر عانى السلطان حتى عُقد الصلح معهم. فالذين يعرضون لهذا الأمر هم الذين لا يعرفون ما حملة العجم؟! وهم أيضًا بعيدون عن جياد الحرب والحيوانات التي تحمل أثقالها ولا هم ممن يركبون الثيران!»، ولكن كل مساعي الوزير الأعظم العظيمة لم تفد، وفي النهاية عين الوزير الثالث المومأ إليه مصطفى باشا قائدًا من جهة «أرضروم» والوزير الرابع سنان باشا قائدًا من جانب «بغداد»؛ وقام السلطان بتعيين قدر كافٍ من الجند لكل واحد منهما من الجنود الموجودين في منطقة كل منهما، ولكن لما كان سنان باشا رجلًا معاندًا ولجوجًا فقد رفع إلى السلطان صاحب السعادة عرضًا قال فيه: «لقد تم تعيين خيرة الجند وأبطالهم لـ«مصطفى باشا»، وعين لي الضعفاء والمخنثين منهم»، وعلى هذا، أمر السلطان صاحب السعادة الوزير الأعظم بإحضارهما إليه، وإرضاء الطرفين، ولكن كل محاولات الصدر الأعظم باءت بالفشل، ولم تفد أي مساعدة قدمت لـ«سنان باشا» نظرًا لعناده، وعلى الفور عرض الوزير الأعظم الأمر على السلطان قائلًا: «لا يمكن التوفيق بينهما، والآن، فليكن واحدًا منهما قائدًا، فأي منهما تأمر أن يكون قائدًا، فالأمر للسلطان»، فصدر الفرمان من جناب السلطان مرة أخرى بأنه ينبغي أن يحضر كل واحد منهما على حدة، وأن يطلع على رأي وتدبير كل واحد منهما في هذه الحملة، ثم يعرض على الركاب الهمايوني.

وعلى هذا، أمر الوزير الأعظم بإحضار «مصطفى باشا» أولا؛ وسأله قائلًا: «تفضل السلطان صاحب السعادة بالسؤال: ما هو تدبيركم عندما تصبحون قائدًا على الحملة؟» فقال «مصطفى باشا» أيضًا: «تدبيرنا هو الاعتماد على جناب الباري، والوصول إلى موقع المعركة، واستشارة العارفين بالأمور هناك، والاجتهاد بالقدر المناسب، والتصرف طبقًا لمقتضى الحال»، وبعده أمر الوزير الأعظم بإحضار «سنان باشا»، وأبلغه بالأمر الشريف

الصادر من السلطان صاحب السعادة، فادّعى سنان باشا البطولة حتى إنه جعل من نفسه متعهدًا وضامنًا لفتح ممالك «تبريز» و«شيروان» في السنة الأولى، وأطراف «همدان» و«أصفهان» في السنة الثانية.

ولما عرض على الركاب الهمايوني كلام كلاهما، قُرِّرَ إعطاء القيادة لـ «مصطفى باشا»، وأصبح تحت إمرته من الآستانة السعيدة خمسة آلاف من جند الإنكشارية وبلوكات أبناء السباهية وعلو فجية يسار[1] وعدد كاف من الجبه جيه[2] والعربه جيه[3] والطوبجيه؛ أي جنود المدفعية، ومن أمراء الأمراء: أمير أمراء «ديار بكر» وأمير أمراء «أرضروم» وأمير أمراء «ذو القدرية» وأمير أمراء «حلب» وأمير أمراء «قرمان»، علاوة على الأمراء وأرباب مقاطعات الزعامت والتيمار الموجودين في إيالاتهم.

عبور القائد الذي شعاره النصر إلى جانب «إسكدار»

في المحرم الحرام سنة ٩٨٦ هجرية[4]، ولما عبر السردار أي القائد الذي شعاره النصر إلى جانب «أسكدار»، وصل إلى جانب «أرضروم» قاطعًا المنازل، وكان قائمًا

---

(١) علوفجية يسار: هم القسم الرابع من سوارية خدم الباب أو القابو قولو، ويلقبون باسم «الفرق الوسطى» إضافة إلى هذا الاسم «علوفجية يسار». وكانوا جميعهم عبارة عن مائة فرقة. وكانت بيارقهم بيضاء. وكانوا أثناء السير يسيرون خلف سلحدارهم من اليسار والذي يسير هو بدوره على يسار السلاطين. وكان موظفو المالية المعروفون باسم «باقي قوللري» يختارون من هؤلاء ومن علوفجية اليمين. وكانت وظيفة العلوفجية انتظار الخزينة الخارجية حينما يكون السلطان في الحملة. أما الخزينة الداخلية فكان ينتظرها أفراد المتفرقة.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 317.

(٢) جبه جي: فئة من العسكر من كتائب جند خدم الباب المشاة الذين يقومون بتصنيع السلاح، وصيانته والمحافظة عليه، ومكلفون بإيصال المواد الحربية للجيش أثناء الحرب حتى الخطوط الأمامية. وكان لهؤلاء علوفة أو يومية. وكانوا يعتبرون أفضل وأحسن فئة بعد جنود الإنكشارية.

-Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 61.

(٣) عربه جي: هم سائقي عربات المدافع. وأكبر أغا بينهم كان يعرف باسم "عربه جي باشي"، وهو كان بمثابة أميرهم.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 16.

(٤) الموافق ١٥٨٦م.

حتى الآن الصلح والصلاح مع القزلباش، ولكن على إثر إعلان بعض الأمراء من أمراء «گورجستان» العصيان، أعلن أنه يتم التوجه لإخضاع هؤلاء، ومع أن القزلباش أيضًا كانوا يقولون: «إننا لن نقصر في رعاية مظاهر الصلح»، فإن قيامهم بنهب أغنام وجمال تركمان «أولوس» في تلك الأثناء في وادي «جانباز»، وأيضًا بعض مفاسدهم على هذا النحو، كانت واضحة أنها خلاف الصلح.

ولما تفضل السردار عالي المكانة بالنزول في الممر المعروف باسم «أردهان» الذي كان بوابة «گورجستان»، أُحيط علمًا بأن «طوقماق خان» تحصن بجبل مع عساكره الجرارة، ويترقب لدخول عسكر الإسلام إلى ولاية «گورجى»، ومستعد لأن يتعقب أهل الإسلام، وعلى هذا، ومن ذلك المنزل قام السردار بتوجيه خطاب إلى «طوقماق خان» في هذا المضمون: ينبغي عليك أن تقلع عن هذا الفكر الفاسد وأن تعود إلى بلادكم، فإذا قطعتم الطريق على عسكر الإسلام مخالفين الصلح والصلاح، فإن جند الإسلام يتوجهون إليكم، وستجدون بعون الله تعالى جزاءكم.

وصول الألسن والرءوس من طرف خسرو باشا أمير أمراء «وان»

قام كتخدا «خسرو باشا» المشار إليه بغرز خمسمائة أو ستمائة رأس قزلباشي بصواري الأعلام في المنزل المذكور «أردهان»؛ وأتى بهم إلى الجيش الهمايوني، وأخبر بالأحوال الآتية: لقد قام خان «تبريز» مع عشرين ألفًا من القزلباش بمحاصرة البطلين المعروفين باسم «قورجى بك» و«غازى بك» في إحدى القلاع؛ فقام أمير الأمراء المومأ إليه بإرسال أمير لواء صاحب عشيرة يعرف باسم «محمودي حسن بك» مع ستمائة رجل كمدد لهما، ومن حكمة الله تعالى أن «محمودي حسن بك» يجد الديوث الذي سيصبح خان «تبريز» في خدمة الحراسة، فيهجم عليه، وعندما ينهزم الديوث، يولي كل جيشه أيضًا الأدبار، كما بين أيضًا بأنه بينما كان «الله قولي خان» يتوجه ثانية مع عدة آلاف من القزلباش الناقضين العهد لمحاصرة قلعة «وان»، قام «حسن بك» المشار إليه بهجوم ليلي على المذكورين؛ حيث قام بتشتيتهم وتفريقهم، وأيضًا بتطيير ثلاثمائة رأس قزلباشي في

ذلك الميدان، وتُعد هذه الغزوات مقدمة الفتوحات، كما تبشر وتدل على سرور السردار وقهره للأعداء.

معركة عظيمة في صحراء «چلدر»

في ٥ من جمادى الآخرة سنة ٩٨٦ هجرية[1]، لما رحل السردار أي القائد من «أردهان» وتم النزول قرب قلعة «وبله»، تيسر فتحها بسهولة، وفي اليوم التالي، نزل الجيش للنواحي ذات التضاريس لـ «يكى قلعة» الواقعة على ذروة قمة عالية فيما بين جبلين؛ وبعون الله تعالى، تم الاستيلاء عليها قبل حلول وقت الظهر وذلك بعد قتال عظيم.

إلا أن سردار الضالين «طوقماق خان» و«إمام قولي خان» و«قره خان» قد جاءوا مع ثلاثين ألفًا من خيرة عسكر القزلباش، ونزلوا بقلعة «چلدر» محصنين ظهورهم بجبل صعب الاجتياز، وبينما كان أربعون أو خمسون فردًا من غزاة الإسلام يتجسسون مؤخرة الجند، يصادفون جيش القزلباش، فيهجمون عليهم بشجاعة بالغة، ولما علم السردار بتلك الأحوال، أرسل إليهم «درويش باشا» أمير أمراء «ديار بكر» الذي كان طليعة العسكر، ولما كان «درويش باشا» بطلًا وشجاعًا وشابًا مغوارًا، فإنه لا يقول: إن عدد أفراد العدو قليل أو كثير، ولا يوقف الجند الذين يتعقبون الأعداء، وصفوة القول، فإنه كان بطلًا فائق الأقران، ويهجم بالثلاثمائة أو الأربعمائة رجل الموجودين بجواره بالطريقة التي يستطيع بها أن يسحق طابورًا أو طابورين من القزلباش ويجعلهم يولون الأدبار، ولكن تأخذ القزلباش الحمية، فيهجم عليه عدة طوابير فجأة، ويستشهد أكثر من ثلاثين من أغواته المشهورين، ويسقطونه هو من فوق جواده ويحيطون به، ومرة أخرى يهجم رجاله على القزلباش ويسقطون مائة أو مائتين منهم، ويُرْكِبونه على جواده مرة أخرى، وفي ذلك الميدان، قتل ثلاثة من القزلباش بيده، ولكن تتعاقب طوابير القزلباش مرة أخرى، وفي هذه المرة، يسقط من على جواده مجروحًا، فيمتطي جواده

(١) الموافق ٩ من أغسطس ١٥٧٨م.

مرة أخرى ويثبت ويستقر ويقف في مكانه بفضل جنديته وفروسيته الناجحة، وقد نظم المرحوم لامعي في مثل هذا الموقف:

ماذا تفعل الحمية مع هذا القدر من الجسارة

وماذا يفعل قطيع مع أسد سافك للدم

وحتى ذلك الوقت، يرسل السردار أيضًا «عثمان باشا» ويجعله يصل للإمداد، ويقوم «عثمان باشا» أيضًا في ذلك الميدان ببطولات خارقة، وبعد ذلك يصل أيضًا «بهرام باشا» أمير أمراء «أرضروم»، و«مويتاب زاده أحمد باشا» وتدور دائرة الحرب والقتال من وقت تغريد الطيور إلى وقت الغروب حتى مدحتهم وأثنت عليهم ملائكة السماء، ومن حكمة الله تعالى أن الأمطار لم تعط الفرصة على الإطلاق، ومن ثم لم تمكنهم هذه الأمطار من استخدام المدافع والبنادق، وهكذا تدور معركة السيف، وصفوة القول: إن مؤخرة. القزلباش انقسمت عند الغروب، وفي الحال علقت خمسة أو ستة آلاف رأس بصواري الأعلام، وتناثرت جيف الموتى في الميدان، وتبعثر هذا القدر من الجياد والبغال والجمال وعدد عظيم من الخيام وجميع السرادقات التي أصبحت من نصيب غزاة الإسلام والتي لا يعلم حدها وقدرها إلا جناب الباري تعالى فقط، وفي اليوم التالي، لما صدر الأمر بأن يحصى تعداد «القزلباش» الملطخين بالدم والذين أتوا إلى ديوان السردار صاحب الوقار، تم إحصاء خمسة آلاف رأس بالتمام، وأحضروا أيضًا خمسمائة من القزلباش المشهورين والمعروفين الذين أخذوا أحياء وأُسروا، ولما صدر الفرمان: «فليصبح هؤلاء أيضًا رءوس» ضمت وألحقت رءوسهم التعيسة برءوس الذين أتوا من قبل.

إعلان منوچهر بن كيخسرو الطاعة

كان الأمير المذكور قد جاء مع ستة آلاف مسلح من الأشقياء، وبينما كان يشاهد الغالب والمغلوب من الجبل وينتظر على أمل أن يطلب الأمان من الطرف الغالب، فما إن وقف على أحوال «طوقماق خان»، حتى أتى وقت السحر إلى ديوان السردار عالي

الوقار والتقى به، وفي ذلك الحين أتى كل أمير أمراء وأمير سنجق بالرءوس الموجودة في أيدي عسكره وبأفراد القزلباش المسحوبين بالسلاسل؛ حيث كانت أعلامهم منكسة وصدى طبولهم ونفيرهم مظهرا للهزيمة، ولما قطع الغزاة رءوس القزلباش الذين أحضروا أحياء في لحظة واحدة وتراكم هذا العدد من رءوس الأعداء التعيسة على تراب الهلاك، أصبح ذلك موجبًا للعبرة وباعثًا للنصيحة التامة للأشقياء الذين أتوا من قبل مع الأمير المذكور.

تفصيل أحوال المرحوم درويش باشا

يعتبر أصل المشار إليه من السلسلة الجليلة لعائلة «صوقولو بك» يعنى عائلة «شاهين أوغلو» في البوسنة، وكان أخًا شقيقًا لوالدة هذا الحقير المملوء بالتقصير [المقصود بچوى]، وقد خرج من هذه السلسلة الجليلة شخصان عظيمان وصارا وزيرين أعظمين. كما وصل خمسة كبراء أيضًا إلى مرتبة الوزارة؛ وهناك عشرة أفراد اعتلوا منصب أمير أمراء، وليس مقيد بين أيدينا عدد الأمراء وسائر الأعيان الآخرين.

وكان المومأ إليه ابن عم «محمد باشا الطويل»، والأخ الأصغر للمرحوم «فرهاد باشا» الذي استشهد في «بدون»، وكان شجاعًا وبطلًا مغوارًا ومشهورًا دائمًا بالبطولة، كما كان سخيًا ووجيهًا وفائق الأقران خاصة في الفروسية والجندية، وفي عصره كان يفخر جند الشام وحلب بالتلمذة على يديه وكانوا يثنون عليه ويقولون: «إن العطاء من بعده ضحل»، وكان قد كمل السخاء والكرم في هذه السلسلة ووصل إلى أكمل صوره في شخص المرحوم «مصطفى باشا» والمرحوم «درويش باشا» في «بدون»، ومن جملة ذلك السنوية التي اعتاد توزيعها على خدمه مرارًا وتكرارًا؛ وكان خدم الأكابر في ذلك العصر يمتازون عن سائر الخلق بالملابس التي يطلق عليها «قلبدان چيراز»، فكان قد اعتاد أن يعطي إما ملابس الچيراز نفسها أو ثمنها وأن يعطي قماشًا من نوع آخر من أجل أن يطرز، كما كان إرساله بالات من أقمشة الشام الشريفة و«ديار بكر» الجديدة والظاهرة حديثا ومن الهدايا المتعددة إلى أقربائه من النساء والمنسوبين إليه الذين كانوا في

تلك الديار وأيضًا إرساله قافلة أو قافلتين من الجياد العربية كل عام للرجال، وتطييب الخاطر بخطاباته الشريفة، كانت من عاداته الحسنة. رحمة الله تعالى عليه.

فتح قلعة «چلدر» وقلعة «تومك» وقلعة «خرتيز» وقلعة «داخل كلك»

بعدما أرسل «عبد الرحمن بك» المُعيّن أمير لواء على سنجق «أردهان» من قبل السردار عالي الوقار لإخضاع القلاع المذكورة، فعلى إثر إعلان أهالي تلك القلاع الطاعة والانقياد، تم الاستيلاء عليها من الجانب السلطاني، وعين عليها حكامًا تابعين للسلطان.

فتح قلعة تفليس

في ٢٠ من جمادى الآخرة من السنة نفسها، وصل عساكر الإسلام في اليوم المذكور أمام القلعة المذكورة، وربما كان أميرها «داود خان» الذي كان أميرًا مشهورًا من ملوك «گورجستان» قد صار تابعًا للشاه من قبل، ولبس التاج [أي تاج القزلباش] وبقي متصرفًا على مملكته كما كان من قبل، فلما علم أنه ليس في وسعه مقاومة هجوم عسكر الإسلام، فر من القلعة وترك الدار والديار واحتمى مع جميع رعاياه واستقر في جبال صعبة الاجتياز، وتركوا القلعة المذكورة وأطرافها ونواحيها خالية وخربة، وهكذا، عهد السردار عالي الوقار بإيالتها إلى «صولاق فرهاد باشا زاده محمد باشا» أمير سنجق «قسطموني»، وأعطي له قدرًا كافيًا من الخدم؛ وأكمل له كل احتياجات القلعة؛ وقام بتنظيمها كما ينبغي.

إعلان «لوندخان أوغلو ألكسندره خان» الطاعة

وفي العام نفسه تحرك السردار من «تفليس»، وقام بعبور نهر «كر»، وفي المنزل الثالث، وبينما كان مقيمًا في ساحل نهر «قابور»، وصل الرجال الثقات بخطابات الاستمالة من جانب السردار إلى «ألكسندره خان» المذكور الذي كان أميرًا مشهورًا

للمدينتين الكبيرتين المعروفتين باسم «زكم» و«كويم» وحاكمًا لبعض الأراضي من ممالك «گورجستان» وكان أشهر وأكبر ملوك «گورجستان» سنًا، وعلى إثر ذلك، قام «ألكسندره خان» بجمع أعيان مملكته إلى جواره؛ وقام بترتيب الطوابير بالأشقياء المشهورين، ولما وصل الخبر بأنه على وشك المجيء إلى الجيش الهمايوني، قامت جملة عساكر الإسلام باستقباله بكمال العظمة والسمو وفقًا لمراسم حمية شرف السلطنة، ولما وصل إلى خيمة السردار المتخذ الظفر له شعارًا، أُحسن عليه بالخلع صرة صرة، وأُحسن إلى سائر المنسوبين إليه على قدر مراتبهم، ولما تعهد بدفع خراج يقدر في السنة بثلاثين حمل حرير وعشرة من الغلمان المحبوبين وعشرة من العذارى ذوات الأجسام الفضية وعشرة صقور من نوع «أسبرى» وعشرة أخرى من نوع «هجيزى»، أُكرم وأُحسن عليه بالبراءة عالية الشأن على أن يكون متصرفا على مملكته بلقب أمير أمراء.

في ذكر نسل ملوك «گورجستان» طبقًا لاعتقاداتهم

يدعي ملوك «گورجستان» أن نسلهم ينتهي إلى «كيكاوس»، ومنه إلى حضرة «داود» النبي صلوات الله تعالى على نبينا وعليه، ويقولون: إنه كان أحد السلاطين عالي المكانة في الزمن السابق، وكان يملك جميع «گورجستان» ويسلك مسلك العدل والعطاء الكامل في تلك الديار، واتفق أنه لما توفي، لم يبق له من الأولاد الذكور من يحل محله، ولكن كانت له ابنة ذات جمال تعرف باسم «نمرود وريال»، وكانت مثل أبيها، حكمها شامل لتلك الممالك، واشتهرت بالقول: «إنني لا أرغب في الزواج والنكاح، وإنه لا حاجة لي برجل». ويتقرب لخدمتها رويدًا رويدًا غلام صاحب حسن وجمال كان يتولى منصب رئيس إسطبلها، إذا شربت، يشرب معها، وإذا ذهبت للتجوال، يذهب معها، وكان لا يفترق عنها لحظة، وكان اسمه «طاوات»، وفي ذات يوم، وبينما كان يشرب الشاب المذكور معها، أخذ يصب لها بمفردها، ولما أكثرت من الشراب، فبينما كانت ترقد سكرانة وثملة، يدخل المذكور إلى مخدعها قائلا في نفسه: «الآن، هي هذه الفرصة»، وينال مراده منها كما يريد، وعندما استيقظت الفتاة في تلك الأثناء، تقول في

نفسها حدث ما حدث وتنام ثانية، وفي اليوم التالي تريد أن تقتله بسبب جرمه وخيانته هذه، ولكن بسبب أن قتله سيفشى الأمر، ولما كانت تعد قتل النفس من أجل جرم قليل بهذا القدر مخالفًا للعدل، فإنها تعدل عن ذلك. وتسعى للتخلص منه بإرساله إلى تلك الأماكن التي يكون بها أنواع المهالك العظيمة أينما وجدت هذه الأماكن، وأخيرًا، ففي ذات يوم تطلق صقرًا وتجعله يمسك بطة على الثلج، وتقوم بإرسال «طاوات» قائلة له: اذهب وأحضر الصقر والبطة، وكانت طبقة الثلج ليست بالقدر الذي يمكن أن يحمل رجلًا، فتنفد طاقة «طاوات» ويغرق في الثلج الذي غاص فيه.

وبعد فترة، يظهر حمل الفتاة، ولما يحين وقتها المحدد، تلد بنتًا والقرية التي يطلقون عليها الآن «شين» من قرى «وان» كانت تحمل اسم تلك البنت، وكانت مدينة عظيمة في ذلك الوقت، وكان هناك ملك ابن الملك المعروف باسم «بكره دوان» من أبناء الملوك، فيتزوج بها؛ وتلد له ثلاثة أبناء، ويقسم مملكة «گورجستان» على الأولاد الثلاثة هؤلاء، فيعطي إلى ابنه الأكبر مملكة «كوتاش» التي هي ملك «باشى آجيق» حيث تنتهي إليه سلسلة «باشى آجيق». ويمنح «تفليس» إلى ابنه الأوسط الذي يتصل به نسل «سيمون» الذين اشتهروا بلقب «لوار صات أوغللرى»، ويعطي ابنه الأصغر ولاية «ناخت» التي هي مملكة «لوند خان»، ولكن لما كان نسل ابنه الأكبر ينتهي إلى ملوك «باشى آجيق»، فجميعهم متفقون في تكريمهم وتعظيمهم. فمثلًا كانوا يستعيذون من دعائهم السيئ، ويتقلدون منهم السيوف، ويرجعون إليهم في مشاكلهم.

ووصل المرحوم السلطان سليم الأول عندما كان وليًا للعهد إلى مملكة «كوتاش» التي كانت دار ملك هؤلاء، ولما أطاعوا المرحوم السلطان سليم، تنازل عن خراج أراضيهم، وهم الآن لا يفرض عليهم خراج، ولما كان تفصيل كافة أحوالهم يوجب الإطالة، فقد اكتفى بهذا القدر.

فتح قلعة «شكى»

في سنة ٩٨٦ هجرية[1]، عندما أعلن «ألكسندره خان» الطاعة، كلف بفتح «شكى»، وكان قد أرسل معه مائتان من الفرسان من خدم البلوك، ومن الأمراء «ميرزا على بك» و«لاغوش أحمد بك» اللذين كانت تلك الديار مسقط رأسيهما من قبل وكانا بمثابة أسد وذئب تلك المملكة، ولكن نهر «قنق» الذي اعترض طريقهم كان سببًا في تأخيرهم عدة أيام بسبب أنه كان شديد الفيضان، وبعد ذلك، يجدون الفرصة، ويقومون بالعبور ويحاصرون قلعة «شكى»، وبفضل الله تعالى، يوفقون في فتحها والاستيلاء عليها في عظمة سلطانية، وعهد بإيالتها إلى «لوندا أوغلو أركلا ميرزا» مقابل بلاء أو خدمة والده هذا، و بعد أن تم توفير قاضٍ وحارس لها وجميع لوازمها واحتياجاتها، ضُمت وأُلحقت إلى الممالك السلطانية.

محاربة ثانية مع «أميرخان» وغيره من الضالين

سنه ٩٨٦ هجرية[2]، عقد السردار الذي شعاره النصر العزيمة مع الجند صائدي العدو للتوجه إلى جانب «شيروان»، ونزل بين نهر «قابور» ونهر «قنق»، وبينما كان مقيمًا في ذلك المكان، همَّ «طوقماق خان» والضالون المنهزمون معه لأخذ الثأر من عسكر الإسلام، فيرفعون رجاءهم بأخذ الإذن من الشاه وبأن يكون «أميرخان» خان «تبريز» سردارًا عليهم قائلين : «إنه بطل وشجاع»، وعلى هذا تجمع سبعة أو ثمانية من قادة العسكر مثل: «أمير خان» و«مراد خان» حاكم «مغان» و«شرف خان» حاكم «نخجوان» وأنصار «خليفة»، ومن ثم يعبرون نهر «قيون كجيدى» مع أكثر من عشرين ألف جندي من أصحاب الرءوس الحمراء، فيصلون إلى جمال عسكر الإسلام وسائر حيواناتهم التي كانت ترعى في المراعي، ولما وصل هذا الخبر إلى جناب السردار المتخذ

(١) الموافق سنة ١٥٧٨م.
(٢) الموافق سنة ١٥٧٨م.

النصر له معينًا، أرسل عليهم، في الحال «عثمان باشا» و«محمد باشا» أمير أمراء «حلب» و«مصطفى باشا» أمير أمراء «ذو القدرلو»، وعندما وصلوا، رأوا أن القزلباش قاموا بتشكيل عدة طوابير وأصبحوا متهيئين للقتال؛ حيث عبروا جميعًا ما عدا «أمير خان» من نهر «قيون كجيدى» المعهود، ولكن «أمير خان» بقي في مؤخرة الجيش مع عدة طوابير، ووقف عند رأس نهر «قيون كجيدى» وما إن وصل عسكر الإسلام حتى قاتلوا بشجاعة بالغة، وهجموا على الأعداء بسرعة خاطفة، ومع أن جند القزلباش لم يقصروا في ثبات القدم والصمود في مواجهة عسكر الإسلام، فإنهم في النهاية ولوا الأدبار بمدد عناية الباري تعالى، وانهزمت جميع طوابيرهم التي عبرت من الممر، ولما قام جندنا[1] بالهجوم العاصف عليهم، وسقط عندئذ حوالي ألف أو ألفين من القزلباش على الأرض بين قتيل وجريح، وآثر الباقون إنقاذ الروح، فتراكموا على بعضهم للعبور من الممر، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إلى هذا الممر المعهود بسبب الازدحام، فأسرعوا للعبور قبل مرور الوقت، فتساقطوا في الماء من مهابة السيف، وباندفاعهم لمكان ليس به ممر، غرق معظمهم في الماء، ولكن نجا «أمير خان» مع الطوابير التي لم تعبر، ومن خلع ملابسه ونجا من الذين عبروا النهر يشكر الله على سلامته بالقول: حسنًا، لقد نجوت.

في ذكر انهزام «أرس خان» حاكم «شماخى» و«أحمد خان» حاكم «شكى» بحكمة الله تعالى

كان هؤلاء الأمراء مع سبعة أو ثمانية من أقرانهم وبصحبتهم اثنا عشر ألفًا من القزلباش أعداء الدين يتوجهون لإمداد «أمير خان» ومساعدته، فيصلون بالصدفة إلى مكان حصين؛ حيث يشاهدون من على بعد أن «أمير خان» تحارب مع جند الإسلام، وانهزم، ولما سمع أهل «شيروان» السنيين عن انهزام القزلباش، بينما كانوا يأتون لتعقبهم، يشاهدون هؤلاء وهم يهربون، فيدخلون معهم في القتال حذر، وبينما كان

(١) المتحدث هنا «بجوي إبراهيم أفندي».

هؤلاء يتزاحمون ويعبرون من جسر عظيم، ينهدم الجسر تماما من أثقالهم؛ ومن ثم يسقط في الماء جميع القزلباش الذين كانوا عليه، ويفرقون، وهكذا فإن قيام سنييّ «شيروان» بإعدام الذين تخلفوا منهم هي النعمة غير المترقبة التي ظهرت.

في ذكر تأسيس قلعة «أرش»

كان عسكر الإسلام قد عانوا كثيرًا من قلة المؤن حتى وصلوا إلى المدينة المذكورة [أرش]، حتى إنهم كانوا قد أتوا مجتمعين إلى السردار عالي المكانة وأطالوا اللسان عليه، وفي الأمر نفسه، كان لا يمكن العثور على الشعير بستة ذهبية، والقمح بإحدى عشرة ذهبية، والملح الذي كان ضروريًا قبل كل شيء لكل طعام حتى ولو بذهبيتين، ولما جاءوا إلى مدينة «أرش»، وجدوا العزة والسعة في الرزق إلى حد ما حتى أصبح لكل فرد مؤن شهرية وربما مؤن يومية تقدر بأربعين أو خمسين ذهبية، ولما كان بناء قلعة في تلك المدينة ضروريًا، وكان هناك مكان يسعد القلوب يعرف باسم «شاة باغى» خارج المدينة وكانت تحيط أطرافه أسوار محكمة وسعته كانت تكفي لسكن عشرين أو ثلاثين ألفا من الجند، قرر باتفاق الآراء إنشاء قلعة في ذلك المكان، وعلى هذا اقتلعوا جميع أشجاره، وأقاموا خندقًا واسعًا وعميقًا وجعلوا له ثلاثة أبواب وأنشئوا عليها عدة أبراج كبيرة، وفي خلال أسبوع تم إنشاء قلعة محكمة وعظيمة، وقام السردار بإعطاء إمارة أمرائها إلى «قيطاس بك» الذي تخرج من الحرم المحترم برتبة «مير آخور» أي أمير إسطبل والذي كان واليًا على سنجق «صاروخان».

فتح قلعة باب الأبواب يعني تيمور قبو

في سنة ٩٨٦ هجرية[١] لما علم أهل السنة الذين يقطنون في تلك الديار أي «شيروان» أن السردار الذي حليفه النصر قام بإدخال مملكة «شيروان» إلى حوزة الدولة بالعساكر

(١) الموافق سنة ١٥٧٨م.

صائدي الأعداء؛ حيث قبض على الضال المعروف باسم «چراغ خليفة» الذي كان حاكمًا على القلعة المذكورة أي «تيمور قبو» من قبل الشاه الضال، وحبسه؛ كما قام بقطع رأس حوالي ثلاثمائة من رجال القزلباش، وبعد ذلك جاء إلى الجيش الهمايوني حوالي ألفين من رماة الأقواس والسهام والأبطال الأقوياء فائقي الأقران في البطولة، وكانوا على المذهب السني، ولابسين قلنسوات زرقاء وسوداء من نوع قالباق، وقد خلع على كبرائهم الخلع الفاخرة، أما الآخرون، فقد أحسن عليهم بأكثر مما يأملون، وفي تلك الأثناء انقطع الفتيل عديم الضوء لعمر «چراغ»، واحتل مكانه بين سائر القتلى من رجاله.

تمكين «عثمان باشا» في إيالة «شيروان» برتبة وزير

لما صارت مملكة «شيروان» من عداد ممالك العثمانيين، اتفق رأي صغار الجند وكبارهم على اختيار «أوز تيمور باشا أوغلو عثمان باشا» لهذا المنصب؛ وبذلك نصب «عثمان باشا» على حكومة «شيروان» برتبة وزير وسردار على أن تكون «تيمور قبو» المقر الرئيسي [أي العاصمة] للمشار إليه، وعهد للوزير المؤمأ إليه بألف من جند الإنكشارية بالتمام، وعدد من أغوات بلوك علوفجية يسار[1]، وقدر كافٍ من جند القبوقولي؛ أي جند خدم الباب وأكثر من ستين مدفعا ميدانيا ومن نوع «ضربزن»، ومائتي صندوق جبه خانه أي ذخيرة، ومرتبات ومستلزمات فترة ستة أشهر لطائفة الخدم التي بقيت مع «عثمان باشا». كما سجل من جديد ثلاثة آلاف من الخدم وعين أيضًا حوالي عشرة آلاف محافظ أي جنود أمن من أرباب مقاطعات التيمار مع الطوائف التي خرجت معه.

---

(١) علوفجية يسار: هم القسم الرابع من سوارية خدم الباب أو القابو قولو، ويلقبون باسم «الفرق الوسطى» إضافة إلى هذا الاسم «علوفجية يسار». وكانوا جميعهم عبارة عن مائة فرقة. وكانت بيارقهم بيضاء. وكانوا أثناء السير يسيرون خلف سلحدارهم من اليسار والذي يسير هو بدوره على يسار السلاطين. وكان موظفو المالية المعروفون باسم «باقي قوللري» يختارون من هؤلاء ومن علوفجية اليمين. وكانت وظيفة العلوفجية انتظار الخزينة الخارجية حينما يكون السلطان في الحملة. أما الخزينة الداخلية فكان ينتظرها أفراد المتفرقة.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 317.

في ذكر دخل ولاية «شيروان» وتحريره

لقد عهد بدفتر دارية الولاية المذكورة إلى الشخص المعروف باسم «كمشى زاده مصطفى چلبى»، وقد سجل دخلها السنوي أثناء حكم القزلباش، في الدفاتر السلطانية على أنه مائتان وسبعة وأربعون ونصف حمل أقچة، كما عين أيضًا الشخص المعروف باسم «زال محمد چلبي» لمسح أراضي تلك الديار، وقد سجل بالدفاتر لأمراء أمراء «شماخى» مقاطعات خواص[1] التي يقدر دخلها بسبعمائة ألف أقچة، ومقاطعات خواص التي هي استحقاق لأربعة عشر أمير سنجق، ولكل سنجق سجل أيضًا أرباب الزعامت وأرباب التيمار والقرى ذات الدخل على أنها خواص همايونية، وقد سجلت بالفعل الخواص للأمراء في إيالة «تيمور قبو» على الوجه المشروح، وحررت القرى لأرباب الزعامت وأرباب التيمار بحسب القانون، وعينت الخواص لسبعة أمراء سناجق، وقام أيضًا بإعطاء سنجق ممتاز كمقاطعة «أربه لق»[2] إلى «أمير شمخال» حاكم «داغستان»، كما أعطي سنجقًا آخر جيدًا كمقاطعة «أربه لق» أيضًا إلى أخيه «طوجه لاوبك» الذي قد تزوج «عثمان باشا» من ابنته، حتى يكون ذلك باعثًا على تقوية روابط الصداقة والمودة مع حكام «داغستان»، ولم يذكر اسم كثير من حكام «داغستان» التي كانت مملكة واسعة في تلك الديار أي «شيروان»، وكان من هؤلاء حكام «قموق» و«قيتاق» و«تيزسرانه»؛ وقد أعلن هؤلاء جميعًا الطاعة والانقياد لـ «عثمان باشا».

---

(١) خاص: هو تعبير يطلق على التيمارات التي تحقق دخلا أكثر من مائة ألف أقچة. وكان يوجد تعبير «خاص» عند سلاطين خوارزم، والمماليك، وسلاجقة الأناضول.. وكانت الخواص التي تعطي للوزراء وأمراء الأمراء والأمراء الآخرين تسمى باسم «خواص وزراء». وكان انقسام التيمارات إلى قسمين «تيمار» و«زعامت» قد تم في عهد السلطان مراد الأول.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 750.

(٢) آربالق: هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامى» في «قاموس تركى»: هي المخصصات التي تعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 84.

وقد أحضر المرحوم «عثمان باشا» معه تلك المرأة إلى «إستانبول»؛ حيث اشتهرت بحسن جمالها في إستانبول، حتى إن أهل الهوى في ذلك الزمان كانوا ينظمون الأغاني التي تعرف باسم «شرقي» والمربعات تحت اسم «داغستان كوزه لى» أي حسناء داغستان، وكان ذلك أكثر ما كان يذكر على لسان المغنين لمدة سنة أو سنتين، وبعد ذلك، كانت قد زوجت بفرمان سلطاني للمرحوم «حسن باشا» الذي غرق في البوسنة. حتى إنه حملها معه إلى البوسنة.

في ذكر عودة السردار ذي الوقار من «أرش»

لما أقام السردار ثمانية عشر يومًا في «أرش»، وأكمل مهمات القلعة المذكورة واحتياجات «عثمان باشا» المغوار كما ينبغي، عاد من ذلك المكان بعسكر الإسلام؛ وأخذ طريق العودة بنية العبور من مملكة «لوندخان»، وفي اليوم الثامن، نزل إلى المكان المعروف باسم «سلطانجق»، ولما جاء «شمخال» حاكم «داغستان» لمقابلة السردار عالي الوقار في المكان المذكور، استقبله عسكر الإسلام بتمام الزينة والبهاء، وأحضروه وبالغوا في تعظيمه وتكريمه. ومن الحكمة، أن كانت تلك الليلة ليلة القدر، فأقام عسكر الإسلام الاحتفالات، وأطلقوا المدافع والبنادق، وصنعوا أسطولًا من الشمع، وأقاموا أنواع الزينة والمسرات بالدرجة التي أصبح فيها أتباع المذكور «شمخال» في حيرة ودهشة.

ـ حكاية:

يروي المرحوم «عالي أفندي»: أن السردار عالي الوقار كان قد أرسل هذا الحقير «عالي أفندي» من أجل أن يوضح له [أي لشمخال] بعض الأخبار اللازمة الإخفاء شفويًا. وبينما هو يتحدث معه «بعد تبليغ الرسالة»، روى له «شمخال» ما يلي:

يوجد فيما وراء الجبل الذي يتجلى أمامنا قوم مبتذلون يعرفون باسم «إيت تبل»، وإنهم قوم أنجاس وآكلو الجيفة وسيئو المذهب والخُلق؛ حيث إن السبعة أو الثمانية أشخاص منهم يتزوجون امرأة واحدة، ولما يأتي ابن الزنا إلى الوجود، ويصبح قادرًا على

الحركة، يجلسون كلهم متراصين حتى تلمس ركبة كل واحد منهم الآخر؛ ثم يعطون تفاحة لولد الزنا هذا، ويدعونه إليهم، فإذا أعاد التفاحة إلى أي منهم، يحكمون بأن الغلام ولده.

وروى أيضًا أنه كان يوجد قوم في منطقة «قيتاق»، وكانوا يطلقون على حاكمهم اسم «أسومى»، وكان يدعي أنه من نسل «حضرة حمزة رضي الله تعالى عنه» العم الجليل لحضرة حامى الرسالة صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع أن قاماتهم معتدلة ومشابهة لسائر الناس فإنهم كانوا في غاية السمنة والضخامة، ورءوسهم بقدر المرجل الكبير الذي يطهى فيه خروفان كاملان، فمثلًا لا يمكن لأي حصان أو بغل مهما كانت قوته أن يستطيع تحمل سحب هؤلاء، وإذا انتقلوا من مكان إلى مكان، كانوا يركبون العربة التي يقودها الجاموس ويذهبون، حتى إنهم أوضحوا عذرهم للسردار عالي الوقار بعدم مجيئهم بأنه لم تستطع العربة العبور من ذلك الجبل.

في ذكر دخول عسكر الإسلام إلى مشتى «أرضروم»

لما جيء إلى نواحي «تفليس» بعسكر الإسلام، كان ذلك قبل يومين من شهر نوفمبر، وكانت قد ظهرت بوادر الشتاء، وهبت الرياح الباردة والشديدة لدرجة أن عدة آلاف من الخيام انهدمت وتمزقت بسببها، وفي «ليلة قاسم» - أي بداية الشتاء - أيضًا أمطرت السماء ثلجًا بالدرجة التي دفنت فيها معظم الخيام في هذا الثلج. ونتيجة لذلك، هلك عدة آلاف من الرجال في ذلك المنزل، وصفوة القول؛ فقد تيسر الدخول إلى «أرضروم» في الواحد والعشرين من رمضان المبارك ٩٨٦ هجرية[1] بعد عناء ومشقة بالغة.

وكان قد استغرق تحرك السردار بعسكر الإسلام من «أسكدار» حتى وصل إلى «أرضروم» قاطعًا المنازل، مائة وأربعة وثلاثين يومًا خلاف مدة إقامتهم في تلك المنازل،

(١) الموافق ١-١١-١٥٧٨م.

وفي ذلك الحين أعطي الإذن لبعضهم بقضاء الشتاء في ذلك المكان، وأُذن لبعضهم بالانصراف إلى أوطانهم؛ وأكملت مستلزمات كل شخص طبقًا لمقتضى الحال.

في ذكر الوقائع التي حدثت في مملكة «شيروان» بعد عودة عسكر الإسلام

قام «عثمان باشا» الموقر، أولًا ببناء جسر محكم تجاه «أرش» بالعساكر الكثيرة التي كانت تحت إمرته، وعبر منه؛ حيث قام بنهب وسلب أهالي «قره باغ» و«مغان» وأحدث بها خسائر عظيمة، ثم وصل إلى دار إمارته بالغنائم التي كانت لا حد لها ولا قياس.

في ذكر انهزام وقتل «أرش خان» حاكم «شيروان» سابقًا

كان «أرش خان» حاكم «شيروان» قد قام من قبل بتجهيز خمسة وعشرين ألف جندي من جند القزلباش بقصد القضاء على «عثمان باشا» وجميع السنيين؛ فيعبر إلى أرض «شيروان»؛ وفي البداية ينزل على «شماخى»، وفي اليوم التاسع من رمضان المبارك الذي كان يوافق يوم الأحد، يصل «عثمان باشا» أيضًا بعسكر الإسلام لمواجهته، فيتقاتل الطرفان، وفي ذلك اليوم، يدور القتال طوال النهار، ولكن ما إن يحل المساء حتى يقرعوا طبول وقف القتال ويتراجعون عن بعضهم البعض، وفي اليوم التالي، يجري القتال على هذا النحو تمامًا. وفي اليوم الثالث الموافق يوم الثلاثاء، يستمر القتال والحرب كما هو أيضًا.

وبعناية جناب رب العالمين وببركات ومعجزات خير الكائنات عليه السلام، بينما كان عسكر الإسلام ينتظرون بعيون أربعة؛ أي بترقب شديد منذ مدة طويلة مجيء «تتار خان»، يصل في تلك الأثناء، أشقاء «تتار خان» الثلاثة الأبطال الأقوياء، وكان أحدهم هو «عادل گراى» والآخر هو «غازي گراى» والثالث هو «سعادت گراى» وابنه الموقر «مبارك گراى»؛ حيث وصلوا مع أربعين أو خمسين ألفًا من جند التتار صائدي الأعداء،

وبلا احتراز يشتبكون مع القزلباش. وبفضل الله تعالى، تقع الغزوة التي نادرًا ما رأت عين الفلك، وربما زمرة الملائكة، مثلها.

وأخيرًا، يتم في ذلك الحين حصر أربعة وستين وسبعمائة وسبعة آلاف رأس من رءوس القزلباش المقطوعة خلاف هذا العدد الذي قتل من الخانات والسلاطين، وتم التأكد أيضًا أن الذين هلكوا من الجرحى والذين غرقوا في الماء بلغوا أكثر من عشرة آلاف، وكان «أرش خان» سردار الضالين قد وقع أسيرًا، فقتل هو أيضًا في مجلس الوزير جليل الشأن، ولكن لما كانت الغنائم التي اغتنمها عساكر الإسلام تزيد عن الحد والإحصاء، فقد سد ذلك الباب.

في ذكر استشهاد «قيطاس باشا» أمير أمراء «أرش»

عندما اتجه «أرش خان» سيئ الطبع صوب «عثمان باشا»، وصل أيضًا «إمام قولي سلطان» و«كيلانى أمير خان» بخمسة عشر ألفًا من القزلباش الضالين إلى قلعة «أرش»، وبينما كان يجب على «قيطاس باشا» أن يتحصن بالقلعة، فإنه يستخف بالقزلباش ولا يعبأ بهم ويحمل عليهم، ولكن لما كانت الرياح غير مواتية، كما ورد في المثل العربي «تجرى الرياح بما لا تشتهي السفن»، فإن عسكر «قيطاس باشا» يهزمون ويُقتل هو أيضًا في تلك الأثناء. وبعد ذلك يصل عسكر القزلباش إلى مدينة «أرش»، ويدخلونها لقتل عدد من أهل السنة، فيقومون بالسبي والنهب في محلة أو محلتين من محلاتهم ويغتنمون الغنائم.

الإغارة على مال وممتلكات وأهل وعيال «أرش خان» ثم أحوال القتال مع عسكر القزلباش

عندما قتل «أرش خان»، ولَّى «أرطوغدى خان» وبعض السلاطين الأدبار في تلك المعركة، ولما علم الوزير الشجاع أنهم قاموا بحفر خندق في مكان محكم في المملكة المعروفة باسم «هلو» تجاه نهر «كز»؛ لحفظ وحراسة أنفسهم وأهلهم وعيالهم مع بقايا القزلباش المحاربين، أرسل عليهم مقدارًا من جند التتار مع إخوة الخان [خان التتار].

وبمجرد أن وصل جند التتار، انهزم القزلباش، ولم يستطيعوا التصدي لهم، وقام جند التتار بسبي ونهب خزينة «أرش خان» وبناته السبعين الذين كانوا غاية في الجمال، وزوجته وأربعين أو خمسين من جواريه الحسان؛ وقاموا أيضًا بأسر ابنه الذي كان صبيًا، وقتلوا معظم القزلباش الذين كانوا هناك. وصارت اثني عشر ألف قافلة، خلاف سائر الغنائم حق ونصيب جند التتار، والحق، كان هذا الفتح وهذه الغنائم تزيد عن الغنائم السابقة.

في ذكر محاصرة «عثمان باشا» في «شماخي»
والحرب التي قام بها جند التتار المذكورين

قام ثلاثون أو أربعون ألفًا من الجنود الملاحدة بجعل الصبي الذي أطلقوا عليه اسم شهزاده قائدًا عسكريًا لهم؛ وأتوا إلى قلعة «شماخي»؛ وحاصروا «عثمان باشا» ثلاثة أيام، ومن ثم يرسل الباشا المشهور أيضًا رسولًا حتى يصل عسكر التتار بسرعة. فيقع الجاوش الذي يذهب بالخبر في يد عسكر القزلباش، وعند وقوفهم على مضمون الرسالة، يرجئون القتال مع أهالي «شيروان» ويتحركون لمواجهة جند التتار، فيلتقون بهم في صحراء «محمود آباد»، ويقع بين الطرفين قتال شديد على مدى ثلاثة أو أربعة أيام. ولكن كثرة الثلج لم تمنح الفرصة للطرفين. وفي النهاية يكفون عن القتال، ويتراجع القزلباش إلى مناطقهم ويتجه التتار إلى «باب الأبواب».

ولما أدرك «عثمان باشا» جيدًا أن عسكر الإسلام تحصنوا في «تيمور قبو» وذلك لأنهم لم يتأخروا في «داغستان» وأنهم لم يصلوا إليه بعد، تحرك من «شماخى» والتقى بأبناء الخان، ثم يأتون سويًا إلى «تيمور قبو»، وفي هذا الموضع يصل حوالي خمسة عشر ألف تتاري من تتار «نغاى»، ويصل أيضًا العدد نفسه من الجند رماة الأقواس من عند «أمير شمخال» حاكمُ «داغستان». ولهذا شعر عسكر الإسلام بكمال القوة والشوكة والغلبة والنصر، وبعد ذلك، فضل «عثمان باشا» البطل أن يعرض هذه الأحوال على جناب السلطان مدار العرش عن أن يعرضها على الوزير فاتح الأقاليم؛ فقام بإرسال السعاة

بالخيول السريعة من «دشت قبچاق» صوب ساحل «كفه»؛ وأخبر بالوضع، وبينما لم يكن هناك سبب ظاهر لإغماض العين عن جانب السردار ولم يكن هناك حالة برود ظاهرة فيما بينهم، أصبح عثمان باشا بعد ذلك لا يرجع إلى الوزير، ويعرض الأمور التي يلزم عرضها ورفعها على باب السعادة مباشرة.

في ذكر وقوع «عادل گراى خان»
شقيق خان التتار أسيرًا في يد القزلباش

توجه القزلباش الذين أتوا على «شيروان» إلى نواحي «قره باغ» و«مغان»؛ ومن هناك توجهوا إلى ناحية «تيمور قبو»، ولما أحيط جناب الوزير عالي المكانة علما بأن هؤلاء القزلباش مجتمعون في المكان المذكور [تيمور قبو]، قام في الحال بإرسال «عادل گراي سلطان» شقيق الخان عليهم بجند جرارة، ولكن كان وقوع السلطان المذكور أسيرًا وهزيمة التتار أمرًا مقدرًا، وسقط مطر شديد ووفير بالدرجة التي تجمدت أيديهم وأقدامهم، وأحاطت جحافل الأعداء بهم من كل جانب، وفي النهاية، وبعد قتال وجدال مرير، وقع ابن الخان أسيرًا، ومع أن القزلباش بالغوا في إجلاله واحترامه معتبرين أنه من سلالة آل جنكيز خان، ولكن ما فائدة ذلك وقد صار الأعداء منصورين وهو مقهورًا، وكان هذا الذي حدث هو قضاء الله وقدره.

تفصيل الحملة الهمايونية في السنة الثانية في
عهد الوزير والسردار المشار إليه مصطفى باشا

صدر فرمان في ربيع الأول سنة سبع وثمانين وتسعمائة هجرية[1] بأن يتجمع عسكر الإسلام في صحراء «أرضروم» الواسعة في شهر جمادى الأولى، وفي هذه السنة المباركة لما كلف أمير أمراء الأناضول «جعفر باشا» وأمير أمراء الشام «حسن باشا» قرة عين

(١) الموافق يونيه- يوليو ١٥٧٩م.

الوزير الأعظم الجليل «محمد باشا الطويل» مع عسكر إيالاتهم بالحملة الهمايونية، أتوا إلى المكان المذكور وتجمعوا فيه، وبعد ذلك، عقدوا العزم ونزلوا في اليوم الثاني من جمادى الآخرة في صحراء «قارص». وقبل كل شيء قاموا ببناء قلعة «قارص»، وبفضل الله تعالى، أتموها في سلخ الشهر المذكور.

ـ ومن الكرامات الرؤيا الصالحة :

يرى صاحب طريقة من جند «بلوك خلقي»[1] في منامه أن شيخًا ذا وجه نوراني يظهر، ويحدد مكانًا قائلًا: «يطلقون عليَّ أبا الحسن حرقاني، ومقامي في هذا المكان، ولو أنك تريد علامة وإشارة، فإنه يوجد بئر عميق عند طرف قدمي»، ولما قص ذلك الشخص رؤيته على جناب السردار، قام السردار بحفر ذلك المكان، فوجد ذلك البئر العميق بعينه. وقام بوضع مقام لطيف عنده، وأصبح الوضع على هذا النحو حيث بدأت الدنانير والدراهم والصدقات والنذور تمطر مثل المطر على هذا المكان؛ وصار باعثًا على إحياء بعض الفقراء.

ـ ومن عجائب الآثار القديمة:

ومن قول «محمود باشا» أمير أمراء «الروم إيلي»: إنه وجد حجرًا من الرخام مكتوب عليه بألفاظ عربية ومحفور عليه للتأريخ: كان قد عَمَّرَ شخصٌ جليل يعرف باسم «فيروز» وزير السلطان الموقر المعروف باسم «ملك عز الدين» هذه القلعة في تاريخ ٥٤٨ هجرية[2]، وكانت قد قدمت المرأة المقرونة بالشرف المعروفة باسم «بنده كريم الدين» العون والمساعدة له أيضًا، وقد وضع ذلك الحجر الثقيل في مكان في القلعة؛ وأظهر الاعتبار لتلك الآثار القديمة.

---

(١) بلوك خلقي: هو اسم أطلق على جند سوارية القابو قولو.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 58.

(٢) الموافق سنة ١١٥٣ ـ ١١٥٤م.

محاصرة قلعة «تفليس» ومعاناة المحاصرين

بعد مجيء عسكر الإسلام إلى «أرضروم»، كانت قد وردت خطابات الاستغاثة عدة مرات من أمير أمراء «تفليس»، وكان قد ذكر فيها معاناته، ولكن لم يكن ممكنًا وصول الذخيرة مهما بذل من سعي، وعندما وقف القزلباش على ما يعانيه، أتى «إمام قولي خان» بعشرة آلاف جندي، وحاصروا القلعة أربعة أشهر كاملة، حتى إنه لم تعد تباع كيلة القمح بين المحاصرين حتى بألف أقچة وكيلة الشعير بثمانمائة أقچة. وقد بيع الجمل بعشرين ألف أقچة، وأخيرًا، أكلوا لحم الكلاب والقطط حتى إن الكلب الواحد كان يباع أيضًا بألفي أقچة، وكان قد بقي في القلعة من المحاصرين الذين تحملوا المعاناة سبعمائة رجل فقط. وبعد هذه الدرجة من المعاناة، طلب القزلباش القلعة بسعي حثيث وبالعديد من العهود والوعود، إلا أن المُحاصَرين لم يسلموها، وبعد فترة، أرسل السردار مع «مصطفى باشا» ذخيرة كافية، ووهب الحياة بإذن الله لهؤلاء الفقراء بإرساله هذه الذخائر عدة مرات.

ومع أن بعض هذه الذخيرة وقعت في يد كفار «گورجى»، فإن بعضها أصبح من نصيب أهل الإسلام، وأعد السردار مرة أخرى ذخيرة وفيرة، وجعل «حسن باشا» قرة عين الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل» ومحبوبه، سردارًا، وأرسل الذخيرة معه إلى «تفليس»، ووصل «حسن باشا» وعاد ببطولة أكثر مما كان يتوقع خلال ستة عشر يومًا، والغريب في هذا، أنه يصل إلى الباشا المومأ إليه [أي حسن باشا] خطابًا من والده قبل يومين من تحركه. وقد كتب له فيه: «إنني أعلم أنه سيوجه لك الأمر بمهمة إيصال الذخيرة إلى «تفليس»؛ فعليك ألا تخالف، ولكن ينبغي عليك أن تعمل بمضمون «قدم الخروج»؛ وينبغي أن تذهب باستعدادات تامة، وأن تعلم أن هذه المهمة من أولويات الدولة»، وكان «حسن باشا» قد وضّح بنفسه مضمون هذا الخطاب إلى بعض خواصه.

قيام عسكر الإسلام بالإغارة على مملكة «روان» ونهبها

كان الديوث المعروف باسم «طوقماق خان»، في أثناء بناء القلعة، لا ينقطع عن الهجوم بفرقة من الأشقياء أحيانًا على من يحملون الذخائر، وأحيانًا أخرى على طائفة الغلمان الذين يقومون برعاية الخيل التي تذهب لإحضار العشب، وبفضل الله تعالى، لما تم بناء القلعة، كان قد أفتى حضرات مشايخ الإسلام حلالي مشكلات الأنام بفتوى شريفة تجيز نهب ديار القزلباش وتخريبها وباسترقاق أهلهم وأولادهم، وهذا هو نصها:

ـ مسألة: صار «زيد» الأرمني الأصل عبدًا، فهل يجوز استخدامه شرعًا؟

ـ الجواب: عندما يرتكب جرمًا، يجوز.

ـ مسألة : لقد حل تمام الضعف والمذلة على الأعداء، وكمال القوة والعظمة على جند الإسلام بأسر نساء القزلباش بناءً على الرواية المنقولة عن الإمام الأعظم بأنه جائز أسر النساء المرتدات اللاتي لم تذهب إلى الحرب، فهل يجوز شرعًا العمل بهذه الرواية؟

ـ الجواب: يجوز.

ـ مسألة: هل يجوز شرعًا أخذ الأولاد الصغار الذين لم يعقلوا دين النساء الأسيرات، أسرى مع أمهاتهم؟

ـ الجواب : يجوز.

وعلى هذا فبموجب هذه الفتاوى، قرر السردار عالي الوقار القيام بهجوم خاطف على ممالك القزلباش وضربها وتخريبها، وأمر بأن يكون «جعفر باشا» أمير أمراء الأناضول سردارًا، وأعطاه تحت إمرته ثلاثة من أمراء الأمراء أيضًا، وبصحبتهم عسكرهم؛ وأرسلهم إلى ناحية «روان»، وقالوا: «فلير: طوقماق خان حاكم ديار «روان»: هل الإغارة على الغلمان الذين يرعون الخيول، وإيقاع الضرر بدواب العسكر شيء حسن؟» وقاموا بالإغارة على مدينة ومملكة «روان»، وعمومًا، قاموا بهدم قصورها المنقوشة والمرصعة بالذهب وجعلوها متساوية بالتراب، وبتحطيم الأروقة والأبواب والنوافذ

المصنوعة على شكل أنصاف دوائر والمنقوش عليها والمذهبة، وتم أسر أكثر من عشرين ألفًا من أطفالها ونسائها، وبعد ذلك، عاد عسكر الإسلام، ووصلوا إلى المعسكر الهمايوني غانمين ومسرورين.

في ذكر نبأ قتل زوجة الشاه الضال سيئة الحظ وأخته غير الشريفة و«عادل گراى خان»

قبل ذلك، كان قد سبق القول: إن «عادل گراى سلطان» شقيق خان التتار قد وقع أسيرًا في أيدي القزلباش قدرًا، فبعد القبض عليه، يقوم الشاه بوضع السلطان [أي الخان] المشار إليه في إقامة جبرية بمنزل فخم في قصره الخاص، ويعين على خدمته بعض القزلباش كمراقبين له، ولما كان سليل الملوك بطلًا وشجاعًا وأنه أفضل منه أيضًا حسبًا ونسبًا، كان يريد أن يجعله صهرًا له. ولكن تعشق أخت الشاه وزوجته سليل الملوك المشار إليه، وبسبب المصاحبة والحديث بهذا القدر المناسب، ينشأ التوافق والعشرة بينهم، ثم يحدث الوصال. وبعد ذلك، يشك أفراد الحراسة المعروفين باسم «گورجى» في الأمر، ثم يتأكدون مما جرى، ويقولون: «إذا كان الشاه ديوثًا وبلا شرف، فهل لا توجد لدينا غيرة؟» وفي ذات يوم، تدخل جماعة القزلباش المكروهة التي تعرف باسم «عموما عسكري» إلى حجرة نوم الشاه، وعلى الرغم من أن محبوبته التي هي زوجته كانت بين أحضانه وتحتمي بسريره، وعلى الرغم من أن الشاه حاول أيضًا كثيرًا إنقاذها من بين أيديهم، ولكن ذلك لم يفد، فيسحبونها من حضن الشاه ويأخذونها، ثم يقتلونها بحكم الإعدام، وبعد ذلك يتوجهون إلى حرم سراي أخته التعيسة ويقومون بقتلها أيضًا. ويقتلون أفراد الحراسة الذين كانوا في وظيفة حراسة سليل الملوك وكانوا موجودين دائمًا عند الباب والسجن وقاموا بالوساطة فيما بينهم، وبعد ذلك، عندما قاموا بالهجوم على الحجرة التي كان بها سليل الملوك، فإنه يقاتل قتالًا عظيمًا حتى يقتل سبعة أفراد من طائفة الحراس، وبعد ذلك، يُجرح وتنهار قدرته وقوته، وفي تلك الأثناء، يضربونه بالبندقية ويستشهد. رحمة الله تعالى عليه.

انتقام «الشاه عباس» الخناس من طائفة «گورجى» أي الحراس

جاء أسيرٌ من القزلباش في زمن المرحوم الوزير الأعظم «مراد باشا»، وكان من أبناء أمير «گورجى»، وكان قد دخل إلى خزينة الشاه في أيام صغره، ونال الاعتبار والالتفات، وصار «باش خزينة دار»؛ أي رئيس لموظفي الخزينة لسنين طويلة، وكانوا يطلقون عليه «يوسف أغا»، وكان قد أعطي له المرحوم «مراد باشا» مقاطعة «زعامت» في «رقه»، وكان قد بقي هناك، وهو يروي ما يلي:

يقوم الشاه بوضع خطة لأخذ ثأر أمه وأخته؛ فيحضر جماعة من طائفة «الگورجى» بحجة التحقيق معهم، وكان يوجد حرم مستطيل لسراي «أصفهان»، فيقف هو عند عتبة الباب ويحقق معهم واحدًا واحدًا، ويسأل كل «گورجى» من الذين أتوا سؤالًا، كم لديه من النقود وأين وجدها وكيف اكتسبها، ويرى نقوده وعلامته ثم يتركه، وعندما يعبر من باب أو بابين من أجل الدخول للداخل، يقوم بعض الجلادين القساة الذين وضعوا في ذلك المكان بفصل روحه عن بدنه ويقطعون رأسه ويلقون به في حفرة، وينتظرون الآخر الذي يليه، أما الشاه، فيسأل فردًا آخر في ذلك الحين، وبعد ذلك، يسلك ذلك أيضًا الطريق نفسه. وبالجملة، فقد قتل بهذا النظام ألفًا وسبعمائة أو ألفين وسبعمائة رجل والله أعلم، ولم يكن ممكنًا لأي شخص قط أن يظن في هذا، ولم يصل لإدراك أي شخص هذا الأمر، وفي النهاية كان يقف بجانبه شخص يُظن أنه صاحب كرامة، فقال: «اكتف سيدي وسلطاني بهذا، فالإنصاف شيء حسن». وفي تلك الأثناء وقف رجال السراي على الأمر، فهربوا متفرقين إلى كل جانب، فقال الشاه في تلك الأثناء: «ها هم القطط، وهذا جزاء من اعتدى على حرم السلطان». وأمر الشاه بالاستيلاء على جياد هؤلاء المقتولين وأسرجتهم وثيابهم باسم الشاه، والعهدة على الراوي.

وصول الخان ذى الشأن «محمد گراى خان»
إلى «شيروان» بعسكر التتار وعودته مرة أخرى

في سنة ٩٨٧ هجرية[1]، كانت قد أُرسلت الخطابات الهمايونية تكرارًا إلى الخان المتخذ

(١) الموافق سنة ١٥٧٩ - ١٥٨٠م.

الجلالة له نشانًا حتى يتوجه إلى «تيمور قبو»، وكان قد أحسن إليه بمال وفير من جانب السلطان من أجل الإنعام على عسكر التتار، فتحرك الخان أيضًا وتوجه طوعًا وكرهًا في غرة جمادى الآخرة من السنة المذكورة من المدينة المعروفة باسم «باغچه سراي» والتي كانت دار ملكه مع عسكر التتار الكثيرة كثرة النمل.

وقام «محمد گراي خان» بتنصيب «محمد بك» الذي كان أمير سنجق «أزاق» والذي كان أميرًا ذا شأن وذا معرفة بطوائف الجراكسة ومملكة «گورجستان» بل وممالك «الروس» و«داغستان»، قام بتنصيبه قائدًا على حوالي عشرة آلاف من التتار وأرسله قبله، ويصل «محمد بك» المشار إليه إلى «تيمور قبو» في خلال أربعة وسبعين يومًا، فيفرح «عثمان باشا» صاحب الجلالة جدًا من مقدم المذكور؛ ويضم رتبة «قبطانية» بحر «قلزم» إلى إيالة «شيروان» ويعطيها إلى المشار إليه [محمد بك] مقابل مقاطعة «خاص» خراجها مائة ألف أقچة ثماني مرات [٨٠٠, ٠٠٠]. وفي تلك الأثناء، يصل أيضًا الخان ذو الشأن؛ ويصبح ضيفًا على «عثمان باشا»، والآن كان سيئ الظن المعروف باسم «محمد خان» من القزلباش يصرف قوته ويبذل مقدوره للاستيلاء على «شماخي»، فجرد «محمد گراي خان» عليه العسكر، وجعل أكثرهم حصيدًا للسيف، وبعد ذلك، قام بإرسال «خان زاده غازي گراي» لدفع العامة الذين كانوا مجتمعين في القصبة المعروفة باسم «باكو» وأوقع العقاب بهؤلاء أيضًا كما ينبغي، وبعد ذلك وصل الخان صاحب الجاه و«عثمان باشا» صاحب الجلالة إلى «شماخي»، وعبروا من نهر «كرده» الواقع في ذلك المكان؛ وقاموا بنهب وتخريب جميع الممالك المعمورة من بلاد القزلباش وحتى المكان المعروف باسم «قزل أغاچ». واستولى التتار على الغنائم بذلك القدر الذي يفوق الحصر. وأحاط «عثمان باشا» السردار عالي المقدار بواسطة رَجُلِهِ المعتمد عليه المعروف باسم «لاجين أغا» علمًا بهذا الخبر السار؛ حيث كان هذا الخبر باعثًا على سرور كل عساكر الإسلام، أما الخان، فقد اكتفى بهذا القدر من خدمة الدولة في تلك المناطق، ولم يرض بالبقاء في أراضي «شيروان»، وقضاء الشتاء بها، وبدأ بعرض بعض الأعذار والحجج؛ حيث ترك ابنه «غازي گراي خان»، وقفل عائدًا، وكان هذا الوضع سببًا للغضب السلطاني، وأخيرًا أصبح باعثًا على فقدانه ملكه ورأسه.

خبر استشهاد المرحوم والمغفور له الوزير الأعظم محمد باشا رحمة الله تعالى عليه

في ٨ من شعبان المعظم سنة ٩٨٧ هجرية[1]، وصل خبر استشهاد المرحوم المبرور «محمد باشا»، ذلك الخبر الموحش، إلى السردار عالي المقام وسائر جند الإسلام في اليوم السادس من رمضان المبارك، وأصبحت معظم طوائف العسكر مشتركين قلبًا وقالبًا في مأتمه؛ وربما لم يبق شخص دون أن يبكي، ولما سبق تفصيل سائر أحوال المرحوم في موضع أو موضعين في هذه المجموعة المطبوعة، فلم يُرَ التكرار والإكثار مناسبًا.

تعيين الوزير الثالث سنان باشا سردارًا وتوجه مصطفى باشا إلى باب الدولة

كان المرحوم «سنان باشا» رجلًا مغرورًا وأنانيًا في ذاته وعنيدًا، وهو من جنس «أرناءوط»[2] الأكثر عنادًا، كما كان مملوءًا بالكبر والحقد، وكان شخصًا صاحب مال وفير ويستميت في الانتقام من منافسيه، وبصفة خاصة، كان قد سبق أن روي أنه سيتم تنصيب كل من «لالا باشا» و«سنان باشا» سردارًا عن فرقة في الجيش، ولكن عندما قرر المرحوم الصدر الأعظم «محمد باشا الطويل» برأيه الصائب أن يصبح «لالا باشا» فقط هو السردار، صار «سنان باشا» لا يتردد دائمًا عن تذليل وتحقير خدمات «لالا باشا» المبرورة وعن تكذيب مكاتباته وعروضه التي كانت ترد. وكل رأى حسن يصدر عن الـ «لالا»، قطعًا كان المشار إليه [سنان باشا] يحمله على الخطأ، فمثلًا كان يقول: «إنه لم يعبأ بالأمر أثناء محاربة «طوقماق خان»، ومكث في خيمته، وأرسل العسكر على «طوقماق خان»، وارتكب هذا الخطأ، فلو كان قد وصل على رأس فرقة، فبلا شك أنه إما كان سيأسره أو يمحو وجوده من عرصة العالم ويذهب، ولو أنني كنت مكانه،

---

(١) الموافق ١٥٨٧م.

(٢) ألبانيا حاليًا.

لفعلت على هذا النحو، وكنت سأملأ الديوان السلطاني برءوس القزلباش، وكنت آمل من جناب الحق جل شأنه أن أرسل رأس الشاه أيضًا إلى الديوان السلطاني».

وعمومًا، كان يتضايق من المرحوم الصدر الأعظم «محمد باشا الطويل» وكان لا يعظم كثيرًا جدًا بجانبه، وبعد المرحوم، أطال لسانه وضبط بلاد القزلباش بلسانه، وزين الحدود الإسلامية برءوسهم الذليلة. وأصلًا لم يكن هناك الشخص الذي يمكن أن يواجهه، ولما كان الصدر الأعظم «أحمد باشا» رجلًا حليم النفس، كان لا يعارضه ولا يخالفه على الإطلاق، وفي ظل هذه الظروف، كان «سنان باشا» يصرف الأموال ببذخ، وخلاصة القول: إن المذكور فعل ما فعل، وصار سردارًا، وأرسل «سلام جاوش» إلى «أرضروم» بالأوامر، وقام بتنصيب «خسرو محمد باشا» أمير أمراء «وان» قائم مقام «له».

ولما صارت الأحوال على هذا المنوال، توجه «لالا باشا» إلى الآستانة السعيدة، فلما وصل إلى نواحى «توقات»، أتى «قورد أغا» كتخدا طائفة «قبوجي»، فقبض على «لالا زار زاده أحمد چلبي» دفتر دار المال في «أرضروم»، و«تاج زاده» الذي كان في مقام رئيس الكتاب، وقام بحبسهما وصادر جميع ما ملكوا، وأرسلا إلى الآستانة السعيدة بسرعة، وبمجرد أن وصلا إلى الآستانة، حبسا في «يدى قلة»، ولكن لم يتم التعرض لأثوابهما وأثقالهما؛ حيث أرسلت إلى منزليهما. وبعد عدة أيام من مجيء «لالا باشا» إلى الآستانة، أطلق سراحهما، وقبل مرور وقت طويل، أصبح أحدهم رئيس كتاب مرة أخرى، والآخر أمين دفتر، ولكن بقي سواد وجه المفسد ملازمًا له. وتربع «لالا باشا» أيضًا على مقام وزير ثانٍ مرة أخرى.

توجه السردار ناثر الدراهم إلى جانب ممالك القزلباش

في سنة ٩٨٨ هجرية[1]، لما عبر السردار المومأ إليه «سنان باشا» في أوائل السنة المذكورة

(١) الموافق سنة ١٥٨٠م.

إلى جانب «أسكدار» بحسب العادة القديمة، وانتقل من منزل إلى منزل؛ حيث اتخذ من صحراء «أرضروم» مضربًا للخيام مع جند الإسلام، انعكست على القزلباش هذه الضوضاء وأصوات الثرثرة التي قام بها السردار المومأ إليه، وعندئذ، قالوا في أنفسهم: «لقد تم تخريب البلاد بهذا الحجم على أيدي السردار الأسبق، وتعجيز العباد على أيدي «عثمان باشا» في أراضي «شيروان»؛ ومع كثرة الأجناد المظفرين الموجودين تحت قيادة السردار الجديد، لا يمكن الانتصار على العثمانيين»، فرغبوا في الصلح والاتفاق على الحدود التي كانت في زمن المرحوم السلطان «سليمان خان»، وقاموا بإرسال الشخص المعروف باسم «مقصود خان» بالرسالة.

ووصل هذا الشخص إلى الجيش العثماني في المنزل المعروف باسم «چرميك» الواقع في «ديار بكر»، وفي اليوم التالي، لما كان مصممًا على الرحيل من ذلك المنزل، قام السردار بإصدار الأمر إلى كل أمير أمراء وأمير سنجق وآلاي بكى أي أمير طابور، وإلى الإنكشارية والبلوك خلقي بأن ينظموا الطوابير، فقاموا بتنظيمها بتلك الدرجة وزينوها وجملوها بالدرجة التي اعترفت بها عين الشمس التي تُرى من بعيد بأنها لم تر نظيرها حتى الآن، وبالجملة فقد بقي القزلباش الذين أتوا بالرسالة في وادي الحيرة، وأثنوا ألفًا ومائة ألف مرة على هذا التنظيم وتلك الزينة وأيضًا على هذه الجموع الكثيرة.

في ذكر تفويض الوكالة الكبرى أي الوزارة العظمى إلى السردار المومأ إليه سنان باشا وإرسال الخاتم السلطاني إليه

وصل السردار إلى مضيق «طومانيج» بقطع المنازل في أواسط جمادى الآخرة من السنة المذكورة ٩٨٨ هجرية[1]، ومع أنه صدر الأمر بترميم القلعة الموجودة في هذا المكان وأحيائها، فإنها حصرت بالثلوج والأمطار الغزيرة التي منعت إصلاح بنيانها؛ فصرف النظر عن ذلك الأمر، وبعدما أقيم عدة أيام في ذلك المكان، تم النزول إلى مكان

(١) الموافق أواخر يونيه ١٥٨٠م.

وافر الماء والعشب، وفي اليوم الرابع عشر من شهر رجب أتى «يمشجي حسن أغا» كتخدا البوابين، وأحضر معه خاتم الوزارة وبشره بأنه أصبح الوزير الأعظم والوكيل المطلق لسلطان العالم، وعلى هذا أطلق جميع جنود الإنكشارية البنادق ثلاث مرات متتالية بشوق وذوق لسرورهم بهذه الهبة السلطانية والعطية الشاهنشاهية. وأطلقت نيران جميع المدافع الميدانية ومدافع «ضربزن» ثلاث مرات لكل نوع، وانتشر دويّها ليس إلى العراق وربما ليس إلى «خراسان» فقط، بل إلى كل الآفاق، وأحاطت بالعالم ولولة جديدة وطنطنة شديدة.

حرمان «لالا باشا» من الوزارة العظمى واستمالة السلطان له

عندما توفي الوزير الأعظم المرحوم «أحمد باشا» وكان «لالا باشا» وزيرًا ثانيًا، كان من المقرر إعطاء خاتم الوزارة العظمى له بحسب طريق الترقية وفقًا للعادة المقررة لدى السلاطين، وكان ذلك اعتقاد كل شخص واعتقاده هو أيضًا، وبينما كان الوضع على هذا النحو، وعلاوة على ما قاله أنصار «سنان باشا»: «لو يصبح لالا باشا صدرًا أعظم، فإنه من المؤكد لن يتفق حتما مع سنان باشا الذي انتزع السردارية من يده»، قاموا أيضًا بتوزيع عدة أكياس ذهب من الذهب الفلورى، أما «لالا باشا» فعلى إثر إظهاره الاستغناء عن هذا المنصب بقوله: «ليس لدي أقچة أو نقود، فقد صرفت بعضها على الغزوات وبعضها الآخر على الخيرات، ولست طالبًا للوزارة»، أظهر السلطان حامي العالم الرضا بمخالفته القانون القديم حتى يرد الاعتبار إلى السردار، وقام بإرسال الخاتم الشريف إلى «سنان باشا».

ولكن عندما لم يأت قضاة العسكر إلى قصره أي قصر «لالا باشا» في أيام الجمع على عادة الوزير الأعظم، ولم يقم كتخدا البوابين وچاوش باشي باصطحابه وحمله إلى قصره بعد الديوان؛ أثر هذا المسلك في نفس «لالا باشا» تأثيرًا عظيمًا؛ فقام بعرضه على الركاب الهمايوني، واستأذن قائلًا: «هناك بعض القضايا التي كانت عادة لا ترفع إلى الديوان الهمايوني، ويتم النظر فيها في قصر خادمكم الموجود في مقام الصدارة، وإن

قضاة العسكر لا يأتون لقصر خادمكم هذا؛ فعندما تحدث حالة على هذا النحو، هل ينبغي علينًا أن نرسل خادمكم هذا إليهم؟»، وعلى هذا، قام السلطان «مراد» بإرسال خط شريف إلى «مصطفى باشا» جاء فيه: «في الحقيقة، إنك أنت الوزير الأعظم، فإنه قد أُرسل الختم الشريف إلى «سنان باشا» ليرغب في التوجه للحملة فقط».

وبعد هذا الخط الشريف، أُتم احتفال عرض منصب الوزارة العظمى؛ حيث قام أرباب المناصب أيضًا بتعظيم الوزير الأعظم. وليكن معلومًا لأولي النهى أن حرص المرحوم «لالا باشا» التام وشغفه، كان باعثًا على حرمانه من مقام الصدارة العظمى؛ فهو كان الباعث على إهدار دم بهذا القدر بلا وجه حق وإهدار عرض وناموس سلطان صاحب طالع سعيد كالسلطان «سليمان» على الأرض وذلك على إثر الإيقاع بين الأميرين (أولياء العهد) النجباء اللذين كانا أشقاء روح مع بعضهم البعض لأب وأم[1]، ومن المؤكد أنه كان قد فعل ذلك للوصول إلى منصب الصدارة العظمى في عصر «سليم خان».

وهكذا، فإن حضرة الحق هو العادل المطلق، فعلاوة على أنه لم يصل إلى مقام الصدارة في ذلك العصر، ففي هذه المرة أيضًا، وبينما كان من المؤكد أن يعهد إليه هذا المنصب بحسب الطريق، لم يحدث ذلك أيضًا، وبموجب: «إن الحريص محروم»، صار محرومًا من عند الله تعالى.

والآن ينبغي علينا الرجوع ثانية إلى ذلك الصدد والشروع في بيان تحركات الصدر الأعظم الجليل.

في ذكر توجه السردار صاحب الوقار إلى جانب «تفليس»

لما بلغ قائد الجند مراده بتسلم الخاتم السلطاني، رحل من المنزل السابق؛ وتقدم من منزل إلى منزل حتى نزل قرب «تفليس»، وعلى إثر ظهور بعض الشاكين من أمير أمراء

(١) المقصود [سليم وبايزيد].

«تفليس»، ومجيء «كوركى بك» الذي كان أذكى أمراء «گورجستان» والذي كان قد أعلن الطاعة للسردار السابق، وعرضه إسلامه حيث سُمى باسم قائد الجند نفسه، أحسنت عليه إيالة «تفليس» ملقبًا بـ«يوسف باشا».

وفي المنازل المذكورة لم يتراجع معظم جند القزلباش عن الهجوم على بعض أفراد طائفة «ذخيرة جى» وطائفة «أوتجى»، وعن التحرش بعسكر الإسلام، وبصفة خاصة، فقد شاع في تلك الأثناء أن الشاه الضال يعد للهجوم بجيش قوامه ستون ألف جندي، ويسعى للقضاء على كمال شوكة عسكر الإسلام، ولهذا السبب، كان السردار المشهور بالعظمة يمتطي جواده في أكثر الأيام، ويتجول في أطراف الجيش الهمايوني، وكانت مشاعر القلوب السيئة تضطرب متحيرة: «من أي طرف ينبغي أن يخرج القزلباش». وكان قد التقى في هذا المكان «لوند خان أوغلو ألكسندره خان» حاكم « زكم» بالسردار السابق؛ فكانوا يتوقعون أنه سيأتي الآن أيضًا، ولكن ورد منه خبرٌ يقول فيه: «إن السردار السابق كان شيخًا وقورًا، وإنني أعتمد عليه، أما هذا، فهو شاب مغرور، ولا يمكن أن أعتمد عليه»، وكان قد أرسل خطاب أو خطابان يعني من طرف الشاه إلى «ألكسندره». وبينما كان يحمله شخص أو شخصان من أرذل الرعايا، صادفهم بعض الرجال من طائفة العسكر؛ حيث تم الاطلاع على الخطابات في الجيش الهمايوني، ولما كانت هذه الخطابات متعلقة ببعض الخدع المنصوبة لعسكر الإسلام، قاموا بإحضارهما [أي الرجلين] إلى السردار الذي نهايته النصر، ومع أن السردار لم يهتم بذلك في الظاهر، ولم يحرك الجند من مكانهم، فإنه رأى ـ احتياطًا ـ أن الإقامة في هذا المكان أيضًا ليست صائبة. وفي اليوم التالي، عين «بهرام باشا» طليعة عسكر وأرسله بخيمته إلى منزل للأمام، أما هو فأدار وجه عزيمته إلى طرف آخر؛ يعني أنه سلك طريق الاحتياط، وقام بمحو إثره من ذلك الطريق. أما الذين ذهبوا مع «بهرام باشا» فقد تلقوا في اليوم التالي «بين الصلاتين» [الظهر والعصر] فقط الأخبار عن السردار؛ فتعقبوه بسرعة بالغة حتى عثروا على المكان الذي ينزل به بعد عناء شديد، ولكن تعرضوا في الطريق لكثير من الهجمات وحملات السطو والنهب في تلك الليلة المظلمة، وسقط بعض أصحاب

مقاطعات الزعامة المعتبرين وبعض الجاوشية أسرى في يد كفار «گورجستان»، ولهذا السبب، تمتع الكثيرون أيضًا بنعمة بقاء العمر.

ورحل السردار من المنزل المذكور، وتم التوجه صوب مملكة «منوچهر» يعني كان المقصود نصب الخيام في صحراء «قارص» قبل يوم من الموعد المحدد، والسعي بعد ذلك لإرسال الجند للإغارة على مملكة العجم. ومن هناك، تم النزول إلى مكان تكثر به أشجار البلوط، ولم تذق عين أي شخص النوم؛ بسبب اللصوص من أشقياء «گورجى»، ولم ير أي فرد وجه الراحة ولو ساعة.

وتمام القصة أنه بعد يوم أو يومين، لما استقر السردار في نواحي «قارص»، قرر عقد العزيمة لفتح «تبريز»، بموجب دعواه التي كانت في الآستانة، وطبقًا لهذا، أعد كل شخص ذخيرته، ولكن بعد عدة أيام، أتى جاسوس وأخبر بأنه بينما كان الشاه قد وصل إلى المكان المعروف باسم «آربه چايري»، قرر العودة على إثر سماعه عن جلادة سردار الإسلام وحسن تدبيره وفراسته، ونال السردار صاحب شعار العظمة سرورًا عظيمًا من هذا الخبر، وقال: «إن فرار العدو من أمامنا بضع منازل أمر كافٍ». وبهذا السبب صرف النظر عن الفتح.

في ذكر قيام السردار الذي شعاره النصر بتفقد العسكر

بعدما أقام عسكر الإسلام واستراحوا عدة أيام في صحراء «قارص»، صدر الأمر بأن يتم تفقد جميع عساكر الإسلام سواء جنود الإنكشارية أو الجنود المنسوبين للبلوكات أو أمراء الأمراء أو أرباب مقاطعات الزعامة والتيمار، كل خلف جواده، وذلك على غرار العادة المقررة على أن تكون بأيديهم الرماح والرايات على الصواري مع المهمات والأسلحة الكاملة، وفعل كل شخص ما يراد فعله، وأتموا مهماتهم وأسلحتهم بحسب القانون، وتواجدوا في الصحراء في اليوم المعهود. وانعكس ضجيج صدى المزمار والنفير والطبل من كل جانب على العالم، ورفرفة الراية فاتحة العالم تزلزل المكان والزمان، وبصفة

خاصة، امتطى السردار مقضي المرام الجواد المحفوف بالعظمة، وارتدى ثيابه وأسلحته البراقة وأدخل جواده الأبلق بين الصفوف والتفت يمينًا ويسارًا بحدة وغضب، وتفقد كل طابور، وقام بالتفتيش عن بعض الضعفاء والعجزة، فقال: «لم يحدث أي قتال أو معركة أو أي نوع من المواجهة مع الأعداء في هذا المكان؛ فعلى الأقل، ينبغي أن نفترض أن التل الرفيع يعني التبة العالية التي أمامنا عدوًا ونهجم عليه ونرى تحرك وهجوم كل شخص»، فهجموا على ذلك التل الرفيع من كل جانب وأطلقوا المدافع والبنادق، وملئوا العالم بصدى صوت «الله الله جل شأنه»، وقام السردار شخصيًا أيضًا باستلال سيفه، وقام بتحريكه أحيانًا، وبالضرب به أحيانًا أخرى، وهو واقف مرة وهو يسوق جواده مرة أخرى، وبالجملة فقد استعرض بعض الأوضاع العجيبة، ثم وقف، وإذا كان البعض قد حمل تصرفه هذا على خفته، قال البعض الآخر: «إنه أظهر كمال الجلد والصلابة للسفراء الذين أتوا»، فأدركوا حسن وقبح هذا الوضع العجيب أكثر من وضح النهار.

في ذكر توجه السردار صاحب السعادة إلى مشتى أرضروم

لما لاحت بشائر الشتاء، تفضل السردار المؤيد بالنصر بالتوقف والبقاء في صحراء «قارص» مع الجند صائدي الأعداء، ولكن لما عرض جيش الشتاء البرودة على عسكر الإسلام، رغب جند أهل الإسلام أيضًا في التوجه إلى جانب المشتى، وعلى هذا ففي أول رمضان المبارك من السنة المذكورة، تحرك جند الإسلام من المكان المذكور، ووصلوا إلى «أرضروم» وقام السردار بتغيير وتبديل بعض الإيالات طبقًا لمقتضى الحال؛ وقام أيضًا بتوجيه بعض المناصب، وأعطي لبعضهم الإذن بالانصراف، ولبعضهم الآخر الأماكن المناسبة لقضاء الشتاء، واكتفى السردار في هذه السنة المباركة بهذا القدر من الذهاب والإياب الذي كان بلا فائدة.

ولكن حضرة الحق هو العادل المطلق. فالسردار نفسه كان يحقر الخدمات المشكورة التي كان يقوم بها المرحوم «مصطفى باشا»، وكان يتدخل ويتعرض لمختلف الأمور من

تحت الأرض، إلا أن حضرة الحق سبحانه وتعالى لم يتح له أي لسنان باشا التوفيق في أي أمر مخطط، ولم يصرف نصف أقچة في أي خدمة يمكن أن يذكر بها. واكتفى عسكر الإسلام بهذا القدر بلا فائدة، ولهذا السبب، أوقع الخسارة والضرر التام سواء ببيت المال أو بأموال العساكر المتلاطمة كالبحار، والحقيقة هو أنه من يتكبر ويقول: «أفعل هكذا»، فسوف يكون ذليلًا. ولكن من يسلك طريق التواضع ويقول: «إنني عبد قاصر وعاجز وليس بيدي شيء»، سيحقق حضرة الحق جل وعلا ذلك الأمر على يديه. وليس هناك حاجة للبحث عن حقيقة هذا الأمر وليس هناك شخص لم يعرف ولم يفهم هذا الحال، فالفاعل المطلق هو حضرة الحق جل شأنه الذي يعطي الحق ويأخذ الحق.

في ذكر مجيء السفير مرة أخرى من قبل الشاه الضال

لما كان الصدر الأعظم عالي الهمم قد وضع القدم على وديان إرساء العدل ودفع الجور ورفاهية حال الأمم والصلح مع العجم في مشتى «أرضروم»، أتى الشيخ المعتوه المشهور بلطف الكلام المعروف باسم «تابوت أغا» الذي أتى بالرسالة ذات مرة في العصر المبارك للمرحوم السلطان «سليمان خان»، إلى «أرضروم» في ذي حجة من السنة المذكورة ٩٨٨ هجرية[1] برسالة من الشاه الضال، ووصل إلى مرامه باقترانه برعاية السردار عالي المقدار، ونتيجة كلام هذا السفير وخلاصة ما أدرج في خطاب الشاه، أنه كان يراد عقد الصلح فيما بين الطرفين على أن يراعى الصلح والصلاح الذي انعقد في عهد «سليمان خان»، وعدم التجاوز عن تلك الحدود من أجل توفير الاستقرار والأمن للفقراء. وكان ذلك مؤكدًا لكلام السفير السابق.

الإعداد لحفل ختان حضرة ولي العهد «سلطان محمد خان»

وفي هذه السنة المباركة ٩٨٩ هجرية[2]، لما صدر الأمر الهمايوني من السلطان حامي

(١) الموافق سنة ١٥٨٠م.
(٢) الموافق سنة ١٥٨١م.

العالم؛ الإعداد لحفل ختان حضرة ولي العهد عالي الجاه الذي سيقام السنة القادمة، ولما كان قد تم الاحتفال بختان الأمراء أولياء العهد مرتين من قبل في العصر المبارك لحضرة المرحوم السلطان «سليمان»، نظمت دفاتر مصروفات تلك الاجتماعات، وشرع في إعداد سائر اللوازم والمهمات، وفي البداية حررت الخطابات لدعوى ملوك الأطراف؛ وقرر إرسال الرجال المشهورين من طائفة المتفرقة إليهم، ومن جملة ذلك، أرسل الرجال الثقات من زمرة الجاشنكيريه أي المشرفين على الطباخين والجاوشية بالأوامر الشريفة إلى خان القرم وإلى جناب شريف مكة وإلى بعض ملوك الهند وفارس وإلى سيئ الاسم المعروف بـ«چاسار» أعظم ملوك الكفرة الفجرة في جانب الـ«روم» وإلى ملوك الـ«فرانجه» و«ونديك» (البندقية) وإلى أمير «أردل» وإلى أمراء «بغدان» و«أفلاق» و«دوبره ونديك» وإلى حكام أهل الإسلام والعباد معتادي العناية من سلطان الأنام مثل أمير أمراء «مصر» و«حلب» و«الشام» و«اليمن» و«بدن»[1] و«دياربكر» والـ«بصره» و«لحسا» و«أرضروم» وسائر أمراء الأمراء المتسمين بالبهجة، وإلى أطراف الأمراء المشهورين الذين كانوا من ملوك الأفراد وعمومًا إلى الأمراء الكرام والدفتر دارية ذوي الاحترام وإلى دفتر دارية التيمار وإلى كتخداوية الدفتر وسائر أرباب المناصب واجبي الإكرام في الإيالات المذكورة، وأحيطوا علمًا بأنه قد قرر حفلنا الهمايوني للختان واجتماعنا المقرون بالبهجة في ربيع الأول من العام القادم.

بدء اجتماع الحفل الهمايوني

في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٩٠ هجرية[2]، لما حلت السنة المذكورة شرع في إعداد الاجتماع الهمايوني، وعين أولًا أمين الحفل وثلاثمائة رجل موفوري الثقة، وبعض أصحاب الخبرة والدراية بهذا الأمر، وأحضر خمسا من النخل الشاخات والمزخرفات بأنواع الزينة تنافس منارات جوامع السلاطين، وفي أول الشهر المذكور، نزل السلطان

(١) المقصود بها «بدون».
(٢) الموافق سنة ١٥٨٢م.

حامى العالم في سراي «آت ميداني»، وبعد ذلك، في البداية، كانت تعرض عليه كل يوم هدايا الملوك والوزراء العظام وأمراء الأمراء الكرام وسائر أرباب الاحتشام المدعوين للحفل، ثم تعرض الابتكارات الغريبة والعجيبة لأرباب الحرف، وكانت تقدم تحفهم وهداياهم من نوع «بيشكش» ولكن كانت العجائب والغرائب التي أبدعت في هذا الحفل الموفور البهجة زائدة عن الحد والحصر؛ بحيث لا يمكن تصورها عيانًا وبيانًا بأي وجه، ولم يفرغ من التفرج والمشاهدة عليها ليل نهار لمدة أربعين يومًا بالتمام؛ وكان يبرز كل يوم مشهد جديد، وعمومًا فقد وصف وبين أرباب التاريخ هذا الحفل المفعم بالسرور بقدر الإمكان، فإذا كان تقصيرنا أيضًا في حسن عرض هذا الموضوع ملموسًا، فقد رأيت أن من الأولى سد ذلك الباب وعدم تصديع الرءوس بهذا الأمر.

خلاصة واحدة من الأحداث التي ظهرت أثناء الحفل المفعم بالسرور

لما أتم الحفل المملوء بالحبور اليوم الأربعين، قام «جراح محمد باشا» بختان حضرة ولي العهد عالي الشأن، وأنعم عليه بعشرة آلاف ذهبية من جانب السلطان، وكانت الأقمشة المتنوعة وأثواب العظمة والخلع التي قامت حضرة «والدة سلطان» أيضًا بالإحسان بها عليه مع ثلاثة آلاف ذهبية كانت تزيد عن الحد.

وبعد الختان، كان قد أعد التفرج والمشاهدة واجتماع الحفل لمدة عشرة أيام أخرى، واتفق أن بعض الشباب من البلوك المعروف باسم «بلوك خلقى» ومن بلوك الشباب كانوا يجتمعون في مجلس فسق في بعض الحجرات ويحضرون الفواحش إلى مجالسهم، وفي تلك الأثناء، يقوم «أحمد چاوش» الذي كان سوباشًا؛ أي ضباط المدينة ولا يعرف الله تعالى بالهجوم على حجراتهم بعدد من الجنود الشجعان من إحدى فرق الإنكشارية وهي طائفة [قول أوغلاني] وببعض الرجال الأبطال من حراس الليل وشرعوا في أخذ الفاحشات اللاتي كانت معهم، ولما سمعت طائفة «بلوك خلقي» الذين كانوا في سائر الحجرات بالهجوم الذي وقع على مجالس رفاقهم لم يرضوا بذلك، فيهجمون على

السوباشي ويخلصون الفاحشات من يده، ويضربون طائفة «قول أوغلاني» ويجرحونهم، ويأخذون أيضًا السوباشي، ومن ثم يحضرون إلى ميدان «آت ميداني»، ويلقونهم في ناحية السلطان، وعندما يقف جنود طائفة «اليساقجي»[1] والإنكشارية الموجودون في ذلك المكان على حال أفراد «قول أوغلاني»، يهجمون على السباهية؛ فيزداد الهرج والمرج بين الطرفين، وتصبح مؤدية للقتال، وفي تلك الأثناء يصل أغا الإنكشارية «فرهاد باشا» الذي صار وزيرًا فيما بعد، لدفع هذه الفتنة، ويتزايد هياج جند الإنكشارية بمجيء الأغا، فيقتل اثنان من السباهية في تلك المشاجرة، وكان الوزير الأعظم «سنان باشا» يشاهد تلك الواقعة من قصره الذي كان يطل على «مهترخانه»، فيحضر «فرهاد أغا»، ويوبخه قائلًا: «يا هوا لماذا أتيت أيها الكلب المشئوم، لقد أصبحت سببًا لإهدار دم فردين، ابعد واذهب»، ولما يذهب «فرهاد أغا»، يذهب معه الإنكشارية وتهدأ الفتنة، ويقوم الوزير الأعظم «سنان باشا» بعرض ذلك الأمر على السلطان؛ فينصب «فرنك يوسف باشا» الذي كان «أمير علم»[2] في ذلك الحين أغًا بدلًا من «فرهاد باشا»؛ وكان هذا منشأ العداوة بين «فرهاد باشا» و«سنان باشا»، وبعد هذا اليوم انتهى اجتماع الحفل الهمايوني.

---

(١) يساقجي: هو فرد الحراسة، واستخدم هذا التعبير بدلًا من «قواس». وكان يطلق هذا الاسم على قواسين أي حاملي الأقواس لسفراء الدول الأجنبية وقنصلياتها. وقبل التنظيمات كان يوجد الإنكشارية في حراسة السفارات، وكان يطلق على هؤلاء لقب «يساقجي». وبعد التنظيمات تُرك هذا التعبير، وبُدئ في استخدام تعبير «قواس» بدلًا منه، واستمر هذا التعبير حتى نهاية عهد السلطنة.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, S. 606.

(٢) أمير علم: هو باش أمير أو رئيس أمراء السرايا التي تحتوي على طاقم المهترخانه مع أعلام السلطنة والتي يطلق عليها «مهتران طبل وعلم». ويسير هذا الأمير أمام الأعلام أثناء الحرب، ويحمل راية تعرف باسم «العلم الأبيض». وكانت ترسل بواسطة هؤلاء الأعلام والتيوغات المعطاة من طرف السلطان للوزراء وأمراء الأمراء وأمراء السناجق على إثر تعيينهم في مهمة أو وظيفة. وفي أثناء ملاقاة السلطان مع رجال الدولة الكبار والسفراء كان الأمير علم موجودًا في هذه اللقاءات.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S.226.

المقارنة بين حفل ختان المذكور وحفلات الختان
التي أقامها السلطان سليمان خان المغفور له

كان قد أقام السلطان «سليمان خان» ـ عليه الرحمة والغفران ـ حفلات ختان لأولياء عهده مرتين، وأيضًا كان هناك حفل زواج الصدر الأعظم «إبراهيم باشا»، وكان قد أظهر السلطان صاحب السعادة اهتمامًا بالغًا بالحفل الهمايوني الأول، وكان قد تجاوز فيه بذل الدرهم والدينار حد الإكثار، ولم يكن ممكنًا تصور كثرة أنواع اللعب والضحكات في ذلك العصر؛ حيث كان جميع مهرجي الهند والسند والعرب والعجم وأرباب اللعب والفنون يحضرون الحفل، ولم يصل حفل الختان الثاني المفعم بالسرور إلى تلك المرتبة؛ فإنه لم يقل عن الأول من حيث الكثرة والوفرة والاهتمام به وبذله الدراهم والنعم، وقد اختصر الوقت في هذا الحفل حيث لم يتجاوز الخمسة عشر يومًا فقط، ورجع ذلك أيضًا إلى عدم اهتمام الوزير الأعظم «لطفي باشا» بهذا الأمر بالقدر الكافي، وأخيرًا كان سلطان البحر والبر قد اشترك بنفسه المفعمة بالسرور في الحفلات الثلاثة هذه حيث جلس مع الوزراء والعلماء من أولها إلى آخرها؛ فشرفهم بالمناقشات العلمية وبالحديث الدنيوي، ومن المؤكد أن هذه الاجتماعات كانت باعثًا لافتخار الذين كانوا داخل المجلس الهمايوني، وربما كانت باعث افتخار أولادهم وأقربائهم، وفي هذا الحفل المفعم بالسرور كان المال المبذول كثيرًا جدًا، وأرباب اللعب واللهو والظرفاء يزيدون أيضًا عن حد الكثرة، ولكن السلطان ذا الخلق الحسن لم يفضل الجلوس معهم شخصيًا، وقد تم الإعداد لمجالس ثلاثة حفت بالعظمة؛ فكان الوزير الأعظم يتصدرها، وكان أحدها قد خصص للوزراء وأمراء الأمراء والأصحاب الكرام الذين يعتبرون أهل الديوان؛ والثاني لحضرة شيخ الإسلام والعلماء العظماء؛ وأيضًا كانت ترسل الأطعمة والحلويات والمشروبات مائدة مائدة إلى المكان المخصص لكل واحد من الكبار، وكل يوم كان السلطان يملأ عدة آلاف من الأكياس بأنواع النعم ويحسن بها على الفقراء.

في ذكر اطلاع السلطان حامي العالم على أحوال الصلح وعزل «سنان باشا»

لما استفسر السلطان حامي العالم عن أحوال الصلح الذي تم بين الشاه والدولة من «سنان باشا» بعد حفل الختان، قام «سنان باشا» بالعرض قائلًا: «إن الشاه موافق على إعطاء الممالك التي ترضي المقصود الهمايوني لسلطاننا، وهو منقاد لرضا السلطان»، وكان «تركمان إبراهيم خان» قد أتى بالرسالة إلى «أرضروم» وذلك بعد «نابوت أغا»، ومن ثم أسرع «سنان باشا» بإرساله إلى باب الدولة قبل أن يتوجه هو إليها؛ حيث توقف في باب الدولة؛ منتظرًا الانتهاء من التفرج ومشاهدة الحفل الهمايوني، لأكثر من سنة، وعندما صدر الأمر بأن يعرض السفير رسالته، عرض السفير قائلًا: «كان صدركم الأعظم قد طلب من الشاه أحد رجاله الثقات من أجل المناقشة في أمور الصلح»، فأرسل هذا الحقير، وأمر قائلًا: «انظر من أية وجهة كانت رغبة السلطان للصلح، ثم عد إليّ وأخبرني بما جرى»، ورسالتي كانت بهذا القدر فقط دون زيادة أو نقصان، وفي النهاية، فإن الشيء المقدر هو إغداق النعم الوفيرة علينا من قبل السلطان صاحب السعادة وذلك على إثر الانتظار أكثر من سنة في الآستانة».

وعلى هذا قام السلطان صاحب السعادة بطلب خطابات الشاه من «سنان باشا»، وقام بمراجعتها من أولها إلى آخرها، وعلم أنه ليس هناك كلام يعطي أي نتيجة أصلًا، وعلم أن إرسال السفير ناشئ من إصرار «سنان باشا»، وهكذا قام بعزل «سنان باشا» بلا تردد، وحكم على المرحوم «منلاجق» الذي كان يعمل في وظيفة «رئيس الكتاب» بالتجديف في السفن المحملة بالأحجار قائلًا له: «إذا كنت أنت واقفًا على أساليب الكلام، فلماذا لم توضح للسردار أنه لم يكن هناك كلام مفيد في هذه الخطابات»، وقام أيضًا بإرسال جاوش التشريفات الخاصة وبعض مشاوريه ومدبري شئونه للتجديف بالسفينة المعهودة.

إسناد الوزارة العظمى إلى «سياوش باشا»
وإرسال العسكر من «دشت قبچاق» إلى «تيمور قبو»

لما بدا كذب «سنان باشا»، أعطي خاتم الوكالة إلى الوزير الثاني «سياوش باشا» وصار وزيرًا أعظم، وفي هذه الأثناء، قام أمير السنجق المعروف باسم «بداق بك» بالعبور من «دشت قبچاق» وأتى إلى الآستانة السعيدة كساع من طرف «عثمان باشا».

وقد قام «عثمان باشا» بعرض ما يلي: يأتي الخائن ناقض العهد المعروف باسم «محمد خان» والذي هو من القزلباش إلى أراضي «شيروان»، ويرسل رجلًا إلى «زال محمد بك» الذي كان أمير لواء قائلًا له: «لقد أرسل شاهنا «تركمان إبراهيم خان» إلى البلاط السلطاني من أجل الصلح والصلاح، ومن ثم فإن عقد الصلح والصلاح بيننا أمر مؤكد»، ولما كان الأمير المشار إليه «زال محمد بك» رجلًا قلبه في غاية الصفاء وغافلًا عن الحيلة والخدعة، يخرج لاستقبالهم؛ فيهجم عليه الملاعين قائلين: «إن الوقت فرصة»، ويقومون بقتل «محمد بك» المسكين وبعض الغزاة أيضًا.

وعلى هذا، حزن السلطان صاحب السعادة حزنًا شديدًا على هؤلاء بسبب هذه الخدعة؛ وأمر بحبس «إبراهيم خان» المذكور الذي كان قد عُظم أكثر من حجمه في حفل الختان الهمايوني، وقام بإرسال الأمر الشريف لأمير أمراء الروم إيلي للتوجه إلى «تيمور قبو» بعسكر إيالته، وكلف ثلاثة آلاف من جند الإنكشارية وجميع بلوك السلحدار مع رؤسائهم المعروفين بـ «كتخدا» وأمير طابور اليمين واليسار في الروم إيلي، وسناجقة «كوستنديل» و«سلستره» و«نيكبولي» مع أرباب مقاطعات الزعامة والتيمار الذين تحت أيديهم، وكلفوا جميعًا بالتوجه من «دشت قبچاق» إلى «تيمور قبو»، وأرسل أيضًا ستة وثمانين حمل خزينة، وبالفعل تجمعوا في «كفه»، وعين «جعفر باشا» أمير أمراء «كفه» الذي كان رجلًا مدبرًا وداريًا بالحروب سردارًا عليهم.

وفي النهاية تحركوا من «كفه» في سبعة من «شعبان المعظم» سنة ٩٩٠ هجرية[١]، وعزموا على التوجه إلى «تيمور قبو»، وتم اختيار «سنان كتخدا» كتخدا السلحدار مع عموم بلوك السلحدار وستة آلاف جندي مدرب من الروم إيلي، وعين «بوداق بك» المذكور رئيسًا عليهم، ودفع بهم إلى المقدمة.

في ذكر منازل ومراحل «دشت قبچاق» من «كفه» حتى إلى «تيمور قبو»

تحركوا من «كفه» ووصلوا في اليوم الرابع إلى مضيق «كرج» وهو عبارة عن مصب نهر «تن» ـ المنحدر من «آزاق» والجاري إلى هذا الطرف الآخر ـ في البحر الأسود، وكان عرضه حوالي عشرين ميلًا، فقاموا بعبوره بصعوبة في خمسة عشر يومًا بسفن الجياد، وبعد ذلك وصلوا إلى قرب القلعة المعروفة باسم «تمرك» في صحراء «طمان» في المنزل الرابع، ومنها وصلوا في اليوم الخامس إلى النهر الكبير المعروف باسم «قوبان»، وكان الچراكسة قد أعدوا المراكب؛ وقام العسكر بعبور هذا النهر بها، ودفعوا خمس أقچات عن كل جواد واثنتى عشرة أقچة عن كل عربة كرسم عبور، ومنها وصلوا إلى المملكة المعروفة باسم «كمركى» في ولاية «چركس» في المنزل الرابع.

وكان الچراكسة في هذا المكان لصوصًا عدماء مروءة، حتى إنهم لم يدعوا زيًا جديدًا دون أن يمزق ذيله، وإنهم كانوا يسرقون الكحلة من العين، فإنهم كانوا لا يعرفون ما هي الأقچة أو الذهب؟ فقد رووا أن شخصًا وجد أربعين أو خمسين ذهبية في مكان، فأعطاهم إلى شخص مقابل قطعة قماش في طول اثنين «أندازه»[٢]، وهناك سقط الثلج في حجم أكبر من بيضة الحمامة حتى كانت حيوانات النقل والأحصنة تفزع من ضربات الثلج على رأسها وتجعل أصحابها يسيرون على الأقدام، ومن هناك تم الوصول إلى

(١) الموافق ٢٧ ـ ٨ ـ ١٥٨٢م.

(٢) وهي وحدة قياس طول في حجم ستين سنتيمترًا.

الوادي المعروف باسم صحراء «هيهات»، وكانت صحراء شاسعة للغاية ومستوية وبلا أنهار أو تلال، ولكن عشبها يشبه الحرير، أما ظبيانها فكانت تتجول قطيعًا قطيعًا، وفي كل خطوة أو خطوتين في الطريق، توجد قرون الغزلان متراكمة، فالغزال يقوم عادة بتبديل قرونه كل عام مرة، ومن ثم يريد أن يسحب قرونه لموضع حصين في ذلك المكان، أما في تلك الصحراء، فبسبب أنه لم يكن هناك جبل ولا حجر، فتسقط هذه القرون في ذلك المكان الذي سقطت فيه القرون من قبل، وهكذا ومع مرور الوقت، تتراكم تلال القرون وتبقي على هذا النحو.

وأخيرًا قطعوا تلك الصحراء الشاسعة في عشرين يومًا، ووصلوا إلى ساحل نهر، وبعد ذلك وصلوا إلى المكان المعروف باسم «بش دبه» في خمسة أيام، وكانوا يشربون ماء بعض البحيرات الصغيرة والبرك، ثم حطوا رحالهم على ساحل النهر المعروف باسم «برك» في المنزل الخامس، ولكن كان في أطراف هذا النهر غابة وصلت أطراف أشجارها إلى عنان السماء، كما لو كانت كل واحدة منها عبارة عن نخلة شامخة أو شجرة سرو.

وبعد ذلك تم الوصول إلى المكان المعروف باسم «قرتاي»، وجاء أمراء الچراكسة، فأقاموا جسرًا من ثمانية مواضع على نهر «ترك» ونهر «قرتاي»، وعبروه في ثلاثة أيام، ووصلوا إلى ولاية «شمخال»، وبعد ذلك عقد عنان العزيمة للتوجه صوب «تيمور قبو»، وجملة القول: إنه تيسر الوصول إلى «تيمور قبو» في ثمانين يومًا بالتمام، وأتى «عثمان باشا» بجند «شيروان» واستقبلهم، وبسطت الموائد وأجريت المسرات العظيمة، وبعد عدة أيام شرع في إعداد المشتى، فدخل بعضهم إلى أماكن البوص، وقاموا بتغطية خيامهم ببعض منها، وأقاموا أسقفًا من هذا البوص للحيوانات أيضًا، وقام بعضهم أيضًا بحفر الخنادق، ودخلوها قائلين: «هذه أيضًا تُعبَر»، وقام كل شخص باستعداداته بقدر الإمكان، ولكن كانت الذخيرة قليلة؛ حيث لم تتوفر كيلة القمح أو الشعير حتى بمائتي أقچة، وأصبح جملة الحيوانات والإنسان مضطرين لأكل الأرز طوعًا وكرهًا.

في ذكر الوقائع التي وقعت عندما وصل عسكر الإسلام المرسل بهم

لقد قام «عزيز» مؤلف «رسالة بابيه» بكتابة أحوال ملك «شيروان» و«باب الحديد» بالتفصيل، وينبغي علينا نحن إن شاء الله تعالى أن نأخذ منه خلاصة الكلام ونسجله على النحو التالي:

لما استولى العثمانيون على «ملك شيروان»، بقي «عثمان باشا» محافظًا عليها مع جند كثيرين برتبة وزير، وفي السنة التالية، أتى أشقاء الخان [خان القرم] وابنه مع عسكر التتار الجرارة، وقاموا بتخريب بعض البلاد هناك، ثم أتى الخان شخصيًا مع مائة ألف من التتار، وهجم على ملك «شيروان» و«قرة باغ» و«مغان»، وفي هذه المرة، أيضًا جاء حوالي ألف جندي من فرق الإنكشارية وبلوك السلحدار وعسكر الروم إيلي وعسكر «سيواس» مع أمراء أمرائهم، وتخابر أمير «شمخال» وسائر ملوك «داغستان» وأمراء «گورجستان» قائلين: «كلما وصل هؤلاء القوم يتزايدون باستمرار، وإذا لم نباشر أخذ التدابير في وقتها قبل أن يصلوا إلى ملكنا الموروث خلاف «شيروان»، فلن يكون هناك ثمة شك في أن ضررهم سيلحق بنا أيضًا»، وهكذا تبادل الجميع الأخبار مع بعضهم البعض، وتراسلوا مع «إمام قولي خان» خان «گنجه»، وقالوا له: «إن هؤلاء قوم كثيرون، يأتي بلوك أو بلوكان منهم فقط كل عام، والجماعة الذين جاءوا هذه المرة يرتدون ملابس ذات أذيال طويلة كالصوفية، وجماعة أخرى منهم على رءوسهم أغطية كأغطية المتصوفة البسطاء، والآن ينبغي أن نتفق على محو هؤلاء من الوجود، وإلا لو استمر الوضع على هذا النحو سنة أو سنتين، فإنهم سيقضوا علينا»، وعلى هذا كتب «إمام قولي خان» وأخبر الشاه باتفاق هؤلاء.

المعركة العظيمة التي قام بها «عثمان باشا» مع «إمام قولي خان»

سنة ٩٩٠ هجرية[1]، لما علم الشاه بما اتفق عليه أمراء «گورجستان» و«داغستان»،

(١) الموافق سنة ١٥٨٢م.

قام الشاه بلا تردد بتعيين «إمام قولي خان» قائدًا، وأمده بثلاثة آلاف حارس من طائفة الحرس الخاص، وأعد أربعة خانات وثلاثين سلطانًا لا يقل مجموع جنودهم عن خمسين ألفًا، ولما انضم إليهم عسكر «گورجستان» و«داغستان»، تأكد أنهم أصبحوا قوة كبيرة، وكان «إمام قولي خان» قد بذل كل ما في وسعه لجمع كل هؤلاء في صعيد واحد تحت قيادته.

في ذكر استشهاد «يعقوب بك» حاكم «سلستره» وانهزام جنده

كان الأمير المذكور قائدًا على عسكر الروم إيلي، وكان يتوقف يومًا أو يومين لرعي جواده في الصحراء التي تعرف باسم «نياز آباد» القريبة إلى المكان المعروف باسم «شابوران»، ثم التحرك بعد ذلك والتوجه إلى السردار، وفي هذه الأثناء، كان سيئ الخلق المعروف باسم «إمام قولي خان» قد وصل إلى «شماخي» بجنده؛ حيث أحاط علمًا بهؤلاء، وفي الحال قام باختيار ستة آلاف مسلح كاملي العدة من القزلباش وعهد بهم إلى من لا عهد لهما المعروفين باسم «رستم خان» و«دانقي بك» اللذين كانا أخوين مجرمين وأرسلهم عليهما، إلا أن هؤلاء أي جند الروم إيلي كانوا منشغلين بتغيير المواطن في ذلك الحين، وهكذا وبمجرد أن يروا العدو، يمتطون في الحال جيادهم ويتركون أثقالهم على الأرض ويشتبكون مع الأعداء، وبفضل الله تعالى، وفي الوقت الذي كانت الغلبة فيه لهؤلاء؛ أي جند الروم إيلي، يصاب الأمير المذكور بجرح قاتل، ويلحق بالشهداء، ويستشهد أيضًا في تلك الأثناء أمير مقاطعة تيماره، ومرة أخرى تشتعل حمية الغزاة؛ وبينما كانوا متغلبين على الأعداء تمامًا، يتوجه فرد أو اثنان من عديمي الدين من ملاحدة «دوبريچه» إلى «رستم خان»؛ ويبشرونه باستشهاد الأمير «يعقوب بك» وأمير تيماره، وعلى هذا يعود القزلباش الفارين، وهكذا، يهزمون أهل الإسلام، وفي تلك المعركة، ينال حوالي سبعمائة أو ثمانمائة رجل بعضهم شرف الشهادة ويتألم بعضهم الآخر بقسوة الأسر.

في حرب «إمام قولي خان» مع «عثمان باشا» وانهزامه

في ١٨ من ربيع الآخر سنة ٩٩١ هجرية[1]، لما وصل الذين نجوا من جنود «سلستره» إلى «عثمان باشا»، جمع «عثمان باشا» سائر عسكر الإسلام، وقدم العزاء لهم، واستمالهم بالوعود، وفي ذلك الحين، تقدم جند جماعة السلحدارية وغيرهم قائلين: «لا بد من أخذ التدابير للانتقام من العدو»، أما «عثمان باشا»، فبسبب أنه كانت هناك أزمة في توفير الذخيرة، وذلك خلاف مرتبات الجند لعدة شهور مضت، قام بعرض وبيان بعض الأعذار في هذا الخصوص وتحدث ببعض الكلمات في وادي السلوى، ولكن كلهم قالوا بفم واحد: «نحن لا نريد منك علوفة، ولن نتكلم كلمة للمطالبة بحبة واحدة من الذخيرة لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر، وسنتحمل مهما كان من أجل سعادة سلطاننا، ولماء وجهك، فتوجد رأس لدى كل واحد منا، وسنفديها في سبيل رفعة الدين».

وعندما تكلموا بما يوافق مزاج «عثمان باشا» الشجاع، خرج في اليوم السادس من الشهر المذكور [ربيع الآخر سنة ٩٩١هجرية] من «تيمور قبو»، ونصب الخيام التي عاقبتها الظفر مع جملة العسكر في الصحراء، وفي اليوم الثامن عشر نزلوا إلى المكان المعروف باسم «باش دبه»، وفي ذلك الحين ظهرت جيوش القزلباش؛ فقام «عثمان باشا» بتعيين «چركس حيدر باشا» أمير ولاية «سيواس روم» مع جند إيالته على الجناح الأيمن، وبتنصيب أمير أمراء «كفة» «جعفر باشا» مع عسكر الروم إيلي على الجناح الأيسر، أما هو فقد قام بتنظيم جند الإنكشارية في قلب العسكر على شكل طابور خلفه وطابور أمامه ونصب أكثر من ثلاثين مدفعًا من نوع «ضربزن» في موقعهم، وقام بوضع جند جماعة السلحدارية تحت رايته مع خدمه الخاص في نظام محكم، وفي ذلك الحين، امتطى جواده الأسود الذي كان مشهورًا باليُمن والسعادة وكان يزيد عمره عن الثلاثين سنة ولم يحدث أن ولى دبره للعدو قط في الحروب التي قام بها صاحبه، فكلما يمتطيه في أية غزوة، كان يصبح سببًا للظفر والنصر، ولذا امتطاه تبركًا وتيمنًا، وكان الحصان كلما

---

(١) الموافق ١١/ ٥/ ١٥٨٣م.

وقف مكانه واستقر، يصهل وينبش في الأرض ويهم ويخفق بغية الهجوم على العدو، وعندما كان يظهر هذه الحالة في كل غزوة، كانوا يعدونها علامة الغلبة والنصر، وكانت هذه إشارة خاصة من عند الله تعالى في تلك الأثناء.

وكان «إمام قولي خان» مع حرس الشاه الخاص من جانب العدو في مواجهة «عثمان باشا»، و«رستم باشا»، و«رستم خان ابن حسام خان» في مواجهة «حيدر باشا»، و«ابن برهان» الذي كان مرتدًا وناقضًا للعهد وأصبح كواحد من ملوك «شيروان» الذين أداروا وجوههم عن هذا الجانب العثماني كان في مواجهة «جعفر باشا».

وعلى هذا النحو، وقعت المواجهة، وقام جنود المؤخرة المعروفين باسم «چرخه جي» بالجولات من كلا الطرفين، وعلى كل فقد استمر القتال والحرب حتى المساء، وكادت تشاهد صورة الانهزام من جانب القزلباش، ولكن لما حل الليل، لم يهجم أهل الإسلام عليهم، ورأوا أن تعقبهم بالليل غير مناسب، ولكن أشعلت المشاعل من الطرفين، ودارت رحى الحرب حتى نصف الليل، حتى كانت هذه المعركة تعرف باسم (حرب المشعلة)، وبعد ذلك تحدث عسكر الطرفين لبعضهما، وخرج عسكر الحراسة المعروفين باسم «قراول» من كل طرف، وتفقدوا نواحي الجند، أما اليوم التالي، الموافق يوم الثلاثاء، فقد مال الطرفان إلى الراحة، وقاموا بإرجاء القتال، وفي يوم الأربعاء، لما رفع الأذان في الصباح، أدى كل فرد صلاته، وتهيأ للقتال بلا تأخير، ومن ناحية أخرى، امتطت جيوش القزلباش أيضًا الخيول كما في الأول، وأتت للمواجهة، وشرعوا في الحرب والقتال، وعندما بدت علامات الهزيمة نوعًا من جناح «جعفر باشا»، اندفع الغزاة الذين كانوا تحت راية «كوستنديل» مع غزاة الروم إيلي بغتة وكنفس واحدة، حتى أجبروا القزلباش على أن يولوا الأدبار طوعًا أو كرهًا، وبعد ذلك سارت رايات أهل الإسلام مع جنودهم من كل حدب، وصار كل غازٍ أسدًا عظيم الهياج، أحاط الدم عيناه. وأمام هذا الإقدام اضطر «إمام قولي خان» أن يصيح في جيشه قائلًا: «لماذا تهربون أيها الجبناء؟ فليُحرم عليكم كعك الشاه»، ولكن لم يعد أي فرد في ميدان المعركة. وفي النهاية ركب هو أيضًا جواده وهرب، ونجا بنفسه، وتبعه من صادفه في الطريق من

رجاله، وفي لحظة واحدة لم يبق شخص من القزلباش في ميدان المعركة، ولكن تناثرت جيفهم وبقيت في الميدان، حتى إنه لما أحصيت رءوسهم المقطوعة، بلغت سبعة آلاف وخمسمائة رأس، وقام الجند بعمل برج من هذه الرءوس بأمر السردار. (بيت)

كانت جيفة القزلباش قد ملأت الميدان هكذا
فاصطاد كل من الثعلب والسمور والكلب جيفة كل واحد منهم

وكان أكثر القزلباش الذين أتوا إلى هذه المعركة قد جاءوا مع أهلهم وعيالهم؛ يعني كان مقصودهم الأحمق أن يقاتلوا بشدة من أجل الغيرة على شرف أهلهم وعيالهم، والحق؛ إنهم لم يقصروا أيضًا في هذه المعركة، ولكن بعناية الحق تعالى هبت رياح النصر من جانب أهل الإسلام. فلله الحمد.

في ذكر أسر بعض ملوك «كورجستان» وبناء قلعة «شماخي»

كان «إمام قولي خان» الذي كان قائد عسكر الملحدين قد أرسل الخطابات إلى ملوك «كورجستان»، وكان قد أوصاهم بالاشتراك في هذه المعركة، وأثناء الهزيمة وصل هؤلاء، وكانوا قد حلوا بمنطقة «قبا»؛ ومن ثم كانوا قد ضلوا كل أثر وكل طريق؛ ولذا ركنوا إلى الجبال، ومع أن أهالي تلك الناحية أي منطقة «قبا» كانوا كلهم عصاة، فإنهم كانوا يتظاهرون بالصداقة طوعًا وكرهًا؛ لخوفهم من السيف، ولهذا السبب قاموا بقتل معظم جنود الـ «گورج» الذين أتوا، واغتنموا ما وجدوه في حوزتهم، وأحضروا اثنين من أمرائهم وحوالي خمسة عشر من كلابهم المشهورين مقيدين من الأيدي والأقدام، فزينوا الرماح بالرءوس الكثيرة من الـ «گورج» الذين قتلوهم؛ وأحضروهم إلى ديوان السردار صاحب الوقار، وفي الحال قام السردار عالي الوقار بإرسال هؤلاء إلى «لوند خان أوغلو» حاكم «زكم»، ووبخه بشدة قائلًا له: «ما هذا الوضع، في حين أنهم يؤدون الخراج للسلطان صاحب السعادة»، وخلاصة القول، فقد تم النزول بعد الحرب أمام المدينة المعروفة باسم «شابوران»؛ حيث استراح الجند هناك عدة أيام، وبعد ذلك انتقلوا

من منزل إلى منزل حتى أتوا إلى مدينة «شماخي» وفي اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ٩٩١ هجرية[١]، شرع في بناء القلعة بها وتم بناؤها بالفعل خلال خمسة وأربعين يومًا.

وبعد ذلك تسقط النيران على ممالك «گورجستان» و«داغستان»، فصار أمراؤها يتسابقون في تقديم أنواع الهدايا من كل جانب للوزير، في أثناء العودة، فقام الوزير بإبقاء كل واحد من الأمراء المعتبرين في وظيفة كتخدا الباب سفيرًا، وبعد ذلك أراد الوزير عالي النسب أن يرى معادن النفط؛ ولما كان هذا المعدن موجودًا في محاذاة القلعة المعروفة باسم «باكو»، وصل إليها مع عدد من العسكر، ومن هناك جاءوا إلى «تيمور قبو»، وقضى هناك العيد المبارك بهذا السرور.

في ذكر توجه «عثمان باشا» إلى باب الدولة وحروبه التي قام بها في ذلك الطريق

في ٤ من شوال سنة ٩٩١ هجرية[٢]، بعدما أرسى «عثمان باشا» البطل النظام في أراضي «شيروان» على هذا النحو، ورسخ الانتظام في القلاع وبين رعاياها، أراد أن يذهب إلى الآستانة السعيدة، فجعل «جعفر باشا» قائم مقام مكانه، وجعل أهالي تلك المملكة منقادين لأمره؛ وعزم على الخروج في اليوم الرابع من العيد المبارك، وفي ذلك الوقت الذي نصب فيه الخيام على نهر «قانلو سرنجه» بعد قطع المنازل وطي المراحل، كانت قد أرسلت خزينة خدم «شيروان» من الآستانة، فأخذ الـ «روس» المنحوسون خبرًا بهذا؛ فاعترضوا طريقها، وفي ذلك الحين، كان «عثمان باشا» البطل قد نزل بساحل النهر المذكور مع عسكر الإسلام، وفي وقت صلاة المغرب؛ حيث كان الغزاة يكبرون ويكثرون من صدى نداء الله الله جل شأنه، كان الروس المنحوسون قريبين من المكان،

---

(١) الموافق ٦-٥-١٥٨٣م.

(٢) الموافق ٢٤-١٠-١٥٨٣م.

فيسمعون ذلك النداء، وبذلك يعلمون بوجود عسكر الإسلام؛ فيدخلون إلى غابة كبيرة تعيش بها الحيوانات المتوحشة، وينتظرون هناك، وفي وقت السحر، وبينما كان جند الإسلام يعبرون من ذلك النهر العميق؛ حيث لم يكن حوالي ثلث العسكر قد عبروا فعلًا ولا يزالون يتزاحمون، أطلق الروس المنحوسون البنادق عليهم، فجرحوا بعضهم، وألحقوا بعضهم الآخر بزمرة الشهداء.

وربما كان الروس قد نظموا لهم طابورًا في الغابة، فحفظوا عنده الغنائم التي استولوا عليها، واتخذوه مأمنًا لهم، وبعد ذلك، أخذ جند الإسلام بأطراف الروس، وشنوا حربًا ضروسًا استمرت يومين؛ حيث ضربوا الرءوس المنكوبة لكثير من هؤلاء الملاعين، وفي النهاية، ترك الروس مواضعهم وتقهقروا إلى غابة أخرى، فقام عسكر الإسلام بتعقبهم أيضًا، وبالقتال في ذلك المكان، حتى وقت الضحى، ولما كان من المتوقع إلحاق الضرر ببعض المسلمين؛ بسبب بعض هؤلاء الملاعين، فقد صرف عسكر الإسلام النظر عن تلك الحرب، وفضلوا الذهاب في طريقهم.

ومن هناك وصلوا إلى النهر المعروف باسم «ترك»، فإنهم عبروه بعناء شديد، وبعد ذلك، تم النزول إلى المنزل المعروف باسم «بش دبه»، إلا أن الروس المنحوسين كانوا قد قاموا بحرق تلك الصحاري، ولم يتركوا قشة واحدة يمكن أن تكون غذاءً للدواب، ولم يتم العثور أيضًا على أي مورد ماء قط على طول منزلين، ومن أجل ذلك، شعر جند الإسلام بالعناء الشديد، ثم وصلوا إلى ساحل النهر الكبير المعروف باسم «قوبان»، وأخيرًا؛ استراحت القافلة في ذلك المكان، ثم عبرت من ذلك النهر بعد ثلاثة أيام.

وفي ذلك المكان، وبينما كان أمير أمراء «شماخي» الذي كان كتخدا «عثمان باشا» المشار إليه سابقًا يأتي بالخزينة من الآستانة مع نوبتجي الإنكشارية، سمعوا أن الروس المنحوسين خرجوا إلى طريقهم، فدب فيهم الخوف الشديد، ولما رأوا التراب المتصاعد في طريق عسكر الإسلام، ظنوا أنه العدو، فاضطربوا كثيرًا، ولما رأوا وجوههم بعد ذلك، نسوا كل تعب ومشقة، ونزلوا في موضع مرتفع من هذا المكان مكسو بالخضرة،

وقضوا ساعتين في صفاء بلقاء المودة والمحبة، وقاموا بتسليم الخزينة التي أحضروها إلى «عثمان باشا»؛ حيث أسرع هو أيضًا بتوزيع وتقسيم مرتبات كل بلوك، وأعطي أيضًا العسكر الذين سيذهبون إلى «شيروان»، ولكن عرف من هؤلاء أنه لا يوجد العشب الذي يمكن أن يكون غذاءً للحيوانات في الطريق، وبأمر الله جل شأنه، هب بشدة في ذلك الحين هواء بارد وريح صرصر مدمرة للحياة، حتى سقط بعض الرجال من شدتها، وغرقوا في صحراء الفناء، وصار يهلك كل يوم سبعمائة أو ثمانمائة من الدواب، وأخيرًا، فقد ساروا بساحل نهر «قوبان» اثني عشر يومًا، وفي النهاية وصلوا إلى مكان العبور، فوجدوا أن النهر المذكور قد صار متجمدًا، وكانت تلك الأماكن محاطة بأشجار عظيمة، وعلى إثر إشعال العسكر نارًا عظيمة، تيسر لهم دفع البرد الشديد بصفة عامة، وعبروا النهر المذكور من فوق الثلوج، وفي النهاية أحضروا زوارق من نوع «جرنيق» من قلعة «نمرق» من أجل السردار، وعبروا هم أيضًا بها، وفي المنزل الرابع، تم الوصول إلى قلعة «نمرق»؛ حيث قاموا بإطلاق المدافع، وأقاموا الاحتفالات والضيافات، ومن هناك أتوا إلى «تمان» في المنزل الثاني، وعبر جميع العسكر من فوق الثلوج، وفي النهاية، ثُقب الثلج، فشرب بعض الذين انتهى أجلهم كأس الفناء، ثم وصلت القافلة إلى مضيق «كرج»، وعبرت من فوق الثلج أيضًا، ثم استراحت عدة أيام، وبعد ذلك، تم الوصول إلى مدينة «كفه» التي كانت المنزل الأخير المقصود، وأُذن بالانصراف للذين يريدون التوجه إلى أوطانهم، وأُعد المشتى والمسكن لمن تبقي منهم.

في ذكر تنصيب «فرهاد باشا» سردارًا على ديار الشرق

في سنة ٩٩١ هجرية[1]، لما بدا كذب قول «سنان باشا»: «لقد حققت الصلح»، كان لا بد أن ينصب سردارًا نظرًا لضرورة حماية شرف السلطنة؛ وأن يوجه في ربيع الأول إلى الشرق، وخشي «سياوش باشا» من تكليفه بهذا الأمر، فلما اقترح أن «فرهاد باشا»

---

(١) الموافق سنة ١٥٨٣م.

أمير أمراء الروم إيلي لائقـًا بذلك الأمر، أُحسن عليه برتبة وزير، ونُصب سردارًا أكرم على جملة عسكر الإسلام، وتوجه صوب الشرق في ربيع الأول.

بناء قلعة «روان» وتوابعها

في سنة ٩٩١ هجرية[1]، نزل جند الإسلام إلى بلدة «روان» قاطعين المنازل وطاوين المراحل، وكانت قد تعرضت للهجوم من قبل في عهد «لالا باشا»؛ حيث نهبت وخربت أكثر نواحيها، فإنها عمرت أفضل مما سبق خلال سنة أو سنتين ، ولم يترك بها مكان واحد خرب، وكانت كل واحدة من قراها التي في أطرافها عبارة عن مدينة أو مركز لا يقل عن ثلاثمائة أو أربعمائة منزل، ولما كان «شاه قولي خان» ومن بعده ابنه «محمد خان» المشهور بـ «طوقمان خان» يعاملان الرعايا على كمال العدل والإحسان، فقد حققوا نهضتها هذه، وكان الناس يقضون معظم الأيام في استقرار وصفاء وراحة بال، ولكن لما علموا بقدوم عسكر الإسلام، تشتتوا وتفرقوا.

ولما دخل السردار العادل المدينة المذكورة وشرع في بناء القلعة، حاصر قصور «طوقمان خان» في الوسط، وأمر ببناء سور واسع ومتين في أطرافها وجعلهم يتمونه في خمسة وأربعين يومًا، وقام بإعطاء إمـارة أمرائها مع رتبة الوزارة إلى «جغالة زاده يوسف باشا» الذي كان أمير أمراء «وان»، والمعروف بالشجاعة والشهامة؛ حيث كان ممن نشئوا في الحرم المحترم للمرحوم السلطان «سليمان»، وفي هذا المكان أخذ آلاف الأشخاص العبر من هبة جناب الباري هذه، فبينما كان «جغالة زاده» محبوبًا ومرغوبًا من قبل المرحوم السلطان «سليمان» وكان «فرهاد باشا» قد عمل لفترة طويلة في مطبخ السراي الهمايوني لابنه حضرة السلطان سليم، فقد وصلوا معًا إلى هذه المواقع، وهكذا عندما تأتي عظمة وعزة الدنيا الدنيئة، تأتي على هذا النحو؛ وعندما تزول، تزول بهذا الشكل.

---

(١) الموافق سنة ١٥٨٣م.

في ذكر الوقائع التي ظهرت بعد بناء قلعة «روان»

بعدما أكمل الأفراد وأُتمت المهمات التي تحتاجها قلعة «شوره كل» وهي من القلاع الضرورية والمهمة في الإيالة المذكورة، عقد عسكر الإسلام العزيمة للتوجه إلى ناحية قلعة «قارص»، ومن هناك وصل السردار إلى «قره أردهان»؛ حيث أكمل ذخيرة وخزينة هؤلاء أيضًا بالقدر الكافي، وأرسل ذخيرة «تفليس» مع أمير أمراء «ديار بكر»، وبعدما أتى هؤلاء سالمين وغانمين، وعلى إثر حلول آثار الشتاء، اتجهوا إلى جانب المشتى يعني إلى «أرضروم» التي تشبه الفردوس، وقاموا بإعداد المشتى، وفي هذه السنة المباركة، يقيم عسكر الإسلام في حالة من الهدوء والرفاهية، ولم يعانوا في أي يوم لا من اعتداء العدو ولا من نقصان الذخيرة؛ ولذلك فقد ذهبوا وعادوا وهم في غاية الرخاء والصفاء.

وقائع السنة الثانية للسردار المشار إليه
وفتح وتسخير «لوري» و«كوري»

في سنة ٩٩٣ هجرية[1]، لما هل ربيع الأول، قام السردار ببذل جهده في جمع جند الإسلام المكلفين بالحملة الهمايونية؛ حيث التحقوا بالجيش الهمايوني، وبعد ذلك نجح السردار الذي كان في مثل وقار الجبل بالاستيلاء على قلعة «لوري» وتعميرها، ونصب عليها أميرًا للأمراء وأكمل سائر مهماتها، وبعد ذلك قام بتوفير مستلزمات واحتياجات قلعة «كوري» أيضًا كما ينبغي، ومهما كان هناك من قلاع في تلك الأطراف، يعني في حدود «گورجستان»، كان يضع في بعضها عددًا وفيرًا من الجنود طبقًا لحالها واحتياجاتها، ولم يقصر قط في تعمير الأماكن المحتاجة إلى تعمير في بعضها الآخر.

(١) الموافق سنة ١٥٨٥م.

الهجوم الذي قام به «حسن باشا» ابن الوزير الأعظم محمد باشا والغنائم التي اغتنمها

في السنة نفسها ٩٩٣ هجرية[1]، وفي الوقت الذي تم فيه الوصول إلى قلعة «كوري»، أرسل إلى «حسن باشا» المشار إليه، أمير أمراء «سيواس روم» «محمد باشا» ابن الوزير الأعظم «سنان باشا»، وأمير أمراء «قرمان» «ديكر محمد باشا» مع عسكرهم، وسمح أيضًا لمن لديه رغبة من الغزاة الموجودين في الجيش الهمايوني بالهجوم؛ حيث قام السردار بإرسالهم على العدو، فهجموا على مناطق من «گورجستان» كانت على بعد ثلاثة أو أربعة منازل من «كوري»، فغنموا وأسروا ما لا حد ولا حصر له، حتى إنهم هجموا على خمسة آلاف منزل من منازل العشائر، وأحضروهم معهم، أما الأشياء القيمة فلم يكن لها حصر ولا نهاية.

وصول عسكر الإسلام إلى «تفليس» وأخذهم الخراج من «ألكسندره خان»

بعدما غنم عسكر الإسلام من مال الغنائم، وانقضى مرامهم، وصلوا من المنزل المذكور إلى «تفليس»، وأكملوا مستلزماتها ومهماتها كما ينبغي، وأحضروا الثلاثين حمل حرير وبعض الغلمان والجواري التي كانت بلا نظير والتي التزم بها «لوند أوغلو ألكسندره خان»، كما أحضروا أيضًا بعض الصقور من نوع «أسبرى» وأخرى أيضًا من جنس «بلبان»، وكان «ألكسندره خان» المذكور يزعم أنه ذو معرفة وقدرة، حتى كان منقوش على خاتمه البيت المشهور الذي قاله «حافظ الشيرازي»:

لا يبقي عمر «خضر» ولا ملك «إسكندر»

فلا تتنازع أيها الدرويش على سعادة هذه الدنيا الدنيئة

---

(١) الموافق سنة ١٥٨٥م.

وفي معظم لغات الكفار كانوا يقولون على «إسكندر» «ألكسندره»، وهذا أيضًا كان يقول بأنه هناك علاقة وشبهٌ بينه وبين الإسكندر الأكبر.

توجه حضرة ولي العهد الشاب المحظوظ إلى السنجق الهمايوني

في ٢ من ذي الحجة سنة ٩٩٢ هجرية[1]، بعدما تم حفل ختان حضرة ولي العهد مقضي المرام والشهريار اللائق بالعرش السلطاني «محمد خان» عالي القدر، وعلى إثر انتهاء ذلك الجمع الذي لم يكن له نهاية، صدر الفرمان من جانب السلطان بتوفير مستلزمات السنجق الهمايوني، ففي البداية حُرر وسُجل بالدفتر «لالا» و«نشانجي» و«دفتر دار» وأغوات خدم الركوب وأبناء السباهية وبلوكات سلحدار يمين ويسار وطائفة سكبان وطائفة عسكره المعروفة باسم «صولاق» وسعاته وخدم إسطبله العامر وخدم المطبخ والخزينة العامرة وأقل أو أكثر من ألفين من خدم الدرگاه العالي ومن طائفة جواري الخدم ومن طائفة أبناء الخدم ومن خدم الأكابر، وامتطى ولي العهد الجواد الذي يشبه رياح الصبا في سرعته بعد تزيينه بطاقم مرصع وزينة سلطانية، وخرج من السراي العامرة في اليوم المذكور، وكان قد اجتمع عند الباب الهمايوني كافة خدم السلطان معتادي الظفر عدا الإنكشارية، وتوجه كل واحد منهم بحسب مرتبته صوب الميناء من أمامه أو من خلفه، وفي البداية اقترب الصدر الأعظم «سياوش باشا»، وبعده تقدم كل واحد من الوزراء؛ بحسب آداب السلاطين وأظهروا خضوعهم بالكلمات التي تتعلق بصفات العدل والإنصاف.

وفي الميناء دخل ولي العهد إلى سفينة من نوع «القادرغة» ودخل الوزراء العظام أيضًا إلى «قادرغة» أخرى وذهبوا في موكبه حتى نزل ولي العهد إلى خيمته السلطانية، وبعد ذلك عند الوداع شرفوا بتقبيل ذيل ثوبه المبارك، وكان قد عُين رئيس البوابين «قورد

---

(١) الموافق ٥-١٢-١٥٨٤م.

أغا» فقط لخدمته المباركة؛ حيث لم يفترق عن خدمته الشريفة حتى وصل إلى سنجقه الهمايوني، وبعد أداء المهمة قام «قورد أغا» أيضًا بوداعه وعاد إلى باب الدولة.

مقتل خان التتار «محمد گراى»

في سنة ٩٩٢ هجرية[1]، بينما كان الخان المومأ إليه ممن تربوا على أيدي أسرة آل عثمان، أبًا عن جد، اغتر بنسبه المنتهي إلى السلالة الجنكيزية، ومن ثم تكاسل عن الذهاب إلى حملة العجم، وعندما ذهب بعد ذلك طوعًا وكرهًا، عاد ولم يقض الشتاء هناك، وعلى إثر شكاية رعايا «كفه» منه في معظم الأحيان، وغروره بالقول: «يا ترى هل نحن من الأمراء العثمانيين؟» عندما كُلف بالخدمة من جانب السلطان، وعلى إثر وضعه المنفر منه الذي صار باعث غيظ عظيم، كل ذلك أصبح باعثًا على أذى خاطر السلطان عالي المكانة؛ ومن ثم فقد قام بإصدار الخط الشريف إلى «عثمان باشا» الذي يقضي بمعاقبته.

ولكن لما كان «عثمان «باشا» قد أذن بالانصراف لأكثر الجنود الذين أتوا معه، فقد بقي بجانبه حوالي ثلاثة آلاف رجل فقط، وعلى هذا، عرض الأمر على الركاب الهمايوني ثانية قائلًا: «إنه لا يمكن إجراء هذا الأمر الخطير بسهولة؛ لأنه نتيجة لذلك يمكن أن تظهر فتنة عظيمة، قبل أن يتم الفصل في موضوع القزلباش».

وما إن عُرض الأمر على السلطان، حتى صدر خطه الشريف القائل: «قطعًا عليك أن تمتثل لفرماني، وأن تنفذ أمري بأي وجه كان»، وعلى هذا، امتثل «عثمان باشا» الشجاع للفرمان الهمايوني، وبدأ في أخذ تدابيره، وقام في البداية بتفويض منصب خان القرم إلى أخيه «آلب گراى سلطان»؛ حيث أحسن عليه بالبراءة الهمايونية، أما الخان «محمد گراى» فقد قام بجمع حوالي مائة ألف من التتار قائلًا: «بينما أنا السلطان صاحب السكة والخطبة، فمن ذا الذي يستطيع عزلي وتنصيبي» وسار بهم صوب «كفه».

---

(١) الموافقة سنة ١٥٨٤م.

ومن ناحية أخرى كان السلطان صاحب السعادة قد أحسن بمنصب الخان على أخيه «إسلام گراى خان» الذي كان محتجزًا في الآستانة السعيدة؛ حيث أرسل إلى ناحية «كفه» مع «قبودان قليج علي باشا»، وفي الوقت الذي وصلوا فيه إلى ميناء «كفه»، وعلى إثر إشاعة خبر مجيء الخان الجديد، انفصلت طوائف الخدم الخاصة والأمراء الذين كانوا بجانب الخان ويأخذون المرتبات من السلطان انفصلوا بالواحد والاثنين والخمسة والعشرة، وبعد ذلك جماعة جماعة عن جيش «محمد گراى خان»، والتحقوا بعسكر «إسلام گراى خان»؛ وقالوا: «إننا خدم خاننا العظيم».

ولكن مهما استمال «محمد گراى» التتار؛ ومهما وقف وقال: «لا يوجد سلطان غيري، فإنني لم أعزل»، فإن ذلك لم يفد، وفي النهاية، أراد أن يهرب صوب مصب نهر «أور» داعيًا بالسوء: «ليجد الذين قاموا بعزلي ما يسوءهم من الله تعالى»، ولكن لما كان رجلًا سمينًا وجسيمًا، علم أنه لن يستطيع الهرب، فقام بفرش سجادته ورضي بالقضاء، وفي ذلك المكان، وصل بعض أبناء الخان، فأنهوا أمره، رحمة الله تعالى عليه.

مجيء «عثمان باشا» إلى باب الدولة واقترانه بالإحسان الهمايوني

في رجب سنة ٩٩٢ هجرية[١]، لما قام الوزير الشجاع بتمكين الأمور المتعلقة بمملكة القرم بموجب الأمر السلطاني، ركب السفن من نوع القادرغة التي أتت مع «القبطان باشا»، وجاء إلى باب الدولة، ولما كان حتى ذلك الوقت ما زال وزيرًا ثانيًا، لم يستقبله الوزراء العظام؛ ولذلك فقد توجه أغا الإنكشارية وأغوات خدم الركوب فقط إلى الميناء لاستقباله، ثم لحق بالديوان الهمايوني الذي عقد في ذلك الأسبوع، وجلس في مقام الوزير الثاني، وقدم هديته للسلطان وارتدى خلعة التشريف بحسب القانون.

وفي اليوم الرابع الموافق يوم الثلاثاء، نزل السلطان صاحب السعادة إلى القصر الجديد، وقام بدعوة الوزير المومأ إليه، فلما وصل الوزير إلى المجلس الهمايوني، ونال شرف

(١) الموافق يوليو ـ أغسطس ١٥٨٤م.

الخطاب المستطاب، وعلى إثر تفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث إليه في البداية بالكلام الذي نهايته مسرة: «أتيت أهلًا وحللت سهلًا يا عثمان، اجلس» قام المومأ إليه بعرض طاعته، وبعد أن أدى الدعاء بدوام دولته، وقف تجاه السلطان؛ فتفضل السلطان صاحب السعادة قائلًا: «اجلس». وبعد جلسة خفيفة، نهض على الأقدام مرة أخرى، وبالجملة، فقد أبدى هذا اللطف ثلاث أو أربع مرات، وبعد ذلك، تفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث: «اقصص عليّ الأحوال التي وقعت لك بعدما وصلت إلى «شيروان» مع «لالا باشا»، وما قمت به مع الأعداء»، وعندما روى الباشا المومأ إليه في البداية حرب خان الـروس، وأنه قام بقتل المذكور حينما وقع أسيرًا، وبسبب وعلة ذلك، أثنى عليه السلطان صاحب السعادة قائلًا: «حسنًا يا عثمان»، وخلع طرته القيمة المزدانة بالجواهر التي كانت على رأسه المباركة ووضعها على رأس «عثمان باشا» بيده المباركة، وبعد ذلك، لما روى قصة الحرب والجدال الذي كان مع «حمزة ميرزا» من أوله إلى آخره، قام السلطان صاحب السعادة بتكرار القول: «فلتنل ثمرة ومكافئة سعيك وهمتك، فلتنل ثمرة ومكافئة سعيك وهمتك يا عثمان» وقام بإخراج الخنجر المرصع الذي كان في خصره المبارك، وأدخله في خصره؛ أي في حزام «عثمان باشا» بيده المباركة، وبعد ذلك قام «عثمان باشا» بشرح وقائع المعركة التي كانت مع «إمام قولي خان» خان «گنجه»، وقام السلطان صاحب السعادة بالثناء عليه كثيرًا مرات ومرات؛ ووضع على رأسه أيضًا طُرّة غالية جدًا، وبعد ذلك قص عليه هجوم خان التتار عليه بمائة ألف من جند التتار، ومواجهته لهم بثلاثة أو أربعة آلاف رجل بفضل الله تعالى، وكيف ودع الخان في النهاية المُلك الفاني، فقام السلطان صاحب السعادة برفع يديه المباركة ودعا له بخير الدعاء قائلًا: «فليكن وجهك شريفًا في الدارين، وليرض عنك حضرة الحق تعالى، ولتبق ما بقيت الدنيا»، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث إلى الأغوات: «خذوا «عثمان» وألبسوه الحرير المزركش من القميص وحتى الملابس الداخلية»، ودخل «عثمان باشا» ثانية، وبعدما تشرف بتقبيل قدم العرش الهمايوني، امتطى جوادًا قويًا مزينًا بطاقم مرصع، وقام السلطان صاحب السعادة بإرساله إلى قصره.

وكان المرحوم «عالي أفندي» قد انتسب إلى بلاط «عثمان باشا»؛ حيث قام «عثمان باشا» في ذلك الحين بإعطائه دفتر دارية «أرضروم»، وقد كتب «عالي أفندي» في تاريخه هذه الأمور بالنقل عن لسان «عثمان باشا».

ويروى أنه كان قد أشيع على لسان الناس أن المرحوم «عثمان باشا» ابتلي بالمكيفات وخصوصًا نجاسة الخمر الصافي، حتى انعكس ذلك الأمر أيضًا على السلطان صاحب السعادة. وبعدما خرج من المجلس الهمايوني السلطاني، تفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث إلى أغا باب السعادة: «الحمد لله تعالى كانت لدينا شبهة فأبعدناها أيضًا»، ولما قال الأغا: «ما الشبهة يا سلطاني؟». قال السلطان صاحب السعادة: «كانوا يقولون لنا: إن «عثمان باشا» مبتلى بالكيف، وبصفة خاصة نجاسة الخمر، فلو أصبح وزيرًا أعظم، فلن يكون قادرًا على مسايرة الديوان. فوقف أمامي أربع ساعات نجومية، كنا نتحدث طوالها، فلم تظهر عليه آثار السكر، فلو كان صاحب كيف، قطعًا كان سيظهر عليه الكسل، ولو كان مبتلى بالخمر، كانت ستظهر علاماته التي قد تغير من مسلكه فتأكدت معلوماتي بأنه غير مبتلى بواحدة منها».

ومعلوم لأولي النهي أن السلطان صاحب السعادة كان يعرف علامات المكيفات، ولكن غفلوا عن أن هذا القدر من الاهتمام الباعث على السرور من جانب السلطان كان تأثيره وقوته أكثر من كل المكيفات، فهذه الرعاية العظيمة التي شهدها «عثمان باشا»؛ لو كان شيخًا، لأصبح شابًا، ولو كان مريضًا، لصار معافى.

الحديث عن جبلة أو طبيعة الوزير المومأ إليه «عثمان باشا»

كان هناك غلام محبوب من غلمان حرم المرحوم فرهاد باشا الذي استشهد في «بدون» يعرف باسم «كوچك مصطفى»؛ وهذا الغلام صار بعد ذلك خزينة دار أي أمين الخزنة لـ «وزير زاده حسن باشا» وقد فقد في حرب «أستوني بلغراد»، فقام «حسن

باشا» بإرسال الرجال إلى الكفار، وأمرهم بالبحث كثيرًا عنه هناك؛ حيث كان مقررًا أنه لو كان موجودًا سليمًا فإنه سيخلصه بدفع المال اللازم، وكان قد أهدى «حسن باشا» الغلام المذكور مع غلام أو غلامين إلى «عثمان باشا»، ولما كنا نعرفه منذ زمن «فرهاد باشا»، فقد استضافنا عدة مرات في «بدون» حينما كان في منصب أمين الخزنة، وروى ذات مرة ما كان من شرب ومنادمة «عثمان باشا» حيث قال:

كان كثيرًا ما يحضر في الليالي الطوال بصراح الخمر؛ حيث كان غلام يقدم القدح، وغلام آخر يضع ثلاثة أو أربعة أطباق مَزّة على الصينية ويمسك بها، ويمسك غلامان أو ثلاثة أيضًا كل واحد منهم طبقًا من اللحم وصنوف أخرى من الطعام، وكلما يطلب، كانوا يحضرون إلى أمامه ما يطلبه وكان يُعزف الساز أي الرباب أمامه، ويغني الغلمان، وبعد أن يشرب خمسة أو عشرة أقداح بهذه الطريقة، كان يصبح ثملًا، ويُجلس غلامًا أمامه ويلف يديه على رقبته وكان ينام نصف ساعة، وكثيرًا ما كان ينام ساعة، وأحيانًا كان يستند إلى وسادة، وبعد ذلك كان ينهض، ويجدد وضوءه ويتعبد حتى الصباح، وكان يذرف دموع عينيه بالقدر الذي كان يبلل بالماء الصافي مكان السجدة على سجادته، وهكذا كان أكله وشربه وذوقه وصحبته على هذا النحو، والعهدة على الراوي.

تعيين «عثمان باشا» البطل وزيرًا أعظم

«في ٣ من رجب سنة ٩٩٢» هجرية[1]، لم يقبل الوزير الأعظم «سياوش باشا» تذاكر التعيين أو الترقية المعروفة باسم رءوس[2] التي منحها المشار إليه «عثمان باشا» بحجة أنه أفرط في عطائه، وكان مقصوده الأصلي من هذا، أن يوقع شبهة بمكانة «عثمان باشا»،

---

(١) الموافق ١١-٦-١٥٨٤م.

(٢) رءوس: هو اسم أطلق على الاستمارة التي تبين المعاملة الكتابية لكل خدمات الدولة الموجودة في الإمبراطورية العثمانية، والمعاملة الكتابية لكل سائر الموظفين الذين يتقاضون رواتب من الأوقاف والخزينة. وكان يقيد هؤلاء بالدفاتر التي تعرف باسم «دفتر رءوس». وهذه التسجيلات كانت تحفظ في قلم «رءوس» الديوان الهمايوني.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 86.

وكانت زمرة السلحدارية قد بذلت ما في وسعها في المواجهة التي حدثت في «تيمور قبو» منذ عدة سنوات؛ ولذا فقد أعطي «عثمان باشا» أقچة واحدة كترقية عامة لكل فرد منهم في حرب «شاه أوغلو»؛ ومرة ثانية في حرب «إمام قولي خان»، وثالثة عند انهزام «تتار خان»، وكان «سياوش باشا» يريد أن يخصم أقچة واحدة فقط من هؤلاء، وفي تلك الأثناء أتى جميع أفراد الزمرة المذكورة إلى الديوان الهمايوني، وردوا على الوزراء بإجابة غير معقولة وخارجة كثيرًا عن حدود الأدب؛ ولكن لم يتكلموا بسوء قط عن حضرة «عثمان باشا»، ولما وصلت أخبار هذه الأوضاع إلى جناب السلطان، قام بعزل «سياوش باشا»، وعين مكانه «عثمان باشا».

وفي اليوم الثالث أتى الوزراء إلى الديوان مرة أخرى، وكان قد جلس كل واحد منهم في مكانه، وتعجبوا قائلين: «لم يُعهد بمنصب الصدارة العظمى إلى شخص»، وفي هذه الأثناء، ظهر أغا باب السعادة من الباب الهمايوني؛ ووضع الختم الهمايوني على منديل مزركش، ونادى على كتخدا خدم الباب وقال: «لقد قام السلطان صاحب السعادة بالدعاء لـ «عثمان باشا» بالخير، وكان خاتم الوكالة من حقه منذ فترة، ولكن بقاءه في الحدود كان مانعًا لوصوله إليه، والآن وجد الحق مكانه»، وبعد ذلك أخذ «عثمان باشا» الختم الشريف بالتعظيم والتبجيل؛ ووضعه على وجهه وعينيه، ثم وضعه في جيبه الذي على صدره، وفي الحال نهض أهل الديوان؛ وقاموا بتهنئة «عثمان باشا» وهم في أماكنهم، وقبلوا يده وذيل ثوبه، ونثروا درَّ دعائهم على السلطان صاحب السعادة.

تعيين الوزير المومأ إليه سردارًا على العجم وقضاؤه الشتاء في «قسطموني»

في سنة ٩٩٢ هجرية[1]، بينما كان الوزير الأعظم المومأ إليه مهتمًا بتنظيم أحوال المملكة وأمور العسكر، أخبر جناب السلطان بأن ابن الخان المقتول قام بالفرار إلى الـ «روس»

(١) الموافق ١٥ - ١٠ - ١٥٨٤م.

المنحوسين مع بعض الأمراء وأنه على وشك إيقاع الضرر من هناك على بلاد التتار؛ أي «القرم» مع بعض الأشرار، وعندئذ تفضل السلطان صاحب السعادة بإصدار الفرمان إلى «عثمان باشا» قائلًا: «إن دفع هذه الفتنة يمكن أن يتم برأيك الرزين». وكلفه أيضًا بأمر السردارية قائلًا: «ليس لائقًا إرسال سردار آخر بينما تكون أنت واقفًا على حدود العجم».

وعلى هذا، ولما لم يوافق مزاج «عثمان باشا» الرقيق مثل الزجاج جو إستانبول، سعى للخروج من إستانبول بسرعة، وعبر إلى «أسكدار» في اليوم العاشر من شوال من السنة المذكورة [٩٩٢هجرية]، وبينما كان موجودًا في السفينة قام أمام الوزراء بعرض منح إيالة الروم إيلي مع رتبة الوزارة إلى «قلايلي قوز علي باشا» أمير الأمراء المقتول الذي كان في ذلك الحين أغا الإنكشارية، والإحسان برتبة أغا الإنكشارية إلى «سلحدار خليل أغا»، على السلطان حيث نال الموافقة الهمايونية السلطانية على ذلك، وبعد ذلك دخل إلى «قسطموني» قاطعًا المنازل، ولما كان المرحوم «فرهاد باشا» الذي استشهد في «بدون» معزولًا في تلك الأثناء من البوسنة، قام بإحضاره وأرسله من «سينوب» إلى «كفه» لدفع اضطرابات بلاد «القرم»، وهو أيضًا ـ المقصود فرهاد باشا ـ لم يجعل الصدر الأعظم نفسه في حاجة للتوجه إلى هناك بفضل الله تعالى، وقام بدفع ورفع الخلل والاضطراب الذي ظهر فيما بين عسكر التتار كما ينبغي.

في ذكر توجه السردار صاحب الوقار من مشتى «قسطموني»

في سنة ٩٩٣ هجرية[١]، ولما أمضوا ذلك الشتاء في «قسطموني» بلا اضطراب وتشويش، عقدوا العزم وصرفوا زمام الهمة للتوجه إلى جانب «تبريز» في ربيع الأول، ووصلوا في شعبان من السنة المذكورة [٩٩٣ هجرية]، إلى محمية «أرضروم» المتسمة بالبهجة، ومن حكمة الله تعالى بينما كان الرخاء يعم المملكة حتى تلك الأثناء، ظهر

---

(١) الموافق ١٥٨٥م.

القحط والغـلاء الذي كان باعثًا على خروج العسكر عن الحياء، حتى إنه أتى ذات يوم، بلوك من الجنود الذين ضعفوا من الجوع من طائفة «بلوك خلقي»، وتحدثوا إلى الوزير الأعظم بكلام كثير غير لائق، كما نزعوا الأجولة المعلقة في رءوس أحصنتهم التي تأكل العليق، ولكن ما الحيلة في مواجهة الفقر، وتوجهوا إلى الحملة أيضًا وهم على هذه الحالة، وكان قد استولى الضعف والفتور على مزاج «عثمان باشا» منذ أن خرج من إستانبول، وكان ينتابه الوهن يومًا وتغمره العافية يومًا آخر، حتى إنه فضل أن يذهب هذه المرة بالمحفة، وذهب على هذا النحو حتى وصل إلى «تبريز»، ولما وصل إلى صحراء «چلدران»، استقبله «جغالة زاده يوسف باشا» الذي كان أمير أمراء «وان» مع خدمه المنظمين والمكملين، والذين يزيدون على الألف، وبجيوش «وان» التي تزيد على ستة آلاف، وصار السردار سعيدًا جدًا من هذا الاستقبال؛ حيث قربه إليه ورعاه غاية الرعاية، وأمره بالتقدم منزلًا إلى الأمام.

حرب «جغالة زاده يوسف باشا» مـع «شاه أوغلو قوچ قپان حمزة ميرزا»

عندما تم النزول إلى الـقرية المعروفة باسم «صوفيان»، وصل الخبر إلى طائفة «آت أوغـلاني»[1]، بأن القزلباش قد وصلوا، وعلى هذا عُين «يوسف باشا» المومأ إليه، وأرسل عليهم، فقام «يوسف باشا» بأسر الكلب الذي كان يعرف باسم «ديوان بكي» من القزلباش، وقطع حوالي مائة رأس منهم أيضًا، ولكن المذكور «ديوان بكي» أثنى على رجولة «يوسف باشا» وعلى بطولته الفائقة مع قلة الرجال، وقال للباشا: «سيدي الجميل، إنني أرى أنك بطل مغوار، ولكن لو تستمع إلى نصيحتي لن تندم: اختار شاهنا

---

(١) آت أوغلانلري: هو تعبير كان يطلق على ساسة خيول القصر وكان قسم منهم يخدم في الإسطبلات الداخلية والخارجية للقصر في إستانبول، وقسم يخدم في سائر الإسطبلات. وحينما كان يتوجه السلطان للحملة، كان هؤلاء يقومون برعاية الخيول سواء الموجودة لدى السلطان أو الموجودة لدى معيته. وكان مقدار "آت أوغلانلري" حتى أواخر القرن الثامن عشر حوالي ستمائة.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C.I. S. 112.

«حمزة ميرزا» سبعة عشر ألف غازٍ تتـقطر الدماء من سيوفهم من جملة جند الشاه؛ وأتى على مقربة من مصيف «أوچان» بنية الهجوم على جيشكم والقضاء على سطوتكم، وسيصل الآن في هذه الساعة، وسيهبط عليكم، ويخوض معكم المعركة؛ وإنني أعتقد أنه لن ينجو أي شخص منكم، فخذوا استعدادكم في الوقت المناسب». وعلى هذا قام «يوسف باشا» بإرسال المذكور «ديوان بكي» إلى السردار وطلب الجند، فقام السردار بإرسال «محمود باشا» أمير أمراء «ديار بكر» مع جنده لإمداد الجيش المرابط، وفي ذلك الحين أتى «شاه أوغلو» على حين غرة، ووقع القتال والحرب والجدال الذي كان يعطي لمحة من يوم القيامة، وذلك «بين الصلاتين» وحتى المساء، لدرجة أنه قُطعت رءوس كثيرة من الطرفين، وهلك عسكر بلا نهاية، وحاصر القزلباش عسكر «ديار بكر» بالدرجة التي أصبح فيها عسكر «ديار بكر» لا يمكن أن ينجو من هؤلاء، إلا أن هؤلاء أيضًا؛ أي عسكر الإسلام وقفوا ثابتي الأقدام مثل جبل «قره طاغ»، ولم يتحركوا خطوة واحدة عن أماكنهم، وفي النهاية ابتعد المتحاربون عن بعضهم وهم على هذا الوضع. ولما أتى «جغالة زاده» و«محمد باشا» والأمراء الذين كانوا في الحرب إلى السردار ذي الوقار، قام السردار بتعليق طُرة مزدانة قيّمة على رأس «جغالة زاده» وألبسه الخلع وقدم له بعض العطايا والإنعامات والإحسانات.

في ذكر مذبحة أهالي مدينة «تبريز» وسببها

لقد وصل عسكر الإسلام إلى «شنب غازان» في اليوم السادس والعشرين من رمضان المبارك ٩٩٣ هجرية[1]، فمع أن «حمزة ميرزا» كان قد هرب وذهب، فإنه كان أشقياء المدينة وشحاذيها قد بقوا في أماكنهم، وفي ذلك اليوم، وصل بعض أمراء الأمراء إلى المدينة وخاضوا معارك طاحنة، وفي تلك الليلة، بلغ أشقياء المدينة وشحاذيها ثلاثة أو أربعة بلوكات، فقاموا بقتل وسلب من افترق وغفل عن الجيش الهمايوني من غزاة

---

(١) الموافق ٢١-٩-١٥٨٥م.

الإسلام، وقاموا بتهريب الذين لم يتحركوا ويذهبوا من «تبريز» حتى ذلك الوقت، وفي اليوم التالي، كانت المدينة خالية تمامًا، فملأ عسكر الإسلام المدينة؛ وأمروا المنادين بالنداء قائلين: «هذا الوقت أمن وأمان»، أما من تبقي في المدينة فقد بقوا في هدوء وراحة بال، ولما أعطي الأمان كما حدث في عصر المرحوم السلطان «سليمان خان» قبل ذلك، فقد بقوا في راحة بال واستقرار بموجب ذلك الأمان.

ولكن قام عشرة أو خمسة عشر رجلًا من عسكر الإسلام بالتجرد من ملابسهم، ودخلوا إلى الحمام، فقام بعض الأشقياء الذين يطلق عليهم «أيتام تبريز وشحاذيها» - الذين كانوا أيضًا يعصون شاههم - بالهجوم على هؤلاء المسلمين في الحمام، وأراقوا دماءهم كماء الحمام، وما إن وصلت هذه الأخبار إلى السردار حتى قال: «يا هو فليقتل الآن هؤلاء جميعًا بالسيف»، وتألم قائلًا: «كلما أعطيناهم الأمان وقمنا بحمايتهم، يقومون هم بزيادة المفاسد»، وعلى هذا قام عموم الجيش بالهجوم على المدينة، عندما سُمح لهم على هذا النحو، وقاموا بقتل السادات والأشراف والنجارين وأرباب الحرف الذين وجدوهم في المدينة وذلك في ثلاثة أيام وثلاث ليال، وفي هذا الخصوص يكون السردار من أجل ذلك الألم البسيط، قد ارتكب خطأً فاحشًا لم تفد فيه الندامة بعد ذلك؛ ولم يفد فيه تنبيهه ونداؤه على العسكر بقوله ثانية: «الأمان»، كما لم يفد فيه توجهه شخصيًا إلى المدينة وقتله بعض الرجال المتجاوزين للأمر ووضعه طائفة «قوروجي»[1] و«يساقجي» في كل مكان.

في ذكر انتصار القزلباش على بعض أمراء الأمراء

لقد ورد الخبر بأنه سيتحرك «شاه أوغلو» من «أوجان» مع ثلاثين ألف جندي وسيتوجه إلى عسكر الإسلام، فأرسل «جغالة زاده» و«محمد باشا» ثانية مع عسكر

---

(١) قوروجي: هم أقدم جنود الإنكشارية الذين خدموا فترة طويلة بين صفوف جند الإنكشارية ولا يتقاعدون أي لا يحالون إلى المعاش.

-Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 189.

«وان» و «آمد» للتصدي له، فوصلوا على الصباح لمواجهة جيش «شاه أوغلو»، وعلى هذا تقدم طابوران كبيران جدًا من القزلباش من اليمين واليسار وأتوا لمواجهتهم، ورأى طابور آخر كامل التجهيز أن يتربص بطابور «ديار بكر»، وكان «محمود حسن بك» ـ الذي كان شيخًا شجاعًا وابن رجل خاض حروبًا كثيرة ـ قد استمال أكثر من خمسمائة من الأكراد الذين يشبهون «رستم» ممن كانوا في طابوره، ثم تقدم، ولما رأى زحف القزلباش بهذه الكثرة العظيمة، ولى الأدبار ساحبًا هؤلاء حتى طابور «جغالة زاده»، فقام «جغالة زاده» بخلع عمامته العظيمة الملفوفة بخيوط الزينة من نوع «طورنة» والمزركشة بأجنحة الطائر العظيم المعروف باسم «جيفا» عن رأسه، وبعد ذلك اقتدى به كل جنده أيضًا؛ يعني خلعوا خيوط الزينة وعمائمهم من على رءوسهم وصارت رءوسهم عارية، واستلوا سيوفهم وقبضوا عليها بأيديهم، وهجموا فجأة على طوابير القزلباش التي أتت لمواجهتهم، ولم ينج من ذلك الطابور سوى ثلاثة قزلباش كانوا قد هربوا من قبل، واستشهد من هؤلاء أيضًا المقصود العثمانيين أمير «چرمك» ورئيس سباهية «وان»، وأخذوا معهم ثمانية أفراد أحياء من القزلباش وثلاثين رأسًا.

ولما عاد «جغالة زاده» وعاد من بعده أيضًا «محمد باشا»؛ تعقبهم القزلباش فسقط ثمانمائة رجل، بعضهم في الأسر وبعضهم الآخر قتلى، ولذلك لم يستطيعوا الوقوف أمام السردار، وربما لم يستطيعوا النظر في وجه العسكر لمدة ثلاثة أيام، وأصبح القزلباش في هذه المرة في قوة تمكنهم من امتلاك عرين الأسد، فرتبوا جيشهم في مكان يمتد حوالي ربع منزل، وفي ذلك المكان قاموا بضرب عسكر الإسلام على أيديهم.

بناء قلعة «تبريز» المحببة إلى القلب

في ٢ من شوال المكرم سنة ٩٩٣ هجرية[1]، لما فتح عسكر الإسلام المدينة، بدءوا في بناء القلعة في اليوم المذكور، وأتموها بفضل الله تعالى خلال ستة وثلاثين يومًا، وكان

---

(١) الموافق ٢٧-٩-١٥٨٥م.

محيط القلعة يمتد طوله لاثني عشر ألفًا وسبعمائة أرشون[1]، وقد حدث أن وصل السردار عالي المقدار ذات مرة، وأدى صلاة الجمعة بها.

وكان قد حل بمزاجه الضعف الشديد؛ وأصبح لا يتيسر له امتطاء الحصان ولا حتى ملاقاة العسكر، وقام بتوجيه إيالة «تبريز» إلى «خادم جعفر باشا» أمير أمراء طرابلس الشام كـ «إربه لق» مع إيالة «ديار بكر» بشرط أن تعطى له إمارة أمراء «بدون»[2] برتبة وزير بعد ثلاث سنوات، وترك سبعة أو ثمانية آلاف رجل للمحافظة عليها، ولم يكن قد أقيم منزل واحد في القلعة حتى ذلك الوقت، ولكن كان يوجد بها ما يعرف باسم «حديقة الشاة» من أجل أمير الأمراء فقط؛ حيث اكتفى بالقصر الواقع بداخلها وسائر ملحقاته، ولما كان لديه إذن من السلطان صاحب السعادة بتنصيب «جغالة زاده» سردارًا مكانه في حالة حدوث أي أمر له، فقد عهد بأمر السردارية إلى المذكور، وقام أيضًا بتبليغ سائر وصاياه إلى المشار إليه.

في ذكر التحرك من «تبريز» ووفاة السردار

لما دُبرت أمور «تبريز» على هذا النحو استودعها السردار إلى جناب الباري تعالى، وعقد العزم للتوجه صوب «شنب غازان» بعسكر الإسلام، ولكن في ذلك الحين، أتى «قوچ قپان حمزة ميرزا» مع جيش القزلباش الجرار، فوجد مقدارًا من الأثقال، فأخذه، حتى ساق وحمل أربعين قطارًا من جمال «جغالة زاده» بأحمالها وأثقالها، واستشهد في ذلك المكان «خسرو كتخدا» – كتخدا «محمد باشا الطويل»– الذي كان قد عين أمير أمراء «چلدر»، وبينما يهرب «محمد باشا» أمير أمراء «ديار بكر» و«مراد باشا» أمير أمراء «قرمان» ـ الذي عرف بـ «قوجه مراد باشا» وعُين وزيرًا أعظم في عصر السلطان «أحمد

(١) هو وحدة قياس قديمة تبلغ سبعين سنتيمترًا تقريبًا.

(٢) لم يظهر توجيه المناصب بشروط على هذا النحو إلا خلال القرن السابع عشر، وذلك لزيادة أعداد رجال الدولة من الأمراء والوزراء، ما كان منفذًا للمساومات وسعي الأمراء لتأمين مناصبهم بشروط من هذا القبيل.

خان»؛ حيث قضى على وجود الجلاليين عدماء النفع والمشهور بلقب «قويوجي قوجه» - بسقطِ بالبئر وحبسا فيه؛ فتجمع القزلباش على رأس «محمد باشا» وأذاقوه الشهادة؛ ولما أعلن «مراد باشا» عن نفسه، لم يقتلوه وقاموا بأسره.

وفي ذلك الحين كان قد توفي الوزير الأعظم والقائد الأكرم، ولإخفاء ذلك كان قد عمل «جغالة زاده» في حراسة مؤخرة الجيش «كدمار»[1]، ولكن شاع خبر الوفاة، فراح القزلباش يظهرون البشاشة قائلين: «مات سرداركم سيئ الاسم» وبدءوا يقولون: «من يسل السيف على آل علي، قطعًا سيجد جزاءه».

ولما اقتربوا إلى «شنب غزان»، أعلنوا قائلين: «فليتم النزول»، ونزلوا وتهيأ كل شخص بمهماته الحربية مرة أخرى، وأصبحوا في غاية الاستعداد وبعد ذلك أمروا المنادين بالنداء: «الراحة حتى الصباح». وعند وقت السحر امتطى جملة الأعداء جيادهم بكامل أسلحتهم؛ وعلى هذا، صدر الأمر بتنظيم الطوابير، ولما انتظمت طوابير العسكر تمامًا وخرجوا من الجيش، أمروا المنادين بالنداء: «فليرحل الجيش أيضًا»، وبعد ذلك، قام السردار بتعيين طليعة للجيش ومؤخرة له، وأخذ هو مكانه وتقدم خطوة خطوة، وفي ذلك الحين، قام القزلباش بإرسال كتخدا جاوشية «ديار بكر»، «قليج جاوش» - الذي كان قد أسر من قبل - إلى «جغالة زاده»، وحذروه بقولهم: «ها هو قائدكم نال جزاءه من سيف «علي»، وغمرت أطرافكم التي ستذهبون عليها بالمياه، وأخذت ممراتكم التي ستعبرون منها، فإذا جئتم الآن وطلبتم الأمان والمروءة، وإذا عدتم إلى عتبة شاهنا وخضعتم له، فإنكم تصلون إلى رفعة الدارين، وإذا لم تعلنوا الطاعة الآن، فإنه بعد ذلك، عندما تعلقون سيوفكم في رقابكم وتقولون: إن الأمان والمروءة هي للشاه الجميل، عندئذ لم يكن هناك احتمال أن يُعطى الأمان والمهلة لأحد منكم».

ولكن بعناية حضرة الحق تعالى، لما تعقبوا عسكر الإسلام، وهم على غرورهم هذا، وعبروا من المعابر والأماكن المغمورة بالماء، هجم عليهم عسكر الإسلام فجأة

(١) وهي وظيفة الحراسة لأثقال الجيش في المؤخرة ويعرف أربابها أيضًا باسم (آردجيلر).

بأمر السردار المؤيد بالنصر وأجبروهم على الهرب جميعًا طوعًا وكرهًا، وأوقعوهم في جداول المياه والمعابر التي ذكروها، وهكذا سقط القزلباش في الآبار التي حفروها لأهل الإسلام، وتجمع الغزاة على رأس الملاعين الذين غرقوا كالخنزير الذي غرق في الوحل والماء النجس؛ وقتلوا بعض الأشخاص منهم أربعات وخمسات، وقام بعض الغزاة أيضًا بأسر بعضهم الآخر، وبعد هذا تراجع الطرفان عن بعضهما، ولم يتعرض القزلباش لأهل الإسلام، وبهذا الشكل تم الوصول إلى حدود «وان»، وأُعطي إذن الانصراف لمن يريدون العودة إلى أوطانهم.

في وصف مدينة «تبريز» الجاذبة للقلب

هي من المدن العظيمة الواقعة فيما بين المصيفين المشهورين والمعروفين باسم مصيف «أوجان» و «قزل طاغ»، وهي عاصمة مملكة «أذربيجان» منذ أن وُضع أساسها، وعندما قام «جعفر باشا» بتوطين رعاياها مع تقديم الوعود الكثيرة لهم، وقام بتسجيلهم بالدفاتر وفقًا لقانون العثمانيين وأقام لهم المباني، كان قد حُرر بالدفاتر ثمانين ألف منزل، ولكن بعد التسجيل بالدفاتر هذه، كان قد زاد عمرانها كثيرًا أيضًا، فكان بها تسعة عشر من جوامع السلاطين التي كان كل واحد منها مزينًا بأنواع الرخام الجميل، وبالأحجار المزركشة والمنقوشة كما لو كان كل واحد منها نموذجًا مصنوعًا في معرض نقوش صيني، وكانت أسواقها مزدانة بواحد وعشرين حمامًا تبعث على الصفاء، وبكل واحد منها نافورة جاذبة للقلوب، وكانت مزدانة بمائتي خان وبأكثر من اثني عشر ألف دكان؛ وكانت حدائقها وبساتينها الكثيرة تعطي كل واحدة منها سمة من سمات الجنة، وكان موجودًا بداخلها قصور مزخرفة ومنظمة ومحافلها مزدانة بأنواع الزينة والزخارف والفساقي والأحواض وبهذه الخصائص المميزة للأعاجم كان كل قصر وكل محفل منها باعث حيرة وموجب عبرة للإنسان.

في ذكر محاصرة جند الإسلام الذين بقوا في «تبريز»

مع استحواذ الضعف والفتور والانكسار على المرحوم الوزير الأعظم «عثمان باشا» أثناء بناء «تبريز»، كان قد حدث قصور في تكميل ذخيرة القلعة المذكورة وسائر مهماتها، وكان قد بقي هناك بلوك فقط من أرباب الجهاد بالاعتماد على عناية الباري تعالى، وقبل أن يستقر هؤلاء تمامًا ويحكموا قبضتهم على القلعة كما ينبغي، أتى «شاه أوغلو» مع ثلاثين ألف جندي من القزلباش، وقام بمحاصرة القلعة، وبتقدير الحق المتعال أصيب «جعفر باشا» بالرمد، ولم يغمض عيناه ثلاثة أشهر خلال فترة المحاصرة ولم يعرف الليل والنهار؛ بسبب ألم عينيه، وخلال الثلاثة أشهر هذه، نفدت مؤنهم أيضًا؛ حتى اضطروا إلى أكل لحوم الأحصنة والحيوانات الأخرى الأليفة، وقد نفدت هذه أيضًا، وصفوة القول: فقد بدا أن الحال سيسوء يومًا بعد يوم، وبعد ذلك، خفّ ألم رمد «جعفر باشا» قليلًا ففتح عيناه، وبدأ يبحث عن دواء لهذا الداء المقصود داء المحاصرة، فقام ذات يوم بجمع أعيان الغزاة المحاصَرين وقال لهم: «لو لم نجد دواءً لهذا الداء بعناية الحق تعالى، فلن يكون هناك احتمال الحصول على إمداد دون تلك العناية»، فقالوا جميعًا بفم واحد: «الأمر لسلطاننا».

وعلى هذا قام السردار بتعيين البطل المعروف باسم «صاچلو أحمد»، وهو من الأكراد الذين كانت طبيعتهم تتسم بالشجاعة، أغًا على البلوك اليمين، وأمر بأن يختار ألف خادم من بين هؤلاء، وأن يمتطوا جيادهم، وأن يرفعوا العلم الأحمر، كما صدر الأمر بتعيين بطل من أبطال الإنكشارية المعروف باسم «دلي عثمان» أغًا على البلوك اليسار، وبأن يختار هذا أيضًا ألف خادم، وأن يسحب علم السلحدار، وفي اليوم التالي، أمر السردار بفتح بابي القلعة الموجودين في مواجهة الجناحين [أي بلوك اليمين واليسار]، ثم أرسل الغزاة للهجوم عل حصون القزلباش، وكان يوجد بالقلعة أكثر من مائة وخمسين مدفعا «ميداني» و«ضربزن» فأمر السردار بتجهيزها جميعًا وتهيئتها وأمر كل من هو موجود من رماة بنادقه بامتطاء جيادهم، وبعد ذلك قاموا فجأة بالاقتحام مرددين صوت «الله الله

جل شأنه»؛ وأطلقوا نيران المدافع والبنادق، وقاموا بإفناء القزلباش الذين كانوا خلف الحصون وفي أطراف القلعة، حتى لم يدعوا أثرًا لأي وجود لهم هناك، وأخذوا سبعة حراس من الأعيان وثلاثين أيضًا من القزلباس المشهورين وثلاثمائة رأس، وقفلوا عائدين، وصارت المواد الغذائية الكثيرة وبعض المهمات الحربية والمستلزمات الموجودة في تلك الحصون من نصيب الغزاة.

وقام سباهي يعرف باسم «دلي فائق» من الغزاة بأخذ علم آخر من «جعفر باشا»، وقام بجمع بعض الغزاة حوله، وفي هذه الكرة الثانية، أخذ وأسر في الجناح المذكور ثلاثة من القزلباش المشهورين يعرفون باسم: «سلطان»، حتى إنهم احضروا أحدهم سويًا مع زوجته، وبعد ذلك، ظهر غازٍ أيضًا يعرف باسم «دلي فيرلاق»، وخلاصة القول: فقد وصل الأمر لتلك الدرجة التي جعلوا فيها القزلباش يُغلبون على أمرهم.

وفي هذه الأثناء أتى خان عالي المكانة مع عدة آلاف من الجند، ونزل بخيمته بقرب «حمزة ميرزا»، وأمر بالنداء: «الهجوم في المساء»، وعندما حل المساء، قاموا بالهجوم بعظيم الإقدام، وبفضل الله تعالى تم دفع الذين أتوا بدانات المدافع، واحترق بعضهم في مكانه؛ يعني أمام جدار القلعة وصار فحمًا، وغلى بعضهم وصار حالهم أسوأ ممن ماتوا.

وكان قد ألقى المهاجمون القزلباش أربعين سلمًا على جدار القلعة، فقام الغزاة بسحبها؛ أي السلالم إلى الداخل بالخطاطيف. وبعد ذلك قال القزلباش: «إنه لن ينجح هذا الأمر على هذا النحو»، وبدءوا باستخدام اللغم، إلا أن كل شيء يحدث كان يُيَسَّر بعناية الله تعالى، فكانت هناك بنت جميلة للرجل المشهور المعروف باسم «علي قولي» الذي كان رئيس حرس لجماعة «أوشارلو»، وكانت فتاة حسناء فائقة الأقران ومشهورة بالحسن والجمال، فقال له «حمزة ميرزا»: «لا بد أن تنذر لي ابنتك»، فشعر هذا الحقير بالعار من هذا الوضع الشنيع، فأزهق روح ابنته أولًا، ثم لجأ وهرب إلى هذا الجانب؛ أي إلى جانب العثمانيين، وأتى مع غلامه المحبوب إلى أمام جدار القلعة، وعندما قال: «أوصلوني إلى

باشا جنابكم، وخذوا مني ما تريدون»، قاموا بسحبه إلى الداخل، وأخبر «علي قولي» بأنه بدأ القزلباش بحفر اللغم منذ عشرين يومًا وأن اللغم وصل الآن إلى أسفل سراي الباشا، وعلى هذا يقوم الغزاة بحفر المكان طبقًا لتوقع «علي قولي»، ولما كانت ترعاهم عناية الباري تعالى، يحفرون عليه صدفة. وفي الوقت الذي كان يستريح فيه القائمون بأعمال اللغم، وذهبوا لتناول الطعام، يدخل «دلي عثمان» على الفور بلا تردد ولا إهمال مع ألف بطل من فتحة اللغم، ويخرجون إلى خلف جامع «أوزون حسن»، فرأوا أن «حمزة ميرزا» تجرد من ملابسه مع بعض رفقاء القدح، وجلسوا منهكين القوى وراحوا يتناولون الأكل والشراب، وعلى الفور يقومون بالهجوم عليه قائلين: «لله درك أيها الشاه الجميل»، فيمتطي «حمزة ميرزا» جوادًا بلا سرج ويهرب، ولم يعرف الغزاة أن ذلك هو «حمزة ميرزا»، وإلا كان لا يستطيع أن ينقذ روحه. وبالجملة يتم اغتنام سائر أثقال جيش «حمزة ميرزا» وكل شيء كان يوجد لديه هناك، ويكون من نصيب الغزاة، وقام الغزاة أيضًا بأخذ محبوبته فائقة الأقران ومرغوبته الجاذبة للقلب، وأحضروها إلى القلعة.

وكان «دلي عثمان» قد خرج قبل يوم أو يومين من هذا الحدث مع بلوكه إلى الخارج، وقام بخلع الخان المعروف باسم «شاهرخ خان» عن عرشه وأحضره، ومن ثم عينت علوفة[1] مائة أقچة لـ «دلي عثمان» وثمانين أقچة لكل من «دلي فايق» و«صلچلو أحمد» إزاء بطولاتهم هذه.

وإنني هذا الحقير[2] رأيت «دلي فايق» المذكور، وكان موجودًا معنا عند فتح قلعة «يانق» وكان شيخًا وقورًا ذا وجه مبارك طويل القامة خفيف اللحية، حتى كان قد أمر

---

(١) علوفة: كانت تستخدم بدلًا من كلمة المرتب أو الأجر. وهذا التعبير بينما كان يعني في بداية الأمر نقود العلف التي تعطي لحيوان الجندي الـسواري. واستخدم بعد ذلك بدلا من كلمة «راتب» الذي يعطي للجند في عهود تواجد الإنكشارية، ولسائر الموظفين. وكانت تعطي العلوفة بحساب اليومية. وعند تأسيس فرق الإنكشارية، كانت تعطي لكل فرد علوفة بقدر أقچتين. ومع أنه كان يعين مقدار العلوفة بحساب اليومية، فإنه كانت تدفع كل ثلاثة أشهر وليس باليوم.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 544

(٢) المتحدث هنا بچوي إبراهيم أفندي.

«سنان باشا» بقطع علوفة بلوك رغمًا عن «فرهاد باشا» قائلًا: «إن الذين تزيد علوفتهم على الستين لا بد من الناحية القانونية إما أن يكون في رتبة جاشنكير أو متفرقة»، ولما قام «فرهاد باشا» بعرض ذلك على السلطان صاحب السعادة، قام السلطان باستثناء المذكور [المقصود دلي فايق]، وأعطي له خطًا شريفًا مضمونه: «ينبغي إجراء ذلك القانون ولكن في غير هذا»، وعلى هذا كان حضور «دلي فايق» في حملة «يانق»، والآن، توقف هذا القانون عن التنفيذ من كل الوجوه، وكانت قد بدت بطولة المذكور «دلي فايق» في هجوم المتاريس الذي كان أمام «يانق»، حتى كانوا يقولون: لقد أثبت «دلي فايق» بطولته في هذا الساحل، والآن ينبغي علينا الرجوع إلى موضوعنا مرة أخرى.

وبسبب خجل «شاه أوغلو»، أتى بالليل قبل مجيء النهار، وكالأول حاصر القلعة لمدة شهرين أيضًا، وفي هذه المرة، شقوا نهرين عظيمين إلى داخل القلعة؛ أي إنهم أرادوا أن يضيقوا على أهل الإسلام بالسيل، ولكن غزاة الإسلام قاموا بفتح مجرى السيل الأصلي، فجرى الماء كما كان يجري في مجرى السيل من قبل، ولم يلحق ضرر بأي شخص، وبهذه الطريقة حُصر الغزاة أحد عشر شهرًا كاملًا، لم يتوقفوا فيها عن القتال والجدال يومًا قط، وفي ذات يوم لم يظهر الملاعين في الميدان صباحًا، وبينما كان الغزاة في حيرة قائلين: «عجبًا ماذا حدث؟!»، إذ بـ«فرهاد باشا» قد صار سردارًا مرة أخرى، وأتى بجند العثمانيين الجرارة، وفي اليوم التالي، أتى وأحضر ألف حمل ذخيرة ودخل إلى «تبريز»، ولكن لم يسترح لحظة واحدة على سبيل الاحتراز، وقام بإنزال الذخيرة إلى الغزاة ثم عاد وذهب في الحال، ونزل إلى المكان المعروف باسم «قومله»، وقام ببناء قلعة متينة بها، ومع هذا لم يكن هناك شيء يبعث على الخوف في «تبريز» فربما لو جلس شهرًا أو شهرين ورأى بعض الأمور والمصالح التي لم يكن ممكنًا وميسرًا القيام بها، لكان ذلك أنفع للدين والدولة وأنسب لشرف وناموس السلطنة.

توجيه منصب السردار إلى «جغالة زاده يوسف باشا» وإرسال البراءة[1] الهمايونية بذلك إليه

عندما قام الوزير المشهور حسن الخلق «يوسف باشا» بإخراج عسكر الإسلام من بين الأعداء إلى الساحل سالمين، كان قد أتى رئيس خدم الباب «عبد الكريم أغا» من عند السلطان للسؤال عن أحوال عسكر الإسلام وأطوارهم، فقام «يوسف باشا» بتسليم الختم الهمايوني ووثيقة الصلاحية التي أعطيت له من «عثمان باشا» إلى «عبد الكريم أغا» المشار إليه، وأرسله إلى باب الدولة، ووصل «عبد الكريم أغا» في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ٩٩٣ هجرية[2] وقام بتسليم الختم الهمايوني إلى السلطان، وأحسن على «خادم مسيح باشا» الذي كان وزيرًا ثانيًا في تلك الأثناء بمنصب الصدارة العظمى؛ حيث سلم إليه الختم الهمايوني، وبعد ذلك كتبت في الحال براءة السردارية لـ «يوسف باشا» المشار إليه، وأمر بحفظ وحراسة تلك النواحي.

تعيين فرهاد باشا سردارًا للمرة الثانية

سنة ٩٩٤ هجرية[3]، بعد شهر أو شهرين من تنصيب «مسيح باشا» المومأ إليه وزيرًا أعظم، استفسر في ذلك الربيع من جناب السلطان عما إذا كان تم الاكتفاء بسردارية «جغالة زاده» أم عين أحد خدمه سردارًا؟! فلما تفضل السلطان بالحديث بأن تعقد المشاورة بهذا الخصوص، وأن يتم إبلاغه بما يجزم به أنه صواب، حررت التذاكر من قبل الوزير حسن التدبير إلى حضرة شيخ الإسلام و«خواجة أفندي» والوزراء العظام وقضاة العسكر الذين ما زالوا في مناصبهم والمعزولين وبعض المشايخ الكبار

---

(١) براءت: كان هذا التعبير الذي يعني الورقة أو الرسالة المكتوبة هو عبارة عن اصطلاح يستخدم في التشكيلات العثمانية بخصوص أوامر التعيين في بعض الوظائف أو الخدمات. ولم تكن البراءة مثل الأمر العادي أو التذكرة. وإنما كانت تكتب بالخط الديواني، وتختم بالطغراء.
-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 205.

(٢) الموافق ٢-١٢-١٥٨٥م.
(٣) الموافق ١٥٨٦م.

والسادات ذوي الاعتبار، ولما قيل لهم: «بناءً على صدور الفرمان من جانب السلطان بعقد المشاورة بهذا الخصوص ينبغي أن تكتبوا ما يلوح لقلوبكم ويرد على خاطركم بعد الاستخارة»، أتت التذاكر من الجميع، وبعدما عرضت على الوزير الأعظم «مسيح باشا»، قام هو أيضًا بتلخيص ما يلوح لقلبه، ثم قام بوضعها جميعًا في كيس وأرسلها إلى جناب السلطان، وتفضل السلطان صاحب السعادة بمطالعة التذاكر في ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع، قام السلطان بربط أمرين في منديل في الديوان الهمايوني وأرسلهما إلى الوزير الأعظم على يد كتخدا طائفة البوابين «ساطورجي محمد أغا» وكان أحدهما موجهًا إلى الوزير الأعظم؛ حيث ذكر فيه قوله: «قمت بتعيين «فرهاد باشا» سردارًا على العجم». والآخر كان موجهًا لفرهاد باشا وذكر فيه: «نصبتك سردارًا على عموم عسكر الإسلام المكلفين بحملة العجم، فينبغي عليك أن تبدأ في الاستعداد من اليوم».

وقد اعترى «فرهاد باشا» البكاء بالدرجة التي ذرف فيها دموع عينيه حتى وصل من الديوان إلى قصره، فقد كان منكسر القلب من سرداريته الأولى؛ لذا ففي هذه المرة، كان قد صرف جهدًا جهيدًا لإبعاد منصب السردارية عنه، ولكن لم يستطع فعل شيء سوى الخضوع للأمر، وبعد ذلك تم تنظيم الطوابير في ربيع الأول كالمعتاد حيث عبرت إلى «أسكدار» ووصل إلى دار الجهاد «أرضروم» المتسمة بالبهجة وذلك بقطع المنازل منزلًا منزلًا.

وصول السردار المومأ إليه «فرهاد باشا» إلى «تبريز» الساحرة للقلوب

كان غزاة الإسلام الموجودون في «تبريز» محاصرين منذ ما يقرب من سنة، وكانوا متعبين وقلقين؛ بسبب هجوم الأعداء ليل نهار، ولما أتم السردار عالي المقدار إعداد مهمات ومستلزمات الحملة في «أرضروم» ولم يقصر في شيء، قام متوكلًا على الله تعالى بصرف الهمة لاسترداد «تبريز»، والقضاء على جند القزلباش؛ واتجه وذهب صوب المقصود، ولما وصل إلى «تبريز»، أحضر معه ذخيرة بالقدر الكافي، وبذلك وهب الحياة لعسكر الإسلام، وقام السردار بإصلاح الأماكن التي انهدمت خلال عدة أيام، وقام

أيضًا ببعض التدابير لتحصينها بإضافة بعض البروج الجديدة إليها، ولما أرسل السردار الجند إلى بعض ممالك القزلباش التي كانت في تلك النواحي، قام الجند بقتل القزلباش الذين تم أسرهم وقاموا بسبي وأسر أهلهم وعيالهم. وأرسل السردار الجند على التوالي إلى أطراف «گورجستان»؛ فأحضر الخراج والضرائب التي التزم أهالي هذه النواحي بها من قبل، ونشطوا إجراءاتهم تلك، ومن جملة هذه الإجراءات أن جاء خراج وهدايا «لوندخان أوغلى ألكسندره خان»، وأيضًا جزية وضريبة «سيمون» المحتال، وخضعوا جميعًا للطاعة والانقياد.

مهمات قلاع «تيمور قبو» و«شيروان» و«تفليس» و«روان»

بينما كان عسكر الإسلام ماكثين ومستقرين في مدينة «تبريز» المستحوذة على القلوب، قام السردار المكلل بالنصر بحرمان نفسه من النوم والراحة، وأرسل الجند إلى كل جانب، ولم يتوقف عن الاهتمام بإحلال النظام للأمور الضرورية، فسعى بجهد جهيد لإكمال لوازم ومهمات قلاع «تيمور قبو» و«شيروان» و«تفليس» و«روان» التي كانت فتوحًا جديدة من أيدي القزلباش كما ينبغي، وبعدما رأى تدابير كل واحدة منها بتعيين بعضها لأمراء الأمراء الذين يمكن أن يقوموا بأمورها، وبإكمال نقصان احتياجات بعضها الآخر، تم التوجه والذهاب إلى جانب المشتى يعني إلى «أرضروم» وافرة النزهة، على إثر اقتراب أيام الشتاء.

فتح «گنجة» في السنة الثانية وانعقاد الصلح مع القزلباش

«سنة ٩٩٥» هجرية[1]، لما حل ربيع الأول ووقت الحرب، أتى عسكر الإسلام من كل صقع، والتحقوا بالجيش الهمايوني. وعزم الوزير عالي المقدار على الاستيلاء على «گنجه» و«برذع»، وبعناية الله تعالى، بمجرد أن وصل إليها، وفق في فتحها، وجعل أيضًا القرى والمراكز الواقعة في الأطراف والأكناف تعلن الطاعة والانقياد، ورأى أن

(١) الموافق ١٥٨٦م.

إمارة أمرائها لائـقة بخادم حسن باشا المتصرف على إيالة «أناضولي» الذي قتل بسبب حسد أقرانه له لاعتلائه منصب الوزارة العظمى في عصر «محمد خان»، فقام بتوجيهها إليه، وترك بجانبه قدرًا كافيًا من الخدم بشرط أن يشكل منهم «بلوك»، وعـين دفتر دارًا على أن ترسل خزينة قدرها مائة وخمسون حمل حرير كل عام خلاف مرتبات هؤلاء الجند.

وبعدما أتم سائر لوازمها ومهماتها، أتى السفراء الموثوق بهم من عند الشاه «عباس» إلى السردار، وعندما طلبوا الصلح بشرط أن يرسل الشاه ابن أخيه «حيدر ميرزا» كرهينة، عاد السردار المومأ إليه إلى جانب المشتى، وعرض على الركاب الهمايوني الوضع الذي جرى، ولما أبدى السلطان الرغبة في الصلح على الوجه المشروح، أنهى السردار مهمته وعقد الصلح والوفاق وفقًا للمراد السلطاني، وعندئذ أخلد إلى الراحة بالبقاء في «أرضروم» ذات المناظر البهيجة.

اعتلاء الوزير «جغالة زاده يوسف باشا» منصب السردارية وفتوحاته التي كانت بجانب «بغداد»

في سنة ٩٩٤ هجرية[1]، كان قد سبق أن أعطي منصب السردارية مع إيالة «بغداد» إلى حضرة المشار إليه «يوسف باشا»، وعندما وصل إلى «بغداد» في أول السنة المذكورة، لم يدخل المدينة، ونزل إلى خيمته التي أقامها خارجها، وأمر المنادين بالنداء للاجتماع، وقام بإرسال الرجال بالأحكام الشريفة إلى كل جانب منها، وعلى الفور سار صوب قلعة «جم جمال» مع الجند الذين أتوا ووصلوا إليه، ففتح القلعتين المعروفتين باسم «بيله ور» و«ناور»، وقفل عائدًا، وأمر العسكر بأن يستريحوا ذلك الشتاء، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد في ربيع الأول.

---

(١) الموافق ١٥٨٦م.

في ذكر فتح «دسبول» في السنة الثانية من سردارية «يوسف باشا»

سنة ٩٩٥هجرية[1]، لما حل ربيع الأول ووقت القتال، توجه السردار صوب «دسبول» مع الجند المجتمعين لديه؛ حيث وفق في الاستيلاء عليها، وعاد بالصحة والسلامة.

فتح «سرخ بيد» وبعض القلاع الصغيرة والمهمة في السنة الثالثة من سردارية «يوسف باشا»

سنة ٩٩٦ هجرية[2]، كلف جميع أفراد بلوك السلحدارية بالتوجه للحملة من مركز الدولة مع المشار إليه، فأتوا سويًا مع أغاهم «حيدر أغا» ووصلوا إلى بغداد، ولما حان وقت السفر وتحرك الجند المكللون بالظفر، تحركوا من «بغداد» دار الخلافة، فعبروا جسر «الشاه» عند سفح «بيستون» في المكان المعروف باسم «يكي إمام»، وقاموا بفتح «سرخ بيد» المذكورة وبعض القلاع الصغيرة والمهمة، كما قام السردار بتنصيب «دزدار»[3] أي حراسًا للأماكن التي يلزمها الحفظ، حيث تمت سيطرتهم عليها، وقام السردار ببناء قلعة جديدة في «بيستون»، وأطلق عليها اسم «قلعه نو».

فتح قلعة «نهاوند»

سنة ٩٩٦ هجرية[4]، وبعد أن تحرك عسكر الإسلام من قلعة «سرخ بيد» محفوفين بالشرف، نزلوا إلى قرية مسكونة قرب قلعة «كتسكور»، واغتنموا في تلك القرية أنواعًا

---

(١) الموافق سنة ١٥٨٧م.

(٢) الموافق ١٥٨٨م.

(٣) دزدار: هو قائد الحامية العسكرية المكلفة بالدفاع عن القلعة وبالانتظار بها بصورة دائمة. وهو أيضًا قائد القلعة. ويضطر الدزدارية إلى البقاء في القلعة بصورة دائمة وقضائهم الليالي بها. وبمقتضى القانون فإنهم لا يبتعدون عن القلاع أكثر من مائة خطوة.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 89.

(٤) الموافق ١٥٨٨م.

من الذخائر تكفي شهرًا واحدًا، وبعد ذلك وصلوا إلى قرية «سيد»، ثم إلى قرية «سعد وقاص»، ومن هناك إلى «نهاوند»، وكانت مدينة عظيمة وعاصمة للملوك منذ القدم، ولما كانت قلعتها مستحكمة ومتينة كما ينبغي، فقد عهد السردار بإمارة أمرائها إلى كتخداه «محمد باشا»؛ حيث جهزت وأكملت لوازمها ومهماتها ومحافظيها وأفرادها على النحو المطلوب. وتم إصلاح القلعة الداخلية كما يجب.

في ذكر الغزوة الغراء التي قام بها الوزير الشجاع «يوسف باشا» في هذه الحملة[١]

لما لاح لضمير الـ «شاه عباس» أن الوزير المومأ إليه ساق اللجام مع عسكر الإسلام لفتح «همدان» قام بإرسال خطابات الاستمالة إلى حاكم «كردستان» «شاه ويردي خان»، وإلى «تيمور خان» الذي كان موجودًا في المملكة نفسها والذي كان أحيانًا في طاعة للشاه وأحيانًا في حالة تمرد وعناد، وأرسل له علمًا مكتوبًا عليه بالذهب وسيفًا مرصعًا قائلًا له: «يعتقد بشكل مؤكد أن عسكر الإسلام سيهجمون على «نهاوند»، فينبغي عليك أن تحوز على شرف دفعهم ومنعهم من ذلك».

وعلى هذا يعقد هذان الحاكمان «شاه ويردي خان» و«تيمور خان» معاهدة واتفاقًا مع خان «همدان» «قور قماس خان» ومع بعض الخانات والسلاطين حتى يكونوا عونًا لهم ضد هذه الملحمة، فيتجمعون، ويهجمون على جمال عسكر الإسلام الذاهبة إلى المرعى، وبينما كان الوزير «يوسف باشا» يحذر من هجوم أي شخص عليهم تجنبًا لأي كمين، يقوم كل من الأمير الشجاع المعروف باسم «علي فقيه» والبطل المغوار المعروف باسم «دلي دزمان» مع حوالي خمسين أو ستين سواريًا بالهجوم عليهم، وحينما رأوا أكثر من ألف يمتطون الجمال، ترتعد فرائسهم، وفي النهاية يصل أربعة آلاف من جند «شاه

(١) المقصود بالحملة هو فتح قلعة «نهاوند» السالفة الذكر.

ويردي خان»، ومن ناحية أخرى، يرسل الوزير أيضًا حاكم «بانه» وأمير «قره طاغ» مع ثمانمائة فارس كمدد لهؤلاء [علي فقيه، ودلي درزمان]، وبفضل الله تعالى، يهلكون الأربعة أو الخمسة آلاف جندي هؤلاء، ويقبضون على «قورقماز خان» حيًا، وينجو «شاه ويردي خان» مع ثمانية فرسان، ويتفرق سائر الناجين ويلجئون إلى الجبال، أما الخانات والسلاطين الآخرون فكانوا يشاهدون الواقعة من على بعد، وأخيرًا حل عيد الأضحى لعام ٩٩٦ هجرية؛ فاحتفل الغزاة بعيدٍ على عيد، وبعد ذلك أتى «شاه ويردي خان» وأعلن الطاعة والانقياد، وأبدى الندم على ما فعله حتى الآن، فغمر بجزيل العطاء.

حرب «جعفر باشا» مع سلطان «كهردان» وقيامه بفتحها وتمليكها له

سنة ٩٩٤ هجرية[1]، وكان ذلك بعد شهرين من عودة «فرهاد باشا» من «تبريز»، وكانت هناك قصبة كبيرة تعرف باسم «كهردان» على الطريق الممتد من «تبريز» إلى «بغداد»، فصار هذا المكان مدينة تؤدى صلاة الجمعة في اثني عشر موضعًا فيها ويحتوي على خمسة آلاف منزل، ومنذ القدم كان أحد مواطنيها المحليين يتصرف فيها مع أكثر من ثلاثين قرية من قراها باعتبارها سلطنة مستقلة، ولكن كان هذا السلطان المتعصب لا يخلو دائمًا من التعرض لأهل الإسلام، ولهذا السبب قام أحد أفراد طائفة «صولاق» التابعة لـ «فرهاد باشا أوغلو محمد باشا» مرة بتصويب المدافع على «كهردان» حينما كان أمير أمراء «بغداد»، ولكن لم يُقَدَّر فتحها آنذاك.

وكان الغزاة الموجودون في «تبريز» يقومون بالإغارة والهجوم ثلاث أو أربع مرات كل شهر ويعودون بأنواع الغنائم، وفي مقابل هذا، قام المذكور السلطان المتعصب بتجريد الجند على «تبريز» معتقدًا أنه يمكنه الاستيلاء عليها قبل أن يدري الشاه بهذا

(١) الموافق ١٥٨٧م.

الوضع، وأن يُلقي بأهل الإسلام في نار الفناء، وعلى هذا النحو يكون قد قدم خدمة للقزلباش، وبفضل الله تعالى وبينما كان يريد التجسس خرج عن الطريق الصحيح وعاد منكسرًا ومهزومًا متوجهًا إلى مدينته، وقام «جعفر باشا» في الحال بتجريد العسكر وحمل عليه؛ حيث وفق في فتحها أي فتح «كهردان» في اليوم الخامس، ثم عاد إلى «تبريز» مرة أخرى، وقام بتحرير تلخيص بما جرى إلى الركاب الهمايوني؛ فأمر السلطان بتمليكه المدينة المذكورة بتوابعها ولواحقها، وكان المومأ إليه «جعفر باشا» متصرفًا على المدينة المذكورة بناءً على أمر الملكية هذا، طوال الفترة التي كانت «تبريز» في أيدي المسلمين.

الحرب الضروس التي قام بها «جعفر باشا» مع عساكر القزلباش

سنة ٩٩٨ هجرية[1]، لما قوي مركز «جعفر باشا» بانضمام الجند ذوي الكفاءة القتالية العالية الذين كانوا في «تبريز» إليه، صار حكمه نافذًا وجاريًا على المنطقة الممتدة من «تبريز» وحتى الطريق الذي يبعد مسيرة عدة أيام، فاشتعلت حمية الخانات والسلاطين الذين كانوا في تلك الأصقاع، فأحرق «جعفر باشا» منازلهم وحولها إلى رماد.

وهكذا قام حوالي خمسة عشر سلطانًا وخانًا بجمع وحشد خمسة عشر ألف جندي بالتمام وأتوا، ونزلوا إلى المكان المعروف باسم «طورنه چايرى»، وقاموا بإرسال دستة من التللى من نوع طورنة ودبوس وسهم وقوس وخف إلى «جعفر باشا»، وكتبوا له رسالة قالوا فيها: «لو أنك رجل، عليك أن تعلق هؤلاء وتأتي لمواجهتنا، وإن لم تأت، فعليك أن تعلقهم على رأسك كالمرأة وتغزل بالمغزل في ركن ما»، فقام «جعفر باشا» بكتابة رسالة إلى هؤلاء وأرسل لهم صراحي وقدحًا وأثوابًا لائقة بالرجال تقدر قيمتها بألف ذهبية وقال: «أتيتم أهلًا وحللتم سهلًا ستتوجه لمقابلتكم معتمدين على عون حضرة الحق تعالى، ولا تظنوا أننا من الذين يغزلون بالمغزل»، وفي الوقت نفسه قام

---

(١) الموافق ١٥٩٠م.

بإرسال الرجال الأقوياء والمجدين إلى أمراء الأكراد الذين كانوا تحت إدارته، فكان مجموعهم مع الذين قدموا بسرعة حوالي ستة آلاف رجل، وبعد ذلك، خرج «جعفر باشا» من المدينة، وأقام أوتاقه أي خيمته.

وفي اليوم التالي عبر «جعفر باشا» النهر الواقع بين الطرفين، ونزل إلى بداية موضع العبور، وتحصن هؤلاء أيضًا ـ المقصود القزلباش ـ بجبل في مواجهتهم، ونزلوا به، وعمومًا وقع القتال والجدال لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال على نحو لم يكن هناك مجال للتعبير عنه، وفي النهاية هب نسيم الظفر من جانب عسكر الإسلام، وقطعت عروق الأعداء الذين أتوا معتدين، ومن ثم استولى الغزاة على جيش الأعداء، واغتنموا المال الوفير، كما غنم غزاة الإسلام أيضًا العديد من الغلمان الچراكسة الأصل الحسان من ذوي الزلف الذين كان كل واحد منهم في أوج حسنه كالبدر في ليلة التمام، وأيضًا الكثير من الجواري ذوات البشرة الفضية؛ حتى إنه اختير من بينهم خمسة عشر غلامًا، وأهدوا للركاب الهمايوني السلطاني، وتم انتقاء بعض الأمتعة النفيسة من الغنائم وأرسلت أيضًا معهم. وفي مقابل هذا أحسن على «جعفر باشا» برتبة وزير، وبسيف ذي قبضة مرصعة وبخلعتين كريمتين.

عصيان جند «تبريز»، والقتل الجماعي الذي قام به «جعفر باشا» لهم

إن القتل الجماعي الذي قام به الوزير المومأ إليه لجند «تبريز» هو من نوادر الغرائب، فلم يُر شيء على هذا النحو في أي وقت، ولم يسمع أيضًا عن لسان الناس ليس في الدولة العلية العثمانية فحسب بل في دولة السلاطين السابقين، ولهذا يجب الإطالة في الكلام قليلًا من أجل الإحاطة بتفصيلات هذا الحدث:

لقد أمر «جعفر باشا» بسك النقود المعروفة باسم شاهي[1] وتخفيض قيمتها إلى

(١) اسم نقود فضية سُكت في عهد «ياوز سلطان سليم».

النصف لظروف اضطرارية في ذلك العصر، ولهذا السبب بدأ خدم «تبريز» يشكون قائلين: «طارت نصف معاشاتنا في الهواء»، ولما قام «جعفر باشا» بترقية الذين قاموا بالشكوى، بإعطائهم خمس أو عشر أقچات، قطعت أصواتهم لقرابة عام.

وكان المرحوم السلطان «سليمان خان» قد وضع أربعين ألف ذهبية في الخزينة من أجل أن تصرف في الوقت اللازم على قلعة «وان»؛ فأحضر «جعفر باشا» نصف تلك الخزينة، ولكن لم ينته الأمر بهذا الإجراء، وفي ذات يوم ثار عليه رجال كثيرون قائلين: «إننا غير راضين بتخفيض قيمة الشاهي إلى هذا القدر»، ومهما يكن من أمر فقد قام غلمان الداخل ورجال الباشا الموجودون ببابه بدفع هؤلاء. ولكن هؤلاء يضخمون المسألة عن الحد، أما الباشا فلم يشاهد شخصًا قط لمدة شهر أو شهرين، ومن ثم اتحد الخدم بسرعة وقاموا بتنصيب أغاهم مكان الوزير، وأوقفوا الدفتر دار أمامه على الأقدام وجعلوه يكتب كل ما يريدونه، حتى قاموا بتوبيخه قائلين: «اكتب أيها الكاتب على هذا النحو»، ووزعوا على أنفسهم الوظائف الخالية، وقاموا بترقية من يريد الترقية، وبصفة خاصة، قالوا: إن مقاطعات خدم الباشا ليست مستحقة لهم؛ فأخذوها، وبعد ذلك قاموا بسد بابين من الثلاثة أبواب التي في القلعة، واكتفوا بواحد منها فقط، قائلين: «من الممكن أن يهرب الباشا ويصل إلى الآستانة ويقوم بشكوانا إلى السلطان صاحب السعادة»، وكانوا يخصصون خمسين رجلًا للمناوبة كل يوم ويجعلونهم منتظرين عند هذا الباب حراسًا، وعندئذ ماذا ينبغي أن يفعل «جعفر باشا»، فقد عمل بمضمون المصرع:

❊ عندما يقع الطائر العاقل في الشراك، عليه تحمل ذلك ❊

وفي النهاية توسط المصلحون فيما بينهم، وأعدت حفلة في الحديقة التي كانت قرب القلعة، وأنعم وأحسن فيها على هؤلاء العصاة بترقيات كثيرة ومضوا على مضمون القول: «مضى ما مضى»، وعقدوا الصلح وتعانقوا، وارتضوا جميعًا المعاناة أيًا كانت، وجعلوهم يحلفون بالأيمان المغلظة على ألا يعودوا عن وعدهم من بعد، وعندما كانت تخلو مقاطعة، كان اختيارية الخدم أي كبارهم يرسلون على الفور رجلًا إلى الباشا

ويخبرونه قائلين: «لقد أعطوها إلى فلان»، ومضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع على هذا النحو وعلى هذا المنوال، أما الباشا فقد كان يتجرع السم كأسًا كأسًا بهذا القهر، وفي ذات يوم راح مرة أخرى في إعداد حفلة في الحديقة، وكان أحد أطراف منزل «رضوان أغا» ـ حامل ختم «جعفر باشا» ـ ملاصقًا لجدار سراي الباشا والطرف الآخر ملاصقًا لجدار القلعة، فقام بفتح فتحة في الجدار، وكان غلمان الداخل طابورًا ذا قوة وأبطالًا محاربين. فقام هؤلاء بتحميل قطيع إبلهم وبغالهم الحاملة للأثقال، وأخرجوا جيادهم من تلك الفتحة واحدًا واحدًا؛ وأخيرًا، كان معظم رجاله قد تبادلوا الأخبار حتى منتصف الليل، وخرجوا وقبل حلول وقت شقشقة الطيور، كانوا قد وصلوا إلى قلعة «محلة» التي كان قد بناها «فرهاد باشا»، ودخلوا فيها.

وفي تلك الليلة كان «جعفر باشا» قد أخبر كتخداه بالوضع منذ المساء، وهذا أيضًا قام من النهار بدعوة جملة الأغوات والأراذل الذين كانوا يحملون أسماء أعيان وأشراف للضيافة، ويبدون كما لو كانوا مجتمعين على الشراب والآلات الموسيقية حتى الصباح، ويقولون: «لقد عقد الصلح مع الخدم، وانتهى الكدر والبرودة والعداوة التي كانت بينهم، والآن فإن الوقت المناسب هو هذا الوقت».

وفي صباح اليوم التالي، لما علمت طائفة الخدم بهذا الوضع، أتوا أولًا إلى الكتخدا مجتمعين، ولكن لم يعرفوا إن الأمر مُدبر، فوجدوه في اضطراب أكثر منهم، ويتكلم بما يأتي على لسانه من كلام رطب ويابس، ويلعن ويطعن كثيرًا في سيده، وكان يبدو كما لو كان في وضع لا يعرف ماذا سيفعل، قائلًا: «إن ما ارتكبه لا يرتكبه ليس الخادم بل ولا حتى المرأة»، فلم يسيئوا الظن به، نظرًا لأن هناك بعض أعيان طائفة الخدم وأغواتهم وكتخداتهم، وأنهم رأوا كتخدا الباشا في حالة اضطراب أكثر منهم، وبصفة خاصة فقبل عدة أيام كان «جعفر باشا» قد قام بإطالة اللسان على كتخداه، وإهانة كرامته بموجب المثل: «حرب القصاب»؛ حيث أتى بتصرفات تصل إلى درجة العزل من منصب الكتخدائية، ومن أجل ذلك لم تبق لدى طائفة الخدم أي شبهة فى أن كتخداه ليس لديه أي خبر عن ذلك.

وهكذا تشاور أفراد طائفة الخدم، وقرروا أن يحضروا «جعفر باشا» إلى القلعة طوعًا وكرهًا، فامتطوا الجياد جماعة جماعة، وذهبوا للبحث عن «جعفر باشا»، ولكنهم لم يعثروا على أي أثر له، وأخيرًا عرفوا أنه في قلعة «محلة»، فعينوا بعض الرجال مسموعي الكلام وأرسلوهم خلفه، فقال هؤلاء الرجال لـ «جعفر باشا»: «بينما كان عهدنا وقولنا معكم بموجب مقولة: «مضى ما مضى»، فما الداعي لما فعلتموه؟ ولماذا قمتم بإهانة كرامة الكتخدا؟». فرد الباشا: «إن عهدي هو ذلك العهد، وكلمتي هي تلك الكلمة؛ ولكن أشقياءكم نقضوا العهد واتفقوا على ضربي بالبندقية». وأخيرًا كان قد أعد دفترًا بحوالي خمسين فردًا يتضمن أسماءهم. وأردف قائلًا: «فطالما هؤلاء موجودون بينكم، فإنني لا أدخل بينكم، ولا أتوجه إلى القلعة. فلو تسلمون هؤلاء إليّ، سلموهم لأحاسبهم ثم أتوجه إلى القلعة؛ وإن لم يتم هذا فأخرجوهم من القلعة حتى ليطمئن قلبي». وتردد الرجال من الجانبين عدة مرات من أجل هذا الخصوص، وفي النهاية، قرروا نفي هؤلاء الأشقياء الذين سجلهم «جعفر باشا» بالدفتر عن البلد، وقالوا له: «تعال إلى القلعة».

ومن ناحية أخرى كان «جعفر باشا» قد أخبر أمراء «كوردستان» سرًا بالأمر: «لقد علمتُ أن القزلباش اجتمعوا في المكان كذا، وقمت بتدبير الهجوم عليهم، ولكن هناك عدد من أولاد الحرام بين هؤلاء التبريزيين ولا يوجد لديَّ شك في أنهم يتجسسون لحساب الأعداء، فاحذروا ألا يشيع هذا الأمر، وينبغي عليكم أن تأتوا إلى المكان كذا في اليوم كذا، وتلتقوا بنا، فبالعناية العلية لحضرة الحق تعالى ينبغي أن يُضرب هؤلاء على أيديهم، وتوجد في تلك النواحي قبيلة من القزلباش غنائمها وفيرة، سوف نتوجه لاغتنامها بعد إنهاء مهمتنا، والأمل هو أن يتيسر لنا الاستيلاء على تلك الغنائم الوفيرة».

وبناءً على نداء جعفر باشا هذا، تبادل أمراء الأكراد الأخبار مع بعضهم البعض، واجتمعوا في المكان المحدد، وعلى النحو الذي لا يمكن لأي فرد قط من الخارج الوقوف على ذلك، ومن ناحية أخرى عندما كان الرجال يأتون من «تبريز» قائلين لـ «جعفر باشا»: «تعالَ إلى القلعة»، كان يُظهر لهم غاية البشاشة، ويُلبسهم الخلع، ويوزع

عليهم الذهب حفنة حفنة، وكان يقول لهم: «سوف نتوجه إلى القلعة، وندخلها في اليوم كذا، فعليهم أن يأتوا لاستقبالنا». ولكن قام هو بالتحرك من هذا المكان؛ حيث نزل إلى «آجي صو»، وأتى أمراء الأكراد أيضًا إلى ذلك الموضع. وأمضوا ذلك اليوم في «آجي صو» ليكون ذلك الموضع مناسبًا لالتقاء الطرفين، وفي اليوم التالي استعدوا للدخول إلى «تبريز»، وكان خدم «تبريز»، غافلين عن هذا تمامًا، ولكن أبطال الأكراد كانوا في غاية العجلة للإغارة على مملكة القزلباش، ولم يخطر شيء مثل هذا على خاطر أي فرد من أغواتهم أو من غيرهم.

وفي تلك الليلة قام «جعفر باشا» بإرسال أمر شريف إلى كتخداه مضمونه كالتالي: «يوجد معي أناس كثيرون من أجناس مختلفة؛ فينبغي أن يخرج الخدم الذين في القلعة بتمام الزينة من أجل شرف سلطان الأنام، وألا تُطلق بندقية من الطرفين بحجة السرور؛ لأنه ينبغي ألا يشعل فتيل»، ولكن الباشا نبه عليه أنه بعد أن يخرج الخدم خارج القلعة، ينبغي عليه أن يسد باب القلعة، ليكون ذلك خفية؛ وبعد ذلك يشعل نيران المدافع الكبيرة التي في «قره قله».

وفي الصباح لما امتطى الباشا جواده وسار، أصبحت عيناه محملقة ذات بريق مثل عيني الثعبان التي يملؤها الدم. وكانت هذه العلامات تظهر عنده حتمًا أثناء الحرب، فهوى رجاله والناس جميعًا في وادي الحيرة قائلين: «عجبًا! ماذا سيحدث»، وفي هذا المكان تغيرت المناوبة سبع مرات، ووصلت أيضًا طوابير الأكراد، وبرز التبريزيون أيضًا في المواجهة، وكان قد رتب هؤلاء طوابيرهم طابورًا طابورًا، وغرقوا في الزينة والزخارف، وبمجرد أن وصل أمراء الأكراد، نزلوا من فوق جيادهم، وقبلوا يدي «جعفر باشا»، وأصغوا لأوامره حيث قال لهم: «لقد أمر السلطان بالقتل العام لأهالي «تبريز»، فكان لزامًا عليّ أن أراكم، وينبغي عليكم أن تنفذوا أمر السلطان»، وفي تلك الأثناء تمامًا أطلقت المدافع الكبيرة، فأوقعت ضجيجًا عظيمًا بالعالم. وعلى الفور أخذ الباشا رمحه في يده، وهجم على طوابير خدم «تبريز»، وضرب بعضهم أمام أعين الأكراد، وألقى بهم على الأرض، وبصفة عامة يقولون: إن الباشا قتل في ذلك اليوم سبعة رجال، وسل

الأكراد أيضًا السيف، وهجم أكثر من ألف سكباني[1] من سكبانية الباشا، وسبعمائة وثمانمائة من طائفة غلمان السوارية بالدرجة التي وضع فيها مئات الرجال القدم على تراب الهلاك في تلك الساحة.

وعندما اتجهوا صوب المدينة، رأوا أن بابها مُغلق، وبعد ذلك أدركوا ما حاق بهم، فهربوا على الفور إلى الجبال، ولكن «جعفر باشا» كان قد ضرب الخيام أمام المدينة حرصًا على القبض على الذين كانوا غائبين واحدًا واحدًا، وقام بقتل عام لمن قبض عليهم. وبعد ذلك أمر بفتح الأبواب، وأذن لجيش الأكراد وسكبانيته هو وسائر جنده لاغتنام أولاد وعيال التبريزيين وأمتعتهم التي لا نظير لها، ووضع أفراد طائفة السكبان والأكراد أيديهم على الأهل والعيال والعذارى الجميلات، وذلك خلاف الأموال والنقود الكثيرة؛ فأخذوهم وباعوهم مثل الأسرى. وخلاصة الكلام، قُتل في ذلك اليوم ثمانمائة رجل، وفر أكثر من ألف ومائتين، ولم يعد لهم أثر، ولما تاب وأناب حوالي ثلاثة آلاف فرد، صُفح عن زلاتهم وأبقوا في مناصبهم، وكان قد فر «صاچلو أحمد» - الذي كان أغا البلوك الأيسر - إلى «نخجوان»، فقام «جعفر باشا» باستمالته وأرسله إلى «ديار بكر» في مهمة؛ ولما قام المذكور بتحصيل المال الوفير، وعاد إلى «تبريز»، ضرب الباشا رقبته بيده.

ومع أن الانتقام من أشقياء «تبريز» كان ضروريًا لشرف السلطنة، فإن الإهانة التي لاقتها النساء المخدرات على هذا النحو، والإذن بالزنا بهن، لا يجوز لمن لديهم أي ذرة من الإيمان، وقد محا «جعفر باشا» بهذا الفعل السيئ جميع حسناته التي أحرزها في هذه الغزوات الكثيرة التي التحق بها، وبالتأكيد أنه سيعجز عن الإجابة على هذا أمام الحق تعالى.

---

(١) سكبان: هو تعبير كان يستخدم كلقب لمختلف الجماعات. وكان ينطق هذا اللقب فيما بين الناس بـ «سيمان». وكان يطلق على قسم من الأقسام الثلاثة التي تشكل معسكر الإنكشارية اسم «سكبان». كما كان يسمى القسمان الآخران باسم «بلوكات الأغا» أو «جماعة». وكان يطلق على جند المشاة (البيادة) في عهدي أول سلطانين من السلاطين العثمانيين وهم «عثمان» و«أورخان» لقب «سكبان» أي حراس الكلاب اقتباسًا من مهنة الصيد.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 145 – 146.

تتمة أحوال «جعفر باشا»

لقد عمل المومأ إليه أميرًا لأمراء إيالة «تبريز» ثماني سنوات كاملة، وأن ما فعله المذكور في القزلباش في تلك الحدود، لم يفعله أحد قط من السردارية الذين أتوا مع عسكر الإسلام بصفة عامة، وبعد ذلك نقل إلى «بغداد» وصار واليًا عليها لمدة نصف سنة وبعد أن صار متصرفًا على «شيروان» عزل منها.

ويُروى أنه بعد أن عُزل كانت حقوق خدم «شيروان» عند دفتر داره؛ فعزل الدفتر دار أيضًا، ولما كان من المقرر أن يذهب مع الباشا، يثور الخدم على الباشا، ولكن لم يؤذن لهم بالدخول مجتمعين؛ فيدخل خمسة أو عشرة رجال من كبارهم، وكلما أسكتهم بالدلائل والبراهين القوية لم يرضوا بكلمة الحق، وفي نهاية الأمر يغضب ويهجم عليهم بالخنجر، ويقتل خمسة أو ستة رجال منهم، أما هو فكان قد انتهى استعداد رحيله وخرج طيوغه وأقيمت خيمته في الخارج، فقال العصاة: «عندما يخرج من المدينة غدًا، فلير ماذا سيكون حاله». وأسمعوا رجال الباشا الكلام الكثير، وفي الصباح قام الباشا بتنظيم أفراد السكبان أمامه، ووضع فرسانه على يمينه ويساره مع آلات الحرب، ثم خرج. ولم يستطع أي فرد اعتراض طريقه؛ وربما النظر إلى وجهه.

لقد كان رجلًا عجيبًا في ذاته، قاتلًا وسفاكًا للدماء، وجريئًا وشجاعًا، ولا يفكر في عاقبته؛ كان لا يعرف حتى الألف في القراءة، ووصل من «شيروان» إلى «إستانبول» مع حوالي ثلاثة آلاف من رجاله، وكان قد أرسل إلى «بلغراد» قبل حملة «أكره» بعام، وكنت قد أرسلت أنا الفقير[1] من «بدون» إلى «إستانبول» مع الساعي طالبًا المدد، فالتقيت به أي بجعفر باشا في «بلغراد»، وكان رجلًا ضخمًا وأبيض الوجه؛ وكان يعرف أنه مجري الأصل من لهجته، وكان قد أرسل في حملة «أكره» على رأس طابور قبل وصول السلطان صاحب السعادة. فإنه عاد منهزمًا، حتى إنه كان يخجل من الفرار، فكان أتباعه يسحبونه من عنان جواده طوعًا وكرهًا ويخرجونه من الميدان، ولما طلب حكم «تبريز»

(١) المقصود هنا «بجوي إبراهيم أفندي».

مرة أخرى بعد الحرب، وجهت إليه، وقد نسب القول «أتى جعفر باشا ثانية» بالعجم هزيمة عظيمة.

انعقاد الصلح مع العجم ومجيء «شاه أوغلو» كرهينة

في سنة ١٠٠٠ هجرية[١]، لما توفرت الرغبة في أمور الصلح والصلاح من الطرفين، مكث «فرهاد باشا» واستراح في «أرضروم» التي كانت لائقة بالنزهة وبعد أن وصل إليها وأتى الرجال المتكلمون بالرسائل من الجانبين على التوالي، أرسل الشاه «حيدر ميرزا» المذكور الذي كان ابن أخيه وقرة عينه، وعلى هذا نظم المرحوم «باقي أفندي» في حقه:

مباركًا، يأتي الأمير «حيدر» نور عين
الأعاجم ونور عين، خسرو إيران

ويأتي الأمير «حيدر» بالهدايا اللائقة والتحف الفائقة، وبعد أن تشرف بتقبيل عتبة العرش الذي حدوده العالم، أقام له كل من الوزراء العظام والوكلاء الكرام الموائد وأنواع الرعاية، وقدموا له بعض الهدايا القيمة، والأواني الفضية والذهبية، والسروج والسيوف والخناجر المرصعة بالجواهر والخلع المعتبرة والغالية الثمن، وقاموا بما يليق بشرف السلطنة، وفرش سراي «برتو باشا» الذي يطل على ميدان «وفا» بالأبسطة الفاخرة. ليكون محل إقامته، وكانت تقدم الأطعمة له كل يوم من مطبخ السراي، وتسلم له مصاريفه المحددة من الخزينة السلطانية. وقد عين الكثير من القماش من نوع «سراسر» المطرز بالذهب، ومن نوع «ديبا» من أجل «صيفية وشتوية» رجاله الذين أحضرهم معه؛ يعني الكسوة الصيفية والشتوية لهم، ومن أجل عيديته هو ونوروزيته أي الهدايا التي ترسل له في عيد النوروز وذلك أكثر مما يتوقع. ولكن أصابته عين الفلك الحولاء، فأصيب بالطاعون، وتوفي بأمر الله تعالى، ودفن بجوار حضرة أيوب رضي الله عنه.

---

(١) الموافق ١٥٩١ - ١٥٩٢م.

وبنوا عليه قبة عالية، إلا أن بعض القزلباش المتعصبين لم يرضوا ببقائه في الممالك المحروسة العثمانية؛ فنبشوا قبره وأخذوا عظامه، وحملوها إلى ديارهم مدار الشؤم، والآن فإن تلك القبة العالية خالية.

تعيين «فرهاد باشا» وزيرًا أعظم لأول مرة

في سنة ١٠٠٠ هجرية[١]، قام «فرهاد باشا» بفتح كثير من القلاع في ديار العجم، واستقرت أمور الصلح والصلاح أيضًا على المنوال الذي يريده السلطان شخصيًا. وكان «فرهاد باشا» مخالفًا لرأي الوزير الأعظم «سنان باشا» وطبيعته في أكثر الأمور، وقبل مرور وقت طويل، تولى مقام الوزارة العظمى. ولكن ليس هناك أي شك أنه لما حل الغرور والوهم على خاطره، عزل دون مرور وقت طويل أيضًا. وكان سبب عزله هو ما يلي:

كان قد استقر بعض الرجال من الإنكشارية في «أرضروم» منذ عدة سنوات، وذلك أثناء الحملات، ولما اشتكى أهالي الولاية من تجاوز هؤلاء، فبينما كان واجبًا عليه التنبيه على طائفة «أوضه باشي» وطائفة «چورباجي»[٢] ليتوجهوا إلى حجراتهم، يرسل أمرًا شريفًا في مضمون: «ينبغي أن ينبه على أمير أمرائها وقاضيها»، وبموجب ذلك الأمر الشريف وقعت المناقشة والمعارضة مع هؤلاء بالقول لهم: «قوموا، واذهبوا إلى غرفكم»، وفي النهاية وقع القتال بين الطرفين؛ حيث قتل بعض الإنكشارية في ذلك المكان، وبعد ذلك لما جاءت نداءات الاستغاثة إلى حجراتهم راحوا يشكون «فرهاد باشا»، ولما استفسر السلطان عن ذلك قدم «فرهاد باشا» تلخيصًا بقوله: «إن شكواهم من أغاهم»، مما جعل السلطان يأمر بعزل الأغا، إلا أن الفتنة لم تهدأ، وتصبح أسوأ مما

(١) الموافق ١٥٩١ - ١٥٩٢م.

(٢) چورباجي: اسم يطلق بشكل مشترك على ضباط الطائفة التي تعرف باسم «جاعت أورته لري»، وضباط سرايا الأغا. وخلاف هذا كان يطلق لقب «چورباجي» على قادة فرقة «عجمي أورته».
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 76.

كانت. ولهذا قام السلطان صاحب السعادة بعزل «فرهاد باشا» بتهمة الكذب عليه. وبعد هذا وصلت طائفة «چورباجي»، ورئيس خدم الباب إلى «أرضروم» بالأحكام الشريفة المؤكدة والمشددة من قبل الصدر الأعظم الجديد، وقاموا بالتحقيق وصلبوا وأعدموا بعض الرجال في «أرضروم»، وأحضروا أيضًا بعضهم إلى «إستانبول»، وعلقوهم في الشناكل، وقاموا بقتلهم بأنواع التعذير، وكان هذا سببًا لاتباع أهالي «أرضروم» لـ «آبازه» أثناء عصيانه.

تعيين «سياوش باشا» وزيرًا أعظم للمرة الثالثة

في سنة ١٠٠٠ هجرية[1]، لما عزل «فرهاد باشا» بهذه التهمة، عين «سياوش باشا» وزيرًا أعظم، وذلك أيضًا استمر في منصبه لمدة قليلة، واتفق أنه لما وقع قدر من النقصان في خـزائنه أثنـاء توزيـع العـلوفـة، قال السباهية: «إننا لا نأخذ»، وطالبوا برأس أمير الدفترداية الذي كان دفتر دارًا في ذلك العصر، ومع أنه بذل الجهد لصرفهم عن ذلك فإنهم لم يسمعوا ولم يعودوا عن كلامهم، ولم يطلقوا سراح أي فرد ممن حجزوهم للخارج حتى وقت العصر، وأصروا على تنفيذ كلامهم، وفي آخر الأمر أمر السلطان صاحب السعادة خدم الحرم الهمايوني بقوله: «فليدفع هؤلاء السفهاء، وإذا عاندوا فليضربوا». وعلى هذا أخذ كل من كيلارجي أي عامل خزينة المؤن والقائم بأعمال الطبخ والبوستانجي أي الجنايني، وأفراد الإسطبل كل واحد منهم نبوتًا بيده وساروا على العصاة. وحكمة الله ففي تلك الأثناء كانت قد دخلت خمس أو ست عربات إلى الباب الهمايوني بينما كانت هذه العربات تحضر الحطب إلى المطبخ العامرة كالعادة، فيتزاحم السباهية مع بعضهم البعض للهرب، ولما كانت تلك العربات قد سدت طرقهم، تراكموا على بعضهم حتى وصلوا إلى كمر الباب الهمايوني الذي ارتفاعه أعلى

(١) الموافق ١٥٩١ - ١٥٩٢م.

من طول صاري العلم، فهلك بعضهم من جراء تلك المزاحمة، وجرح بعضهم أيضًا من ضرب النبوت، وخلاصة القول: فقد سلك حوالي ثلاثمائة رجل منهم طريق العدم وصاروا ملطخين بالدم والتراب.

وبعد ذلك تفرق أهل الديوان وذهبوا مسرورين وممنونين، وفي اليوم التالي تجول الوزير الأعظم في المدينة مع قاضي «إستانبول» كالعادة، وتقصوا الأحوال المتعلقة بأسعار السلع، وعندما أتى إلى قصره، أتى كتخدا طائفة البوابين وأخذ الختم الشريف، ولكن بهذا السبب غرق الناس جميعًا في بحر الحيرة. فإن كانت قد أحسنت عليه الخلع وأثني عليه بالأمس، فما سبب هذا؟ ربما قال بعض المقربين من السلطان: «لقد هجم على الديوان مرتين في زمن وزارة «سياوش باشا»»، والآن أوضحوا سبب انتزاع الختم الشريف من يده بقولهم: «لم يكن هناك يمن في وزارته».

في ذكر خلاصة أحوال «درويش حسن باشا» في البوسنة

كان المشار إليه رجلًا نشيطًا في ذاته. فعندما صار واليًا على إيالة الـ «بوسنة»، لم يسترح؛ فكان أحيانًا يقوم بالهجوم، وأحيانًا لا يخلو من التضييق على الكفار بالهجوم على قلاعهم، فضاق الكفار منه، وأرسلوا سفيرًا إلى الآستانة السعيدة عدة مرات وقالوا: «إما أن تنقلوا حسن باشا، وإلا فسوف يفسد الصلح». ولكن لم يُفد ذلك، فبسبب أن كان المرحوم «درويش باشا» نديمًا خاصًا للسلطان صاحب السعادة في ذلك الوقت وتربطه بالوزير الأعظم «سياوش باشا» قرابة، فلم ينقلوه؛ وأجابوا بقولهم: «إذا تعديتم على ممالكنا المحروسة، فهو سيضطر إلى دفع ذلك».

فتح قلعة «بهكه» وبناء «يكي حصار»

في سنة ١٠٠٠ هجرية[1]، قام المشار إليه «درويش حسن باشا» المحمي من قبل السلطان بحشد عسكر البوسنة، وحاصر بهم قلعة «بهكه»، وبعدما قام بضربها ثمانية

(١) الموافق ١٥٩١ - ١٥٩٢م.

أيام، وفق في فتحها في اليوم التاسع، وبعد أن وضع بداخلها أفرادًا للحراسة بالقدر الكافي، وصل إلى «يكي حصار» وقام ببنائها، وعهد بسنجقها إلى «رستم بك» المشهور والمعروف والذي شغل وظيفة «دلي باشي»[1] للمرحوم «فرهاد باشا».

في ذكر توجه «درويش حسن باشا» إلى جانب الكفار للمرة الثانية

لما حل ربيع الأول وقت الأزهار، بدأ «درويش حسن باشا» بجمع العسكر مرة أخرى، وقام بجمع أرباب التيمار والزعامة في البوسنة وأمرائها المعزولين والقائمين في مناصبهم وأفراد وأغوات قلاع الحدود، وربما جميع رعايا الأفلاق، وجعل منهم حشدًا عظيمًا.

من بدائع الوقائع

لقد قمت أنا هذا الحقير قليل البضاعة بالسفر إلى البوسنة في هذه الأثناء، وكان هناك مجذوب صوفي يعرف باسم «إدريس بابا» من طائفة الأبدال[2] في قصبتنا يعنى في «بجوي» مراد قلوبنا. وكان عزيزًا ظاهرةً عليه بعض كراماته وولاياته، ومشيَّدة عليه الآن قبة عالية؛ يستفيد الزوار من زياراته، ويأخذون نصيبهم من النذور والصدقات الواردة إليه بكثرة. وكان «إدريس بابا» في ذلك الوقت على قيد الحياة، فالتقيت به وقلت

(١) دلي باشي: هو نوع من العسكر السوارية الخفيفة التي شكلت في الروم إيلي في نهايات القرن الخامس عشر. وكان قسم منهم من الترك، أما القسم الآخر فهو مركب من النصارى وصقالبة الروم إيلي مثل البوشناق، والخروات. وكان يطلق على رئيسهم اسم «دلي باشي».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 82.

(٢) أبدال «فتوت»: هو اسم أطلق بشكل عام على مجموعات الحرفيين والصناع والجماعات الدينية والاقتصادية التي بدأت تظهر في الأناضول منذ القرن الثالث عشر الميلادي والتي أصبحت فيما بعد منظمة وذات تشكيلات ... ولكن نفوذ هذه التشكيلات على الدولة بدأ يقل بعد فتح الفاتح للقسطنطينية، ومع مرور الوقت، أصبحت هذه التشكيلات بمثابة رابطة للمهنيين.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 116.

له: «بابا، إني ذاهبٌ إلى البوسنة، فلو توصي بأي شيء لـ «حسن باشا»، فإنني أبلغه له»، فقال: «أوصي يا، عليك أن تقول له: أينما يذهب فوجهه ناصع، وأرواح الأولياء وكل فرد من الأبدال معين وظهير له، حتى إن حضرة علي كرم الله وجهه موجود مع عسكره»، وقال واحد من الإخوان الموجودين: «ولكن هل تريد شيئًا يا بابا؟». فقال: «والله لقد بليت خرقتي، وأريد خرقـة».

ولما وصلت إلى «بنالوقه»، تصادفت بالمكان الذي نشرت فيه الأعلام والبيارق، وانتشرت فيه إشارات الطوغ والسنجاق، ونظم فيه عسكر الإسلام طابورًا طابورًا، وأطلق النفير من الجانبين واقترب جواده أي جواد حسن باشا، وكان أغواته ورؤساء خدم بابه يعرفون هذا الحقير أي «بجوي»، وفي ذات مرة وبينما كان «حسن باشا» أمير «سكدين»، يتوجه للمحافظة على «سكتوار»، وكان قد نزل إلى مزرعتنا الواقعة في «بچ»، فأطعم وأكرم بقدر ما استطعنا، وبلا تردد وقف الأغوات ورؤساء خدم الباب أمامي وحملوني إلى الباشا، وكان قد تقلد سيفه ولبس حذاءه وكان يجلس في شرفة ديوان منزله. وبعد السؤال عن الحال والأحوال وبعد مزيد من الرعاية الكثيرة، وجدتُ فرصة الكـلام، وعندئذ نقلت لهُ كلام «إدريس بابا» ووصيته، وهو أيضًا كان يعرف «بابا»، وكان يعتقد فيه بدرجة عالية، فسعد جدًا وبدا عليه الصفاء، وسأل عدة مرات قائلًا: «ماذا قال أيضًا؟»، وربما جعلني أكرر كلمة «بابا» أكثر من عشر مرات. حتى أتى إلى حافة الشرفة ثم إلى جواري متدليًا من مكانه، وأمر «رمضان كتخدا سي» بإعطاء بلوفر ثمنًا للخرقة، وامتطى جواده بهذا الصفاء، وذهب.

وذهبت أنا الحقير أيضًا إلى السراي، وكانت توجد بالسراي قهوة فارهة، وكان يوجد بها خمسة أو عشرة مجالس، كل مجلس مُعين لصنف من الناس، فمثلًا كان يجتمع فيها القضاة والمدرسون الكبار وأعيان المدينة والمعلمون والمسافرون.

موافقة تفسير الرؤيا الصالحة

وفي ذات يوم، وبينما كانت المناقشات منعقدة في هذا المكان المقصود القهوة، دخل

أحد الأعيان، وقال: لقد رأى أحد صلحاء الأمة رؤية غريبة. فقالوا: «تفضل وضح». فقال: «بينما كان «حسن باشا» متوجهًا مع عسكر الإسلام يرى أنهم قاموا بخصيه يعني جعلوه خادمًا». فلما سمع الجميع ذلك، استغربوا الأمر قائلين: «ما أغربها رؤية!». ولما كان الجالسون في هذا المكان رجالًا واقفين على مزايا الكلام أي مثقفون، فقد قام كل واحد بتفسير الرؤية من وجهة مختلفة، وقام كل شخص بالتفسير على قدر بضاعته أي معلوماته، فأحيانًا يأتي التفسير بلا أهمية، وأحيانًا يروى تفسير نفسي. وفي هذه الأثناء، أتى على غير سابق عهد درويش مرتديًا خرقة في زى الصوفية؛ وربما كانت له اليد الطولى في علم التعبير أي تفسير الأحلام، وكان له نصيب من ذلك العلم بين الناس، فأفسحوا له المكان الذي يرغب فيه قائلين: «هاي شيخنا! أتيت أهلًا! لقد أتيت في التوقيت المناسب»، وقاموا بقص الرؤيا عليه، فما إن سمع ذلك حتى هز رأسه وقال: «الحمد لله تعالى، الحمد لله تعالى»؛ وقال: «البشرى لكم، فإن «حسن باشا» إما هزم طابور الأعداء أو سيهزمه»، وسألوه عن مأخذ تفسيره، فقال: «إن الذي هزم الطابور من حكام البوسنة هو «خادم يعقوب باشا»، فإنه هزم طابور «در نجيل بان» في صحراء «قربوه»، وقهر عشرين ألف كافر بسيف الإسلام البتار، وما دام أن «حسن باشا» اتصف به في عالم الرؤيا [أي صار خادمًا]، فقطعًا يجب أن يتصف به أيضًا في عالم الواقع، وأعتقد أنه الآن هزم طابور الأعداء وأصبح منصورًا ومظفرًا»، وقام جملة الجالسين بالثناء عليه بالقول: «أحسنت يا شيخنا». وسروا سرورًا عظيمًا.

وفي الواقع تواردت أخبار البشرى بعد أربعة أو خمسة أيام، وأتى خطابه أيضًا أي خطاب «حسن باشا» إلى قاضي السراي وأصبح باعثًا على سرور المسلمين.

ونحن بذلك نكون قد خرجنا عن الموضوع مرة أخرى، وعلى هذا، ينبغي علينا الرجوع عن هذا الاستطراد والشروع بما كنا بصدده.

انهزام طابور الكفار

في سنة ١٠٠٠ هجرية[1]، لما عزم «حسن باشا» على التوجه إلى جانب الأعداء

---

(١) الموافق ١٥٩١ - ١٥٩٢م.

على الوجه المشروح من قبل، قام ببناء جسر متين ومحكم على نهر «كوبه» قرب «يكي حصار»، وعبر إلى مملكة «خروات»، وقام «أردليك بان» الذي كان أمير أمراء تلك الحدود والديوث الذي كان جنرال «خروات» بجمع جيش عظيم، وخرجا سويًا للمواجهة، وبفضل الله تعالى بعد قليل من القتال والجدال، انهزم أعداء الدين، وصار أهل الإسلام منصورين ومظفرين، وقاموا بتعقب العدو وقهروا معظمهم، وقتل من الكفار عدد بلا نهاية في ذلك الميدان واغتنمت كافة طوابيرهم، وكان يوجد بين تلك الغنائم حوالي ستة مدافع من نوع «قلنبورنه» بلا نظير، وسائر أدوات الحرب والقتال التي بلا نهاية، وبعد ذلك قام «حسن باشا» بالهجوم على ممالك الكفار؛ حيث غنم أسرى بلا حدود وبلا قياس وأموالًا كثيرة حتى إن غزاة الإسلام لم يغنموا هذا القدر من الغنائم منذ زمن طويل.

انهزام «حسن باشا» وغرقه في الماء

قام «حسن باشا» بربط ألف أو ألفي رأس، ومائة أو مائتي كافر بالسلاسل، وأرسلهم إلى الآستانة السعيدة مع ما استولى عليه من المدافع، وطلب وصول عسكر جديدة قائلًا: «إن مجيء الأعداء علينا بجمع غفير بعد هذا أمرٌ مؤكدٌ». وفي ذلك الوقت، كان «سياوش باشا» وزيرًا أعظم، وبمجرد أن وصلت غنائم «حسن باشا» مع عرضه، قام الوزير الأعظم بإعطاء إيالة الروم إيلي إلى «كيرلي حسن باشا» من مقربيه، وعينه لإمداد «حسن باشا» قائلًا في نفسه: «قطعًا هناك احتمال كبير في سعي الكفار لأخذ الانتقام»، فإنه في هذه الأثناء؛ صار «سنان باشا» وزيرًا أعظم، وكان يضمر غيظًا شديدًا أثناء فترة وزارته الأولى لـ «حسن باشا» الذي كان في البوسنة، وسبب هذا هو أن «حسن باشا» كان مجاورًا له، فأراد «سنان باشا» أن يشتري منزل «حسن باشا»، وذلك أيضًا [أي «حسن باشا»] كان لا يكذب وكان سيعطيه له، إلا أنه على إثر عزل «سنان

باشا» في ذلك الحين، لم يعطه له، وهكذا لم يُرسل سنان باشا له الآن الجند التي عينها له «سياوش باشا»، بقصد الانتقام منه، وبينما كان أمير أمراء الروم إيلي قد اقترب من مركز الدولة، فقد صدر الأمر بإعطاء الروم إيلي لابنه وتوجيه «طمشوار» للمذكور المقصود «كيرلي حسن باشا».

وعلى هذا يئس «حسن باشا» من الإمداد. ولكن لم يجعل نصب عينيه هزيمة الملاعين المذكورين له، وأجزم بعدم قدرتهم على الهجوم عليه؛ يعني قد أصابه الغرور إلى تلك الدرجة. وتحرك بعسكر البوسنة فقط، وذهب إلى «يكي حصار»، ثم قام بعبور الجسر وحاصر قلعة «سيسقه»، وفي تلك الأثناء، وصله الخبر بأن طابور الكفار قد وصل إلى مكان قريب. وقام الملعون «أردليك بان» وجنرال «خروات» بإحضار قواتهما الموجودة إلى جوارهما، وساقا جميع أرباب السيوف والرعايا الذين تحت أيديهما إلى ميدان القتال. وكانا قبل ذلك قد أرسلا خطابات الاستغاثة إلى إمبراطور «نمچة» سيء النسب، وأخيه «مقسيمليان»، فقاما بإرسال كلب كبير من أمراء وكبراء «نمچة» مع جنود «نمچة» الجرارة، وسار هؤلاء جميعًا مع كل الموجودين صوب «حسن باشا» الذي كان موجودًا أمام «سيسقه»، ومع أن «حسن باشا» أراد أن يواجههم بعسكر الإسلام، فإن الكفار كانت أعدادهم بلا نهاية، وأدوات قتالهم فوق العادة. فلم يستطع المقاومة، وهُزم وقام بالفرار، وعندما وصل إلى الجسر الذي أقامه، لم يستطع العبور من مزاحمة العسكر، وقام الكفار أيضًا بتعقبهم، فكان لا بد أن يغرقوا في نهر «كوبة»، وغرق «حسن باشا» في الماء، ورفيع المقام المسمى «سلطان زاده» الذي كان ابن الوزير الأعظم «أحمد باشا» أمير الـ «هرسك»، وابن بنت «رستم باشا»، ورجال كثيرون من سائر الأمراء والعساكر، ووضعوا الأقدام على رتبة الشهادة، واكتفى الكفار أيضًا بهذا القدر من الغلبة والنصرة، وقفلوا عائدين إلى ديارهم دار الفجور.

محاصرة الكفار لقلعة «يكي حصار»

في سنة ١٠٠٠ هجرية[1]، عندما وصل إلى مسامع أعداء الدين أن الوزير الأعظم «سنان باشا» عقد العزم على التوجه إلى الحدود مع العسكر الجرارة مثل النحل، قاموا بإرسال العسكر على القلعة قائلين: «ينبغي علينا أن نأخذ «يكي حصار» قبل وصول المدد»، وقاموا بضرب «يكي حصار» ثمانية أيام، ولكن بعد ذلك لما وصل عسكر الروم إيلي، صرف الأعداء النظر عن الاستيلاء على القلعة، وتفرقوا وتشتتوا.

فتح قلعة «سيسقه»

في السنة نفسها، لما صرف العدو الحريص على أخذ الثأر النظر عن «يكي حصار»، وصلت عساكر الإسلام، وحاصروا قلعة «سيسقه»، وبعد أن قاموا بضربها خمسة أيام، طلب الملاعين الذين كانوا بها الأمان، فبقوا آمنين سالمين من سيف الإسلام، ولم يكف الغزاة عن سبي ونهب ممالك «زاغرب» و«خروات» باستمرار بالانطلاق من القلعتين المذكورتين؛ وحصلوا على الغنائم الكثيرة في زمن قليل، وصاروا يرتكبون أمورًا كثيرة ضد الكفار.

محاصرة الكفار «يكي حصار» مرة أخرى وانتصارهم

في سنة ١٠٠٢ هجرية[2]، لما مني الكفار بهزيمة عظيمة من غزاة الإسلام الذين كانوا في «يكي حصار»، قاموا بإرسال خطابات الاستغاثة إلى «الجاسار» أي الإمبراطور سيئ النسب وإلى أخيه الأمير عديم الاعتبار؛ حيث طلبوا المدد لدفع أذى غزاة الإسلام، فقام الملعون عديم الدين بتعيين ستة عشر ألفًا من المشركين المفعمين بالحقد، وأرسلهم لمحاصرة «يكي حصار». وفي النهاية لما يئس المسلمون الذين كانوا محاصرين من الإمداد، قاموا ذات ليلة بإشعال النار، وهربوا صوب قلعة «قوستا نيچه» و«زرين»، ولم يهتم الكفار بفتح القلعة، وأحرقوا أراضيها الباقية وساووها بالتراب وتركوها خاوية

(١) الموافق ١٥٩١ – ١٥٩٢م.
(٢) الموافقة سنة ١٥٩٣ – ١٥٩٤م.

على عروشها وخربة، وبذلوا كل ما في وسعهم؛ لتخريبها بدرجة لا تصلح للعمار أبدًا من بعد.

انتصار الكفار على قلعة «سيسقه» أيضًا

تم ذلك في العام نفسه، لما رأى الغزاة الذين في «سيسقه» أنه أضرمت النار في «يكي حصار»، ورأوا بعين اليقين انتصار الكفار، ولم يكن لديهم شك في ذلك، قاموا بإشعال النيران في قلعة «سيسقه»، وعزموا على التوجه إلى جانب ممالك الإسلام. وتركوا القلعة، وخرجوا منها بصحة وسلامة، وذهبوا إلى حالهم. وكانت القلعة المذكورة قبل ذلك من عداد أملاك قساوسة «زاغرب» . فقام الهرسك أي الأمير صاحب الطغيان أعني «مقسيمليان» بالإحسان بها إليهم مرة أخرى.

بناء «يكي حصار» من جديد واستيلاء الأعداء عليها مرة أخرى

في سنة ١٠٠٣ هجرية[1]. عندما لم يرغب الكفار في «يكي حصار» وذهبوا من تلك الأصقاع، وصل «رستم بك» ـ الذي كان بطل عصره وخبيرًا بالحروب مثل «رستم زال» و«إسنفديار» و«بهرام» ـ إلى ذلك المكان، وقام بإحكام تحصينات القلعة المذكورة أكثر من الأول وقام بإعمارها، وأخذ إلى جانبه الأفراد الذين كانوا بها من قبل والغزاة الذين اعتادوا على الخروج والذهاب معه سويًا، ودخل بهم إلى داخلها، وأحكم سيطرته عليها، ومن هذا المكان بدأ في الإغارة على وادي «طور» وصحراء «زاغرب» بالدرجة التي لم يمهل فيها الكفار، فزعزع الأمن والاستقرار تمامًا في تلك المملكة، وعلى هذا طلب الملاعين الخاسرون المدد مرة أخرى من الهرسك أي الأمير عديم الدين، فقام الملعون بتعيين عسكر تلك الأطراف علاوة على كثير من الملاحدة عدماء الدين من

(١) الموافقة سنة ١٥٩٤-١٥٩٥م.

«نمجة»، وقام بإرسالهم. وفي أثناء المحاصرة جُرح «رستم بك» من ضربة بندقية، وبعد عدة أيام، سلم الروح إلى بارئها في القلعة؛ وبوفاته بقيت القلعة المذكورة في أيدي الأعداء.

تعيين «سنان باشا» وزيرًا أعظم للمرة الثالثة وتنصيبه سردارًا على بلاد المجر

كان ذلك في سنة ١٠٠١ هجرية[1]، لما أحسن بالختم الهمايوني إلى «سنان باشا» للمرة الثالثة، سعى في البداية لإرجاع الوزراء المعزولين منذ عدة سنوات إلى أماكنهم، فاستصدر أمرًا بتعيين «فرهاد باشا» وزيرًا ثانيًا، و«إبراهيم باشا» وزيرًا ثالثًا، و«جغالة زاده» وزيرًا رابعًا، و«جراح باشا» وزيرًا خامسًا، و«بويا لو محمد باشا» وزيرًا سادسًا، و«خضر باشا» وزيرًا سابعًا.

ولكن «فرهاد باشا» الذي اشتهر بفتح الأقاليم الكثيرة في العجم والذي كان قد عقد الصلح والصلاح أيضًا معهم، قد أحرق «سنان باشا» بنار الغيرة، وجعله يشتعل بما حققه من نجاح؛ ولذا أراد «سنان باشا» أن يكون سردارًا على الروم إيلي. واتفق قبل هذا أن «حسن باشا» سالف الذكر ـ الذي ارتقى من منصب «چاقرجي باشي»[2] إلى أمير سنجق «سكدين» وبعد ذلك أمير أمراء للبوسنة ـ كان قد هزم طابور الكفار ذات مرة في البوسنة كما وضح ـ فيما مضى ـ حيث كان قد أخذ المدافع والرءوس والألسن

(١) الموافقة ١٥٩٢ - ١٥٩٣م.

(٢) چاقرجي باشي: كان الچاقرجي واحدًا من الموجودين في معية السلطان، وأحد مقربيه الذين يذهبون للصيد معه سويًا. وكان هؤلاء يحملون طيور الصيد المعروفة باسم «چاقرجي»، ويستخدمونها في الصيد، ويقومون بتربيتها. وكانوا يطلقون على رئيسهم اسم «چاقرجي باشي»؛ أي رئيس حاملي طيور الصيد. وكان هؤلاء يصعدون إلى أوكار الصقور من نوع «چاقر» في الجبال، ويأخذون صغارها ويربونها كطيور صيد من أجل القصر الهمايوني. وكان يلقب أصحاب التيمار الذين يقومون بتربية طيور الصيد هذه، والفئة التي لا تدفع ضرائب قط لقب «چاقرجي».

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 69.

الكثيرة وقام بإرسالها إلى الآستانة، وفي المرة الثانية، استشهد «سلطان زاده بن أحمد باشا» أمير «كليس»، وهلك هو أيضًا [المقصود حسن باشا] بغرقه في الماء أثناء تلك المعركة، ولما سعى «سنان باشا» عدة مرات لدى السلطان صاحب السعادة لأن يكون سردارًا، ولينتقم من الأعداء قائلًا: «قطعًا لم يأخذ الكفار صفعة من أهل الإسلام بعد حضرة المرحوم السلطان «سليمان خان»، وتطاولت كثيرًا أيدي تعدياتهم على حدود الإسلام»؛ وعلى إثر تحدث أولياء العهد أيضًا عدة مرات إلى السلطان صاحب السعادة ترحما على دموع عيني والدة «سلطان زاده»، أصدر السلطان فرمانًا بعقد المشاورة في هذا الصدد، وكان المرحوم «درويش حسن باشا» الذي استشهد في معركة «أطه» نديمًا خاصًا للسلطان صاحب السعادة، ومقربًا جدًا منه، حيث كان لا ينفك لحظة عن خدمته الهمايونية، ولما أصبح «حسن باشا» المومأ إليه الذي استشهد، في رتبة «طوغانجي باشي»[1]، كان يعمل في الحضرة السلطانية برتبة «قبو كتخداسى»[2]، وفي الأمر نفسه كان شاعرًا فذًا، وقرينًا لكبار العلماء المشهورين بالفضيلة والمعرفة، وكان قد أذن السلطان صاحب السعادة على غير العادة، بأن يكون من الموجودين حتى أثناء المشاورة.

وقد سمعت من لسانه إذ كان موجودًا أثناء المشاورة التي كانت بخصوص «سنان باشا» ما يلي:

كنت أقف أمام السلطان في تلك المشاورة، وكل ما قاله «سنان باشا» كان متعلقًا بأخذ الانتقام من الكفار، أما ما قاله «فرهاد باشا» كان متعلقًا فقط بمتاعب العسكر أثناء الحملات، وقد أعرب «خواجه أفندي»[3] وشيخ الإسلام «بوستان زاده أفندي»

---

(١) طوغانجي باشي: هو أمير غلمان الداخل المكلفين بوظيفة رعاية طيور الصيد المعروفة باسم «طوغان»، والمكلفين بالتواجد سويًا مع السلطان في رحلات الصيد.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 89.

(٢) قبو كتخداسي: هو اسم أطلق على الممثلين الرسميين للإمارات التابعة للدولة العثمانية، والدول الأجنبية، وممثلي ولاة الإيالات، والوزراء، وأمراء الأمراء لدى الدولة العثمانية.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 174.

(٣) هو خواجه سعد الدين المؤرخ المعروف.

عن رأيهما قائلين: «لقد فقد عسكر الإسلام طاقتهم كثيرًا وذلك بإنهاكهم وتعبهم أثناء حملات العجم، ويجب عدم القيام بحملة جديدة دون أن تزول معاناتهم هذه. ففي الوقت الذي من الممكن فيه دفع هذه الغائلة بسهولة، فإن عقلنا لا يجيز ارتكاب ما هو صعب والهروب مما هو سهل». ومرة أخرى قال «خواجه أفندي»:

حضرة الباشا إن من يدعو لكم[1] على وشك الانتهاء من كتابة تاريخ غزوات وفتوحات هذه الدولة العلية، وإن شاء الله تعالى ينبغي أن أكمله بالقول بأن أدنى خادم لسلطاننا استولى على الممالك الكثيرة من شاه العجم، وفي النهاية عقد الصلح والصلاح على إثر تسليم الشاه قرة عينه كرهينة، وكان قد ورد خراج سنتين من ملك «بچ» إلى الآستانة السعيدة، وذلك بمساعي خالي المرحوم «فرهاد باشا» الذي استشهد في «بدون»، فيجب علينا أن ننهي تاريخنا بقولنا : ورد خراج سنتين من الكافر. والآن فلتتلطف، ولا تفتح الفجوة من جديد.

وعلى هذا قال «سنان باشا»: «لا يا أفندي، لا تكتب على هذا النهج، ولكن إن شاء الله تعالى ينبغي عليك أن تكتب أن أدنى خادم لسلطاننا أخذ وأحضر ابن الشاه بعد هذا القدر من الفتوحات في ديار العجم، وأن خادمًا آخر وصل على ملك «بچ»، وبعد الإغارة على مملكته وتخريبها، قام بإرسال ملكها إلى الآستانة السلطانية مربوط الأيدي، هكذا ينبغي عليك أن تكتب إن شاء الله تعالى»، وقال «خواجه أفندي»: «أستغفر الله تعالى، حضرة الباشا إن هذا الكلام ناشئ من كمال الغرور، وإنني أخاف جدًا من عاقبة شؤم هذا الكلام». ثم نهضوا وتفرقوا.

وقد روى «دوريش باشا» هذا الكلام بمناسبة استيلاء الكافر على «پشته»، ومجيئه لمواجهة عسكر الإسلام.

---

(١) يقصد «خواجه أفندي» هنا نفسه.

في ذكر بعض الأحوال المتعلقة بخراج ملك «بج»

كانت تأتي كل سنة ثلاثة وثلاثون ألف قطعة ذهبية سكة خالصة مجرية من ملك «بج» حتى عام ١٠٠١ هجرية[1] الذي بدأت فيه حملات بلاد المجر.

وخلاف هذا كان السفير الذي يأتي يحضر معه عشرًا أو خمس عشرة قطعة من أواني الكفار الفضية، وأباريق وأقداحًا وساعة أو ساعتين أو ثلاثة.

وعندما ينال السفير الذي أتى شرف تقبيل قدم العرش مصير العالم، كان يقدم هذه الأشياء كهدية، وفي البداية عندما كان السفراء يأتون إلى «أسترغون»، كانوا يعطون أمير «أسترغون» ألف غروش وكوبًا أو كوبين وقدحًا، وكانوا يعطون أمير أمراء «بدون» ثلاثة آلاف غروش، وبعض الأكواب والأقداح والبنادق المطلية، وساعة أو ساعتي برج، فعندما أحضر السفير مثل هذه الأشياء إلى «فرهاد باشا»، كنت موجودًا في الديوان؛ حيث أعطي السفير له ستة آلاف غروش كخراج عامين، وكانت الأشياء الأخرى من كل نوع مضاعفة، وكان السفراء يقدمون ساعة وكوبًا إلى كل من دفتر دار «بدون»، وأغا الإنكشارية، وكان مقررًا للوزير الأعظم أربعة آلاف وأحيانًا خمسة آلاف وكوب وساعة وبندقية، وكانت الغروش والأكواب مقررة لسائر الوزراء على قدر مراتبهم.

ولم يكن قد وصل سفير من الآستانة إلى «بج» من قبل. ولكن كان يصل «بج» واحد من جاوشية «بدون» من قبل أمير أمراء «بدون» فقط، وكان هذا الجاوش يطلب الخزينة، وكان هؤلاء أي سفراء ملك «بج» يأتون في سفن كبيرة من خشب الصنوبر، وكان يوجد بداخل هذه السفن غرف ذات نوافذ من نوع الخشب نفسه، وكانوا يحملون مطابخهم في سفينة والعربات التي تُجرّ وبغالها في سفينة أخرى، وكانوا يأتون بالسفن من نوع شيقة حتى إلى «بلغراد»، وكانوا يذهبون بالعربات من بلغراد، وكان أمراء أمراء «بدون» يرسلون واحدًا من أغواتهم المعتبرين أو واحدًا من خيرة جاوشية «بدون» مع السفير؛ حيث كان يقوم على مصاريف هؤلاء السفراء.

---

(١) الموافق ١٥٩٢ـ١٥٩٣م.

من بدائع المناظرات

قبل عامين من تاريخ ١٠٠٠ هجرية[1]، كان قد كلف «علي أفندي» زوج أخت هذا الحقير [بچوي] والذي كان يعمل في وظيفة «مقابله جي»[2] «بدون» بتوصيل السفير إلى «إستانبول»؛ فيروي ما يلي:

كان السفير قد قام بإعداد مائدة في «أدرنة»، فاستجبنا لدعوته لنا، فقال: «ينبغي عليّ أن أشرب معك قدحًا بكيف الشراب»، فأحضر قدحًا فضيًا على هيئة حصان، فقال: «هل تعلم في حب من أشرب هذا القدح معك؟». قلت: «في حب من؟».. فقال: «أشرب في حب بطل ليس له نظير لا عند الجاسار ولا عند السلطان، وليس هناك سيف يعلو على سيفه؛ إذا توجه إلى أي مكان، صار مظفرًا ومنصورًا ولو قلت: من هو؟ أقول: إنه «نداجدى فرنج أورام»». فنهض الجميع على الأقدام، ووضعوا ظهر أيديهم إلى الأرض حانيً الرءوس.

وفي الواقع كان «نداجدى فرنج» يتجاوز كثيرًا مع أشقيائه على الحدود في ذلك العصر، وعندما ملئوا قدحًا وقدموه إليّ، قلت: انظر يا سعادة السفير، إنني لو أردت إحصاء أمراء وباشاوات سلطاننا الأبطال، فإنني لا أستطيع عدهم، ولا أستطيع أن أقول: إن أي واحد منهم أفضل من الباقين؛ لأنهم جميعًا من أصحاب السعادة الذين أثبتوا وجودهم مرات عديدة، ولكنني أشرب بحب بطل غريب قام برمي حربة، لا يمكن لأي أحد رميها، خلف «نداجدى فرنج» الذي تقول عليه شجاع، عندما أتى

---

(١) ١٥٩١ ـ ١٥٩٢م.

(٢) مقابله جي: هو من أقلام المالية التابعة لخزينة الدولة، وكان يمسك بتدوينات مرتبات جند السوارية والمشاة للقابوقولو، وكان يُقابل هؤلاء بدفتر الخزينة الرئيسي، وكان يسجل مقدار النقود الذي سيخرج من الخزينة للرواتب. وقبل وقت كل راتب أو علوفة كانت تسلم صور دفتر الراتب لقلم الروزنامجي. وقد انقسم هذا القلم أي مقابله جي إلى قسمين مختلفين. القسم الأول هو «بياده مقابله جي» وهو الذي يرعى مرتبات جند المشاة للقابو قولو. والقسم الآخر هو «سواري مقابله جي» وهو الذي يرعى مرتبات السوارية. وكان يطلق على رؤساء هذه الأقلام «مقابله جي».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 229.

أمام حصن «شبش» وبينما كان يهم بالهرب، فغرسها في حاجب السرج، وهذا هو البطل المعروف باسم «دلي أرسلان»، فغضب بسرعة وقال: هذا كذب، ممن سمعت هذا؟ ورفع منضدته بغضب، فقلب الأواني الفضية بعضها فوق بعض، وجن الكافر السكير من غضبه، وكان «علي أفندي» يروي قائلًا: «وقد تصالحت مع الملعون بصعوبة حتى وصلنا إلى إستانبول».

ولكن إذا قيل مثال قديم على هذه المناظرة، وحتى لو يبحث عن أمثلة شبيهة بذلك، فإن إيرادها مناسب تمامًا، وتلك الحكاية التي ستذكر والإجابة والكناية عليها واحدة منها، مع أنه ليست هناك حاجة لإيرادها من كمال شهرتها:

يسأل أحد الرهبان السفير الذي أرسله الخليفة الثاني حضرة عمر رضي الله تعالى عنه إلى قيصر الروم، وكان من الصحابة الكرام في زمنه الشريف عن حضرة عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها، ويقول: إن الذنب الذي أسند إليها افتراء عجيب. وعلى هذا يرد السفير أيضًا: إنه مثل الافتراء الذي قيل على حضرة مريم رضي الله تعالى عنها تمامًا.

وهذه الحكاية هي مثال آخر أيضًا: بينما كان «شمس باشا» و«إمام قولي خان» ـ الذي جاء بالرسالة من قبل الشاه في عصر سليمان خان ـ يسيران وهما على الجياد بجانب بعضهما البعض، وأثناء الحوار المتعلق ببطولات العسكر، يقول السفير هذا المصراع:

نحن نعلم أن أبطال الروم ليسوا أبطال حرب

وإنما هم جند مراسم العرس المستغرقين في الزينة

فيجيب «شمس باشا» أيضًا: في الواقع إن هؤلاء هم جند مراسم العرس الذين أخذوا «تاجلو خانم»[1] من الشاه إسماعيل، وهكذا ينبغي أن تسجل الثلاثة أحداث تلك بقلم من ذهب في صحيفة أوراق كأمثلة واضحة على سرعة البديهة في الإجابة، رحمة الله تعالى عليهم.

---

(١) هي زوجة الشاه إسماعيل الذي هزمه «ياوز سلطان سليم» في صحراء «چالديران» ١٥١٤م والتي أسرها العثمانيون.

فتح قلعة «بسپرم» وقلعة «پولاط»

في المحرم الحرام سنة ١٠٠٢ هجرية[1]، لما تقرر أمر السردارية لـ «سنان باشا»، فقد قام المذكور بإعداد الآلات والأدوات الحربية. وعندما تحرك من إستانبول متوجهًا إلى بلغراد دون أن يتوقف لمدة عشرين يومًا، كان قد اقترب موسم الشتاء، فسار بهمة دون توقف أو راحة؛ ووصل إلى «بسپرم» في أوائل المحرم ١٠٠٢هجرية، وقام بضرب القلعة لمدة ثلاثة أيام، وبفضل الله تعالى تركها الكفار في اليوم العاشر من الشهر المذكور، وهربوا، ولكن لم يهرب أميرهم الملعون، فقاموا بأسره.

وبعد ذلك، توجه «سنان باشا» إلى «پولاط»، وتلك أيضًا تم ضربها لمدة يومين، حيث فتحت في اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور. أما الطابور المقهور من الكفار فقد كان موجودًا في صحراء «تاتا»، فعقدت المشاورة بين القادة للهجوم عليهم. حتى إنني هذا الحقير كنت مع الذين كانوا مكلفين ببناء جسر في المقدمة، إلا أن الغزاة أحيطوا علمًا في هذه الأثناء بأن طابور الكفار طابور عظيم وجمعه كثير، وكان قد بقي خمسة أو عشرة أيام على موسم الشتاء ولذلك توجهوا صوب «بدون»، حتى إنه إذا تم الهجوم عليهم، يمكن التوقف هناك، ولكن العسكر يلحون في العودة. وبالفعل وصل إلينا الأمر الشريف بعودتنا، وعندما وصل «سنان باشا» إلى «بدون» كان قد هل فصل الشتاء؛ فقام «سنان باشا» بهدم خيام الجيش وأمرهم بالعودة.

في ذكر استشهاد أغا فرقة أبناء السباهية وموت عدد من رجال فرقة بلوك خلقي

بعد أن فتحت قلعة «پولاطه»، خرج أغا طائفة أبناء السباهية مع جمع كثير من بلوك خلقي، وذهبوا صوب جبل «باقون»، وقال البعض: إنهم ذهبوا للهجوم. وقال البعض

---

(١) الموافق سبتمبر ـ أكتوبر ١٥٩٣م.

الآخر: إنهم ذهبوا لجمع التفاح والكمثرى؛ حيث كان تفاح وكمثرى ذلك الجبل كثيرة جدًا في تلك السنة.

وكان طابور الكفار موجودًا في مكان على بعد ميلين مجريين فقط من الجيش الهمايوني. وبينما كانت الخدمة ملقاة على عاتق أهالي الحدود، فهل من المعقول لم ير شخص أن فرقة بلوك خلقي تتجه، ولم يعلم أيضًا أنهم بأي مهمة ذهبوا، وفي اليوم التالي عاد الذين ذهبوا، خمسات وعشرات وهم منهكون ومتعبون، وكانت قد أخذت راية الأغا واستشهد هو أيضًا، وأسر رجال كثيرون من بلوك خلقي واستشهدوا وهلكوا، وهكذا فبينما لم تكن هناك مناسبة قط للقيام بهذه المهمة فإنهم أساءوا سمعة عسكر الإسلام على هذا النحو.

انهزام عسكر الإسلام في «أستوني بلغراد»

في ٩ من صفر الخير سنة ١٠٠٢ هجرية[1]، لما علم الكفار الذين مأواهم جهنم أن السردار عالي المقدار عاد إلى الآستانة، تحركوا في اليوم التالي مع طابورهم المقهور، وقاموا بمحاصرة «أستوني بلغراد»، وعندما ورد هذا الخبر المؤلم إلى الوزير «حسن باشا» ابن الوزير الأعظم «محمد باشا» في «بدون»، أحضر إلى جواره عسكر الخمس مناطق سنجقية الواقعة قربه وجواره أي في منطقته، وكان من المؤكد أن عسكر الإسلام الذين كانوا في محافظة «بدون» كانوا يزيدون على عشرة آلاف، كما كان عدد الإنكشارية الذين بقوا بجانب كتخدا الإنكشارية أكثر من سبعة آلاف، وكان خدم «بدون» - وهم الجند الذين لم يلحق بهم ضرر في أي مكان قط والذين لم يذوقوا رصاص العدو، والقادرون على استخدام السيف - عشرة أو خمسة عشر ألف جندي.

وعلى أية حال عندما خرج «حسن باشا» مع أكثر من عشرين ألف جندي إلى «أستوني بلغراد» أحيط الكفار علمًا بذلك، ورفعوا حصارهم عن القلعة ونزلوا إلى

---

(١) الموافق ٤ - ١١ - ١٥٩٣م.

سفح جبل على بعد فرسخين، وأتى «حسن باشا» أيضًا، ونزل جملة العسكر من على جيادهم بالجانب العلوي لبلغراد، وتركوا الحيوانات ترعى، واجتمعوا للمشورة، فقال الأشخاص الذين لم يروا الحرب والذين لم يعرفوا حال العدو: «لقد ولدت ليلة القدر، فكان تصفيق أبيك عند رأسك»، وقالوا: «فلتكن غزوة مباركة». وأعربوا عن وجهات نظرهم قائلين: «ينبغي علينا الآن أن نهجم عليهم، وألا نجعل كافرًا يهرب»، ولكن هؤلاء الذين كانوا يعرفون حال العدو ـ ومن جملة هؤلاء بعض الشيوخ من أهالي «أستوني بلغراد» أمثال «قوجه حسام أغا» الذي بقي منذ زمن المرحوم السلطان سليمان ـ قالوا: «إن التعامل مع هذا العدو ليس شأنكم، والهجوم عليه خطأ فاحش، وإن قيام العدو بتبديل مكانه لا يعني أنه هزم، والآن تعالوا وتحصنوا بالقلعة. وراجعوا وأعيدوا إلى جانبكم قوتكم الموجودة. وأرسلوا العسكر عليهم طابورًا طابورًا، فإذا تراجعوا، فليتعقبوهم وليلحقوا بمؤخرتهم وعرباتهم، وإذا استداروا لهم واشتبكوا معهم، فليبدأ الفرسان ذوو الأحمال الخفيفة حرب الخبرة أي المناورة، ولينحازوا إلى الجيش، وإن شاء الله تعالى لن تجعل مدافع القلعة ومدافع الميدان من نوع «ضربزن» هؤلاء يأتون إلى مكان قريب»، فقال هؤلاء: «لقد سئم هؤلاء الشيوخ، ويريدون أن نقضي الوقت بهناء في انتظار القلعة وأن نملأها بالمحافظين».

وعمومًا فقد صار قول القائلين: «فلتكن غزوة مباركة»، عامًا وغالبًا بين الجند وهكذا أصبحت رغبة معظمهم الآن التوجه إلى الأعداء.

ولكن قاموا أيضًا بخطأ فاحش آخر، إذ إنهم لم يعينوا طابورًا كمؤخرة وطابورًا كمقدمة، ولكن اصطف جملة العسكر صفوفًا خمسات وعشرات في المكان الممتد من وادي «شيره» و«بافوسته» إلى وادي «كوله» والذي يبلغ اتساع ما بينهما قدر مد البصر، وقاموا بصف الإنكشارية وسائر جند المشاة صفين أو ثلاثة بهذه الطريقة أمام الفرسان، وعندما أتت عليهم طوابير الأعداء كجبل أسود، كل واحد منها خمسمائة وربما ألف سواري، لم يكن هناك طابور كامل ومتماسك ليذهب لمواجهتهم، ويدفع

الذين جاءوا للمقابلة من عليهم. وبسرعة كانوا قد اصطفوا من موضع مرمى رمح، كما لو كانوا يصطفون للسلام، وقاموا بإطلاق المدافع التي في الخلف، وقام «حسن باشا» وسائر الأمراء أيضًا بالصياح قائلين: «هاي ماذا حل بكم؟ قفوا». ولكن لم يقفوا ولم يسمعوا؛ حيث هرب بلوك منهم إلى «أستوني بلغراد»، وسلك بلوك آخر الصحراء، واتجهوا صوب المملكة سالفة الذكر، والتزم بلوك ثالث طريق «بدون» مع «حسن باشا» وهربوا، ولكن قاوم «حسن باشا» مقاومة شديدة، حتى لم يبق شخص غيره في الميدان. فأصابته رصاصة بندقية تحت إبطه، ومع أنها لم تلحق بجسده ضررًا بالغًا، فإن نار الورقة المحشوة بالبارود أشعل النار بثيابه القطنية التي من نوع عنتري والتي كان يرتديها. ولما لم يكن ممكنًا إطفاؤها أثناء هربه، فقد أحرقت النار ذلك الجانب المشتعلة به تمامًا، وفي ذلك الحين بقي في الميدان محافظ خزينته الذي كان محبوبه ومرغوبه والمقبول عنده، وبعض من غلمان الداخل، وسلحداره وعسكر المشاة، ولما انشغل الكفار بقتل هؤلاء، واغتنام عربات العسكر التي من نوع «قوچي» وأحمالهم وأثقالهم التي كانت بجوارهم في ذلك المكان، لم يهتموا بتعقب الفرسان.

وخلاصة القول: فقد وقعت هزيمة شنعاء بهذه الدرجة التي لم تقع في أي منطقة حدودية قط، وسقط ستة أو سبعة آلاف من جند المشاة على تراب الهلاك في تلك الصحراء. وبعد ذلك لما أتى المرحوم «ترياكي غازي حسن باشا» إلى محافظة «أستوني بلغراد» في الوقت الذي كان فيه أميرًا لـ«سكدين»، أمر بحفر بعض الآبار ووضع في البئر الواحد أربعمائة، أو خمسمائة، أو ألف رجل، وأمر بدفنهم، رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

استيلاء الكفار على حصون «فيلك» و«سجان» و«يازبريم» و«صوبوتسقة» وسائر حصون تلك الناحية

تم ذلك سنة ١٠٠٢ هجرية[1]، بعد أن هزم عسكر الإسلام، نزل طابور الكفار المقهور أمام «بلغراد» ثانية، وكانت لا توجد لديهم مدافع كبيرة، فقاموا بضرب أبوابها

(١) الموافق سنة ١٥٩٣م.

بالمدافع من نوع «ضربزن». وبعد ذلك اكتفوا بهذا القدر من الظفر والنصر، وقفلوا عائدين. وخرجوا إلى صحراء «تاتا» و«يانق» وتفرقوا، ولكن قام «مقسيمليان» أخو الجاسار وسردار العسكر بإرسال أمراء المجر الذين كانوا بالقرب من القلاع المذكورة للاستيلاء على تلك القلاع، وأعطاهم جنود مدفعية بالقدر الكافي من كفار «نمچه»، وأحيانًا ما كان الجو يعتدل لعدة أيام بعد حلول موسم الشتاء، حيث يقولون على تلك الأيام الصيف الصغير، وبالتقدير الرباني امتدت هذه الأيام في تلك السنة قرابة شهرين، حتى إن أزهار أكثر أشجار الفاكهة قد تفتحت، فمثلًا صار التفاح في بعض أشجاره أكبر من الجوز؛ يعني لم يتغير الهواء قط عن الشتاء، ومن أجل ذلك أخذ الملاعين القلاع المذكورة واحدة تلو الأخرى، ومعظمها موجود الآن في أيدي الكفار.

في ذكر أحوال قلعة «صويوتسقه»

لما ظهر تغلب الكفار على هذا النحو، قام الغزاة الموجودون في الحصن المذكور بتهريب معظم أطفالهم وعوراتهم أي نسائهم إلى «پشته»، وبقي في الحصن مقدار من الفرسان فقط، وعندما أتى الكفار وقاموا بحصار الحصن، امتطى جميع الغزاة جيادهم وهجموا على الكفار بغتة، وفتحوا طريقًا بينهم، وسلكوا طريق الصحراء وهربوا. وقام ثلاثة أو أربعة طوابير من فرسان الكفار بتعقب هؤلاء حيث تعقبوهم طيلة يوم وليلة، ثم ذهبوا، وكان الغزاة يقومون باستمرار بالمناورة وكانوا يدفعون من يقترب من الكفار بالسهام والبنادق، وكانوا يجعلون من بقي على قيد الحياة يمتطي الجواد، ويرفعون من سقط منهم. وبهذه الطريقة نجوا من يد الأعداء الكثيرين جدًا.

ومن الغرائب أن الغزاة كانوا يقومون بتربية كبش كبير جدًا في الحصن، فخرج مع الغزاة وهرب معهم، وإذا كان الكفار قد لحقوا به واجتمعوا عليه مرات عديدة، ولكنه نجا من بينهم ووصل إلى الغزاة ولم يستطع الكفار أن يمسكوا به، ولما أتى الغزاة إلى «بشته»، حملوه إلى تكية «كل بابا» وتقربوا به، وهكذا لم يصبح لقمة للكفار؛ وإنما صار

من نصيب غزاة الإسلام، وقد قاموا قبل الخروج من الحصن بقتل العواجيز والأطفال الصغار والضعفاء الذين بقوا في الحصن بأيديهم.

في ذكر قيام الكفار المقهورين بمحاصرة «أسترغون» و«خطوان» واستيلائهم على قلعة «نويغراد»

وقد حدث ذلك سنة ١٠٠٢ هجرية[1]، لما حل ربيع الأول وموسم السير والتجوال، وقبل أن يتحرك عسكر الإسلام من مكانهم بعد، قام الكفار بإعداد طابورين مقهورين قبل يوم النوروز؛ حيث أرسلوا أحدهما إلى «أسترغون»، والآخر للاستيلاء على «خطوان» وقام الملاعين الذين ذهبوا على قلعة «خطوان» بالنزول أولًا على قلعة «نويغراد»، حيث نصبوا المدافع العظيمة وبدءوا في ضربها.

وكان ابن سنان باشا أمير أمراء الروم إيلي، قد جاء بعد معركة «أستوني بلغراد»، ولكن كان يوجد بجانبه من الأمراء ثلاثة أو أربعة أمراء لواء فقط، وكان لا يوجد فرد قط من عسكر «بلوك خلقي»، ولما كان «حسن باشا» وجند «بدون» أيضًا مصابين من جرّاء معركة «أستوني بلغراد»، لم يستطيعوا أن يتوجهوا لإمدادهم، وفي مقابل هذا اضطر أهالي القلعة إلى التنازل عنها بالاستسلام، وكان قد أُرسل مقدار من الإنكشارية كمحافظين، فلم يجعلوا أميرها وسائر سكانها ينطقون كلمة قط، وكان أميرها آنذاك «قره فريه لو محمد بك»، وكان من غزاة الحدود القدامى ومن الفضلاء أصحاب العلم والمعرفة في عصره، وصفوة القول: فقد أتى الغني والفقير والشاب والشيخ والنساء والمخدرات اللائي كن في القلعة بآلاف الصراخ والاستنجاد إلى «بدون».

وأمر «حسن باشا» بإحضار الأمير المذكور وأعدمه، وكان ذنبه في الظاهر أنه سلم القلعة؛ ولكن في الواقع، لما كان على رأس من كانوا قد أقدموا على الهجوم على طابور

---

(١) الموافق سنة ١٥٩٤م.

الأعداء في «أستوني بلغراد»، وتسبب في هزيمة عسكر الإسلام، فقد انتقم منه «حسن باشا» بذلك السبب.

وبعد ذلك جاء الكفار وقاموا بمحاصرة «خطوان» التي كان أمير لوائها «صاري علي باشا أوغلو أرسلان بك»، ومع أنه كان مبتلى بقدر من الكيف، فإنه كان بطلًا مغوارًا في استخدام السيف، وقام الكفار بضرب أسوار «أسترغون» و«خطوان» لفترة أكثر من سبعين يومًا.

وكانوا كل يوم يضربون خمسمائة، أو ألفًا وربما ألفًا وخمسمائة دانة مدفع. ولم يرفع الكفار اليد عن القلعتين، حتى وصل السردار الأكرم مع عسكر الإسلام، وعندما اقترب الوزير الأعظم، تحركوا بعد ذلك من أمام القلعة وتجمعوا في جزيرة «قومران».

في ذكر انهزام عسكر الإسلام في معركة «خطوان»

لما قام الملاعين بمحاصرة «أسترغون» و«خطوان» كل هذه الفترة، ذهب الرسل مرات عديدة إلى «بلغراد» لطلب المدد، وبالجملة فقد جمع العسكر في بلغراد بقدر المستطاع، وصار الوزيران البطلان ابني الوزيرين الأعظمين أحدهما قائد مقدمة العسكر أي «چرخه جي»[1]، والآخر محافظًا على مؤخرة العسكر «دمدار»[2]، وتوجهوا جميعًا صوب المقصود، وفضلوا التوجه صوب طابور الأعداء في «خطوان» عن توجههم صوب الطابور الذي كان عند «أسترغون»، ولما كان «حسن باشا» أمير أمراء ذلك الحد، صار قائد مقدمة الجيش وذلك بحسب العرف، ونظم عدة طوابير، والحق فإنه كوى كبد بعض الكفار. والتقوا مع العدو عدة مرات، واشتبكوا مع بعضهم مرات كثيرة. ولما كان عسكر الكفار، الذين أتوا للمواجهة كثيرين جدًا، لم يستطع «حسن باشا» مقاومتهم مع جند «بدون»، ولم يستطع أن يرخي عنان الجواد ويخترق صفوفهم،

(١) كان يطلق لقب «چرخه جي» على مقدمة العسكر الذين يقومون بمناوشات مع جنود العدو.
(٢) وأيضًا كان يطلق على الجنود المكلفين بحماية مؤخرة الجيش اسم «دمدار».

ولكنه انصرف من أمامهم، حتى يسحب طوابيرهم التي تهجم عليه إلى مرمى المدافع، فسحبهم إلى أسفل المدافع، وانقسم طابوره إلى فرقتين، وكان المقصود من ذلك؛ إطلاق نيران المدافع من نوع «ضربزن» و«قلنبورنه» على ذلك المكان، وعندما تُشتت المدافع الكفارَ، يهجمون عليهم بعد ذلك، وهكذا كان ابن سنان باشا أحيانًا يشن عليهم الهجوم وأحيانًا أخرى ينصرف من أمامهم.

ولما رأى ابن سنان باشا المناورة التي قام بها «حسن باشا» من أجل سحب العدو تحت المدافع بموجب مضمون القول: «الحرب خدعة»، ظن أن عسكر الإسلام هربوا؛ وعلى الفور، تراجع وفر، وبينما كان الغزاة يعتمدون على المؤخرة، فعندما يرون حال المؤخرة هكذا، فإنهم أي وحدات «حسن باشا» يهربون خلف المؤخرة. وفي هذه الأثناء، كانت بندقية قد أصابت «حسن باشا»، وأرسل الرجال عدة مرات إلى «محمد باشا»، ولكن لم يفد ذلك؛ وحدث ما حدث، وفي هذه المعركة سلك ثلاثة أو أربعة آلاف رجل طريق العدم، ووضعوا القدم على منزلة الشهادة. وحدث سوء السمعة أكثر مما كان بعد معركة «أستوني بلغراد»، ولكن سلك في هذه المعركة أيضًا بعض عدماء الدين من الكفار طريق أسفل سافلين أي جهنم.

ومن آثار الرؤيا الصالحة

لقد سمعت من المرحوم «نصر الدين زاده مصطفى أفندي» المعروف والمشهور في «بدون» ما يلي: في تلك الليلة التي كنا قد نزلنا فيها مع عسكر الإسلام للقاء طابور الكفار، يرى شخص من صلحاء الأمة في «پشته» في عالم المثال أي عالم الرؤيا أنه كان هناك جمع كثير وحلقة كبيرة، وليس لهؤلاء نظير قط بين أهل زماننا سواء في لباسهم أو في أوضاعهم وأطوارهم، وكانوا يجلسون في مرح لطيف جدًا في صحراء واسعة، ويحملون بعض الأشخاص الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم إلى مجلس صاحب السعادة الذي كان يجلس في صدر المجلس، ويطابق هؤلاء بالأسماء الموجودة بالدفتر

ويقولون على أكثرهم: «هؤلاء من الشهداء» حتى إنني اقتربت إلى الشخص الذي يجلس في نهاية المجلس، وقلت له: «ما هذا المجلس؟ وما هذا الاجتماع؟ وما هذا الوضع؟»، فتفضل بالحديث قائلًا: «ألم تعرفه يا؟». فقلت: «لا». فقال: «هذا الذي تراه في صدر المجلس هو فخر الدارين حبيب الله محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم، وكل هؤلاء الذين داخل الحلقة الصحابة الكرام، والذين يجلسون على يمينه ويساره الخلفاء الراشدون العظام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ويعرضون على النبي والذين بجانبه الغزاة الذين سيستشهدون في المعارك التي في المستقبل، وهؤلاء أيضًا يطابقون الشهداء الذين سيكونون من أهل الجنة بأسمائهم الموجودة بالدفتر الذي يمسكونه بأيديهم المباركة». ورأيت أنه حمل أعيان «بدون» و«پشته» ومشاهير الحدود إلى حضرته الشريفة وأنه تفضل بالحديث: هؤلاء أيضًا من الشهداء. فقلت لذلك الشخص الذي أتحدث معه: «مدد يا سلطان! عندما يذهب هؤلاء، كيف يكون حال هذه الحدود؟! سينتصر الكفار على هذه المملكة، فلتتضرعوا إلى حضرة الله تعالى، ألا تسحق هذه البلاد بالأقدام، وليرج هذا من جناب العزة»، فنقل ذلك الشخص ما قلته إلى الشخص الذي كان يجلس بجانبه العلوي، وبهذه الطريقة أبلغوا رجائي إلى الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه الذي كان يجلس في الجانب الأيمن لحضرة النبي ﷺ. فرأيت أنه لم يهتم قط برجائي، وفي هذه المرة، وصلت إلى الطرف اليسار. وهكذا توسلت إلى الصحابي الكريم الذين يجلس في مؤخرة المجلس، ومن ذلك الجانب أيضًا وصل رجائي إلى الشخص الذي يجلس بجانب حضرة النبي صلى الله عليه وسلم. وربما كان ذلك هو حضرة «علي» كرم الله تعالى وجهه، وبلا تردد أشار عليّ قائلًا: «يا رسول الله الشخص فلان من أمتك؛ ويتوسل إليك أن ترجو من جناب العزة العفو عن غزاة الأمة، فلو ذهب هؤلاء، سوف تبقي الحدود خالية، وينتصر العدو على أهل الإسلام». وفي الحال حملوني إلى المجلس المبارك لحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبمجرد أن رفع نظره الشريف إليّ، تفضل بالحديث: «وأنت أيضًا من أهل الجنة، ومن الذين سيستشهدون في هذه الحرب»، وقال: «قيد هؤلاء بدفتر الشهداء في ديوان الحق، وجف القلم، فلم يكن

هناك احتمال للتغيير، فهذا هو الأنفع لأهل الإسلام في هذه الحدود، فإذا انتصر هؤلاء الظلمة فسوف تسحق أمتي بالأقدام من ظلمهم».

وعندما استيقظ هذا الرجل الصالح، قص على الفور هذه الرؤيا، وذهب متسامحًا مع جملة الناس، وشرح الأمر لبعض هؤلاء الأشخاص الذين سيستشهدون.

ويقول المرحوم «نصر الدين زاده» لقد سألت نفسي وحلفت يمينًا قائلًا: «لا تكتمه». وتفضل بالحديث: «لقد رأيت أنهم حملوك إلى ديوان النبوة، وقالوا: هذا أيضًا من الشهداء، ولكن ليس من شهداء هذه الحرب». وفي الواقع حدث الأمر على هذا المنوال، فهو أيضًا وصل بعد ذلك إلى منزلة الشهادة بسيف ظلم «مرتضى باشا» بلا ذنب وبلا سبب، رحمة الله تعالى عليهم رحمة واسعة.

فتح القلعتين الصغيرتين المعروفتين باسم «تاتا» و«صهارتين» ومحاصرة قلعة «يانق»

تم ذلك في سنة ١٠٠٢ هجرية[1]، لما عزم السردار عالي المكانة على التوجه إلى الحدود مع العسكر الجرارة، جاء أغا الإنكشارية «محمد أغا» بثمانية عشر ألفًا من جند الإنكشارية كاملي العدد، و«محمد أغا» هذا هو الوزير الأعظم «لالا محمد باشا» الذي كان من السلالة الجليلة المعروفة باسم «شاهين أوغلو» من البوسنة، وكان في البداية قد حُصر في «أسترغون»، ثم صار بعد ذلك مسرورًا بفتحها، وحتى هذا الوقت لم يكن ذهاب أغاوات الإنكشارية مع السردارية شيئًا معتادًا، وبينما كان من الممكن عدم ذهاب «محمد أغا» طبقًا للعادة، فإنه لما كان «محمد أغا» رجلًا بطلًا في ذاته وحريصًا على الغزو، فقد انخدع بالوعود الكاذبة لـ «سنان باشا»، وجاء إلى الحملة، وفي سلخ شوال من السنة المذكورة ١٠٠٢ هجرية حاصروا قلعة «تاتا»، وفي اليوم الثالث خرج الكفار بطلب الأمان، وفي هذا المكان عزل «سنان باشا» الأغا المومأ إليه، تمامًا بسبب البغض

(١) الموافق سنة ١٥٩٤ م.

والغرض الذي في نفسه، وأحسن بمنصب أغاوية الإنكشارية إلى «يمشجي حسن أغا» الذي كان أرناءوطي الأصل من جنسه نفسه، حتى إنه يروى أنه لما قام بتحرير تلخيص للسلطان صاحب السعادة بشأن تعيين «يمشجي حسن»، تفضل السلطان بالحديث: «كما هتك عرض هذه الدولة العلية وذلك المنصب الجليل، إن شاء الله تعالى عن قريب ينبغي أن يُهتك عرضه أيضًا».

وبعد ذلك أي بعد فتح «تاتا»، حُصرت القلعة المعروفة باسم «صمارتين»؛ حيث تم الاستيلاء على تلك القلعة أيضًا بطلب الأمان خلال يومين. وبعد ذلك تم النزول إلى صحراء «يانق» في اليوم الثالث عشر من ذي القعدة ١٠٠٢ هجرية[1]، وأقيمت المتاريس في اليوم العشرين من ذي القعدة، ولكن لم يغلق الكفار باب القلعة لعدة أيام، وقاموا بشن الهجمات على المتاريس في الوقت المناسب وغير المناسب، وكان الطابور المقهور من الكفار في الجانب العلوي من القلعة، وكان قد أقيم جسر إلى جانب قلعة «أيوار» التي كانت في ناحية الشرق منهم، وأقيم جسر آخر أمام الباب المائي للقلعة المذكورة، ولما كان باب القلعة لم يغلق، فقد كان فرسان وجند مشاة الطابور المقهور دائمين الدخول والخروج طابورًا طابورًا، ومن أجل هذا وبسبب أنه لم تكن هناك قدرة على حماية المتاريس، وتقريب المتاريس إلى القلعة، فقد قام السردار بتبديل «حسن باشا» مع ابنه يعني توجيه الروم إيلي لـ «حسن باشا» و«بدون» إلى ابنه، وبفضل الله تعالى بمجرد أن دخل «حسن باشا» إلى المتراس المقام أمام باب القلعة، بدأ بالضرب بعشرة مدافع كبار؛ فأجبر الطابور المقهور على سد الباب طوعًا وكرهًا، وبذلك تخلص من الهجوم على المتاريس، ثم أقدم على القصف بهمة بالغة.

انهزام طابور «يانق»

لما تقرر القضاء على طابور الأعداء قبل البدء بفتح القلعة، أحضر الغزاة لهذا المقصد الزوارق والسفن من نوع «طونباز» بالعربات من «بدون»؛ كما أحضروا مقدارًا من

(١) الموافق ٢ـ٨ـ١٥٩٤م.

الخشب على أساس احتمال عدم كفاية ما أحضر بالعربات، ويدءوا في تجهيز مهمات الجسر وقاموا بجمع بعض جلود الجاموس المدبوغة واستخدموها في صنع السفن، وعمومًا كان من المقرر أن يقام ثلاثة كبارٍ، أحدها يقام من جلود الجاموس، والآخر كالعادة، من نوع «الطونباز»، والثالث من السفن الصغيرة الموضوعة من أجل جند المشاة والتي يطلق عليها «شيقه» و«لاكيچه»، وبعدما أكملوا المستلزمات التي تكفي لإنشاء جسر من كل نوع، سجلت أسماء خمسمائة أو ستمائة من الجند المعروفين باسم «سردن كچدى»[1]، وعلى الفور شرع في بناء الجسور خلال يوم، ويدءوا بإمرار بلوك العسكر المعروف باسم «سردن كچدى» إلى الساحل الآخر، ومن ثم إلى الجزيرة. وخلاف هؤلاء عبر أبطال كثيرون من الذين كانت في قلوبهم نصيب من الشجاعة وزهرة من البطولة، وبالإضافة إلى هؤلاء، عبر أيضًا رجال من التتار صائدي الأعداء وبعضٌ من الفرسان بجيادهم.

وما إن علم الكفار بعبور العسكر حتى سار جندهم المشاة طابورًا طابورًا، وأعقبتهم طوابيرهم من الفرسان أيضًا بطي صحراء تلك الجزيرة، ولم يستطع جنودنا الفرسان سواء التتار أو غيرهم المقاومة قط. وفي الأمر نفسه، لم يكن ممكنًا أن يلتقي خمسة أو ستة آلاف رجل بعشرة أو خمسة عشر ألف كافر، ولكن اشتاقوا لساحل السلامة مرة أخرى، فعبروا نهر «طونه» عائمين. ومع أن جند المشاة كانوا ألفًا أو ألفين، فإنهم لم يستطيعوا مقاومة طوابير الكفار التي أتت متعاقبة؛ فسبح القادرون على السباحة وعبروا؛ وثبت واستقر ووقف أكثر من مائتين فقط في أماكنهم، وحكمة الله جل شأنه أن الكفار كانوا قد حفروا خندقًا على أطراف الساحل، واتخذوه متراسًا لهم هناك. فقام الغزاة الذين تبقوا باتخاذ ذلك الخندق متراسًا لهم، وأطلقوا البنادق على الكفار الذين أتوا عليهم. وكان ارتفاع ساحل هذا الجانب يبلغ طول منارتين، وأحضروا خمسة أو عشرة مدافع من نوع «باليمز»، وقاموا بصف المدافع من نوع «قلنبورنه» والمدافع الشاهية من نوع «ضربزن»

(1) وهو نوع من الجنود الفدائيين في الجيش العثماني.

ووضعوا قدرًا كافيًا من جند السكبان رماة البنادق ومن جند الإنكشارية تحت مستوى الأرض؛ لأن اتساع نهر الطونه في ذلك الموضع ليس كبيرًا؛ وإنما كان على قدر مرمى البندقية تمامًا، ولكن الملاعين جدوا واجتهدوا كثيرًا من أجل أن ينقذوا أنفسهم، حتى إنهم لم ينظروا قط إلى الذين ماتوا أو جرحوا، بل اندفعوا بتلك الدرجة التي أرخو فيها أعنة جيادهم من أجل أن يفتحوا الطريق لأنفسهم، وكان كل طابور يذهب، يموت متساقطًا تحت دانات المدافع التي من نوع «باليمز» والمدافع التي من نوع «قلنبورنه»، وتبقي جيف الجياد والرجال بهذا القدر في الميدان، وبالجملة فقد اندفع بهذه الطريقة ثلاثون أو أربعون طابورًا على التوالي، حتى اقترب النهار من الغروب؛ حيث جربوا طالعهم المنحوس ومزقوا أكبادهم. وفي النهاية لم يتمكنوا من إيجاد الوسيلة والتدبير المناسب، فانسحبوا خطوة خطوة صوب طوابيرهم، وحتى ذلك الوقت كان قد تم بناء جسر، ومع أنه كان من الممكن عبور جند المشاة من هذين الجسرين الآخرين، فإنه لم تكن هناك حاجة لذلك، وفي الحال شرع في العبور وقت العشاء من الجسر المقام من «الطونباز»، أما الكفار ففي الساعة التي لحقوا فيها بجيشهم، هربوا وفروا من الجسر الذي على ساحل «أويوار»، وذهبوا متعقبين بعضهم بعضًا.

والغزاة الذين لحقوا بطابور الكفار خلال الليل، أخذوا الغنائم الوفيرة، والذين لحقوا به في الصباح، وجدوا أيضًا شيئًا وفيرًا من أحمالهم وأثقالهم، وتم الاستيلاء على عربات المدافع، والمدافع من نوع «ضربزن» والمدافع الميدانية والبارود والمهمات وجميع ما هو موجود من أجل خزينة الدولة، وهذه الأشياء شاهدناها وليس هناك مبالغة فيها، وإنما ليس هناك شك في أن فيها نقصًا كبيرًا، فلله الحمد.

في ذكر التحاق «تتار خان» فاتح البلدان بعسكر الإسلام

لما كلف «غازي گراي خان» - رحمة الله تعالى عليه - خان ولاية القرم المعمورة وصاحب الأمر بين تتار «دشت قبچاق» و«نغاي» وصاحب السيف والعلم والمعرفة والإذعان من السلاطين المنسوبين لنسل «جنكيز خان» لما كلف بهذه الحملة المكللة

بالنصر من قبل السلطان عالي الشأن، قام بعبور النهر مع جند التتار الجرارة صائدة الأعداء، حيث عبروا من ممالك «له» بساحل نهر «طورلي»، ولما ظهر بقرب قلعة «صونلق» الواقعة عند حدود «بدون»، ففي الوقت الذي لم يكن متوقعًا فيه ولا محتملًا ظهوره، نقلوا بشرى قدومه إلى جانب السردار ذي الشأن.

وتبادلنا أطراف الحديث مع العديد من الأمراء والتتار الذين كانوا معه في ذلك الحين وكان من الممكن التحدث إليهم، وتحدثنا كثيرًا عن ظروف قدومهم، وكانوا يذكرون أنه لم يكن هناك شخص قط من عسكر التتار يعرف هذا الطريق الذي يمر من «له»، ومع أنه كان يوجد بينهم رجال كثيرون يعملون كمرشدين، ولكن يوجد بينهم شخص يعرف باسم «جانش أغا» وكان يعمل مرشدًا لعسكر التتار في كل سفر وغزوة، حيث كان الإرشاد عنده موهبة إلهية من عند الله تعالى، حتى إن «جانش أغا» المذكور كان قد بقي مع «إدريس باشا» في فتح قلعة «بابا»، وتوفي فيها. وعندئذ نصب تتاريًا من أحبابه مرشدًا مكانه، وهكذا كانت قد وصلت إليه وظيفة الإرشاد بهذه الطريقة نفسها. وعند وفاته يتحدث في أذن ذلك التتاري الذي عينه مكانه، ويأتمنه قائلًا: «إنني أأتمنك هذه الأمانة وهذه الخدمة لأهل الإسلام. وأنت أيضًا عليك أن تأتمنها من بعدك إلى شخص آخر».

ويروون أن ذلك الشخص الذي أتتمنت إليه وظيفة الإرشاد بدأ في الحال بسحب العسكر إلى أطراف قلعة «بابا» في ذلك اليوم، وفي الوقت الذي لم يكن قد رأى المملكة أو عرفها من قبل، عمل مرشدًا، وليس هناك شك في أن هذه تعد من كرامات الغزاة.

وكان قد رجا «إدريس باشا» «جانش أغا» المذكور من حضرة الخان ليكون مرشدًا؛ حيث أبقاه بجانبه، وإنني هذا الحقير [بجوي] كنت قد رأيت «جانش أغا» المذكور، وكان بلا شارب ولحية كما لو كان خادمًا عظيمًا، وعندما صار شيخًا، تجعد وجهه وعيناه وتدلى جلد رقبته، ولكن كان جند التتار يعتقدون أن له كرامة وولاية، فبينما لم يصل المذكور في أي وقت قط إلى هذه الأصقاع من مملكة «له»، ولم ير هذه النواحي على

الإطلاق، أصبح مرشدًا لهذا القدر من عسكر التتار وللخان عالي المكانة، وأوصلهم إلى المكان المقصود، فليس هناك شك في أن هذه هي الكرامة بعينها.

وبينما كانوا يعبرون من ولاية «له»، يصادفون تجمعات العدو في عدة أماكن ويهزمونهم، ولكنهم لا ينهبون ولا يخربون المملكة، يعني لا يحرقونها ولا يهدمونها، ويأخذون الأسرى الذين يرغبون فيهم، ويحملونهم معهم لمدة يوم أو يومين، ثم يطلقون سراح معظمهم ثانية، فإنهم إذا وجدوا شيئًا ذا قيمة عالية، يحملونه. وعمومًا، راحوا يعبرون ويذهبون بهذه الطريقة، وحتى لما صارت «صونلق» منطقة حدودية، كان الشخص العادي لا يلف العمامة على رأسه، فكان حال هذا الحد الآن على هذا النحو، وكانوا لا يعتقدون لفترة طويلة أن هؤلاء مسلمون وأن القلعة صارت قلعة مسلمين.

وإذا قيل: إن هذه الغزوة الفريدة التي قام بها المرحوم والمغفور له الغازي «غازي گراي خان» غزوة عظيمة، وإنها ديباجة لجملة الغزوات، فإن ذلك يكون مناسبًا، وكان الخان غازيًا ذا شأن، وغمرنا بإحسانه مرات عديدة، ورأينا لطفه وإحسانه الوفير. نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يغرقه في بحر الرحمة، ويحشره مع جملة السلاطين الغزاة تحت لواء حبيب الله عليه السلام. آمين يا معين!.

ولما نزلوا إلى صحراء «يانق»، وصل في اليوم التالي الموافق اليوم التاسع عشر من شهر ذي القعدة الوزير الأعظم والسردار الأكرم، وجملة أمراء الأمراء والأمراء مع العساكر الجرارة الذين لا تسعهم أرض ولا سماء لاستقبال الخان. وتصافحوا من فوق الجياد، وتساءلوا عن الحال والخاطر، وبعد ذلك أتوا ونزلوا إلى خيمة السردار التي بابها في شكل نصف دائري ومرصع بالذهب، جلسوا مع السردار على مقعد واحد، وتناولوا سويًا الطعام الذي أعد، ولكن بعض العقلاء لاحظوا تأثر الخان نوعًا ما من هذا التصرف الذي قام به السردار، حتى إنهم رأوا أن الجلوس سويًا وخصوصًا أن يصبح السردار صدرًا للمجلس وأن يجلس الخان بجانبه الأيمن ليس أمرًا لائقًا،

وقالوا: «لو كان السردار الوكيل المطلق والوزير الأعظم للسلطان، فإن الخان بالذات صاحب سكة وخطبة، وإن الخان في لغتهم منذ أربعمائة سنة يعني في لغتنا سلطان ابن سلطان. ولهذا فليس مناسبًا ادعاء التساوي به»، واعتبروا أيضًا أن إنزال الخان إلى أوتاق السردار نوع من التحقير كما لو أنزلوه إلى رتبة أمير أمراء، وربما ارتكب السردار بعض المساوئ الأخرى مثل إقامته الخيام الأخرى في مسكنه ووضع السرادقات السلطانية أيضًا فيها ومثل إحضاره الطعام وسائر رعايته واعتباره في منزله، حتى إنهم اعتقدوا أن من آثار هذا الوضع أن حضرة الخان لم يلتفت إلى السردار قط، وإنما كان يخاطب «حسن باشا».

وبعد الطعام أحضروا إناء مرصعًا بالذهب وإبريقا من أجل الخان. وبعدما غسل يديه، سلموهم إلى سلحداره، وأحضروا سيفًا ذا قبضة مرصعة وسيفًا مرصعًا من نوع «غدارة» وآلة حرب تدعى «دبوس»، وحصانًا جسورًا ذا سرعة فائقة مع طاقمه المرصع بالذهب، وأركبوه الجواد وأرسلوه إلى منزله؛ وأعطوا له خمسة آلاف قطعة ذهبية وذلك تشريفًا للقدوم من جانب السلطان، ومرة أخرى تقدمه جملة أمراء الأمراء وأغوات البلوك وجاوشية الدرگاه العالي، وأوصلوه إلى المكان المذكور.

ويروى أن الخان ذا الشأن قام بالتسليم على المرحوم والمغفور له الغازي السلطان «سليمان خان»، وذهبوا سويًا إلى موضع قرب الجيش على الجياد، وبعد أن سلم السلطان عليه مرة أخرى في ذلك المكان، يعود إلى منزله. ومرة أخرى، وصل أمير أمراء الروم إيلي مع جملة أمراء الروم إيلي في اليوم نفسه لدعوة الخان. وعندما نزلوا أمامه وأتوا إلى الخيمة السلطانية الهمايونية، نزل الوزير الأعظم مع سائر الوزراء إلى أمامه سيرًا على الأقدام. وقرب خيمة السلطان أمسكه الوزير الأعظم من تحت إبطه وأنزله من على الجواد، وقام السلطان صاحب السعادة، بعد المصافحة، بوضع كرسي ذهبي بجانب كرسيه وخاطبه بقوله: «تفضل اجلس يا أخي «الخان»». ولكن الخان راعى الآداب، ولم يجرؤ على الجلوس بجواره، وأنزل الكرسي قدرًا ما وجلس، وهكذا فإن كان السلطان عالي الشأن يتصرف بالإحسان بهذه الدرجة في رعايته، كان لزامًا على من كان في مقام الوزراء المقصود الصدر الأعظم أن يرعاه برعاية السلاطين.

وبعد ذلك، لما أتى حضرة الخان إلى حملة «أويوار» في زمن المرحوم الوزير الأعظم «إبراهيم باشا»، كنت قد شاهدت عدة مرات أنه كلما أتى الخان إلى المكان الذي به «إبراهيم باشا»، كان يمسكه «إبراهيم باشا» من إبطه، وينزله من فوق الحصان، وإذا ذهب، كان يمسكه من إبطه مرة أخرى، ويركبه جواده، ولكن هذه المراتب أي هذه التصرفات ذات الرفعة تم تنحيتها جانبًا في هذا العصر الحالي. وفي تاريخ سنة ١٠٤٠ هجرية[١] أتى «جان بك گراي خان» إلى «قيلبرون» التي تقع تجاه «أوزي» والتقى بالقبطان المرحوم «حسن باشا»، وفي هذه المرة، كان انحناء الخان أثناء المصافحة، ليس لتقبيل اليد، وإنما تجاوز مرتبة تقبيل ذيل الثوب. حتى أعطاه «حسن باشا» فأسًا فضية بيده، فقصد «جان بك گراي خان» لتقبيل يده ثانية، وبعد ذلك، ذكرت له المعاملة التي كانت بين «إبراهيم باشا» و«غازي گراي خان»، فقال: «هذه ليست نشأتنا الخاصة. والآن لم تبق التصرفات التي على هذا المنوال».

مجيء رجال وخراج «ميخال» المحتال والي الأفلاق

كان ولاة الأفلاق يقدمون باستمرار البغال من أجل عربات المدافع كمهمات للحملة الهمايونية، وفي هذه المرة أيضًا، بينما قام والي الأفلاق بإرسال مائتين أو ثلاثمائة بغل أثناء التوجه إلى حملة «پسپرم»، وصل الرجال من بلغراد من جانب الوزير عالي القدر إلى والي الأفلاق لطلب البغال ولتحصيل الخزينة ثانية، ولكن بسبب عدم إرسال والي الأفلاق هذه الأشياء على الفور، فقبل أن يتم التحرك من بلغراد، أصبح مستحقًا للعتاب والعقاب.

وبينما كان السردار في صحراء «يانق»، أتى الرجال من جانب والي الأفلاق، وأحضروا معهم أربعمائة رأس من البغال تقريبًا وخزينته المعهودة وبعض الهدايا اللائقة

---

(١) الموافق سنة ١٦٣٠ ـ ١٦٣١م.

بهم، ولكن عذر الرجال الذين أتوا بسبب أنهم لم يصلوا في وقتهم، وحملوا إلى ميدان العقاب لضرب رقابهم. ولما كان «محمد باشا» ابن السردار موجودًا في ذلك المكان، يقوم بتخليصهم من القتل بالتوسلات والرجاءات التي لا حصر لها، ولكن لا يقبل الوزير هديتهم أيضًا، ويأخذ الرجال الذين أتوا ويهددهم بالحبس قائلًا: «إن شاء الله تعالى بعد هذا، ستكون أول حملة لنا على الأفلاق، فما الداعي لإعطاء مملكة السلطان إلى كافر أو كافرين مهملين وبلا دين»، وبعد ذلك يطلق سراحهم في بلغراد، ويرسلهم بأمر شريف قوي وشديد اللهجة بهذا المضمون سالف الذكر. أما «ميخال» الضال فقد كان كافرًا سيئ الحال وكان متهيئًا للعصيان، فلما ضرب على يده من جانب السردار على هذا النحو قام في الحال برفع راية العصيان، وقتل أهل الإسلام الموجودين في مملكة الأفلاق. وإن شاء الله تعالى سيذكر ما جرى إجمالًا عن قريب.

فتح قلعة «يانق»

في ١٢ من المحرم الحرام سنة ١٠٠٣ هجرية، بعد أن تم النزول إلى صحراء «يانق» أقام السردار بها أكثر من شهر، واصطحبته عناية الباري؛ فقهر الطابور الضال وتفرق هذا الطابور، وبعد هذا، لما كان من الضروري الاهتمام الزائد بالقلعة، شرع أولًا بسحب التراب؛ حيث تم سحبه حتى بلغ حجم الجبال، ووضع على حافة الخندق، ولكن لما كان ذلك الوقت، بالأمر الإلهي، هو وقت فيضان نهر «رابه» الجاري في الخندق، فكلما أفرغ التراب فيه، كانت حركة جريان الماء تجرفه، وبعد ذلك، وزعت الأجولة الصغيرة والكبيرة على عسكر الإسلام حتى إن عسكر التتار كلفوا بذلك أيضًا؛ فكانوا يصنعون الأجولة من قماش «تاتا» و«المجر»، ويسوقون الجياد، ويأتون بها إلى قرب المتريس ويلقون الأجولة، وبعد ذلك ينقلها العسكر ويحضرونها إلى مكانها، حتى السردار بنفسه حمل وألقى في الخندق بعض الأجولة المملوءة بالتراب تبركًا ورغبة منه، ولكن لم يصبح ذلك مناصًا، ولم يسد ذلك النهر بهذه الطريقة، وعلى الفور قام بعض الغزاة الفدائيين الملقبين بلقب «سردن كجدى» بإقامة الكباري الصغيرة من ثلاث أو أربع

خشبات من خشب الصنوبر في مكان أو مكانين، وعبر منها القائمون بأعمال اللغم، وقاموا بالتلغيم. ولكن اللغم الأول اقتلع وجه الجدار فقط فقاموا بتلغيم ذلك المكان ثانية، وفي تلك الأثناء، ألقى جناب العزة الخوف والخشية في قلوب الكفرة؛ فأعطوا القلعة بالاستسلام، وكانت هذه هي حقيقة الوضع، فلم تكن أحوال عسكر الإسلام بالقدر الذي يخيف، فمن المؤكد أن ما ظهر كان معجزة حضرة حامي الرسالة عليه السلام لأن الكفار قبل أن ينهزم طابورهم، لم يكونوا محاصرين، ومحاصرتهم في الحقيقة كانت عشرين يوما فقط، وكان العبور على خشبتين أو ثلاثة أمرًا متعسرًا جدًا، وربما كان محالًا، فكم من الهجوم يلزم الغزاة الذين يعبرون بطابور مكون من أربعة أو خمسة أفراد حتى ينبغي أن يوفقوا بالفتوحات! فهي عناية حضرة الحق جل شانه فقط وهى حمايته لعسكر الإسلام التي تتجلى منه في كل وقت.

وكان الذين خرجوا من القلعة بالاستسلام حوالي عشرة آلاف كافر، وذهب الغروف أي الأمير الذي كان قائدهم باكيًا، وقائلًا: «أف لعسكر نمجه، فقد كانوا جميعهم مختبئين في كل ناحية، وإلا فإن مثل هذا العدد من المسلحين بالبنادق كان ينبغي عليهم ألا يجعلوكم تنظرون إلى القلعة»، ولم يحدث أي تعدٍّ على أموالهم وأملاكهم، وملئوا السفن، واندفعوا وذهبوا إلى ديارهم ديار الفجور، وبعد ذلك، قام الكفار بتجريد الغروف يعني الأمير المذكور من ملابسه، وصلبوه على الجدار، وفي هذا المكان استودع روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم.

محاصرة قلعة «قومران» وعودة عسكر الإسلام

لما دخلت قلعة «يانق» بعون الله تعالى إلى قبضة أهل الإسلام، قام السردار الجليل بإكمال جميع مهماتها، وترك مائتي ألف قطعة ذهبية نقدًا من أجل مرتبات الخدم، ووضع بها حوالي عشرة آلاف خادم، وأعطي إيالتها إلى «عثمان باشا» أمير الإسكندرية، ومنصب دفتر دارية المال إلى دفتر دار «بدون» السابق «محمد أفندي» المشهور بلقب «مسك كديسي».

وكان «عثمان باشا» المشار إليه رجلًا قويًا وجسيمًا. فمثلا نادرا ما يجد الحصان الذي يحمله، وكان قد اشتهر ببطولة تفوق جنس الأرناءوط.

وتوجه السردار الجليل من «يانق» صوب قلعة «قومران»، ولكن كانت قد حلت أيام الشتاء، واقتربت الأيام التي تعرف باسم «روز قاسم» أي بداية الشتاء، وكان قد بدأ الجليد الشديد والبرودة الجافة بالدرجة التى أدت إلى تجمد أيدي الناس وأقدامهم عن العمل، وأرسل السردار أولًا خطابًا إلى القلعة، وطلب من القلعة الاستسلام، ولكن الملاعين الذين بداخلها لم يستجيبوا لهذا النداء؛ وقالوا لذلك الرجل الذي أتى لهم: هل نحن نساء؟ فإننا أكلنا العلوفة من الملك من أجل هذا اليوم، وإنكم جلستم ثلاثة أشهر تحت «يانق» وانتصرتم بصعوبة، فاتصف هؤلاء بالتخنث، حيث تنازلوا عن القلعة بالاستسلام وما لم تصبح كل قطعة منا قدر أذننا وما لم تجرّوا كل واحد منا من ساقه وتخرجوه، فلن تصبحوا مالكين لـ «قومران» أبدًا ؛ فلا تأملوا في هذا.

وطبقًا لما أشيع بين الناس، كانوا سيعطونها إلى «حسن باشا»، ولكن السردار قال: «فليعطوها إلى ابني»، ولم يقبل أن يعطوها إلى «حسن باشا» حتى إن «عالي أفندي» و«حسن بك زاده أفندي» من أرباب التاريخ كتبوا في تواريخهم على هذا النحو، ومثل هذا الكلام ناشئ عن عدم معرفة حال الحدود، وعلى فرض أن السردار لم يقبل ذلك، فهل كان سائر عسكر الإسلام، وخصوصًا طائفة الخدم يرضون بتصرف السردار هذا؟! وهكذا فعلى فرض أنه ينبغي عليهم أن يعطوها ليس إلى «حسن باشا»، وإنما إلى زوجته أو جاريته، فليعطوها لأي منهم، فأي شأن ومسئولية تكون على السردار أو العسكر من هذا، فربما كان يظهر كمال الشوكة والغلبة لعسكر الإسلام.

وبعد أن تم النزول إلى قرب القلعة، عقدت المشاورات فيما يتعلق بإجراء المحاصرة أو عدم القيام بها؛ حيث كان يعتقد أن الكفار لن يعطوا القلعة بالاستسلام. ولكن بعد ذلك، وقع الاختيار على إجراء الحصار لدفع كلام الناس: «لم تحاصر القلعة، ولو حُصرت، كانت ستستسلم»، ولكن بدأت برودة الطقس تشتد بقسوة؛ ولم يعد لدى خيرة

العسكر الرغبة في محاصرة «يانق»، وأقدامهم وبصفة عامة تمت المحاصرة، ووضعت المدافع خلف المتاريس، ولكن كانت المتاريس لا تراقب ليلًا كما ينبغي؛ بسبب البرودة، فخرج الكفار مرة أو مرتين، وهجموا على المتاريس، وألحقوا ضررًا بالغًا بالغزاة؛ يعني أبطلوا مدفعًا أو مدفعين، وقاموا بإخراج أحد المدافع من المتاريس، وألقوه في خندق القلعة، وبالجملة رأى جند الإسلام أن فتحها صار متعسرًا؛ فتحركوا وعادوا صوب «بدون»، وقام السردار بتعيين ابنه مع عسكر الروم إيلي وقدر كاف من الإنكشارية على «بدون»، والمرحوم «أفندينا محمد باشا» مع عسكر الأناضول على «أستوني بلغراد»، وأمضى ما يقرب من ألف من جنود التتار الشتاء في صحراء «أستوني بلغراد» حيث بقي كل واحد منهم تحت معطفه في شتاء قارص على هذا النحو، وأبقي السردار قدرًا من التتار أيضًا مع «إدريس باشا» في «بابا» واتجه السردار إلى بلغراد.

في ذكر بعض من سوء تدبير السردار وأخطائه وتقصيره

إن العسكر الذين اجتمعوا في هذه الحملة المنصورة، لم يكن قد اجتمع مثلهم في حدود المجر في أي وقت قط، وكان يوجد من جند القبو قولي ثلاثون ألفًا، وكان قد أتى عدد من جنود الروم إيلي أيضًا بهذا القدر الذي لا يحيط حصره إلا الله تعالى فقط، وبسبب عدم تجريد أي حملة على بلاد المجر بعد المرحوم السلطان «سليمان خان» فقد كان كل شخص يشتاق إلى الخروج لتلك الحملة، وربما إذا قيل: إن تعداد المعزولين الذين أتوا، الأبطال الذين يريدون الغنيمة كانوا قدر عسكر الروم إيلي مرة أخرى. فإن ذلك يكون مناسبًا، وكانت طائفة المهاجين والطائفة المعروفة باسم «يورك» قدر عسكر إيالة أخرى، وكنت أسمع من لسان الخان عدة مرات الحديث عن عسكر التتار بقوله: «كنا قد أتينا مع مائة وخمسين ألفًا من جند التتار»، وعلى أية حال، فليس هناك احتمال أن يكونوا مائة وخمسين ألفًا، فإنه ليس هناك ريب في أنهم كانوا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين ألفًا.

وعندما كان الخان يريد أن يعرف عدد عسكر التتار، كان يعرفهم بسهولة بالغة فهؤلاء كانوا يحضرون إناء طعام لكل عشر أو اثني عشر رجلًا، وكانوا يطلقون عليه

«قوش» وكانوا يعرفون كم «قوش» يخرج من كل قرية، وعلى هذا التقدير كان يجد حسابه في الحال، وبالجملة كان العسكر الذين يطلقون عليهم عبارة «لا تسعهم أرض ولا سماء» عبارة عن العسكر الذين جمعوا الحملة «يانق»، وقام أرباب التيمار والإنكشارية الذين دخلوا إلى الحصون، وسائر العسكر بتضييع الوقت بلا فائدة، ولم يأذن السردار في أي يوم بالهجوم إلى هذا القدر العظيم من العسكر، ولم يرسلهم إلى مكان بعيد أو قريب. وكلما طلب حضرة الخان وسائر وكلاء الدولة الإذن بالهجوم، لا يأذن لهم، وكان يجيب بقوله: «بعدما نسحق أي مملكة بالأقدام، ما فائدة استيلائنا عليها؟ وماذا يعود على بيت مال المسلمين من المملكة المخربة؟ ولكن بعد أن يهزم طابور الكفار المقهور، قطعًا لن يأتي كافر إلى طريق عسكر الإسلام، وإذا قام عسكر الإسلام بالسبي والإغارة ليس إلى مدينة «بج» فقط، وإنما حتى مدينة «براغ»، كان ذلك بعون الله تعالى ممكنًا».

والخطأ الفاحش أيضًا هو أنه أمر بسبي ونهب مملكة «بدون» التي فتحها المرحوم السلطان سليمان خان، وكلما كان يشكو الناس من ذلك، كان يقول في كل مرة: «ما لم تخرب مملكة، لا تقام مملكة!»، ولم يبد أي اهتمام قط بهذا الأمر، ولم ينبه على الجند ولم يمنعهم، فعلاوة على أنهم قاموا بأسر الرعايا مع أهلهم وعيالهم، قاموا بإضرام النار في القرى، ولو قام «سنان باشا» بحماية هذه المملكة، كان لا يشعر أي شخص بالقلق؛ ولأن الكفار كانوا لا ينقلون هؤلاء الرعايا من أماكنهم، فإنهم كانوا سيصبحون غنيمة للعسكر وكانوا لا يتضايقون قط.

والقصة أيضًا هو أن كل الرعايا الموجودين من الشباب القادرين، صاروا قطاع طرق، وأصبح الوضع بأنه ما لم يجمع خمسمائة أو ستمائة رجل، كان لا يمكن المرور من مكان إلى آخر، وأيما يوجد من قلاع وقصبات، كانوا يغيرون عليها. وأحرقوا «زمون» التي تقع تجاه «بلغراد» مرة أو مرتين، وأخذوا الخراج من طواحين «بلغراد» وعمومًا كانت القلاع والقصبات الموجودة على طول «بدون» وحتى بلغراد وكأنها محاصرة، فكان لا يستطيع أي شخص أن يذهب من مكان لآخر، وإنني هذا العبد العاجز، كلما

جن الليل في منزلنا الفقير في «بجوى» كنت أتقلد سيفي منذ المساء، وأضم بندقيتي إلى صدري، وأنام على هذا النحو، وصفوة القول: إن المصيبة التي أصابت هذه المنطقة الحدودية قد تفشت لعدم حماية الرعايا، ومن حكمة الله تعالى أنه في الوقت الذي كان فيه السردار شيخًا وقورًا وصاحب دراية بالأمور على هذا النحو، أجاز هذا الظلم والجور، ولم يحاسب في هذه الدنيا على ما فعله، ولكنه من المؤكد لن يستطيع الإجابة على ذلك أمام الحق تعالى.

والخطأ الآخر الذي قام به «سنان باشا» أنه لم يحسن معاملة ولاة الأفلاق والبغدان؛ مما جعلهم يشقون عصا الطاعة، وهناك العديد من سوء تدبيره لم يعرف أيضًا في تلك الأثناء، وظهر قبحه بعد ذلك، وإذا فصل جميعه سنكون قد أطلنا كثيرًا، ومن المؤكد أيضًا أن إطالة مدة الحملات المقصود تأخيرها في مكان الغزوة هي من آثار سوء تدبيره. ويأتي على رأسها جميعًا عدم حماية الرعايا، وانتصار الكفار بكل وجه، ومع أنه أبرم الصلح في النهاية، فإن هذا الصلح لم يكن بمقتضى الكرامة الإسلامية.

عصيان أمير البغدان واستشهاد «مصطفى باشا»

لما تقررت حملة بلاد المجر أرسل إمبراطور النمسا المعروف باسم «جاسار» الخطابات إلى جملة أمراء الكفار، ولما كَتب عديم الدين «ريم بابا» ـ الذي كان رئيسًا لقساوسة الضلال ـ بعض النصائح الممزوجة بالكفر وبعض الرسائل المخلوطة بالضلال والفتن لحمل النصارى على الاتفاق والاتحاد، وبعد أن قام بأنواع التهديد والتأكيد، اتفقت «أردل» و«الأفلاق» و«البغدان» فيما بينهما على وجهة واحدة ورأي واحد، وقرروا إعلان العصيان، وبدءوا في الهجوم على القصبات والقرى الواقعة بساحل «طونه». وفي ذلك الحين، قام «فرهاد باشا» بعزل والي «البغدان» الذي كان واحدًا من الرجال الذين قبض عليهم «سنان باشا»، وعهد بمكانه إلى الغلام الشاب ابن أمير «بغدان» وكان ذلك الغلام قد تربى في دار خزينة «فرهاد باشا»، ووفقًا لقول البعض: كان قد أصبح مسلمًا أيضًا. فإنه كان قد ارتد عن الإسلام بسبب طمعه الزائد. وعمومًا فقد أرسل «فرهاد

باشا» كرسيًا من نوع «إسكملة» و«چاوش» مع رئيس البوابين إليه كالعادة، ولكن الأمير السابق أظهر العصيان، ورد الذين أتوا على أعقابهم، وعلى هذا طلبوا المدد من الآستانة؛ فقام «فرهاد باشا» بتعيين «مصطفى باشا» المعزول من «مرعش» والذي كان أمير أمراء في الفترة التي كان يشغل فيها الوزير الأعظم «سنان باشا» رتبة «كتخدا»، مع مقدار من العسكر، حتى إنه كلف أغاواته المتصرفين على مقاطعات الزعامة التي يبلغ دخلها السنوي خمسين ألف أقچة بالانضمام إلى «مصطفى باشا»، وذلك بقصد إنقاذهم من ديونهم التي كانت عليهم للخزينة، وأرسلهم على العصاة، ولما وصلوا إلى الموضع المكلفين به، كان قد عاد الخان عالي الشأن أعني «غازي گراي خان» من حملة «يانق» واقترب إلى ذلك المكان، فلم ينتظروه ولم يطلبوا منه أيضًا المدد، ولما حملوا على العصاة، قتل أمير الأمراء «مصطفى باشا»، وانكسر وخذل معظم الجنود المميزين الذين كانوا بجانبه، وبعد ذلك ازداد طغيان العصاة يومًا بعد يوم.

التحقيق في عصيان «ميخال» الضال

سنة ١٠٠٣ هجرية[1]، بينما كنت أنا العبد العاجز [المقصود بچوي] دفتر دار «طونه» كانت هناك قصبة صغيرة تابعة للقرية المعروفة باسم «پازارجق» في «دوبريچة» وكنا قد نزلنا بها، وكان قاضيها رجلًا عجوزًا يعرف باسم «علي خان أفندي»، فأتى والتقى بي، وفي أثناء حديثنا، وبينما كان يتحدث عن الوقائع، وعن عصيان «ميخال» الضال روى ما يلي:

كان عدد الدائنين لـ «ميخال» الضال في «بوكرش» دار إمارة أمراء «الأفلاق» ربما أكثر من أربعة آلاف رجل، وكان معظمهم من الإنكشارية وخدم الأكابر. وكانوا يخرجون على المذكور عديم الدين كل يوم، ويقذفون سراي الأمراء التي يطلقون عليها في لغتهم «قورطة» بالحجارة، ويخربون بعض الأماكن فيها، وينهبون الأثواب

(١) الموافق سنة ١٥٩٥م.

التي يستولون عليها، ويضربون رجالها الموجودين ببابها ويصيبونهم بالجراح، فأثروا في معنوية الملعون؛ فقام بجمعهم ذات يوم وقال : «إذا قتلتموني، تضيع أموالكم. تعالوا واسمعوا كلمتي، إنهم يطلقون على كل وحدة إدارية في ممالك الأفلاق اسم «قاضي لق». فلتلتحق كل مجموعة من الرجال برجل من رجالي، وأحضروا المال الذي تحصلونه، وخذوا قدر حصتكم من هذا المال»، وعلى العموم، فبعد قدر من اللجّ والعناد، يرضى هؤلاء، وبهذه الطريقة يوزع من هؤلاء حوالي خمسمائة رجل.

وقد ارتكب هذا التدبير فقط من أجل الخلاص من ثقل تصرفاتهم لعدة أيام، وبعد مضي عدة أيام، كانوا قد حصلوا هذا المال، وعادوا. وفي هذه المرة يقول: «هذا المال لا يكفي لسد كل الدين، أولًا؛ ينبغي أن نحسب ديوننا، ونقسمها بالتساوي طبقا لدينكم»، وقد ارتضوا بهذا بعد عناد كثير أيضًا، ويقول «ميخال» أيضًا: «فليأت قاضي «يركوكى» للقيام بالحساب. فكلما تكون هناك دعوى على هذا النحو من أهل الإسلام في الأفلاق، يأتي قاضي «يركوكى»، ويكلف بالفصل فيها بالأمر الشريف». وبناءً على هذا، أرسلوا في هذه المرة أيضًا عربة من نوع قوچى ورجلًا إلى قاضي «يركوكى». وإنني هذا الحقير «علي خان أفندي» كنت نائبًا في «يركوكى» ومن حكمة الله، أن قاضينا كان مريضًا قليلًا؛ فأرسل عبدكم [علي خان] مكانه ووصلنا إلى «بوكرش»، وقمنا بالحساب لمدة يوم أو يومين، وكان الحساب قد أجري بهذا السبب: فمثلًا يأتي رجل ساذج، ويبرز سنده على ستين حمل أقچة. ويقول «ميخال»: «حقيقة، السند ملكي ولكن ماذا أعطيت لي، اشرح لي أنواعه، وها هي الستون حمل أقچة». وبعد لج وعناد، يجعل هذا الرجل يرضى بشرح أنواعه، فيقوم هذا الرجل بشرح أنواعه، مثلًا، عشرة أحمال نقدًا، والخناجر المرصعة عشرين حملًا، وأطقم السروج خمسة أحمال، وقس على الباقي حتى يصل إلى الستين حملًا، وفي النهاية يقول «ميخال» للدائن: «أنت مسلم ولست قادرًا على إثبات قيمة هذا، ومعلوم لي ولك أنك قد أعطيت كل ما أعطيته بأكثر من سعره بثلاث أو أربع مرات»، فقال: «فالخنجر الذي أعطيته على أنه عشرون حملًا، ينبغي أن أعطيه لك خمسة أحمال أو ثلاثة أحمال». وصفوة القول: إنه بعد كثير من القيل والقال، يقتنع الرجل بأن

الستين حملًا هي ثلاثون أو أربعون حملًا، ويأمر القاضي أفندي بالتسجيل قائلًا: «قاضي أفندي، اكتب»، ويأمر كاتبه أيضًا بالكتابة، ولم يدخل في الحساب قط الديون التي كانت أقل من عشرة أحمال، وقال: «إن ذلك أسهل ما يكون». وخلاصة القول: فقد وصل دينه بهذه الطريقة إلى ستة آلاف حمل أقچة.

وإنني هذا الفقير لما خرجت إلى الولاية، تصادقت مع الكافر الذي كنت أعرفه من قبل، فكلما كنت آتي وأذهب، أنزل إلى داره، وأحيانًا كنت أساعده في بعض أموره. فدنا مني وقال: «علي خان خواجه، منذ كم سنة ونحن نأكل عيشًا وملحًا معك؟»، فقلت: «منذ عشرين عامًا» فقال: «الآن ينبغي أن أردّ حق الخبز والملح. فاسمع ما أقوله لك». فقلت: «ماذا هناك؟». فقال: «لو تسمع كلمتي، لا تبق هنا حتى العصر، واذهب إلى «يركوكى» ولا تفكر. والآن ابذل ما في جهدك لأن تكون في «روسچق» وتعبر من «طونه» سريعًا». فقلت: «وما السبب؟». فقال «ماذا قلت لك؟ إنك تسأل عن سببه!». فقلت «ألم تقل هكذا؟!». قال: «إنني مرات كثيرة أتحدث هذيانًا وأحيانًا يغلب عليّ الجنون». ولم أستطع أن أجعله يكرر هذه الكلمة التي قالها من قبل.

ولكنني رأيت أن المدينة ليست مثل الأول، فمثلًا يوجد بها حركة وازدحام وتجمعات. وليس هناك كافر قط في وضع سكون، فركبت على الفور العربة من نوع «قوچى» وذهبت بسرعة بالغة، ووصلت إلى «يركوكى». وأسرعت إلى القاضي لأقصّ عليه الأحوال، وربما في الساعة التي خرجت فيها من «بوكرش» قام الملاعين بقتل عام للمسلمين الذين كانوا بها وصاروا طابورًا طابورًا وأتوا إلى «يركوكى» وعندما رأيت هؤلاء، لم أجد وسيلة سوى أنني تجردت من ملابسي، ولأنني كنت سباحًا ماهرًا، عبرت نهر «طونه» عائمًا وقام شخص آخر غيري بالعبور أيضًا. وكان يبلغ عدد سكان «يركوكى» سويا مع نسائهم وصبيانهم حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف شخص. فلم تنج منهم روح سوى كلانا، وتم اغتنام الأموال والثروات الكثيرة وأسرت النساء والرجال وأحرقت القصبة أيضًا.

ترك المرحوم والمغفور له السلطان «مراد خان» السلطنة الدنيوية في جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ هجرية[1]

آه، أيها الفلك الظالم، الشكوى من قبضتك

أخذت «مراد» وجعلت الدنيا بلا مراد

بينما لم يكن هناك ما يرجى من هذا الفلك الضال، ولا يوجد المكان الذي يمكن الإقامة فيه براحة بال في هذا العالم الفاني، يظن كل شخص أنه اكتفى بالمجد الذي وصل إليه، وفي النهاية يشرب كأس الموت، وقطعًا يرحل السلطان وشحاذه قبل أن يصل إلى مراده. فقد جاء لهذا العالم، من قبل هكذا، ويذهب هكذا.

وعموما، فقد انحرف المزاج الشريف للسلطان المغفور له في جمادى الأولى من السنة المذكورة، ولم يفد طب الأطباء، وكل الدواء والعلاج الذي أعطوه له لم يأت بنتيجة سوى اشتداد المرض، وفي النهاية، ترك السلطنة الفانية في اليوم السادس من الشهر المذكور الموافق يوم الأحد[2]، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ويروى أنه في بداية انكسار زجاج مزاجه اللطيف، كان قد شرف القصر المشئوم الذي شيده «سنان باشا»، ودائمًا وبحسب عادته الهمايونية، كان العازفون والمنشدون لأغاني الشرقي[3] والتركو[4] بالألحان العزبة يوجدون داخل مجلسه الهمايوني، وفي هذه المرة أيضًا دخلوا كالعادة، وقبل ذلك كان نادرًا جدًا أن يأمر السلطان الحاضرين بقوله: «فليترنم فلان بالمربع وفلان بالشرقي». ولكن في هذه المرة، وقبل أن يجلس بحسب آداب مجلسه الهمايوني أمر بإنشاد المقطع: «أيها الأجل إنني مريض، فانتظر هذه الليلة، وخذ روحي»؛ يعني جعل حاضريه يشعرون بانحراف خاطره العاطر، وفي تلك

(١) الموافق ١٢ـ١ / ١٠ـ٢ـ١٥٩٥م.

(٢) الموافق ١٧ـ١ـ١٥٩٥م.

(٣) هو نوع من أنواع الفلكلور الشعبي التركي الذي عرف بين عامة الشعب.

(٤) هو أيضًا نوع من أنواع الفلكلور الشعبي المنظوم الذي ذاع صيته بين عامة الشعب.

الأثناء، أتت سفينتان من نوع «قادرغة» من سفن الإسكندرية، وأطلقت مدافع البهجة تجاه القصر الهمايوني كالعادة، وكانت العادة أنه كلما أتى هذا العدد العظيم من سفن الأسطول من نوع «قاليون» و«بارجة» إلى ذلك المكان، كانت تطلق المدافع الكبيرة من نوع «باليمز»، ولم تشاهد آثار للارتجاج في أي جانب من القصر. ولكن في هذه المرة سقط زجاج النافذة التي يجلسون تحتها، حتى سقط بعضه على المقعد الذي يجلسون عليه، ولما أطلقت مدافع البهجة في المرة الثانية، تزلزل كل القصر حتى أصابهم جميعًا الخوف والفزع، وسقط زجاج معظم النوافذ التي في القصر، وملأ فتاتها ساحة القصر، فقال السلطان: «هذا كافر، هل سيهدم القصر»، وبعد ذلك غاص في بحر التفكير فترة، وقال: هذا دليل على مجيئنا الأخير إلى هذا القصر»، وامتلأت عيناه المباركة بالدمع، وانهمرت قطرات الدموع على لحيته المباركة، وأظهر غاية الحزن والانكسار.

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان «محمد الثالث»

١٠٠٣ ـ ١٠١٢هـ = ١٥٩٥ ـ ١٦٠٣م

في ذكر سلطنة السلطان «محمد خان» ابن السلطان «مراد خان» رحمة الله تعالى عليه

كان مولد سعادته عام ٩٧٦ هجرية[١] في بلدة «مغنيسيا»[٢]، وكان جلوسه الهمايوني على العرش في ١٦ من جمادى الأولى الموافق يوم الجمعة من سنة ثلاث بعد الألف[٣] عندما توفي المرحوم السلطان «مراد»، فعلى إثر وصول «بوستانجي باشي فرهاد أغا» إلى بلدة «مغنيسيا» التي كانت السنجق الهمايوني لـ «محمد خان»، وتبشيره ببشرى السلطنة، قام السلطان «محمد خان» بالإحسان عليه بإيالة «مصر»؛ نظرًا لأنه صرف ما في وسعه في خدمة الركاب الهمايوني للسلطان أثناء توجهه إلى «إستانبول» أيام الشتاء، وبعد ذلك وبناءً على طلب «فرهاد أغا» أمر السلطان «محمد خان» أن يعين على منصب «بوستانجي باشي» مدى الحياة. وكانت الفلوري[٤] التي قام بتوزيعها وإحسانها في أثناء الطريق، تزيد في معظم الأيام عن العشرين ألفًا، وأحسن بإيالة «قبرص» على أمير السنجق الذي شرف السلطان «محمد خان» سفينته «القادرغة» في ميناء «مودانيه»، وكان مجدفو تلك «القادرغة» حوالي مائتين «فورسة»[٥] فأطلق سراحهم جميعًا. ولبّى رغبات رؤساء «القادرغة» وأفراد بحريتها ولونداتها ومقاتليها بإلحاقهم بخدم الترسانة العامرة، ولما علم بعض الإنكشارية الوضع عند الميناء المذكور، عرضوا له حالهم، وعلى هذا أمر بأن يصير جميعهم في وظيفة حارس.

وبعد ذلك وصلوا في اليوم المذكور، وقت شقشقة الطيور، إلى قصر السلطان بايزيد الواقع بقرب السراي الجديد، وما إن خرجوا من «القادرغة» ودخلوا إلى السراي العامرة حتى وضع العرش الهمايوني المقرون بالسعادة في ميدان الديوان في المكان المعتاد،

---

(١) الموافق سنة ١٥٦٨ -١٥٦٩م.
(٢) هي مركز ولاية «صاروخان» في العصر العثماني.
(٣) الموافق ١٧ -١-١٥٩٥م.
(٤) هي عملة هندية.
(٥) الفورسة هم من مجدفي السفن من أسرى الحرب.

وتم الجلوس الهمايوني للسلطان «محمد خان» في أسعد الأوقات وهو في غمرة العزة والسعادة والشوكة وأتى الوزراء والعلماء والأعيان والشرفاء وعموم أهل الديوان والطوائف المعروفة باسم خدم الباب، وقاموا بمبايعته، وتم أمر البيعة في ذلك اليوم بعد الخروج من صلاة الجمعة.

وفي اليوم نفسه أيضًا، أخرجت الجنازة المزدانة بالرحمة للسلطان المغفور له المرحوم السلطان «مراد» بعد وقت العصر، وأديت الصلاة عليه بإمامة مفتي العصر والأوان «بوستان زاده أفندي»، وربما كان قد أخذ «خواجه سعد الدين أفندي»[1] الإذن من جناب السلطان الجديد بأداء الصلاة عليه قائلًا: «هي خدمتي الأخيرة للمرحوم»، ولما أراد السلطان «محمد» إعادة الصلاة قائلًا: «ليست جائزة إمامة بوستان زاده»، أجاب «بوستان زاده أفندي» وقال: «صدر الإذن الهمايوني باقتداء السلطان بالإمام، فلا تجب الإعادة»، وعلى هذا حملوا جنازته المحفوفة بالرحمة ودفنوه بتربته الشريفة، وبعد الدفن قاموا ببناء تربة عليه.

وفي تلك الليلة أخذ التسعة عشر أولياء العهد الأبرياء من أحضان والداتهم طوعًا وكرهًا، وأوصلوهم إلى رحمة الرحمن، وفي اليوم التالي، أديت الصلاة عليهم أيضًا بإمامة مفتي الأنام وشيخ الإسلام «بوستان زاده أفندي» ودفنوا تحت قدم أبيهم ككنز مخزون، رحمة الله تعالى عليهم.

تعيين «فرهاد باشا» وزيرًا أعظم وتنصيبه سردارًا إلى جانب الأفلاق[2]

في سنة ١٠٠٣هجرية[3]، على إثر تقرب «فرهاد باشا» ـ الذي كان قائم مقام[4]

(١) تولى مشيخة الإسلام في عهد السلطان «محمد الثالث» وهو صاحب الإثر التاريخي المعروف باسم «تاج التواريخ».

(٢) هي واحدة من الممالك التي تشكل دولة رومانيا في شبه جزيرة البلقان، ويحدها من الشمال البغدان وألبانيا.

(٣) الموافق سنة ١٥٩٤-١٥٩٥م.

(٤) وهو الشخص الذي يحل محل الصدر الأعظم في مركز السلطنة، وذلك أثناء خروج الصدر الأعظم على رأس الحملات.

الصدارة أثناء جلوس السلطان محمد على العرش - إلى الجناب السلطاني؛ حيث كان مكلفًا برفع العروض الخاصة واللازمة للعرض على السلطان، فقد عهدت إليه الوزارة العظمى وأسند إليه الختم الجديد باهر التأييد، وأرسل رجل إلى «سنان باشا» لأخذ الختم القديم منه؛ حيث صدر الفرمان بإبعاده إلى «معلقره».

وفي هذه الأثناء قام أشقياء الأفلاق العصاة مع «ميخال» الضال بعبور نهر «طونه»[1] من فوق الثلج في ذلك الشتاء، وضربوا بلدة «روسچق» وكل ضواحي وقرى تلك النواحي، وأسروا وسبوا أعدادًا لا حد لها ولا حصر من نسائهم وصبيانهم، وقتلوا معظم رجالها وقيدوا بالسلاسل أصحاب المال والملك فيها، ولما عرض فسادهم وشناعتهم على الركاب الهمايوني السلطاني، نصّب المشار إليه «فرهاد باشا» سردارًا على جملة عسكر الإسلام، وكُلف بالذهاب إلى ذلك الجانب في ربيع الأول.

تعيين «محمد باشا» أمير أمراء الأناضول سردارًا لحماية ناحية «بدون»[2]

في العام نفسه، لما كلف عموم عسكر الإسلام في هذه السنة المباركة بالتوجه إلى عاصي الأفلاق مع السردار عالي المقدار المقصود «فرهاد باشا»، وردت الأوامر والأحكام والبراءة عالية الشأن إلى المرحوم «أفندينا لالا محمد باشا» أمير أمراء الأناضول لحراسة حدود «بدون» بقدر الإمكان؛ حيث صدر الأمر القائل: «بسبب تكليف الوزير الأعظم بالتوجه مع عسكر الإسلام صوب عاصي الأفلاق بحسب ووفق الوقت المناسب في هذه السنة المباركة، فيجب عليك أن تصبح سردارًا وقائدًا على عسكر الإسلام الموجودين في تلك النواحي [المقصود الأناضول]، وأن تجدّ وتسعى في حفظ الثغور وحراستها [المقصود حدود «بدون»]»، وقد وصلت الأوامر الشريفة أيضًا إلى أمير الأمراء والأمراء الموجودين في الثغور بهذا المضمون السابق.

---

(١) وهو نهر مشهور يصب في البحر الأسود.

(٢) تقع في بلاد المجر.

وبعد ذلك تحركنا من «أستوني بلغراد»، ووصلنا إلى «بدون»، وكان الوزير «محمد باشا بن سنان باشا» أمير أمراء الروم إيلي في محافظة «بدون» فإنه على إثر توجيه الروم إيلي إلى الوزير «حسن باشا بن محمد باشا» الذي كان في محافظة «بدون»، تحرك ابن «سنان باشا» من «بدون» متوجهًا إلى «بلغراد».

في ذكر تجاوزات جنود الفرقة المعروفة باسم بلوك خلقى عن الحد وإنزال العقاب بهم

بينما كان «فرهاد باشا» يبذل سعيه وإقدامه لإعداد مهمات الحملة كيفما يشاء، تصادف أنه بينما كان يخرج ذات يوم من الديوان، ويذهب إلى داره، قام ما يزيد على الألف من طائفة أبناء الخدم الذين كانوا مكلفين بحراسة «گنجه»[1] بشرط الخدمة في البلوك لمدة ثلاث سنوات، بالخروج في وجهه، كما قاموا بتقديم الرجاء والإبرام قائلين: «قطعًا يجب أن تسجل أسماؤنا في دفاتر الآستانة بموجب شرطنا، ويجب أن توزع علينا علوفتنا مع سائر جند القبو قولي»، ولما رد الوزير المومأ إليه عليهم بقوله: «ستعطي علوفتكم من خزينة «گنجه» و«تبريز»[2] وهذا هو أمر السلطان حامي العالم، فلماذا لا تمتثلون لهذا الأمر؟»، بدأ الخدم يردون عليه بالكلمات غير المناسبة، فيجيب «فرهاد باشا» بخشونة قائلًا: «إن الذي لا يمتثل لأمر السلطان، كافر وزوجته تكون عليه طالق فاحذروا من المخالفة». وينتشر هؤلاء أيضًا أي طائفة أبناء الخدم بين سائر «بلوك خلقي» ويضلونهم ويغوونهم قائلين: «لقد قام فرهاد باشا بتكفيرنا جميعًا».

وفي اليوم التالي، كان يجب إعطاء المعاشات؛ فأخذ أفراد الإنكشارية علوفاتهم. ولكن طائفة السباهية تجاوزوا الحد وتهجموا قائلين: «إننا لن نأخذ العلوفة ما لم تقطع رأس فرهاد باشا»، فأرسل إليهم «فرهاد باشا» «جاوش باشا» وكتخدا طائفة القبوجية

(١) قلعة تقع في إيران.
(٢) مدينة تقع في إيران.

من الديوان، ولكن العصاة لم يعطوهم الفرصة للكلام قط، وقاموا برجمهم بالحجارة. وبصفة عامة، لم تفد أي محاولة؛ سعيًا لدفعهم، ومع أن «فرهاد باشا» قال: «فلنعط أيضًا علوفة خدم گنجه، ولنسرع بتسجيلها في دفاتر المقابلة». ولكن هذا لم يفد أيضًا. ووقفوا مصرين على قولهم: «لن نترك العصيان إلا برأس فرهاد باشا».

وقام «فرهاد باشا» بتحرير تلخيص بما جرى للسلطان صاحب السعادة، فصدر الفرمان من الجانب السلطاني بأن يصل قضاة العسكر إليهم وينصحوهم، وكان قاضي عسكر «الروم إيلي» في ذلك الحين الشاعر الماهر «باقي أفندي»[1]، أما قاضي عسكر الأناضول فكان «أبو السعود زاده أفندي»، فعندما وصلا إليهم، لم يصغ لهما العصاة قط، وأصروا على عنادهم وقالوا: «رأس فرهاد باشا».

وفي النهاية، قام «فرهاد باشا» بتلخيص الأمر إلى السلطان حيث قال في تلخيصه: «إن كلامي هو أنني قلت: إن الذي لا يمتثل لأمر السلطان هو كافر». فإنني لم أكفرهم جميعًا على الإطلاق، وبذهاب رأس خادمكم هذا، فلن ينقص وزير لسلطاني ولكن إذا سُمح لهؤلاء بهذا الكلام، فسوف يقومون بهذا الفعل في كل وقت، وسيتجاوزون أكثر من ذلك، فإذا رضي السلطان، يكون التدبير للقضاء على هذه الفتنة على هذا النحو: عندما يدخل أغا الإنكشارية للعرض فلينبه عليه السلطان شخصيًا بأنه ينبغي أن يأخذ الإنكشارية مواقعهم عند الباب الهمايوني بآلات الحرب، وأن تكون طائفة بوستانجي أيضًا مستعدة عند باب الحديقة، وعندما يُعطى لهؤلاء أمر السلطان، فلتقم طائفة «بوستانجي» وطائفة الإنكشارية بضربهم بإحكام وتشتيت جمعهم.

ولما دخل الأغا للعرض، قام السلطان بإبقاء الوزير الأعظم في قاعة الديوان في ديوان خانة، وسمح لبقية الوزراء بالتوجه إليهم أي إلى العصاة من طرفه، إلا أن طائفة البلوك خلقي لم تصغ لهم أيضًا؛ بل قاموا برجم الوزراء. حتى جرحوا رأس «داماد خليل باشا» وأدموا ذراع «لالا باشا»، فصدر الفرمان إلى الإنكشارية وطائفة البوستانجية بالضرب؛ فقاموا بضربهم وتشتيتهم بالدرجة التي لم يبق فيها أثر قط من العصاة.

(١) هو من شعراء القرن السادس عشر، وكان يشغل منصب «باش دفتردار».

وبعد الظهر أتى الوزراء وسائر أهل الديوان كل منهم إلى مقامه وهم مسروررون وممنونون، وما إن وصل «فرهاد باشا» إلى قصره حتى رفع عرضًا إلى السلطان يقول فيه: «إن «سنان باشا» و«جغالة زاده» هما اللذان بعثا على هذه الفتنة، وأحدثا هذا الوضع، وهما اللذان أضلا وأغويا طائفة الخدم»، فأمر السلطان صاحب السعادة في الحال بأن يعاقب «سنان باشا» بتمرير سيخ من حديد مشتعل أمام عينيه، ونفي «جغالة زاده» عن البلد، وفي الوقت الذي كان فيه «فرهاد باشا» يقوم بتنفيذ هذا الأمر، قام أتباعه بمنعه قائلين له: «بينما لم يحدث هذا الأمر القبيح في هذه الدولة العلية حتى الآن، فان إحداثكم له وانتشار سيئاتكم تلك على ألسنة الناس، ليست مناسبة، وربما يصبح هذا الفعل عادة عند السلاطين، وبعد ذلك تصبح أنت السبب لوقوع مثل هذه المصيبة إلى أعين بعض الأبرياء». وهكذا قاموا بنفي «سنان باشا» إلى «معلقرة» و«جغالة باشا» إلى «قره حصار شرقي».

توجه «فرهاد باشا» إلى جانب الأفلاق وعزله، ثم قتله بعد ذلك

تم ذلك في العام نفسه. لما حل فصل الربيع، قام السردار المكلل بالنصر بالتوجه مع عسكر الإسلام؛ يعنى خرج بالكر والفر في اليوم السابع عشر من شعبان سنة ١٠٠٣ هجرية من القسطنطينية المحمية. ولما كان «إبراهيم باشا» وزيرًا ثانيًا، نصب قائم مقام. إلا أن قلب إبراهيم باشا لم يكن صافيا لـ «فرهاد باشا»، وفي الواقع، كان رجلًا مخادعًا ومساومًا، فأحيانًا كان يظهر نفسه في شكل إنسان أبله، وكان الذين يرونه يقولون: عجبًا؟ إنه رجلٌ أحمق وربما أبله، وفي أحيان أخرى أيضًا كان يظهر المعلومات والحيل العظيمة، فكان الذين يرونه يقولون: عجبًا ليس هذا هو «إبراهيم باشا» الذي نعرفه. وكان رجل دولة ذا أوضاع وأمزجة متقلبة، وطبيعته هذه قاصرة عليه فقط، ولو فصلت بعض أحواله التي شاهدناها وسمعنا بعضها من الثقات لكانت توجب العبرة. ولكننا نتجنب الإطناب والتفصيل.

وعمومًا كلما سعى «فرهاد باشا» في وصول العسكر، وعرض على الباب الهمايوني وأطلعه على الأمر، كان «إبراهيم باشا» يقول: «إننا نسعى لتوفير الطلبات بشكل يفوق الحد»، وفي النهاية لما زاد السعي في طلبات الجند من قبل «فرهاد باشا»، عرض «إبراهيم باشا» الأمر على الركاب الهمايوني بقوله: «لقد أعرض العسكر عن «فرهاد باشا»، حتى لو أعطيت حوالة لكل فرد أو قطعت رءوس معظمهم، فلن تذهب البقية الباقية منهم إليه مرة أخرى وإنني خادمكم لا أريد السردارية ولا الوزارة العظمى حتى لا يُحمل كلامي على غرض»، وقام شيخ الإسلام «بوستان زاده محيي الدين أفندي» وقاضي العسكر «باقي أفندي» و«جراح باشا» و«حسن باشا» و«جغالة زاده» من الوزراء بعرض وإبلاغ سلطان الأنام باتفاق الكلمة بينهم في هذا الموضوع.

وفي تلك الأثناء أرضت بعض أكياس ذهب «سنان باشا» كاملة العيار رجال الدولة الكبار الذين كانوا مسموعي الكلمة، ولهذا استطاع أن يصل إلى منصب الصدارة ثانية قبل مرور خمسة أشهر على عزله، وسدد مخلبه لقطع عرق «فرهاد باشا» [أي شنق] واستصدر الأمر بتعيين كتخدا طائفة البوابين ليتسلم الختم الشريف ويحضره إليه، وأمر بموجب خط شريف بإزالة وجود «فرهاد باشا» إذا أتيحت الفرصة له. وكانت قد وجهت مملكة الأفلاق إلى «ساطورجي محمد باشا» كإمارة أمراء، ولما كان «ساطورجي محمد باشا» في «روسچق»، صدر فرمان إليه بمصادرة الخزينة والجبة خانه الموجودة بحوزة فرهاد باشا.

ولكن رجال «فرهاد باشا» كانوا قد وصلوا بهذا الخبر المؤلم قبل كتخدا طائفة البوابين بيومين، وكان مجموع خدمه وأتباعه ثلاثة آلاف رجل، وبينما لم يكن هناك علم عن هذا الأمر لدى أي شخص من العسكر الذين كانوا مجهزين بآلات الحرب والقتال، أمر «فرهاد باشا» بإحضار «ساطورجي باشا» وقام بتسليمه الختم الشريف والخزينة والأشياء الأخرى، وقال له: «لقد عزلنا». وامتطى «فرهاد باشا» جواده واتجه إلى الآستانة.

وبعد يومين وصل كتخدا طائفة البوابين إلى الجيش الهمايوني، وعرض مع «ساطورجي» ما جرى على «سنان باشا»، وكان «سنان باشا» لا يزال في «إستانبول»، وفي هذه الأثناء، كان قد أتى عسكر الشام للتوجه إلى الحملة، وعمل «سنان باشا» على استصدار فتوى تقوم على اتهامه بما يلي: «إنه عندما جاء بعض المستغيثين من سواحل «طونه» إلى «فرهاد باشا»، وقالوا له: «إن أهَلنا وعيالنا سقطوا أسرى للكفار، وفوق هذا، فإنهم يقدمون القدح لنسائنا وبناتنا في مجالسهم، فأين ناموس الإسلام وغيرته؟»، رد «فرهاد باشا» عليهم بغضب وعنف قائلًا: «يا، هل كان أسركم نساءهم وبناتهم أمرًا مستحسنًا؟». وعلى هذا وجب استصدار الحكم الشرعي بتكفيره وقتله.

وفي الوقت الذي كانت فيه عداوة وخصومة شيخ الإسلام «بوستان زاده» لـ «فرهاد باشا» بادية نوعا ما، وكان تقربه لـ «سنان باشا» على نحو يصل إلى درجة الأخوة، أمرًا مؤكدًا؛ فقد شاع أن «سنان باشا» أعطي في هذه المرة ثلاثين ألف ذهبية إلى شيخ الإسلام من أجل الفتوى، وهكذا قام «سنان باشا» بإرسال جند الشام إلى «فرهاد باشا» بالأمر الشريف الذي استصدره بموجب هذه الفتوى الشريفة، ووعدهم بآلاف الوعود واستمالهم بأنواع الاستمالة قائلًا لهم: «ماله لكم، ورأسه للسلطان صاحب السعادة». وبينما كان «فرهاد باشا» يحمل خزينته على القوافل متوجهًا إلى الآستانة، يصادف جند الشام القافلة، فيقومون بسلبها ونهبها بلا تردد، حتى إنهم يقولون: كان «فرهاد باشا» يشاهد ما حدث من مكان مرتفع، وبعد ذلك هرب قاصدًا جبال «إسترانجه»؛ حيث أفدى نفسه عند والدة السلطان بما لديه من نقود وجواهر؛ فاستصدرت «والدة السلطان» خطًا شريفًا مضمونه: «عُفي عن ذنبه» وأرسلته إليه، وبعد ذلك أتى «فرهاد باشا» واختفى في حديقته القريبة من «إستانبول».

وبعد فترة، قام «إبراهيم باشا» بحيلة أخرى، فأخذ خنجره الثمين بواسطة «آلامان أوغلو»، ومقابل ذلك أسرع بالحصول على الإذن الهمايوني بالإقامة في مزرعته بلا خوف، ولما ظهر أن «فرهاد باشا» موجود في حديقته وأن أحباءه صاروا يترددون عليه، توجه «بوستانجى باشى فرهاد أغا» إليه في وقت السحر، وقام بنقله إلى «يدى قله»؛

حيث أمر بحبسه هناك، وفي ذلك اليوم أيضًا، قام «إبراهيم باشا» بتلخيص الأمر بقلم «أوقجى زاده»، فاستصدر أمرًا بقتله، وبعد العشاء، وصل «جاوش باشى» وأنهى أمره، رحمه الله.

وبينما كانت خدمات المرحوم وفتوحاته الكثيرة في العجم، وإخضاعه لعدو مثل الشاه وأخذ ابن الشاه كرهينة من الخدمات التي لن تنسى، فقد كانت مكافأة المسكين أن تكون عاقبته على هذا النحو، ولو كان هذا العصر عصر المرحوم السلطان «مراد خان»[1] لكان من غير المحتمل الغدر بالمرحوم، ومع أنه كان لا يستحق القتل ولا يستحق حتى العزل، فإنه لما كان المرحوم السلطان «محمد» صافي القلب وغافلًا عن كذب وحيل وخداع الوزراء فقد ارتكب هذه الأمور المشينة على هذا النحو، بغرض نفسي [أي نتيجة المخاصمات وسوء النية التي بين الوزراء]، إلا أنهم جميعًا رحلوا متعاقبين إلى مكان واحد، فيه يظهر ويبدو الحق والباطل، ويجد كل شخص ما عمل.

وصول الوزير الأعظم السردار «سنان باشا» إلى مملكة الأفلاق العاصية وانهزامه

لقد تحرك السردار المومأ إليه دون أن يتوقف في مكان قط، عازمًا على التوجه صوب «روسچق» وأرسل الأوامر بأن يصير المنحوس ابنه سردارًا على بلاد المجر، وقبل عدة أيام من وصول «سنان باشا» إلى «روسچق»، كان قد أتى ثمانية آلاف كافر على الوزير «حسن باشا بن محمد باشا»، وبفضل الله تعالى كان قد هزمهم وأحضر الألسن والرءوس الكثيرة، وبعد ذلك عبر «سنان باشا» جسر «طونه» ونزل إلى صحراء «يركوكى»، ومن هناك قام بالتوجه صوب «بكرش»[2]، ولكن كان يعسكر في كل مستنقع وربما في كل غابة بلوط عدة آلاف من الكفار؛ حيث كانوا يحملون على عسكر الإسلام باستمرار،

(١) المقصود به السلطان مراد الرابع (١٠٣٢هـ-١٠٤٩ هـ= ١٦٢٣ - ١٦٤٠م).
(٢) كانت عاصمة رومانيا ومركز ولاية الأفلاق قديمًا.

ويتجولون في أطراف الجيش الهمايوني، وبتقدير الحق كان قد اعترى الخوف والخشية عسكر الإسلام حتى كانوا لا يستطيعون المقاومة على الإطلاق، وقد استشهد أمير أمراء الروم إيلي «حيدر باشا» في أحد المستنقعات، وجرح أمير أمراء الأفلاق «ساطورجي محمد باشا» بينما كان يهرب، وبعد ذلك أتوا إلى أحد المستنقعات؛ حيث سحق بالأقدام كل من «مصطفى باشا» ابن «إياس باشا» شقيق السردار و «حسين باشا» المتصرف على «نيكبولي»؛ بسبب الزحام، وبقيا في ذلك المستنقع، أما السردار المغرور فقد بعُد عن جواده وبعُد عن خدمه وغاص في المستنقع، وبينما كان أحيانا يتحرك وأحيانا يقف وأحيانا يستريح وأخرى يسير؛ بسبب تعب المسير وحيرة الانكسار، أتى شاب يافع وقوى معروف باسم «دلى حسن» من أبطال الروم إيلي وأمسك به من خلفه وأخرجه من المستنقع، وبعد ذلك اشتهر المذكور بلقب «بتاقجى دلى حسن»، وتوفي حينما كان يشغل وظيفة «دلي باشي»[١] للوزير الأعظم «قوجه مراد باشا»[٢].

وفي أوائل المحرم الحرام سنة ١٠٠٤ هجرية[٣] تم الوصول إلى «بكرش»؛ حيث أقيم فيها خمسة عشر يومًا، وأمر السردار ببناء حصن صغير نوعًا ما هناك، وفي ذلك المكان أذن للعسكر بالهجوم، والحق فإن الجند لم يقولوا: بعيد أو قريب، وإنما قاموا بنهب ممالك كثيرة وعادوا سالمين وغانمين، وفي النهاية، لم يستطيعوا الدخول إلى ممالك «أردل»[٤]، وبعد ذلك تحركوا من «بكرش»؛ حيث وصلوا إلى «ترغوشتة»[٥] في اليوم السادس، ومكثوا واستراحوا بها شهرًا كاملًا، وقاموا ببناء قلعة هناك، وأبقوا بها «حيدر

---

(١) دلي باشي: هو نوع من العسكر السوارية الخفيفة التي شكلت في الروم إيلي في نهايات القرن الخامس عشر. وكان قسم منهم من الترك، أما القسم الآخر فهو مركب من النصارى وصقالبة الروم إيلي مثل البوشناق، والخروات. وكان يطلق على رئيسهم اسم «دلي باشي».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 82.

(٢) كان يشغل منصب الوزير الأعظم في عصر السلطان «أحمد الأول».

(٣) الموافق سنة ١٥٩٦م.

(٤) وهي تعرف الآن باسم «ترانسلفانيا» وقد بقيت تحت الحكم العثماني ١٧٣ سنة، وبينما كانت تابعة للمجر منذ القدم، فإنها ألحقت برومانيا اعتبارًا من سنة ١٩١٨م، وتقع في الجنوب الشرقي من بلاد المجر.

(٥) تقع في بلاد المجر.

باشا أوغلى علي بك» أمير سنجق «چورم» علاوة على توليه إيالة «طرابزون»، وعين عددًا من الأمراء للمحافظة على سناجق «كوستنديل» و«دلوينه»، وبعد ذلك، ولما كان المذكور أرناءوطي الأصل، فقد صدر الأمر له بحراسة سناجق «كوستنديل» و«دلوينه» على إثر التماس تقدم به، فقال الذين هم من «كوستنديل»: «ونحن أيضًا لن نبقي». فقال السردار: «فليذهب جند «بلوك خلقي» وليقتلوا هؤلاء جميعًا أي أهالي «كوستنديل»، ولسوف أعطي مقاطعات زعامة وتيمار أهالي «كوستنديل» إليهم؛ أي إلى جند «بلوك خلقي»»، ووقف أهالي «كوستنديل» متهيئين ومستعدين، وقالوا: «نحن أيضًا لن نكون بمفردنا». فلم يتوجه جنود البلوك خلقي إليهم.

ولم يبق هؤلاء أيضًا للحراسة، ولما تم الرحيل من ذلك المنزل ونزل الجيش إلى موضع آخر وقت شقشقة الطيور، كان «ميخال» الضال موجودًا في مكان قريب لذلك الموضع؛ وكان مترقبًا ومنتظرًا لعودة عسكر الإسلام، فأتى في الحال، ونزل في المكان الذي تحرك منه «حسن باشا» وخرج الغزاة الذين ظلوا في القلعة، واشتبكوا معهم، ولكن لم يستطيعوا المقاومة وعادوا إلى القلعة، ولما وصل صدى هذا الخبر إلى السردار، قال: «ينبغي أن نعود وأن نقدم الإمداد». وفي ذلك الحين أيضًا برز حوالي ثلاثمائة كافر من غابة تكثر بها المستنقعات، ووصل خمسة أو ستة آلاف جندي من الروم إيلي؛ حيث هجموا على هؤلاء الكفار، فإنهم عادوا مهزومين أيضًا. والغريب في الأمر أنه لم يعد هناك رجل لم يجرح أو يصب من الخمسة أو الستة آلاف رجل هؤلاء؛ أي لم يكونوا في وضع يمكن أن يقال عليه: إنهم لم يقاتلوا ولم يسعوا ويجدوا، وفي ذلك الحين، قام «ميخال» الضال بإشعال النار في «ترغوشتة» وقتل جميع ما تبقي بها بالسيف، وورد الخبر بأنه علق «علي باشا» وواحدًا أو اثنين من أمراء السناجق في الأسياخ وأخذ يقلبهم على النار. ولم يدر السردار أيضًا ماذا يمكن أن يفعل من شدة دهشته، وقال «ساطورجي» الذي صار فيما بعد أميرًا للأمراء: «لا يمكن البقاء»، ولم يبق هناك أيضًا، وعلى الفور، أضرموا النار في «بكرش»، وأمر السردار بنقل وجر الخزينة والآلات والأدوات والجبة خانه والمدافع، ونجوا بالأرواح قاصدين كوبرى «طونه»، وقام «حسن باشا» بإخراج

مدفع قيم كان قد بقي في المستنقع بعد كثير من الجد والعناء مع رجاله وخدم الشام، وقام بتوصيله إلى السردار.

ولما أتوا إلى «يركوكى»، تسابقوا في العبور من الجسر، فالذين أتوا أولًا استطاعوا العبور، أما الذين جاءوا بعدهم فقد ظلوا في صحراء ساحل الأفلاق؛ بسبب أن أمراء الكفار تمكنوا من قطع هذا الجسر حيث هلك وتلف عدة آلاف من النفوس في ذلك المكان، وضاع قدر عظيم من المدافع والجبة خانه وسائر المهمات وبصفة عامة فقد لحقت بأهل الإسلام سمعة سيئة لم تكن معروفة عنهم من قبل، وإذا كان «سنان باشا» قد ارتكب أمرًا على هذا النحو في حق المرحوم «فرهاد باشا» بغرض دنيوي، فقد سقط هو في البئر العميق الذي حفره ونال جزاءه من جانب الحق تعالى، وتعاقبت المصائب بعضها إثر بعض على إثر وصول الأخبار بأن المنحوس ابنه يسر للكفار أخذ أسترغون.

- ومن الفضيحة الكذب:

وفي هذه الأثناء، كنت أنا هذا العبد الحر بچوى محاصرًا في «أسترغون»، واتفق أن كنا نحن [المقصود بچوى] الذين خرجنا من القلعة وتباحثنا مع العدو أمر الاستسلام في الوقت الذي لم يكن ذلك واجبًا علينا، وفي تلك الأثناء؛ أي أثناء الحديث عن الاستسلام روى لي «يالغي مقلوس» جنرال «أويوار» يعني أمير أمرائها الذي كان معروفًا ومشهورًا في الحدود بعدائه للإسلام والذي انتصر في قلعة «يانق» بالمدفع المعروف باسم «أغاج»، روى لي بالتفصيل واقعة الأفلاق، فقال: إنه انهزم وانكسر عسكر الإسلام في الأفلاق، وأن «سنان باشا» سقط من مستنقع إلى مستنقع، ولكنه فهم من تصرفات الحقير [بچوى] أنه لم يصدق كلامه، وعلى هذا توجه إلى الفقير [بچوى] بقوله: «أنت لا تصدق ما أقول». فقلت أنا الفقير أيضًا: «لو كان حدث هذا، فإنه ليس بتلك المرتبة». فقال «يالغي مقلوس»: «لا لا، انظر إلى وجهي أنه صادق. فإنني لست الرجل الذي يكذب. ألم تستطع نكباتنا التي أصبنا بها وحتى جنودنا من «اللوند» ارتكاب هذا؟ وما ينبغي أن يكذب رجل مثلنا، فالمصائب التي حلت على رءوس أهالي «أسترغون» هؤلاء كلها؛ بسبب شؤم الذين كذبوا، وهناك رجال كثيرون من بين هؤلاء أعطوا لنا مالهم

وممتلكاتهم مرتين أو ثلاثًا من أجل أن يخلصوا رءوسهم من أيدينا، وفي محاصرتين أكلوا منا مائتي ألف قذيفة مدفع، والآن تخلوا عن مالهم وممتلكاتهم، ولكن كان هناك بين هؤلاء شخص يقول الصدق وهو «قره علي بك» وشخص آخر هو «أيوب آلاي بك» فليرحمهما الله تعالى».

ولما كان اعتقاد الكفار بشؤم الكذب على هذا النحو، فإنه ينبغي أن يعتقد المسلمون اعتقادًا جازمًا بذلك، وأن يكونوا أكثر حذرًا من هذا الشؤم، ويجب أن يكون القياس من هذه الوجهة.

مجيء «تتارخان» إلى البغدان وخضوع رعاياها له

سنة ١٠٠٤ هجرية[1]، بينما كان السردار عديم الحياء لا يزال موجودًا في ساحل الأفلاق، أتى أغوات معتمدين بخطاب شريف من قبل «تتارخان» عالي النسب؛ حيث جاء فيه ما يلي: إن الخان دخل البغدان مع عسكر التتار الجرارة، وقال رعاياها الطاعة والانقياد، وأنهم قاموا بالقبض على «ميخال» الضال الذي كان باعث فساد وإضلال، و«رضوان» المرتد، ووضعوهما في القيود وتعهدوا بتسليمهما إلى السردار، وطلب رعايا البغدان ورجوا والتمسوا أن يُنصَّب عليهم بعد اليوم حاكم من أمراء الإسلام وأن يكون ذلك من أمراء التتار وقام الأغوات الذين أتوا بتأكيد وإبلاغ ذلك شفويًا، ولكن لما لم ينل هذا التوجيه الرضا السلطاني، ولما لوحظت مشاركة التتار نوعًا ما في ولاية البغدان، غض الطرف عن ذلك ولم يرضَ به.

محاصرة أمير «أردل» لقلعة «طمشوار»[2]
وتوجه «جعفر باشا» لتخليصها

في سنة ١٠٠٤ هجرية[3]، بعد دخول السردار عديم الحياء إلى ممالك الأفلاق

(١) الموافق سنة ١٥٩٦م.
(٢) تقع في بلاد المجر.
(٣) الموافق سنة ١٥٩٦م.

العصاة، بعث برسالة مع أحد الجاوشية إلى أمير «أردل» الحقير، ورد فيها: «لقد علمنا أن أمراء «ميخال» الضال العاصي للسلطان صاحب السعادة، وسيئ النية المعروف باسم «رضوان» دخلوا إلى ولاية «أردل» بعد هجوم عسكر الإسلام، فقطعا لو أن عبوديتك وإخلاصك مؤكدة للسلطان صاحب السعادة، ينبغي عليك أن تقبض على المذكورين وتربطهم وترسلهم إلى الجيش الهمايوني مع رجالك الأبطال».

ولكن المذكور أيضًا أظهر العصيان، وأعاد الجاوش بإجابات عديدة وغير مفيدة، وأرسل العسكر المأثورين بالهزيمة لمحاصرة «طمشوار»، وفي هذه الأثناء، لما وصل «خادم جعفر باشا» إلى بلغراد، فبمجرد أن توجه إليهم برجاله وبعسكر تلك النواحي، لم يقف الملاعين وكفوا أيديهم عن القلعة، وقاموا برفع مدافعهم وتراجعوا وعادوا إلى ديار فجورهم، دمرهم الله تعالى، وأتم المشار إليه خادم جعفر باشا مهمات واحتياجات «طمشوار»، ثم قفل عائدًا.

محاصرة الكفار لقلعة «أسترغون» وانهزام عسكر الإسلام وذهابهم

قام الكفار الذين مأواهم النار في هذه المرة بصرف ما في وسعهم للاستيلاء على «أسترغون»، وأتوا بأكثر من خمسين ألف جندي من المشاة، وعشرين ألفًا من سوارية الملاعين من عند «ريم بابا»[(1)] و«ديب فرنكستان» و «چه»[(2)] و«له» ومن أجناس مختلفة بوجه عام، وقاموا بمحاصرتها في ذي الحجة سنة ١٠٠٣ هجرية[(3)]، وفي تلك الأثناء، كان أمير أمراء الأناضول، وقائم مقام السردار المرحوم «محمد باشا» كان قد نصب الخيام في «أسكى بدون» من أجل اتخاذ بعض التدابير لإمداد «أسترغون»، فإنه على إثر توجيه منصب الوزارة العظمى إلى «سنان باشا» مرة أخرى، قام هو بدوره بتعيين ابنه

(١) المقصود به «بابا روما».
(٢) تقع في أقصى شمال غرب النمسا.
(٣) الموافق سنة ١٥٩٥م.

المنحوس سردارًا على ديار المجر بدلًا منه، وأتى ابن «سنان باشا» مع طائفة خدم الباب الذين كانوا في بلغراد وألفين أو ثلاثة آلاف من الجند، ونزل بهم إلى صحراء «أسكي بدون» وكان قد أتى «صوفي سنان باشا» أمير أمراء «بدون» وأمير أمراء «طمشوار» «ميخا ليجلو أحمد باشا»، وأمير أمراء «سكتوار» المرحوم «تيرياكى حسن باشا» وأمير أمراء حلب «محمود باشا» وأمير أمراء «يانق» مع عسكر إيالاتهم. ولكن كان مجموع عسكرنا يبلغ عشرة آلاف فقط، ولما كان هجوم هذا القدر القليل من العسكر على عدو قوى بتلك الدرجة خطأ فاحشًا، فقد قاموا بتدبير على هذا النحو: ينبغي عليهم - أي على جند الإسلام - أن يعطوا ظهورهم للجبل الذي كان في مواجهة الأعداء، وأن يقيمون هناك، ثم يقومون بالهجوم على طابور الأعداء، سواء كان الوقت مناسبًا أو غير مناسب؛ يعني أنه من الضروري أن يقوموا بمنع الأعداء من ضرب القلعة كما ينبغي.

ولما وصلنا ونزلنا تجاه الأعداء، خرج علينا في ذلك اليوم ثلاثة أو أربعة طوابير من فرسان المجر، وقمنا بحرب ضروس، ولكن سقط أربعون أو خمسون كافرًا فقط على تراب الهلاك، حتى قال بعض الأشخاص: لم يتم الهجوم عليهم في ذلك اليوم، ولو هجم عليهم، كان سيهرب الكفار، وعبر ثلاثة أو أربعة طوابير إلى ساحل «أويوار» من جسورها دون أن يكون معلوم ما سبب ذلك، فأخطأ كل من رأى هذا؛ لأنه لم يكن الطابور يهرب بسبب نقصانه أربعين أو خمسين كافرًا، وفي اليوم التالي وصلنا للقاء الأعداء ورأينا أن العدو نظم طوابيره؛ حيث ينتظر طابور الجند داخل خندقه، وأن العدو يقوم بترتيب جنده المشاة صفًا صفًا على أطراف الخندق، ويحرسون طابورهم. ولم يخرج أي رجل قط قدمه خارج الطابور.

وفي اليوم الرابع، لما قمنا بترتيب طوابيرنا ووصلنا إلى ميدان المعركة، أظهر سردارنا عديم الحياء جرأة عارضة لا داعي لها، وكان يتصبب عرقًا؛ وربما تعب كثيرًا جدًا، وعلى الفور بدأ بالقيء أمام الطابور خلف جواده، ومع أن الذين رأوا وسمعوا ذلك الأمر وبّخوه، فإنه ما الفائدة؟ كان قد أضاع نفسه وصار في وضع لا يعرف فيه ماذا يقول، ولا يفهم ما قام به من قبح، وكان يرسل الجاوشية باستمرار إلى المرحوم «أفندينا محمد

باشا» و«عثمان باشا» قائلًا: «فليسيروا على الفور»، ومع أنهم قالوا له: «من الواضح أن كل متراس عبارة عن طابية محاطة بالخندق، ولا يمكن للفرسان أن يهجموا عليه». فإن «عثمان باشا» قال: «الموت أفضل من سماع كلمة هذا السفيه»، وبدأ في المسير. ونحن أيضًا اقتفينا إثره بطابور الأناضول. وبمجرد أن وصلنا قرب «تپه دلن»[1]، أطلق علينا جميع الكفار البنادق، وفي تلك الأثناء استشهد «عثمان باشا»، وظفر بعض الغزاة أيضًا سواء من طابور «يا نق» أو طابور الأناضول بالحياة الخالدة [المقصود الشهادة]، وسقطت خيول لا حصر لها على طريق الموت من جراء ضرب البنادق. وبعد ذلك، قمنا بالتوجه إلى الطابيتين اللتين كانتا بساحل «طونه» واللتين كانتا متراسًا لهم، وخرج مائة أو مائتان من الجند المدججين بالبنادق من «أسترغون»، وقمنا سويا بالهجوم عليهم، وفتحنا تلك الطوابي، وقُتل بعض الكفار الذين بداخلها وغرق بعضهم في الماء؛ ووصل أسطولهم وأنقذ بعضهم.

وأحاط «ميخاليجلو أحمد باشا» و«صوفي سنان باشا» الطابيات التي كانت بجانبنا العلوي بطوابيرهم، ولما رأى الكفار ذلك من الطابور، سارت عدة طوابير لإمدادهم، وفي تلك الأثناء، اختار السردار عديم الحياء الفرار، ولما كان وادي سفح الجبل الواقع بيننا حائلًا للرؤية، فلم نر قتالهم ولا فرارهم، وعلى الفور خرج المرحوم «قره على بك» الذي كان من أسرة «شاهين أوغلو» من البوسنة وكان من أقرباء «أفندينا محمد باشا» خرج من القلعة مع واحد أو اثنين من «الجورباجية»[2] وأتوا إلى جانبنا وقالوا: «إن وضع العسكر أصبح مؤلمًا، والآن ينبغي أن تذهبوا أنتم أيضًا»، ولما بعدنا قليلًا من ذلك المكان، شاهدنا أن طوابير أحاطت بأطراف ذلك الوادي الذي في سفح الجبل، وظننا أنهم عسكرنا، حتى إنهم كانوا يبسطون الأيدي قائلين: «تعالوا إلينا»، ثم صدرت

---

(١) قصبة ومركز قضاء في منطقة «طوسقه لق» بمنطقة الأرناءوط وتقع في سنجق «أركري» بولاية «يانيه».

(٢) جورباجي: اسم يطلق بشكل مشترك على ضباط الطائفة التي تعرف باسم «جماعت أورته لري»، وضباط سرايا الأغا. وخلاف هذا كان يطلق لقب «جورباجي» على قادة فرقة «عجمي أورته».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 76.

أصوات من القلعة، فرأينا عدة رجال يأتون، فتوقفنا، فلما أتوا، قالوا: «إن العسكر الذين يلوحون عند هذا الوادي هم طابور الكفار»، وأصروا قائلين: «إن الذهاب إلى هناك يعني الموت، فعودوا على الفور وادخلوا القلعة». فقال بعضنا: «ينبغي علينا أن نندفع ونذهب مقاتلين وليمت من يموت، وليبق من يبقى». وقال البعض أيضًا: «لو أن الكفار طابور واحد، لكان في الوقت الذي يكون فيه العدو محيطًا بنا من الأمام والخلف، فإن ذلك ليس ممكنًا»، وهكذا عدنا جميعًا ودخلنا إلى القلعة. وأثناء توزيع الشعير على الجند في تلك الليلة اتضح أن الذين دخلوا القلعة منا ألف وأربعمائة سواري.

أما السردار عديم الحياء [ابن سنان باشا] قام في ذلك الحين بالهرب، ولم ينظر خلفه قط، ولم يوقف جواده إلا عند وصوله «بدون» وكان المرحوم «تيرياكى حسن باشا» في الجناح الأيسر مع عسكر «سكتوار»؛ فلما رأى هروب هؤلاء أتى إلى الجيش وأزال خيامه، وحمل كل أثقاله على العربات، وأيضًا على العربات التي تجرها الثيران. وأحضر ثيران مدافع «وارادين»[1] التي كانت باقية منذ زمن المرحوم السلطان «سليمان» والتي استخدمت في غزوات كثيرة، وقام بربط المدافع بهم، وأرسلهم جميعًا صوب «بدون»، وبعد ذلك جاء إلى خيمة السردار، فرأى أنه لم يبق فرد واحد، وأن قدرًا عظيمًا من الأشياء القيمة تناثرت هنا وهناك، وأخذ أفراد طائفة اللوند الذين كانوا بجانبه تلك الأشياء الكثيرة، ونحن أيضًا قام خدمنا برفع خيمتنا وبتحميل كل ما بداخلها على العربات وانسحبوا أيضًا صوب «بدون»، وبفضل الله تعالى لم تفقد منا قَشَّة واحدة، ولم يترك أتباع الباشا الآخرون شيئًا، وقاموا بتحميل أشيائهم وذهبوا، وظن الكفار أن هذه التحركات خدعة؛ ولذا لم يقم أي فرد لا بالتعقب ولا بالدخول إلى الجيش. ولما رأى الكفار بعد ثلاث أو أربع ساعات أنه لم يبقَ شخص واحد، بدءوا بعد ذلك بنهب الجيش، وعندئذ، نادوا علينا بدخول القلعة.

---

(١) مدينة تقع على نهر «طونه» في الشمال الغربي من بلغراد وفي البداية كانت تابعة للنمسا والآن تابعة ليوغوسلافيا.

انتصار الكفار في «أسترغون» ومحاصرة «محمد باشا»

لو فصلت أحوال هذا الحصار وأمر الاستسلام، حتى لو بينا إجمالها، فإن ذلك يقضي أن يكون هناك عدة أوراق مسطرة، ولكن بسبب أنني عايشت هذه الأحداث، فهذه زبدتها:

عندما دخلنا إلى القلعة مع المرحوم «محمد باشا» قال المرحوم «قره علي بك» الذي كان من أقرباء المرحوم «محمد باشا»: «حتمًا، ينبغي أن يعين لكم مرشد ذو خبرة، ولتخرجوا مع مائة أو مائتين من رجالكم ولتذهبوا في الوقت الذي يكون الكفار فيه مشغولين بالغنيمة والشراب؛ لأنه عندما ييئس أفراد الإنكشارية وطائفة أبناء الخدم المحاصرين هنا [المقصود في أسترغون]، سيتخلون عن القلعة بالاستسلام، ويصبح هذا الفعل منسوبًا لكم». فقال المرحوم الباشا أيضًا: «عندما نُخرج الأمر، ألن يقولوا: أخلى القلعة؟»، والنتيجة أنه بعد مناقشات كثيرة، أجاب قائلًا: «ربما يكون أجلنا مقدرًا هنا المقصود أسترغون، فلن أستطيع الذهاب»، ولما صار الأمر على هذا النحو، أخذ المرحوم «قره علي بك» المرحوم وحمله إلى خيمته.

وفي اليوم التالي نادى الكفار قائلين: «يدعو «پالغي مقلوش» المرحوم «قره علي بك» للمجيء إلى «بدون»، وتشاور«قره علي بك» مع المرحوم الباشا، وتشاورا مع الحاضرين من الأمراء ومع الجورباجية في أمر الذهاب إليه، وفي النهاية قرروا ذهابه بقولهم: «فليذهب قره علي بك، وليجب على أسئلته طبقا لمقتضى الحال»، وأرسلوا مع «قره علي بك» فردًا أو اثنين من جند الجورباجية.

وقال «پالغي مقلوش»: «كنا أصدقاء في الجوار لمدة طويلة من الزمان بهذا القدر. وأنتم تعلمون حال العسكر، فينبغي أن تعطي القلعة بالاستسلام، وذلك سيكون خيرًا لكم ولأهلكم ولعيالكم»، فقال المرحوم «علي بك» أيضًا: ماذا حدث لعسكرنا؟ فإن خدمة هؤلاء وسعيهم وجدّهم كان توفير الإمداد للقلعة. لقد وضعوا «محمد باشا» أمير أمراء الأناضول و«شمس باشا زاده محمود باشا» في القلعة مع ثلاثة آلاف رجل، بينما

كنتم تراقبون ذلك باستمرار، ثم انسحبوا وذهبوا، وأحكم هؤلاء السيطرة على القلعة، ولم تبق لي علاقة قط بأمور القلعة.

وفي تلك الليلة أحضر الكفار واحدًا وأربعين أو اثنين وأربعين من مدافعهم العظيمة، وقاموا بنصبها في أماكنها القديمة؛ يعني في تحصيناتها، وبدءوا في ضرب القلعة منذ وقت السحر، وفي أكثر الأوقات ما إن ينقطع صدى مدفع، حتى كانوا يشعلون فتيل نار مدفع آخر؛ حيث ملئوا المكان والزمان بالدخان، فأحيانا كانوا يطلقون الواحد والأربعين وأحيانا أخرى الاثنين والأربعين مدفعًا في شكل دور دائم، وأحيانًا أيضًا كانوا يشعلون فتيل المدافع الموجودة في المتراس دفعة واحدة. ويقومون بالتصويب مثلًا على حجر معين من أحجار القلعة ويضربونه في آن واحد، علم الله تعالى وشهد الله تعالى أن القذائف كانت تتلو بعضها، وكانت ضربات القذائف تجعل البعض يقول: «إن أصداء فرقعاتها الشديدة ستهدم الدنيا»، وكان يوجد بين تلك المدافع ما يمكن أن يطلق ثمانية وثلاثين، وأربعين، وواحدًا وأربعين، واثنين وأربعين أوقية. وإذا كانت يومية إطلاق أقل هذه المدافع خمسين قذيفة لأصبح مجموع الدانات التي تطلق يوميًا، أكثر من ألفين، وفي حين أنه لا يمكن أن تتحمل الجبال ضرب مدافع بهذا القدر، فإن تحمل قلعة صغيرة مثل «أسترغون» لهذا لا بد وأن يكون معجزة من معجزات النبوة.

وقام الكفار بتلغيم أسوار القلعة مرتين، فنُسف الجدار الخارجي للبرج الكبير المطل على «طونه»، وسقط الغزاة الموجودون عليه بعضهم للداخل وبعضهم الآخر للخارج. فاستولى الكفار على ذلك البرج، ودخلوه وأقاموا به وقام المحاصرون بلف جلد الثور على أخشاب الصنوبر في عدة مواضع، ثم سندوها إلى جدار القلعة، وبدءوا بحفر فتحات في الجدار من أسفل، بحيث صارت الفتحة بالدرجة التي لو أردنا أن نمد الحربة من عندنا إلى طرف هؤلاء وأن نسقط أو ندفع بها الملعون القريب؛ لفعلنا ذلك، وكان يمكننا طعن الكافر بطرف الحربة أو سحبه بها، ولم تخل لحظة واحدة ليل نهار من هذا النوع من القتال، وكان المسلمون إذا نزلوا من البرج، يصعد الكفار إلى البرج، وصفوة القول، صار المحاصرون في عناء وبلا مناص.

أحوال الصهريج الذي في قلعة أسترغون

لقد شُرب خلال شهر واحد، وكان يعطي حمل حصان أو اثنين من الماء لمائة أو مائتين أو ثلاثمائة رجل في فيلق واحد، وكان الباشا يقوم بتوزيعه بنفسه، ولم يكن من الممكن أن يقوم بذلك شخص آخر، وكان صراخ وأنين وآهات المجروحين والمعوقين الذين حرموا من اليد والقدم والذين يلعقون الرخام الموجود في أطراف الصهاريج من شدة الحرارة ويتلهفون بقولهم: «قطرة ماء»، كما كان صراخ وأنين وآهات المساكين الذين حرقوا بسبب انفجارات دانات المدافع والذين أغلقت أعينهم وتورمت وجوههم والذين امتلأت مشام الناس من رائحتهم الكريهة، كانت تذهب العقول وتحزن القلوب، وبينما كان الحال على هذا المنوال، لم يعد لدينا ماء يكفي لمدة ثلاثة أيام، أما عن الخبز أيضًا فكان يوجد قليل من الدقيق من ذخيرة المرحوم «قره على بك»، وكان «دزدار» القلعة؛ أي حارس القلعة أيضًا رجلا مدبرًا جدًا حيث كان قد ادخر مقدارًا من الدقيق من أجل نفسه، أما ما كان يأكله سائر الجند، فعبارة عن القمح النقي نوعًا ما؛ حيث كانوا يقومون بتحميص القمح على لوح من الحديد ويطحنونه في طواحين اليد وينشرون عليه قدرًا من الماء ثم يأكلونه.

والله تعالى أعلم أنني لا أكذب: فقد كنت محاصرًا في القلعة مع ثمانية من خدمي، وكانوا يقومون بقلي القمح وتحميره في شكل الحلوى، وكنا نأكله بغاية الاشتهاء وكنا نقول: «كيف كنا غافلين عن هذا ؟»، وكنا نتحدث مع الحاضرين قائلين: «لو ينجينا الله رب العالمين من هذه الورطة بالسلامة، فإننا سنطهي هذا الأكل في كل وقت بعد الآن»، أما الآن، فالشكر لله تعالى فقد مضى أربعون أو خمسون عامًا منذ أن نجونا من هذا، ولم تقع رغبتنا في هذا النوع من الطعام قط، ولم تكن هناك نهاية للمصائب التي على هذا النحو فإنه يجب علينا أن نفصل فيما يلي واحدة منها.

الاستسلام

لقد فعلت هذه الشدة والمصيبة فعلها بأرواح المحاصرين المألوفة بالموت في كل

لحظة، وفي النهاية، كان عدة أشخاص قد اتفقوا ونادوا من القلعة: «لنستسلم»، ولكن لم يلتفت الكفار لذلك النداء ولم يجيبوا أيضًا بالقول: «سترون ذلك في الصباح»، وعلى هذا، أتى جميع جند الإنكشارية والجنود الآخرين فجأة، وهجموا على المرحوم الباشا وقالوا: «لقد وصلنا إلى هذه الحالة ونفدت طاقتنا وقدرتنا على التحمل وسنسلم القلعة». فقال المرحوم الباشا: «إنني دخلت القلعة، وحُصرت فيها من أجل أن أموت بها، ولن تعطي القلعة ما لم أمت».

وبعد كثير من القيل والقال رجم الجند الباشا بالحجارة وجرحوا بعض المواضع به، ولكن بعد ذلك قالوا: «نحن لا نريد من هذا ولا من أمير هذا المكان ولا أمير أمرائه شيئًا، فهو رجل دخل إلى القلعة وحُصر بها قهرًا، ولا توجد لديه أية علاقة قط لا بالسلطان ولا بالسردار، والآن ينبغي علينا أن نبحث عن أمير سنجقها؛ أي سنجق «أسترغون»»، وأخيرًا عثروا على «سيد بك» أمير «أسترغون»، وضربوه وجرحوا عدة مواضع من رأسه، وكسروا ذراعه وأخرجوه إلى الميدان وهم يضربونه بقبضات يدهم.

وبينما كان هؤلاء يتشاجرون مع بعضهم على هذا النحو في القلعة، قام الكافر بحشد عدد عظيم من المدافع؛ وربما يكون قد أطلق حتى الصباح نحو ألفي قذيفة مدفع، وإزاء هذا الوضع تأكد للجند أن الكفار لم يقبلوا أمر الاستسلام، وعلى هذا قالوا: «ينبغي أن نقفز ليلة غد فجأة من فوق السور، وأن ننجو برءوسنا ونهرب ونذهب، وليسقط منا من يسقط وليبق منا من يبقي»، وهكذا، انشغلوا بإجراء هذا التدبير طوال الليل.

ولكن في وقت شقشقة الطيور، أوقف الكفار إطلاق المدافع. وهبوا كالريح المخالف قائلين: «أين الذين نادوا بالاستسلام». وبعد فترة من المناقشات داخل القلعة وعقب كثير من التصرفات غير السليمة والشجار الذي ليس له نهاية، كلفوا «بويالو حسين بك» رئيس سباهية «سرم»[1] بالخروج إلى الكفار، والتحدث معهم عن أمر الاستسلام.

---

(١) هي عبارة عن قطعة من الأراضي تبلغ مساحتها سبعة آلاف كيلو متر، فيما بين نهري «طونه» و«ساوه» وتقع أمام بلغراد.

ولم يكن هذا القرار بمشاورة وتدبير عام، ولكن كان جبرًا وقهرًا، وسحبوا «حسين بك» وحملوه إلى الباب وهم يضربونه بالأيدي على قفاه، وكان الباب الصغير مسدودًا من الناحية الخلفية بالحجارة، فاستغرق رفع هذه الحجارة وفتح الباب فترة من الوقت، وكنت أنا هذا الحقير «بچوي» أيضًا موجودًا هناك ومشاهدا لهذه العبرة، فوجه «بويالو حسين بك» الحديث إلى الحقير «بچوي» وقال: «ليحدث ما يحدث، تعال ولنخرج سويًا إنها نزهة مهيأة». وبينما كان الفقير «بچوي» أيضًا مترددًا ومتعجبًا من هذا القول، كان هناك رجل من أهل القلوب يعرف باسم «أحمد چلبي» وكان كاتب براءة الباشا المرحوم، فقلت له: «ما قولك يا أحمد چلبي؟! تعال لنخرج سويا»، فرضي هو أيضًا ولكن قال: «يجب علينا أن نقف عند الطرف الداخلي للخندق، وأن نتباحث خارج الخندق». فقال «حسين بك»: «يا، لا يمكن أن نفعل هذا». وخرجنا إلى الخارج.

وكان يقف عند طرف الخندق ثلاثة كلاب من الكلاب الكبار أي من الكفار، فقال مترجموهم لنا: «اعبروا إلى البر»، فقلنا: «لا، ينبغي أن نتحدث من هنا». فقال هؤلاء: «وما الفرق بين هنا وهناك؟». وعلى هذا، عبر «حسين بك» الخندق بلا تردد. وعبرنا نحن أيضًا خلفه، فحملونا صوب «تبه دلن» وكل واحد منهم ممسك بيد واحد منا، مظهرين المحبة، ومستفسرين عن العناء والمشقة الموجودة بالقلعة. وقديمًا كان قد توفي شخص من أمراء «أسترغون»؛ وقاموا ببناء تربة عليه بأربعة أعمدة من الخشب والمرمر، وشيدوا في أطرافها جدارًا صغيرًا إلى حد ما، فدخلنا التربة، وجلس هؤلاء على القبر، وجلسنا أيضًا بينهم بجوار بعضنا البعض، ورفعنا الحرج ودخلنا في الموضوع.

وفي بداية الكلام، قال الثلاثة كلاب الكبار: «لماذا تعطون القلعة الآن؟ ومنذ وقت طويل كنتم قد تحملتم هذا القدر من قذائف المدافع وعانيتم معاناة عظيمة، إلا أنكم لم تسلموا القلعة، فلماذا تسلمونها الآن؟ ألا يوجد لديكم طعام أو ماء؟»، أما نحن فلم نكن قد تحدثنا عن شيء متعلق بهذا الموضوع بيننا، ولم يستطع «حسين بك» أن يرد قط بأي رد، ولكن لاح لقلب هذا الحقير [بچوى] ما يلي: «كنا قد حُصرنا هنا بأمل أن يأتي «سنان باشا زاده» خلال عشرة أيام، وأن يخلصنا، وقد مضى أكثر من شهرين، ولم

يقم بإمدادنا، أو بأي شيء من هذا القبيل، ومن أجل ذلك سنقوم بتسليم القلعة؛ حتى يكون لزامًا على السلطان أن يقطع رأسه». وفي الوقت الذي لم يكن فيه كلامي هذا إجابة شافية على أسئلتهم بتلك الدرجة، فإنه جاء مناسبًا لطبيعتهم، فقالوا: «حقًا». واستكملت حديثي معهم على هذا النحو: «فقمحنا بملأ المخازن وهي بلا مفتاح أو باب. وكل شخص يأخذ القدر الذي يريده، ويطحنه بطاحونة اليد، ويصنع منه الخبز. وماؤنا مع أنه من الصهريج، لكن كان الصهريج نبع ماء، يجرى بالقدر الذي يستهلك ويزيد ذلك القدر مرة أخرى ونحن شربنا منه شهرًا واحدًا، وحتى الآن لم ينقص من مائه ثلاثة أشبار».

فقال الثلاثة كلاب الكبار: «ستعطون القلعة بلا شرط». فقلنا: «شرطنا هو ضرورة أن تعطوا لنا مهلة أسبوع حتى يمكن فيه لرجالنا أن يصلوا إلى «بدون»». فقالوا: «لا يمكن هذا». وبعد ذلك قلنا: «اسحبوا أسطولكم إلى الجانب العلوي من القلعة، وأعطوا لنا سفنًا بالقدر الكافي، ولا تتدخلوا بأثوابنا، وليحمل كل شخص ما يملكه إلى السفن»، فأجاب الثلاثة كلاب الكبار: «إن الأسطول تحت سيطرتنا، وليكن أينما يكون. ولن يضركم من ذلك شيء، وسنعطى لكم السفن، ولكن سنأخذ جيادكم، وليحمل كل شخص أغراضه من الثياب، ولا تحملوا أغراض الذين ماتوا، فمثلا ينبغي على الرجل أن يحمل سيفًا واحدًا ولا يحمل اثنين»، وأضافوا: «إننا نريد أمراء «تيره»». فقلنا: «لا يوجد واحد منهم هنا، فقد ذهبوا جميعًا إلى «بدون»»، وقالوا: «لا ينبغي عليكم ألا تخرجوهم في زى النساء، فإننا سنفتش عنهم ونكشف وجوه النساء».

وهكذا، لم تكن هناك نهاية للاعتراضات على هذا النحو. فأي منها نكتب وقد أجبنا على كل واحدة منها بحسب ما تقتضي، وبعد ذلك، تذكرت أنه في الوقت الذي كنت فيه أعمل في وظيفة الكتابة لدى المرحوم الباشا وكنت في الوقت نفسه من أقربائه، في حين أن المرحوم الباشا يحتاط ويحذر من نطق كلمة الاستسلام، فإنني تجرأت وتجاوزت هذا وتحدثت عن أمر الاستسلام وبذلك أكون قد ارتكبت خطأً بالغًا يثير العجب، فلمت نفسي لومًا عظيمًا، وقد صرحت بكل هذا لـ «أحمد چلبي» الذي تألم لذلك وتأسف

كثيرًا، ولكن كان قد حدث ما حدث، وقلت سأدخل إلى الداخل مرة أخرى، وهو أيضًا أراد أن يذهب، فقلت: «لا، ربما يمانعونا من الذهاب فجأة»، فمنعته وقمت أنا الحقير [بچوي] وذهبت، وقلت لـ «پالغي»: «متى ستذهب إلى الداخل؟»، فلم يقل شيئًا. ولكن منعوا «أحمد چلبي»، ولكن إذا فصلنا هنا كيف نجا، فإنه يطول بنا الحديث كثيرًا.

وعندما دخلت إلى القلعة، سألت: «هل أخذ المرحوم الباشا خبرًا بأنني ذهبت إلى الخارج للتحدث عن أمر الاستسلام؟»، فقالوا: «لا، لم نقل له». ولما أتيت إلى مجلس المرحوم، رأيت سبعة أو ثمانية من الأمراء وأبناء الأمراء أمامه، بعضهم مد أقدامه وبعضهم أضجع على جنبه، ولما كان هؤلاء يعتادون على الجلوس على كرسي من نوع «إسكمله»، فإنهم لا يستطيعون الجلوس على الأرض المسطحة، فلما دخلت ينظر هؤلاء بعضهم إلى بعض ثم يقفون، أما المرحوم فكان أحيانًا يمسح دمع عينيه وأحيانًا أخرى يتأوه من أعماقه، فلما رأى الفقير [بچوي] قال: «أين كنت؟»، فأجبت بسرعة: «سلطاني إننا نرجو هذا من حضرة الحق جل شأنه، إن شاء الله تعالى عندما نأخذ «أسترغون» ثانية فعندئذ سأكون عبدكم هو الذي سيتباحث أمر استسلام العدو، فامتلأت عيناه بالدمع وبكى، وربما قلت هذه الكلمة في وقتها، فقد تم قبول دعائنا بحرمة دمع عين المرحوم، وحدث ذلك تمامًا». فلا بد أن يفصل ذلك ويوضح في مكانه إن شاء الله تعالى.

أما هؤلاء الأمراء الذين أتوا، كانوا قد دخلوا إلى القلعة كرهينة عندنا من أجل أن نخرج إلى الخارج، وبمجرد أن دخلوا، أنزلوا حبلًا في الصهاريج وقاسوا الماء، وشاهدوا الغلال الموجودة في المخزن، وبعد ذلك، أرادوا خبزًا، وربما قام الحارس بعجن بعض الخبز الكبير من نوع «صمون» حتى لا يستصغر عند الكفار، وقام بحمل واحد أو اثنين وقدّمه للكفار، وحينما كنا في الخارج، لاحظنا أن رجالهم يذهبون ويأتون إلى القلعة، وبعد ذلك علمنا أن هذا كان هو الموضوع الذي يريد أن يعرفه الرجال الذين أتوا؛ يعني عندما يعلمون أنه ليس لدينا ذخيرة ولا ماء، كان من المؤكد أن يزداد إيذاؤهم؛ وربما يقومون بتجريدنا من الملابس وتركنا عراة.

وعمومًا لما اقترب المساء، أتى فرد من الملاعين ممن يعتمد عليهم، وأبلغ كلام أميره إلى المرحوم الباشا بكل أدب وقال: «كنا سنُمتن بالتشرف بكم، ولكن علمنا أننا لو كنا دعوناكم، فإنكم لن تلبوا الدعوة، كما أن مجيئكم شخصيًا ليس لائقًا، ولكن يمكننا أن ندعو «قوجه باشا» يعنى «شمس باشا زاده» للضيافة، فأرسلوه». وقال المرحوم أيضًا: «إن ذلك هو رجل من أقراني، وبالخاصة هو شيخ وقور في مقام أبينا، ولن نستطيع أن نقول له: اذهب. ولكن اذهبوا أنتم وادعوه، فلو رغب في الذهاب، فليس لدينا مانع وسنكون ممنونين»، فذهبوا إليه ودعوه، وعند ذهابه، أتى إلى المرحوم واستأذنه، ثم ذهب سويًا مع الكافر الذي أتى، وكانوا قد أحضروا جوادًا من أجله وحملوه بالتعظيم والتكريم.

وكان قد أمر الأمراء وأبناء الأمراء الذين كانوا محجوزين لدى المرحوم الباشا داخل القلعة بإحضار وافر الطعام، وفي وقت المساء اصطف النمساويون، وأفرغوا بعض الطعام في أوعية من الفخار وبعضه في أطباق من الفضة، وأحضروه ووضعوه أمام المرحوم، وكنت أنا هذا الحقير أجلس مع المرحوم الباشا، وقد أحضرت ثلاث وجبات، وعشرة أو اثنا عشر من الطيور ذوى اللحم الصافي على أنها من طيور الصيد التي تم تربية معظمها على البهارات وبعض من مختلف الحلوة من نوع «البورك»، وبعض من الفاكهة من نوع الرمان والليمون والنارنج؛ حيث أكلت جميعها. وأرادوا أن يحضروا شرابًا صافيًا وأن يقدموه إلى المرحوم، فلم أجعلهم يقدمونه له بدعوى أنه لا يشربه. وبعد ذلك أحضروا ماء ليموني اللون يطلقون عليه «ماء القرفة»، فقمت أنا هذا الحقير [بچوي] بذوقه وقلت: «لا يختلف عن الماء قط في طعمه ولذته»، وشرب المرحوم منه كوبًا بدلًا من الماء، وبعد ذلك، أحضروا السكر مرة أخرى، وصنعوا الشربات وقدموه إلى المرحوم، وقدموا شرابًا إلى هذا الحقير [بچوي]، ولما كنت أنا في فترة الشباب، كنت أشرب، إلا أنني لم أشرب بجوار المرحوم، فقال المرحوم الباشا: «اشرب، ولا تخجل مني»، ولما شربت بعض الأقداح، رفعت الحجاب ونزعت الخجل، وكان يوجد بين الموجودين هناك ابن أمير وجهه كقرص الشمس لا يمكن النظر إليه. وكان اسمه

«لونبر خار أوغلو»، وكان أميرًا من أكبر الكلاب ومن أعظم قوم «چه» ودخل إلى الداخل قاصدًا أن يرى قوم الترك، ولغة «چه» قريبة إلى حد ما من لغة البوسنة، فإذا كان بعض كلامه غير مفهوم، فإنه يعرف ويفهم معظمه، فاستأذنت من المرحوم، وقلت له بقصد المعاكسة: «بك زاده أي يا ابن الأمير أين تنام؟» فأشار إلى المكان الذي يجلس فيه، وقال: «هنا». وعندما قلت: «وأنا أيضًا أنام هنا»، تحدث بعنف وغضب قائلًا: «يا، ماذا تريد أن تقول؟»، ثم أضاف: «ها!، إنه تركي، ها!». وبينما كانت أعماق نفس المرحوم الباشا مفعمة رغمًا عنه بقدر عظيم من الغم، ضحك ضحكة خفيفة، وبعد ذلك، كنا قد أخرجنا ابن الأمير هذا من «أكره» بالاستسلام؛ حيث كان قد نزل ضيفًا بخيمتنا يومًا أو يومين، فالآن أين ابن الأمير ذلك الغضوب؟ فقد جعله الحظ السعيد أنعم من القطن، وكان آنذاك يرجو المدد من رجل مثلنا.

وكان قد دخل غلامان من غلمان الداخل التابعين للمرحوم إلى القلعة، وأحضر كل واحد منهما ترسًا مرصعًا بالذهب وحربتين من نوع «خلكارى» وكان هذا العدد من الكفار الذين يدخلون ويخرجون من القلعة يريدون أن يحصلوا على تلك الأشياء، ولكن الباشا لم يهتم قط بكلامهم. حتى إنني هذا الفقير [بچوي] قلت: «هذه ليست أشياء ذات قيمة، فأعطها لهم»، وبعد ذلك أتى رجل من «نمچه» مرتديًا الملابس الفاخرة من طرف الهرسك أي الأمير، وقال: «أرسلني الهرسك ويريد هذه الأشياء». ولكن الباشا لم يعطها له أيضًا، وذكر «عالي أفندي» في تاريخه وقال: «أعطوا المرحوم بعض جيفة الدنيا»؛ أي بعض الأموال والله تعالى أعلم أن من قال هذا كذب عليه وبهته، فإذا تمكن الكفار من أخذ أي شيء، أخذوه. ولكن لا يوجد شيء عند هؤلاء اسمه العطاء. فهؤلاء مطلقًا أخس خلق الله تعالى.

وعندما خرجنا من القلعة، وأتينا إلى المكان الذي ترسي به السفن التي ستقلنا في «كوچك قپو»، أتى الملعون «پالغي» إلى هناك، وصافح المرحوم وقال: «إن وضع الحدود بيننا صارت هكذا، وأن هذا الوضع لا يقلل من شأن البطل». وقال المرحوم الباشا أيضًا: «إننا أعطينا لكم «أسترغون» أمانة لله تعالى، وإن شاء الله تعالى، بعد عدة

أيام، سنأتي ونستردها ثانية». فقال الملعون: «لقد أعطينا لكم «يانق» على هذا النحو أيضًا، ولكن لا تزال عندكم». وأضاف: «إن جاشنكير علي باشا يلحق الأذى الشديد ببعض الأسرى في «بدون»، فامنعوه»، وتحدث عن الأحوال المتعلقة بالحدود. وسأله المرحوم الباشا أيضًا: «أين محمود باشا؟». فأجاب الملعون: «سنرسله خلفكم ونوصله لكم»، وعندئذ قال المرحوم محمد باشا: «وأنا أيضًا لا أذهب؛ عندما تحضرونه نذهب سويًا»، وفي ذلك المكان كان الهرسك أي الأمير المعروف باسم «مقسمليان» وشقيق الجاسار وسردار العسكر قد جعل محمود باشا يقف في مكان قريب، وأخرجه لنا وقال: «إنه يريد الحراب والتروس»، وأظهره في المكان الذي يقف فيه الهرسك. فقال المرحوم أيضًا: «فليأت، ولأعطي له». وفي الحال أحضروا «محمود باشا» ولكن لا أعرف ماذا سقوا الشيخ الوقور، فلما أتى «محمود باشا» إلى المرحوم «محمد باشا» واقترب منه، رأى أنه لا يمكن التحدث معه، فلم يقل شيئًا قط. ولكن دخل إلى السفينة. وكانوا قد أعطوا له ساعة وبندقية. فأحضرهما خادمه في يده، وأراد المرحوم الباشا أيضًا أن ينسى الكفار الحراب والتروس وألا يعطيها لهم، ولكن دخل عديم الدين ذو القيافة إلى السفينة خلفنا، وطلب هذه الحراب والتروس وأخذها وحملها معه، وبعد ذلك قام كافران بربط سفينتهما التي من نوع «شيقة» أمام السفن وقاما بسحب السفن التي تقل المسلمين وحملهم على هذا النحو.

ولما وصلنا إلى المكان الذي يوجد فيه أسطولنا، عاد هؤلاء من هناك. وركبنا نحن سفننا من نوع شيقة، ووصلنا في ذلك اليوم إلى «بدون» وهناك وصل البكاء والأنين من الطرفين أي من الذين أتوا والذين يوجدون في «بدون» أحيانًا إلى عنان السماء وأحيانًا أخرى إلى أسفل السافلين، ووصلنا إلى خيمة «سنان باشا زاده» الذي عانق المرحوم «محمد باشا» وقال: «طيبوا خاطركم الشريف، لقد كان هذا مقدرًا». وفي اليوم التالي، تحركنا من هناك، ونزلنا إلى الصحراء التي في «أوه قبوسى» التابعة لـ «بدون» وأمضينا تلك السنة في ذلك المكان، وها هي حقيقة تسليم وأخذ وإعطاء «أسترغون» بلا مبالغة أو نقصان.

ومن بدائع المناظرات

كان الكافر الذي يطلقون عليه «پالغي» كافرًا عاقلًا ومدبرًا للغاية، فكلما تكلم، كان يورد في معظم الأحيان مثالًا على ما يقول، حتى الوزير الأعظم «خواجه مراد باشا» كان قد ذهب إلى الكفار عدة مرات من أجل الصلح، وكان يروي بعض الأمثلة التي ذكرها ذلك الملعون، وعلى كل فبينما كان يتحدث هذه المرة عن أمر استسلام «أسترغون»، قال ما يلي:

لقد شبهنا أهل الإسلام الآن بالعلبة التي لم يجرؤ أسلافنا على فتحها، وقال أجدادنا للذين يقولون ماذا يوجد بداخل العلبة؟: هذه مملوءة تمامًا بالثعابين والعقارب، ولو فتحت هذه العلبة، ينتشر هؤلاء في بلادنا ويلدغون الناس ويقتلونهم، ووصلوا إلى ذلك الاعتقاد عن طريق السماع من السابق للاحق، وكانوا قد بقوا على هذا الاعتقاد الخاطئ على هذا النحو، وبناءً على هذا، قام كل واحد من أباطرتنا وملوكنا بوضع مفتاح على هذه العلبة قائلًا: «ينبغي ألا تفتح هذه العلبة، وألا يخرب وضع العالم في عهدي»، والآن لما اقتضى الأمر وقمنا بفتحها، ربما كانت العلبة فارغة تمامًا! وكان لا يوجد بها شيء قط، فعندئذ وقع الأسف العظيم على عمرنا الذي مضى حتى ذلك الوقت بهذا الاعتقاد الكاذب، وإنني هذا الحقير [بچوى] أجبت قائلًا: «يا، هل أنتم تعتقدون الآن أن أسلافكم لا يعرفون هذا، وأخطئوا». فقال الملعون: «هذا هو اعتقادنا». وعلى هذا أكملت حديثي قائلًا: «معذرة، لم يخطئ أسلافكم، والخطأ ها هو عندكم؛ لأنكم فتحتم الظرف الذي كان على العلبة فقط، ولكن لم تفتحوا غطاء العلبة، ولو فتحت بعد هذا، فلتفتح، ولتشاهدوا ضرر هذه المخلوقات السامة. وعندئذ سيرى ما يحدث».

وبعد ذلك، لما فتحت «أكره» وقهر طابور الكفار المقهور، لم يكن لدي شك أن الملعون تذكر هذه المناقشة والمعارضة، وقال: إن ما قاله التركي صحيح.

عزل السردار «سنان باشا» وتنصيب «لالا محمد باشا» ووفاته واعتلاء «سنان باشا» الوزارة ثانية ورغبة السلطان صاحب السعادة في الخروج للحملة الهمايونية ووفاة «سنان باشا» ووزارة «إبراهيم باشا»

لقد عرض على بلاط السلطان حامى العالم أن عسكر الإسلام صاروا منكسرين ومقهورين بدرجة عظيمة؛ بسبب سوء تدبير السردار «سنان باشا» في جانب الأفلاق وأن الكفار انتصروا في قلعة «أسترغون»؛ بسبب جبن ابنه في نواحي «بدون»، وعلى هذا قام السلطان صاحب السعادة بعزل «سنان باشا»، وأحل محله «محمد باشا» الذي كان لالاته [أي مربيًا له] منذ السنجق الهمايوني وأمر بإبعاد «سنان باشا» إلى «معلقره»، وفي هذه المرة أيضًا، وبسبب عدم توجيه الصدارة إلى الوزير الثاني «إبراهيم باشا» حزن خاطره وأصاب الغم جملة أقربائه، وحكمة الله تعالى، لم يتيسر للمرحوم «لالا باشا» أن يصل إلى الديوان الهمايوني إلا مرة واحدة فقط، وابتلى بمرض السرطان، وودع العالم الفاني في الأسبوع نفسه الذي ابتلي فيه بالمرض. وفي هذه المرة أيضًا، لم يعطِ ختم الصدارة إلى «إبراهيم باشا»، ولما علم السلطان صاحب السعادة بأنه أمر [أي السلطان] بقتل «فرهاد باشا» بلا جرم، صار حزينًا جدًا في ذلك الخصوص، ولما كان «إبراهيم باشا» الباعث على ذلك، كان الخاطر العاطر للسلطان حزينًا وقلقًا جدًا، فكان هذا هو الباعث على عدم إعطاء «إبراهيم باشا» ختم الوزارة في المرتين، وكان سببًا لإعطائه إلى شخص آخر.

أما «سنان باشا» لما كان ماله كثيرًا وجيبه منتفخًا والمدافعون عنه كثيرين، فقد وصل إلى مقام الصدارة مرة ثانية، ولكن، بسبب أنه فشل في قيادة الجيش واشتهر بسوء الطالع، فقد لحق به العار الكثير؛ ولذا لم يرغب قط في السردارية أي القيادة هذه المرة. ولكن أخذ يرغب السلطان صاحب السعادة في الخروج إلى الحملة الهمايونية شخصيًا، وعرض عليه ما يلي: عندما يصبح الوزير الأعظم سردارًا، فإن القائم مقام لا يساعده ولا يريده أن

يكسب هذا الشرف، حيث تراوده نفسه قائلة: «ليعزل السردار بهذا السبب أي فشله في الحملة، ولتوجه الوزارة إليَّ»، أما إذا وجهت السردارية لأحد الوزراء الصغار، فلن يعينه الصدر الأعظم؛ لأنه في حالة انتصاره، لا يرضيه شيء سوى الوزارة العظمى، وعندما يكون الحال على هذا المنوال، فعلى كل فإن التدبير في هذا، أن يقوم السلطان حامى العالم بالتوجه إلى الحملة الهمايونية بنفسه متحملًا المشاق الكثيرة لسنة واحدة، وأن يعرّف بفضل الله تعالى أعداء الدين والدولة مقدارهم مثل المرحوم السلطان سليمان خان عليه الرحمة والغفران، ولما أيد «خواجه أفندي» كلام الوزير الأعظم، صار من المؤكد توجه السلطان شخصيًا إلى الحملة الهمايوئية، وأخرجت مائة وخمسون ألف ذهبية من الخزينة العامرة، وأرسلت إلى بلغراد مع «جراح محمد باشا» لشراء الذخيرة، وتم تعيين الرجال الأقوياء وذوى الإقدام في هذا الخصوص من أجل إعداد سائر مهمات الحملة ولوازمها التي لا حاجة لتفصيلها.

وبينما كان «سنان باشا» يسعى ويهتم بأمور الحملة كيفما يشاء، فقد تقرر بأمر الخالق تعالى أن يتجه إلى حملة الآخرة، وفي النهاية، قصد عالم الآخرة؛ رحمة الله تعالى عليه، وفي اليوم التالي، حملت جنازته إلى جامع آيا صوفيه الشريف. وبينما ينتظر وقت الظهر، جاء ختم الوزارة بيد كتخدا طائفة خدم الباب وسلم إلى «إبراهيم باشا» وكان «خواجه سعد الدين أفندي» والوزراء والعظماء جالسين معًا، فقاموا وهنئوا «إبراهيم باشا» بالوزارة. وكانت وفاة «سنان باشا» قد حدثت في الخامس من شعبان المعظم سنة ١٠٠٤ هجرية[١].

خروج السلطان المقرون بالظفر إلى الحملة في يوم الخميس ٢٤ من شوال سنه ١٠٠٤ هجرية[٢]

عندما أكملت مهمات ومستلزمات العسكر كما ينبغي، عقد العزم للتحرك من

(١) الموافق ٤ ـ ٤ ـ ١٥٩٦م.
(٢) الموافق ٤ ـ ٥ ـ ١٥٩٦ م.

القسطنطينية بالعزة والسعادة على العادة الهمايونية للسلاطين السالفين، ويتوجه معلم السلطان الفاضل «مولانا سعد الدين» سويًا مع السلطان عالي الجناب، وكان لا بد أن يأتي إلى جواره كل يوم منذ وقت السحر، وكان يوضح للسلطان أحوال العالم والأمور الواجب فعلها والمتعلقة بالحملة الهمايونية، ولما وصلت الحملة إلى المنزل المعروف باسم «باطچينه» بالقرب من بلغراد، قام «سنان باشا زاده» في ذلك اليوم بترتيب الموكب بقدر ما في استطاعته، واستقبلهم، وتباهى بشرف تقبيل الذيل السلطاني في الخيمة الهمايونية، وفي اليوم التالي، أتى «جراح محمد باشا» إلى المنزل المعروف باسم «حسن باشا» وسلم على السلطان مع طابوره، وسعد بشرف تقبيل بساط حامي الخلافة في الخيمة الهمايونية.

وفي اليوم الذي وصلت فيه الحملة إلى «بلغراد» قام الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» بإظهار طوابيره أكثر من الوزراء الآخرين، حتى صار موضع مدح وثناء من السلطان المقرون بالظفر، وشرع بتوزيع الذخيرة على العسكر في اليوم الذي تم الوصول فيه إلى بلغراد. وفي تلك الأثناء، لما خطر على الخاطر الطيب للسلطان صاحب السعادة جبن وتقصير «سنان باشا زاده» الذي جعل الكفار يستولون على «أسترغون»، زج بـ «سنان باشا زاده» في الحبس في قلعة بلغراد، وتمت مصادرة جملة ما ملك، وبينما صدر الفرمان بصلب «كج دهان علي چاوش» الذي كان مكلفًا ببعض الخدمات برتبة شق ثان[1]، عند باب القلعة بسبب تكاسله، فإنه خفف الحكم عليه وحبس فقط، وتمت مصادرة ممتلكاته. وبعد ثلاثة أيام ظهرت الشفقة السلطانية مرة أخرى، وتم العفو عنهما. وصدر الأمر بأن يبقى «سنان باشا زاده» للمحافظة على بلغراد، ولكن «كج دهان» بذل ما في وسعه وقدرته، وذهب إلى الحملة الهمايونية مع عسكر الإسلام.

ولما ضربت الخيام في المنزل المعروف باسم «إسلانقمن» اجتمع كل الموجودين هناك من الوزراء وقضاة العسكر والأمراء وأمراء الأمراء الكرام في خيمة الوزير الأعظم،

---

(١) دفتر دار شق ثان: كان يوجد خلاف الباش دفتر دار اثنان من الدفتر دارية أيضًا. كان يطلق على أحدهم «دفتر دار الأناضول»، وعلى الآخر «دفتر دار شق ثان».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C.I, S. 416.

وتشاوروا في فرمان السلطان عالي الجناب الذي صدر بما يلي: «إذا رؤى التوجه إلى جانب ما صوابًا؛ فليتم الإسراع في التوجه إلى ذلك الجانب». فقال «جغالة زاده»: «إن من المناسب الوصول إلى قلعة «قومران». وبفضل الله تعالى، لو يتم الاستيلاء على تلك القلعة، ستصبح جميع سواحل «طونه» مستولى عليها ومحصنة». وقال سائر الوزراء والأعيان: «إن «قومران» قلعة صغيرة، وليس لائقًا أن يصل السلطان صاحب السعادة شخصيًا إليها بالعسكر الجرارة بهذا القدر، وفتحها لا يوجب الافتخار»، ورجحوا التوجه إلى «أكره»، وزعموا أنه بالاستيلاء على «أكره»، سيتم الاستيلاء على المعادن هناك. وحقيقةً كان المقصود الأصلي من التوجه إلى «أكره» الاستيلاء على المعادن.

ولما تم عبور جسر «وارادين»، والوصول إلى «سكدين» في المنزل الخامس، قام أمير أمراء الروم إيلي الوزير «حسن باشا» ابن الوزير الأعظم «صوقولو محمد باشا» بترتيب الطوابير الكاملة التجهيزات والمنظمة والمرتبة التي هي تحت قيادة جميع أمراء الروم إيلي وأرباب التيمار والزعامة، وتوجه إلى الجيش الهمايوني في ذلك المنزل والتحق به. والحقيقة، كان قد رتب وزين طوابيره بالدرجة التي أثنى عليها سعادة سلطان الإسلام شخصيًا وجملة الخواص والعوام ومدحوها كثيرًا، وأحضرت جملة المدافع والدانات والبارود الأسود وسائر المهمات والمستلزمات بالسفن الموجودة بجانب المشار إليه حسن باشا، وقام بتسليمها إلى الجيش الهمايوني.

انتصار الكفار في قلعة «خطوان» وتهاون وتكاسل «جغالة زاده»

وفي هذا المنزل [المقصود سكدين]، أتى بعض الغزاة من الحدود بخطابات الاستغاثة، واستغاثوا قائلين: «منذ عدة أيام، قام الكفار بمحاصرة قلعة «خطوان»، وأثروا في معنويات الذين بداخلها. وعلى هذا، فلو لم تصل الإمدادات خلال ثلاثة أو أربعة أيام، فلن يكون هناك شك في استيلاء الكفار على القلعة»، وفي الحال تم تعيين عسكر بالقدر الكافي لـ «جغالة زاده»، وأرسل على «خطوان»، ولكن توجه ببطء شديد، ومضى خمسة

أيام دون أن يترك الجيش الهمايوني، وخلال ذلك الوقت كان الكفار يسعون بجهد جهيد للفوز بالقلعة، فانتصروا على من في القلعة وقاموا بقتل الصغير والكبير من الرجال، وأسروا نساءهم وصبيانهم. وقاموا بحرق القلعة وساووها بالأرض.

وفي الوقت الذي كان فيه إهمال «جغالة زاده» هو الباعث على ذلك، وفي حين أن كل عسكر الإسلام كانوا يعتقدون أن إيقاع العقاب به أمر مؤكد، فإنه لم يحدث ذلك، ولم تصل إليه حتى كلمة عتاب على الإطلاق.

عزل الدفتر دار «إبراهيم باشا» وتعيين «كج دهان» دفتر دارًا

وفي هذه الأثناء، اجتمع أفراد بلوك خلقي(١) وسائر أرباب الوظائف حول خيمة الدفتر دار بحجة أنهم يريدون مرتباتهم، ويهجمون عليه ويسبونه قائلين: «أين المعاشات؟»، وعلى هذا عزل الدفتر دار، وأعطيت وظيفته إلى «كج دهان علي».

ولما طوى الجيش بعض المواضع التي نزل إليها في طريقه إلى قلعة «صونلق»، تم النزول إلى قرب قلعة «صونلق»، ولما كان نهر «تيسه» يجري بعكس تجاه قلعة «أكره»، فقد أخرجت الجبة خانه؛ أي العتاد الحربي والمهمات الحربية والمدافع والمستلزمات من السفن في ذلك المكان، وبعد أن وزع بعضها على العسكر وحمل بعضها على العربات، تم التوجه صوب «أكره».

محاصرة قلعة «أكره» في غرة صفر الخير سنة ١٠٠٥ هجرية(٢)

لما قام سلطان الأنام مع عسكر الإسلام بنصب الخيام في صحراء «أكره»، ففي

---

(١) بلوك خلقي: هو اسم أطلق على جند سوارية القابو قولو.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 58.

(٢) الموافق سنة ١٥٩٦م.

الوقت الذي صدر فيه الأمر بأن يشن الهجوم في ذلك اليوم على الحي الخارجي الكبير، كان العسكر مشغولين بالنزول في ذلك الموقع وإقامة خيامهم هناك، حيث تأخروا في تنفيذ هذا الأمر، أما في تلك الليلة، فقد ترك الكفار الحي الخارجي وتحصنوا بالقلعة. وفي الصباح دخل عسكر الإسلام الحي الخارجي، وفازوا بالغنائم، وفي اليوم نفسه، شُرع في ترتيب الجيش وإعداد المتاريس؛ حيث عينت ثمانية مدافع من النوع المخصص لضرب القلاع للمرحوم أفندينا الوزير «محمد باشا» الذي كان متصرفًا على إيالة الأناضول، وأقيمت المتاريس في أماكن قريبة ومطلة على القلعة من الجانب الشمالي. وأخذوا يضربون القلعة على المنوال الذي ضرب به الكفار «أسترغون»، حيث كانوا يقومون بالتنشين بالثمانية مدافع دفعة واحدة إما على مكان محدد أو على حجر بعينه، وهكذا كانوا يشعلون النار، وكانت تأتي دانات المدافع وراء بعضها دون انقطاع. وأحيانًا كانوا يطلقون المدافع بالمناوبة دون أن ينقطع صدى صوت المدافع، وكان جملة العسكر يقولون: «تعلم محمد باشا ضرب القلعة في أسترغون». وعلى هذا المنوال كان هناك إقدام على الحرب عند سائر الفرق أيضًا، وحدث التلغيم أيضًا مرتان أو ثلاث مرات؛ حيث انهدم جدار كبير جدًا وفتحت ثغرة، ولكن لما كانت هذه الثغرة ارتفاعها عظيمًا، فلم يكن من الممكن إجراء الهجوم، وقام «حسن باشا» أمير أمراء الروم إيلي بسحب التراب تحت حائط القلعة، وفي ذات يوم صدر الأمر بالهجوم، ولكن لم يتم ذلك الأمر، وفي الوقت الذي كان فيه «قوزون محمد أغا» - حامل راية فيلق المرحوم محمد باشا والذي كان قد أقام في «أوسك» وأخذ مقاطعة زعامة وبقي هناك - مختفيًا تحت الجدار يراقب الوضع، ومتحينًا الفرصة، يصعد على الجدار بالراية التي في يده، ثم هجم أيضًا سائر غزاة الإسلام وقالوا: هرب الكافر. وفي ذلك الحين، قاموا بفتح القلعة التي يطلقون عليها «نمچه قلعة سي»، وبعد ذلك، لما رأى الكفار أنه كثف الضغط على القلعة الداخلية، طلبوا الأمان في اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور، وأرسلوا أبناء أمرائهم إلى السلطان صاحب السعادة، وخُلعت عليهم الخلع وأُحسن إليهم بورقة الأمان. وبعد أن حلف هؤلاء اليمين قائلين طبقًا لمعتقداتهم: «بحق الجواد

الذي أمتطيه والسيف الذي أتقلد به»، كان قد صدر العهد والأمان من السلطان بالخط الهمايوني المقرون بالسعادة، وكان قد خصص العهد والأمان بعبارة: «مخصوص بالأمراء وأبناء الأمراء الذين يخرجون من قلعة «أكره» فقط»، وكنا قد رأينا في أيديهم ورق العهد والأمان عدة مرات.

وكانت خيامنا قد نصبت مع أفندينا المرحوم الباشا في مكان منخفض قرب الجدار تحت القلعة، وكان هذا مكانًا لا يرى من القلعة ولا تصيبه المدافع، وكان من بين أمرائهم وأبناء أمرائهم الذين خرجوا من القلعة وجاءوا إلينا ثلاثة رجال من الذين دخلوا إلينا كرهينة في «أسترغون»؛ حتى كان أحدهم ذلك الشاب «هرسك زاده» أي ابن الأمير آنف الذكر[1]، فقاموا بإرسالهم جميعًا إلى خيمة هذا الفقير [بچوى] بسبب المعرفة السطحية بهم من قبل، وكان مجموع عدد الكفار يزيدون عن أربعة آلاف ويقتربون من الخمسة آلاف، فلما دخل غزاتنا من أفراد الإنكشارية إلى القلعة للغنيمة، قاموا بتجريدهم جميعًا من ملابسهم؛ حيث تركوا كل واحد منهم بالقميص فقط، ولما خرج هؤلاء إلى الخارج، واتجهوا في طريقهم، فعندما وصلوا إلى أطراف الجيش، قاموا بقتلهم جميعًا وسبي نسائهم وصبيانهم، وأراد بعض ضباطهم أن يمنعوهم من ذلك، فإنهم لم يوفقوا، وهناك أغنية شعبية يُتغنى بها منذ القدم في مناطق الحدود، ومطلعها على النحو التالي: لا يوجد لدينا أمان معكم يا من أنتم من «أكره»، يا ديوث يا من أنت من «أكره»، فكان الغزاة ينشدون هذا المصرع، والذين عرفوا وسمعوا تلك الأغنية من قبل قالوا: «لقد تحققت كلمة الغزاة القدامى». وأرسلوا الأمراء وأبناء الأمراء الذين نجوا من القتل؛ بسبب أنهم كانوا موجودين في خيمتنا إلى قلعة «بلغراد». وبعد ذلك تقابلت عدة مرات في «بلغراد» مع الشاب هرسك زاده» لمعرفتي السابقة به؛ حيث كان يرجو المساعدة من الفقير [بچوى]، وبعد فترة أطلق سراح بعضهم واحدًا إثر الآخر، ومات بعضهم، وأحضر بعضهم إلى إستانبول وإلى الترسانة العامرة، وبعد الفتح، أعطيت

(١) أي ابن الأمير «بالغي» الذي سبق ذكره في أحداث استسلام قلعة «إسترغون».

مقاطعة خاصة[1] الوزارة إلى الوزير «حسن باشا» أمير أمراء الروم إيلي، وإيالة الروم إيلي إلى أغا الإنكشارية «ولي أغا»، ومنصب أغا الإنكشارية إلى أمير الإسطبل الكبير «ناخن برحسن أغا»[2]، وعينوا المرحوم «أفندينا محمد باشا» للمحافظة على «أكره» مع إيالة الأناضول أيضًا، وفي البداية، قمت أنا هذا الحقير [بجوى] بتحرير إجمالي عدد أهالي «أكره» سواء الخدم أو المتطوعين، وبتعيين يومياتهم وبلوكاتهم، وبعد ذلك، وبموجب هذا التحرير [أي الدفتر]، وزعت عليهم الأحكام والبراءات الشريفة من الديوان الهمايوني.

ولكن لما كان من الضروري شن الهجوم على الطابور المقهور، لم يترك السلطان صاحب السعادة الجناح الأيمن الذي كان يتشكل من جند الأناضول في «أكره»، فلو بقي الجناح الأيمن في «أكره» فلا بد وأن يبقي ذلك الجناح في الجيش خاليًا! ولما ورد الأمر الشريف في تلك الليلة، خرج جند الأناضول في الصباح مع جند الإسلام، وتوجهوا صوب الطابور المقهور.

تفصيل الحرب التي وقعت مع الطابور المقهور وانهزامه بفضل الله تعالى في ٥ من ربيع الأول سنة ١٠٠٥ هجرية[3]

وفي هذه الأثناء ورد الخبر بأن «مقسمليان» شقيق الملك الذي مآله الضلال اقترب منا بنحو منزل بجنده الجرارة المشكلين من عناصر «چه» و«له» و«رين بابا» و«ديب

---

(١) خاص: تعبير يطلق على التيمارات التي تحقق دخلًا أكثر من مائة ألف أقچة. وكان يوجد تعبير «خاص» عند سلاطين خوارزم، والمماليك، وسلاجقة الأناضول. وكانت الخواص التي تعطي للوزراء وأمراء الأمراء والأمراء الآخرين تسمى باسم «خواص وزراء»؛ حيث تم انقسام التيمارات إلى قسمين «تيمار» و«زعامت» في عهد السلطان مراد الأول.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser. C.I, S. 750.

(٢) ناخن بر: مقص أو مقراض يُستخدم من أجل قطع الحوافر.

(٣) الموافق ١٤/ ١٠/ ١٥٩٦م.

فرنكستان» ومن سائر أجناس الكفار، وأنه يستعد للهجوم على عسكر الإسلام، عندما يكون الجيش الهمايوني في غفلة، وفي الحال، تم تعيين معظم جنود بلوك خلقي وحوالي خمسة عشر ألف رجل حرب من عسكر الحدود ومن سائر عسكر الإسلام مع الوزير «خادم جعفر باشا»، وأرسل صوب العدو، ولكن الوزير المومأ إليه، لما علم بكثرة العدو، فصل وشرح أحوال العدو بقوله: «إن الهجوم على هذا القدر من الكفار الغارقين في الضلال بهذا العدد القليل من العسكر، قطعًا لا يعطي نتيجة سوى أن يورث المهانة لشرف السلطنة»، ولكن لم يكن هناك تصديق بأن الكفار كثيرون بتلك الدرجة، وحمل ذلك على أن «جعفر باشا» يتعذر، فأرسل «ولي باشا» أمير أمراء الروم إيلي مع جند الروم إيلي أيضًا لتثبيت قلب الذين ذهبوا من قبل، وأرسل معه أيضًا ثلاثون مدفعًا في حجم متوسط من نوع «ضربزن»، وحررت لـ «خادم جعفر باشا» خطابات شديدة ومرة، ولما تم عتابه من قبل السلطان بهذا الشكل، رضي بالقضاء قائلًا: «هذا قدرنا»؛ وعقد عنان العزيمة، وقام بترتيب طوابيره كما ينبغي ووضع مدافعه من نوع «ضربزن» كل في مكانه واستعد للحرب.

ولما اقتربوا من الكفار، رأوا عساكر جرارة وعددًا كثيرًا بالقدر الذي أحاط الجبل والحجر وملأت الطوابير الصحارى والبوادي، فزحفوا وهجموا على «جعفر باشا» بدرجة لا يمكن أن تتحملها الجبال أو تقر في مكانها. فثبت «جعفر باشا» ثباتًا عظيمًا ورضي بالقضاء وفتح صدره، وقتل الأعداء خيرة جنده وقنّاصيه الذين كانوا أمامه، وقتلوا الجنود الذين كانوا خلفه في المؤخرة، أما هو فكان لا يزال يقف ثابتًا ومستقرًا في مكانه، وكان يرى الجند الذين أخذوا رءوسهم وهربوا، وفي النهاية قام بعض أغواته من أصحاب الدراية بمثل هذه الأمور وممن اشتركوا في معارك مثل هذه، قاموا بمسك لجام جواده، وأخرجوه من ميدان المعركة إلى الساحل طوعًا وكرهًا؛ حيث أتوا به إلى الجيش الهمايوني بسرعة خاطفة، واستولى العدو سيئ الأطوار على كل المدافع من نوع ضربزن والخيام وسائر الأحمال والأثقال التي كانت معهم في ميدان المعركة.

ولما علم السلطان الذي لطفه وإحسانه كبحر لجي بهذه الأحداث، أمر بإعطاء الروم إيلي إلى «حسن باشا» ثانية، وعينه سردارًا مرة أخرى وأمره بأن يحمل على الكفار بجنده

الجرارة، ولكن أجاب «حسن باشا» برأي صائب قائلًا: «إن هذا الأمر الجليل لا يكون ولا يتم بـ «حسن باشا» أو بـ «إبراهيم باشا» أو غيرهما، ولكن يجب أن يخرج سعادة سلطان الأنام شخصيًا مع جملة عساكر الإسلام وأن يتم التدبير والإعداد المحكم [لهذا الأمر] بفضل الله تعالى، وعلى هذا، فنظرًا لاحتمال قيام الكفار بتعقب «جعفر باشا» في هذا الليل الطويل وبالهجوم على جيشنا ووضع سيوفهم في مواضع غير مناسبة فجأة، صدر الفرمان بأن يقوم «حسن باشا» بمهمة حراسة الجيش ليلًا مع جند الروم إيلي، وأن يسد الطرق التي قد يأتي منها العدو ويقوم بتقصي أحواله؛ وبأن ينزل «فتح گراى سلطان» بالقرب من الجيش مع جند التتار، وأرسلت تذكرة إلى السلطان المومأ إليه ورد فيها: «قطعًا إنه من الممكن أن يساعد التتار على الحصول على معلومات عن الكفار على هذا النحو[1]»، وفي الواقع، ففي اليوم التالي، أخذوا أكثر من ستين كافرًا مدججين بالدروع ومزدانين بآلات الحرب من أجل الإدلاء بمعلومات عن العدو. ولما وصلوا إلى البلاط السلطاني، قام الصدر الأعظم وأغا خدم الباب «غضنفر أغا» بالاستفسار من هؤلاء عن أحوال الأعداء عدماء النفع، وقد قام جميع ملوك وأمراء الكفار بالاتفاق فيما بينهم بجمع الجند الذين لم يُر أنه اجتمع جند مثلهم حتى هذا اليوم، ولم يكن هناك حد ولا حصر لهم، ومهما قيل عن عددهم، فهم أكثر من ذلك. واستفسر من كل واحد من هؤلاء على حدة؛ حيث طوبقت إجاباتهم بعضها ببعض، وتم التأكد من أن العدو سيهجم علينا.

وبينما كان الوضع على هذا النحو، قال أهل الإسلام: «إن الهجوم على الأعداء قبل أن يهجموا علينا، وبالخاصة، فإن خروج الجيش الهمايوني ـ الذي هو الآن في مكان صعب بين الجبال قرب «أكره»ـ إلى صحراء واسعة، أولى وأنسب»، وفي اليوم التالي رتبت الطوابير ميمنة وميسرة على العادة الهمايونية للسلاطين المقرونين بالظفر، واكتوى

(١) هذه العبارة تعني أنه من الممكن أن يستولي التتار على بعض الكفار، ويرسلونهم إلى السلطان صاحب السعادة حتى يدلوا بالمعلومات عن العدو.

كبد عدو الدين، وتم الترتيب على أن يكون «جغالة زاده سنان باشا» و«مراد باشا» أمير أمراء «ديار بكر» في طليعة العسكر، وأن يتواجد «فتح گراى سلطان» مع عسكر التتار بجوار هذه الطليعة، وعقدت العزيمة على هذا الأسلوب المرغوب، وتم النزول في اليوم نفسه إلى الصحراء التي تبعث بالفرحة في القلوب، وبعد ذلك، وفي اليوم التالي، جاءوا لمواجهة الطابور المقهور.

وكانت هناك كنيسة خربة بقرب مستنقع، وكان قد اتخذ عدة آلاف من الخنازير [المقصود الكفار] ذلك المستنقع كمينًا لهم؛ حيث ملئوا الكنيسة، وأحضروا بعض المدافع من نوع «ضربزن» و«قلنبورنه» إلى ذلك المكان أيضًا. ولم يجعلوا أهل الإسلام يقتربون منهم قط. ودارت المعركة بإطلاق المدافع والبنادق فقط من كلا الطرفين، وكانت توجد لدى الملاعين مدافع من نوع «قلنبورنه» يمتد مرماها لمسافة بعيدة جدًا، حتى عبرت إحدى القذائف من فوق طابور السلطان صاحب السعادة وتجاوزت الطابور بقليل، فلوحظ أن ذلك المكان خطر؛ وكانت خيمة «متفرقة يونس أغا» خلف العسكر، فحملوا السلطان صاحب السعادة إلى تلك الخيمة، وبعد ذلك، أمر «جغالة زاده» بقطع رأس المسكين «يونس أغا» قائلًا: لقد هرب. وقد كان المجتمعون في تلك الكنيسة والذين كان معظمهم يتشكل من طائفة «حيدود»[1] في قوة وجسارة تمكنهم من القبض على أي أسد، فعبروا من المستنقع وقاموا بالهجوم على عسكر الإسلام. ولكن بفضل الله تعالى، قام «جغالة زاده» وعدة آلاف من الرجال من طليعة عسكر التتار بالهجوم عليهم، وأصبح معظم الأعداء طعمًا للسيف، وربط بعضهم بالسلاسل، وعرضوا على النظر الهمايوني السلطاني؛ وفي ذلك المكان أنهى أمر هؤلاء أيضًا. وكان الهواء ممطرًا قليلًا وكان وقت الغروب قد اقترب ونُودي بأن يأخذ العسكر قسطًا من الراحة وأن تقام الخيام، حيث أجل الحرب والقتال إلى اليوم التالي.

---

(١) أي طائفة الأشقياء واللصوص والخارجين على القانون الذين يتجاوزون باستمرار على الحدود العثمانية.

ومضت تلك الليلة حتى الصباح تحت حراسة طائفة «قراغول»[1] لمحاور الطرق وبكمال الحيطة، وفي الصباح نظمت الطوابير مرة أخرى، ولاحت شجاعة الغزاة الذين يريدون الحرب والقتال، وعُقد العزم للتوجه صوب الكنيسة التي كانت ميدانًا للقتال، فرأوا أنه لم يبق أي شخص من الكفرة لا في الكنيسة ولا في نواحيها؛ حيث إنهم دخلوا جميعًا في طابورهم المقهور مرة أخرى، وقاموا بتنظيم صفوف جنودهم المأثورين بالهزيمة، وأعدوا مهمات الحرب والقتال، وعلى هذا، عبر عسكر الإسلام من المستنقع، وساروا صوب الطابور المقهور، ونصبت المدافع من طابور الملاعين فقط، وكانوا يبعدون بها عسكر الإسلام، وحتى وقت العصر، لم يرفع الملاعين رأسهم على الإطلاق، ولم يخرج أي ملعون من الطابور سعيًا للقتال، ولما حان وقت العصر، ساروا طابورًا طابورًا، وأتوا واحتشد بعض الأفراد من «نمچه» في مكان كطابور الخنازير، وتدرع جميعهم بالحديد، وفي يد كل واحد منهم بندقية يطلقون عليها «موشغتور» والتي يمكنها أن تطلق طلقة في زنة خمسة عشر أو عشرين درهمًا، وبالإضافة إلى ذلك، كان هناك بعض رماة البنادق من المجر أيضًا، وكل طابور منهم يقدر بأكثر من أربعمائة أو خمسمائة كافر. وخلاصة القول: إنه كان هناك مائة طابور بيادة (أي مشاة)، وربما كانوا أكثر من مائة، والله تعالى يعلم إنه كانت تظهر طوابير فرسان المجر واقفة على النحو نفسه براياتها كجبل عظيم. أما بعض طوابير فرسان «نمچه» و«چه» و«له» فكان كل فرد منهم يحمل ثلاث بنادق على الأقل، وخمس بنادق على الأكثر، وكان مجموع هذه الطوابير أكثر من خمسين طابورًا، وإنني هذا الحقير [بچوى] قمت بقراءة ما كتبه الكفار في تاريخهم من أجل فهم الموضوع، وترجمته أيضًا. فوجدت أنهم ذكروا أن العسكر الذين مأثرهم الهزيمة كانوا كثيرين جدًا؛ حيث صرحوا بأعداد الذين جاءوا لحرب المسلمين من كل مملكة ومن كل قوم وملة ومن طرف الجاسار ومن طرف كل واحد من

---

(١) قراغول: هو بلوك العسكر الذي يجوب ليلًا لحفظ الأمن. وهو أيضًا الجند الذين يقفون في النقاط المناسبة لتأمين الجيش.

ـ شمس الدين سامي: قاموس تركي، إستانبول ١٣١٧هـ، ص ١٠٦٧.

الملوك والأمراء، وأكدوا أيضًا أنه لم يستطع بعض العساكر الوصول إلى ميدان القتال، عدا هؤلاء؛ أي أنه لم يكن هناك أدنى شك في أنهم كانوا أكثر من مائتي طابور.

وعموما، انفصلوا عن جيشهم على هذا النحو، وصاروا طابورًا طابورًا حيث حملوا على أهل الإسلام، ولم يستطع طابور واحد من طوابيرنا المقاومة، بل لم يقدر أي رجل أن يذهب لمواجهتهم، ولكن تفرقوا جميعًا وتشتتوا، وامتلأت تلك الصحراء بعسكر الإسلام الكثيرين، ووصل الأمر لدرجة بدا فيها عسكر الإسلام على مرمى البصر في الصحراء كعسكر طابور واحد فقط، وظهرت رايات هذا الطابور في كل مكان مبعثرة بين هؤلاء، وقام الكفار بالعبور من المستنقع على الأسلوب المذكور، مطلقين مدافعهم وبنادقهم نافخين في أبواقهم وداقّين طبولهم؛ حيث توجهوا صوب جيش المسلمين وكان «حسن باشا» ينظم طابوره ويقف مع عسكر الروم إيلي في الجناح الأيمن عند رأس جسر في مواجهة الطابور الكافر؛ أي أنه كان يقوم بحراسة ذلك الموضع؛ لئلا يمر العدو من ذلك الممر، ومن أجل هذا، أرسلت الجاوشية إليه، وأمر بالهجوم على العدو، ولكن لم يستطع «حسن باشا» أن يقدم على المواجهة للحظة واحدة، ولم يقدر على التحرك خطوة واحدة لمواجهتهم، وبمجرد أن أطلق العدو البنادق على طابوره، تفرق جميعًا. والتحق العسكر الذين تشتتوا بالطوابير التي بجانبه، وهجم الكفار مباشرة على الجيش الهمايوني، واخترقوه بلا خوف ولا حذر، وبدءوا بالنهب والسلب. حتى أتى بعض الملاعين على الخزينة العامرة براية أو اثنين، وتفرق أفراد الإنكشارية، وجنود فرقة بلوك خلقي الذين كانوا في حراسة الخزينة العامرة وفروا من أمامهم؛ وغرس الملاعين أعلامهم على صناديق الخزينة، وصعد بعض عدماء الدين على الصناديق، وراحوا يرقصون.

ويروى أنه لما رأى السلطان الذي لطفه وإحسانه كالبحر اللجي هذا الوضع، وكان «خواجه أفندي» موجودًا في خدمته الشريفة ومشاهدًا لهذا الأمر العجيب، قال السلطان له: «أفندي، ما الحيلة التي يجب القيام بها بعد الآن». فرد «خواجه أفندي» مثبتًا السلطان بقوله: «سلطاني، الواجب هو الثبات والاستقرار في مكانكم. فهذا هو شأن

الحرب، فقد كانت حروب الطابور الكافر في زمن أجدادكم العظام تتم على هذا النحو في معظم الأحيان، وإن شاء الله تعالى بمعجزات محمد عليه السلام الفرصة والنصر لأهل الإسلام، فطيب خاطركم الشريف»، والحقيقة أن قوة قلب «خواجه أفندي» وحسن اعتقاده يليق بالمدح والثناء الكثير.

- ومن بدائع الوقائع: رأيت في السنة التالية، أن أحد أمراء الكفار قد أرسل صورة صوروها للسلطان صاحب السعادة في تلك الحالة إلى المرحوم الغازي «تيرياكى حسن باشا»، وغني عن البيان مهارتهم في التصوير المقصود الرسم. والحق، إنهم قاموا بتصويره لدرجة أن من رأى السلطان صاحب السعادة مرة واحدة، كان لا يحتاج لسؤال أي شخص في أنها صورته، وقاموا أيضًا بتصوير «خواجه أفندي»، وفي تلك الحالة كان السلطان صاحب السعادة على الجواد؛ يعني في تمام الحيرة والانفعال؛ ويقف «خواجه أفندي» في ركاب السلطان، رافعًا يديه بالدعاء ويتوجه إلى وجه السلطان كما لو يقرأ شيئًا وينفخ إلى وجهه المبارك، وكتبوا تحته الشروح بلغة «نمچه»، وأمر المرحوم مترجمه بقراءتها. وخلاصة الكلام، قُبل دعاء «خواجه أفندي»! وينبغي أن نعود إلى الأحداث مرة أخرى.

وفي ذلك الحين، كان يوجد حوالي ثلاثين من خدم الداخل ذوي قفاطين من الحرير من نوع «سراسر» وذوي عمائم من نوع كلاه، فيحتضن بعض هؤلاء الخدم الجياد ذوي السروج وبعضهم الآخر جيادًا بلا سروج، ويهربون، وصار هؤلاء الباعث الأول على فرار بعض العسكر الآخرين وأصبح هؤلاء المنحوسون سببًا لفرار الفارين، وذلك بقولهم للذين سألوا عن السلطان صاحب السعادة: «ركب عربة من نوع قوچى، ونزل أمام رئيس الإسطبل وذهب أيضًا وقت العصر».

ولما اخترق الملاعين الجيش كما أوضحنا سابقًا، ووصلوا إلى الغنائم التي لم يسمعوا عنها طوال أعمارهم، على الفور وزعوا أنفسهم على الخيام واستولوا على معظمها على هذا النحو، ووقع الجيش الهمايوني تحت سيطرة الأعداء بهذه الطريقة، وربما اختار ربع

عسكر الإسلام الفرار، وزالوا من الوجود، وقرب النهار على وقت الغروب، وقطع كل عسكر الإسلام الأمل من جملة الأسباب العادية أي وسائل النصر من مهمات وعتاد، ولكن بكوا بصوت عالٍ وتضرعوا إلى جناب الحق قائلين: «بقي التدبير والإحسان لجناب العزة». وعندئذ ففي اللحظة التي قطع فيها الأمل من الأسباب في الأرض وتضرع إلى جناب العزة في السماء، بدأت آثار الفتح والظفر في الظهور. وفي تلك اللحظة قام الغزاة المعروفون باسم «آت أوغلاني»[(١)] و«أشجي باشي»[(٢)] و«دوه جي قاترجي»[(٣)] وسائر «قره قوللقجو»[(٤)] بالهجوم على الملاعين الذين استولوا على الخيام في كل مكان بوسائل كالفئوس والبلط وجذوع الكراسي والنبابيت والعصي، وثأروا من بعض الملاعين، ونادوا في الحال من كل جانب قائلين: «هرب الكافر». وفي الحال، عاد العسكر الذين كانوا يتجولون في أطراف الجيش وهم مبعثرون وتائهون، وقاموا

---

(١) آت أوغلانلري: هو تعبير كان يطلق على ساسة خيول القصر وكان قسم منهم يخدم في الإسطبلات الداخلية والخارجية للقصر في إستانبول، وقسم يخدم في سائر الإسطبلات. وحينها كان يتوجه السلطان للحملة، كان هؤلاء يقومون برعاية الخيول سواء الموجودة لدى السلطان أو الموجودة لدى معيته. وكان مقدار «آت أوغلانلري» حتى أواخر القرن الثامن عشر حوالى ستمائة.

- Mehmet Zeki Pakalin: Adı geçen eser, C.I, S. 112.

(٢) آشجي باشي: كان معدو الطعام المطهي كل يوم في مطبخ السراي متعددين. وفي مقدمة هؤلاء المجموعة المعروفة باسم «قوشجو» التي كانت مشغولة بالطعام الذي يطهى للسطان شخصيًا. وبعد ذلك يأتي طباخو المطبخ الخاص الذي يطهي الطعام لوالدة سلطان، ولأولياء العهد، والحرم الهمايوني... وكان يطلق على أمير العاملين في أي مطبخ لقب «آشجي باشي» أي أمير الطباخين، وكان يطلق على أمير جميع الطباخين «باش آشجي باشي» أي رئيس أمراء الطباخين.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 21.

(٣) دوه جي: هو اسم كان يطلق على الفرقة ٢٩ من المائة وست وتسعين فرقة التي تشكل معسكر الإنكشارية.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser,C. I, S. 434.

(٤) قره قوللقجو: يطلق هذا الاسم على أحدث الأفراد في غرف الإنكشارية. وكانت هذه الطائفة مكلفة بكل خدمات حجراتهم. وكان «القره قوللقجو» إذا رقى، يصبح «متفرقة صغير»، ويتخلص من الخدمة. وكان يوجد في كل حجرة إنكشارية من واحد إلى أربعة «قره قوللقجو». وكان يلقب أميرهم بلقب «باش قره قوللقجو».

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 176.

بقتل الذين وصلوا إليهم من الكفار في مواقعهم، ولم يحن وقت العشاء، وربما قبل مرور ساعة نجومية، الحمد لله تعالى سقط نحو خمسين ألفًا من أعداء الدين والدولة على تراب الموت، وكان تقدير حضرة الحق تعالى على هذا النحو؛ وإلا فلو وقعت هذه الفرصة وقت العصر، ما كان سينجو سوى عدد قليل جدًا من الكفار الملاعين.

وبصفة عامة، فقد صارت هذه الغزوة غزوة كبرى. وربما لم يبق هذا القدر من جيفة الكفار في ميدان معركة في أي من معارك الطابور التي وقعت حتى الآن، وليس هناك شك في أن مقدارهم ضعف عددهم في غزوة «موهاج». ولكن خروج السلطان صاحب السعادة [سليمان القانوني] إلى «بدون» في تلك الغزوة [المقصود موهاج]، وأمره بسبي ونهب ممالك الكفار كان أكثر من هذه الغزوة، ولو كانوا قد أتوا بسلطاننا صاحب السعادة السلطان محمد الثالث إلى «بدون» بعد هذه الغزوة لكانت جميع قلاع الحدود قد تركها الكفار، ودخلت إلى حوزة الإسلام، وعلى الأقل لو أمضوا ذلك الشتاء في «بلغراد» ولو قالوا: «إن «بج» هي عزيمتنا في ربيع الأول». لكان من المؤكد دفع كفار «نمچه» للخراج مثل الأفلاق والبغدان. فإنه كان تقدير الحق تعالى بهذا القدر. فالمنة لله تعالى.

- ومن شآمة الغرور: إن أولي النهى يعرفون معنى هذه الكلمة. فقد تم الجلوس الهمايوني للسلطان صاحب السعادة المرحوم «محمد خان» في سنة ثلاثة وألف هجرية[1]، وعزم على الخروج لحملة «أكره» في السنة التالية لجلوسه على العرش؛ يعني كان العسكر الذين يطلق عليهم «قبوقولي»؛ أي خدم الباب والذين أنعم عليهم في جلوسه الهمايوني كانوا أكثر من ثمانين ألفًا، وإذا لم يكونوا جميعًا موجودين في هذه الحملة المأثورة بالظفر، فإنه من المؤكد أن أكثر من خمسين ألفًا منهم كانوا موجودين، وإذا كانت أعداد جند «الروم إيلي» والأناضول و«قرمان» و«سيواس» والشام وحلب و«دياربكر»

(١) الموافق سنة ١٥٩٤م.

و«مرعش»[١] وطائفة «آقنجى» أي المهاجمين وطائفة «أشكنجى»[٢] وبصفة خاصة جند التتار صائدي الأعداء وخدامهم، إذا كانت أقل من مائة ألف، فقد كان من المؤكد أنهم أكثر من خمسين أو ستين ألفًا، فهل يكون هناك احتمال لانهزام عسكر بهذا القدر؟!

والآن، لم تشاهد في ذلك المكان المملوء بالهول، خدمة وبطولة كل هؤلاء الجند الذين رأيناهم، من أجل وحدانية الله رب العالمين، ولكن هجوم الكفار على جيش الإسلام معلوم أيضًا للإخوان الذين شاهدوه، إذ إنهم لما قاموا بتنظيم طابورهم ونثر بنادقهم عن يمينهم وعن يسارهم وجاءوا لم يكن من الممكن أن يثبت أو يستقر أي من جند السوارية (الفرسان) أو البيادة (المشاة) في الصحراء؛ لأن الكفار كانوا يهجمون بكثافة وحشود وتجمعات لا يمكن أن تتحملها الجبال، إلا أن المواضع التي كانوا يجتمعون بها ويتخذونها متراسًا لهم، كانت الخنادق أو قمم الجبال أو غيرهما، وقد ذكرت من قبل ما قاله الكافر «پالغى» الملعون عندما خرجنا من «أسترغون» بالاعتماد على أساليبهم الغريبة هذه وبالاستناد على كثرتهم العددية: «لقد شبهنا أهل الإسلام بالعلبة، ولما فتحنا العلبة، وجدناها فارغة»، وكان من المؤكد أن كلامهم هذا، كان نتيجة سيطرة الغرور عليهم، وأما نحن فبسبب أننا اعتمدنا على جندنا وعلى وفرتهم وكثرتهم، ضُربنا على أيدينا. وعرفنا أنه لو لم تكن عناية الباري تعالى، ما أتى أمر ذو قيمة على أيدي العسكر، والكفار أيضًا ظنوا أنه لم يعد هناك شخص يمكن أن يقاومهم في الميدان وأن ميدان المعركة ميدانهم، فقام عسكر الإسلام الذين لم يعظم العدو في نفوسهم بقتل وتشتيت هؤلاء الكفار بلا رأي ولا تدبير، و بلا رمح أو سهم أو سيف بدرجة جعلت ذلك عنوانًا يذكر في سجل حياتهم حتى يوم القيامة.

---

(١) وهي إحدى السناجق الثلاثة التي تتشكل منها ولاية حلب، ويحدها من الجنوب سنجق حلب ومن الجنوب الشرقي سنجق «أورفه» وشرقًا معمورة العزيز وشمالًا «سيواس» وغربًا يحدها «أطنه».
ـ شمس الدين سامي : قاموس الأعلام، إستانبول ١٣١٦هـ/ ٦/ ٤٢٦٣.

(٢) أشكنجي: هذه الكلمة في معناها العام تعني من يشارك في الحملة يعني في الحرب. وإضافة إلى هذا، فإن هذا التعبير كان لا يطلق على عسكر القابو قولو.
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 104.

وواضح أن المصيبة التي أصابت الطرفين كانت من شآمة الغرور، وحقيقة الحال هي أن أحوالنا قد بقيت على شعرة، ومن المؤكد أن ما ظهر من نصر كان بمعجزات محمد عليه السلام، فبينما كان أهل الإسلام منكسرين، صاروا بفضل الله تعالى منصورين.

تنصيب «جغالة زاده سنان باشا» وزيرًا أعظم

جاء «جغالة زاده سنان باشا» من ميدان القتال إلى المجلس الهمايوني السلطاني قبل «إبراهيم باشا»، وعرض عليه ما جرى وقال: «إنني كنت السبب في هذا الشرف». وكان «خواجه أفندي» أيضًا يحب «جغالة زاده سنان باشا» كثيرًا. ولما كان «غضنفر أغا» أغا خدم الباب (قبو أغاسى) من بلدة «جغالة زاده سنان باشا»، فإنه هو أيضًا يقوم بالتعريف به أمام السلطان ووصفه، وتفصيلًا يقول: «لو أجيب مطلبه، لكان ذلك مناسبًا»، وعلى هذا يتفضل السلطان صاحب السعادة أيضًا بقوله: «علينا أن ننفذ هذا الطلب». فيقوم «جغالة زاده سنان باشا» بتقبيل يد السلطان، ويعانقه مسرورًا وممنونًا قائلًا: «لقد أصبحت وزيرًا أعظم».

وأتى «إبراهيم باشا» أيضًا من ميدان القتال إلى السلطان الذي لطفه وإحسانه كبحر لجي، وعرض قبل كل شيء طبقًا لمقتضى قواعد الوزارة الأمور الواجب فعلها، وشرع في العطاء والإحسان للذين أبلوا بلاءً حسنًا في القتال بناءً على الأمر الهمايوني، ولما لم يبد أي تصرف متعلقًا بعزله من جانب السلطان، لم يخطر بباله ولم يرد على ذهنه أمر عزله قط، ويأمر «جغالة زاده سنان باشا» بتقبيل يده في خيمته قائلًا: «لقد أصبحت وزيرًا أعظم»، وينشغل «إبراهيم باشا» برعاية أفراد العسكر بالإنعام والإحسان، ويرسل الرجال لتعقب الفارين وإجبارهم على العودة. ولما أصبح الصباح، قام «إبراهيم باشا» بدعوة «جعفر باشا» و«جراح باشا» وتوجهوا صوب جيش الكفار سويًا، وأعدوا المدافع والجبة خانه الباقية؛ أي العتاد الحربي وقاموا بتدبير النقل لها، وأتى «خواجة أفندي» أيضًا وقت السحر إلى خيمة سلطان البر والبحر وسأل عن سبب عدم أخذ ختم الوزارة حتى الآن من «إبراهيم باشا»، فلما أجاب «غضنفر أغا» قائلًا: «غالبًا، أن

السلطان صاحب السعادة ندم على فرمانه ذلك»، قال «خواجة أفندي»: «ما الداعي إلى إساءة اسم رجل بهذا الشكل بين العسكر، فإن كل فتنة وفساد يظهر، إنما يظهر نتيجة مثل هذا التردد»، وعندما قال «غضنفر أغا»: «إنني أحترز من عرض هذا الأمر على السلطان». قال أمير الإسطبل الكبير «أحمد أغا»: «ما الخطأ في عرض ذلك الأمر على السلطان على لسان «خواجة أفندي»؟»، والآن ينبغي أن أسأل: عبدكم هذا [المقصود إبراهيم باشا] سيمتطى أي حصان للدولة ليذهب إلى طابور الكفار؟[1]، ولو تشيرون عليّ فإنني أقول له [أي للسلطان]»، وبعد ذلك يدخل «خواجة أفندي؟» إلى حضرة السلطان، ويقول: «بسبب أن ختم الوزارة لا يزال عند «إبراهيم باشا» في الخارج، فهناك احتمال القيل والقال بين الجند»، وبناء على هذا؛ يصدر الفرمان الهمايوني السلطاني: «فليصل كتخدا طائفة البوابين إلى «إبراهيم باشا» ويأخذ ختم الوزارة منه، ويحمله إلى «جغالة زاده سنان باشا»».

ومن حكمة الله، أن وزارة المشار إليه كانت بلاء ومصيبة على جميع العالم، لم يتم دفعها لعدة سنوات، واستمرت تشتد باطراد أيضًا لعدة سنوات، وكان موضوع عزل الخان خان القرم واحدًا من المشاكل، فقد استصدر «جغالة زاده سنان باشا» فرمانًا بعزل الخان وبتنصيب أخيه «فتح گراي سلطان» خانًا، قائلًا: «إنه وُجد في الخدمة بمجلس السلطان». ولكن «فتح گراي سلطان» تردد كثيرًا في قبول ذلك، وقال: «في الواقع إن الذي قام بالخدمة هو أخي، وأخي العظيم هو سيدي»، ولكن في النهاية، جعله «جغالة زاده سنان باشا» يقبل ذلك، وامتدت شآمة تلك المصيبة لمدة سنة كاملة في ديار القرم، وهكذا أصبح «جغالة زاده» سببًا لإفناء وجود الشاب الشجاع وذي الشأن والذي كان لائقًا بالسلطنة شكلًا ووجاهة مع أولاده الصغار والكبار.

ومصيبة أخرى من مصائبه وهي عندما أمر «جغالة زاده سنان باشا» بالتحقيق في اليوم التالي ليوم الغزوة المذكورة قائلًا: «إن التحقيق مع العسكر لازم». فعلاوة على أنه أمر بقتل بعض المساكين في مجلسه، قام أيضًا بقطع مرتبات ثلاثين ألف رجل آخر؛ حيث

---

(١) هذه العبارة تعني أنه سيذهب بأي صفة أو بأي وظيفة لمواجهة طابور الكفار.

تمت مصادرة أموالهم وأرزاقهم، ولما أرسل «جغالة زاده» إلى كل ولاية أحكامًا شريفة تقول: «صدر الفرمان بقتل الفارين ومصادرة ما لديهم من أموال وأرزاق وعقارات وأملاك»، ولما لم تكن هناك فرصة أفضل من هذه لينتقم كل شخص من خصمه، فقد وجهت الاتهامات لكثير من الأبرياء وأبعدوا عن دارهم وديارهم؛ وفي النهاية، رفع هؤلاء راية العصيان؛ وبسبب ثأر هؤلاء، سحق الرعايا أيضًا بالأقدام؛ أي أن بعض تدابير «جغالة زاده سنان باشا» السيئة هذه أورثت البلاء والمصيبة لكل شخص. وكان في ذاته رجلًا ذا غلظة وبذيء اللسان، وقد ضاق سواء المسلمين أو سائر أهل الديوان الذين أتوا للخدمة في زمن وزارته ضاقوا ذرعًا به، فمثلًا كان يظهر الغلظة بتلك الدرجة من أجل أشياء تافهة قائلًا: «لقد وطأت طرف البساط، وسحبت اللبدة، قف أسفل، واذهب وقف لأسفل هناك!!».

إعادة منصب الوزارة العظمى مرة أخرى إلى «إبراهيم باشا»

وعند نزول السلطان صاحب السعادة إلى منزله المحترم، جاء «سليمان أغا» الأخرس المشهور بلقب «قيللو دلسز» بخطاب تهنئة بالغزوة المباركة من قبل «والدة سلطان»، واقترب إلى عربة السلطان صاحب السعادة، وقام بتسليمه خطاب حضرة «والدة سلطان»، وأفهمه بالإشارة الأمور التي أوصت بها في ذلك الخطاب. وعلى هذا، فما إن تم النزول في المنزل، حتى قام السلطان بإرسال رئيس الجاوشية «كتابي عمر أغا»، وأمره بأخذ ختم الوزارة من «جغالة زاده سنان باشا» وتسليمه إلى «إبراهيم باشا» ثانية، واتجه «إبراهيم باشا» بلا تردد أو توقف إلى المكان الذي ينزل به السلطان لتقبيل ذيل ثوبه الشريف في ذلك المنزل، وعندما أتى إلى المنزل، كلف بإبعاد «جغالة زاده سنان باشا» من «گليبولي» إلى «آق شهر». وصدر فرمان بعزل «خواجة أفندي» من منصب «خواجة»، وألا يتدخل في حركة ترقيات العلماء أو غيرها، وأصبح «ترك أحد أغا» أمير الإسطبل الكبير مردودًا ومخزولًا؛ أي عزل من منصبه. وعمومًا نال كل فرد من الذين أعانوا «جغالة زاده سنان باشا» لأن يكون وزيرًا أعظم أو المنتسبين إليه

نال جزاءه وعقابه بطريقة مختلفة، وقام السلطان بعزل «محمد أفندي بن خواجة سعد الدين أفندي» الذي كان قاضي عسكر الأناضول في اليوم التالي لليوم الذي وصل فيه السلطان إلى «إستانبول».

والحقيقة، أن وزارة «إبراهيم باشا» كما لو كانت قد جعلت الحياة تسري من جديد في العالم، وكما لو كان عطاؤها جوادًا مغوارًا لكل من كانت له علاقة أو لم تكن له علاقة؛ ومع أن «إبراهيم باشا» كانت له أوضاع سيئة جدًا وكثيرة، ولم يكن لديه ثبات ولا استقرار على أي أمر، فإنه كان من المؤكد أنه محبوب ومرغوب، ومما لا شك فيه أن هذه الخاصية كانت عطية إلهية، ولم تكن تلك التطورات قد جاءت بسعيه الشخصي.

في ذكر سردارية «ساطورجي محمد باشا»

كان السلطان صاحب السعادة وحامي العالم قد ترك الوزير «حسن باشا بن محمد باشا» سردارًا في «بلغراد» بعد عودة الحملة إلى إستانبول؛ أي أنه لما كان ذلك أيضًا المقصود حسن باشا من رجال «جغالة زاده سنان باشا»، سعى الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» لعزله وإرساله إلى محافظة «ودين»[1]؛ وأمر بتنصيب «ساطورجي محمد باشا» سردارًا على المجر، ولما أظهر المومأ إليه «ساطورجي محمد باشا» العجز والفقر في قلة المال والاحتياجات، فبعد أن أعطي سرادقاته وجملة خيامه ومهترخانته[2] من خزينة الدولة، فقد أُنعم وأُحسن عليه بعشرة آلاف ذهبية من الطرف باهر الشرف للسلطان المقرون بالظفر؛ كما وزع السلطان عليه وعلى كل فرد من سائر الوزراء أيضًا جوادًا وجملًا وبغلًا. ففي البداية سلمت لـ «إبراهيم باشا»، ثم قام هو بتوزيعها على سائر الوزراء، ولما أكملت المستلزمات والمهام بالتمام، خرج «ساطورجي محمد باشا» في أواخر سنة خمس وألف هجرية[3] من «إستانبول» بطوابيره بحسب المراسم القديمة،

---

(١) «ودين»: هي المدينة نفسها التي تذكر أحيانًا باسم «بودين» وأحيانًا أخرى باسم «بدون».
(٢) هو طاقم الموسيقى العسكرية في الدولة العثمانية.
(٣) الموافق يونيو ١٥٩٧م.

وتوجه صوب بلغراد، وبعد أن وصل إلى «بلغراد»، قام بتوزيع الذخيرة على العسكر وأكمل أيضًا سائر لوازمه، ثم عقد العزم على التوجه صوب «بدون».

فتح قلعة «تاتا» للمرة الثانية سنة ١٠٠٦ هجرية[١]

كانت القلعة المذكورة قد فتحت أثناء فتح «يانق» قبل ذلك، وعندما سقطت في أيدي الكفار ثانية توجه إليها «ساطورجي باشا» في البداية، وقام بضرب الحصار عليها. وفي الليلة الثالثة، فضل الكفار المحصورون الفرار؛ حيث تحصنوا بقلعة «قومران»، وفي تلك الأثناء، كنا مع المرحوم أفندينا «محمد باشا» في وظيفة «قراول»؛ أي حراسة محاور الطرق وفي حراسة طريق «قومران»، فلما علمنا أن الكفار قد هربوا، قمنا بتعقبهم وجعلنا بعضهم طعمًا للسيف، وربطنا بعضهم بالسلاسل ولما كانت بالقرب من القلعة بحيرة تجري إلى جانب «قومران»، وكان يكثر بذلك المكان الغابات، بل كان عبارة عن مستنقع، فقد أتخذ عدد منهم أيضًا ذلك المستنقع مأوى لهم، وبذلك نجوا.

حرب طابور الكفار في صحراء «واج» في سنة ١٠٠٦ هجرية[٢]

وفي ذلك الحين، وعلى إثر إتمام الاستيلاء على قلعة «قومران»، وملاحظة اتساع الوقت وأنه لم يتوافر ذلك الجمع من العسكر من قبل، رؤي أنه من المناسب التوجه لفتح قلعة «واج» التي مثل حي من «بدون»، فتحركوا من أمام «تاتا»، وتم النزول أولًا في «أسكي بدون»، ولكن، بينما كان يبدو أن هذا التصرف تصرف خطأ، فقد تم اختياره بلا معنى، فقد استراح الجيش ومكث فترة في ذلك المنزل في الوقت الذي لم يكن هناك لزوم لذلك قط، وبعد ذلك، تم العبور من الجسر والنزول إلى صحراء «واج». ولكن، الثلج والمطر هناك لم يعطوا الفرصة حتى لفتح العين، وكان لا يزال هناك أكثر من عشرين يومًا على بداية الشتاء، وصبر الجند على ذلك حتى يعتدل الجو.

---

(١) الموافق ١٥٩٧-١٥٩٨م.

(٢) الموافق ١٥٩٧م.

ولما وصلوا ونزلوا إلى صحراء «واج»، جاء الكفار أيضًا بفرقهم ونزلوا عند مضيق ضيق في ساحل «طونه» في الجانب العلوي لـ «واج»، وأخلوا القلعة وحفروا الخنادق العظيمة أمام طابورهم المقهور، وأقاموا الأبراج والتحصينات على كل قمة مرتفعة، وعند بداية كل وادٍ، وملئوها برماة البنادق، وهكذا لم يدعوا فرصة تمكن من الوصول إليهم. ولما وصلنا إلى الصحراء ووقفنا في مكان لا تصل إليه المدافع وهجمنا على الكفار، خرج ثلاثة أو أربعة طوابير من المجر لمواجهتنا وحاربنا فترة مع هؤلاء، ولكن كانوا يتراجعون من أمامنا ويسحبون عسكر الإسلام إلى المرمى المؤثر لمدافعهم ويسحبونهم بالمناورة إلى رماة بنادق الطوابي [أي الموجودون بالطوابي المقامة]، ودار قتال خفيف على هذا النحو لمدة يوم أو يومين، وقتل عدد من الكفار، ولكن، لما كنا نحن أيضًا نحارب تحت مرمى المدافع، فقد سلك عدد كبير من رجالنا طريق العدم.

وكان المرحوم «ترياكي حسن باشا» في ذلك الوقت أمير أمراء البوسنة، فتجاوز عليه بعض الرجال الذين لا يحيطون علمًا بالوضع بالقول: «لم يسر على العدو، ولو أنه سار، لهزم طابور الكفار»، وفي هذا الحال، كان طابور الكفار في مكان أشبه بالقلعة؛ حيث كانت إحدى جوانبه عبارة عن جبل عظيم، وفي الجانب الآخر، حفر خندق عظيم أمام نهر «طونه» لا يمكن أن يطاف في ثلاثة أو أربعة أيام، واصطف رماة البنادق على هذا الخندق طابورًا طابورًا، وكان الكفار الذين يهربون من الميدان، كانوا يهربون حتى يصلوا إلى هؤلاء [أي رماة البنادق]، أما عسكر الإسلام فكانوا يتعقبونهم حتى يقعوا تحت نيران المدافع والبنادق، ولكن، ما المناص؟ فهذا هو حال الحرب، والذي يعرف يتحدث والذي لا يعرف أيضًا يتحدث، وعموما عمَّ الثلج الأبيض والجليد المكان، وحدث ما حدث، وبعد هذا فقد وجبت العودة.

وفي تلك الأثناء، قام الوزير الأعظم «قوجه مراد باشا» وأمير أمراء «ديار بكر» والمرحوم «هابل أفندي» قاضي «بدون» و«قاضي زاده علي باشا» صهر «مراد باشا» بتبادل الأخبار مع الكفار؛ حيث قرروا إجراء محادثات صلح معهم، ووصل هؤلاء إلى جزيرة «واج»، وأتى الكفار أيضًا إلى هناك ببعض السفن من نوع «شيقه». ومرة

أخرى كانت أنوف الملاعين في الهواء، وحلقوا بأنفسهم في الخيال فوق العلا، ولهذا السبب لم تحدث نتيجة ما من هذه المباحثات، وانقضى إياب وذهاب هذه الحملة بتضييع الأوقات على هذا النحو، وعلى الرغم من إخلاء قلعة «واج»، فإن وقوف طابور الكفار هناك، جعل نزول الرجل منا إلى داخلها أمرًا خطيرًا، ومن أجل هذا، لم يضع الغزاة أي شخص بداخلها، ولكن تركوا في «بدون» رجالًا بالقدر الكافي، وعُينت مواضع الإقامة في الشتاء لسائر العسكر، وأمضى أيضًا المرحوم «أفندينا محمد باشا» ذلك الشتاء في «بوزغه».

تعيين «خادم حسن باشا» وزيرًا أعظم وقتله بعد فترة قليلة وتوجيه الوزارة العظمى إلى «جراح محمد باشا»

عندما لم يحقق «ساطورجي باشا»؛ أي شيء في هذه الحملة، سلك طريق الحجج الواهية، وأرسل خطابات استغاثة قال فيها: «لم يأت خان القرم [تتار خان] ضمن العسكر المكلفين بالحملة»، وبعد ذلك عرف أن كل هذا ناشئ عن عدم اهتمام «إبراهيم باشا» اللازم بالحملة، وكان عزل «فتح گراي» وتنصيب «غازي گراي» خانًا على القرم بتلخيص واقتراح «إبراهيم باشا»، وقتل «فتح گراي» بلا ذنب سببًا لانكسار خاطر السلطان الطيب، ومن أجل ذلك أُحسنت الوزارة إلى «خادم حسن باشا».

ولكن ذلك أيضًا المقصود «خادم حسن باشا» كان حريصًا حرصًا شديدًا على أخذ الرشوة، ولما كان يتحدث بالكلام الموحش أحيانًا تصريحًا وأحيانًا أخرى تلميحًا كقوله: «لقد فرضت «والدة سلطان» علي الخراج». وعلى إثر سنعيه لإزالة وجود «غضنفر أغا» أغا خدم الباب، قُتل وأُعطيت الوزارة العظمى إلى «محمد باشا» الذي كان وزيرًا ثانيًا، وقد كتب «حسن بك زاده أفندي» في تاريخه أحوال العزل والتنصيب هذه بالتفصيل، ولكن لم يكن التكرار من لوازم التاريخ، ولما كان الاختصار مطلوبًا، فقد أكتُفي بهذا القدر.

انتصار الكفار الصاغرين على قلعة «يانق»
سنة ١٠٠٦ هجرية[١]

كان «محمود باشا» أمير أمراء «يانق» رجلًا ذا خلق معتدل وحليمًا جدًا، ولكن كان «يحيى أغا» أغا الإنكشارية غارقًا في الفسق والفجور، وبينما كان الكفار لا يعطون المسلمين حبة من الذخيرة أي الحبوب وسائر اللوازم الضرورية، كان هو يرسل الشراب أي الخمر للكفار بملء السفن، وأثناء تجمد نهر «طونه»، كان يرسلها بالعربات من البر. وكان حراس القلعة مبتلين بالشراب بالقدر الذي كان لا يوجد بينهم رجل غير مخمور. ولهذا السبب كانت أسوار القلعة لا تحرس بالشكل اللازم، وكان خدم الباب لا ينامون عند أبواب القلعة كالعادة، ولو قال أمير أمرائها أو غيره من القادة: «إن هذا المكان حدٌّ، وينبغي الاحتراز من أي إهمال»، كانت لا توجد إجابة سوى تلك الكلمة الناشئة من الغرور: «يانق محكمة؛ واسمها كبير».

وكان سنجق «بچوى» موكلًا به إلى أمير أمراء «يانق» بصفة «آربالق»[٢]. وكانت معظم ذخيرته تحمل بالعربات وتصل من «بچوى»، وكان مقررًا كل عام ذهاب وإياب مائتي أو ثلاثمائة عربة ثلاث أو أربع مرات، ومع أن هؤلاء كانوا يذهبون ويصلون إلى القلعة في أكثر الأيام، فإنه أثناء العودة كان الكفار يراقبون طرقهم؛ حيث كانوا يهجمون عليهم ويأخذون كل ثيرانهم، وبهذه الصورة اختفى من «بچوى» خمسة أو ستة آلاف ثور.

ولم تبقَ في بعض نواحي «بچوى» حتى رأس ثور واحد، ورأينا بأعيننا أن ذميًا ينقل المحصول إلى الجرن، ويحرث الأرض مع زوجته [أي بدلًا من الثيران]. ومهما استغاث

---

(١) الموافق سنة ١٥٩٧-١٥٩٨م.

(٢) آربالق: هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامي» في «قاموس تركي»: هي المخصصات التي تُعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 84.

الفقراء في تلك المناطق، فإنه لم يصغ لهم أحد، ولم تدفع مضايقاتهم، ولم تعالج أحوالهم تلك. وكان قد حُرِّر بالدفتر حوالي ألف أو ألفين من طائفة جبه جي ومقدار من طائفة أبناء الخدم أيضًا، كانوا قد بقوا في «يانق»، ولكن معظم هؤلاء تزوجوا في «بچوى» و«أستوني بلغراد»، وصاروا لا يذهبون إلى قلعة «يانق». وبهذه الصورة، أفرغت قلعة «يانق»، ومرة أخرى، يأتي مائتان أو ثلاثمائة رجل إلى «بچوى» بحجة إحضار الذخيرة، حيث كانوا يمكثون كثيرًا ويتعدون على فقراء البلدة، وعمومًا فبينما كانت أحوال القلعة هذه، علامة واضحة على الزوال، فلم يهتم واحد من حكامنا بالأمر ولم يتخذ التدبير اللازم، وخصوصًا كان قد استولى الكفار قبل عام على قلعة «تاتا» ثانية باستخدام المدافع من نوع «أغاج»، ولم تنجُ نفس واحدة ممن كانوا بداخلها؛ ولذا فقد هرب من «يانق» أربعة أو خمسة آلاف رجل؛ أي أنه كان قد هرب منها كل شخص يعرف أنه سيحدث لـ «يانق» مثل هذا المصير. وكانت قد تحققت توقعاتهم.

وفي ذات ليلة يجهز الملعون المعروف باسم «پالغي» عدة آلاف من جند المشاة، ويذهب مع ألف أو ألفين من السوارية، وكان يخفي مدافع «أغاج» بتغطيتها؛ حيث أحضرها إلى باب القلعة «يانق» دون أن يظهرها حتى لعسكره. وبسبب عدم اهتمام حكامنا، فعلاوة على باب القلعة الضعيف المصنوع من طبقة واحدة من خشب الصنوبر، كان لا يوجد سلم خشبي للعبور عليه، ولم يؤخذ أي تدبير دفاعي آخر، وفي نصف الليل، يأتي بعض الكفار إلى الباب وينادون: «أيها الحارس المناوب، أيها الحارس المناوب!»، وكان حارس برج الباب خادمًا شابًا، فعندما استيقظ وأخرج رأسه من الصخرة وقال: «من أنتم؟» يقرب هؤلاء الكفار المدافع من نوع الأغاج إلى الباب ويقولون: «ها نحن قد أحضرنا الذخيرة من «بچوى». والعدو قادم في الطريق. وقد نجونا منه بصعوبة هاربين بالعربات، وينبغي ألا يهجم علينا هنا، افتحوا الباب بسرعة، وأدخلوا الذخيرة إلى القلعة». فيقول الحارس الشاب أيضًا: «عليَّ أن أذهب وأخبر البواب وأحضر المفتاح»، ويذهب لإخبار ذلك، وأثناء حديثهم هذا، يقربون المدافع بالشكل الذي يريدونه ويطلقون النيران، ويكسرون الباب، فيدخل الملاعين

الذين حضروا بأعداد غفيرة إلى القلعة، وفي الداخل، عندما يعلم المساكين الذين كان بعضهم سكران وبعضهم يرقد مغمى عليه من الحشيش، بالوضع، يهجمون على الكفار من جانبين، حتى كادوا ينجحون في إحدى المرات بدرجة كانوا سيخرجون فيها الكفار من القلعة. ولكن كان الأعداء في كثرة، وهؤلاء في غفلة؛ ولذا فلم يفلحوا في ذلك، وبهذه الطريقة دخل حصن حصين مثل «يانق» تحت تصرف أعداء الدين.

ويروى أنهم قبضوا على أغا الإنكشارية السكير وأحضروه حيًا إلى «بالغى». وكان يوجد معه خمسة عشر أو عشرون ألف ذهبية، فيقول «بالغى»: «أتنتظر في القلعة على هذا النحو؟! أتخفي الذهب من أجل هذا اليوم ؟!»، ويأمر بقطع رأسه وبغرسها في صاري علم، ويأمر المنادي بالطواف بالقلعة وبالنداء: «إن مصير من ينتظرون في القلعة سوف يكون على هذا النحو».

ـ من نوادر الاختراعات: إن الإخوة الذين يطلعون على مجموعتنا المطبوعة هذه سوف يدهشون من هيئة وضع مدفع «أغاج»:

ففي أثناء الحملات، أحضر الكفار ذات مرة هذا النوع من المدافع، وقاموا بضرب باب قلعة «بشته»، وبفضل الله تعالى، لم يصب المكان المراد، ولكن كسروا جزءًا من الحجر الموجود في الطرف الأيمن من باب القلعة، وهذا الجزء ظاهر وواضح حتى الآن. وعلى هذا أتوا مرة أخرى بمدفع آخر، ولكن غزاتنا في هذه المرة لم يكونوا غافلين، حيث استولوا على ذلك المدفع قبل أن تطلق نيرانه، وكان هذا المدفع موجودًا في مخازن «بدون»، ونحن رأيناه عدة مرات، وإذا قيل: إنه لم يكن هناك شخص واحد من أهل ذلك العصر في «بدون» إلا ورأى هذا المدفع، فإن ذلك يكون حقيقة.

وهيئته مثل الهاون الكبير أو مثل الطاحونة التي يطحن فيها القمح. ولكن التشبيه الأوضح هو أنه مثل الجرس الموجود في ساعات مدن الكفار الكبيرة، وكان المكان الذي يشعل فيه النار موجودًا في قلب المدفع تمامًا، وتوجد في أطرافه مقابض مصبوبة معه في قالب واحد في أربعة أو خمسة مواضع، وهى في حجم نصف سجادة، وفي حجم

منضدة الكفرة تقريبًا، وكان لهذا المدفع أربع زوايا من خشب البلوط، وكان قد سُمر بمسامير فلك سمك القرش في كل زاوية من زواياه وفي وسطه على خشبة سمكها خمسة أو ستة أصابع، وقد سُمرت حلقات حديدية في الخشب الموجود أمام مقابض الهاون. وقد ملئوا الهاون بالبارود، وربطوا الخشب والهاون بعضهم ببعض بحبال إفرنجية متينة. وقد حملوه على عربة بعجلتين، وجعلوا له لوحًا خشبيًا طويلًا من الخلف كالسهم المدبب، وهو مثل ظرف البارود الهوائي الذي يربطون له ماسورة طويلة وبسببه ينطلق بشكل مستقيم. وعندما يحملون المدافع أيضًا أمام الباب، ويشعلون النار من الخلف، تتجه القذيفة إلى الباب مباشرة بفعل هذا اللوح الخشبي المستقيم، وغالبًا ما كانت القذيفة تلتصق بخشب الباب، ومهما كان الباب محكمًا وقويًا، كان يمكن كسره بقوة البارود ويزيله تمامًا. وهذا شرح تفصيلي لمدفع «أغاج».

في تفصيل حملة «وارات» التي قام بها «ساطورجي باشا» في السنة الثانية[1] سنة ١٠٠٧ هجرية[2]

لقد عاد المرحوم «ساطورجي» في تلك السنة خائبًا وخاسرًا، ففي ذلك الشتاء وفي الوقت الذي ضاعت فيه قلعة مثل «يانق»، لم يعاقبه السلطان. وحمل ذلك أحيانًا على خطئه وأحيانا أخرى على عدم إطاعة العسكر له.

وفي هذه السنة المباركة، أعطيت له خزينة بالقدر الذي يريده، وأرسل إليه جندًا أكثر مما يريد، ومع أن خان التتار كان موجودًا هناك وبصحبته جند التتار الجرارة، فإنه لم يرغب قط في التوجه إلى أي قلعة أو حصن، ولكن صدر إليه الأمر الشريف المقرون بالسعادة ليدخل إلى مملكة «أردل»؛ حيث ورد فيه: «ينبغي أن يبذل الجهد لتخريب البلاد على نحو يؤدي إلى إطاعة وانقياد مملكة «أردل»، والقصاص من «ريدمون» الضال الذي هو أميرها، وبذلك يصبح نادمًا على عناده».

(١) المقصود بها السنة الثانية لتوليه منصب سر دار.
(٢) الموافق سنة ١٥٩٨م.

وعلى هذا، أُقيم جسر في المكان المعروف باسم «پانچوه» في الجانب الأسفل من بلغراد. وعبر من «طونه»، وتم النزول إلى صحراء «پانچوه»، و بإرادة الله تعالى، توفي في تلك الأثناء الوزير «ولي باشا» أمير أمراء الروم إيلي؛ وأحسنت الروم إيلي على المرحوم الوزير «أفندينا محمد باشا» أمير أمراء الأناضول، وبينما كان الوزير مشغولاً بحشد العسكر في «أوسك»، وصل خبر البشرى. فأتى المرحوم أيضًا بلا توقف إلى الجيش الهمايوني، وتحرك من ذلك المنزل بصحبة السردار، ونزلا معًا إلى صحراء «بچكرك». وفي ذلك المنزل أتى السعاة بنبأ قرب وصول خان التتار، وأمضت الحملة بانتظار الخان ما يقرب من شهرين من الزمن، وهم يقولون: «اليوم، غدًا»، ولما أتى حضرة الخان، قام عموم عسكر الإسلام باستقباله وحملوه إلى الجيش الهمايوني، وتمت ضيافة الخان عالي النسب وإطعامه مع عسكر التتار بالنعم الوفيرة المبسوطة لهم في خيمة السردار.

فتح قلعة «چناد» في سنة ١٠٠٧ هجرية

لما تحرك عسكر الإسلام من المنزل المذكور في صحراء «بچكرك»، تم النزول قرب القلعة المذكورة؛ حيث حُصرت وضربت ببعض المدافع، ولكن لما حل الليل، قام أشقياء الطائفة المعروفة باسم «حيدود» الذين كانوا محاصرين بداخلها بترك القلعة، حيث فروا إلى غابات أشجار البلوط وإلى الغابات التي تكثر بها الحيوانات المفترسة والتي كانت موجودة بجوار القلعة، ولما علم عسكر التتار والغزاة صائدو العدو بذلك، قاموا بتتبعهم وترقبهم داخل الغابة؛ حيث قبضوا على أكثرهم، ومن هناك، وبعد المشاورة، فضلوا التوجه إلى «أردل» عن طريق «وارات».

- ومن نوادر العجائب: إنه كان يجرى نهر كبير يعرف باسم «مورنش» بجانب قلعة «چناد». فعندما تم النزول في ناحية قريبة، وبسبب بُعد النهر، حُفرت الآبار لتوفير الماء، فخرجت مياه لذيذة تشبه ماء الحياة، وفي اليوم التالي لما عبرنا النهر، أمرنا بحفر الآبار مرة أخرى، حتى بينما كان الخدم يقدمون على ذلك العمل، كنتُ أقف عليهم وأشاهد كيف يحفرون، ولما وصلوا إلى نهاية الحفر وضربوا إحدى المحافر، إذا ماء صنبور يظهر

في حجم الإصبع كالفضة الخالصة؛ كما لو يجري من الصنابير، حيث تدفق لأعلى بنحو شبر مثل الفسقية، فقلت بلا إرادة: «ضعوا إناء تحتها، ولنشرب من ذلك الماء الجميل حتى نرتوي». ولما وضعوا الإناء تحتها وملئوه بالماء ودفعوه إليّ، كانت المياه مالحة بالقدر الذي لم يكن ممكنًا شرب قطرة منه؛ فدُهشت لصنع الباري تعالى، هناك على هذا النحو أي عذب، وهنا هكذا أي مالح.

محاصرة «وارات» في السنة نفسها

ولما تم الوصول قرب «وارات»، شوهد أنها مدينة عظيمة. وكان المجريون يطلقون على المدينة في لغتهم اسم «واروش»، أما الـ «واروشو وار» فكانوا يعتبرونها المدينة التي تشمل هذه المدن التي تحمل اسم «واروش». وكان يقام السوق في واحدة منها في كل يوم من أيام الأسبوع. وكانت المدينة عامرة جدًا، حتى إنه لا يمكن وصف وفرة الحدائق وكثرتها والبساتين التي كانت في أطرافها وجوانبها والتنظيم والتزيين في كل واحدة منها.

وقد فضل أهالي واروشات أي مدن «وارات» الفرار، فركب بعضهم العربات وذهب، وبينما بعضهم الآخر كان يعد العدة؛ لأن يركب ويذهب وصل جند الإسلام، وغنموا غنائم كثيرة، وبعد ذلك، تشاوروا فيما بينهم: «هل يُهتم بفتح هذه القلعة أولًا، أم تقتحم «أردل» على الفور»، فقال أصحاب الخبرة والدراية بالأمور: «إن القلعة لا تقاوم المدافع حتى ثلاثة أيام، فينبغي الآن الشروع في إقامة المتاريس ونصب المدافع بها». ولم تجعل قصور الـ «واروش» [أي المدينة] الفخمة، وأحزمتها المبنية بالأحجار والأخشاب ومنازلها المنقوشة والمزدانة لم تجعل هناك حاجة لحفر الخندق، وفي الحال تم الدخول إلى المنازل ونصبت المدافع، وكانت المدافع ثلاثة فقط، ولما لم تكن هناك نية لتخريب البلاد، لم يتم إحضار الكثير منها، ولكن لم يتم ذلك الأمر خلال ثلاثة أيام كما كان متوقعًا أو حتى في خمسة أيام، فقاموا باستخدام الألغام، ولكن ذلك أيضًا لم يأت بنتيجة، وفي مقابل هذا الوضع، أرسل الرجال إلى «أكره» لإحضار المدافع، وتم انتظار

ذلك لأكثر من خمسة عشر يومًا. وفي نهاية الأمر، وصلت الأخبار بأنه ليس هناك ثيران لجر المدافع.

فعندما لا يقدِّر حضرة الحق سبحانه وتعالى أمرًا ما، تأتي جميع أسبابه معاكسة، فقد زاد المطر زيادة كبيرة لدرجة أنه بقي الماء تحت القلعة لأكثر من شهر، فلم يمض يوم إلا ويكون هناك مطر وسيل، ويفيض الماء ويجري داخل المدينة؛ حتى صار نهرًا كبيرًا يمر من داخل المدينة، وقطعًا كان ماؤه يزيد كل يوم، ولم يكن ممكنًا عبوره خلال عدة ساعات، وكان العسكر ينتظرون زوال الماء حتى يستطيعوا الذهاب، وفي مقر الجيش أيضًا وصل الطين لدرجة توقفت فيها الحركة من خيمة إلى خيمة، حتى دُقت الأوتاد في ارتفاع قامة الرجل وربطت في كل حبل من حبال الخيمة، ولم تبق الخيام أيضًا على استقامتها من شدة الرياح، وفي النهاية، كان الناس غارقين في النعم لعدة أيام. فمثلا كانت المائتا رأس حيوان بهائتي أقچة فقط، وقطيع الخراف أيضًا بالسعر نفسه. ولكن كان لا يوجد من يبيعها أو يشتريها، وفي الحقيقة، كان قد اغتنم معظمها من رعايا سنجق «صونلق» و«كوله»، والمأخوذ من حربهم لم يكن كثيرًا. ولم تكف ذخيرة تلك الجهات سوى عشرين يومًا فقط، حيث ذهبت بالإسراف والإتلاف. وبعد ذلك، أصبح التتار في حاجة إلى إحضار الأرزاق من مكان بعيد، وبسبب هذا، بلغ سعر كيلة الشعير ثلاثًا أو خمس ذهبيات، ولما صارت الأحوال على هذا المنوال، طلب الخان صاحب الشأن الإذن بالهجوم على «أردل» مع التتار آخذي الغنائم، وقال: «لقد احتسبتم أنتم بالقلعة، وعلى الأقل ينبغي ألا تحبسوا عسكر التتار»، ولكن السردار لم يأذن له بالهجوم قائلًا: «إن شاء الله تعالى، ما دام الأمر على هذا النحو، سنذهب سويًا خلال يوم أو يومين». ولكن شعر الجند بمزيد من الضيق، وزادت البرودة أيضًا، فأبردت العسكر، ووصلت الأيدي والأقدام لدرجة التجمد. وبدأت المصائب تحل تباعًا.

انهزام «حافظ خادم أحمد باشا» في «نيكبولي» في السنة نفسها

تظاهر «ميخال» الضال وكأنه قد تأثر وندم على عصيانه، وبدأ في التظاهر بالطاعة. وكان هذا بسبب خوفه من أنه عندما يدخل جند الإسلام إلى «أردل»، يحتمل جدًا أن

يجردوا مقدارًا من جند فرقة «آقنجي» الخفيفي الحركة مع جند التتار، ويرسلوهم لنهب الأفلاق. ولهذا السبب، كان قد أظهر الود لـ «خادم أحمد باشا» محافظ «نيكبولي». ولما علم وفهم أن قلعة «وارات» حبست السردار وأنه انشغل بها وتوقف هناك، حمل ذات يوم فجأة على «حافظ أحمد باشا»، وهزمه وأغار على جميع أمواله وممتلكاته، وقام أيضًا بسبي أهالي تلك المملكة وأوقع بهم الأضرار؛ حتى أحضروا له أيضًا الأثواب والملابس من نوع «شلوار» التي كان يلبسها «حافظ باشا» وأيضًا عمامته السليمية. ويقوم الملعون -بقصد الإهانة- بإلباس هذه الثياب لامرأة عجوز ويعرضها على عسكره قائلًا: «ها أنا قد قبضت على السردار»، ويتفاخر كثيرًا بهذا ويقول: «ما الفرق بين هذه وذاك؟!».

في ذكر حصار «بدون» في بدء الأمر واستيلاء الكفار على قلاع «پسپرم» و«پولاطه» و«تاتا» في السنة نفسها

وبينما كانت هذه الفاجعة وتلك المصيبة المقصود محاصرة «وارات» وانهزام «حافظ خادم أحمد باشا» في «نيكبولي» تكفي عسكر الإسلام؛ حيث أحزنتهم وأغرقتهم في حيرة تامة، أتى المستغيثون من «بدون»، وحكوا وأوضحوا أن ثمانين ألف كافر قد قاموا بمحاصرة «بدون» بأربعين مدفعًا، وأنهم أتوا على هذا الحال، وما لم يتم إرسال الإمدادات، فإن «بدون» ستذهب من يد المسلمين. وكانت الاستغاثات والصياح تصل إلى أفلاك السماء. فاجتمع حضرة الخان والوزراء وأمراء الأمراء وأغوات الأوجاق وأغوات الإنكشارية المشهورين، وفي نهاية المناقشات، قرروا تعيين عشرة أو خمسة عشر ألفًا من التتار وإرسالهم إلى «بشته»؛ ليبشروا الغزاة بقولهم: «ها قد وصل السردار». وبالفعل أرسلوا التتار بعضهم إثر بعض؛ وأعطوا «بدون» إلى «ديو سليمان باشا» بدعوى أنه تعرض للحصار في الساحل الآخر المقصود الأناضول. وعزلوا «ميخاليجلو أحمد باشا»، وتحرك عسكر الإسلام أيضًا من «وارات» وتوجهوا إلى «بدون» بنية تقديم المدد.

ولكن في طريق مجيئهم كان قد عُبر ثلاثة أنهار فقط، عبر إحداها من فوق الجسر، والاثنان الآخران بالأقدام، وأحد هذه الأنهار المعبورة بالأقدام لا يستطيع الحصان عبورها، أما الآخر فلا يصل إلى هناك، وفي هذه المرة، كان يلزم اجتياز اثني عشر نهرًا عظيمًا، فعبر واحد منها فقط من فوق الجسر، والأحد عشر الأخرى بصف ألواح الخشب وربطها والعبور عليها بآلاف من المحن والمشقة، حتى المدافع أيضًا نقلوها بربطها بالحبال الغليظة وسحبها من الماء، وهناك رأينا أنه بينما كانت المدافع تسحب، طفت فوق الماء، حتى إنه كان يظهر جزء من العجل خارج الماء؛ حيث سارت بسرعة وعبرت؛ أي أنها لم تعبر بغوصها وبتثبيت عجلها على الأرض التي في قاع النهر.

وكان المرحوم الوزير الأعظم «مراد باشا» في ذلك الوقت أمير أمراء «ديار بكر». وكان المرحوم «أوذن أفندي»، كاتب ديوان أفندينا الباشا المرحوم، رجلًا مسلمًا ومتدينًا. فكانا يدخلان في ربقة واحدة ويسحبان المدفع، ودخل كل من «صوفي سنان باشا» الذي كان أمير أمراء الأناضول برتبة وزير، و«محمود باشا» أمير أمراء «حلب» في ربقة أخرى. وقال المرحوم «أوذن أفندي»: «سجلوا هذا في التاريخ، واكتبوه في ألواح القلب، وبينوا أن وزيري السلطان صاحب السعادة وأحد أمراء أمرائه يدخلون في الربقة، ويسحبون المدفع؛ حتى لا ينسى ذلك على مدار الأزمان»، وكان المرحوم «مراد باشا» يشحذ الهمم باللطائف الكثيرة كقوله: «إذا كنا غير متساوين في طول القامة، فيا ترى أينا متفوق في القوة؟!»، وكان المرحوم «أفندينا محمد باشا» رجلًا وقورًا وصاحب منزلة رفيعة. فكان يسير بجانبهم فوق جواده، ويطيب خاطرهم وهو في مكانه، ولما ورد على الخاطر، أثناء تحرير هذه المجلة [المقصود تاريخ بچوي]، تصرفات الوزراء هذه وقول المرحوم «أوذن أفندي»: «سجلوا هذا في التاريخ»، أصبح ذلك باعثًا على كتابة هذه السطور، وربما يظهر صاحب لسان مبارك يقول: «فليرحم الحق سبحانه وتعالى وتبارك كاتبه والذي جعله يكتبه». وبسبب ذلك، نسأل الحق تعالى أن يجعله أيضًا من العباد المرحومين، بحق الحق ونبيه المطلق.

ولكن الآلام والشدائد التي حلت بالجيش في تلك الحملة التي خلفت المحن، كانت زائدة عن حد التعبير والتحرير، وكنا قد وصلنا عند الذهاب من «كوله» إلى «وارات»

في ثلاثة أيام. وفي هذه المرة؛ أي أثناء العودة أتينا خلال اثني عشر يومًا بمعاناة عظيمة، ففي منزل واحد، أقصد في مستنقع واحد، كان مئات من الرجال يهلكون؛ بسبب المرض الذي كان نتيجة البرد والجوع، ولما تم النزول إلى صحراء «كوله»، ظهر حدث عجيب: كان المرحوم الشيخ «علي دده» الذي كان رجلًا صاحب كرامة أولياء ومستجاب الدعوة وكان شيخ التربة الشريفة للمرحوم الغازي السلطان «سليمان خان» في «سكتوار» كان موجودًا في هذه الحملة المملوءة بالمخاطر، وكان يستريح قليلًا في خيمة «تذكرة جي علي أفندي» المعروف باسم «فريدون علي» والذي كان «تذكرة جي» السردار، ويشرب القهوة. وبعد ذلك يخرج من الخيمة وينوي لأداء صلاة العصر فيما بين حبال الخيام. فإنه ربما كانت قد انتهت المهلة التي منحت له وحان الوقت الذي سيصل فيه إلى الخلود السامي. فلما طال بقاؤه في السجدة، يقترب منه الصوفي المعروف باسم «حاجي سفر» وعندما يلمسه، يعرف أنه توفي ولحق برحمة الحق تعالى فيرفعونه ويمددونه، ويقرءون ويتلون عليه القرآن العظيم، وبعد ذلك يغسلونه ويجهزونه ويكفنونه، ثم يصلون عليه. ويحملونه إلى صحراء «سكتوار» التي بها مرقده المعطر حاليًا بناءً على وصيته، وكان هناك صوفي معروف باسم «شيخ قاسم» الذي ارتقى لمرتبة الشهادة في فتح «سكتوار» وكان مدفونًا بها، فيقومون بدفنه في ذلك المكان نفسه؛ يعني بجوار قبر ذلك الولي، وحينما تفضل بالحديث إلى بعض أحبائه في ذلك اليوم: «إننا انتظرنا استشهادنا في هذه الحملة. ولكن حكمة الله خالفت ذلك، فلم نعرف ما سبب ذلك»، إلا أن الوقت المعهود الذي كان يترقبه كان هو ذلك اليوم، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

وإنني هذا العبد الذي كله تقصير[1]، بينما كنت أرافقه ذات يوم وأسير مع المرحوم [المقصود علي دده] في ذلك الطريق، وبينما كنت أتحدث معه عن الأمور المتعلقة بالأوضاع العامة والخاصة التي كان يعاني منها في هذه الحملة، قلت: «عجبًا، يا سلطاني، لم يحسب

(١) المتحدث هنا المؤرخ نفسه "إبراهيم بجوى".

طريق صاحب الدولة هذا [أي السردار]، ولم يتم الوصول لأي نتيجة على الرغم من هذا القدر من السعي والهمة وبذلك العناء والمشقة»، فتفضل المرحوم بالقول: «إن الأنانية والغرور والتشبث بالرأي الشخصي ورؤية الذات فقط مجتمعة في هذا الرجل. ولو يبتلى أي شخص بواحدة من هذه الخصال الذميمة لن يمدح أبد الآباد ولن يكون هو أيضًا مسرور الفؤاد، فحينما تكون جميع هذه الخصال موجودة في شخص واحد، أينبغي أن يكون موفقًا في تلك الفتوحات؟! أينبغي أن يكون الناس مسرورين في عصره؟!»، وكنت قد جعلت هذا الكلام الشبيه بالدرر الذي سمعته من لسانه الشريف حلقًا في أذن عقلي، والآن تجرأت على تسجيله بالقلم، فهو كلام عزيز أي صوفي مملوء بعبارات الحكم، وربما تكون هذه العبارات باعثًا على نصيحة الكثير من الأشخاص. ولنعد ثانية إلى صدد حديثنا.

وفي اليوم الذي نزلنا فيه إلى صحراء «كوله»، كان المرحوم «إسكندر باشا» في ذلك الوقت كتخدا المرحوم «تيرياكي حسن باشا»، فامتطى جوادًا سريعًا مع حوالي عشرين من طائفة اللوند[1] المجربين ذوي الأحمال الخفيفة، وأتوا إلى مكان الاستغاثة. فأبلغ المستغيثون أن الكفار قد انتصروا في قلاع «پسپرم» و«پولاطه» و«تاتا» وهم يأتون لمحاصرة «بدون»، وطلبوا الإمداد بإصرار، وفي اليوم التالي، جعلوا المرحوم الأمير [المقصود إسكندر باشا] يعود إلى الجيش الهمايوني بكثير من الوعود الخادعة، ولما كان المرحوم الأمير والد زوجتي أنا هذا الحقير المملوء بالتقصير [المقصود بچوي]، وابن بلدتي، كان قد نزل بخيمتنا مباشرة، وكان يوجد لدينا من أنواع الزاد والزواد ثلاثة أرباع أو أربعة أرباع باصترمة أنكوريه أي مجرية ومقدار من الأرز، ولم يكن هناك شيء مضر بالأسنان خلاف هذا الطعام، وأخيرا، أرسلت خادمًا من أجل أن يشتري خبزًا بست ذهبية. فأحضر ست قطع من الخبز من نوع صمون [وهو عيش مدور ومنتفخ]، فسررنا بذلك القدر، كما لو كنا قد وجدنا كنزًا، وقد صرنا نحن وضيوفنا على حد سواء في سعة

(١) لوند: اسم يطلق منذ القدم على صنف من الجنود العاملين في البحرية.
-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 358.

من الحال بهذا الطعام، ولما أتينا إلى «صونلق»، أخذنا الخبز الذي سيصبح باعثًا على رفع الروح المعنوية، على هذا النحو مرة أخرى، وبينما كان يهدئ من حدة عسكر طائفة خلقي بالقول: «إن سفن الذخيرة حاضرة في ذلك المنزل». وبينما ضاق جميع العسكر ذرعًا؛ بسبب الجوع، فلم يظهر أثر عن هذه الذخيرة ولم يصل خبر من تلك السفن، وكانت أسطورة التوجه إلى «بدون» سببًا واهيًا يتردد على لسان العسكر، وكان العسكر جوعى، وكان لا يمكنهم الذهاب أو حتى البقاء على هذه الحالة، وفي هذه الأثناء، التقط كل فرد من طائفة الإنكشارية وبعض من العسكر قطعة الحطب في يده، والتقط آخرون كرات من الطين، والتقطت طائفة أخرى عظام حيوانات وساروا متوجهين إلى خيمة السردار المحفوف بالوقار، ولم يكن السردار غافلًا. فلما رأى هجومهم، عرف نيتهم، فامتطى على الفور جوادًا وهرب، فقام الإنكشارية وسائر العسكر بهدم خيمته ونهبوا خزينته ومطبخه، ثم هدموا خيمة الدفتر دار «أتمكجي زاده»، ونهبوا ممتلكاته، حتى قالوا: «لقد قال «أتمكجي زاده»: أكملنا هذه المرة عرض الدفتر دارية».

وبعد ذلك، أتى أغوات الجند وضباطهم، فأرضوهم بكثير من المنة والفضل. وصرف النظر عن التوجه إلى «بدون»، وأرسلوا أمراءهم إلى طريق «سكدين»، وكان السردار يتجول في أطراف الخيام حتى وقت الغروب، وشعر بالخزي من الناس في أن يدخل خيمته، وبينما كان يتجول بصحبة رجلين أو ثلاثة، اقترب إلى خيام المرحوم أفندينا. وأرسل رجلًا إليه وقال: «أرسلوا رجلًا لدعوتنا». ولكن المرحوم لم يرسل أي أحد قائلًا: «إنه ابن مدينة، ويتلون. وهو يقول بأن البلاء مبارك علينا!!». وبعد ذلك، أتى بنفسه، وشكا وبكى قليلًا ومتأوهًا: «آه يا ذراعي، آه يا وسطي»، وربما وقت هروبه، قام بعضهم بضربه في ذراعه، وبعضهم ضربه في ظهره بالعظم الكبير الذي ألقوه من خلفه. وفي الواقع أنهم جرحوه.

وبعد ذلك، استودعنا «بدون» إلى جناب رب العالمين. وذهبنا صوب «سكدين». وخصصوا قصبة «صونبور» مشتى لخان التتار، وسنجق «سكدين» مشتى لعسكر التتار. وأرسلوا أيضًا المرحوم أفندينا «محمد باشا» إلى مشتى «بچوي». ولما كان السردار حزينًا،

يملؤه قدر عظيم من الغم والألم، وأصيب جسده بالجروح التي أحدثتها العظام الملقاة من خلفه، تغير مزاجه ومرض. وفي «سكدين»، كان قد وصل المرحوم أفندينا [المقصود محمد باشا] بعد صلاة المغرب للسؤال عن حاله، وكنت أنا هذا الحقير كثير التقصير موجودًا معه وبصحبتنا أغا أو اثنين لنقوم بخدمته، وبعد أن استرحنا قليلا، وصل الخبر بأن حضرة الخان على وصول؛ فقام السردار بإرسال «محمد باشا» قائلًا له: «يا أخي، ليس لدينا قدرة على استقبالهم، فاتعبوا واستقبلوه وأحضروه إلى الخيمة»، فقام المرحوم أيضًا باستقبال حضرة الخان، وكان قد أحضره إلى الخيمة بالتعظيم والتكريم، وكان حضرة الخان متفاهما جدًا مع المرحوم «ساطورجي»، حتى إنه كان يتردد عليه من وقت لآخر، وفي بعض الليالي، كان يقضي الليل في خيمته، وغالبا ما كانا يأكلان ويشربان معًا في أوائل حياتهم بإستانبول. والآن كان السردار يراعي حقوق تلك الصداقة.

ولما كان الجو ممطرًا، كنا نتكئ ونجلس تحت مشمع الخيمة مع أغا أو اثنين من أغوات المرحوم «محمد باشا»، وكنا نسمع حديثهم المعتبر، ولما جلس حضرة الخان بدأ الحديث وسأل المرحوم عن حاله وخاطره، فأشار المرحوم «ساطورجي» إلى بعض علله قائلًا: «كان يجب أخذ التدابير في كل وقت من أجل تليين الأمعاء، فكنا نعدل اضطراب أحوالنا العضوية أحيانًا بتناول المشروبات وأحيانًا بالحقن، ولما انقضت أوقاتنا في الحملة في هذه السنة على هذا النحو، لم يكن الوقت والزمان مساعدين لفعل هذا، وذلك هو سبب انحراف مزاجنا»، فقال حضرة الخان أيضًا: «قلتم احتقان!! أم هل حقنه؟». ولما قال «ساطورجي»: «بلى» قال الخان: «الموت أفضل من هذا بكثير».

ولما كان «ساطورجي» الذي نشأ وتربى في المدينة رجلًا صاحب دراية بآداب الحديث هكذا، فإن ذكره كلمة الاحتقان في مجلس الخان يعتبر خارجًا عن الآداب، وخطأ فاحشًا، ومع أنه تشم رائحة الغيبة من كلامنا هذا، فإنه حاشا أن يكون مقصدنا إفشاء عيب الذين رحلوا قبل أربعين عامًا؛ وإنما كان غرضنا بيان أن من آداب مجالس الكبار، الاحتراز من الكلام الخارج عن الآداب هكذا.

ومن هذا المنزل، عزم «ساطورجي» على التوجه إلى «بلغراد»، وذهب سائر الكبار إلى مشاتيهم. وهكذا تم بيان نتائج حملة «وارات» ومحنها الكثيرة، على هذا الوجه.

تعيين «إبراهيم باشا» وزيرًا أعظم وجعله سردارًا على بلاد المجر سنة ١٠٠٨ هجرية[1]

لما عجز الصدر الأعظم «جراح محمد باشا» عن الذهاب إلى الديوان الهمايوني، وربما عن مباشرة مصالح المسلمين في قصره أيضًا؛ بسبب ابتلائه بمرض النقرس، أحضر «نشاني باشا» إلى قصره، وكان ينظر في مصالح الفقراء، أي ينظر في عروض حال أرباب الحاجات التي يطلق عليها «قره شكا يتجي»، ويقوم بدفع المظالم بالأحكام وفقًا للقانون، ولكن لما أُبلغ السلطان صاحب السعادة بأنه من غير اللائق أن يكون مقام الوزارة بالبدل في هذه الدولة العلية، عُزل «جراح باشا»، وعُين مكانه «إبراهيم باشا».

ولما كانت أحوال «ساطورجي» على هذا النحو السيئ، صدر الأمر أيضًا بإسناد سردارية بلاد المجر لـ «إبراهيم باشا»، ولما حل شهر ربيع الأول، تقدم «ناخن برحسن أغا» منزلًا على رأس العسكر مع طائفة الإنكشارية وفقًا للعادة، وبعده عزم السردار ذو الوقار على التوجه إلى جانب بلغراد دار الجهاد مع الجند صائدي العدو.

- في ذكر أحوال الدفتر دار «أتمكجي زاده»:

لما عُزل «ساطورجي» عن السردارية، وأعطي هذا المقام إلى «إبراهيم باشا»، لم يستطع «أتمكجي زاده» الانتظار في «بلغراد»، وذهب لاستقبال «إبراهيم باشا»، ولكنه وصل إلى «أدرنه» واختفى هناك، وبعد ذلك، نال الإذن بتقبيل يد السردار بحماية من «محمد كتخدا» وببذل مصاريف وهدايا كثيرة، وبينما كان متوجهًا إلى «بلغراد» مع الجيش، شاع خبر قتل «ساطورجي» في منزل «پراكين»؛ فسُلم إلى سجن أغا السباهية «آلاجه محمد أغا»، وبعد ذلك؛ لما تم الوصول إلى «بلغراد»، حُبس بالقلعة، وصُودِرَتْ ممتلكاته،

---

(١) الموفق سنة ١٥٩٩م.

واستُولِيَ على أمواله التي كانت في «أدرنه»، وأُرسلت الأوامر الشريفة إلى باش دفتر دار «برهانَ أفندي» الذي كان مكلفًا بتحصيل المال في الروم إيلي من أجل تحصيل نقوده بالقوة وتوزيعها على رجاله وجواريه أيضًا، ولكن بعد كل هذا، أحسن عليه بمنصب باش دفتر دار قائلين: «لا يوجد في بلغراد رجل ذو خبرة أفضل منه لإعداد الحملة». فعلا قدره إلى الفلك الأعلى، والحق فقد أكمل وأعد مهمات الحملة كما ينبغي، ووزع مرتبات الخدم، وباشر المهمات والخدمات أكثر من المتوقع.

قتل «ساطورجي باشا» المرحوم سنة ١٠٠٨ هجرية[١]

لما وصل أغا الإنكشارية «طرناقجي حسن أغا»[٢] إلى بلغراد مع طائفة الإنكشارية، بذل ما في وسعه لاستضافة المسكين «ساطورجي» وذلك بمقتضى شرف الوزارة، حيث أُعد له طعام لا حصر له، وأرسل بعض الرجال من الأعيان لدعوته، ولما أتى «ساطورجي» وحضر إلى الطعام، قدموا له عندئذ الخط الهمايوني الخاص بإعدامه، وكان الجلادون مستعدين، وقالوا: «أمر السلطان»، وطيروا طائر روحه من قفص جسده. رحمة الله تعالى عليه.

ـ ومن مضحكات إبراهيم باشا المرحوم:

يروى «آلاجه محمد أغا» الذي كان في تلك الأثناء أغا لبلوك السباهية ما يلي: لما ورد خبر قتل «ساطورجي» أبلغوا هذا الخبر إلى «إبراهيم باشا»، فغضب جدًا قائلًا: «هذا كذب ولا أصل له، ومن أحضر هذا الخبر؟»، وعثروا على هذا الرجل، وأحضروه إلى «إبراهيم باشا»؛ فسأله «إبراهيم باشا» قائلًا: «ممن سمعت هذا الخبر؟». وعندما قال هذا الرجل: «لم أسمعه من شخص. وإنما كنت موجودًا هناك».. أمر «إبراهيم باشا»

---

(١) الموافق سنة ١٥٩٩م.

(٢) إن «طرناقجي حسن أغا» هو الاسم نفسه «ناخن بر حسن أغا». والاختلاف هنا في الصفة التي تتقدم الاسم، فالكلمة «ناخن بر» فارسية والمقابل التركي لها «طرناقجي» وهي تعني من يقوم بتقليم أظافر الخيل والدواب.

بحبسه قائلًا له: «انظر ذلك الكافر، يكذب أيضًا في مجلسي. ورأس السلطان المباركة، لو يبدو أن هذا كذب، فإنني أقتلك بأشد الإعدام». وزاد في الكلام كثيرًا وانقلب إلى الجنون، وخطب إلى أهل الديوان، وأحيانًا كان يحلف باليمين وأحيانًا يحلف بالطلاق قائلًا: «أيها المسلمون هل هذا الأمر ممكن أن يحدث؟ ففي الوقت الذي لم يكن فيه إذن من السلطان، وليس لدي خبر، ينبغي أن يقوم أحد أغوات الإنكشارية بقتل أحد وزراء السلطان المشهورين على هذا النحو، فلا تصدقوا هذا، فمن المؤكد أنه كذب». وكان حاله هكذا، كأن أذنه لم تسمع ما قاله لسانه.

ونحن[1] كنا نجلس في مواجهته، فأشار إليَّ، فذهبت إليه، فهمس إلى أذني بقوله: «هل تعرف «أتمكجي زاده» دفتر دار «ساطورجي»». فقلت: أعرفه. فقال: «اذهب الآن، وأينما تجده، احمله وأحضره إلى خيمتك واحبسه بإحكام». فلما خرجت إلى الخارج، وسألت عن مكان الكتخدا، قيل: إنه دخل الكتخدا بك إلى خيمته في هذه الساعة، فوصلت إلى الخيمة، وجلست في مكان أسفل المكان الذي يجلس فيه، وشربت القهوة وفتح الكلام المتعلق بقتل «ساطورجي» وفي النهاية، لما نهض «أتمكجي زاده»، فإنني هذا الفقير أيضًا نهضت معه وذهبنا معًا نتحدث مع بعض. ولما وصلنا إلى مفترق طريقنا، قلت له: «تفضل إلى خيمتنا». فتغير على الفور وقال «ما السبب؟». فقلت: «هكذا أمر صاحب الدولة المقصود الباشا». فقال: «لا بد أن أصل إلى كتخدا بك». فقلت: «لا يا سلطاني، أرسل أي رجل، فليس ممكنًا أن تصل بنفسك» وحملته إلى خيمتي، وبدأت بالحديث معه لتهدئته بقدر ما يمكن، ولكن لم يؤثر فيه كلامي ذلك؛ لأن المرحوم «آلاجه» كان في مقام «جلاد باشي» أي كبير جلادي الوزراء. فالشخص الذي سيموت أو الذي يؤمر بقتله، قطعًا كان يزج في حبسه.

وعندما وصل الرجل الذي أرسله «أتمكجي زاده» إلى «محمد كتخدا»، ووضح له الأمر، غضب «محمد كتخدا» جدًا لقيامي بحمل «أتمكجي زاده» من خيمته ولم أخبره.

(١) المتحدث هنا: «آلاجه محمدأغا».

ويذهب إلى «إبراهيم باشا» بتمام الحدة ويقول: «لقد قام «آلاجه» بالقبض على أتمكجي زاده، فهل أنتم أمرتم بذلك»، فيحلف «إبراهيم باشا»: «لم آمره بذلك، وليس لدي خبر وإنه كذاب». ويقول محمد كتخدا: «من هو أغا البلوك حتى يحمل رجلًا مشهورًا على هذا النحو بلا ذنب ويحبسه دون أن يكون لديك أو لدى خبر. فما هذا الأمر الذي يحدث؟». وعلى كل، فبعد كثير من الجدال، لا يستطيع «إبراهيم باشا» مقاومة إصرار كتخدا بك، وينادي على «آلاجه محمد أغا»، ويقول له: «لماذا حبست رجلًا دفتر دارًا ؟ هل أنا قلت؟ هل الكتخدا قال؟»، ولكن «آلاجه» كان يعرف طبيعة «إبراهيم باشا»؛ ولذا لم يجب قط، وحنى رأسه ووقف، وقام «إبراهيم باشا» بشتمه والغضب في وجهه بالدرجة التي كان الذين لا يعرفون حاله يقولون سيقتل هذا الرجل الآن. ومرة أخرى صاح إليّ مَن بالديوان وقام بالسب والشتم بأشد الكلام الذي أتى على فمه على مدار ساعة قائلًا: «انظروا أيها المسلمون، ماذا بقي لنا من وضع، وماذا بقي لنا من الأيام؟ رجلٌ أغا بلوك بينما لم تكن له أي علاقة قط، يحمل رجلًا مشهورًا بتلك الدرجة ويحبسه، فبالتأكيد يجب أن يقتل هذا، ولكن في أي شكل يجب أن أقتله»، وأدخل إصبعه الأوسط في تجويف راحة يده قائلًا: «كافر، كافر»، وهو في غضب؛ يعنى أشار بعدم القسوة عليّ. وبعد ما رأى الكتخدا حال الباشا هذا، قال: «والآن يا سلطاني، فلتأمر بأن يطلق سراحه».

وعندما خرج «محمد كتخدا» للخارج، نادى «إبراهيم باشا» عليّ وسأل عما إذا كانت قد وضعت أو لم أضع الكلابشات في يد الدفتر دار، فقلت: لم أضعها. فنبه قائلًا: «إنني أقول لك، اقبض عليه بإحكام». فقلت: «يا سلطاني، إنني أُحكم عليه القبض، ولكن كيف تُنقذونني من كتخدا بك؟». وعلى هذا، أجاب «إبراهيم باشا»: «هو يهزو بالكلام، وأنت لا تسمعني»، وعندما أتى إلى «بلغراد»، قام بحبس الدفتر دار. ولكن «أتمكجي زاده» تحين فرصة بعد ذلك وأمر بإجراء تفتيش على «آلاجه» المسكين وأمر ببيع كل ممتلكاته وجلب مصائب الدنيا على رأسه.

وهكذا، كانت هذه واحدة من تصرفات المرحوم إبراهيم باشا المضحكة. وتقاس تصرفاته الأخرى على هذا.

في ذكر حملة «أويوار» التي قام بها الصدر الأعظم والسردار الأكرم «إبراهيم باشا» في السنة الأولى من سرداريته

لما وصل السردار إلى «بلغراد» قاطعًا المنازل، وزعت الذخيرة التي كانت معدة في بلغراد على العسكر، وبعد أن أكملت الاحتياجات الأخرى ومهمات الحرب ومستلزماتها كما ينبغي، عزم على التحرك إلى جانب «بودين»، وتوجه حضرة الخان من «صانبار»، ونزل إلى صحراء «بشته»، وكان العدو يقيم مع طابوره في صحراء «چكردلن» تجاه «أسترغون»، فصدر القرار بالوصول إليهم. وعندما اتجه عسكر الإسلام والتتار صوب «واج»، قام الكفار بحرق وهدم «واج» وتركوها خاوية، ومن هناك تم النزول إلى أمام «نويغراد»، ولكن صُرف النظر عن الهجوم عليها، لوجود مصاعب تواجههم في الاستيلاء عليها، وبعد ذلك أحرق حصن أو حصنان كانا على الطريق، وتم الوصول إلى محاذاة طابور العدو، ولكن الكفار فهموا أنهم يستطيعوا المواجهة؛ ولذا عبروا بالكامل إلى الناحية الأخرى من الجسرين اللذين أقاموهما على ساحل «أسترغون»، وفي هذا المكان أغفلوا عسكر الإسلام لعدة أيام بحجة الصلح، وأرسلوا بعض الملاعين من أعيان أمراء «نمچه» رهينة، ووصل من طرفنا أيضًا إلى الكفار كل من المرحوم «مراد باشا»، وكتخدا الصدر الأعظم «محمد كتخدا»، و«أحمد أغا» الذي كان بمثابة الوزير الأعظم لحضرة الخان. وتباحث الطرفان ببعض الكلمات الخارجة عن حدود الأدب في موضوع تبادل «أكره» بـ«أسترغون»، ولم يكن المقصد الأصلي للكفار من هذا سوى منع عسكر التتار من نهب بعض الأراضي التي في ساحل «أويوار»، وفي الوقت الذي كانت فيه نواياهم هذه واضحة كوضوح النهار، فإنه قَبِلَ رجالنا الكبار المحاورة معهم، ولم يصلوا إلى قرار في هذا الموضوع، وعادت رهائن الطرفين إلى مقر جيوشهم.

وبعد ذلك، قام عسكر التتار بالهجوم على أطراف «أويوار»، وغنموا بعض الأحصنة والبغال والحيوانات التي يؤكل لحمها، ولكن هذه الغنيمة كانت لا تكفي كثرة عسكر الإسلام وغير كافية لأن تكون عوضًا عن المساعي التي بذلت، وكان قد اقترب الشتاء

أيضًا، ولزمت العودة بالضرورة، وبقي في الحدود الذين سيبقون، أما الذين سيذهبون فإنهم اتجهوا صوب مشاتيهم، وقال خان القرم أيضًا: «إن عسكر التتار لهم حقوق من الخزينة، ولا يستطيعون أن يتحملوا قضاء الشتاء لعام آخر أيضًا، فطابور بلا زاد أو ذخيرة وأعزل إنما هو فقير، والتمسك بهؤلاء لعام أيضًا غير صواب»، ومهما رُجيَ منه وأُصر عليه بالبقاء، فإنه لم يستجب، وتحرك مع عسكر التتار وتوجه صوب القرم التي هي مملكته.

ولم يظهر الود من الخان تجاه «إبراهيم باشا» ولم يأتلف معه؛ ومهما أظهر «إبراهيم باشا» من الرعاية للخان، فإنه لم يظهز المودة، والله تعالى يعلم، ربما لم يتنازل الخان بالمجيء ولو مرة واحدة إلى خيمة «إبراهيم باشا»، وكانت معظم ملاقاتهم تتم خلف الحصان، والتقوا مرة أو مرتين في تكية الصحراء الواقعة في صحراء «بشته»، وكان كل واحد منهما يضع سجادة ويجلسان وجهًا لوجه، وكانت محادثاتهما تبدأ هكذا وتنتهي أيضًا هكذا، وكان الخان يأتي مع طابور عظيم، ويقترب إلى المكان الذي يوجد فيه «إبراهيم باشا» مع سائر رؤساء العسكر. فيصل «إبراهيم باشا» أيضًا، ويقوم بإنزال الخان من على الجواد، وبعد ذلك، عندما يذهب كان «إبراهيم باشا» يدخل تحت إبطه ويركبه جواده، وهكذا لم يقصر «إبراهيم باشا» في تنظيم الخان وإجلاله، ولكن الخان لم يظهر المودة قط.

إعلان كفار «فرنجة» الطاعة وقيامهم بتسليم قلعة «پاپا» وقتلهم المجريين الذين كانوا بداخلها سنة ١٠٠٨ هجرية[(١)]

كان قد أتى كفار كثيرون من مملكة «فرنجة» لإمداد كفار «بج»، ووضعوا في قلعة «پاپا» أكثر من ثلاثة آلاف من هؤلاء لحمايتها، فإنه لم توزع عليهم علوفة لمدة عام، فتخاصموا مع المجريين المحليين وسائر الفجار عدة مرات، وكانوا أحيانًا يتقاتلون

(١) الموافق سنة ١٥٩٩م.

وأحيانًا أخرى كانوا يتصالحون، وفي النهاية انتصروا على المجر، وقاموا بقتلهم جميعًا ونهبوا أموالهم وممتلكاتهم، وأسروا أهلهم وعيالهم.

وبعد ذلك، أرسل كفار «فرنجة» بعض الرجال من بينهم إلى المرحوم أفندينا «محمد باشا» الذي كان موجودًا في «بدون»، وقالوا له: «تعالوا وخذوا القلعة؛ ولكن بشرط أن تعطونا علوفتنا المقررة». وأرسلوا خطابات أيضًا بهذا المضمون إلى «درويش باشا» أمير أمراء البوسنة الذي كان محافظًا لـ «أستوني بلغراد»، وعلى هذا قام المرحوم «محمد باشا» بإرسال ثلاثمائة أو أربعمائة رجل تحت قيادة كتخداه «عبدي كتخدا». وعين «أرناءوط حسن باشا» أمير سنجق «أستوني بلغراد» ـ الذي كان قد عُهد إليه بالسنجق بسبب أنه كان مشهورًا وبطلًا مغوارًا من أبطال طائفة «قبوجي باشي» الخاصة بالمرحوم «تيرياكي حسن باشا» ـ وذلك حتى يتوجه إلى قلعة «بابا» مع جند «أستوني بلغراد». وأرسل «درويش باشا» من ناحيته أيضًا الرسائل والرجال.

ولما وصل هؤلاء جميعًا إلى «بابا»، رأوا أن كفار «فرنجة» لم يتركوا رجلًا من المجر أو من «نمچه» أو أي شخص يخالف جنسهم؛ حيث قاموا بقتلهم جميعًا وسبوا ونهبوا ما ملكوا وأسروا أيضًا أهلهم وعيالهم. حتى أهدوا أسيرًا أو أسيرين من كل طائفة إلى «عبدي كتخدا»، ولم يتوانوا دقيقة في رعاية وإكرام كل من جاء إليهم، وقاموا أيضًا بإرسال ثلاثة كفار مشهورين إلى «أرناءوط حسن باشا» المومأ إليه؛ حيث ذهب بهم إلى حضرة السردار الأكرم الموجود في «بلغراد»، ولما وصلوا إلى «بلغراد» قاموا بعمل حساب علوفات كفار «فرنجة»، فبلغت ستين ألف ذهبية. وفي الحال، عرض الوضع على السلطان صاحب السعادة، فأرسلت هذه النقود بالتمام.

وبينما كان السلطان مشغولًا في تدبير إرسال النقود إلى هؤلاء وإمدادهم بالجند وتوطين العسكر بالقلعة، صار ملاعين «نمچه» مثل الثلج الأبلق؛ حيث اشتعلت غيرتهم وقويت همتهم، وتوجهوا إلى قلعة «بابا»، وحاصروا القلعة بالمدافع الكثيرة. وقاوم كفار «فرنجة» المساكين أكثر من شهر، وكانوا يأملون في المدد. ولكن لما يئسوا

ورأوا تفوق كفار «نمچه»، قاموا ذات ليلة بترك القلعة، وفروا نازلين إلى الجبال سعيًا للجوء إلى الممالك الإسلامية، وما بين «أستوني بلغراد» و«بابا» مسافة ستة أميال مجرية. فلو يسير أي أحد بلا مانع أو منازع، يقطع المسافة في يوم واحد فقط. وخلاصة القول: فقد قام كفار «نمچه» والمجر بتعقب هؤلاء أي كفار فرنجة الذين كانوا لا يعرفون الطريق أيضًا، فكانوا يسقطون بين الجبال دائمًا، فقضى كفار «نمچه» والمجر على معظمهم بالقتل. ولكن استطاع حوالي خمسمائة أو ستمائة مسكين من كفار «فرنجة» أن يصلوا إلى «أستوني بلغراد»، وهم يقاتلون في حالة سيئة، منحنية رءوسهم ومجروحون وخائرو القوة. فذهب عدد منهم إلى «بلغراد»، وقام حوالي خمسمائة منهم بانتظار عسكر الإسلام في «أستوني بلغراد».

في ذكر بعض الأخلاق الحسنة للمرحوم «إبراهيم باشا»

كان المرحوم «إبراهيم باشا» رجلًا تغلب عليه البشاشة والود، وكان أيضًا مشهورًا في السخاء والكرم، فقد جاء إليه كل الأبطال الشجعان والرعايا الراغبين في القتال من أهالي سنجق «سمندرة»[1] وساحل «طمشوار»، وأخذوا البيارق، وأقسم كل بلوك منهم، وحلفوا على أن يجدوا في دفع الأشقياء، فأحسن الباشا على هؤلاء ببساط «سلانيكي»[2] لكل واحد منهم، وسجادة مرسوم عليها صورة أسد؛ وبسبب هذا، كان هؤلاء يتفاخرون بين سائر الرعايا بشكل فوق العادة.

وعندما كان أي كافر من أي جنسٍ يأتي إلى مجلسه، كان يستميله بالوعود، ويعامله باللسان الحلو والوجه البشوش، فكان يصبح الكافر راضيًا وشاكرًا تمامًا؛ حيث كان يذهب بعد ذلك، وكان أقرانهم من الكفرة الذين يسمعون بهذا، يتمنون بشغف أن يلتقوا بإبراهيم باشا، وكان يبدو في الظاهر مشفقًا ورحيمًا، فإذا بكى أمامه أحد، كان

---

(١) وهي قصبة وقلعة تقع في يوغسلافيا في الجنوب الشرقي من بلغراد بحوالي ٤٥ كيلو مترًا، وهي تقع على نهر «طونه»، وكانت عاصمة لملوك الصرب القدامى فترة من الزمن.

(٢) وهي مركز ولاية وتقع الآن في بلاد اليونان.

يبكي معه. ولكن في سفك الدماء، كان سفاكًا فوق الحد. وفي النهاية، كان يقتل وفي الوقت نفسه يقول: إنني أتألم جدًا. وذات مرة قام الرعايا بالتجاوز وبقتل قاضي «بوزغه»؛ حيث سلمهم أوامر تتضمن قوله: «كنت قد نبهت بأنه قد أُهْدر دمه». وكان يجيب على الذين يقولون: «هذا المعنى هو رخصة للقتل، فكيف يكون حال القاضي في مناطق الحدود بعد الآن» بقوله: «هل يجب علينا أن نترك أهالي الحدود يتعرضون للتفتيش ونجعلهم يهربون إلى «دار الحرب» أي إلى ممالك الكفار».

ولكن في الحقيقة ظهرت النتائج الحسنة لحسن تصرفه على هذا النحو سواء في حياته أو بعد موته، فمثلًا، كان أشقياء طائفة «حيدود» مسلطين على جميع الألوية (السناجق) الموجودة فيها وراء نهر «دراوه»[1] منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وكانت هناك حاجة ماسة للعسكر في الطرق من أجل الانتقال من قلعة إلى أخرى. وكان لا يستطيع أي شخص الذهاب إلى أي قرية، ولكن بسبب استمالة «إبراهيم باشا»، نهض الرعايا، وقاموا بقتل هؤلاء الأشقياء بضربهم بفرعين من شجر الـ «فرانيا» الغليظة، مربوطين ببعضهما البعض، يطلقون عليها اسم «جبلة»، ويستخدمونها في طحن القمح. وبحمد الله تعالى، اجتثوا بعد ذلك شأفة أشقياء «حيدود» من البلاد.

وإذا كان السبب الأصلي لتجاوز هؤلاء الأشقياء هو فتح قلعة «قنيژة»، فإن سياسة الاستمالة التي اتبعها المرحوم «إبراهيم باشا» للأهالي كانت عظيمة. فلم يبق حصن ولا قلعة من «بدون» وحتى بلغراد دون أن تُحرق أو تُنهب أو يؤسر منها؛ بسبب تسلط هؤلاء الأشقياء، وقد سيطر «إبراهيم باشا» على العسكر أثناء حملة «قنيژة» على النحو الذي لا يستطيع فيه شخص أخذ شيء ولو سنبلة واحدة من حقول الرعايا، وكان الوضع يبقي على هذا النحو حتى خلال موسم الحصاد. وكان الرعايا يأتون بالخبز المجري الكبير المعروف باسم «صمون» والشعير وعلف الحيوانات بالأجولة وبالعربات إلى طريق العسكر ويبيعونه وكان كل شخص يدفع الأقچة ويأخذ ما يريد، وكان يحدث هذا، ولم

(١) نهر كبير يصب في نهر "طونه".

يكن قد حان وقت الحصاد للمحصول المعروف باسم «هلدنه» والخاص ببعض الديار. ولو لم يطلق أي شخص حيواناته داخل هذه الحقول، يتم التعدي على الحقول التي كانت على طول الطريق، وإنني هذا الحقير كنت أسير بجانب الطابور بسرعة. وفي ذات مرة، اندفعت إلى طرف أحد الحقول، فَعَلَتْ نداءات الجاوشية: «لا تدخل الحقل». وقالوا: «أحضروه»؛ فرأيت أن «إبراهيم باشا» أرسل إليَّ القائم بأعمال السقاء له، وأخبرني بأن أقول عندما أصل إلى هناك: «إنني لم أعرف أن هذا حقل»، وربما كانوا يعفون عن الذين يتحججون بهذه الحجة، وكانت هذه الحجة سببًا في العفو عنا. وكان المرحوم الباشا يراني كلما كنت أرافق «أفندينا محمد باشا»، وكان يعرفني، فلما اقتربت منه، عرفني وقال «آ، يا مسكين! من أنت؟». فقلت: «إنني خادمكم يا سلطاني». فقال: «ألم تعرف أن هذا حقل؟». فقلت: «عبدكم مواطن هنا، وأعرف أنه حقل، ولكن كانت توجد في المكان الذي توجهت إليه «إسنازه»». فقال: «ما هي الإسنازة؟» فقلت: «سلطاني، إنكم تعرفون أفضل مني إنها طريق مشاة». فتفضل بالحديث: «لقد صدقت». وكان يبدو كما لو يبتسم. ونبه قائلًا: «والآن احذر من الدخول إلى الحقل».

وأثناء قيام «إبراهيم باشا» بهذا القدر من الضبط والربط، أزهق أرواح رجلين أو ثلاثة فقط. وكان أحد هؤلاء جمالًا، وكان قد صلبه على رأس حوض، وكان قد استولى على بعض الجياد والبغال الخاصة بخزينة الدولة. والآن فقد أصبح معلومًا أن الضبط والربط كان نتيجة لهذه الهمة.

فتح قلعة «بوبوفچه» في سنة ١٠٠٨ هجرية[1]

لما جاء ربيع الأول، عزم السردار «إبراهيم باشا» إلى منطقة الحدود. وبعد أن عبر من جسر «أوسك»، قام بإرسال كتخداه «محمد كتخدا» مع «مراد باشا» لفتح «بوبوفچه». ولما وصل هؤلاء إلى هناك، قاموا بحصار القلعة، وبضربها لمدة يومين. وكانت تُلقى

(١) الموافق ١٥٩٩م.

الأغصان الشائكة في خندقها ويسحب عليها التراب. وفي اليوم الثالث، طلب الكفار الأمان واستسلموا، وقام «مراد باشا» بإرسال «محمد كتخدا» وجنوده من طائفة سكبان ورجاله معهم، وكلفه بتوصيلهم إلى ميناء بلغراد آمنين وسالمين، وفي هذه الأثناء، كان الوزير الأعظم عالي الهمم لا يزال في «سكتوار» حينما بشروه بفتح القلعة.

فتح قلعة «قنيژه» ومحاربة طابور الكفار قرب القلعة المذكورة سنة ١٠٠٩ هجرية[١]

كان قد بقي المرحوم أفندينا «محمد باشا» في حراسة «بدون» في تلك السنة على إثر انضمام «بدون» إلى إيالة الروم إيلي، ولما كان بقاء أمير أمراء الروم إيلي بصحبة العسكر من الأمور المهمة قطعًا، فقد وجه السلطان إيالة «بدون» إلى المرحوم «تيرياكي حسن باشا»، وأصدر أمرًا شريفًا حتى يأتي المرحوم «محمد باشا» إلى «قنيژه» ومعه خمسة مدافع كبيرة، ولما عقد العزم على التحرك من «بدون»، صحب المرحوم معه طائفة «فرنجة» التي كانت في «أستوني بلغراد»، وجاء بهم إلى «قنيژه»، وبينما كان في الطريق قام بضرب الحصن المعروف باسم «بولندوار» والذي كان يقع على مسافة يوم واحد، وفي اليوم التالي فتحه بالاستسلام، وكان الملاعين الذين بداخله هم أشقياء طابور مرتد من رعايا المملكة، فأمر «محمد باشا» بقتلهم جميعًا، وفي تلك الليلة تُرك حصن «لاق». وقام «محمد باشا» بوضع جند حراسة بداخله. وبعد ذلك عزم على التوجه إلى «قنيژه»، حيث قام بالعبور من نهر «برك»، وحدد مواضع تحصينات طائفة «فرنجة» وكانت تقع أمام تحصينات جند الإنكشارية. وعندما دخلت طائفة «فرنجة» تحصيناتهم، صرفوا ما في وسعهم أكثر من عسكر الإسلام لفتح القلعة وتسخيرها.

ولكن كانت هناك بحيرة عظيمة في نواحي «قنيژه». وكانت السهام تصل إلى القلعة من كل جانب، وكانت عقول حكامنا مشغولة في التفكير، كما كانت توجد في أطراف

---

(١) الموافق ١٥٩٩ ـ ١٦٠٠م.

البحيرة جبال وغابات عظيمة، وهكذا، كانت البحيرة مانعًا للاقتراب من القلعة. فقاموا بأخذ تدبير على النحو التالى: قاموا بضفر القماش على ألواح الأخشاب الطويلة التي يمكن أن تحمل رجلًا أو رجلين والتي يطلقون عليها اسم «لسه» وذلك في أعداد كثيرة، ونثروها فوق البحيرة، ثم أحضروا الحطب حملًا حملًا، ووضعوه فوق بعضه البعض كالجبال على ألواح الـ «لسه»، حتى صارت ساترًا وحائلًا بين القلعة وأهل الإسلام، ولكن إذا قدر حضرة الحق سبحانه وتعالى أمرًا فكل تدبير عندئذ يوافق ذلك القدر، ويأتى كل شيء سهلًا ميسورًا، وتتحقق الأشياء غير المتوقعة دون أن يُبذل مجهود قط. يعني بينما كان هذا الأمر مستحيل الحدوث، فقد أضرمت النار في مخزن بارود القلعة حتى تطاير في الهواء، وأزهقت أرواح الكثيرين من الملاعين أيضًا على تراب الهلاك بالقرب منه، وكانت العناية الخفية الإلهية والمعجزات الباهرة النبوية هي التي ظهرت، وقهرت هذه الأعداد من كفار المجر بلا تعب.

- حكاية حرب الطابور:

وفي ذات يوم، لما كان الجو ممطرًا، فقد ابتل الناس بللًا عظيمًا، وكان قد عم الدخان وأخفى وراءه تلك الغابة وأشجار البلوط، وفجأة ظهرت طوابير الكفار وهجمت على الجنود الذين كانوا في حراسة محاور الطرق، وجعلوهم ينسحبون إلى الجيش. وعلى هذا، قام أمراء الأمراء والأمراء وسائر العسكر بامتطاء الجياد، وهبوا للمواجهة، ولكن لم يستطيعوا الوقوف أمام رماة بنادق الملاعين، وعلى هذا، لم يتركوا في التحصينات أي جندي مسلح بالبندقية عدا رماة بنادق «فرنجة» قائلين: «لا بد من جند المشاة». وقاموا بإخراج جميع أفراد جند الإنكشارية إلى الطابور، وهؤلاء أيضًا لما التقوا بالعدو أداروا الوجه وولوا الأدبار، واتخذوا من الجيش مكانًا آمنًا، حيث بقوا هناك. وظل في مواجهة الكفار أمراء الأمراء وحملة الألوية وأغا الإنكشارية وضباط الإنكشارية وضباط المخفر في مراكز الإنكشارية، ولكن لم يستطع الكفار أن يهجموا عليهم؛ بسبب بركات صفعة القلم التي أكلوها في «أكره» بالمعجزات المحمدية، ولم يتمكنوا من اختراق الجيش. وقربوا مدافعهم بحيث كانت القذائف التي لم تمر من فوق جيشنا تضرب تحصيناتنا.

وكانت طوابيرهم تقف على هذا النحو حتى المساء، وبدأ مشاة العدو في حفر خندق للطابور. وحتى الصباح، كانوا قد ضموا الجبال العظيمة والصحارى إلى داخل الخندق، وقد حفروا هذا الخندق في عمق صاري العلم، وبدت الأبراج والمتاريس في كل مكان، ووضعوا بداخلها المدافع وأيضًا المدافع التي من نوع «ضربزن».

ولما أصبح الصباح، رتب الملاعين طوابيرهم مرة أخرى، وجعلوا رماة بنادقهم طابورًا طابورًا، ووضعوهم أمامهم، وفي هذه المرة امتطى السردار أيضًا جواده، وقام بترتيب طوابيره خلف مستنقع ووقف بهم، واصطف جند الإنكشارية مع أغاهم كالعادة، ورتب أمراء الأمراء أيضًا طوابيرهم كلًا في مكانه. رلكن، لما هجم الكفار فر هؤلاء متعقبين بعضهم بعضًا، ولما هجم الكفار على طائفة الإنكشارية ، ولى هؤلاء أيضًا الأدبار، ولم يبق في الميدان شخص سوى أهل الشرف وأصحاب الأعلام والضباط، وراح كل فرد يختفي في الغابات والأماكن التي يكثر بها الغاب والمستنقعات؛ حيث رقدوا بها، وسال دمع عين المسكين «إبراهيم باشا»، وكان قد أحاط الجهات الأربع ضباب كثيف بعناية الحق تعالى، فكان الكفار لا يستطيعون أن يروا ساحة المعركة كما ينبغي، وكانوا يظنون أن عدم خروج جند الإسلام للقاء، وأن هربهم هذا إنما هو خدعة، وأخيرًا، مضت ثمانية أيام على هذا النحو، وهكذا جاء الكفار، وهكذا مرت بهم الأيام، وفي النهاية، بدءوا يتحركون ويذهبون في نصف الليل من اليوم التاسع قائلين: «إن عدم مواجهة الترك لنا، وعدم خروج طوابيرهم أيضًا، غرضه هو الخدعة وترقب الفرصة بنا»، ويتركون حماة لمؤخرة جيشهم، وحتى نحن أيضًا لم نقف على هذا التطور حتى الصباح. ولم نراهم ولم نسمع عنهم؛ بسبب أن الجو كان ملبدًا بالضباب بعناية الحق. ووصل بعض أمراء الأمراء بفرقهم، وقاموا بتعقبهم قليلًا، ووصلوا إلى بعض فلولهم. والحق فإن الإحسان العظيم من جناب رب العالمين على أمة محمد أن الكفار انهزموا بهذه الطريقة وذهبوا.

وبعد ذلك يئس الملاعين الذين كانوا مُحاصرين في القلعة من الإمداد، وطلبوا الأمان؛ وطلبوا تقديم چاوش المرحوم «بچويلو قوجه سنان باشا» المعروف باسم

«سنان چاوش» كرهينة للقلعة، ولما دخل رهينتنا إلى القلعة، وأخذ وثيقة الاستسلام، خرجوا في اليوم التالي من القلعة، ونزل «محمد كتخدا» معهم، وحملهم إلى ميناء الـ «موره»، ثم أكملت لوازم القلعة وأعطيت إمارة أمرائها إلى المرحوم «آلاجه أتلو حسن باشا».

وإن العناية العلية والأسرار الخفية لحضرة الحق سواء في حرب الطابور أو في فتح القلعة أبعد من أن يحاط بها علم، فلا بد من الاعتراف بعجز جملة أهل الإسلام وقصورهم عن القيام بشكره تعالى.

وبعدما أكملت مستلزمات القلعة، تم النزول بالقرب من «بره زنچه»، حيث شُيد بها حصن صغير من جديد، وبعد ذلك، أصدر السردار إذن الانصراف إلى العسكر، ودخل السردار عالي المقدار أيضًا إلى بلغراد بكثير من العزة والرفعة، وأمضى ذلك الشتاء في بلغراد بلا قلق، ووصل إلى مرامه، وأُعز وأكرم فوق الحد من جانب السلطان أيضًا، وقام السلطان بتلطيف خاطره أيضًا بالخط الشريف الذي هو بالسعادة أليف والذي يُطمئنه فيه ببقائه في مسند الوزارة طالما هو على قيد الحياة.

وفاة المرحوم الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» وتعيين «يمشجي حسن باشا» وزيرًا أعظم سنة ١٠١٠ هجرية[1]

كان الوزير المومأ إليه - الذي ليس له نظير - يصرف ما في وسعه في إدارة أمور الحدود في بلغراد، حتى إنه كان قد أرسل كتخداه «محمد كتخدا»، والوزير «مراد باشا» إلى «بدون» من أجل مناقشة أحوال الصلح على نحو يبحث عن التوصل إلى نتيجة ما، وقرار محدد. وكان قد توجه لذلك الغرض رجال كثيرون من العسكر ومن خدمه، وبينما كان هؤلاء لا يزالون في «أوسك»، بدأ الانحراف في مزاج «إبراهيم باشا»؛ حيث اشتد ضعفه ومرضه خلال عدة أيام، حتى إنه كان يحس بآثار الموت فى نفسه، وكان المرحوم أفندينا «محمد باشا» قد أمضى الشتاء في تلك السنة في بلدة «پرشتنه»، وفي ذلك

(١) الموافق سنة ١٦٠١م.

الحين، كان قد وصل إلى مكان يعرف باسم «حسن باشا بلنقه سي»، وفي ذلك المنزل، أتى خطاب من «مرتضى باشا» وهو أحد أقرباء المرحوم «إبراهيم باشا» الذي عينه وصيًا على نفسه، كما أتى خطاب أيضًا من «دفتر دار أتمكجي زاده»، ولما علم بأحوال المرحوم، فضل الإسراع بالتوجه إلى هناك.

وفي الوقت الذي كانوا يهمون فيه بتغسيل جسد المرحوم وصل «محمد باشا» إلى بلغراد، ومن ثم عُرض تفصيل الأحوال بلا إهمال على الركاب الهمايوني السلطاني. وعلى هذا، لما كان «يمشجي حسن باشا» قائم مقام الصدارة، فقد نُصب في ذلك المنصب الجليل.

ولكن لما كان وقت الحملة يمر سدى، بُذل الجهد للوصول إلى الجبهة بسرعة بالغة، وأُعطيت للوزير الجديد خيمة المرحوم «إبراهيم باشا» وسرادقه وأشياؤه من قبل السلطان، وقد يُسرت له كل الأمور حتى لا يكون هناك ما يبعث على إضاعة الوقت، ووصل المشار إليه أيضًا إلى بلغراد في غضون عشرين يومًا وهو بمفرده وبحمل خفيف، وكانت خيام وسرادقات المرحوم قد نُصبت في ساحل «زمون»، فدخل إلى الخيام المقامة، ومن هناك شد الرحال صوب الحدود.

استيلاء الكفار الصاغرين على «أستوني بلغراد» وحرب الطابور المقهور سنة ١٠١٠ هجرية[1]

وبينما كان الوزير فائق الأقران لا يزال في صحراء «زمون»، ورد خبر مؤلم آخر؛ وهو أن الكفار قد جاءوا وقاموا بمحاصرة «أستوني بلغراد»، ومع أنه لم يتكاسل في الوصول للإمداد، وتم الوصول إلى صحراء «أستوني بلغراد»، فإن الكفار قاموا بتكثيف هجماتهم على القلعة واستولوا عليها، وقاموا بقتل الموجودين بداخلها وأسروا نساءهم وأطفالهم. وملئوها بقدر كاف من الكفار.

---

(١) الموافق سنة ١٦٠١م.

ولما وصل السردار مع العساكر الجرارة، ونزل ميدان القتال يواجه الأعداء، كان موضع نزوله يبعد عن القلعة بحوالي ميل، فقام الكفار بتنظيم صفوفهم بين جبلين، وحفروا الخنادق حوله. ووقف عسكر الإسلام ينتظرون، وإزاء هذا الوضع، أعد جسر للعبور من البحيرة، وتم هجوم عسكر الإسلام على الأعداء، ووضعت المدافع من نوع «ضربزن» على كل ربوة، وأطلقت على جيش الكفار على النحو المراد، وكان يوجد أكثر من ستمائة من جند طائفة «سكبان» لدى «محمد كتخدا»، ووجد هؤلاء مكانًا صعبًا ومحاطًا بخندق بالقرب من طابور الكفار، ومن هذا المكان، تمكنوا من قتل كفار كثيرين بالبنادق، ونحن أيضًا كنا جاهزين ومستعدين ببعض طوابير الفرسان، وكنا نترقب الوقت والفرصة للهجوم على الطابور، ولكن كانت هناك أربعة طوابير مشاة لدى الملاعين، ويُحتمل أن في كل واحد منها خمسمائة كافر، فتحركوا فجأة وبسرعة وهجموا على عسكر الإسلام، وأحضروا بعض المدافع والمدافع الأخرى من نوع ضربزن من الطابور وقاموا بإطلاقهم علينا، وهجموا على طوابير السوارية في جانبنا الأسفل متعقبين بعضهم، وهكذا، تمكنوا من طرد عسكرنا من تلك الصحارى والبوادي.

وقام المرحوم «يمشجي حسن باشا» بإرسال طابور السلحدارية أولًا، وبعد ذلك، أتبعه صافًا جند الإنكشارية أمامه، وآخذًا سائر الفرق خلفه؛ فهجم على الكفار، إلا أن الملاعين لم يتزحزحوا عن مكانهم، وقاوموا وثبتوا وحل وقت الغروب أيضًا، فانتهى القتال في ذلك اليوم على هذا المنوال.

وفي اليوم التالي، قمنا بترتيب الطوابير مرة أخرى، وحملنا على الكفار. إلا أن الملاعين في هذه الأثناء اتخذوا تدابير بتحريك طوابيرهم من ذلك المكان، وقاموا بصف عرباتهم في أطراف مواقعهم، ونصبوا مدافعهم في الجوانب، ونظموا فرق فرسانهم وجندهم المشاة وسط العربات، وخرجوا وتحركوا بهذه الطريقة، والمسافة التي يسيرونها طوال اليوم كانت عبارة عن منزل ثلاثة مدافع فقط، فقد كانوا يذهبون خطوة خطوة، وعندما يصلون إلى مسافة مرمى حجر، كانوا يقفون في ذلك الموضع، ويحركون مدافعهم ورماة بنادقهم صوب العسكر الذين يقتربون منهم. وهكذا، كانوا يسيرون على هذا النحو.

وأخيرًا، وصلوا بهذه الطريقة. وكانوا يقفون في وسط الصحراء تقريبًا. وكانت طوابيرنا أيضًا قريبة جدًا للمنزل الذي نزلوا فيه، وربما كانت تصل المسافة بينهم وبيننا برمية حجر. وفي النهاية، كنا نقف متزاحمين، وكانوا يطلقون بنادقهم على أعلامنا. فمثلًا، لم يكونوا يدعون العلم دون أن يُمزق، والمشنة دون أن تكسر. وفي ذلك الحين، هجم الكفار على «محمد كتخدا» و «منقوز قوشي محمد باشا» أمير أمراء «بدون»؛ أي أنهم تعرضوا لهجوم الكفار، و علم الله تعالى أنهم لم يخبرونا، ولم يقولوا يجب علينا أن نقاتل معًا، وكانت تظهر لنا فقط أن بيارق ومشنات طوابيرهم منصوبة. ورأينا أن بيارقهم ترفرف، ولكن ما سبب ذلك؟ لا نعرف، وإن هجومهم وعودتهم مرة أخرى كانت سواء؛ لأن ذلك المكان كان بالقدر الذي تصل إليه رمية الحجر، ولما استشهد «محمد كتخدا» و «منقوز قوشي» جاءوا وأخبرونا، وغضب المرحوم «يمشجي حسن باشا» جدًا لعدم إبلاغهم منذ البداية، وقال بعض الأشخاص: كان لدى المرحوم غرض لإهلاك «محمد كتخدا»؛ فألقى بهؤلاء إلى التهلكة، ولم يذهب هو. حتى «حسن بك زاده أفندي»[1] أيضًا صرح بمثل هذا في تاريخه، والله تعالى يعلم أن الذين قالوا هكذا، إنما أتوا ببهتان عظيم، فإنني كنتُ موجودًا بجانب المرحوم «يمشجي حسن» في كل وقت. وإنني الفقير «بچوي» كنتُ أتحدث معه طيلة الوقت، وكانت «ڤنيژه» قد صارت محاصرة. ولما كان المرحوم «إسكندر باشا» كتخدا «حسن باشا» في ذلك الحين، فقد أتى لطلب المدد، وكان ذلك أيضًا [المقصود إسكندر باشا] بجانب المرحوم، وبعد ذلك، فكل من كان يتحدث في هذا الموضوع كان يقول: لقد ألقي على الرجل بهتان عظيم.

وقد أمضى الملاعين تلك الليلة في هذا المكان، وفي اليوم التالي، ذهبوا على الطريقة نفسها، ونزلوا عند مضيق على طريق قلعة «بولاطة»، وفي الحال، أمروا بحفر خندق عظيم في المكان الذي كان من المحتمل أن يأتي العسكر منه، وبعد ذلك، لم يكن ممكنًا الهجوم عليهم، ولهذا السبب عُقد العزم على العودة.

(١) وهو من مؤرخي القرن السابع عشر الميلادي وصاحب الأثر التاريخي المعروف باسم «تاريخ حسن بك زاده».

وضمت إيالة «بدون» ثانية إلى إيالة المرحوم «أفندينا محمد باشا» [المقصود إيالة الروم إيلي]؛ وأُرسل «محمد باشا» إلى محافظة «بدون»، وفي ذلك الشتاء [١٠١٠هـ]، أخذت أنا هذا العبد العاجز خراج «بوژغه» وخرجتُ من «بدون» بتلك المهمة، وحملتُ بعض الأخبار والرسائل إلى السردار، ولكن كان الثلج يصل حتى صدر الرجل. ولم يكن ممكنًا قط التوجه من البر، وعلى إثر ملاحظة إمكانية التوجه من فوق ثلج نهر «طونه»، قمنا فعلًا بالتوجه، ولكن كان الثلج يتكسر تحت أقدام جيادنا كل يوم خمسة وعشرين أو ثلاثين مرة، وكانت خيولنا تسقط في الماء، وكانوا يُسحبون، ويسيرون محطمين مقدارًا من الثلج، وبعد ذلك، كنا نسحبهم من رءوسهم ومن أذيالهم حيث نخرجهم إلى الخارج، وأتينا إلى «بچوي» على هذا البلاء وتلك المصيبة في اليوم الخامس عشر. فكم عانينا وكم رأينا من القدر؟!

محاصرة الكفار لـ «قنيژه» وانهزامهم بفضل الله تعالى في سنة ١٠١٠ هجرية[١]

لقد قام طابوران مقهوران من الكفار بالاستيلاء على «أستوني بلغراد» في هذه السنة المباركة كما أشرنا فيما سبق، فعندما عبر السردار إلى جانب «بدون»، كان أحد الطابورين مترقبًا ذلك، فأتى الطابور، وقام بمحاصرة «قنيژه»، وضربها أكثر من ثمانين يومًا باثنين وأربعين مدفعًا من النوع المخصص لضرب القلاع، وملئوا بحيرة «برك» التي كانت تجري في أطرافها بالحطب، وقاموا بالهجوم عليها عدة مرات، وفي كل مرة كان بعون الحق يهلك مئات من الكفار على ثرى الموت، حيث ساروا إلى قعر جهنم.

وكان المحاصرون بداخلها «ترياكي حسن باشا»، وأغا الإنكشارية «سكبان باشي سفر أغا» الذي كان قد أصبح أمير أمراء بعد ذلك، واشتهر بلقب «سفر باشا»، وكان محاصرًا بالقلعة أيضًا مقدار من الرجال من أرباب مقاطعات زعامة وتيمار مدن «بچوي»

(١) الموافق سنة ١٦٠١م.

و«سكتوار»، وكان هؤلاء قد أحضروا الذخيرة إلى «قنيژه» بالعربات، ولما سقط مقدار من الرعايا في الحصار، صاروا لا يستطيعون التحرك، حيث بقوا داخل القلعة؛ ويُروى أن هؤلاء السالف ذكرهم كانوا يقومون بالخدمة العظيمة.

وبينما كان السردار المحفوف بالوقار وأغا الإنكشارية يذهبان وهما خائفان وخاسران من «أستوني بلغراد» صاحبة الافتخار، فما إن وصلا إلى «موهاج» حتى أتى بعض المستغيثين، وتحدثوا بكلمات باردة وجافة قائلين: «لقد جعلنا الكفار يأخذون «أستوني بلغراد»، وأنت أيضًا تريد أن تجعلهم يستولون على «قنيژه»!!». وعلى هذا، كان واجبًا على السردار أن يذهب إلى «قنيژه» لتقديم المدد لها، فأتى من ذلك المنزل [المقصود موهاج] إلى «بچوي»، ولما وصل من ذلك المنزل إلى «سكتوار»، كان قد بدأ الشتاء، وكان قد ذهب معظم الجند، وكانت قد بدت البرودة تسري في الهواء، حيث اشتدت جدًا، وتجمع غزاة الإنكشارية أمام خيمة السردار، وأخبروا بأنهم لن يذهبوا. ولما أتى السردار إلى جسر «أوسك»، سقط الثلج في تلك الليلة بالقدر الذي وصل حتى صدور الناس وانهار جسر «دراده» أيضًا بأمر الخالق تعالى، وغرقت معظم سفنهم التي من نوع «طونباز» في الماء، واستقر السردار مع جملة العسكر عدة أيام في مزارع الغاب والغابات، ومهما كانت الآلام، فلقد شُيد الجسر من جديد، ثم عبروا بعد ذلك، ولما وطأت أقدامهم جسر «بلغراد»، انهار أيضًا مثل جسر «دراده»، والمعاناة التي حدثت أثناء هذه العودة وخلال فصل شتاء قارص كانت على هذا النحو، والدواب وعسكر الإسلام الذين فُقدوا وتلفوا كانوا أكثر من حد الحصر، ولكن لما كان من الضروري العودة من «سكتوار»، كان السردار بذلك قد استودع «قنيژه» أيضًا إلى جناب الباري.

وكان هذا الثلج وذلك الشتاء القارص قد ضيق الخناق على القلعة وجعلها تجف. وكان شقيق الجاسار وسردار الكفار شخصًا يعرف باسم «غرج هرسك». وكان أيضًا عديم دين ومغرورًا جدًا وأنانيًا، فأقاموا الملاجئ تحت الأرض وشقوا الطرق التي تربطها ببعضها البعض قائلين: «سنقضي هذا الشتاء تحت القلعة، وسوف نستمر في ضرب القلعة طوال الشتاء، ولن نتحرك ونذهب، ما لم نأخذ القلعة»، ولكن بعون الباري

تعالى، لما هجم جند الشتاء فجأة، وظهرت العواصف القوية والشديدة والدوامات، توقفت اليد والقدم عن العمل، وبالضرورة لم يكن هناك أي احتمال للاستقرار ولم يكن هناك مجال للراحة في مشاتيهم التي أوجدوها، ودون أن ينظروا إلى بعضهم، أخذوا رءوسهم وهربوا وتوجهوا حتى إلى الأماكن التي على مرمى بصائرهم.

ونزل الذين كانوا في القلعة إلى النهر الذي كان في نواحيها وقاموا بتفتيشه قائلين: «عجبًا! ماذا حدث؟»، وصار ماء «برك» الجاري متجمدًا إلى حد ما وصار متينًا بالدرجة التي من الممكن بها سحب المدفع من فوقه، وبعد ذلك يتعقبون الكفار على الفور، ويهلكون ويقتلون منهم ذلك العدد الذي لا يعلم حسابه إلا حضرة الباري تعالى فقط.

وكان المرحوم «قره عمر بك» في ذلك الوقت أغا الخيالة. فلما تجلت بعض بطولاته في هذه الحرب، ففي الوقت الذي كان فيه سنجق «بچوي» تحت تصرف المرحوم «حسن باشا» كمقاطعة «آربه لق» منحها «حسن باشا» للمذكور «قرة عمر بك» باختياره، ويروي المرحوم «قرة عمر بك» هذه الحرب على هذا النحو:

لما تعقبنا الكفار، كانوا قد تجمعوا عشرات أو خمس عشرات أو أكثر أو أقل في بعض الأماكن هنا وهناك؛ وكانوا يشعلون النار ويجلسون حولها، وعندما يروننا كان الذين لا تزال فيهم قوة، ينهضون على الأقدام ويخرجون قبعاتهم، ويعظمون لنا أي يؤدون التحية، ثم يبركون في أماكنهم ثانية، ويجلسون، ونحن أيضًا كنا قد سئمنا من قتلهم!! واعتبرنا قتل فرقة عاجزة وضعيفة على هذا النحو لا يعد من المروءة؛ فكنا نمر من جانبهم دون أن نتعرض لهم، وكنا نسرع لقتل من فيهم الروح من الذين كانوا يتقدمونهم في الأمام، ونذهب لاغتنام غنائمهم، وفجأة، توقفتْ عربة من نوع «قوجي»، كانت في المقدمة؛ بسبب تعطلها، وكانت تتعقبها مائتا عربة «قوجي»، حيث توقفوا جميعًا أيضًا وتجمعوا، وقام كل فرد من سائقي تلك العربات الذين لم تتجمد أيديهم وأقدامهم باحتضان جواد، وعمل بمضمون القول: «من نجا برأسه»، فالبعض كانوا

يأسرون السائرين منهم والبعض الآخر كانوا ينظرون إليهم فقط، وكنا نفتح صناديقهم المقفلة، ونغتنم منها الأقداح والأكواب الفضية، وفي الأمر نفسه، وصل بعض الغزاة إلى درجة الغنى الأبدي، وبعد ذلك، قام المرحوم «حسن باشا» بصرف قدرته وقوته لأكثر من شهرين في الاهتمام بالمدافع التي بقيت في التحصينات وآلات الحرب والقتال التي كانت واقفة مكانها وبعض العتاد الحربي والدروع والمدافع من نوع «شقلوش» وضربزن، وأمر بنقلها جميعًا إلى القلعة، فنُقلت بصعوبة، وهذه الغزوة إنما هي غزوة عظيمة؛ حتى صارت مقدمة لغزوات أخرى كثيرة أحرقت كبد الكفار.

في ذكر انتزاع «أستوني بلغراد» من أيدي الكفار في سنة ١٠١١ هجرية[1]

لقد قام السردار جليل الشأن في مشتى «بلغراد» بصرف ما في وسعه وقدرته، لإتمام مستلزمات العسكر ومهمات الحملة التي ستقع في ربيع الأول سعيد الآثار، ولما عزم السردار على التوجه إلى منطقة الحدود، وصل وقام مباشرة بمحاصرة «أستوني بلغراد»، وأتى المرحوم «أفندينا محمد باشا» أيضًا من «بدون»، ونصب خيامه أمام الحي المعروف باسم «أوزون واروش» من الناحية الجنوبية للقلعة، ونصب المدافع وقام لعدة أيام بضرب الباب الخرب للحي المذكور الذي كان قد سده الملاعين واتخذوه متراسًا لهم، وعندما قام بالهجوم أجبر الملاعين على ترك القلعتين العظيمتين اللتين قاموا ببنائهما مجددًا، واستولى عليهما، ووضع المدافع تجاه البرج الذي يطلقون عليه «بطال قبو»، وشُرع في الضرب، وأقيم متراسان في جانبها الشرقي أيضًا. وكان إحداها للسردار وأغا الإنكشارية والآخر لشخص معروف باسم «نوح باشا»، وكان الكفار قد سدوا بوابة «بطال قبو» ـ التي قام بضربها المرحوم أفندينا محمد باشا ـ وذلك على إثر تفضل المرحوم السلطان سليمان خان «عليه الرحمة والرضوان» بالتصريح في حملته الأولى قائلًا: «إن

(١) الموافق سنة ١٦٠٣م.

زوال هذه القلعة من هذا الباب»، وكانت بعض أبراجها باقية حتى الآن، حيث كانت تلك الأبراج معرضة للضرب. ولما ضُربت لعدة أيام، خربت تمامًا، وهكذا، استمر الوضع حتى جاء الوقت الذي تمكن فيه جند الإسلام من الصعود عليها، وربما قام الكفار بإقامة جدار آخر من الداخل مما يطلقون عليه «طوله»، وذلك بصف الأخشاب وربطها وحشو داخلها بالتراب، وكأنهم رأوا البقاء في هذا المكان، وإنقاذ البرج من ناحيته في حالة فتح ذلك البرج، ولهذا السبب قاموا بوضع بعض الحراس فقط في ذلك البرج.

وعندما كان أفراد الإنكشارية يتناولون الطعام في المتاريس؛ وبينما كان كل شخص يستريح من حر الهواء، أخذ شاب يافع يعرف باسم «أحمد» من خدم المرحوم «محمد باشا» علمًا بيده وعزم على التوجه صوب ذلك البرج خطوة خطوة، ونحن كنا نترقبه من الخلف مع المرحوم «أفندينا» والأفراد الآخرين الموجودين في الحصن، فصعد هذا الرجل فوق البرج، ونصب العلم الذي كان بيده، وفي الحال صعد خلفه أفراد الإنكشارية والغزاة الآخرون إلى البرج، وربما كان يوجد بالبرج خمسة أو ستة كفار فقط، فلما رأوا ذلك هربوا من البرج، واستولى الغزاة عليه، ولكن الكفار كما لو كانوا لا يهتمون بالأمر قط، وحالهم يقول: كنا قد تركنا ذلك البرج من قبل. ولكن بمجرد أن دخل غزاتنا إلى ذلك البرج، أطلق الجنود البنادق على القلعة، فلم يبق لدى الكفار أي حيلة، وكان جند الإسلام قد أخبروا السردار بالأمر، فأتى السردار إلى ذلك المكان على الفور، وقال: «من يقول على هذا، خادم «محمد باشا»، إنه خادمي أنا»؛ أي أنه أخبر باتحادهم واتفاقهم فيما بينهم، أما المرحوم «محمد باشا»، فكان قد دخل إلى القلعة مع سائر الغزاة، وكان يبذل جهدًا جهيدًا في تلك الغزوة وكان يهتم بعملية الاقتحام، وجاء سائر أمراء الأمراء أيضًا، وملئوا القلعة، وأُحيط الملاعين بالهجوم بالمدافع من كل جانب. وأقام السردار أيضًا خيمة داخل البرج من أجل أن تصبح باعث إقدام واعتبار للجند.

وبصفة عامة، استسلم الكفار، وسلموا القلعة قبل حلول المساء. وبعد ذلك، قام السردار بإلباس القفاطين لبعض كبار الملاعين، ووقر الـ «غروف»[1] محروق الوجه

---

(١) تعني كملة «غروف» الأمير وهي كلمة مجرية والمقابل لها بالتركية «بك» أي الأمير.

الذي كان قائدًا لهؤلاء وأكرمه غاية الإكرام، وبعد ذلك أكملت مهمات القلعة، وعُقد العزم على التوجه صوب «بدون»، وأقيم عدة أيام في صحراء «بشته».

التوجه إلى ولاية «أردل»[1] بتحريض «سيكل موزش»

هناك العديد من الأقوام في ولاية «أردل» يملكون بلدانها. وليس هناك مَن يتدخل في شئون هذه البلدان سواهم، وإحدى هذه الأقوام الكافرة المعروفة باسم «سيكل»، كانت مهملة، وقد اعتاد هؤلاء منذ القدم على عدم السماح لوالي«أردل» بالدخول إلى قلاعهم، وإذا ما سمحوا له بذلك أو استضافوه، يأذنون له بالمجيء مع خمسة أو ستة أفراد فقط، ولكن في مثل هذه الحالات، كانوا ينزعون أسلحة وذخائر مَن هم سواه.

وفي ذلك العصر، كان الضال المُلقب بـ «قرال» [أي الملك] قد فعل ما فعل، ودخل إلى القلعة وطغى، واستولى على أموال من الخزينة بقدر ما يريده، وسلب المهمات والأسلحة والمستلزمات من مستودعات الذخيرة بحسب ما يرغب، وقد قتل بعض الأهالي وكان سيقوم بقتل بعضهم الآخر، وعلى هذا، وخلال فصل الشتاء، قام صنمٌ قبيح يعرف باسم «سيكل موزش» من أعيان هؤلاء بالهرب، وجاء إلى السردار، ولجأ إليه، مظهرًا له العبودية، وبيَّن له بعض الطرق السهلة لفتح «أردل»، ومن هناك جاء إلى «بچوي» والتقى بتتار خان [أي خان القرم]. حتى إنني في هذه الأثناء كنتُ موجودًا في ديوان حضرة الخان، فقام الخانْ بإحضار كل ميرزاته أي أمرائه الذين كانوا موجودين في المدينة، والأغوات الذين يعتبرون خدم الخان من الچراكسة، و«أحمد أغا» الذي كان في مقام وزيره الأول والذي كان يطلق عليه اسم «قبو أغاسي»، وأحد الوزراء، و«عبد العزيز چلبي» الذي كان في مقام خزينه دار أي القائم بأعمال الخزانة، وقاضي

(١) وهي تعرف الآن باسم «ترانسلفانيا».

العسكر، والتوقيعي. وكان هؤلاء يقفون أمام الخان على الأقدام. ولكن كنا نحن عدة رجال من مواطنى «بچوي» جلوسًا، أما سلحداره فكان يقف واضعًا يديه الاثنين على سيف مكتوب حاشيته بالذهب، وبهذه الطريقة، جعل الخان هؤلاء يستقبلون «سيكل موزش» المذكور، وأمرهم بأن يقبّلون يده، وجعلهم يتحدثون معًا لبعض الوقت، وبعد ذلك جعلهم يسلمون عليه أي يودعونه.

يعني كان المرحوم «يمشجي حسن باشا» قد فهم أن العرض السعيد الذي عرضه الكافر خيرٌ محضٌ، وكان يدرك أن فتح مملكة «أردل» أمرٌ محققٌ، وعلى هذا، قرر التوجه من «بلغراد» إلى «أردل». ولكن لما ظهر أن تنفيذ هذه الحملة سيجعل «أستوني بلغراد» تبقي في يد الكفار، وأنه ما دامت «أستوني بلغراد» باقية في أيدي الكفار، فلا مجال لبقاء أي شخص في «بدون»، فقد فُضل التوجه أولًا إلى «أستوني بلغراد».

وعندما دخلت «أستوني بلغراد» ثانية بعون الله تعالى إلى قبضة أيدي الإسلام، تحرك السردار على الفور من «أستوني بلغراد»، وعبر من جسر «بدون» قاصدًا «أردل»، وتم النزول إلى صحراء «پشته»، وبعد أن أكملت ذخيرة «بدون» وسائر لوازمها وعُين حراس عليها، عطف عنان العزم صوب «أردل»، أما الكفار الذين مأواهم جهنم، كانوا يجسلون مع طابورهم المقهور في المكان المعروف باسم «چكردلن» والذي يقع تجاه «أسترغون»، وكانوا مترقبين لتحركات عسكر الإسلام وكلما كبر عسكر الإسلام معًا صباحًا ومساءً كعادتهم قائلين: الله جل شأنه بصوت لا يمكن تمييزه، كان هؤلاء أيضًا يرددون معًا «بژوش»، وكان مقصودهم من لفظ «بژوش» هو حضرة عيسى عليه السلام؛ يعنى كنا نسمع كل صباح ومساء مدافع اللفظ «بژوش».

ولهذا السبب لم ير أي شخص أن ترك الأعداء عند جيشنا وبالقرب من بلادنا، والتوجه إلى «أردل»، أمرٌ يليق، ولكن السردار لم يرجع عن عناده، وكان قد عُين «صوفي سنان باشا» قائدًا على محافظة «بدون»، و«قاضي زاده علي باشا» أمير أمراء لـ«بدون»، و«قوجه هابل أفندي» قاضيًا لـ «بدون» فأتوا ذات يوم معًا إلى السردار، حتى إن «علي

باشا» على الرغم من أنه كان مجروحًا من ضربة بندقية في «أستوني بلغراد» فإنهم أحضروه بطريق النهر بواسطة «صال» أي ألواح الخشب مصفوفة بجانب بعضها البعض، وأجلسوه في مقامه في الديوان، وبعد استمرار المناقشات والمجادلات لمدة طويلة قالوا: «بينما تقرع مدافع لفظ «بزوش» من قبل الكفار أذننا، فإن توجه جند الإسلام إلى جهة أخرى تبعد مسافة بعيدة، إنما هو خطأ فاحش»، فأجاب «يمشجي» في تلك الأثناء: «لقد تلقينا أخبارًا من مصادر موثوقة؛ أن جنود العدو عبارة عن خمسة أو ستة آلاف كافر فقط، وليس لدى هؤلاء قدرة على التصدي لأي مكان خلال هذه السنة. فطيبوا خاطركم». وقام «يمشجي» أيضًا بإغفالهم بالكلام المبهم وذي الكنايات.

ولكن «علي باشا» قال: «لقد جاء جاسوسي من عند الكفار ليلًا، ولما كان هذا رجلي، فإنني أعتمد عليه منذ القدم، وقد أخبرني وأكد أنه موجود في طابور الكفار نحو أربعين مدفعًا كبيرًا، وأن عدد الكفار أيضًا أكثر من ثمانين ألفًا، فلو كان كلامي هذا كذبًا، وإذا لم يأت هؤلاء ويحاصروا «بدون» بمجرد أن تذهبوا، فها هو قاضي الجيش الهمايوني، فليسجل هذا الكلام، وليجعله حجة لي أو عليّ، وإذا ظهر خلاف هذا الكلام اقتلوني بأشد أنواع الإعدام»، ولكن لما كان «يمشجي» أرناءوطيًا عنيدًا، لم يرجع عن عناده؛ حيث قال لـ «علي باشا»: «هذه الأحوال وصلت عندنا إلى حد التواتر. وإن اجتماع الكفار هذا، ما هو إلا من أجل تعويق عسكر الإسلام عن الذهاب إلى «أردل». ولكن لا توجد لدى هؤلاء القوة التي ستُحاصر القلعة ولا القدرة على المواجهة».

وقال المرحوم «أفندينا محمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي: «ما دام الأمر صار على هذا النحو من القيل والقال، فإنما هي محض العناية الربانية لنا، فأمدّوا عبدكم بالعسكر المجردة وذوي الحمل الخفيف وأصحاب القدرة على الإسراع بجيادهم. وعليّ أن أجعل منهم ثلاثة أو أربعة فيالق. وأينما قدر حضرة الحق تعالى، فعليّ أن أذهب إلى مناطق المعادن فيما وراء «فنلك» و«سجان»، وأن أغير على الممالك التي لم تعلن الطاعة وأقوم بنهبها. وإن شاء الله تعالى، ستكون هذه خدمة للدولة أعظم من فتوح مملكة «أردل»». ولكن «يمشجي حسن باشا» لم يرض بهذا أيضًا، وفي اليوم التالي توجه صوب «صونلق».

محاصرة «بدون» للمرة الثانية واستيلاء الأعداء على قلعة «بشتة» في سنة ١٠١١ هجرية[١]

كان قد وصل القوناقجية[٢] إلى صحراء «كوله»، وقاموا بنصب الخيام بها، وأتى السردار العنيد صاحب السيرة السيئة مع عسكر الإسلام، وبينما كان على وشك النزول للاستراحة، أتى المستغيثون متعاقبين، وأخبروا بأنه بمجرد أن توجه عسكر الإسلام إلى جانب «أردل» علم الكفار بذلك فأتوا وحاصروا «بدون»، وأقاموا جسرًا وهجموا على «بشته»، واستولوا عليها، وقاموا بسبي وقتل فقرائها وأغنيائها ورجالها ونسائها، ولكن لما كان عدد من الرجال المسلمين يتحصنون بالبرج الكبير الواقع بساحل «طونه»، فقد جاء الغزاة بسفينة أو سفينتين من نوع «شايقه» من «بدون»، وقاموا بإنقاذ واحد أو اثنين برتبة أمير أمراء وبعض الكبار وبعض الفقراء والضعفاء أيضًا من الذين كانوا موجودين في البرج، ونقلوهم إلى «بدون». وكان ذلك الزمان، زمان طغيان عظيم، وأوان عصيان وطغيان أشقياء طائفة بلوك خلقي، فتجاوز هؤلاء على «يمشجي» تجاوزًا عظيمًا، وتحدثوا إليه بكلام منغص للخاطر، فشعر «يمشجي» نفسه بالندم العظيم؛ ولكن ما الفائدة؟!

وتمت العودة بالضرورة من ذلك المنزل. وفي المنزل الخامس جيء إلى صحراء «بشته»، ولكن كانت «بشته» في قبضة يد الكفار، وكانوا قد أقاموا جسرًا من جزيرة «قيزلر» إلى ساحل «بشته»، ونصبوا المدافع في الجزيرة؛ ولذا لم يجعلوا عسكر الإسلام يقتربون قط إلى «طونه» أو حتى إلى «بدون». وبعد مشاورات كثيرة ومباحثات طويلة، أصبحنا مجبورين ومضطرين إلى قبول ذلك الوضع؛ فنصبنا المدافع صوب «بشته»، وبدأنا نضرب من مكانين أو ثلاثة، وكان الكفار الذين في مواجهتنا يضربون «بدون» بأربعين مدفعًا، أما نحن فكنا نضرب «بشته» بعشرة مدافع.

---

(١) الموافق سنة ١٦٠١- ١٦٠٢م.

(٢) القوناقجية: هم الرجال الذين يذهبون أمام الجيش في الحملات ويمهدون ويهيئون الأماكن التي سوف ينزل ويستريح بها الجيش.

وكان «پويراز عثمان» و«أوكوز محمود» من أشهر العصاة، فدخل هؤلاء أيضًا إلى التحصين مثل الإنكشارية، وكأنهم التزموا بلوكًا آخر، ورأيت بعيني أنه عندما كان هؤلاء يترددون على الحصن، كان «مراد باشا» و«محمود باشا» وكل من كان موجودًا وسائر أمراء الأمراء والوزراء يقفون على الأقدم، وكانوا يقفون للسلام عليهم من على مسافة بعيدة.

ولكن كان المرحوم «أفندينا» صاحب عظمة ووقار. فلم يؤد التحية لهم في أي وقت ولم يعتبرهم، وكان يقول: «أقدم رأسي ولا أُنزلها إلى الأصاغر»، وما إن مضى عشرة أو خمسة عشر يومًا حتى ظهر قحط عظيم عند عسكر الإسلام، فقد تم بيع الدقيق بعشرين ذهبية وباثنين وعشرين أيضًا، أما الشعير فكان يباع بعشرة وحتى بخمس عشرة ذهبية، وإذا وجد مكيال واحد منهما، كان منةً للروح من الله تعالى.

وأثناء تواجد المرحوم «محمد باشا» كمحافظ لـ «بدون» في السنة الماضية، أمر ببناء حجرة صغيرة من القماش والغاب عند أول الإسطبلات؛ حيث أغلق الباب الكبير الذي كان بين الإسطبلين هناك، وكان قد أقام منزلًا صغيرًا من الشجر والغاب يمتد طرفه حتى الطريق الذي يصل إلى باب النهر، حتى قال «أتمكجي زاده» و«يمشجي» لبعضهما البعض: «هذا هو عمل «بوسنه لى محمد باشا» في «بدون»»، وتضاحكا قليلًا، ومن حكمة الله تعالى، أنه مضى عشرة أيام وعلم الصغير والكبير أن هناك حاجة عظيمة لهذا البناء، ولو لم يتم إقامته، لما تيسر وجود المكان الذي سترسى فيه السفن من نوع «شيقة»، ولكان لا يمكن أن يأتي أي فرد من العسكر من المجيء من وإلى «بدون»، ولتعذر دخول المدد أيضًا، وإنقاذ فقراء «پشته»، ولكان من المؤكد خروج «بدون» من اليد، وكان قد أُقيم هذا البناء الصغير وشُيد بالإلهام الرباني جل شأنه، فأصبح سببًا واضحًا لإنقاذ «بدون».

ولما ظهر قحط الغلاء على هذا النحو بين العسكر، بدأ كل شخص يشتري الذخيرة من «بدون» طوعًا وكرهًا، ومهما منعوهم من ذلك، فلم يُفد، وكان البعض يطمع في

الحصول على الأقچة؛ فيحرم نفسه ويعطي، وبعضهم الآخر يأخذ من صديقه، وفي ذات يوم، أتى «علي باشا»، و«هابل قاضي»، وأغا الإنكشارية، وسائر الأعيان مرة أخرى إلى السردار، وقالوا: ليس هناك احتمال لأخذ المدد منكم. فإذا بقيتم عشرة أيام أخرى، فستنهون ذخيرة «بدون» بالكامل. والآن اتركوا لنا «محمد باشا» في القلعة ومعه عدد من العسكر بقدر الإمكان، واستودعوا «بدون» إلى جناب رب العالمين، ثم اذهبوا أنتم وارحلوا»، فوافق كل العسكر على كلامهم هذا.

ولما كُلف المرحوم «محمد باشا» بهذا الأمر، قال: «لقد مكثت عامين على التوالي، وأمضيت نوبتي عدة مرات وربما تجاوزتها، فلم يأتِ أي من إخواني هؤلاء الذين يجلسون هناك ليتولى عهدة هذه الخدمة، فأمروهم فورًا، وسيقدمون خدمة أفضل منا». فشكر الذين جاءوا من «بدون» «محمد باشا» حتى إنهم قبلوا يده وقدمه عدة مرات، وراح «يمشجي» يتملقه بدرجة زائدة عن الحد قائلًا: «أخي»، وأحيانًا كان يتعلق برقبته وأحيانًا أخرى كان يقبل لحيته، وتملق إليه كثيرًا قائلًا: «إنني لم أكن أعرف قدرك، فليوقع الحق تعالى البلاء على المنافقين».

وربما كان هناك سبب لاضطراب المرحوم «محمد باشا»: فعندما خرجنا من «بدون» ووصلنا إلى «أستوني بلغراد»، تم النزول إلى خيمة السردار، وكان «بلغار محمد باشا ـ الذي كان رجلًا سيئ اللسان ووقحًا ولا يقول إلا هذيانًا ـ قد تحصن بسنجق «ترحاله». وكان قد عانى من آلام محاصرة «بدون» التي كانت على هذا النحو، واتفق أنه عندما وصل السردار إلى «بلغراد»، كان قد أخذ مقاطعة السنجق من «بلغار محمد باشا» وعُهد بها إلى مُلتزم آخر باقتراح وتحريض «أتمكجي زاده»، وبينما كان المرحوم «محمد باشا» يصافح السردار، ويجلس على كرسي بجانبه، يأتي «بلغار محمد باشا» إلى ذلك المكان ويقول: «لماذا أعطيت منصبي إلى شخص آخر». ومع أن «يمشجي» تحدث بكثرة أحيانًا بود وأحيانًا أخرى بغضب، فإن «بلغار محمد باشا» لم يكن مستجيبًا لذلك. وأخيرًا، غضب «يمشجي» وقال له: «انصرف من هنا». أما «بلغار محمد باشا» فرد عليه بقوله: «هنا ديوان السلطان، ولن تستطيع أن تطردني منه. فإما أن تقطع رأسى أو ترد إليّ

منصبي»، وفي هذه المرة، غضب السردار بشدة وقال: «جلاد». وعلى هذا حملوا «بلغار» المسكين إلى الميدان وجردوه من ملابسه، وأبركوه على الأرض، وكان يوجد هناك بعض الوزراء وأمراء الأمراء، ولكن لم يستطع أي شخص طلب الرجاء بعدم قتله، وكان كل شخص ينظر للمرحوم «محمد باشا»، أما المرحوم فقد أدار وجهه، ولم ينظر أيضًا إلى ذلك الجانب، وكان «يمشجي» أيضًا يقول: «لا تضربوه، ولا تطلقوا سراحه»، وجلس المسكين فترة على ركبتيه بهذا الشكل. والله تعالى يعلم، إنني هذا الفقير، بينما كنت أقف عند رأس المرحوم لعدة مرات، فأحيانًا كنتُ أقول بنفسي وأحيانًا كنت أجعل الآخرين يشفعون له. ولكن لم يُفد ذلك، ولم يرجع «يمشجي» عن عناده، ثم إنه كان هناك «مجذوب حقيقي» يدعى بـ «حمزة دده»، فقال لـ «يمشجي»: «لا تقل هذا، لا تقل هذا». وبعد هذا أطلقوا سراح «بلغار محمد باشا».

وهكذا، وأثناء هذا الإصرار على المرحوم بتوليه مسئولية الدفاع عن «بدون»، تذكر هذه الحادثة وقال: «كانت إهانتك تلك لي، ولم تكن لـ «بلغار»». وعمومًا لا يمكن أن نفصل هنا أيًا من التفصيلات الكثيرة، وفي النهاية، فعلوا ما أرادوا، وأقنعوا «محمد باشا» بأن يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن «بدون».

وإنني هذا العبد الفقير كان قد انتابني بعض الحزن، ولما فرغ كيسنا، حصلت على إذن، ثم توجهت إلى «بچوي»، وبعد ذلك، أحضرنا خلال فصل الشتاء ثلاث مائة عربة ذخيرة مع كتخدا «يمشجي» والمرحوم «تيرياكي حسن باشا»، وفي ذلك الموضع، سار «يمشجي» أمام المرحوم «محمد باشا» حتى ساحل «طونه»، وذلك حتى دخل المرحوم سفينة «شيقة»، وأسمعه بعض الكلمات؛ مثل: «أنت غير لائق بسكبانية[1] الطغاة!».

---

(١) سكبان: هو تعبير كان يستخدم كلقب لمختلف الجماعات. وكان ينطق هذا اللقب فيما بين الناس بـ «سيمان». وكان يطلق على قسم من الأقسام الثلاثة التي تشكل معسكر الإنكشارية اسم «سكبان». كما كان يسمى القسمان الآخران باسم «بلوكات الأغا». وكان يطلق على جند المشاة (البيادة) في عهدي أول سلطانين من السلاطين العثمانيين؛ وهما «عثمان» و«أورخان» لقب «سكبان» أي حراس الكلاب اقتباسًا من مهنة الصيد.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, 145 – 146.

وكان المرحوم «يمشجي» في نفسه شخصًا غريب الطبع، فقد رأينا عدة مرات أنه يأمر بالقبض على الرجال من الخدم الذين أعلنوا العصيان مطالبين بالذخيرة، وضربهم بالعصي، وكان لا يستطيع شخص أن يقول له كلامًا غير لائق.

ولما دخل المرحوم «محمد باشا» إلى «بدون»، تحرك العسكر في تلك الليلة عند نصف الليل، وذهبوا إلى ميناء «وارادين»، وبمجرد أن يدخل الباشا المرحوم إلى القلعة، فإنه في وقت السحر يختار خمسمائة فارس مغوار، وكان طابور أو طابوران من الكفار يقفان بصفة دائمة على طريق «كشيشلك» في ناحية «أون قبوسي». فيقوم بإرسال هؤلاء الفرسان عليهم، وبمجرد أن وصل هؤلاء الغزاة أجبروا الملاعين على أن يولوا الأدبار، وأوقعوا الكثير من الكفار، وقطعوا رءوسهم، وأسروا بعضهم أيضًا أحياءً، واختار «محمد باشا» بعضًا من الجند المشاة المجهزين والأبطال عند «بچ قبوسي» وأرسلهم للهجوم على تحصينات الأعداء ولضربهم بالسهام بقدر ما في وسعهم، وبمجرد أن يصل هؤلاء لا يستطيع الكفار المقاومة، فيهربون، ولكن عندما يلحقون بهم، يقتلون الكثير من الكفار بالقدر الذي لا يمكن حصره، وحتى المرحوم «هابل أفندي» كان شيخًا يتجاوز عمره الثمانين فيخرج مع الغزاة من أجل ترغيبهم في القتال، ويقتل أيضًا كافرًا بيده، ولما اشتدت الأمطار في تلك الأثناء، يئس الكفار وابتعدوا عن «بدون» تمامًا وذهبوا.

مجيء «تتارخان» وقضاؤه الشتاء في «بچوي» سنة ١٠١٢ هجرية[1]

تحرك السردار من صحراء «پشته»، ورغب بشدة في الوصول على عجل إلى «بلغراد»، فلم ينم ولم يسترح حتى أتى إلى جسر «وارادين» ووصل جملة عسكر خلقي أيضًا إلى الغنيمة، وعندما خرجوا إلى صحراء «سرم»، رأوا عساكر جرارة تأتي من الطرف الآخر.

(١) الموافق سنة ١٦٠٣ - ١٦٠٤م.

وربما كان «غازي كراي خان» قد عزم على الخروج إلى الحملة مع عسكر التتار صائدي العدو، وكان يقول في قرارة نفسه: «في حالة عدم التحاقي بالحملة، فعلى الأقل ينبغي أن أمضي الشتاء هناك، وأتم عملي في أول الربيع» ولعل الباعث على مجيئه هذا هو أن أخاه «سلامت كراي خان» وابن أخيه «شاهين كراي خان» انحازا إلى جانب «دلي حسن» الذي كان رئيسًا لأشقياء طائفة «جلالي» في الطرف الآخر المقصود الأناضول، وصارا معينان وظهيران لفساده وشناعته، وصار «تتارخان» منقادًا لأوهامه التي تقول له: «احذر، فإن «دلي حسن» إذا ما أعلن الطاعة فإنه يمكن أن يطلب من السلطان منصب «خان» القرم بدلًا منك، ولذلك فإنه يتردد من هناك على هذا الجانب أي إستانبول، وإن عدم خروجك للحملات منذ سنة أو سنتين، ربما يكون موجبًا لاغبرار الخاطر السلطاني»، وقد ارتكبت مصاعب السفر التي لم تكن في توقيت مناسب. ولما التقى «تتارخان» بالسردار عالي الشأن، رافقه وسارا معًا، حيث عاد إلى «بلغراد» ونزل ضيفًا على سراي «أتمكجي زاده».

وخلال الفترة التي قضاها في تلك الضيافة في «بلغراد»، كان يمضي الليل مع رجاله أحيانًا في سراي السردار وأحيانًا أخرى في منزل «أتمكجي زاده»، وكانوا يقيمون مناقشات ودية بينهم. واستصدر «تتارخان» الأمر بكتابة الأوامر الشريفة على أن تكون «بچوي» مشتىً له، و «سكتوار» و«قوبان» و«موهاچ» و«شمونطورنه» وغيرهم، وبصفة عامة ما وراء نهر «دراوه» سكنًا ومشتًى لعسكر التتار. وبالفعل أتوا، واستقر بعضهم في بعض القرى، وبعضهم الآخر في القصبات والقلاع.

وأمضى الخان عالي الشأن ذلك الشتاء في «بچوي»، وكنا في أكثر الأيام، نحضر مجلسه الشريف، وأحيانًا كنا نذهب سويًا للتجوال والصيد ومشاهدة روضات الربيع، وكنا نقضي الأوقات في الكتابة وفي بعض الأمور الجميلة، وكان «تتار خان» قد جعل هذا الحقير «بچوي» يكتب له نموذجًا من خط التعليق حتى يكتب مثله، وكان قد تعلم طريقة قطع القلم وبعض قواعد الكتابة، ولكن كان قد زرع بذرة استعداده في أرض بور، وكان قد نظم مقابلات ومعارضات هذين المشروبين اللذين يعطيان الكيف تحت

اسم «قهوة وباده» كنظير لمنظومة «بنك وباده» لـ «فضولي البغدادي»[1]، وكان يقول: «إن ثمرة تحصيلك في «بچوي» هو هذا القدر القليل».

ولكن لم يكن يأمن طرف أخيه «سلامت گراى»، وكان يذكر ذلك دائمًا في مجلسه، حتى إنه في إحدى المرات قال «أحمد أغا» ـ الذي كانوا يطلقون عليه في لغة التتار «قبو أغاسي»، وهو يساوي مقام الوزير الأعظم للخان ـ في أثناء الكلام: «سلطاني! لم تدعني على حالي، فلو أنني خطوت أمامك وخنقته مثلما تخنقون الثور الأصفر، لكنت قد تخلصت الآنَ من هذه الأفكار وتلك الخواطر»، وقد فوض الخان أمره في إجابته إلى القدر.

وبعد ذلك، ولما نُصّب المرحوم «أفندينا محمد باشا» سردارًا مستقلًا على بلاد المجر، وصلنا مع المرحوم «إسكندر كتخدا» والجند وأرباب مقاطعات الزعامة، ورافقنا المرحوم وأحضرناه إلى «بچوي»، وكانت «بشته» و«جانْ قورتران» تحت سيطرة الكفار. وكان لا يستطيع الطائر أن يطير في صحارى «بدون». وعمومًا، لما أتى المرحوم إلى «بچوي»، أصبح ضيفًا في منزلنا أنا الفقير بچوي، وكان حضرة الخان قد خرج في هذه الأثناء لشن هجوم على مملكة الخروات، ولكن لم يستطع أن يباشر هذه المهمة كما يجب، ولم يتمكن من الحصول على أي غنيمة. وانتظر المرحوم «محمد باشا» خمسة عشر يومًا حتى عاد حضرة الخان من غزوته. وبعد ذلك، لما أتى الخان، جاء إلى منزلنا الفقير وذهب عدة مرات بمقصد زيارة المرحوم. وقمنا باستضافته على قدر الطاقة. وبسبب الترحاب ودلالة التعارف التي كنتُ أقوم بها بهذا القدر، فإنه إذا وُجد إحسان في أى وقت سواء من جانب السلطنة أو من جانبه هو، فكان هذا الففير بچوي يختص به، وكنت أُغمر بهذا الإنعام وذلك الإحسان، فليتغمدهما حضرة الحق تعالى بالرحمة، وليسعدهما بجنة عدن، وليجزهما أجر ومكافئة الغزوات التي قاما بها، بمنه وكرمه.

---

(١) وهو من شعراء القرن السادس عشر الميلادي.

ظهور الجلاليين في طرف الأناضول وأحوال «قره يازيجي» وأخيه «دلي حسن» سنة ١٠٠٧ هجرية [1]

كان «قره يازجي» قائم مقام لأمير سنجق في إحدى ألوية «سيواس»؛ وكان أمير السنجق هذا في حملة مع جند إمارة لوائه [أو سنجقه]، واتفق أن الآستانة قد وجهت سنجقه في هذه الأثناء إلى شخص آخر، فلما جاء مُسَلِّم الأمير الجديد، لم يمكنه «قره يازجي» من اللواء، ولما كان من المقرر أن يأتي أمير اللواء الجديد مع كثير من رجاله، قام «قره يازجي» بدوره بجمع الرجال، وقتل أمير اللواء الذي جاء فعلًا. ثم إنه لما كان من المحتمل أن يُجرد عليه جند كثيرون، رفع راية العصيان. وبصفة عامة، قام بتحريض أشقياء وأفراد فرقة «اللوند» في تلك الأطراف، وجعلهم يتبعونه، ولما لم يستطع أمراء الأمراء مقاومة «قره يازجي»، نُصب الوزير «محمد باشا بن سنان باشا» سردارًا وأرسل على العاصي، ولكن هزم أيضًا وتحصن بقلعة «وارقه»، حتى إن «قره يازجي» كان يصب طلقات البندقية من الغروش بدلًا من الرصاص ويلقي بها على فرقة «ابن سنان باشا» المحاصرة، وفي النهاية، لما طال الحصار، عقد «قره يازجي» الصلح بتوسط «حسين باشا» الذي كان قد أسره في المعركة السابقة وكان في الحبس، على أن يوجه إلى «قره يازجي» سنجق «چورم».

ولكنه لم يهدأ في السنجق أيضًا ولم يتخل عن عصيانه وقام بفرض الأموال على القصبات والمدن والقرى والنواحي بمنطق (شعرة من كل لحية)، وأرسل الجلاليين لتحصيل ذلك، وبينما كان «ابن سنان باشا» يعد العدة لدفعه مرة أخرى، وقعت الألفة بين «قره يازجي» و«چلبى قاضي» ابن شقيق المرحوم «صنع الله أفندي» شيخ الإسلام، فكتب «قره يازجي» خطابات تتعلق بمظالم «ابن سنان باشا»، حتى إنه لما عُرض من قبل المنلا على السلطان صاحب السعادة ذلك القول: «إنه إذا قورن ظلم «سنان باشا» بظلم العاصي، لكان أكثر منه في عصيانه وطغيانه، فمثلًا يوزع المناصب بالرشوة،

---

(١) الموافق سنة ١٥٩٨- ١٥٩٩م.

ويفرض الذخيرة على الرعايا، ثم إنه خرج عن الطاعة بتحصيل أموال الخراج»، عُزل ابن «سنان باشا» وعُين بدلًا منه «حاجي إبراهيم باشا» سردارًا، ولكن عندما وقعت المواجهة بين الطرفين في صحراء «قيصرية»[1] انهزم «إبراهيم باشا» وكسرت شوكته وصلابته، وفي هذه المرة عهد بالسردارية إلى «وزير زاده حسن باشا»، ودُفع إليه بجند «ديار بكر» و«الشام» و«حلب» وسائر ممالك العرب، وبفضل الله تعالى أوقع الهزيمة بالعاصي المذكور، إلا أن العاصي قام بالفرار إلى جبال «جانيك»، حيث مات هناك واستقر في دار البوار.

وقد روى «شاه ويردي» الذي كان كتخدا لـ «قره يازجي» وصار بعد ذلك من رجال المرحوم «أفندينا» ما يلي: إنه حين وفاته، قطعوا جيفته النجسة أربعين أو خمسين قطعة، ودفنوا كل قطعة منها في مكان، وذلك حتى لا يعثر عليه العثمانيون؛ فيحكموا على جيفته بالإعدام، وكنا نقول: «أي عثماني لا يفعل شيئًا على هذا النحو، ولا يجعل يد شخص تصل إلى جيفة متعـفنة هكذا!!»، فأجاب «شاه ويردي»: «ولكن كان أفراد طائفة اللوند يرون أن فعل هذا أمر مناسب».

ولما رحل الملعون المذكور إلى دار البوار، قام العصاة بتنصيب أخيه «دلي حسن» مكانه، وفي تلك الأثناء، كان «حسن باشا» في «توقات»، وفي الحال عزم على التوجه صوب «دلي حسن»، وكان «حسن باشا» قد جمع العسكر من أهل المدينة ومن القرى، وقال في نفسه «سأواجهه»، فإنه لم يستطع أن يفعل ذلك؛ وتقهقر وانهزم وتحصن بقلعة «توقات»، وكان يوجد مكان في شكل حجرة أمام باب القلعة، وكان هذا المكان مسدودًا بألواح خشب. وإنني هذا الحقير «بچوي» بينما كنت دفتر دار في «توقات»، فقد رأيت ذلك المكان عدة مرات، ويهرب فرد واجب القتل من الداخل إلى الخارج، ويحكي للأشقياء أن «حسن باشا» يعتاد على المجيء كل وقت سحر إلى ذلك المكان الذي في

(١) تقع قيصرية بولاية أنقره وهي أيضًا تقع أقصى جبل «أرجيش» الواقع جنوب شرق أنقرة بحوالي ١٥٦ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام ٥ / ٣٨٠١ـ٣٨٠٢.

شكل حجرة، فينتظره فرد أو اثنان من الملاعين، ويطلقون رصاص بندقية على رأسه، ويسقطانه شهيدًا سعيدًا، رحمه الله تعالى، وبعد ذلك يأتي حرمه وخزينته من بغداد، وعندما يسمع العصاة أن منسوباته ومتعلقاته ترد إلى مكان قريب من «توقات» يذهبون لمقابلتها، وطبقًا لما رواه «شاه ويردي»: إنهم أعطوا الجواهر والمرصعات القيمة لكبار الأشقياء. ثم استعملوا السيف في قياس الأقمشة من نوع جوقة والقطيفة وغيرهما؛ لتوزيعها، وقسموا أنواع النقود بالتروس المدورة، ولكن خصصوا رجالًا لحفظ حرمه، فلم يُلق أي فرد النظر إلى جانبهن ولم يمد أي شخص يده إلى ذهبهن ولا إلى متعلقات زيناتهن الأخرى، ثم عينوا الرجال لمصاحبتهن وأمروهم بتوصيلهم إلى قلاع «ديوريكه» و«عربكير».

ولما وردت هذه الأخبار إلى باب الدولة، قام السلطان بتعيين «خادم خسرو باشا» سردارًا، ولم يستطع ذلك أيضًا أن ينتقم من الأشقياء الذين كانوا في كثرة على هذا النحو، ولذلك رحل صغار وكبار الساحل الآخر [أي الأناضول] وجاءوا إلى الآستانة السعيدة بالشكوى، وأصبح الوضع على النحو الذي امتلأ فيه الديوان الهمايوني بالشاكين ولم تكن هناك إمكانية للاستماع لكل هؤلاء ولا توجيه الإجابات لهم، وأصبح حال الجلاليين هكذا. وكان أيضًا هجوم طغاة السباهية أسوأ من الجلاليين!!

قتل أغا الباب «غضنفر أغا»
وأغا دار السعادة «عثمان أغا» في سنة ١٠١١ هجرية [(١)]

كان المرحوم «صنع الله أفندي» شيخًا للإسلام، و«گوزلجه محمود باشا» قائم مقام. فلما تتابع مجيء أغلب فقراء الطرف الآخر [المقصود الأناضول] الذين هربوا من قهر وهجوم الجلاليين إلى إستانبول للاستغاثة، جاء السباهية الإنكشارية مجتمعين إلى الديوان الهمايوني، وقالوا: «هل هناك خبر لدى سلطاننا صاحب السعادة عن هذه

(١) الموافق سنة ١٦٠٢ – ١٦٠٣م.

الأحوال»، وأضافوا: «لقد أفنى الوزراء العالم بالرشوة. واشتبك الفقراء والأغنياء مع بعضهما البعض. واستصدروا أمرًا بعزل «ابن سنان باشا»؛ بسبب الرشوة، بينما كان يسعى للقبض على أحد الأشقياء، وينبغي أن نبين له أحوال العالم بالمشافهة، وما دام الوزراء المقربين لا يفعلون هذا، فعلينا نحن أن نقوم بذلك»، وأخرجوا السلطان صاحب السعادة شخصيًا مع عرشه الذي هو مصير العالم إلى الخارج، وأخرجوا أغا الباب «غضنفر أغا»، وأغا دار السعادة «عثمان أغا» من الديوان الهمايوني السلطاني طوعًا وكرهًا، بدعوى أنهم هم السبب في كل هذا؛ وجعلوا السلطان يقتلهم، وبينما كانوا يرقدون «طرناقچي حسن باشا» أيضًا حتى يُقتل، أنقذته طائفة الإنكشارية متوسلين بقولهم: «لقد أصبح أغانا، وقد رضينا أوضاعه وأطواره».

في ذكر توجه الوزير الأعظم «يمشجي باشا» إلى الآستانة

عندما لم ير المشار إليه أي شيء سوى سوء السمعة لمدة سنتين، فقد رجح العودة إلى الآستانة على منصب السردارية، حتى أنه اختار السفر في شدة الشتاء، ومن سوء طالعه، أن جسر «موروه» كان قد انهدم من الثلج، وعثر بصعوبة بالغة على الطريق الذي يمكن أن يسلكه؛ وعبر زاحفًا من فوق الثلج، ولما وصل إلى إستانبول، ربما حصل الطغاة على الفتاوى من حضرة شيخ الإسلام، وأجبروا قضاة العسكر على التوقيع بمشروعيتها. وقام «محمود باشا» أيضًا بإرسال الفتوى إلى السلطان صاحب السعادة، وطلب فرمانًا لتنفيذها، واتفق أن تلخيص «يمشجي» كان قد وصل أولًا، وكان قد كتب في مقدمته ما كانوا يقصدونه. وبناء على تلخيص «محمود باشا»، صرح السلطان صاحب السعادة «أن كل ما فعله الوزير الأعظم هو برأيي فلا يتدخل أحدٌ بيني وبين وزيري». وبمجرد أن أتى التخليص، اختفى «محمود باشا» و«صنع الله أفندي» في وقت واحد.

قتل «بويراز عثمان» و«أوكوز محمود» وتشتت سائر الأشقياء

لما صار «يمشجي» مرعيًا من الجانب السلطاني، ومؤيدًا من معسكر الإنكشارية

أيضًا، صدر الفرمان بإغلاق أبواب أسوار المدينة [المقصود إستانبول] والقبض على الطغاة، وبالفعل قبض على الطغاة؛ وأُرسلوا إلى السلطان صاحب السعادة وحامي العالم، وبعد قتلهم في ساحة الإعدام، صار «يمشجي» «مرفه البال»، وكان يقول: إن السلطان صاحب السعادة مدانًا له بالشكر قائلًا له: «إن هدف الخادم كان إجلاس «صنع الله أفندي» على سرير الخلافة، فصرت سببًا لدفع فتنة عظيمة على هذا النحو»، وأصبح السلطان صاحب السعادة لا يخالفه قط؛ فكلما قام بعرض أمر ما، كان لا يرد كلامه، حتى استصدر «يمشجي» ذات ليلة أمرًا بقتل «علي أغا» صهر أغا الباب المعزول من منصب أغا الإنكشارية، وفي اليوم التالي، استصدر أمرًا بقطع رأس «طرناقچي حسن باشا» في الديوان الهمايوني. ولم يكن هناك سبب ظاهر لقتل هؤلاء، إلا أن ظنه وغروره كان وراء ذلك، وقام بإلغاء وزارة «ساعتجي حسن باشا» الذي كان قائم مقام سابقًا؛ وأرسله إلى «طرابزون»[1] كوالٍ هناك، ولكن بعد ذلك، أُعيدت إليه وزارته مرة أخرى بالعمل الدءوب؛ حيثُ أُمر بنقلَه إلى «أرضروم»، ولم يكن هناك أي شخص من العلماء والوزراء وعمومًا من الصغار والكبار آمنًا من شره.

عزل «يمشجي حسن باشا» وقتله بعد ذلك سنة ١٠١١ هجرية[2]

لما تجاوز غرور المذكور الحد، اتفق كل من شيخ الإسلام «مصطفى أفندي» و«قاسم أغا» أغا الإنكشارية، وقاما بالوشاية به لدى السلطان صاحب السعادة بقولهما: «إذا طلبتم الآن الختم الشريف منه، فلن يعطيه لكم؛ بسبب قوة تأييد الإنكشارية له؛ فهو يعتمد على تلك الطائفة غير الخائفة. ولن ينقاد لأوامر سلطاننا». ولما طلب السلطان منه

(١) هي مدينة ومركز ولاية على الساحل الجنوبي من البحر الأسود وفي شمال الأناضول، وتقع شرق إستانبول بحوالي ٨٩٠ كيلو مترًا، وشمال غرب أرضروم بحوالي ١٤٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام ٤ / ٣٠٠٤ـ٣٠٠٥.
(٢) الموافق سنة ١٦٠٣م.

الختم الشريف، فعلى الرغم من أن «يمشجي» أعطاه بلا تردد، فإن الوضع العام أصيب بالفزع الشديد من جراء هجوم الإنكشارية حتى الصباح، فقد هجموا أولا على أغاواتهم وقاموا بحبسهم؛ وأغلقوا عليهم الأبواب، وتوجهوا إلى المفتي وإلى قضاة العسكر وسائر المسئولين وأرهبوهم قائلين: «إنْ لَّم يعد هذه الليلة ختم الوزارة ثانية إلى «حسن باشا»، فإن طائفة الخدم (الجند) قد اتفقت كلمتهم على أنهم سيحرقون قصوركم بالنار ويستولون على أموالكم وممتلكاتكم، وينبغي أن تكونوا الآن قد أدركتم أننا نستطيع أن نحدث اضطرابًا عظيمًا في ذلك اليوم»، وأرسل كل هؤلاء الذين وقع عليهم التهديد التذاكر أي الشكاوى إلى الجانب السلطاني، وكتبوا له وأخبروه بالوضع، ولكن حتى وقت العصر، لم يكن قد أصدر جوابًا. وبعد ذلك أنعم بمنصب الوزارة العظمى على «مالقوچ علي باشا» الذي سيأتي من مصر، وحتى يصل هذا، أنعم بمنصب قائم مقام الوزارة إلى «جراح باشا» وبمنصب أغا الإنكشارية على «قبوجي باشي أحمد أغا»، ومع أن أفراد الإنكشارية قد تجاوزوا الحد ثانية، وقالوا: «قطعًا، ينبغي أن يُرد الختم الشريف إلى حسن باشا»، ولكن الأغا الجديد جعل هؤلاء يعدلون عن ذلك بالنصح والإرشاد، فغيروا كلامهم السابق قائلين: «الوزارة تجب لأي فرد منا»، وبعد ذلك وصل عشرة أو خمسة عشر من طائفة طواشي[1] ذوي الوجوه القبيحة والعبوسة مع «بوستانجي باشي»؛ وقاموا بسحب «يمشجي حسن باشا» من فراشه السلطاني؛ وأخرجوه وأنهوا أمره في الحال.

تعيين «مالقوچ علي باشا» وزيرًا أعظم، وتعيين «جراح باشا» قائم مقام له أولًا، ثم «قاسم باشا» بعد ذلك

عُهد بمنصب الوزارة العظمى إلى «علي باشا»، وبمنصب قائم مقام إلى «جراح محمد

---

(١) طواشي: هو تعبير يستخدم بدلًا من «خادم». والطواشية: تعني خصي الرجل وحرمانه من التناسل. والطواشية موجودة منذ القدم، فهي كانت عادة شائعة عند الأشوريين والبابليين والمصريين، وانتقلت من هؤلاء إلى اليونانيين، ثم انتقلت منهم إلى أهالي الروم والفرنجة. وعلى الرغم من أنهم خدم، فإن التواريخ سجلت أسماء بعض الرجال الذين نالوا الشهرة والبطولة منهم وشغلوا المناصب المهمة عبر العصور المختلفة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 422 – 423 .

باشا» بناءً على الوجه المشروح آنفًا، ولكن على إثر إصابة «محمد باشا» بمرض النقرس، عُين «قاسم باشا» قائم مقام بدلًا منه بتوجيه من شيخ الإسلام «مصطفى أفندي». ولما حصل المذكور أيضًا أي قاسم باشا على قدر من الاستقلال، قام المذكور فورًا ببعض الأعمال التي هي من اختصاص منصب الوزارة العظمى، فإنه لم يأذن له السلطان بذلك؛ وتم تأجيل ديوان توزيع أنعام الجلوس الهمايوني، وأيضًا الأمور المهمة الأخرى حتى مجيء الوزير الأعظم من مصر.

استيلاء القزلباش[1] الأوباش على «تبريز» فاتنة القلوب منتهزين الفرصة ومخالفين الصلح في سنة ١٠١٢ هجرية[2]

كان الوزير «ساعتجي حسن باشا» والي «أرضروم» قد نُصب سردارًا لدفع بعض الأشقياء في تلك النواحي المقصود «تبريز»، وفي أوائل السنة المذكورة، وردت من المشار إليه «ساعتجي حسن باشا» ومن «شريف باشا» أمير أمراء «روان» إلى «إستانبول» العروض وخطابات الاستغاثة التي ورد فيها أن القزلباش اغتنموا الفرصة، واستولوا على «تبريز». وتلك تفاصيلها:

كان «سرخوش علي باشا» أميرًا لأمراء «تبريز». وكانت قد خصصت قلعة «قارني يارق» والأموال الخاصة بمملكتها كمصاريف لفرقة خدم «تبريز»، وكان «علاء الدين بك» من أمراء الأكراد متصرفًا على القلعة المذكورة بطريق الأوجاق أي الإرث أبًا عن جد، وقد سئم «علاء الدين» من تجاوزات خدم «تبريز» فشق عصا الطاعة، وبسبب ذلك، توجه أمير أمراء «تبريز» «علي باشا» المومأ إليه مع «حسن أغا» الذي كان أغا الخدم

---

(١) أطلق هذا الاسم على صنف من العسكر الذين عملوا على تأسيس الدولة الصفوية في إيران وعلى قبائل الترك والتركمان الذين يشكلون هؤلاء العسكر، وأطلق عليهم هذا الاسم؛ لأنهم كانوا يرتدون غطاء رأس أحمر.

ـ قاموس الأعلام ٥ / ٣٦٥٩.

(٢) الموافق سنة ١٦٠٣م.

في «تبريز» وبصحبة خدم وجند «تبريز» إلى «علاء الدين بك»، وقاموا بضرب الحصار على قلعة «قارني يارق»، وجاء «زكريا بك» حاكم «حكارى» مع العسكر؛ ليشارك في الحصار، وجمع «عثمان كتخدا» كتخدا «شريف باشا» نصف جند «نخجوان»[1] وتوجه بهم أيضًا إلى المحاصرة، وقاموا بضرب القلعة حوالي شهر؛ وفي النهاية استولوا على القلعة المذكورة.

وفي ذلك الحين، وصل كل من «سيف الدين بك» ابن شقيق «علاء الدين بك» المذكور، و«خان إبدال» إلى شاه إيران؛ واستغاثا به قائلين: «المدد»، وأبلغاه بأن جميع جند «تبريز» قد خرجوا من القلعة، وبقيت القلعة الآن خاوية.

وعلى هذا، قام الشاه أيضًا بلا تردد بقطع الثلاثة أو الأربعة منازل دفعة واحدة، وقطع من «أصفهان» إلى «تبريز» ـ تلك المسافة التي كانت تبلغ مسيرة شهر ـ قطعها طبقًا لما يرويه البعض في ستة أيام، وطبقًا لاعتقاد البعض في عشرة أيام؛ وقام بمحاصرتها ثمانية عشر يومًا.

وبينما كان «علي باشا» أيضًا يقوم بأسر «علاء الدين بك» المذكور ويأتي به، وصله الخبر بأن القزلباش يقومون بمحاصرة «تبريز»؛ فهجم على القزلباش معتقدًا أنهم بمفردهم ولم يكونوا بصحبة جند الشاه. وبفضل الله تعالى، قام بهزيمة طوابير العدو وقهرهم في البداية. وبعد ذلك، لما هجم بعض طوابير القزلباش على «علي باشا» قائلين: «شاه شاه»، يقوم «علي باشا» بضرب رقبة «علاء الدين بك» المذكور، إلا أن القزلباش ينتصرون عليه، ويهزمونه ويكسرونه، ويؤسر «علي باشا» في ذلك المكان، وأيضًا «خليل باشا» و«محمود باشا» من أتباع «جعفر باشا». وعندما يحضر القزلباش هؤلاء إلى الشاه، يستصدرون أمرًا بقتلهم بدعوى أنهم أتباع «جعفر باشا»، أما «علي باشا» فينقلونه إلى أبواب قلعة «تبريز»، ويقولون: «ها هو حال أميركم، فهو الآن أسيرنا؛ فممن تأملون المدد». وعلى هذا يقوم المسلمون بتسليم القلعة للقزلباش بالاستسلام.

(١) وهي بلد بأقصى أذربيجان.

ولكن يُظهر الشاه الغدر مخالفًا بذلك الأمان الذي أعطاه ويفعل الأفاعيل الكثيرة ضد الفقراء، وكان «علي باشا» المذكور قد أصبح نديمًا خاصًا له أي للشاه بعد ذلك؛ حيث تُوفي وهو على هذه الحال، وكان قد أرسل الشاه متروكاته إلى ورثته الذين كانوا في إستانبول مع سفيره، ولكن «باقي باشا» الذي كان «باش دفتر دار» في تلك الأثناء، صادرها من أجل خزينة الدولة بحسب الشرع.

تعيين «ساعتجي حسن باشا» سردارًا ووفاته بإرادة الخالق في السنة نفسها

لما ورد هذا الخبر المؤلم إلى الآستانة السعيدة، وُجه أمر السردارية بعد المشاورة إلى «ساعتجي باشا» المومأ إليه، وذلك لأنه كان في موضع قريب إلى ذلك المكان المقصود «تبريز»، فقام المذكور أيضًا بإرسال الأوامر الشريفة إلى عموم عسكر الساحل الآخر؛ أي الأناضول؛ حيث كان يبذل جهدًا جهيدًا في جمعهم. وكان الشاه الضال آنذاك قد استولى على «نخجوان»، وحاصر «روان»، وكان قد مضى على الحصار عدة أشهر، وفي الواقع فإن أي أمر ما لم يكن مقدرًا في التقدير الأزلي، فإن ذلك الأمر يصير صعبًا بالتأكيد، وتصبح موانعه ومصاعبه كثيرة، ففي ذلك الوقت، توفي «حسن باشا» بإرادة الله تعالى، ولم يتم الأمر.

انتصار القزلباش على قلعة «نخجوان» في سنة ١٠١٣ هجرية [١]

لما استولى الشاه الضال على «تبريز»، قام بإرسال «ذو الفقار خان» إلى «نخجوان». وكانت «نخجوان» تابعة لإيالة «روان»، وعندما رأى «شريف باشا» أمير أمراء «روان» ما آلت إليه أحوال «تبريز»، كان قد عين حوالى ثلاثمائة من طائفة «قول قراوش»

---

(١) الموافق سنة ١٦٠٤ -١٦٠٥م.

للمحافظة على «نخجوان»، ولكن بسبب أنه لم تكن هناك قدرة على المقاومة إذا ما حصروا، فقد أراد إخراج طائفة الخدم التي كانت بداخلها وإحراق القلعة بالنار وتخريبها، فلما وصل «شريف باشا» إليها، قالت المصائب ـ المقصود العسكر الذين كانوا قد استقروا بداخلها ـ: «نحن خدم الشاه من الأول». ولم يخرجوا من القلعة؛ بل قاموا بتسليمها إلى «ذو الفقار خان».

استيلاء الضالين أي القزلباش على قلعة «روان» في السنة نفسها

لما بدت الأحوال على هذا المنوال[1]، قام الشاه الضال باستمالة أهالي «كردستان» القاطنين في مملكة «تبريز»، وجذبهم إليه، وانحاز كل من «ألكسندره خان أوغلو لوند خان»، و«سمون أوغلو لواصات خان» مع جندهم إلى جانب الشاه، وبعد هذا، تحرك الشاه مع هؤلاء وحاصر «روان»، وامتدت أيام المحاصرة لتسعة أشهر وعشرة أيام بالتمام، وقاموا عدة مرات بزرع الألغام وشن الهجمات، وفي الوقت الذي كان فيه تحت القلعة خمسة مدافع كبيرة، كان الضالون يطلقونها باستمرار. وكان كل مدفع من هذه المدافع يقذف دانة حجرية تزن تسعين أوقية، ولما كان المسلمون يحتاجون الأحجار التي كانت تسقط على القلعة لطواحينهم، فقد صار كل حجر يُباع بينهم بثلاثة غروش لصنع الطاحونة اليدوية، ولكن الغزاة الذين كانوا مُحاصرين مرضوا من كثرة أكل لحوم الجمال والخيول. حتى بقي أفراد كثيرون بلا طاقة وبلا حيلة.

وفي ذات يوم، قام الملاعين بتفجير لغم. وفي حين أنه لم يكن هناك خبر لدى المسلمين، ظهر وقت السحر عدة آلاف من القزلباش بين القلعة الداخلية والقلعة الخارجية داخل القلعة، وعندئذ وبينما كان المسلمون الموجودون في القلعة الخارجية لا يقومون بالتدابير

---

(١) المقصود بهذه العبارة هو استيلاء القزلباش على «تبريز» ١٠١٢هـ ثم استيلاؤهم على قلعة «نخجوان» سنة ١٠١٣هـ.

اللازمة وحيارى فيما سيفعلون، هجم القزلباش على الفور وأسقطوا في آن واحد ألفًا وثمانمائة رجل، وشاع خبر وفاة سردار عسكر الإسلام المرحوم «ساعتجي» وقد أدى ذلك أيضًا لتوقف أيدي وأقدام عسكر الإسلام عن العمل، وفي النهاية، وبعد عشرة أيام قاموا بتسليم القلعة الداخلية إلى القزلباش بعد أن وعدهم القزلباش بالأمان، وفي ذلك الحين، قام الشاه بالكثير من الإكرام والرعاية لشريف باشا، وأعطي له براءة توليه تربة «إمام رضا»، وقضى «شريف باشا» وقته آمنًا ومستريح البال من أمور العزل والتنصيب، وذلك حتى نهاية عمره، وقال الشاه لسائر فرقة «عسكر خلقي»: «من أراد أن يكون من خدمي فليكن، ومن أراد أن يذهب إلى العثمانيين فليذهب». حتى قام الشاه بإحضار «خضر باشا أوغلو محمد باشا» مع أهل وعيال ثلاثمائة أو أربعمائة بيت، وأمده بالرجال وأمر هؤلاء الرجال بتوصيلهم بالسلامة إلى «قارص». ثم باشر الشاه بحرق قلعة «روان»، وهدمها وسواها بالتراب.

تعيين الوزير الأعظم السابق «جغالة زاده» سردارًا وانهزامه، ثم وفاته في سنة ١٠١٣ هجرية[1]

عندما أتى الوزير الأعظم «ياوز علي باشا» من مصر، وجاء خبر وفاة «ساعتجي حسن باشا» في الأيام الأولى من وزارته، نصّب المشار إليه «جغالة زاده» سردارًا على جبهة العجم؛ حيث أسرع بجمع عسكر الإسلام؛ والتوجه إلى «روان» و «شيروان»[2]، ولما أصبحت «روان» خرابًا وعبارة عن كومة تراب، عزم السردار «جغالة زاده» على التوجه إلى جانب «شيروان». وكان «أوغلو محمود باشا» أميرًا لأمراء «شيروان». فلما تلقت طائفة «عسكر خلقي» الخبر عن توجهه إلى جانب «شيروان»، جاءوا إليه بلا مهابة، وقاموا بتصرفات كثيرة وغير معقولة؛ وقالوا للسردار: «لو أنك تقوم بالحملة في البحر، فإنك سوف تذهب لرؤية جدك! ولو أنك تصبح سردارًا بالبر، فإنك ستُرجح

(١) الموافق سنة ١٦٠٤م.

(٢) تقع في نواحي بخارى.

حمل ابنك!»؛ وقاموا برنجم خيمته وهدموها، وجعلوه يتحول إلى جانب «تبريز». وعندما جيء إلى مملكة «تبريز» أيضًا، لم يُشن الهجوم على «تبريز».

وكان الشاه أيضًا يتقدم إلى الأمام بحوالي منزل مع العسكر. فكان ذلك أي الشاه يتحرك، وكان هذا أي السردار يحط مكانه، وكان لدى «صاري أحمد باشا» أمير أمراء ولاية «روم» يعنى «سيواس» خمسة وعشرين ألفًا من طائفة «جلالي»، وكان يوجد أيضًا عشرة آلاف سواري لدى «كوسه سفر باشا» و«آلاجه أتلو حسن باشا»، فجاء هؤلاء بالاتفاق فيما بينهم إلى السردار ذي الوقار، وطلبوا منه الإذن وقالوا: «ينبغي أن نذهب ونهجم على عسكر الشاه، وعلينا السعي بقدر المستطاع، وستكون العناية من حضرة الحق، فإذا هزمنا الشاه وسلبنا عسكره فالعظمة والعزة ستكون لكم والشرف سيكون للسلطان. وإذا انتصر الشاه علينا وكسر شوكتنا، فالعزة أيضًا ستكون للسلطان بكسر هذا الجمع من الجلاليين وسيُقبض على الأفعى بيد العدو، وفي كلتا الحالتين، سيكون الأمر مفيدًا لسلطاننا ولدولته»، ولكن لم يأذن السردار بهذا، وكلما قاموا بالإقدام على إتمام هذا الأمر والاهتمام به، تفشل محاولاتهم ولم يتراجع السردار عن كلمته، وأتى وأمضى ذلك الشتاء أيضًا في «وان»[1]، وأعطي إيالة «وان» إلى «صاري أحمد باشا» المومأ إليه.

وكان مزاج «أحمد باشا» منحرفًا قليلًا؛ فأرسل السردار إليه رئيس أطبائه، وكأنه كلفه برعايته، وخلال عدة أيام، أنهى رئيس الأطباء أمره؛ يعني سمه بذلك الشراب الذي أعطاه إياه؛ فأمحى وجوده من صفحة العالم، وقام السردار بتوجيه «وان» إلى «زنجير قران علي باشا»، وأمضى ذلك الشتاء في «وان»، وصرف ما في وسعه في إعداد العسكر أيضًا، واستمال أمراء «كردستان» وعسكرهم الذين كانوا تابعين لإيالة «وان» وتقرب إليهم؛ كما استمال بقدر استطاعته أمراء أكراد «ديار بكر»[2]، وخصوصًا الأمير «شرف» الذي كان حاكم «جرزة». وأحضرهم إلى إيالة «وان» للاجتماع بهم.

(١) تقع بين خلاط ونواحي تفليس.
(٢) ولاية تقع غرب نهر دجلة.

وهكذا، وبينما كان السردار منتظرًا في قلعة «وان» مجيء سائر الجند، قام الشاه الضال بإرسال «الله ويردي خان» مع جند القزلباش الجرارة؛ وأمرهم بالهجوم على هؤلاء، ويسحق قوى عسكر الإسلام، وفي ذلك المكان أسر «خنداان أغا» مع ابنيه، وكان قد أمر السردار بإطلاق عدد من المدافع من القلعة على عسكر القزلباش. وبهذا التدبير السيئ والخائب والخاسر أمرهم بفعل شيء ما، ولما صارت الأحوال على هذا المنوال، خشي السردار من أن يُحاصر في قلعة «وان»؛ فركب سفينة في بحر «وان»، وعزم على التوجه إلى قلعة «عاد لجواز»[1]، ولما كان من المحتمل أنه سيُوبخ إذا ما توقف في «عاد لجواز»، فقد أخذ ما كان موجودًا لدى أمير اللواء المذكور «عاد لجواز» «أمير شاه بك» من الجياد والبعير، وأيضًا كل ما يوجد لدى سائر أرباب القلعة، ثم توجه إلى «حسن قلعة». وكان قد وجه إيالة «أرضروم» إلى «كوسه سفر». ولما كانت «حسن قلعة» من أعمال «أرضروم»، فقد كان «كوسة سفر» موجودًا بها بطبيعة الحال، وقد بُذل الجهد بقدر الإمكان لإكمال لوازمها ومهماتها. ونقلَ السردار «أوغلو محمود باشا» من «شيروان»، وعهد إليه بديار بكر، ووجهت «شيروان» إلى «حسين باشا زاده أحمد باشا»، وتحرك هؤلاء أيضًا، وتوجه كل واحد منهم إلى إيالته الجديدة.

ولكن في الوقت الذي كان فيه القزلباش يتوجهون إلى «وان» بنية محاصرتها على إثر ملاحظتهم بأن السردار موجود بها، علموا أنه توجه إلى «عاد لجواز»؛ ومن ثم تحول القزلباش بسرعة إلى «عاد لجواز». وعندما وصلوا إلى «أرجيش»[2]، وردت الأخبار بأنه ذهب منها أيضًا أي من «عاد لجواز»، وبعد ذلك، يعودون ويتجمعون، ثم ينقلبون ويعودون إلى ديارهم دار الفجور، أما السردار المذكور فيمكث ويستقر بعد ذلك في «حسن قلعة»؛ وصرف ما في الوسع لجمع العسكر.

---

(١) تقع في ولاية وسنجق «وان»، وبالتحديد في أقصى شمال غرب الولاية، ويحدها شمالًا أرضروم.
ـ قاموس الأعلام ٤ / ٣٠٣٨.

(٢) وتقع أيضًا في ولاية «وان» وبالتحديد على الساحل الشمالي لـ"وان"، وتسمى في التواريخ القديمة باسم «أرسيسة».
ـ قاموس الأعلام ١ / ٩٨.

وكان قد اقترب موسم قاسم أي بداية الشتاء، فجاء مرة أخرى إلى أمام «وان»، ثم أتى أمراء وجند «ديار بكر» و«كردستان» أيضًا، والتقوا بالسردار، ومرة ثانية، تحرك السردار مع العسكر المجهز بكامل العدة، وعزم على التوجه إلى جانب «تبريز»، كان الشاه أيضًا يذهب أمامه بمسافة منزل، وكان يفتش الجبال الشوامخ التي كانت في نواحيه. ولما عبر جند الإسلام من «شيستر»، ونزلوا قرب جدول «تبريز»، قام «كوسة سفر» بإخضاع أمراء أمراء الحدود، وقبل أن تُنصب الخيام، ودون أن يأخذ أي تدبير أو حتى مشاورة، تصرف وفقًا لرأيه، وكانت قد أُعطيت إمارة أمراء «تبريز» إلى «تكيه لو». وكان «راضيه قادين زاده» أميرًا لأمراء «سيواس»، ويقوم «حيدر باشا أوغلو علي باشا» مع أخيه «آخونيلر أحمد باشا» وحوالي ستة عشر أمير أمراء وأكثر من عشرين أمير سنجق مُنصّبًا ومعزولًا، يقومون بتجريد الجند صوب جانب القزلباش مع «سفر باشا». ويذهبون ويتجهون إليه قائلين: «أين الشاه الضال؟». أما الشاه فكان يراقب عند رأس الجبل افتراق هؤلاء أي العثمانيين عن الجيش، وينقض عليهم من الجبل في وقت الظهر قائلًا: «إنه وقت الفرصة». وكان وقت العصر هو وقت اللقاء. أما الشاة فيخترق مع جنده عسكر الإسلام، والجيش الهمايوني، وعندما لم يتمكن جندنا من مقاومة الشاه، وليس في الإمكان المجيء إلى الجيش أيضًا، أسرعوا على الفور بالفرار صوب «شيستر». ولكن استطاع «تكيه لو باشا» و«جلالي قرة قاش باشا» و«قچر محمد باشا» فقط اختراق صفوف القزلباش، ونجوا بالتوجه صوب الجيش. أما أغلب الآخرين فقد أُسر بعضهم وصار بعضهم طُعمًا للسيف. وبقي السردار في الميدان مع «بلوك خلقي»[1]، وطائفة الإنكشارية، ولم يترك أمراء وعسكر «كردستان»، وجعلهم ينتظرون حتى المساء قائلًا: «إن رتبة «يولداش»[2] جديرة بانتظاري وانتظار راية السلطان صاحب السعادة في هذا المكان».

(١) بلوك خلقي: هو اسم أطلق على جند سوارية القابو قولو.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 58.

(٢) وهو المقاتل الذي يبلي بلاءً حسنًا في القتال.

وفي تلك الليلة وفي وقت العشاء أتى أمراء «كردستان» إلى السردار عديم الوقار للاستفهام عن نتيجه هذا العمل، وبيان ضرورة عقد المشاورة، وقاموا ببذل جهد عظيم من أجل مقابلته، ولكن حراسه لم يجعلوهم يقابلونه قائلين لهم: «صاحب الدولة يستجم»، وسبحان الله، فبينما كان يجب عليه أن يمضي عمره بالبكاء، وأن يحرم نفسه راحة النوم، فإن القول: «بأنه يستجم» في ذلك المكان، إنما يدل على درجة الغفلة ومرتبة النحس والشؤم. فعندما لا يقدر الحق سبحانه وتعالى أمرًا ما، يصبح رجلٌ كهذا سردارًا على جند الإسلام، والذين أتوا إلى ذلك المكان قال بعضهم هرب السردار؛ وتحدث بعضهم الآخر بحديث طويل، وأعرب كل شخص عما في نفسه، بحسب ما أدرك عقله.

وترك عموم جند «كردستان» خيامهم وذهبوا مع من ذهبوا. وفي تلك الليلة، وبينما كان «جان بولاط أوغلو حسين باشا» يأتي مع أكثر من اثني عشر ألفًا من العسكر، و «رضاء الدين خان» حاكم «بتليس» مع عدة آلاف من جند الأكراد، صادفوا أمراء الأكراد الذين فروا؛ وأخذوا الخبر بأنه انهزم العسكر، وقال أمراء الأكراد: «إن هؤلاء أيضًا فضلوا الفرار»، فالتحق أيضًا كل من «جان بولاط» و«رضاء الدين» مع عسكرهم بأولئك الفارين؛ وقفلوا عائدين بجندهم وذهبوا، وكان قد حان الأجل المقدر لـ «جان بولاط زاده»، فانتظر السردار في ذلك المكان.

وفي اليوم التالي، قام السردار بضم ما تبقي من جنود في الجيش إلى جواره، وقام بشحذ هممهم بالوعود والاستمالات، وأمر بأن تمتطي فرقهم الجياد؛ فاستطاع الخروج إلى أطراف الجيش فقط، ومكث يراقب ويتصنت على العدو، ورأوا أنه ليس هناك من يأتي ويذهب من قبل العدو أصلًا، حتى حان وقت الظهر، وبينما كان كل شخص يقول في حيرة: «ما الذي يظهر بعد هذا»، يقوم أمير أمراء «وان» «قچر باشا» باتخاذ تدبير مع من بقي بجانبه من عسكر «وان»، فيربط كل شخص أثوابه الصالحة للعمل وأرزاقه على ظهره، ووضعوا جيادهم في خيامهم؛ خشية أن يقف أي شخص على أحوالهم. وفي وقت العصر، لما علا ضجيج الصوت القائل: «لماذا تقفون؟ فقد وصل القزلباش إلى مشارف

الجيش واستولوا على المدافع»، فلم يصبر أي شخص ولم يقف وأخذ كل شخص رأسه وهربوا جميعًا على الفور دون أن ينظر بعضهم إلى بعض، ولكن بقي السردار في الميدان، فأمر جند الإنكشارية وحوالي ألفين من طائفة «قبو قولي» مع أهل العِرض من العسكر أن يركبوا الجمال الباقية، وترك كل الخزينة ومؤن الجيش في موضعها، وولى هؤلاء أيضًا الأدبار خلف الذين هربوا، وعزموا على التوجه صوب «وان»، وفي ذلك اليوم وصل الخبر إلى القزلباش، ولكن لم يأتوا ظانين أن العثمانيين يدبرون حيلة. وفى اليوم التالي، جاءوا باحثين في الأطراف والنواحي؛ حيث اغتنموا هذا القدر من المدافع والخزينة وغير ذلك، وصفوة القول، فقد وقع انكسار شنيع لم يحدث مثله في الدولة العثمانية. فنسأل الحق تعالى ألا يظهره بعد الآن أيضًا، آمين!

وكان «جغالة زاده» في ذاته رجلًا شجاعًا خاض حروبًا ومعارك كثيرة، وقادرًا على اللعب بالسيف، لكنه كان مبتلًى بالكيف، وفي ذلك المجلس أي عندما أتى الأمراء للمشاورة معه، كان قد وصل للاستجمام بحسب الكيف هذا، ولم يوقظوه، وأصبح ذلك سببًا لهزيمة ومصيبة بهذا الحجم، وبعد ذلك، ولما دخل إلى «وان» «مكسورًا ومحزونًا» بتلك الدرجة، قام بقتل «جان بولاط زاده حسن باشا» قائلًا له: «لم تأتِ في الوقت المناسب، وبعد أن أتيت، لماذا هربت وعدت؟»، ونتيجة لذلك، قام أتباع «جان بولاط زاده» برفع راية العصيان في حلب، وأصبحت أمة محمد عليه السلام أسيرة لبلائهم هذا، لسنين عديدة، وبينما كان في «حسن قلعة» قبل أن يتوجه إلى هذه الحملة المنحوسة، قام بنقل «أوغلو محمود باشا» من «شيروان» ووجه إليه «ديار بكر»، ثم وجه «شيروان» أيضًا إلى «حسين باشا أوغلو أحمد باشا»، وبالفعل دخل «أحمد باشا» «شيروان»، و«محمود باشا» «ديار بكر»، وتحرك السردار من «وان»، وتوجه إلى «ديار بكر». وقبل مرور ثلاثة أشهر، توفي هناك بإرادة الله تعالى، وقال البعض: إنه احتسى سمًا من قهره، وأهلك نفسه. وقال البعض أيضًا: إن غم هذا الاضطراب قد سرى في جسده.

في ذكر استيلاء القزلباش على «گنجه»[1] و«شيروان» في سنة ١٠١٤ هجرية[2]

وفي السنة التالية أي عام ١٠١٤هـ توجه الشاه الضال إلى «گنجه» وكان «محمد باشا» كتخدا «صاري أحمد باشا» أميرًا لأمرائها، وحُصرت شهرًا كاملًا، وكان القتال والحرب مستمرًا ليل نهار، وفي النهاية، ولما يئس أهلها من وصول الإمدادات، قاموا بتسليمها بعدما أحسن عليهم بالأمان.

وبعد ذلك تحرك القزلباش، وتوجهوا صوب «شيروان». وحُصرت أيضًا «شيروان» لمدة سبعة أشهر بالتمام، وعندما أدرك أهلها أنه لم يبق لديهم أمل في النجاة، قاموا في النهاية بتسليم «شيروان» بطلب الأمان لهم، ولكن على الرغم من أن الشاه الضال كان قد أعطى الأمان لهم فإنه قتل أكثر من نصف عسكر الإسلام، وكان منان قد أوقع الإهانة نفسها أيضًا بعسكر «گنجه». وهكذا، فإن ما تحصل عليه أهل الإسلام في عشر أو اثني عشرة سنة، صار هباءً منثورا على هذا النحو؛ واستولى عديم الدين أي الشـاه عليها جميعًا في عامين فقط، وكان معروفًا أن تلك النتائج من آثار الظلم والتبديل والتغيير، فقد وقع استيلاء القزلباش على «تبريز» و«نخجوان» في عصر السلطان «محمد خان»؛ أما ما عداها فقد استولى عليه في الزمن الشريف للسلطان «أحمد»، ولما كانت أحوال القزلباش وسردارية «جغالة زاده» هي موضوع الحديث هنا، فقد طرق هذا الموضوع فقط، دون التعرض لأي موضوع آخر.

فترة سردارية المرحوم والمغفور له «لالا محمد باشا» سنة ١٠١١ هجرية[3]

لما كان «يمشجي حسن باشا» متصرفًا في منصب الوزارة العظمى في الآستانة

(١) هي مدينة عظيمة تقع في بلاد إيران، وأهل الأدب يسمونها «جنزه»، وگنجه من نواحي لورستان بين خوزستان وأصبهان.
ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤ / ٤٨٢.

(٢) الموافق سنة ١٦٠٥م.

(٣) الموافق سنة ١٦٠٢-١٦٠٣م.

كيفما يشاء، قام بتنصيب المرحوم «محمد باشا» سردارًا على عسكر الإسلام بدلًا منه. وكان المرحوم في ذلك التاريخ موجودًا في «بدون»، وبفضل الله تعالى، كان قد تمكن من تخليص «بدون» من أيدي الأعداء بغزاة الإسلام، وقد سبق في ترجمة الخان أن «محمد باشا» خرج من «بدون»، والتقى بحضرة الخان في «بچوي»، ومن هناك أتى إلى «بلغراد»، وقام بجمع العسكر وأكمل وأعد لوازم الحرب التي لا حاجة لتفصيلها، وتوجه وذهب صوب منطقة الحدود.

في ذكر عودة «تتار خان» من هذه الحملة

قام المرحوم «لالا محمد باشا» بإرسال هذا العبد الفقير «بچوي» من المنزل المعروف باسم «سكسار» إلى الخان، فوجدت الخان قد نزل مع عسكر التتار في مكان يكثر به العشب الأخضر في ساحل نهر «دراوه» ناحية «شقلوش»، فأعطيت له خطابات المرحوم، وغُمرت برعايته ومحبته، ولما كان مضمون الرسائل ينص على ضرورة لقائه بعسكر الإسلام، قال بلا تردد: «سنذهب عن قريب». وسأل عن أحوال طائفة «جلالي» بكلام موجز، وعن وضع «دلي حسن»، وقال: «كيف يتم اجتماعنا بهذا [أي بمحمد باشا]؟». فقلت: «الرضا لسلطاني. إنكم تقولون عند الصحراء، وهم يقولون عند الجيش. ولما لم يقع ذلك عند رغبتكم، تقولون: فلير المُغسل وجوههم، ولن تروا وجوههم القبيحة». ولكن رأيت أن لديه نوعًا من التردد. وقبل ذلك، كان قد أشير إلى أن أخاه «سلامت كراي خان» أعرض عنه، ولجأ إلى طائفة «جلالي». ومع أن أخبار انفصاله عن طائفة «جلالي» كانت قد وصلت بعد ذلك إلى حد التواتر، فإنه في الوقت الذي كان فيه الخان واقفًا على هذا التغيير، كان غير خالٍ من الوهم تمامًا.

ولما وصلت إلى المرحوم «محمد باشا» ووضحت له الأحوال على هذا المنوال، فعل «أتمكجي زاده» ما فعل قائلًا: «مع أن «إبراهيم أفندي» خادمكم وتوجهه إلى هذه المهمة لائقًا، فإن إرسال رجل مـن أمراء الأمراء من جانب السلطنة، يكون أكثر تعظيمًا للخان وأيضًا تكون كلمته أكثر تأثيرًا». ولما عرض «أتمكجي زاده» أنه كان قد نزل ضيفًا عند

الخان لعدة أيام، وأن هناك صداقة بينهما، استصدر أمرًا بتكليفه بالتوجه إلى الخان، ولكنه قال: «بشرط أن يكون ذلك سويًا مع إبراهيم أفندي».

ومع أنني هذا الفقير اعتذرت كثيرًا، فإنني لم أتخلص من ذلك، ولما وصلنا إلى الخان معًا، تناقشا بعدة كلمات في الظاهر، وبعد ذلك انتقل حديثهم للرمز والإخفاء. وفي اليوم التالي، أُذن لنا بالانصراف، وبعثنا بالرسائل قائلًا: «سننتظر حتى تعبر طائفة جلالي من «دراوه»، وسنذهب سويًا مع الدفتر دار أفندي».

ولما عدت إلى المرحوم وقصصت عليه حقيقة الأمر، تفضل بقوله: «ماذا تعتقد؟ هل سيأتي؟ أم سيذهب؟». فقلت: «ظني الغالب أنه سيذهب؛ لأنني لم أجد أوضاعه بعد لقائه بـ «أتمكجي زاده» موافقة لأوضاعه الأولى. وإنني أخاف فإن كلام كتخدا خدم بابه يؤكد هذا الأمر». وتلك هي الكلمات التي قالها كتخدا خدم الباب:

«عندما يقوم الخان ببذل الجهد لإعداء العسكر لـ «يمشجي»، يدعوه إلى جواره ويسر له في أذنه: هل من الضروري أن يفتح الدنيا؟ إننا راضون بذهابه وإيابه على حالته تلك. وإذا قام هو بهذا الشرف، يأمرون بقطع رأسي قائلين: ألم تر المخالفين لي؟ لماذا لم يقم بهذا الأمر؟ ولكن فإن أي أحد يريد أن يذهب ويأتي فإنني سوف أقوم بحمايته. ينبغي ألا يكون هناك تهاون ما»؛ يعني كان من المؤكد أن الخان لا يريد أن يحرز «محمد باشا» هذا الشرف. وكان يتقاسم الفكرة نفسها مع «أتمكجي زاده» في هذا الموضوع. وربما كان قد طلب منه أن يكون ضده؛ يعنى وضح للخان أنه لن يُعاتب من الجانب السلطاني بعودته إلى المملكة، ولما بيّن ووضّح هذا للخان، ثم تحركا وذهبا سويًا، أصبح ذلك باعثًا على ذهاب الخان أيضًا.

وبعد يوم، يتحركان ويذهبان من عندي أنا الفقير. وكانت قد بقيت في الجيش أثواب وأرزاق «أتمكجي زاده» وجملة أثقاله، وبعد ذلك أتت خطابات ورجال الخان، وأرسل للمرحوم «محمد باشا» خمسة آلاف ذهبية، وإلى «عبدي كتخدا» أيضًا ألف ذهبية، وأعطاه أيضًا رسائل تبادل الود علاوة على إعطائه الإذن. وبعد ذلك، ففي

اليوم الذي توفي فيه المرحوم، أخذ على الفور وفي الساعة نفسها الألف ذهبية التي أعطاها إلى «عبدي كتخدا»، وفي الواقع، فقد كان ذهاب وإياب الخان إلى هذه الحملة بلا فائدة تذكر، وكان مجيئه في نهاية الحملة وعودته في أول الحملة، وقام بتشتيت رعايا ستة سناجق أثناء قضائه الشتاء بها، وشن الهجوم مرة واحدة فقط، ولكن لم يستطع أن يحقق نصف مصاريف السفر، وخلاف الإنعام السلطاني الذي أغدق عليه في الآستانة السعيدة، أرسل المرحوم مرة مع الحقير «بچوي» أربعين ألف غروش، ومرة ثلاثين ألف غروش، وجعلته يأخذهم بصعوبة، فقال لي: «بحمد الله تعالى إنني لست محتاجًا لهذا. فلو أنني أعطيت لكل واحد من التتار غروش واحد، فإن ذلك لن يناسب شأني. ولو أنني أريد أن أعطي اثنين، فلن تكفي هذه النقود، فلا بد وأن تحمله مرة أخرى»، ولكن في النهاية، وبتقبيل يده أحيانًا وقدمه أحيانًا أخرى، وبتذكيره بأرواح أجداده وبالقسم عليه باليمين، قبلهم قائلًا: «عليّ أن آخذهم من أجل خاطرك، فأنت تأتي وتذهب كثيرًا، فإنك قد انتسبت إلينا بدرجة كبيرة»، وحملت النقود وأعطيتها إلى خازنه «عبد العزيز چلبي» أثناء الليل؛ لأنه كان يحترز من رؤية عسكر التتار لهذه النقود، ومن مجيئهم عليه قائلين: «أتى الإنعام السلطاني»، ومن تقاضيهم هذه النقود، وخلاف هذا الجور، فكان لا يمر يوم دون أن يطلب نقودًا لرجل أو رجلين من أمراء الأمراء أو أمراء السناجق أو من أجل تتاره. فإذا أعطوا، يعطي هو بسرعة، وإذا لم يعطوا، فإن قلقه يستمر دون توقف. وصفوة القول: جاء الخان إلى حملة بلاد المجر، وذهب عدة مرات؛ ولكن لم يقم بالخدمة التي يمكن أن يُذكر بها؛ بل أهلك بعض النفوس في كل حملة.

في ذكر أحوال العاصي «دلي حسن».

كان المذكور شقيق «قره ياز يجي» الذي رفع راية العصيان من قبل. وكان الأشقياء المحيطين به أكثر من عشرين أو ثلاثين ألفًا، وفي النهاية أعطي له «يمشجي» إمارة أمراء البوسنة علاوة على الوعود والاستمالات الوفيرة من الآستانة، ومنح لستة أفراد من رؤساء الأشقياء مقام السنجقية ووجه لثلاثمائة أو أربعمائة من المصائب [أي الجند]

وأفراد فرقة «اللوند» وظائف في البلوكات، وأرسلهم إلى حملة بلاد المجر. وهرب الشقي عديم الأدب المعروف باسم «قره قاش بلوك باشي» من الحملة، وعاد من «گليبولي»، ومكث في الأناضول، وبعد ذلك كان «جغالة زاده» قد وجه إليه مقام إمارة أمراء أيضًا. ولكنه انهزم من القزلباش، وكان أول من لاذ بالفرار، وانكسرت رقبته.

وتظاهر «دلي حسن» أنه أعلن الطاعة، ودخل في زمرة حكام سلطاننا صاحب السعادة. إلا أنه في أحد الأيام يعود إلى العصيان ثانية، ففي البداية وبينما كان يعبر من «كليبولي»، غضب بلا سبب على أمير اللواء الذي ركب سفينته من نوع «قادرغه»، فضربه بالبندقية وقتله، وبعد ذلك، لما وصل إلى «أدرنه» فُرضت على أهالي المدينة تقديم الثياب الواقية من المطر والأثواب السروجية والقماش من نوع «مويتاب» و«غرار» وسائر الزاد والزواد الزائد عن الحد وفُرضت أيضًا عدة أحمال من الأقچة، وبعد ذلك فُرضت الأقچة على هذا المنوال على القصبات التي كانت في «فلبه» و«صوفية» وفي سائر الطريق العام، ووقع الكثير من التعديات الزائدة عن الحد.

وكان السردار عالي المقدار قد حط في المنزل المعروف باسم «فودوار» مع عسكر الإسلام صائدي الأعداء، فأتى الجلاليون من ذلك المنزل والتحقوا بالجيش الهمايوني، ولم ير جند في مثل هذه الهيئة والقيافة منذ أن خُلقت الدنيا، فبعضهم كان يعلق أجراس جمل في السروج، وبعضهم الآخر كان عريانًا تمامًا وقد صفت الأجراس اثنين اثنين كالتمائم خلفهم، وبعضهم كان عريانًا وغليظ الرأس، وبعضهم كان ذا شعر طويل كشعر النساء يتدلى على صدورهم من الجانبين، وبعضهم كان يضع فوق رأسه زنطًا، كما أن قدم وساق بعضهم كانت مكشوفة، وفي يد كل واحد منهم مزراق أي حربة، وفي طرف المزراق راية تدعى «ستربزى» مصنوعة من قطعة قماش تبلغ شبرين. وعمومًا، فإن أوضاعهم وأطوارهم كانت خارجة عن حد التعبير، ومن يراهم فقد كان يتعجب ويدهش من حالهم هذا.

وعندما أتوا إلى خيمة المرحوم السردار، ملأ الخيمة كل من «دلي حسن» وكبراء أشقيائه يعني رؤساء البلوكات ورؤساء الحجرات وغيرهم من الأراذل، أي حوالي

مائتي رجل. ومثل هؤلاء، أحاط الأشقياء المعروفون باسم «إيج أوغلانى» الذين كانت أفواههم مغلقة ومشاعلهم ومقابض خناجرهم بارزة من الصدور المملوءة بالحقد، أحاطوا الخيمة بعضهم من الداخل وبعضهم الآخر من الخارج، وأحاطت بعض الفرق بالخيمة من الخارج، واقتربوا من الشوارع حتى يستطيعوا النظر إلى الداخل، وبعض الفرق الأخرى أيضًا ملأت الميدان حول الخزينة، وأحاط عدد آخر من الفرق بالخيمة التي أُقيمت في القلعة، وخلاصة القول: فقد بلغ عدد فرسانه وجنده من المشاة أكثر من عشرة آلاف تقريبًا، وانتشروا جميعًا بين الخيام، فقام السردار بإلباس الخلع لحوالي ثلاثين أو أربعين من رؤساء الأشقياء، وعلاوة على هذا، وزع عليهم قماش الجوخ من نوع «إسكرلات»، وفي ذلك المكان، قدموا دفترًا للسردار؛ حيث طلب حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة رجل وظائف في البلوك، وقام السردار بتأجيل الأمر قائلًا: «سوف نقوم بهذا، ولننظر في الأمر»، وفي النهاية جعلوا السردار يُلبي أكثر ما طلبوا جبرًا وقهرًا.

عبور العسكر إلى الجزيرة واستشهاد «درويش باشا» وانهزام سائر عسكر الإسلام

لما تحرك عسكر الإسلام من ذلك المكان، وتم النزول إلى صحراء «حمزة بك سراي»، كان طابور الكفار المقهور قد نزل جنوب «پشتة» الموجودة تحت أيديهم؛ وكانوا قد أقاموا جسرًا على الجزيرة المعروفة باسم «جپل أطاسي»، وعندما رأى الكفار نزول عسكر الإسلام، قاموا في الحال بإحضار عدد من المدافع الميدانية والمدافع من نوع «ضربزن»، وأطلقوها دون توقف على الجيش الهمايوني؛ بحيث لم يجعلوا أي شخص يتحرك من مكانه، وقام أكثر الجند بحفر خندق لكل واحد منهم بالقدر الذي يخفيه. وفي ذلك المكان عقدت مجالس الشورى عدة مرات، ولكن لم يتمكنوا من الوصول إلى قرار قط.

وفي أثناء هذه المشاورات، ظهرت وجهات النظر المتعددة، فقد قال البعض: «ينبغي أن نرسل فرساننا الأبطال للهجوم»، ولكن آخرين لم يروا أن ذلك الرأى صائب؛ حيث

قالوا: «لو ذهب خيرة الجند وهجم الكفار علينا بإنشائهم جسرًا خلال ساعتين، فمن سيقاومهم؟». وقالت جماعة أخرى: «على العموم، علينا أن نتحرك ونذهب»، ولكن لم يستحسنوا هذا الرأي قائلين: «كيف نترك المكان قبل وصول الذخيرة إلى «بدون» وقبل أن يُفرغ أسطولنا بعد»، وقيل أيضًا: «فلتُحمل الذخيرة على العربات والجمال، ولتوزع على العسكر، ولتنقل على هذا النحو إلى «بدون»، ولتتم عملية الذهاب بعد ذلك». وفي هذه المرة أيضًا ردوا بقولهم: «إن هذا غير ممكن؛ إذ إن طابور الكفار يرابط ناحية «بدون» بعد ذهاب «يمشجي باشا» إلى حملة «أردل»».

وعمومًا، فقد عُرض أكثر من مائة تدبير على التوالي، ولم يُر أن واحدًا منها مناسب. ولكن في النهاية قالوا: «ينبغي أن نقيم نحن أيضًا جسرًا إلى الجزيرة حتى نستطيع أن نحمل على تحصينات الكفار، وعندئذ، إما أن نفتحها بفضل الله تعالى، ثم تأتي سفن الذخيرة إلى ذلك المكان وتُنقل إلى «بدون» بطريقة سهلة أو يأتي العدو الكافر ويقع القتال؛ فربما يقدر حضرة الحق تعالى فتح الفتوح». وبدءوا في تنفيذ ذلك.

وأعلن على الملأ: «فليعبر مساءً عدد من رماة البنادق والسكبان[1] التابعين للأمراء وأمراء الأمراء، وثلاثة أو أربعة آلاف سكبان من طائفة جلالي، وذلك بشرط أن يرتقوا إلى رتبة البلوك، وليعدوا المكان من أجل التحصينات حتى الصباح، وليحفروا خندقًا في أطرافها»، وأرسل معهم مهندسًا لإتمام ذلك، وفي هذه المرة، أتى «سكبان باشي سفر أغا» الذي كان أغا الإنكشارية، وقال: «إننا أيضًا قمنا بتعيين ثلاثة أو أربعة آلاف رجل من الأوجاق؛ المقصود: معسكر الإنكشارية»، ولم يستطع أي شخص أن يجرؤ على القول: «ينبغي ألا يعبر الإنكشارية»، أو حتى يورد على لسانه كلمة: «ليس

(١) سكبان: هو تعبير كان يستخدم كلقب لمختلف الجماعات. وكان ينطق هذا اللقب فيما بين الناس بـ «سيمان». وكان يطلق على قسم من الأقسام الثلاثة التي تشكل معسكر الإنكشارية اسم «سكبان». كما كان يسمى القسمان الآخران باسم «بلوكات الأغا» أو «جماعة». وكان يطلق على جند المشاة (البيادة) في عهدي أول سلطانين من السلاطين العثمانيين وهما: «عثمان» و«أورخان» لقب «سكبان» أي حراس الكلاب اقتباسًا من مهنة الصيد.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 145 – 146.

هناك لزوم للإنكشارية»، فهل كان يتم أمر دون الإنكشارية؟! وألم يكن هناك لزوم للإنكشارية؟! فقالوا خائفين من تعدى سيف الإنكشارية : «لقد أحسنت صنعًا»، ولما بدأ الإنكشارية بالعبور إلى الجزيرة، قالوا: «من سيكون رفيقًا لنا؟ وسنقتفي إثر مَنْ؟! فعلى الأقل يلزم عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سواري»، فقيل لهم «لا يمكن أن يقاوم هذا العدد من العسكر، جيش العدو. ولكن عندما يأتي العدو، يدخل جندنا من المشاة إلى التحصينات، ثم يحاربون بالمدافع والبنادق. وحتى ذلك الحين، يتم أيضًا بناء الجسر. وبعد ذلك، يعبر الفرسان إلى الجزيرة. وهذا هو تدبيرنا»، ولكن ذلك لم يفد أيضًا؛ حيثُ إنهم أصروا عليّ بقولهم: «حتمًا لا نخرج إلا بصحبة الفرسان».

وفي النهاية، اقتُرِح تنصيب «سرخوش إبراهيم باشا» ابن أخت المرحوم «محمد باشا» وأمير «كوستنديل» قائدًا، وإرساله على رأسهم، ولكنهم رفضوا قيادة هذا أيضًا، وقالوا: «لا بد وأن يعبر معنا أمير أمراء الروم إيلي «مراد باشا» مع جميع عسكر الروم إيلي». وخلاصة القول: فقد كان المرحوم «درويش باشا» معزولًا من ولاية البوسنة؛ فقاموا بتعيينه قائدًا. وبمجرد أن وصل الرسول إلى المرحوم، جاء إلى الموضع المقام عليه الجسر، وأدلى بكلام كثير قال فيه: «إن هذا خطأ فاحش، وخطأ زائد عن الحد». وفي النهاية، رد المرحوم «محمد باشا» بقوله: «إنني أعلم أن إرسال الفرسان خطأ فاحش، ولكني مجبور ومضطر؛ لأن تلك الفترة كانت تصادف عصر طغيان وتمرد طائفة الإنكشارية، ويُخشى أن تتكرر هنا الأوضاع الغريبة التي قاموا بها في إستانبول ضد «يمشجي»، ولكن ما دمتم تخافون بهذه الدرجة وجزمتم بأنفسكم بأن هذا الأمر إنما هو شؤم، فلا تذهبوا»، وتحدث معه باللطف واللين وطيب خاطره أي خاطر «درويش باشا»، أما «درويش باشا» فقد رد قائلًا: «لا والله، فإن الموت عندي ليس بقدر احتساء شربة ماء، وينبغي ألا يُظن أنني أهرب من الموت، وأحافظ على حياتي؛ ولكن الذي أحميه هو ناموس السلطنة وعرض الإسلام». وخلاصة الكلام، فقد عبر حوالي أربعة أو خمسة آلاف سواري وربما أكثر من عشرة آلاف من جند المشاة. فإنه إذا قدر حضرة الحق تعالى أمرًا فلم يُفد التدبير. فمثلًا هناك غزلية جميلة بهذا المضمون للمرحوم «درويش باشا».وهي جديرة بأن تكون

دياجة لديوان البلاغة. وعلينا هنا أن نورد بعض أبيات من هذه الغزلية تبركًا:

ما لم يقدر الحكيم المطلق أمرًا

فلن يفيد الكثير من رأي وتدبير أرباب العقول

فلو يرعى حضرة المولى أحد عبيده بعنايته

يصبح خطؤه صوابًا وكل تقصير له كمالًا محضًا

ومهما تجد وتسعى فالحذر لا يمنع القدر

فليس من الممكن بالسعي تغيير قضاء مبرم

فلو أنك ارتديت آلاف الدروع الفولاذية والدروع ذات الطبقات الحديدية

فلن يستطيع شخص أن يدفع عنك السهم المنطلق من قوس القضاء

ولا تتألم فالغنى والفقر والحسن والسوء أمر مقدر

فافهم ما هو تفسير آية ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾[1]

فمن المؤكد أن الفاعل المختار مؤثر في كل أمر

فيا أيها المنجم ألا تعرف إثر ذلك من الكواكب والفلك

فكل ما صوره الخالق الأزلي في الكون بلا نقصان

فحسن تصويره يدل على كمال صنعه

فلو أنك تريد السعادة، كن من أهل التسليم والتوكل

وأقبل بروح نصيحةَ الشيخ "درويش"

يعني لقد اعترى شرود الذهن المرحوم «درويش باشا» في ذلك المكان الذي يجلس فيه بالدرجة التي تدلت فيها رأسه على صدره أثناء جلوسه على الكرسي، وظل على هذه الحال لفترة، ومهما كان يوجه إليه الحديث، فلم يكن يرفع رأسه، ولم تُفتح عيناه، وإذا ما تحدث كان يتحدث كالنائم في عالم الرؤيا. وكان أتباعه ورجاله في حيرة تامة من أمره.

---

(١) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: الآية ٣٢).

وكان ذلك في تمام نصف الليل، وأتى المعماري أي المهندس، وقال: لم يُدق وتد لإقامة التحصين ولم يُغرس عمود حديدي لإنشاء الخنادق، وكلما وجه المعماري الحديث إلى الجلاليين، ردوا بقولهم: «لقد قمنا بالقتال كثيرًا في الساحل الآخر أي الأناضول؛ ولم نحفر خندقًا واحدًا ولم ننظم طابورًا في أي مكان. والآن نحن لن نفعل ذلك أيضًا».

أما طائفة الإنكشارية فصار كل واحد منهم كما لو كان قد حفر قبرًا لنفسه، وأصبح سائر طائفة «سكبان» و«بلوك خلقي» الذين عبروا إلى الجزيرة بشرط الترقي تابعين لفرقة الإنكشارية، واقترب الصباح، فكيف يكون الحال؟ وعندما قيل: «فليطلب المدد على الفور من أغا الإنكشارية، وليتوجه رسول إلى الباشا الجلالي». فحتى إذا ما وصل وأتى الذين ذهبوا، كان قد أصبح الصباح أيضًا.

وما رأيناه أمامنا كأنه موضع قبر جديد. فالذين عبروا إلى الجزيرة، على أقل تقدير، عندما يستريحون، إما يجلسون في مكمن في مكان ما أو على الأقل ينظمون فرقهم، فإنهم لم يفعلوا واحدة قط من ذلك، ولكن توجهوا إلى تحصينات الكافر فرادى ومثنى وخمسات وعشرات على شكل جماعات متفرقة، وقبضوا على الكافر أو الكافرين اللذين وجدوهما خارج الحصن، وأحضروهم قائلين عليهم: «ديل»[1]، وقاموا أيضًا بذبح بعضهم، أما في هذا الجانب، فقد بذل جهد فوق الحد لإتمام الجسر، ولكن لم يكن من الممكن إتمامه، وسارت فرق الكفار حتى وقت الظهر. وانصرف غزاتنا الذين انتشروا في تلك الصحراء فرادى، أما الملاعين فقد حشدوا فرقة كقطيع الخنازير، وأتوا مطلقين مدافعهم وبنادقهم، والتقى فرسان المجر بفرساننا، وصمد وقاوم عدة آلاف من الرجال الذين كانوا في الحصن، ولكن عدة آلاف من الأشخاص الآخرين غاصوا في نهر «طونه» بعضهم بالأحصنة وبعضهم سيرًا على الأقدام؛ فقُتل معظمهم وغرق العديد منهم أيضًا. وأنقذت سفننا من نوع «شيقه» بعضهم أيضًا. وقام الذين كانوا في ذلك الحصن بمعركة ضارية لمدة ثلاث أو أربع ساعات، وقتلوا كثيرًا من الكفار. وبإطلاق

(١) يطلق هذا اللقب على الأسرى المأخوذين من الأعداء ويلقبون بهذا الاسم، بسبب أنه تؤخذ منهم المعلومات عن أحوال العدو.

المدافع والبنادق من الطرف الآخر، انتقل كثير من الكفار إلى قعر جهنم. وفي النهاية، قامت فرساننا بالقتال في هذا المكان، وهناك، ثبت المرحوم «درويش باشا» مع حوالي عشرة من غلمان الداخل لفترة طويلة أمام الكفار، وسعى لاستمالة الهاربين، ولكن لم يقدم الكثير منهم العون له، وعلى الفور هجم مع هؤلاء الغلمان الذين كانوا بجانبه على فرقة كبيرة جدًا من الكفار؛ فاستشهد في تلك اللحظة رحمة الله تعالى عليه.

ولكن البعض يرى أن هذه الحرب كانت من عند الله تعالى من أجل قتل أشقياء طائفة الجلالي، ومن أجل محو وجودهم من عرصة الوجود بهذه الطريقة، فيقولون: لقد قُتل من هؤلاء ستة أو سبعة آلاف شخص، وفي الأمر نفسه، لو لم يذهب هؤلاء بسيف الكفار، لعانى أهل الإسلام في البوسنة و«طمشوار» كثيرًا حتى يمكنهم القضاء على هؤلاء، ولراح نتيجة ذلك الكثير من المسلمين.

وبعد ذلك، حدث بعض القتال عند صحراء «بدون»، وعند حصن الكفار، وعندما راحوا يقيمون جسرًا عند قرية «بلغار»، وأيضًا عندما بدءوا يعبرون منه حدث بعض القتال المتقطع، وحل أيضًا موسم قاسم؛ أي بدأ الشتاء، وقمنا بتعيين «مراد باشا» على «بدون» مع إيالة الروم إيلي، أما نحن فعقدنا العزم على التوجه إلى بلغراد.

في ذكر نهاية أمر الجلالي المرحوم «دلي حسن»

لو أن المذكور أطاع السردار في حملتنا المذكورة يومًا واحدًا، فإنه كان يخالفه خمسة أيام. ومهما وجهت له من استمالة والتفات، فإنه لم يقابل ذلك بالود، فمثلًا، إذا طلب وظيفة في البلوك لأحد أفراد طائفة جلالى ولم تنفذ كلمته، كان يهدم الدنيا بالكلام الفارغ والهراء. ففي إحدى المرات، قام بتمزيق علاماتهم قطعة قطعة وأحرقها جميعًا بالنار، وفي مرات عديدة، كان أحيانًا يهدم خيمته وأحيانًا كان يقيمها، وكان مغرورًا جدًا، وكان يريد ألا يخالف أي شخص كلمته قط، وإن ما يقوله سواء كان حسنًا أو سيئًا، فليقل الشخص مثله أي يؤكده، وكان يحب أن تكون الكلمة الأولى له.

ولما وصل إلى البوسنة تمادى مرة أخرى في تصرفاته الكثيرة وغير اللائقة، ولم يستطع فقراء مناطق الحدود وربما عموم رعاياها تحمل تصرفاته؛ فثاروا ضده، وكان يوجد بالحدود شخص يعرف باسم «سفر بك»، وكان يدّعي أنه من الأمراء، فسمى نفسه «سفر باشا»؛ وصار قائدًا على كل هؤلاء أي الثائرون. وجاء رجاله مرة أو مرتين إلى السردار؛ حيث حصل منه على الصلاحية اللازمة، وحمل هو ورجاله على «دلي حسن»، فانهزموا في المرة الأولى، وفي المرة الثانية، قام بتدبير محكم؛ فأقام طابورًا من العربات وقام بصف مدافعه من نوع «ضربزن» أمامها، وقاتلوا قتالًا شرسًا، وبفضل الله تعالى، هزموا الأشقياء هذه المرة بعد قتال شرس واستولوا على أموالهم وحيواناتهم وثيابهم وأثقالهم، وبعد ذلك، هرب «دلي حسن» مع مَنْ تبقي من رجاله وجاء إلى «أزورنيق»، وقاموا بعبور نهر «درين» الذي هو من الأنهار الكبيرة، أثناء فيضانه العظيم. ومن هناك أرسل كتخداه «شاه ويردي كتخدا» إلى السردار، وبقي المذكور «شاه ويردي» بجانب السردار، ولم يعد إلى «دلي حسن» بعد ذلك، وقام المرحوم «محمد باشا» بإرسال «روزنامجي محمد أفندي» الذي كان أحد أفراد خدمه إلى «دلي حسن»، وجعله يقبل إيالة «طمشوار» مع بعض الوعود، ولكن لم يرسله إلى «بلغراد»، فقام بعبور نهر «طونه» في «پانچوه»، ووصل إلى «طمشوار»، أما أهل زمانه، فكانوا مساعدين ومائلين إلى الضلال والشقاء، فمثلًا، لو كان قد أتى إلى بلغراد، كان من الجائز أن يقوم العسكر بمساعدة المذكور ويجعلونه سردارًا عليهم.

وبصفة عامة فقد بقي «دلي حسن» في «طمشوار» ما يقرب من سنتين، ولكن ساءت أوضاعه كالأول، وفي تلك السنة التي استعيدت فيها «أسترغون» وتم التوجه إلى الآستانة السعيدة، نبه المرحوم السردار على أهالي «طمشوار» ألا يمتثلوا لـ «دلي حسن». وهؤلاء أيضًا أي أهالي طمشوار كانوا قد ضاقوا ذرعًا من أوضاعه، وكانوا باستمرار يتحينون الفرصة. وفي ذات يوم، وبينما كان «دلي حسن» يمتطي جواده ويخرج إلى الخارج قاصدًا الصيد في قلعة «طمشوار»، يقوم الخدم بالهجوم ويقتلون الجلاليين الذين بقوا في القلعة وينهبون أموالهم وممتلكاتهم ويتعقبونهم سعيًا للقبض على جملة فرسانهم

وجندهم المشاة وعلى «دلي حسن» نفسه، ولكن لم يستطيعوا القبض عليه، حيث نجا، وعبر الطريق صوب بلغراد.

وكان المرحوم «تيرياكي حسن باشا» قد بقي في بلغراد كقائم مقام للسردار في ذلك الوقت، فيُرسل السفن من نوع «شيقه» و«إسيلانه» ويكلفهم بإحضار «دلي حسن» إلى بلغراد، ودعوته لضيافته، وكان «پيري صوباشي» أغا لطائفة الإنكشارية في بلغراد و «كيوان كتخدا» كتخدا للبلوك، وكان هؤلاء رجالًا سفاكين للدماء، وكاسرين لشوكة الأشقياء، وكان المرحوم «إسكندر باشا» كتخدا «حسن باشا» في ذلك الوقت، فيقوم هؤلاء بالتشاور مع المرحوم «جسن باشا» قائلين: «لن تكن هناك فرصة للقضاء على هذا، كمثل هذه الفرصة»، ويخوفون «حسن باشا» بقولهم: «لقد ثار الخدم الموجودين في بلغراد، وكلما وصل العاصي إلى مكان، لم يخلُ من العصيان. والآن، هم يهجمون على قصركم وينشرون الفساد». وعلى هذا، ينقلون العاصي «دلي حسن» بموافقة «حسن باشا» ويحبسونه في القلعة، وكان المرحوم «محمد باشا» وزيرًا أعظم في الآستانة. فأتى إليه عرض المرحوم «حسن باشا»، وفي الحال لخصه للسلطان صاحب السعادة؛ فصدر الخط الشريف: «فليعامل بالشرع»، وبعد ذلك، أفتى «صنع الله أفندي» في مجمل أحواله؛ وأرسل الحكم الشريف بقتله. فقُتل «دلي حسن» مع ابن أخيه «ماربيخه كوچك بك».

ومن أغرب غرائب أحوال الملعون؛ أنه بموجب معنى المصراع «لا يؤمن اليهودي ولا يتوب الملحد»، فمع أنه أدرك العاصي «دلي حسن» أن الدولة العلية العثمانية دولة تفوق قدرته مائة مرة وتزيد عنها مائة ألف درجة، راح يشرع في القيام بفساد من نوع آخر. فأرسل الرجال والرسائل من البوسنة إلى «ونديك» البندقية و«رين بابا» و«إسبانيا». ونحن لا نعلم إذا كان هؤلاء لم يردوا على «دلي حسن»، أم أنهم أجابوه ولم يصل جوابهم إلى البوسنة. وكان مضمون ما كتبه لهم: «عليّ أن أعطي لكم في البداية قلعة «ريسنه» الواقعة قرب «نوه» حتى تصدقوا، وبعد ذلك، تعالوا بأسطولكم، وعندئذ عليّ أن أسلمكم إدارة كل القلاع الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وعموم ممالك الروم إيلي. ولكنني أريد الآن مائة ألف ذهبية في مقابل «ريسنه»».

وبعد ذلك، ولما لم تأتِ أية إجابة إلى «دلي حسن» بينما كان موجودًا في البوسنة، يصادف ذميًا كان يبيع الفراء في «طمشوار»، فيقنعه بإرساله إليهم وذلك بالاستمالة وبالوعود الكثيرة، ويعطي له مائة ذهبية مصروف طريق، وفي ذلك الوقت، كان المرحوم «مراد باشا» قائم مقام السردار في بلغراد، ولما لم يتجرأ بائع الفراء على إهانة هذه الدولة العلية، يتوجه مباشرة إلى «مراد باشا» في بلغراد، ويخبره بما جرى ويعرض عليه الرسائل. ويقول «مراد باشا» أيضًا: «ما الذي يمكن أن يحدث؟»، فيأذن له بالتوجه بالرسائل إلى الأماكن المتجه إليها. ولكن ينبه عليه بقوله: «عليك أن تأتي إلينا أولًا، واحذر أن تتوجه إليه».

وفي السنة التالية، كان المرحوم «مراد باشا» قد استرد أيضًا «أسترغون» وجاء إلى «بلغراد»، وبينما كان يستعد للتوجه إلى الآستانة السعيدة، قام ملك «إسبانيا» بإمداد بائع الفراء المذكور بكافر، وأمده «رين بابا» أيضًا بملحد، وكان بجوار كل واحد منهما خدمه، فلما أتى هؤلاء وخدمهم إلى الأراضي العثمانية من جهة حدود «كليس»، أعطوا أحد أفراد الإنكشارية خمسين غروشًا كرشوة، فعمل الجندي حارسًا لهؤلاء، وأحضرهم إلى «زمون»[1]؛ حيث اختفوا جميعًا بمنزل بها، وأتى بائع الفراء وأخبر بذلك، وأحضر رسائل «رين بابا» وملك «إسبانيا»، ومع أنني و«عبدى كتخدا» أبلغنا هذا إلى المرحوم «محمد باشا»، فإنه لم يهتم بذلك كثيرًا ولم يصدق هذا لفترة طويلة، فقمنا بترجمة الرسائل التي أحضروها، وتلك خلاصتُها: «إن رجالنا هؤلاء الذين أرسلناهم إليكم هم رجالنا الذين نعتمد عليهم. فصدقوا كلامهم؛ كما لو كنتم تسمعونه من لساننا، ولا تفكروا في أنه سيحدث خلاف ذلك قط»، وأقسموا بالأيمان المغلظة بحسب اعتقاداتهم الباطلة. فقام «عبدي كتخدا» بإحضار هؤلاء الكفار الذين أتوا، واستجوبهم لمدة خمس أو عشر ليال على أنه «دلي حسن»، وكانت تدابير هؤلاء وأسئلتهم من الغرائب، وينبغي هنا أن يُفصل بعض منها: كان أحد الذين أتوا ابن أخت «رين بابا»، والآخر، أحد أمراء إسبانيا الكبار. وكانوا قد أرسلوا معهما إلى «دلي حسن» ساعة جيب كرمز للمحبة والصداقة.

(١) تقع تجاه بلغراد.

حتى إنهم اعتذروا عن عدم قدرتهم على إحضار هدايا أخرى، وقالوا: «عندما يأتي جوابكم مع رجالنا هؤلاء، سوف نقوم بإرسال الرسالة والوثيقة التي تيسر لكم أخذ المائة ألف ذهبية المطلوبة، من فرنجة بلغراد».

ولما كان «دلي حسن» في «طمشوار»، قاموا على الفور بقتل الملاعين الذين أتوا. وبعد ذلك أصبح «مراد باشا» سردارًا بعد المرحوم أفندينا «محمد باشا»، وأتى، وعندما قُتل الذمي بائع الفراء مع هؤلاء الكفرة، قام «مراد باشا» بعقاب الأغوات الذين أمروا بقتل بائع الفراء، وجعلهم يعانون كثيرًا قائلًا لهم: «لقد أخذتم بعض الجواهر وثلاثمائة أو أربعمائة ذهبية حتى تقتلوه».

وهكذا، كان «دلي حسن» خبيثًا بتلك الدرجة. وقد ستر الحق تعالى هذا الفساد الآخر الذي قام به والذي يفوق تلك المفاسد التي فعلها منذ البداية، ولم تظهر على الملأ. وإلا لكان يلزم أهل الإسلام زمنًا طويلًا حتى يمكنهم إصلاح ذلك الخلل العظيم الذي كانت ستحدثه تلك الخيانة في الداخل.

وهكذا، جرّت الكلمة الكلمة. وامتدت حكاية هذا الملعون كالثعبان. وعلينا أن نعود إلى المقصود أي ما نحن بصدده مرة أخرى، وأن نبدأ ببيان التاريخ.

وفاة المرحوم السلطان «محمد خان»
في ١٨ من رجب سنة ١٠١٢ هجرية[١]

لما كانت الحملة غير الموفقة والمعروفة باسم حملة الجزيرة مقدرة في الإرادة الأزلية، فقد تمت العودة منها، وتيسر الدخول إلى بلغراد دار الجهاد لقضاء موسم الشتاء، فإنه انحرف المزاج الرقيق لحضرة سلطان العصر والأوان السلطان «محمد خان» لمدة أربعة أو خمسة أيام فقط، وبينما كان الحكماء يشرعون في تدبير الدواء، ورد الخبر المؤلم بأنه عزم دار الجنان بإرادة خالق الإنس والجان.

(١) الموافق ٢٤-١٢-١٦٠٣م.

في ذكر الأمراء أبناء السلطان المغفور له

- ولي العهد سلطان محمود خان:

يروي المرحوم «حافظ أحمد باشا» الذي كان وزيرًا أعظم عن المرحوم السلطان «أحمد خان» ما يلي: إنه كلما وردت أخبار عصيان طائفة جلالي وطغيان جماعات القزلباش من قبل الوزراء أو من غيرهم إلى المسامع الشريفة للسلطان المغفور له، كان يعاني غاية الألم، حتى إنه كان يتوقف عن أكل الطعام وشرب الشراب، وعندما كان ولي العهد الموما إليه يرى أحوال السلطان هذه، كان يقول له: «يا سلطاني لماذا تغضب؟ ولماذا تنفعل؟ أرسلني إليهم، واجعلني سردارًا على العسكر، وبفضل الله تعالى، عليّ أن أقلع كل هؤلاء المعاندين وأقمعهم، وأن أخضعهم لك رغمًا عنهم». حتى إنه في إحدى المرات تفضل حضرة السلطان المغفور له بالسؤال قائلًا: «كيف تحقق ذلك؟». فقال: «عليك أن ترى، إن شاء الله تعالى، بخير دعاء السلطان، كيف آخذ الحقوق من بعضهم بالسيف، ومن بعضهم الآخر بالاستمالة».

وذكر المرحوم السلطان أحمد أنه كلما تحدث ولي العهد الموما إليه، في كل وقت، على هذا المنهج، كنتُ أمنعه لأنني كنت أرى أن السلطان صاحب السعادة غير مستريح، ولكن كان لا يفيد ذلك؛ يعني كان ولي العهد السلطان «محمود» أميرًا صاحب حمية وشرف ودائب الحركة على هذا النحو. وبعد ذلك، حدث أن أحد المشايخ عمل له تعويذة وأتى بسحر يورث الفناء للسلطان صاحب السعادة، وأنه قام ببعض المراسلات والمعاملات مع ولي العهد، وعندما قام أغا دار السعادة بأخذها [أي الأوراق] من يد الشخص الذي أحضرها، وعرضها على أبيه المعظم حُبس في بادئ الأمر، ثم خُنق بعد ذلك، وقبض على والدته والشيخ والوسطاء، وأُلقي بهم في البحر. رحمة الله تعالى عليه. ولكن هذا الحدث لم يكن ميمونًا على السلطان المغفور له؛ فقبل مرور شهر على هذا الحدث، تُوفي.

- ولي العهد السلطان سليم خان:

توفي في «إستانبول» بعد جلوس السلطان على العرش.

- ولي العهد السلطان جهانگير:

وهذا أيضًا التحق برحمة الرحمن في حياة السلطان المغفور له.

- ولي العهد السلطان أحمد خان:

ولد في «مغنيسيا»، وكان في الرابعة عشر من عمره أثناء جلوس السلطان على العرش، وجلس على العرش الذي مصيره السعادة بعد وفاة والده صاحب المقام الرفيع.

- ولي العهد السلطان مصطفى خان:

لقد تفضل بالجلوس على العرش الذي مآله السعادة مرتين. ولم تكن أحواله في الجلوس الأول معلومة، فلما كان أولاد المرحوم السلطان «أحمد خان» صغار السن، وهو كبير، فقد اعتلى العرش، فإنه لم يعتنِ بمظاهر السلطنة، وبعد ذلك، لما كان من الضروري خلعه عن العرش لعدم رعايته لشئون السلطنة، خُلع؛ وأجلسوْا المرحوم السلطان «عثمان» بدلًا منه، وعاقبة أحواله غنية عن البيان أيضًا، فإنه يجب إيراد خلاصتها في هذه الأوراق المبعثرة، ولما خُلعَ وخُنق المرحوم السلطان «عثمان»، قاموا بإجلاس هذا، المقصود السلطان مصطفى مرة أخرى باتفاق العسكر.

وقد سمعت من اللسان ناثر الجواهر لحضرة الوزير الجليل صاحب التجليل «موسى باشا» صاحب السعادة الذي بساط عدله مبسوط الآن على إيالة «بدون»؛ حيث إن فقراءها وأغنياءها محفوفون بالحماية من التعدي والجور في زمن دولته، سمعت منه: أنه لما أجلسوا السلطان مصطفى على العرش الهمايوني السلطاني في المرة الثانية، فنظرًا لأننا كنا من أغوات «خاص أوضه»[1]، كنا نقف أمام السلطان كالعادة، وكانت والدته أيضًا جالسة عند قدم العرش الهمايوني، وربما كان الظالم المدعو «داود باشا» قد ذهب لخنق المرحوم السلطان «عثمان»، فلما علم السلطان «مصطفى» بهذا، وثب على الفور من

(١) خاص أوضه: هي أولى حجرات الداخل، وأهمها. وقد أسست من طرف السلطان محمد الفاتح على أن يكون موجود بها اثنان وثلاثون فردًا.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 142.

على العرش الهمايوني، وراح يصيح ويكرر الصياح بقوله: «لا تغدر يا ظالم، لا تغدر يا ظالم»، ويبكي وصاح صياحًا يفوق حد التعبير قائلًا: «قتله الكافر، قتله الظالم، منه لله، لا تلزمني سلطنتكم، ها هي سلطنتكم! ها هو سلطانكم!»، ومهما حاولت والدته في تهدئته بقولها: «يا أسدي، يا ولدي، يا سلطاني»، لم يمتنع، ويزيد في بكائه وأنينه.

ومهما يكن من أمر، فقد وصلت بعض كراماته حد التواتر بين الناس. ولكن يُكتفى بهذا القدر منها في هذا الموضع، وبعد ذلك، وبينما كان السلطان «مراد خان غازي» في حملة «بغداد»، ترك حضرة «موسى باشا» صاحب السعادة وهو مكرم بوظيفة قائم مقام العالم الفاني. رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر الوزراء العظام الذين كانوا فى عهد المرحوم السلطان «محمد خان غازي»

- الوزير الأعظم «قوجه سنان باشا»:

كان وزيرًا أعظم عند جلوس السلطان محمد خان على العرش، وسردارًا أكرم في حملة بلاد المجر.

- الوزير الأعظم «فرهاد باشا»:

كان قائم مقام الصدر الأعظم عند جلوس السلطان على العرش، ولذلك صار صدرًا أعظم، ونُصب سردارًا على القوة الموجهة إلى عصاة «الأفلاق»، وقد سبق تفصيل وشرح أحواله.

- الوزير الأعظم «لالا محمد باشا»:

كان قد اشتهر المشار إليه بلقب «تكيه لو محمد چاوس» في الفترة التي كان يشغل فيها منصب جاوش، وكان من طائفة جاوشية الأمير أثناء فترة إمارة المرحوم السلطان «مراد». وبعد ذلك، لما توجه حضرة السلطان «محمد خان» إلى سنجقه الهمايوني، صار

«مير علم»[١]، ولكن أقام علاقة أسرية مع السلطان «محمد»، أي تزوج ابنة خال حضرة ولي العهد، ثم صار نشانجيًا[٢] لولي العهد، ثم دفتر دارًا له، وبعد ذلك أصبح له «لالا»[٣] صاحب شهرة، وعندما اعتلى السلطان محمد العرش، انخرط في سلك الوزراء، وعمومًا فقد ارتقى من مرتبة جاوش إلى درجة الوزارة في غضون اثنتي عشرة سنة.

وكان «محمد باشا» قد عمل في خدمة طريق الماء في مكة المكرمة أثناء فترة جاوشيته، وبعد ذلك، بقي سنة أو سنتين في خدمة كاتب أمانة «جدة»، ولما كان قد سبقت خدمته بصدق في تلك الأماكن المباركة، فقد أصاب سهم دعائه هدف الإجابة، وصار صدرًا أعظم، ولكن لم يكن له نصيب في الاستمرار في الوزارة، فقد جاء إلى الديوان يومًا واحدًا، ثم بلغ أمره الدنيوي منتهاه؛ وعزم إلى عالم الآخرة. رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير الأعظم والسردار الأكرم «إبراهيم باشا»:

كان بوسنوي الأصل، و«حاتم» زمانه في السخاء والكرم. ولكن كانت أوضاعه سيئة جدًا، فالذين كانوا يشاهدون تصرفاته كانوا يُعدونه أحيانًا من الحمقى وأحيانًا أخرى من العقلاء، وقد صار وزيرًا أعظم ثلاث مرات، وفي المرة الثالثة وفق في فتح قلعة «قنيژه»، والحقيقة، أن تلك هي إحدى الآثار الحسنة التي قد تكون سببًا لذكره بالخير على طول الزمان.

---

(١) مير علم: هو باش أمير أو رئيس أمراء السرايا التي تحتوي على طاقم المهترخانه مع أعلام السلطنة والتي يطلق عليها «مهتران طبل وعلم». ويسير هذا الأمير أمام الأعلام أثناء الحرب، ويحمل راية تعرف باسم «العلم الأبيض». وكانت ترسل بواسطة هؤلاء الأعلام والتبوغات المعطاة من طرف السلطان للوزراء وأمراء الأمراء وأمراء السناجق على إثر تعيينهم في مهمة أو وظيفة. وفي أثناء ملاقاة السلطان مع رجال الدولة الكبار والسفراء كان المير علم موجودًا في هذه اللقاءات.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S.226.

(٢) النشانجي: هو اسم لواحدة من الوظائف العليا فى عهد العثمانيين. وقد أطلق العثمانيون على صاحب الوظيفة الذى كان يسمى فى الحكومات الإسلامية السابقة باسم «صاحب قلم أعلى»، و«صاحب ديوان الإنشاء»، و«موقع»، و«طغرائي»، و«برفانه» أطلقوا عليه اسم «نشانجي» أو «توقيعي» كنية عن الوظيفة التى يشغلها وهى أمور الكتابة داخل الديوان الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C.II, S. 697.

(٣) لالا: هو لقب كان يطلق على مربي أولياء العهد.

وفي سنة عشر وألف هجرية[1] ترك العالم الفاني، وقد سبق ذكر سائر أحواله مرارًا كلٌّ في موضعه، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الأعظم «جغالة زاده سنان باشا»:

إن الكافر الذي يطلقون عليه اسم «جغالة زاده» هو من كبار أمراء الـ «فرنك» المخادعين، وقد قام غزاة الإسلام بسبي المشار إليه، عندما كان صغيرًا، وكان قد تربى في الحرم الهمايوني لـ «سليمان خان»، وبعد أن وصل بحسب طريق الترقيات إلى رتبة أغا الإنكشارية، ثم إلى رتبة أمير أمراء، وقام السردار «لالا مصطفى باشا» بتوجيه مقام الوزارة إليه، وكانت قد تجلت شجاعته وبطولاته الفائقة أثناء المعارك التي وقعت في حملات القزلباش، وقد أُحسن عليه بمقام الوزارة العظمى في يوم حرب «أكره»، فإنه بقي وزيرًا أعظم لمدة خمسة وأربعين يومًا فقط، ثم أُعيد تعيين «إبراهيم باشا» صدرًا أعظم في منزل «خرمنلو» مرة أخرى، وكان رجلًا سيئ الخلق، ويؤذي أرباب الحاجات، ويسيء إليهم بتصرفاته الخسيسة كقوله: «لقد وطأت السجادة بالقدم، وانزويت، وأتيت قريبًا ووقفت بعيدًا»، وبهذا السبب كان لا يستطيع شخص أن يعرض عليه حاله. وقد حررت سائر أحواله بالتفصيل آنفًا.

ـ الوزير الأعظم خادم حسن باشا:

كان قد عمل في خدمة حماية «گنجة»، كما عمل في بعض الوظائف الأخرى. وبعد ذلك، سلك طريق الوزراء، وصار وزيرًا أعظم بدلًا من «إبراهيم باشا»، ولكن كان رجلًا يغلب عليه طمعه؛ فأراد أن يقتل أغا الباب «غضنفر أغا»، ولما توجه إلى السلطان صاحب السعادة في جامع «آيا صوفيه»، وقال له هذا، لم يوافق السلطان على هذا، وأخبر حضرة «والدة سلطان» بالوضع، ولما وصل الخبر إلى «غضنفر أغا»، سعى «غضنفر» لقتله بالاتفاق مع «والدة سلطان»، وفي اليوم الذي وضع فيه الأساس للجامع الشريف

(١) الموافق سنة ١٦٠١ ـ ١٦٠٢م.

الذي شُرع في بنائه عند الميناء، قام حضرة «بوستانجي باشي» بنقل الباشا وحبسه في «يدي قلة»؛ حيث خُنق في تلك الليلة. رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير الأعظم جراح محمد باشا:

اشتهر بلقب «جرّاح» على إثر قيامه بختان السلطان صاحب السعادة، وكان رجلًا قوي البنية وقاسي القلب، وكان لا يمكن أن ينجز أي عمل من يده، ولكن لما تزوج بسلطان هانم، استطاع أن ينخرط في سلك الوزراء، وحينما أصبح وزيرًا أعظم بدلًا من «حسن باشا»، فقبل مرور وقت طويل على توليته، أعيدت الوزارة مرة أخرى إلى «إبراهيم باشا» مع رتبة السردارية.

- الوزير الأعظم يمشجي حسن باشا:

كان رجلًا أرناءوطي الأصل، فظ الكلام عابس الوجه، ولكن كان سخيًا جدًا، وكان مذمومًا بين الناس على اعتبار أنه شخص منحوس ومشئوم بتلك الدرجة التي لا يمكن التعبير عنها، وفي أثناء حركة عصيان الإنكشارية، كان يظن أنه آمن من العزل باعتماده على هؤلاء، ولما وصلت الأخبار عن هذا إلى السلطان، قام بعزله، وقد سبق ذكر سائر أحواله في موضعها.

الوزراء الذين لم يصلوا إلى مقام الوزارة العظمى في عصر السلطان «محمد خان غازي»

- الوزير خليل باشا:

كان صهرًا للسلطان وبوسنوي الأصل، فكانت إحدى كريمات المرحوم السلطان «مراد» صاحبة العفة متزوجة بإبراهيم باشا، والأخرى بخليل باشا، وقد أصبح قبطانًا لعدة سنوات على التوالي، وعُين قائم مقام مرة أو مرتين، ثم توفي معزولًا.

- الوزير خادم حافظ أحمد باشا:

كان من مجودي القرآن الكريم وصاحب صوت غاية في الحسن، وكان قد أتى إلى «بدون» تحت اسم قائم مقام السردار، وكان الناس يحيطون بخيمته، ويسمعون في وقت السحر أوراده الشريفة وتلاوته للقرآن العظيم، وكان رجلًا كامل العقل وغير متشدد، ولكن كان ضعيف البنية جدًا، وقد أصبح أيضًا قائم مقام مرة أو مرتين.

- الوزير ساعتجي حسن باشا:

كان قد صار لفترة موضع اهتمام عظيم من قبل المرحوم السلطان «مراد»، وبعد ذلك أصبح قائم مقام في الزمن الشريف للسلطان «محمد خان»، وكان قد رفع إلى السلطان قوله: «إن «يمشجي» مشئوم، ومذموم بين الناس؛ حيث يطلقون عليه اسم المنحوس»، وبعد ذلك، لما استقر «يمشجي» في مقام الصدارة، قام بإلغاء وزارته؛ وقام بنقله إلى «طرابزون»، ومن هناك إلى «أرضروم»، ثم نُصب بعد ذلك سردارًا عند خروج الحملة إلى القزلباش، ولكن توفي في تلك الأثناء عندما حان أجله المقدر، وبلغ القزلباش مرامهم بفتح «روان».

- الوزير گوزلجه محمود باشا:

كان هو و«سياوش باشا» في وضع مقبول ومرغوب ومحبوب عند المرحوم «سليم خان»، وارتقى إلى رتبة الوزارة بحسب الطريق، وبينما كان «يمشجي» سردارًا، كان «گوزلجه محمود باشا» قائم مقام، وقد سبق تفصيل حاله، وقد رأيته حينما أتى لعيادة المرحوم «أفندينا محمد باشا» في مرض موته، حتى إنه قبّل يده وقدمه، ودعا له من صميم قلبه؛ يعني قال: «لم يختف أي منا في زمن وزارتك، وكنا في آمان، وقانعين بما أعطاه جناب الباري في دارنا الفقير، والدعاء بالخير لكم إنما هو فرض علينا».

- الوزير خضر باشا:

كان قد تزوج بفاطمة سلطان أخت السلطان بعد «خليل باشا»، وكان قد عُين لعدة

مرات على ناحية «هزار غراد» ولحراسة سواحل «طونه»، وأصبح واليًا على «مصر»، ولما أتى إلى «إستانبول»، جلس في مقامه ثانية، ثم توفي.

- حسن باشا بن الوزير الأعظم محمد باشا، والوزير محمد باشا بن الوزير الأعظم سنان باشا:

وقد سبق تفصيل أحوال هؤلاء.

- ساطورجي محمد باشا:

وقد سبق ذكر سرداريته التي كانت لمدة سنتين، وإخفاقه فيها، ثم قتله.

- راضيه قادين زاده وزير مصطفى باشا:

كان قد صار متصرفًا على بعض الإيالات، ثم أصبح وزيرًا، وقد وقع أيضًا أسيرًا للقزلباش، وحتى إنه لما كان عارفًا بالله وقادرًا على الخطاب، كان الشاه عباس في معظم الوقت يأمر بإحضاره إلى مجلسه، وكان يتحدث معه، وفي ذات مرة يذكره الخدم في مجلس الشاه بلفظ صاحب دولت، وبعد ذلك، فعندما كان يرغب الشاه في إحضاره، كان يقول: «فليدعوا صاحب الدولة»، وبعد ذلك أرسله الشاه إلى إستانبول خلال فترة الصلح، وقد ترك العالم الفاني بينما كان متقاعدًا.

- الوزير حاجى إبراهيم باشا:

كان باش دفتر دار في حملة «يانق»، وكان رجلًا معتدلًا وراضيًا بالحق، ولما أصبح علي باشا وزيرًا أعظم، وجه إليه إيالة مصر، وقد سبق ذكر سرداريته وانهزامه من الجلاليين.

- الوزير طرناقجي حسن باشا:

كان رجلًا وجيهًا وسعيدًا وطالبًا للعظمة وعلو الشأن، وكان جركسي الأصل، وبينما كان أغا لطائفة الإنكشارية في الحملة، كان يتقدم على الوزير «مراد باشا» و«صوفي

سنان باشا» في ديوان الوزير الأعظم، وفي إحدى المرات، ظن أنه يستطيع أن يجلس أمام المرحوم «أفندينا محمد باشا» فاتح «أسترغون»، فإنه على إثر دفع المرحوم له قائلًا: «اعرف حدك»، أصابه الخجل، وفي زمن وزارة «يمشجي»، فبعد أن جعله يقبّل اليد بدعوى أنه أصبح أمير أمراء بغداد، فلما خرج إلى الخارج، أشار للجلاد وأمره بضرب عنقه في الديوان الهمايوني، والآن لم يكن معلوم لأي شخص ما كان سبب ذلك وما جرمه؟

في ذكر بعض من مشاهير العلماء في عصره الشريف

ـ المولى سعد الدين الشهير بخواجه أفندي:

هو العالم المتبحر، المشهور بلقب «خواجه أفندي»، وعندما يُذكر «خواجه أفندي» في عصرنا، يكون المراد به «سعد الدين أفندي»، ففي أثناء فترة إمارة المرحوم السلطان «مراد»، فاز في إحدى المدارس العالية بشرف رتبة الأستاذية، وكان قد أتى مع المرحوم السلطان «مراد» من مغنيسيا إلى إستانبول من أجل الجلوس الهمايوني على العرش، حتى إنني سمعت من المرحوم «تيرياكي حسن باشا» الذي كان أغا خدم الركوب للسلطان المغفور له في ذلك الحين ما يلي: إنه كان قد سأل ولي العهد مراد عن «خواجه أفندي» أثناء الطريق، فقالوا له: «لقد تأخر قليلًا بسبب أن الجواد الذي يمتطيه غير مدرب، ولم يساعده على السير بسرعة محاذيًا الأقدام الشريفة لحضرة السلطان صاحب السعادة، وفي الحال أرسل له السلطان «مراد» جوادًا من احتياطيه مزدانًا بطاقم ذهبي وسرج مرصع، وتوقف حتى وصل به إليه، وعلى هذا، كان يشتهر في الزمن الشريف للمرحوم بلقب «خواجه»، وكان محبوبًا ومحترمًا جدًا من الجانب الهمايوني، ولما تفضل السلطان المغفور يعني المرحوم السلطان «محمد خان» بالجلوس على العرش مصير الدولة، كان قد توفي المرحوم «نوالي أفندي» الذي كان معلمه الأصلي، وعلى هذا شغل «سعد الدين أفندي» شرف رتبة الأستاذية، وأصبح موقرًا ومعززًا ومكرمًا أكثر من عصر «مراد خان».

والحقيقة أنه كان الركن الركين للدولة العلية، ولما كان واقفًا وصاحب دراية واسعة بأحوال العالم من حوله، كان لا يخلو من بيان طريق الخير للسلطان صاحب السعادة، كما أن خدماته التي قدمها في معركة «أكره» فقط زائدة عن مرتبة التعريف والتحرير، فمثلًا قام هو في «تاريخ آل عثمان» ببيان الخدمات التي قام بها والده العظيم المرحوم «حسن جان» عند وفاة السلطان سليم خان الأول، وليس هناك ريب في أن خدماته التي كانت في ذلك المكان فقط المقصود «أكره» أفضل منها مائة مرة، كما أن القدرة على تحرير فضائله الباهرة فوق طاقة القائمين بكتابة المسودات مثلي، ولما توفي مفتي العصر «بوستان زاده أفندي»، فقد أعز وأكرم أيضًا بخدمة الفتوى الشريفة.

ووالده هو «حسن جان بن حافظ محمد بن حافظ جمال الدين أصفهاني»، فعندما قام المرحوم السلطان «سليم خان» بهزيمة وقهر الشاه إسماعيل الغارق في الضلال، قام بأخذ والده العظيم مع المرحوم «حافظ محمد» من تلك الديار، وأخذ المرحوم «حسن جان» إلى حرمه المحترم، ولما تعلم مراسم آداب السلاطين على إثر بقائه في خدمة السلطان ليل نهار لمدة ست سنوات، وأتم معرفة أسرار الأمور وكيفية الحديث مع الملوك، لم يبتعد عن خدمته الشريفة؛ أي خدمة ياوز سلطان سليم، حتى آخر أنفاسه. ورحل في أواخر «سنة ثمان وألف هجرية»[1]، رحمة الله تعالى عليه.

ـ المولى بوستان زاده محمد أفندي:

تفضل بإحراز شرف رتبة شيخ الإسـلام مرتين، وتوفي في سنة سبع وألف هجرية[2].

ـ المولى صنع الله أفندي:

كان والده صاحب المقام الرفيع المرحوم «جعفر أفندي» ابن عم شيخ الإسلام

---

(١) الموافق يونيو ١٦٠٠م.

(٢) الموافق سنة ١٥٩٥ ـ ١٥٩٩م.

المرحوم «أبو السعود أفندي»، وكان يقوم بوظيفة «ملازم»؛ أي التدريس في كرسي «أبو السعود أفندي»، وكان زاهدًا ورعًا ومتدينًا وفاضلًا مشهورًا، وقد سمعت من اللسان الناطق بالكرامات للمرحوم «عمر أفندي» الواعظ في جامع «آيا صوفيه» الكبير، والمعروف بلقب «ترجمان شيخي ـ أي شيخ المترجمين ـ قوله: «إنه ليس هناك شخص أفضل منه بين الناس على وجه الأرض في عصرنا هذا».

ـ المولى محمد أفندي الشهير بخواجه زاده:

وهو الابن الأكبر للمرحوم «منلا خواجه أفندي»، وقد صار مفتيًا بدلًا من «صنع الله أفندي».

ـ المولى مصطفى أفندي الشهير بصاري كرز زاده:

وهذا أيضًا أصبح مفتيًا بدلًا من «صنع الله أفندي».

ـ المولى الشاعر الماهر عبد الباقي أفندي:

بعد أن أصبح قاضي عسكر للروم إيلي مرة أو مرتين أو ثلاثة، توفي سنة ثمان وألف هجرية[1]، وكان متقاعدًا.

ومن المشايخ الكرام في هذا العصر

ـ الشيخ محيي الدين:

كان واعظًا وناصحًا في جامع «آيا صوفيه» الشريف؛ وقد أُشيع أنه قام بتحرير حاشية للتفسير الشريف.

ـ الشيخ خضر أفندي الشهير بـ «بابا باشي زاده»:

لقد سقط شهيدًا في معركة الطابور التي حدثت في «أكره»، ووصل إلى عالم الخلد

(١) الموافق سنة ١٥٩٩ ـ ١٦٠٠م.

السعيد، حتى إنه أثناء تفرق عسكر الإسلام في الحرب، شاع أنه قال: «عندما تسقط قطرة دم منا على الأرض، فالفرصة عندئذ ستكون لأهل الإسلام»، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الشيخ شمس الدين السيواسي:

وكان يشتهر بلقب «قره شمس الدين»، وكانوا يروون أن المرحوم «عبد المجيد سيواسي» الذي هو ابن عم هذا أي شمس الدين السيواسي والذي كان ابنه واعظًا ومرشدًا في الجامع الجديد الآن، أنه قال: «كان آق شمس الدين» مع السلطان «محمد الأول» في فتح «إستانبول»، فهل هناك عجب في أن يتواجد «قره شمس الدين» مع السلطان «محمد الثالث» في «أكره»؟!»، رحمة الله تعالى عليه.

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان «أحمد الأول»

١٠١٢ـ١٠٢٦هـ = ١٦٠٣ـ١٦١٧م

في ذكر سلطنة السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان طاب ثراه وجعل الجنة مثواه

وقع جلوسه الهمايوني المقرون بالسعادة في اليوم الثامن عشر من رجب سنة ١٠١٢ هجرية[١]، وانعقد الديوان في اليوم المذكور على العادة الهمايونية، وبينما كان جميع الأركان أي أعضاء الديوان جالسين كل في مكانه، أخبر «قاسم باشا» الذي كان قائم مقام بالجلوس الهمايوني في وقت السحر، وذلك بالخط الشريف الذي أرسل على يد كتخدا البوابين، ولكن لما كان «قاسم باشا» غير واقف على مرض المرحوم السلطان «محمد خان»، فقد بقي مذهولًا ومتألمًا لفترة، وبعد ذلك، دعا السلطان «أحمد خان» «قاسم باشا» فقط للدخول إلى الداخل، فلما رأى «قاسم باشا» حضرة السلطان «أحمد خان» جالسًا على عرشه المحفوف بالسعادة في أيمن الأوقات، صدق ذلك، وعاد وأرسل جاوش باشي إلى مفتي العصر «مصطفى أفندي»، كما أرسل الجاوشية إلى سائر العلماء والأشراف، وقام بدعوتهم إلى الديوان الهمايوني، ولما أتى هؤلاء، شُرع بتمهيد المكان الذي سيُقام عليه العرش الهمايوني.

وكان كل فرد من أهل الديوان يُفسر في نفسه معنى لهذه التحركات ظانين أن المرحوم السلطان «محمد خان» سيخرج، ودخلوا في دوامة من الهواجس، ولما أتى المفتي وأكثر العلماء الكبار، وجلس كل واحد منهم في مكانه، خرج الوزراء أيضًا من «الديوان خانه» واصطفوا قرب العرش الهمايوني، وفي تلك اللحظة، ظهر وتجلى المخدوم جليل الشأن السلطان أحمد خان من الباب ملجأ السعادة وهو معمم الرأس، وبعد أن ألقى السلام على اليمين واليسار، تفضل بالجلوس بالعظمة والشوكة على العرش المحفوف بالسعادة، وفي تلك اللحظة، بلغ دعاء وثناء وتهليل زمرة الجاوشية أوج السماء، وبعد ذلك قام كل شخص بمبايعة السلطان وهو في مكانه، ولما تمت بيعة الموجودين سلموا على حضرة السلطان، وتوجهوا إلى الداخل وذهبوا تحفهم العظمة.

---

(١) الموافق ٢٤ـ١٢ـ١٦٠٣م.

تعيين «مالقوچ علي باشا» وزيرًا أعظم

لما عُزل «يمشجي»، كان المرحوم السلطان «محمد خان» قد أعطى الوزارة العظمى إلى «علي باشا» المشار إليه الذي كان موجودًا حينئذ في مصر، وأبقى السلطان الجديد صاحب السعادة المقصود السلطان أحمد خان الوضع على الكيفية التي قام بها والده صاحب المقام الرفيع، ومع أن «قاسم باشا» الذي كان قائم مقام أثناء جلوس السلطان «أحمد» على العرش قد قام ببعض الإنجازات، فإنه لم ينل الرضا الهمايوني السلطاني، حتى إنه لم تُباشر بعض الأمور المهمة ولم توزع الإنعامات العامة على الرغم من وجود قائم مقام، وإنما أجلت لمجيء الوزير الأعظم.

ووصل «علي باشا» إلى الآستانة خلال أربعين يومًا فقط، وجلس في مقامه أي على منصب الصدارة العظمى، وأول عمل قام به هو تناوله لمسألة القزلباش، فقام بلا تردد أو إهمال بتنصيب الوزير الأعظم السابق جغالة زاده سنان باشا ـ الذي كان قبطانًا في تلك الأثناء ـ سردارًا مع رتبة قبطان؛ ليقوم بفضل الله المتعال بدفع حركة الطغيان التي صدرت من القزلباش الأوباش، وأرسله إلى جانب القزلباش، وقد تم آنفًا بيان سردارية المومأ إليه، وما قام به وفعله في سرداريته، ووداعه للعالم الفاني في تلك الأثناء، وليس هناك حاجة إلى تكراره.

وأرسل «علي باشا» أمرًا شريفًا إلى المرحوم «أفندينا محمد باشا» يأمره فيه بأن يكون سردارًا على جيش بلاد المجر كما كان قبل ذلك، ولكن في تلك الأثناء، قام المرحوم «محمد باشا» بإرسال هذا الحقير المملوء بالتقصير «بچوي» بتلخيص ورسائل للرد على هذا الأمر الشريف الذي صدر له؛ حيث نقل إليه: «إنه لما لم يعتد عسكر الإسلام في هذا الجانب على أن يكون أي شخص عدا الصدر الأعظم صاحب الاحتشام سردارًا عليهم، فقد قام «تتارخان» في السنة الماضية بالعودة بعسكر التتار صائدي الأعداء، وظهر نوع من الطغيان بين الجنود في حملتهم لإخضاع «جلالي حسن باشا» وجنده، ولم تتمخض عن ذلك أي نتيجة تذكر، فحتمًا يجب أن يتحمل الصدر الأعظم مشقة السفر

ويأتي»، وكان «محمد باشا» قد أرسل أيضًا رسالة شفوية، وربما قبل أن يأتي هذا الحقير بالتلخيص والرسائل المذكورة، كانت قد عقدت المشورة في هذا الخصوص، وبعد المشاورة عرضوا على الركاب الهمايوني القول: «إن بقاء الصدر الأعظم في «إستانبول»، ومساعدة قيادة الجيوش الموجودة في كلا الجانبين بالخزينة والعسكر هو الأنفع»، ولكن لم يوافق السلطان على ذلك، وصدر الفرمان: «بأن يجب ذهابكم أيها الصدر الأعظم إلى المجر»، وعندما وصلتُ أنا «بجوي» إلى إستانبول، كان الصدر الأعظم مشغولًا بتجهيز مهمات السردارية ولوازم الحملة.

في ذكر نهاية أمر قائم مقام «قاسم باشا»

كان المشار إليه قد وصل إلى هذه المرتبة العظيمة وهو لا يزال شابًا فتيًا، ولما كان أرناءوطي الأصل، فقد كان رجلًا دائب الحركة، ولأنه لم يكن هناك احتمال تعايشه بصفاء مع الوزير الأعظم، فقد طلب إرساله إلى «مصر» ولكن بسبب تعيين «حاجي إبراهيم باشا» على مصر بدلًا منه، لم يجد مطلبه قبولًا، ووجهت له إيالة بغداد، وعبر إلى «أسكدار» مصحوبًا بالرجال الأقوياء والأشداء على أن يذهب إلى مكان عمله. وأرسلوه إلى بغداد، ولكن بعد أن وصل المذكور «قاسم باشا» إلى «أنقرة»، قام بفرض الضرائب المعروفة باسم «صالمه»[1] على الرعايا، وبجمع الضرائب من الناس بغير حق كالجلاليين، ولما سمع الوزير الأعظم بذلك، قام بعرض الأمر على السلطان صاحب السعادة؛ فصدر الأمر الشريف بقتله، ومن أجل تطبيق ذلك، أرسل السلطان صاحب السعادة «بوستانجي باشي»؛ أي رئيس طائفة بوستانجي إليه بحجة ما، ولكن «بوستانجي باشي» لم يتحين الفرصة، وقام فقط بالمهمة التي كلف بها كحجة ما، ثم عاد. وفي الحال، قام السلطان صاحب السعادة بعزل «بوستانجي باشي»، وأصبح «درويش باشا» «بوستانجي باشي» مكانه.

---

(١) صالمه: هي واحدة من مقاييس الماء. وتعتبر «الصالمه» ٢٤ ماسورة.
Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. III, S. 104.

وتقرب «درويش باشا» جدًا إلى السلطان صاحب السعادة حتى لم تعد هناك كلمة تعلو على كلمته في ذلك العصر، حتى إن كل من قُتل من الرجال، وكل من عُزل منهم، وجملة الأحداث التي وقعت كانت برأي «درويش باشا».

وبعد أن توجه الوزير الأعظم إلى الحملة، وبينما كان السلطان صاحب السعادة يقوم بتنصيب «صوفي سنان باشا» قائم مقام بدلًا منه وجعله يقبل اليد، يقوم أيضًا في الوقت نفسه بتنصيب «خادم حافظ أحمد باشا» قائم مقام آخذًا برأي «خواجه أفندي» وبالرأي الصائب لـ «درويش أغا»، وكان الهدف من هذا بالإضافة إلى جلب المال، هو سلب القدرة التنفيذية من الوزير الأعظم وقتل ثقة السلطان فيه.

ولما مكث «قاسم باشا» لفترة كبيرة في «أنقرة»، أدرك السلطان أن في عقله مخططات فاسدة؛ ولهذا صدر خط شريف من جانب السلطان إليه جاء فيه: «لقد جعلتُك قائم مقام، فعليك أن تأتي بلا تأخير». وفي الواقع، لم يسترح «قاسم باشا» يومًا واحدًا، فأتى ووصل إلى إستانبول، ويُروى أن السلطان صاحب السعادة قام في ذلك اليوم وحتى المساء بإرسال ثلاث قطع من الخط الشريف، آمرًا «قاسم باشا» بقوله: «ينبغي أن تنبه على شيخ الإسلام والوزراء حتى يأتوا إلى القصر الهمايوني في الصباح للمشورة»، ولما أصبح الصباح، تحرك «قاسم باشا» قبل الجميع واتجه إلى القصر الهمايوني. ولكن لما اقترب إليه، أمر السلطان بالقبض عليه وقطع رأسه، وأعطى منصب قائم مقام إلى «صارقچي مصطفى باشا»، وفي ذلك الوقت، ورد على اللسان السلطاني ناثر الكرامة قوله: «حالك أيضًا سيكون على هذا النحو»، وفي الواقع حدث كما قال.

- التشاؤم من بعض الأشياء:

لو أردنا أن نكتب عن الأمور المشئومة في مجموعتنا هذه «تاريخ بچوي»، فالكلام لن يكون له نهاية، ولكن لما خطرت بخاطري واحدة منها في ذلك الموضع، فقد سعيت لتسويدها:

كان «درويش باشا» المذكور قد صار وزيرًا أعظم في سنة خمسة عشر وألف هجرية[1]، وكان قد أعطى سنجق «أغريبوز» إلى أخيه، وكان يريد إجراء تحرير لأراضي مقاطعات اللواء المذكور «أغريبوز»، وسناجق «إينه باختي» و«قارلي إيلي»؛ ولهذا كان قد عين أخاه في وظيفة محرر ولاية، ولكنه لما كان شابًا حديث السن وبلا دراية عن مهنة التحرير هذه، حتى إنه كان يُذكر فيما بين الأمراء باسم «جه ان بك» أي الأمير الشاب، قام «درويش باشا» بتعيين هذا الحقير «بچوي» كاتبًا على الثلاثة سناجق المذكورة بتوجيه من «أتمكجي زاده دفتر دار أحمد باشا»، ووصلنا نحن هذا الحقير إلى «أغريبوز» عن طريق البر بسفينة أمير اللواء التي من نوع «باشترده»، وبينما كان أمير اللواء أي شقيق «درويش باشا» جالسًا ذات يوم في قصره الذي كان على ساحل البحر، أخرج من كيسه ساعة مرصعة ذات قيمة، وقال: «لو لديكم معرفة في الساعة، انظروا»، والحقيقة أننا لم نشاهد ساعة أحسن من هذه، وقد أعجبتنا كثيرًا، ولكنه قال: «هناك حكاية لهذه الساعة، وينبغي أن أرويها لكم». فقلت: تفضل؟ فروى قائلًا:

كان هناك أستاذ صانع ساعات ماهر يعرف باسم «رستم أغا» من جماعة المتفرقة في عصر «مراد خان»، وإنني هذا الحقير كُنت أعرف المذكور، وكان قد حاز على شهرة عظيمة في ذلك العصر، وقد صنع تلك الساعة من أجل «غضنفر أغا» أغا الباب، حتى إنه أعطى له أيضًا جواهره التي عليها، وعندما قتل «غضنفر أغا»، قام الجلاد بإخراج الساعة من كيس «غضنفر أغا» وباعها، ثم إنها تصل إلى يد «طرناقچي حسن باشا»، وعندما قُتل ذلك أيضًا، يأخذها الجلاد ثانية ويبيعها، وبعد ذلك تصل إلى «قاسم باشا»، ولما قتل ذلك أيضًا، يقوم أخي «درويش باشا» بشرائها من الجلادين، والآن وبينما كنت متوجهًا إلى هذا الجانب أي «أغريبوز»، أعطوا لي ساعة أو ساعتين قائلين: «تلزم لك في السفينة. وهذه الساعة هي واحدة من هاتين الساعتين». وعلى الفور وبينما كانت الساعة في يدي، ألقيتها عليه، وقلت: «هل يعطى الرجل هذا الشيء المشئوم والمنحوس حتى

(١) الموافق سنة ١٦٠٦ ـ ١٦٠٧م.

إلى عدوه، أو حتى يأخذه بيده». وفي الحال، أحضر مطرقة ونزع الجواهر التي عليها، وقام بتفتيتها، وألقى برقاص الساعة إلى البحر. وهكذا فإن التشاؤم من بعض الأشياء يصبح بهذه الدرجة.

في ذكر توجه الوزير الأعظم «علي باشا» برتبة السردارية ووفاته في بلغراد

لما توجه إلى الحملة الهمايونية بأمر السلطان حامي العالم، فبسبب أنه لم يتمكن من الحصول على الإذن اللازم من الجانب السلطاني في بعض الخصوص وربما في أكثرها، ذهب وهو في غاية الألم والاضطراب، وكان المرحوم في ذاته رجلًا معجبًا بنفسه ومغرورًا جدًا، فبينما كان كل من الباش دفتر دار وجاوش باشي وأغوات البلوك ورئيس الكتاب يجلسون في مجلس الوزير الأعظم بحسب القوانين، كان هو لا يأذن لأحد منهم بالجلوس، وكان قد اعتاد كل يوم عند خروجه إلى الطريق أن يمسك مظلة من القماش من نوع أطلس مشدودة على عمود، ثم يجلس ويشرب القهوة، ويأكل اللحم المسلوق البارد والمجهز، وكان جملة أهل الديوان لا ينزلون من فوق جيادهم، بل يحيطون به ويقفون حوله، وفي حين أن هؤلاء كانوا أيضًا قادرين على إعداد اللحم المسلوق، فإنهم لم يفعلوا ذلك؛ خوفًا منه، وكان قد جعل أحد أمراء «مصر» الكرام والمعروف باسم «سنان بك» نشانجيًا[1] له، فكان يجلس ذلك الشخص أمامه ويأكل الطعام معه، وكان قاتلًا وسفاكًا عظيمًا للدماء، وكان قد أحضر معه من مصر ستة جلادين.

ولما وصل إلى منزله «صوفيه»، فقد مال مزاجه إلى الانحراف، واشتد مرضه يومًا بعد يوم، وترك العالم الفاني بعد أربعة أو خمسة أيام من وصوله إلى بلغراد، رحمة الله

(١) نشانجي: هو اسم لواحدة من الوظائف العليا في عهد العثمانيين. وقد أطلق العثمانيون على صاحب الوظيفة الذي كان يسمى في الحكومات الإسلامية السابقة باسم «صاحب قلم أعلى»، و«صاحب ديوان الإنشاء»، و«موقع»، و«طغرائي»، و«برفانه» أطلقوا عليه اسم «نشانجي» أو «توقيعي» كنية عن الوظيفة التي يشغلها وهى أمور الكتابة داخل الديوان الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser. C.II, S. 697

تعالى عليه، وقام المرحوم «أفندينا محمد باشا» بإرسال الختم الشريف إلى باب الدولة مع «مصطفى» التابع لـ «قورد باشا» الذي كان في رتبة «چاوش باشي».

الإحسان بالوزارة الكبرى إلى المرحوم «أفندينا محمد باشا» في سنة ١٠١٣ هجرية[1]

وصل الختم الشريف إلى جناب السلطان على يد القائم مقام «حافظ أحمد باشا» بعد موت «ملقوچ علي بك»، وكان «حافظ باشا» قد ذاق لذة مقام سردار عندما كان سردارًا في البوسنة قبل ذلك وأيضًا أثناء محاربة «ميخال» الضال، فإنه الآن كان قد دفع تلك الرغبة عن قلبه، وعلى إثر رفض «حافظ باشا» لتلك الوظيفة، أُحسن بختم الصدارة إلى المرحوم، ووصل إليه الختم الشريف بينما كان في الموضع المعروف باسم «متروجه» على يد المومأ إليه «مصطفى أغا» نفسه.

قيام السردار المومأ إليه أفندينا «محمد باشا» بمحاصرة «أسترغون» وعودته بلا فتح

قام المشار إليه بلا تأخير أو توقف بمحاصرة «أسترغون»، ولم يتوان لحظة واحدة في السعي مع جند الإسلام لفتحها وقمع الكفار الذين بها، ولكن كان طابور الكفار موجودًا في المنزل المعروف باسم «چكردلن» تجاه القلعة، وكانوا قد أقاموا جسرين في موضعين على نهر «طونه» ويقوم العدو الذي لا حصر له بحراستهما، ولم يتوان الكفار قط عن الدخول والخروج من القلعة طابورًا طابورًا، وكان «نقاش باشا» في تلك الأثناء أغا الإنكشارية، ولكن لما كان رجلًا جبانًا ومخنثًا وعديم الحياء والغيرة، فلم يدخل المتراس يومًا واحدًا، ولم يكن ثابت القدم في مكانه ولم يقف.

(١) الموافق سنة ١٦٠٤-١٦٠٥م.

وفي النهاية، فمن قبل كان هناك اقتراح رآه «إبراهيم باشا» في زمن سرداريته وتتارخان وأمراء الأمراء والأمراء الكرام وعموم عسكر الإسلام، رأوه أنه حسن، إذ إنهم رأوا استبدال قلعة «أكره» بـ «أسترغون»؛ وذلك لأن «أكره» بعيدة عن «بدون»، ولم يلحق ضرر كبير منها على ممالك الإسلام، وعلى هذا، وصل كتخدا «إبراهيم باشا» والوزير «مراد باشا» و«أحمد أغا» الذي كان وزيرًا أعظم لتتارخان، و«مولانا هابيل أفندي» قاضي «بدون» إلى طابور الكفار، وبينما كان الرأي الصائب للطرفين بأن يُعقد الصلح على هذا الرأي؛ فبسبب أنه لم يتم الاتفاق على قرار واحد، وبسبب أن المرحوم «أفندينا محمد باشا» كان من المعارضين لهذا الاقتراح، فإنه لم يُعقد ذلك الصلح.

وفي هذه المرة، قرر ولاة «نمچه» وكبراؤها وأمراؤها المشهورون الصلح على هذا النهج؛ وبسبب هذا أرادوا عقد الصلح، وجاء حوالي عشرة من كلابهم الذين كانوا يعرفون بلقب «غروف» و«هرسك» يتقلدون السلاسل الذهبية إلى خيمة المرحوم الوزير الأعظم، وأعطوا قرارًا بالصلح على الوجه المشروح، وحرروا السجلات والحجج ومحاضر الجلسات والعروض الخاصة بذلك، وقام المرحوم أفندينا محمد باشا بإرسال هذا العبد القاصر مثل كل مرة بهذه الرسائل إلى الآستانة السعيدة، وكان «صارقجي مصطفى باشا» آنذاك قائم مقام، فلما وصلتُ، قرأ الخطاب، وقال: «هل ذهبتم إلى حضرة شيخ الإسلام؟ وهل عرضتم التلخيص على السلطان صاحب السعادة؟». فقلت: «لا». وعلى هذا؛ قال: «اذهبوا أولًا إلى حضرة شيخ الإسلام، وبعد ذلك عودوا إليّ ثانية».

وكان «صنع الله أفندي» يقر بحقوق الأبوة والبنوة مع المرحوم الباشا، وكان يظهر محبة الأب للابن، فلما فتح الخطاب، أكثر في السؤال عن حال وخاطر الباشا حتى أتى إلى الموضوع الأصلي، ولكن لما جاء للموضوع، استنكر ذلك قائلًا: «أستغفر الله تعالى، أستغفر الله تعالى»، وقال : «ما هذا الأمر الذي سيحدث؟ أليس هناك جمعة في «أكره»؟ ألم تُصَلِّ الصلاة بها؟ احذروا ألف مرة! لا تقتربوا إلى تلك الأفكار أبدًا، ولا تذكروا هذا الكلام ليس على اللسان، بل لا ترددوه أيضًا على الخاطر». فقلت: «هو رأي

«إبراهيم باشا» وتتارخان قبل ذلك»، وكان الكفار قد تعللوا كثيرًا حينذاك، وحاليًا وافقوا، ولم يترك الناس ابنكم الباشا في حاله، فلو خالفهم وتصرف بعكس ما يرى هؤلاء، فإنهم سوف يقولون: إنه لا يريد الصلح حتى لا يعزل عن السردارية والعطاء والمنح، ولهذا السبب فإن ابنكم الباشا بلا حيلة، حتى إنه في زمن «إبراهيم باشا» لم يرض بهذه الشروط»، وعلى هذا، يؤكد «صنع الله أفندي» قائلًا: «هؤلاء تحدثوا عبثًا، وأنتم أيضًا تتحدثون عبثًا، ومن يتحدث فليتحدث. ولكن ينبغي ألا يصدر هذا القول منكم. أليس هناك غيرة إسلامية؟ أليست المعجزات المحمدية عليه السلام باقية. وهل: «أسترغون» فقط التي سنأخذها من الكفار؟ سنأخذ القلاع بفضل الله تعالى، وسنفعل الكثير والكثير بالكافر، فاحذروا ألا تكرروا هذا الكلام».

وبعد تلك المناقشة، لم أقدم التلخيص ولم أوصل سائر الخطابات وإنما أخذت مكتوبًا من قائم المقام ومكتوبًا من صنع الله أفندي، وقمت بالعودة، ولما أتيت والتقيت بالمرحوم «محمد باشا» في صحراء «سرم»، حاولت أن أوضح له الأحوال إجمالًا؛ ولكن لم يجعلني أتكلم قط، ودعا كثيرًا قائلًا: «إننا سنخجل من كلامنا هذا حتى الموت، ماذا ينبغي علينا أن نفعل؟ فبسبب أننا لم نتخلص من إصرار فرقة عديمة الحياء كهذه، صرنا منقادين لهم، فليرحم الحق تعالى شيخ الإسلام وجده وجدته»، ويبدأ يروي إلى هذا الحقير «بچوي» حكاية ظهور «بوچيقايي»؛ وبسبب أن هذه الحكاية كانت مستبعدة، قلت: «سلطاني هل أنتم واثقون من هذا، حتى نصدق نحن أيضًا؟»، فيؤكد على حقيقة ذلك قائلًا: «لا تشك في هذا، إن شاء الله تعالى ستُشاهد آثاره قريبًا».

في ذكر ظهور «بوچقايي أشتوان» من أمراء «أردل» سنة ثلاثة عشر وألف هجرية(١)

ليكن معلومًا لأولي النهى، أن كفار «نمچه» لا يزالون يرتكبون إهانات عظيمة ضد

(١) الموافق سنة ١٦٠٤م.

أهالي المجر منذ القدم؛ إذ إن أمراء المجر وكبراءها الذين كانوا أرباب قلاع وممالك، اعتبروا أذل وأحقر من الرعية حتى عند أصاغر «نمچه»، فعندما يصادفون مجريًا في الطريق، فدون سبب يذكر، يقومون بإظهار التذليل والتحقير له، كدفعه وإسقاطه على الطريق، وحمله من أعلى ثوبه والبصق على وجهه لو لحقوا به من خلفه، ولهذا السبب، كان المجريون قد أعلنوا العصيان عدة مرات منذ قديم الزمان، وكانوا قد فعلوا الكثير لقوم «نمچه» ولدارهم وديارهم، وفي هذه المرة أيضًا، كان قد تحين الضال الذي كان إمبراطورًا وملكًا لتلك الديار الفرصة، واستولى على أكثر ممالك «أردل»، وكان قد وضع الحراس من أهالي «نمچه» في قلاعها؛ وتمادوا في الإهانة التي كانوا يفعلونها للمجريين منذ القدم.

وكان هناك رجل مشهور باسم «بوچقايي أمير»؛ بسبب أنه من رجال «بوچقايي». كان هذا الرجل درويشًا ومداومًا على الطاعة والعبادة وصاحب كرامة، وفي تلك الأثناء، كان لدى «بوچقايي» المذكور أسيرًا، وفي الوقت الذي يجعل فيه «بوچقايي أشتوان» حديقته مقاطعة تيمار لـ «بوچقايي أمير»، يظهر «بوچقايي أشتوان» العجز - في أثناء الكلام - من قهر «نمچه»؛ فيتحدث «أمير» بالكلام الذي يوافق مزاج «بوچقايي أشتوان»، إذ يقول: «أرسلني إلى السردار، وعليّ أن أحضر كل عسكر الإسلام لإمدادكم، وإنني ضامن تنصيبك ملكًا على «أردل»». ويوافق «بوچقايي أشتوان» على هذا الاقتراح؛ لأنه قبل سنة، كانوا قد وشوا به عند الإمبراطور قائلين: «هناك احتمال ظهور حركة عصيان في «أردل»». وعلى هذا، حُبس لفترة، وتم التحقيق والتحري عن أحواله، ولما لم يظهر أي شيء بحسب الظاهر، أطلق سراحه مرة أخرى، وعرض «بوچقايي أشتوان» وجهة نظره في هذا الاقتراح قائلًا: «إن أهالي «أردل» على دين النصارى وأنه لا يمكن خضوع هؤلاء للترك». فعرض «أمير» رأيه أيضًا بقوله: «إذن لماذا خضعوا في زمن السلطان سليمان، وكانوا في زمان دولته آمنين وسالمين». وبعد مخالفات ومعارضات كثيرة وبعد الأعذار والمخالفات العديدة من كلا الطرفين، قام «بوچقايي أشتوان» بإرسال مملوكه إلى السردار.

وكان «دباغ محمد باشا» في ذلك الوقت ترجمان «بكتاش باشا»، فقاد «أمير» وحمله إلى الوزير، وانفردوا ببعض وتحدثوا لمدة يوم أو يومين، وبعد ذلك قام الوزير بإعادة «أمير» مرة أخرى، وصفوة القول: فقد تردد «أمير» بين الطرفين ثلاث أو أربع مرات، وبالجملة، فعندما عدتُ أنا هذا الحقير من «إستانبول»، كان «بوچقايي أشتوان» قد أعلن عصيانه واستولى على القلاع التي كانت تحت حكم الملك الضال على طرف نهر «تيسه»، وأرسل خطابات الاستغاثة طالبًا المدد من أهل الإسلام، فإن ملاعين «نمچه»، كانوا قد قاموا بإرسال السردار النجس المعروف باسم «باشتايي كورك» مع عسكر «نمچه» صوب «بوچقايي أشتوان» قبل وصول جند الإسلام؛ وهزموا عسكره وأجبروه على أن يولي الأدبار، وبعد ذلك، لما قام السردار بإرسال عدد من التتار وعدد آخر من عسكر إيالة «طمشوار» للإمداد، قوّى عزم «بوچقايي أشتوان» ثانية بفضل الله تعالى؛ وهزم «باشتايي كورك» المذكور مع جند «نمچه»، وأجبره على الهرب، وقام بالإغارة على بعض القرى والنواحي التابعة للملك، ومكن جند الإسلام من أن يعودوا بالغنائم الوفيرة.

وقد تعهد المرحوم الوزير الأعظم بإلباس التاج للمذكور «بوچقايي»، وبتنصيبه ملكًا على عموم ممالك المجر، ووقعت المواثيق بين الطرفين في هذا المضمار، وفي ذلك الشتاء، أتى المرحوم إلى الآستانة السعيدة، ووضح للمرحوم والمغفور له حضرة السلطان «أحمد خان» ما جرى، وأمر بصنع تاج ثمين، وربما كان مقدار ذهبه يزن ثلاثة آلاف تقريبًا، وكان قد أمر بترصيعه بقدر عظيم من الجواهر، ولما أتى إلى «بدون» بعد فتح «أسترغون»، ضُربت الخيام والسرادقات العظيمة تجاه «پشته»، وأعدت ضيافة عظيمة. وإنني هذا الفقير «بچوي» كنتُ قد ذهبتُ إلى إستانبول ببشرى فتح «أسترغون»؛ يعني لم أكن حاضرًا في ذلك المكان، ولكن جاء «بوچقايي» مع حوالي عشرة آلاف من عسكر المجر وبصحبته كل الأمراء المشهورين، والتقى بالمرحوم الصدر الأعظم محمد باشا، وقام المرحوم أيضًا بإلباسه التاج، وبتقليده سيفًا مرصعًا، وأحسن عليه بالسنجق والعلم الهمايوني المرسل من الجانب السلطاني، وعقدوا في ذلك المكان العهود العظيمة والمواثيق بالمشافهة، وأحكموا القبضة على كل الأحوال.

وبعد ذلك، وبفضل الله تعالى، تراجع وربما غرب حظ كوكب «نمچه»؛ فكلما شرعوا بمباشرة أمر ما، لم يوفقوا، ويبوء هذا الأمر بالفشل، ولو كان المرحوم قد أتى أيضًا بالسردارية في تلك السنة وجرّد حملة مع «بوچقايي»، ربما كان قد زال وجود «نمچه» الملوث بالخبائث من صفحة العالم تمامًا، ولكن كانت الإرادة الأزلية على هذا النحو. ولم تحدث هذه التصورات والملحوظات، فإن ما قدر هو أن الصلح والصلاح الذي عُقد، كان من نتائج ظهور «بوچقايي».

فتح قلعة «أسترغون» يوم الاثنين في ٢٠ من جمادى الأولى سنة ١٠١٤ هجرية[1]

لما قام السردار المكلل بالنصر بالتوجه في تلك السنة صوب «بدون» مع جند الإسلام، ولما لم تتيسر الفرصة في السنة الأولى للاقتراب نحو سور قلعة «أسترغون»، كان كل شخص يرهب من متانة قلعة «أسترغون»، حتى إنهم كانوا قد يئسوا من فتحها، وعندما تم النزول إلى نهر «شوشقوره»، اجتمع كل الأمراء وكبار أمراء الأمراء وخيرة عسكر خلقي وكبار بلوك خلقي وطائفة الإنكشارية من أجل المشورة. وفي نهاية المشاورة التي أجريت، قرروا اتخاذ تدبير على النحو التالي: «بسبب أن هناك صعوبة بالغة جدًا في الهجوم على «أسترغون»، وفي الوصول إلى القلعة، فإنه سعى كل شخص في هذه السنة المباركة بتخريب البلاد وتعذيب الكفار الأشقياء، وإذا تم التوجه صوب «بچ»، والإغارة عليها وتخريب قصبات وقرى تلك النواحي وبقاعها وضياعها، فإن الغلبة والانتصار التام سوف يتحققا على الكفار، وتحل المصيبة على أعداء الدين».

ولكن المرحوم «باقي باشا» الذي عمل في رتبة «دفتر دار» الجيش الهمايوني برتبة «أورته دفتر دار»، والمرحوم «ولدان زاده» قاضي الجيش الهمايوني لم يوافقان على هذا الرأي وقالا: «فلنفترض أن عمل ذلك كان لزامًا علينا، وقمنا بالإغارة على ديار

(١) الموافق ٢-١٠-١٦٠٥م.

الكفار، وأوقعنا بها الضرر والخسارة، فماذا يبقي في قبضة تصرفنا؟ وما العائد علينا من هذا؟»، ولكن لما لم يكن هناك شخص آخر خلاف هذين الفردين مخالفًا للقرار، فإن جند الإسلام لم يقولوا على أي مكان إنه بعيد أو قريب، ورجحوا شن الهجوم مخالفين رأي هذين الفردين [باقي باشا، وولدان زاده].

وفي اليوم التالي، تحركوا من ذلك المنزل، وعُقد عنان العزيمة صوب «جان بك». وإنني هذا العبد الفقير كنتُ أسير مع كتخدا الوزير الأعظم «عبدي كتخدا» على بعد مسافة قليلة أمام الطابور المعهود بالظفر، ووصلنا إلى قرية خربة قريبة من «جان بك»، واتفق أن في ذلك المكان تحطمت بعض عربات الإنكشارية؛ حيث تراكمت العربات التي كانت تأتي من خلفها، وبسبب معاناة بعض الإنكشارية كثيرًا حتى وصلوا إلى ذلك المكان، واضطرار بعض من أبطالهم للتوقف من أجل ترميم تلك العربات، أسمعوا المسئولين كلامًا رطبًا ويابسًا؛ حيث قالوا: «هل سيُشن الهجوم فعلًا، وهل ستُعبر الجبال والصحارى التي لم تُــر ولم تعرف عظمتها بهذا القدر من العربات والمتاع؟!».

وربما كان جريان كلامهم هذا على لسانهم هو من عند الله تعالى؛ لأن لسان الخلق أقلام الحق، فعندما وصلنا إلى خيمة السردار عالي المقدار، أتى هو أيضًا ونزل، وقال: «عبدي كتخدا» فاتحًا الكلام: «لقد ارتكبنا خطأً بالسعي إلى الهجوم. ففي مكان مثل هذا حيث من الممكن التجوال فيه من كل جانب وأن تلحق العربات بعضها ببعض فيه قام هؤلاء بإسماعنا مثل هذا القدر من الكلام، وكان من الواجب أن نضع في الاعتبار ما سيُعانى منه، عندما نصادف البرك والمستنقعات أثناء العبور من الأماكن الحجرية والجبلية الصعبة المرور على هذا النحو، كما كان يجب التفكير فيما سيُجاب به على هؤلاء القوم، والآن فإنه يبدو أن تدبير «باقي باشا» و«ولدان زاده» هو الذي سوف ينفذ»، فوافق المرحوم الصدر الأعظم على هذا الكلام، وأقلع عن قرار الهجوم.

وعلى هذا قام السردار بإرسال «طوبجي باشي»[١] و«جبه جي باشي»[٢] وطائفة «يورك بكلر»[٣] وطائفة «آقنجي»[٤] إلى «بدون» لإحضار المدافع منها بالجلوس المعد لنقل المدافع، وقام هو بالتحرك من هناك، والنزول إلى صحراء «أسترغون» مع عسكر الإسلام. وهكذا حوصرت «أسترغون».

وكان قد أقام الكفار حصنًا عظيمًا في «دپه دلن»، كما أنشئوا أيضًا ثلاثة تحصينات أخرى تمتد من هناك وحتى نهر «طونه»، وقاموا بتوصيل هؤلاء بعضها ببعض وذلك بحفر خنادق عظيمة، ولما لم يكن ممكنا الاقتراب من القلعة، فقد شُرع بضرب تلك الطوابي بإحكام لمدة عشرة أيام، ثم أمر بهجوم ضار في اليوم العاشر، وراح جند الإسلام يتوافدون إلى المتاريس منذ المساء وحتى الصباح؛ حيث تجمعوا بها، وتم التنبيه عليهم بأنه: «عندما تظهر آثار الصبح، وعند إطلاق ثلاثة مدافع دفعة واحدة فجأة، وفي الوقت الذي تتزلزل فيه الأرض والسماء بصدى صوت الله الله، يجب أن يشن الغزاة

---

(١) طوبجي باشي: يعتبر معسكر المدفعجية من قسم المشاة في معسكرات القابوقولو، وكان يكوَّن من قسمين؛ فريق منها لصب المدافع، والآخر لاستخدام هذه المدافع ... وكان أمير معسكر المدفعية يعرف بـ «طوبجي باشي» أي قائد سلاح المدفعية.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 41.

(٢) جبه جي باشي: هو أكبر ضابط في معسكر الجبه جيه أي الأفراد المكلفين بتصنيع السلاح وصيانته. وتأتي رتبته في تشريفات أو رتب الدولة بعد كتخدا خدم الباب، وقبل رئيس سلاح المدفعية (طوبجي باشي). وكانت يوميته تبلغ سبعين أقجة.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 61.

(٣) يورك بكلر: تعني كلمة «يوروك» هنا العشيرة، وهم من عشائر الأناضول، وهذه الطبقة تم نقلها إلى الروم إيلي حيث تم توطينها بها، وكانت تستخدم في أوقات الحروب في خدمة مؤخرة الجند. وفي كل منطقة كان يوجد أمراء أصحاب زعامت يعرف الواحد منهم إما باسم «يوروك بكي» أو «مير يوركان».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 370.

(٤) آقنجي: تعني كملة آقنجي في التركية المهاجم. وهو اسم يطلق على قوات الفرسان الخفيفة عند العثمانيين. وقد سموا بهذا الاسم بسبب قدرتهم على الحركة السريعة جدًا. وكان المهاجمون موجودين في الأماكن القريبة من الحدود. وكانوا يهجمون على أراضي العدو بشكل منتظم في أشهر الصيف والشتاء. ويجمعون المعلومات المختلفة عن العدو وممالك العدو إضافة إلى استيلائهم على المال والنقود والأسرى. وكانوا يقومون بتوصيلها إلى مركز الدولة.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 12.

أيضًا الهجوم بسرعة خاطفة وينبغي أن يريقوا بسيوفهم التي لا ترحم دم الأعداء»، وإن جناب الباري عندما يساعد، فإنه يساعد ويعطي كل اللوازم والمهمات في وقتها وزمانها، ففي ذلك السحَر أيضًا أحاط الدخان يعني الضباب بوجه الأرض، وعلى الفور سار غزاة الإسلام في تلك اللحظة صوب «دپه دلن»، وصعدوا إليها حتى دخلوها، وقبل أن يفيق الكفار من نوم الغفلة، وقبل أن يدركوا بأن الذين دخلوا هم عسكر الإسلام، بدأ الغزاة على الفور باستلال سيوفهم؛ وأعملوا السيف في جميع الكفار الموجودين بها، وربما لم ينج منهم فرد واحد.

أما الغروف أي الأمير الذي كان قائدًا لهم في القلعة فلم يكن موجودًا هناك؛ وربما يكون قد خرج إلى الخارج للتنزه والمسامرة مع الكفار الذين كانوا خارج القلعة، وأمضى تلك الليلة معهم، ولما كان طريقه إلى دار البوار من هناك، ففي الحال، عزم على التوجه إلى الجحيم، وصار حال سائر التحصينات الدمار أيضًا، فقد كُسر جميع الكفار الموجودين فيها، وربما بقيَ في الميدان أربعة آلاف جيفة كافر. وهذه أيضًا كانت عناية الحق؛ إذ إنه سقط على تراب الهلاك دفعة واحدة الكفار الذين كانوا يدّعون الشجاعة، ومهما يكن من أمر فقد هلك أيضًا الملعون الذي كان أميرًا عليهم، ولهذا السبب أصيب الملاعين الذين بقوا في الداخل بكمال الضعف والفتور.

وهكذا ضُربت القلعة لمدة عشرة أيام ليل نهار، وفي اليوم الحادي عشر صدرت الأوامر بالهجوم مرة أخرى، وكان قد تجلى كمال عون حضرة الحق ونصرته في هذه الحملة المأثورة بالنصر، حتى كان كل فرد من المسلمين الذين كانوا يعتبرون ضعفاء وبلا حيلة كما لو كان كل واحد منهم بطلًا مغوارًا كالأسد أو مثل «رستم» الأسطوري، ودائمًا كان يتم السعي الدءوب في دفع العسكر إلى الهجوم، وكانوا يُستمالون بتوزيع الترقيات وحسن الوعود، ولكن في هذه المرة، إذا قالوا: «الهجوم» منذ وقت المساء، لما بقي رجل واحد في الجيش حتى الصباح، فبعضهم كان يترنم بالشعر الشعبي المعروف باسم «وارساغي» و«شرقي» الذي كان ينظم لترغيب الغزاة في الحرب، وبعضهم كان يعزف على العود والآلة التي تعرف باسم «جوغور»، وبعضهم الآخر راح يلهج بالتوحيد

والتهليل، فكان الجميع في حالة عشق وشوق غريب وصفاء وذوق عجيب، حتى إن الذين يرون ذلك، وكانوا يعرفون حال العسكر من قبل، كانوا يتحيرون ويدهشون لهذا الحال، واحتشد وجاء ذلك القدر من الرجال إلى خنادقهم حتى الصباح، حتى إذا قيل: إنه لم يبق رجل في الجيش، لم يكن ذلك بعيدًا عن الصواب.

ولما أطلقت المدافع المعهودة في وقت السحر مرة ثانية، قبض حَمَلة البيارق على بيارقهم بأيديهم، وتتابع غزاة الإسلام، بعضهم إثر بعض بصدى الله الله، ولكن الثغرة التي كانوا سوف يصعدون منها إلى القلعة كانت بالقدر الذي يكفي لدخول رجل واحد فقط، وكان الملاعين يدفعون المتقدمين من الغزاة، فقام الغزاة بالهجوم مرات ومرات متتابعة، ولكن لم تُتح لهم الفرصة ولم يستطيعوا الدخول. وفي تلك الأثناء، وضع بعض الرجال القدم على رتبة الشهادة، ومضى الحال على هذا المنوال حتى وقت الشروق، وبعد ذلك قام الصدر الأعظم بإرسال هذا العبد الفقير «بچوي» إلى «حسين أغا» أغا الإنكشارية وشقيق «طرناقجي حسن باشا» والذي كان رجلًا شجاعًا جركسي الأصل؛ حيث أبلغه بقوله: «استميلوا الغزاة، وأوفوا بكل ما وعدتموهم به، أعطوهم كل ما كنتم ستعطونه لهم، وهكذا ينبغي ألا يولي الغزاة الأدبار؛ لأنهم إذا ذهبوا ووجوههم عليها آثار الإخفاق، وإذا ردت وجوههم مرة واحدة، فسيكون صعبًا سوقهم للأمام مرة أخرى»، فلما أبلغت قول السردار هذا إلى «حسين أغا»، قال للكتخدا: «افتح الطريق لنا؛ لأنه إذا لم يتحرك الجند الذين في الأمام، فعلينا نحن أن نسير»؛ وقام بالسير، أما بقية الغزاة فلم يكونوا بعيدين؛ فلما رأوا أن الأغا يسير، قاموا بالتكبير فجأة وساروا خلفه. وفي البداية صعدت راية فرقة منطقة «آلاجه حصار» إلى سور القلعة، وفي عقبها حامل راية المرحوم الوزير الأعظم، وبعد ذلك راية فرقة «كوستنديل». ثم صعدوا جميعًا أيضًا على الفور طابورًا طابورا.

وكان الكفار قد حفروا الخنادق في سفح السور، وأقاموا الملاجئ التي تقيهم من المدافع والبنادق، فلما رأوا عسكر الإسلام على السور، هربوا إلى الداخل. ولكن ارتوى أكثرهم بشراب الموت، وعمومًا فقد نجا أقل القليل، وأُسر معظمهم في ذلك المكان،

وقام الملاعين الذين كانوا موجودين في الحي الخارجي للقلعة بترك هذا المكان، وهربوا إلى القلعة الداخلية، وأدرك الغزاة معظم هؤلاء؛ فأرسلوهم إلى أسفل سافلين، واستولوا على الغنائم الكثيرة في هذا الحي الخارجي.

وبعد ذلك، ضُربت أيضًا القلعة الداخلية لمدة عشرة أيام، ومرة أخرى، نُوديَ في اليوم العاشر بالهجوم؛ وامتلأت حتى الصباح الحصون وتلك الأودية والمرتفعات التي كانت هناك بغزاة الإسلام على نحو لا يمكن الاقتراب فيه من الحصون، ولما رأى الكفار تزاحم الغزاة، علموا أنهم سيشنون الهجوم، وكان ذلك قبيل نصف الليل، وكانوا قد صرخوا واستغاثوا طالبين الأمان من خدم «عثمان أغا» أغا الإنكشارية في «بدون»، وطلبوا رجلًا للتباحث معهم حول مطلب الاستسلام، ولما يصل هذا الخبر الباعث على السرور إلى سمع الوزير الأعظم، يحمد الخالق تعالى جل شأنه، ويقول: «سوف نرسل رجلًا». وإنني هذا العبد الفقير «بچوي» كنت في تلك الليلة في الجيش مع «عبدي كتخدا»، فأتوا أيضًا إلى «عبدي كتخدا»، وبشروه. ووصلنا سويًا إلى مجلس الوزير الأعظم؛ فرفع رأسه المباركة، وتحدث إلى هذا الفقير «بچوي» بقوله: «لقد كان لديك اهتمام بالغ بمباحثات أمر الاستسلام مع الكفار أثناء تسليم القلعة من قبل وذلك في الوقت الذي لم يكن مفروضًا عليك قط؛ فاذهب هذه المرة أيضًا، وتحدث في أمر الاستسلام». فقلت أنا الفقير «بچوي»: «فليكن الإحسان لله تعالى الذي أتى بذلك الزمان. فإن سلطاني يعلم أنه منذ ذلك الوقت كان رجائي ومطلبي من حضرة الحق هو أن أكون عبدكم الذي يتحدث في أمر استردادها كما تحدثت في أمر تسليمها من قبل»، فتفضل المرحوم الوزير الأعظم بالحديث: «ها هو حان ذلك الزمان»، وكان أحيانًا ما يقوم بالمزاح معي أنا الفقير «بچوي»؛ فظننت أنه يمزح، ولكن كانت حقيقة، وقد كانوا ينتظرون مجيء هذا الفقير «بچوي»، ولم يرسلوا رجلًا آخر، ولما قال السردار ثانية: «يا، لماذا تنتظر؟»، لم يكن قد لاح الشفق بعد، فذهبت وناديت على الكفار في المكان الذي يتحدثون فيه، وبالجملة أعطيتهم رجلين كرهينة عندهم، وجعلتهم يُخرجون كافرين إليّ. وحتى تم ذلك، كان قد حل وقت السحر، وحملت هذين الكافرين اللذين خرجا

إلى مجلس الصدر العظم، فقال: «أيها الملاعين لقد أمرتم بتخريب قلعة السلطان، فاخرجوا منها بسرعة». وقال الكفار أيضًا: «لو كنا نعلم أن هذه قلعة السلطان، ما كنا قد حاصرناها وما عانينا لحظة واحدة. وإنما كنا نعلم أنها قلعة الملك، وسعينا لإسعاده». فقال الصدر الأعظم: «اذهب الآن بسرعة، وليخرجوا اليوم على الفور». وعمومًا فقد حملتُ الكفار، ودخلوا إلى القلعة ثانية، ثم انزلوا سلمًا؛ فدخلت أنا الفقير «بچوي» مع أربعة أو خمسة رجال بواسطة هذا السلم، وتباحثتُ معهم في موضوع خروجهم من القلعة. فقلت لهم أكثر مما قاله هؤلاء لنا عند أخذهم القلعة بعدة مرات، وكنت أكثر جفاءً عليهم.

وبذلك يكون جناب رب العالمين قد قبل دعاءنا في ذلك المكان؛ فقد رزقني كل ما طلبته على هذا النحو دون نقصان؛ فلله الحمد، وبعد ذلك قمت بإطلاق سراح ثمانية وأربعين أسيرًا مسلمًا كانوا مكبلين بالسلاسل ومحبوسين، فإنه يُرجى ألا يضيع عند الله تعالى دعاء هؤلاء وبكاؤهم شكرًا لما قمت به لهم، وقمتُ بختم مخازن البارود ومخازن أسلحتهم، وطلبت أربعة أفراد من طائفة «جورباجي»[1] من أغا الإنكشارية، وقمت بتعيين حارس على الأشياء المصادرة لخزينة الدولة، وقام الغروف أي الأمير الذي كان يعتبر أميرًا للقلعة بتقديم ساعة أو ساعتين من نوع «قيون»، وبندقية أو بندقيتين أيضًا من نوع جيد، وعلبة أو علبتين من اللوز الحلو، وذلك عدا المكعبات السكرية الأخرى.

وبعد ذلك، وصلت إلى المرحوم الصدر الأعظم، وشرحت له الأحوال بالتفصيل. ولما كنت سأتوجه إلى الآستانة من أجل البشرى، فقد انشغلت بإعداد لوازم السفر، ولم أعد إلى القلعة مرة أخرى، وقد أمدني الصدر الأعظم من رجال الأوجاق بكل من «قره حسن أغا» الذي كان في ذلك الوقت چاويشًا صغيرًا، والمتقاعد الآن من رتبة «سكبان باشي»، و«خضر أغا» رئيس باب المرحوم الصدر الأعظم، فلما وصلنا إلى الآستانة

---

(١) جورباجي: اسم يطلق بشكل مشترك على ضباط الطائفة التي تعرف باسم «جاعت أورته لري»، وضباط سرايا الأغا. وخلاف هذا كان يطلق لقب «جورباجي» على قادة فرقة «عجمي أورته».
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 76.

السعيدة، تفضل السلطان صاحب السعادة بتشريف حجرة أولياء العهد؛ فدخلنا من باب دار السعادة؛ والتقينا به هناك، وقدمنا له تلخيصنا؛ وقمنا بعرض الأحوال التي كان من الضروري عرضها عليه شفويًا، وكنا الموجودين في ذلك المكان مع خدامنا نحو سبعة عشر رجلًا، فتفضل السلطان صاحب السعادة بأن خلع على كل واحد منا خلعة فاخرة، وإنني هذا الحقير كنتُ في رتبة «بياده مقابله جيسي»[1]، فأصبحت في رتبة «سواري مقابله جيسي»[2]، وطلب «خضر أغا» سنجق «بوژغه»، فتفضل السلطان صاحب السعادة بالإحسان عليه بذلك. وكان المرحوم «أفندينا محمد باشا» قد قال ونبه على هذا الحقير بأن أقول على لسانه للسلطان صاحب السعادة شخصيًا، لو أتيحت الفرصة لذلك، ما يلي: «لم يكن لدي مطلب من جناب الباري من المرادات الدنيوية خلاف هذا الفتح، ومن أجل هذا انتظرت عند هذه الحدود لمدة عشر سنوات. وبعد هذا، لو بقيت سليمًا أو مت أو نُصّبت أو عُزلت، فكله عندي سواء»، فنقلت للسلطان صاحب السعادة ذلك تمامًا على هذا النحو، فتفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «لا، لا يقول هكذا. فنحن نأمل فيه الخدمة أكثر من هذا»، وهكذا، تم فتح «أسترغون» بالتفصيل على هذا النحو، ولأنني كنتُ موجودًا في هذه الأحداث، فقد طال بنا الحديث قدرًا ما.

قيام «نعمتي كركل» من أمراء «بوچقايي» بالإغارة على أطراف «بچ» مع «سرخوش إبراهيم باشا» في السنة نفسها[3]

لما تعهد «بوچقايي أشتوان» وعقد الأيمان على معاونة عسكر الإسلام ومؤازرته، فقد وجه الأمر لقائد جنده المعروف باسم «نعمتي كركل»، وكان من أمراء المجر، بالعبور من «طونه» والإغارة على أطراف «بچ»، ووصل أيضًا حوالي عشرين ألف جندي كانوا

---

(١) هو القسم الذي يعد مرتبات جند المشاة لفرق القابو قولو.

(٢) هو القسم الذي يعد مرتبات السوارية، وكان يطلق على رؤساء هذه الأقلام اسم «مقابله جي».

(٣) أي سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥م.

يتشكلون من عسكر تلك الحدود، وغزاة حدود البوسنة مع «سرخوش إبراهيم باشا» الذي كان ابن أخت المرحوم «أفندينا محمد باشا» والذي كان أمير أمراء «قانيزه» في ذلك الوقت؛ وقاموا معًا بالإغارة على نواحي «بچ» وبتخريب تلك المالك بالدرجة التي لو ذكرت أو حررت لكانت تُحمل على المبالغة وعلى نحو لا يصدق، وكان عدد الأسرى الذين وقعوا في الأسر، والأمتعة والأموال التي اغتنمت كثيرة بتلك الدرجة التي كان لا يمكن إحصاؤها.

وكان معظم أمراء المجر قد دخلوا تحت قيادة «نعمتي كركل»؛ فأتوا والتحقوا بجيشه، ولكن «زرين أوغلو» و «بكا أوغلو» لم يدخلا تحت قيادة «نعمتي» المذكور؛ بسبب أنه كان أقل نسبًا منهما، وكانا قد أرس لا جنودهما وقادة قواتهما مع جملة الجند، حيث اشترك هؤلاء مع أهل الإسلام في الإغارة والغنيمة، وقد شنت جنود «نمچه» الجرارة الهجمات عليهم ثلاث مرات، فإنهم انهزموا فيها جميعًا. حتى إنه قد أسر الكثير من كفار «نمچه» المشهورين، وعمومًا، فقد كانت مثل هذه الإغارة والتخريب في تلك النواحي، وذلك الشرف الذي تمخض عن ذلك، والغنائم التي استولى عليها كانت قد حدثت فقط في عصر «سليمان خان غازي». عليه الرحمة.

الإغارة التي قام بها بعض أمراء الإسلام مع أحد قادة جند «بوچقايي» في ناحية «أويوار» في السنة نفسها(١)

كان «بوچقايي» قد أمر أيضًا أميره المعروف باسم «روپي فرنك» من أمراء المجر بالإغارة على أطراف «أويوار» مع جند الإسلام، وكان قد عُين من أهل الإسلام «جيل أغاج بك» وأمير أمراء البوسنة وأمير أو اثنين من أمراء الروم إيلي، وعندما وصلوا إلى «أويوار»، كان أهلها قد قاموا بسد الباب أولًا، ثم أسرعوا لمواجهة العسكر، ولكن بعد ذلك، خضعوا لأمير الملك «بوچقايي»، وفتحوا الباب طوعًا وكرهًا، ولكن لما كان

(١) أي سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥م.

عسكر الإسلام ممنوعين من الغنيمة والإغارة، فلم يتعرضوا لهم، وفي ذلك المكان كان ممكنًا تنصيب أمير أمراء على قلعة «أويوار» وعلى المملكة؛ فإنه لما لم تكن قد تقررت بعد العهود والشروط بذلك مع «بوچقايي»، فلم يفعلوا ذلك حتى لا يكون ذلك باعثًا على الشقاق، وقاموا بالإغارة على القلاع التي لم تكن تابعة له والضياع والبقاع التابعة لكفار «نمچه»، وقاموا بتخريبها جميعًا، ومع أن الغنائم كانت زائدة عن الحد عند «إبراهيم باشا» وعسكر «نعمتي»، فإن هذه أيضًا كانت أكثر من تلك وليست أقل منها، ولما كان هذا المكان يقع بالقرب من معسكرات الجيش الهمايوني، كانت العساكر المنصورة لا تخلو من الذهاب والعودة بالغنائم الوفيرة باستمرار.

من مآثر العدل وحسن معاملة الرعايا

واضح ومضيء لأرباب العقول ذوي العلم الشريف الذي يشمل العالم، أنه على إثر نهج سلوك المرحوم السلطان «سليمان خان غازي» في واحدة من السنين، تحقق طاعة «بوچقايي» المذكور للدولة العثمانية، ولهذا السبب، فقد تيسرت في هذه السنة المباركة الغزوات والفتوحات لعسكر الإسلام على هذا النحو، وكانت هذه الحملة هي الثالثة عشرة منذ بدأت حملات بلاد المجر، ولكن كانت كلها ليست معادلة لهذه، وقد بقي «خان التتار» مع جنود التتار الجرارة لثلاث أو أربع مرات للمحافظة على الحدود، كما بقي ابنه مرة واحدة، وكل سنة كان أمراؤه يمكثون هناك، فلم يستطيعوا أن يقهروا الكفار ليس بهذه الدرجة، بل عشرها، ولم يسلكوا طريق القهر والغلبة على الكفار ولو لمرة واحدة، أما في هذه السنة المباركة، فعلاوة على قهر الكفار وغلبتهم، فإن عسكر الإسلام لم يغتنموا في أي حملة غنائم بهذا القدر، وعلى إثر معاملة الرعايا معاملة حسنة واستمالتهم، كانت الذخائر ترد كل يوم إلى الجيش الهمايوني محملة على العربات من القرى التي كانت في ناحية «أويوار»، حتى إن الجند أيضًا كانوا لا يشعرون بحاجتهم للتوجه إلى الجيش وشراء احتياجاتهم من هناك، فقد كانت بنات ونساء المجر يوزعون الكعك المجري الطازج الذي يطلقون عليه اسم «چيپو» وأنواع الفاكهة وأنواع الذخائر

من خيمة إلى خيمة، وكانوا يرجون قائلين: «خذوا». وحتى في ذلك الوقت الذي كان فيه جند الإسلام على وشك ضرب «أسترغون»، كان الرعايا يأتون جماعات جماعات، ويحصلون على ورق الاستسلام، ويعلنون الطاعة، حتى أتى في ذلك المكان أربعون أو خمسون ذميًا من الطحانين المهرة، وقاموا ببناء الجسر العظيم المقام على «طونه». ولم يجعلوا أيضًا أهل الإسلام في ذلك المكان يعانون أي معاناة فيما يتعلق بأمور البناء، ووصلت ثلاثمائة أو أربعمائة عائلة إلى «أسكي بدون» وجزيرة «قويون» وإلى سائر الأحياء الأخرى أيضًا؛ حيث استوطنوا بها، وهكذا ظهرت آثار العدل والمداراة أي الاستمالة على هذا النحو، فلو تصرف قوادنا الأوائل على هذا المنوال، ونهجوا ذلك النهج تبركًا بأن ذلك هو طريق السلطان سليمان خان غازي، لكانت الحملات لا تستغرق هذا الوقت ولما يئس أفراد العسكر من أنفسهم؛ وربما استطاع كل واحد منهم أن يسحق رءوس أعداء الدين والدولة.

قتل قائم مقام «صارقچي مصطفى باشا» وتعيين «صوفي سنان باشا» قائم مقام في السنة نفسها

كان «مصطفى باشا» المومأ إليه جريئًا جدًا، وواحدًا من الزاهدين في الإحسان والعطاء خلال فترة شغله لوظيفة قائم مقام، فعندما صار قائم مقام، قام بترقية «كرجي محمد باشا» الذي كان «أوطه باشي»[1]؛ أي رئيس أوطه إلى رتبة وزير ثالث، وبعد شهر ولما قام الخدم بقتل «حاجي إبراهيم باشا» في مصر، أمر بتوجيه «مصر» إليه، وأمر بتوجيه الوزارة إلى «نقاش باشا» الذي كان معزولًا عن رتبة أغا الإنكشارية، وجعل «داود باشا» الذي كان رئيس خدم الباب و«بولو أنلو ميراخور مصطفى باشا» في رتبة

(١) أوطه باشي: هو أقدم ضابط بعد «باش أوطه باشي» في سرايا الأغا في معسكر الإنكشارية، ويعد «كتخدا الغرفة» في طائفة «جماعت اورته لري». يتواجد في المشتى بصورة دائمة مع طائفة «أورته» أو مع سريه، وفي وقت الحملة كان يجلس في الخيمة التي تعرف باسم «خمية الوسط والسرية»، وكان أفراد حجرته يتجمعون حوله بخيامهم.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 239.

أمير أمراء في البداية، وبعد أسبوع واحد رقاهما لرتبة وزير، وقام بإكمال أعداد رجالهم الخواص بالتمام، وبعزل «باش دفتر دار» «محمود باشا»، وعين «حافظ محمود» دفتر دارًا بدلًا منه، ولكن لما كان على غير دراية بمهام الدفتر دارية، لم يستطع أن يُعد حسابات الجند، وقد كان هذا باعثًا على قتله؛ أي قتل قائم مقام صارقچي مصطفى باشا؛ وأصبح «صوفي سنان باشا» قائم مقام بدلًا منه.

حرب العاصي «طويل» مع «نصوح باشا» وهزيمة «نصوح باشا» في سنة ١٠١٣ هجرية[1]

لما صار «صوفي سنان باشا» قائم مقام، كانت خطابات الاستغاثة من أذى الجلاليين أي العصاة ترد على التوالي من كل جانب، فلما أعلن «طويل» واجب التذليل من ناحية، والشقي الغارق في الخطايا من رأسه وحتى قدميه المعروف باسم «صاچلو أحمد» من ناحية أخرى العصيان، وعلى إثر رفع الأشقياء راية العصيان في كل حدب وصوب، عرض القائم مقام على السلطان الأمر قائلًا: «لا بد من إرسال وزير لحماية المملكة». وهكذا، تفضل السلطان بتعيين «داود باشا» في هذه المهمة، وأمر بقوله: «فليخرج بسرعة». ولكن «داود باشا» عرض الأعذار الكثيرة قائلًا: «إن عدم قدرتي على إنجاز هذه المهمة يتضح من وصولي إلى صدر الوزارة فقط». وفي هذا الحين، كانت إيالة الأناضول قد وجهت إلى «كج دهان علي باشا»، وكان قد كُلف هذا بتوصيل عسكر الأناضول إلى «جغالة زاده» الذي كان سردارًا على جبهة العجم، وصدر الفرمان بأن يلتقي هو وجند الأناضول بالوزير «نصوح باشا» الذي كان مُكلفًا بحماية الساحل الآخر المقصود الأناضول، وأن يباشر عملية دفع الأشقياء، وبعد ذلك عليه أن يوصل العسكر إلى «جغالة زاده»، وعلى هذا، وصل «علي باشا» إلى جانب «نصوح باشا»، ثم هجموا على «طويل» العويل عند جسر «بولاوادين»، وبمجرد أن التقوا بالأشقياء،

(١) الموافق سنة ١٦٠٤ - ١٦٠٥م.

انهزموا، وفر «نصوح باشا» قبل أي شخص، ولم يتوقف في أي مكان حتى وصل إلى «كوتاهية»، ولما أتى «كج دهان» أيضًا إلى «كوتاهية» من خلـفه، قام نصوح باشا بحبسه بالقلعة قائلًا له: «أنت السبب في هذه الهزيمة». وأنهى أمره في تلك الليلة.

وكان المرحوم «علي باشا» بذيء اللسان جدًا، وكان يوجه كلامه للأكابر كما لو كان خنجرًا أو رمحًا، وصفوة القول فقد سئم «نصوح باشا» من لسانه، وقال: «إن توجيه الإجابة إلى جيفته أفضل من التحدث معه حيًا، وقتله ظلمًا». وفي النهاية، نال هو أيضًا جزاءه على الوجه نفسه، وقبل «علي باشا» أيضًا ،كان قد صلب في «قونية» «قـرة علي زاده محمد جاوش» المشهور، والذي كان في رتبة «جاوش باش» سابقًا في الآستانة السعيدة، وذلك بلا ذنب وبلا جريرة، ولكن بسبب لسانه فقط، وكان «محمد جاوش» المذكور أيضًا رجلًا فتانًا وقاتلًا، وبحسب معلوماتنا[1]، أنه كان قد صلب رجلًا بينما كان يقيم جسر «وارادين»، وبعد ذلك، كان قد تقدم العسكر إلى الأمام، كما صلب سباهيًا في «آلاجة حصار»؛ أي نال هذا أيضًا المقصود علي باشا جزاءه على يد «نصوح باشا»، وقد أتى إلى الآستانة ذات يوم وهو مرتبك؛ بسبب خوفه من أن يُسأل عن دم هؤلاء ومن أن يوقع عليه الجزاء أيضًا، وجعل سفينته تقترب إلى الحديقة الخاصة، وخرج بقرب القصر السلطاني.

ولما قال إنه أتى من أجل أن يعرض على السلطان صاحب السعادة أمر طغيان العصاة وعدم اهتمام الوزراء بالأمر، عرضوه على السلطان صاحب السعادة، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول إلى القصر الهمايوني بلا تردد؛ وأمر باستدعاء «نصوح باشا»، فتحدث «نصوح باشا» بكلام مورث للغيرة ويحتوي على العبرة بالقدر الذي صار سببًا لتوجيه السلطان صاحب السعادة إلى «بروسه»، وفي ذلك الحين يقوم السلطان صاحب السعادة بدعوة شيخ الإسلام وأستاذ الوزراء العظام وقضاة العسكر إلى القصر الهمايوني، ويقابلهم بـ «نصوح باشا»، ويقع جميع كلام «نصوح باشا» موقع الاستحسان

(١) المتحدث هنا «بجوي».

من الطابع الهمايوني؛ فيصدر الأمر بإعداد تدابير الحملة إلى «بروسه»، ومع أنه لم يكن قد عاد الأسطول الهمايوني بعد، ولم يدخل إلى الترسانة العامرة، وكان قد بدأ موسم الشتاء، وأشاروا بأن الحملة البحرية مخاطرة وأنه مضى أوان حملة البحر، وأشاروا إلى المحظورات الأخرى، فإن ذلك لم يفد، حتى إن وفاة «والده سلطان» في ذلك الوقت، لم يجعل السلطان يصرف النظر عن هذه الحملة. وإنني هذا العبد الفقير كنتُ قد أتيت في هذه الأثناء إلى الآستانة بتلخيص ومكاتبات المرحوم «أفندينا محمد باشا» من أجل أن يأذن السلطان بمجيء المرحوم «أفندينا» إلى الآستانة السعيدة؛ حيث ورد في هذه المكاتبات: «لم أمرغ وجهي بعد بتراب الركاب الهمايوني للسلطان صاحب السعادة»، وكنتُ قد أخذتُ خطًا شريفًا بالإذن بمجيء المرحوم «أفندينا»، وكنتُ قد خرجتُ من الآستانة في ذلك اليوم الذي أتى فيه «نصوح باشا». وبعد العشاء أتى ووصل رجل أو رجلان من قبل القائم مقام إلى منزل «چورلي منزلجيسي»، وقالا: إنهما أُرسلا لإحضار دوابه وحيواناته وأن الأحوال صارت على هذا المنوال.

توجه السلطان صاحب السعادة إلى «بروسه» في سنة ١٠١٣ هجرية[1]

كان قد عُين «نقاش حسن باشا» في مهمة حراسة مدينة «بروسه» من قبل، حيثُ أُرسل إلى هناك، وفي هذه الأثناء صدر إليه على وجه السرعة أمر شريف فحواه: «إنه ينبغي عليه أن يسعى بجد في تنظيف قصور «بروسه» وفي إحضار الزاد والزواد اللازمين»، وعزم السلطان صاحب السعادة أيضًا على التحرك من إستانبول بثلاث قطع من السفن من نوع «قادرغة»؛ حيث خرج إلى ميناء «مودانيه»، وقام بتنظيم المواكب العظيمة، ثم دخل إلى القصور العامرة في «بروسه»، وفي اليوم التالي، أتوًا جميعًا إلى المجلس السلطاني لعقد المشاورة، ولكن، بسبب أنه لم يكن هناك قدر من الفراسة

(١) الموافق سنة ١٦٠٤ - ١٦٠٥م.

والكياسة لدى «صوفي سنان باشا»، وبسبب أنه لم يكن قادرًا على اتخاذ أي تدبير، قرروا إرسال «نصوح باشا» و«داود باشا» للمحافظة على المملكة مرة أخرى، وبعد أن بقي حضرة السلطان عشرة أيام أو خمسة عشر يومًا في «بروسه»، عزم على العودة إلى دار السلطنة ثانية، فكان ذهابه وإيابه قد استغرق أكثر من عشرين يومًا.

في ذكر عزل «صوفي سنان باشا» وتعيين «خضر باشا» قائم مقام في السنة نفسها

وفي هذه الأثناء، قام «طويل» العويل واجب التذليل - من كمال غروره وغاية شروره - بإرسال عرض إلى الركاب الهمايوني، حيث كان قد تعهد بأن ينخرط في سلك سائر عباد السلطان صاحب السعادة، وأن يصرف النظر بعد ذلك عن الفساد والشرور وذلك إذا وجهت إليه إيالة الأناضول، وإلى واحد أو اثنين من رجاله إيالتا «سيواس» و«حلب»، وقد استصوب «صوفي» عديم الحمية والعار إحضار هذا الخطاب إلى المجلس الهمايوني، وترجيح ذلك من أجل المصلحة، وعلى هذا، اضطرب السلطان الغيور من عدم شهامة «صوفي»، فعزله من منصب قائم مقام، ونصب مكانه خضر باشا.

في ذكر قيامنا نحن هذا الفقير «بچوي» بتوزيع المعاشات على الجند في بلغراد

لما تم المجيء إلى «بلغراد» بعد العودة من حملة «أسترغون»، أُذن لأغا الإنكشارية ولجملة أغوات البلوك بالانصراف، وبعد عدة أيام، لما حان وقت توزيع المعاشات أي المرتبات على الجند، ووجب توزيع قسطهم، تجمع معظم جند «بلوك خلقي» الذي كان موجودًا في تلك النواحي ببلغراد، ولما كان من المعتاد أن يكون للستة فرق (آلتي بلوك)[1] ستة أغوات وستة كتاب لكل واحد منهم وناظرًا أيضًا، فقد كان من

(١) آلتي بلوك: كان سوارية القابوقولو هم قسم السوارية في الجيش العثماني. وكان سوارية القابوقولو عبارة عن ست فرق، وكانت هذه الفرق بترتيب رتبتها على هذا النحو: ١ ـ السباهية ٢ ـ السلحدارية

الضروري طلب الملازمين من كل جانب، وإنني هذا العبد الفقير كنتُ متصرفًا في وظيفة «سواري و«بياده مقابله جيسي» في وقت واحد، وكنت مكلفًا بالنظر في مصالح الدولة في الديوان؛ فدعوني إلى الداخل، فلما مثلت أمامهم، وكان المرحوم الدفتر دار «باقي باشا» على حسن ظن بهذا القدر، عرض على المرحوم «أفندينا محمد باشا» الأمر قائلًا: «الآن يلزم ثمانية عشر رجلًا لتوزيع المعاشات على الفرق الستة، وخزينتنا لا تكفي ما يمكن أن يسلبه الثمانية عشر حرامي هؤلاء، وما دام عبدكم «إبراهيم أفندي» في رتبة «مقابلة جي» لقلمين معًا [أي لدائرتين]، فليقم هو أيضًا بتوزيع جميع المعاشات، وهو لا يريد «حوالة» ولا «ناظر»، وليقم هو بالأمر كله، والآن لنقل: إن روحه مع الله». فقلت: «يا سلطاني هل هذا ممكن؟». فقال: «مثلًا هل يمكن أن ينتظر السلحدار حتى يأخذ السباهي علوفته؟ فهؤلاء اعتادوا على أخذها من أماكن متعددة». فقلت: «ونحن أيضًا نلجأ إلى الله تعالى، ونرجو ألا يضلنا عن الطريق المستقيم». وبحمد الله قمت بتوزيع المعاشات [أي المرتبات] على هذا النحو الذي لم يلحق فيه أي رجل بطرف ثوبي منذ البداية وحتى النهاية، ولم يقل لي أحد بقي لي حق عندك، وقد اهتم المرحوم «باقي باشا» الذي أخذت منصبه اهتمامًا عظيمًا للتصديق على المقابلة أي صحة مقابلة الكشوف بعضها ببعض، حتى إنه لم تخرج أقچة واحدة في ذمتي، وربما لم يحدث أن تم توزيع المعاشات لجنود الفرق الستة من مكان واحد حتى الآن في الدولة العلية. ولما كان ذلك من النوادر، فقد كُتب وحرر هذا الكلام في ذلك الموضع، وكان عدد الجنود الذين تسلموا المعاشات ـ التي قمنا بتوزيعها والتي تبلغ أكثر من مائة وخمسين حمل أقچة ـ أكثر من ثلاثة آلاف جندي، والغريب في هذا أنه لما قام «نقاش باشا» بتوزيع أربعة وعشرين حمل أقچة في «بروسه»، بلغت علوفته اثني عشر حملًا من الأقچة. ولما قام «داود باشا» بتوزيع ثمانية وأربعين حمل أقچة في «كوتاهية»، بلغت علوفته خمسة عشر

٣ـ علوفجية يمين ٤ ـ علوفجية يسار ٥ ـ غرباء يمين ٦ ـ غرباء يسار . وكان يقال على أول فرقتين الفرق العليا، وعلى الفرقتين الثالثة والرابعة الفرق الوسطى، وعلى الفرق الأربع الأخيرة «الفرق الأربع"، وعلى الفرقتين الأخيرتين الفرق السفلى.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 174- 175.

حمل أقچة، أما علوفة هذا الحقير فكانت سبعة آلاف أقچة فقط، ولما قام «أتمكجي زاده» بعرض هذه الأحوال على المرحوم الوزير الأعظم، قال: «اخلعوا سبع خلع على إبراهيم أفندي». ولكنهم اكتفوا بواحدة منها فقط.

وفاة «جغالة زاده» وتعيين «نصوح باشا» سردارًا على العجم وتغييره بعد ذلك في سنة ١٠١٤ هجرية[1]

بعد أن قام المرحوم «محمد باشا» بفتح «أسترغون»، فعلى إثر طلبه المجيء إلى الآستانة السعيدة، أُذن له بالمجيء، وعندما جاء إلى الآستانة السعيدة، أُستُقبل بالإعزاز والإكرام العظيم من الجانب السلطاني، وأُذن له ثانية بالأمور والخصوص اللازمة لسردارية بلاد المجر كالأول، واتفق في هذه الأثناء، أن ورد خبر وفاة «جغالة زاده»، وقام «خزينة دار باشي»؛ أي رئيس موظفي الخزينة المكلف من الجانب السلطاني بمصادرة خزينته، وكان ماله الذي تركه كثيرًا جدًا، وقد سبق فيما مضى ذكر أحوال سردارية المذكور وانهزامه وسعيه وإقدامه الذي لم يأت بنتيجة؛ حيث حرر خبر ذهابه وإيابه منفردًا دون مراعاة للتاريخ. وليس هناك حاجة لتكرارها.

وعلى هذا كان تنصيب وزير عالي المقدار سردارًا على جبهة العجم من ضروريات الدين والدولة، وكان «نصوح باشا» قد أتى على التو إلى الآستانة؛ حيث جلس على صدر الوزارة أي رتبة وزير، وأُكرم المشار إليه كثيرًا، ثم نُصّب سردارًا على جبهة العجم برتبة وزير ثالث، ولما طلب الصغير والكبير بأنه يلزم توفير وزير آخر للمحافظة على سواحل «طونه»، فقد عُين لهذه الوظيفة «خضر باشا» الذي كان قائم مقام.

---

(١) الموافقة سنة ١٦٠٥ - ١٦٠٦م.

تعيين المرحوم الوزير الأعظم «أفندينا محمد باشا» سردارًا على العجم سنة ١٠١٤ هجرية[١]

كان تقرب «درويش باشا» الذي كان قبطانًا - إلى السلطان صاحب السعادة قد وصل إلى درجة عظيمة، فلو كان كل رجال الدولة على إحدى جوانبه، فإن كلمة واحدة للمذكور تقدر بمائة، وبعد ذلك، كنتُ قد أصبحت محررًا على ألوية أي سناجق جانب «أغريبوز» مع أخيه «جوان بك»؛ حيث كان يروى لي ما يلي:

أحيانًا كان السلطان صاحب السعادة يُبقي «درويش باشا» في الحديقة الخاصة، حيث كان يتصرف بتوجيهه أي بتوجيه درويش باشا، وفي اليوم التالي، كنا نتوقع أنه لا بد وأن تقع حادثة عظيمة، حتى كنا دائمًا نسمع حضرة «والدة سلطان» وهي تجعل السلطان صاحب السعادة يحلف بحق الأمومة وبثدي الأسد، بعدم مخالفة كلمته ورأيه، وأن أحوال النساء معلومة، فقد كانت تظن أنه خال من الغل والغش وأن قلبه نظيف ومحب للخير.

وهكذا، فعندما دخل المرحوم «أفندينا محمد باشا» ذات يوم على السلطان للعرض على غرار العادة، تفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث «بالمشافهة» بتحريض من درويش باشا - قائلًا: «يجب عليك أن تصبح سردارًا على جبهة العجم، فلتجعل أي أحد تريده سردارًا على بلاد المجر بدلًا منك، واستعد أنت لتتوجه إلى العجم»، ويتعجب المرحوم بحيث كاد يذهب عقله، ويبقي حيران ومتحيرًا فيما سيقول!! ويقول «بالبداهة»: «الأمر للسلطان». فإنه يتمكن فقط من إضافة قوله: «إن الأمل في هذه السنة أن يُعقد الصلح والصلاح في نواحي بلاد المجر على النحو المطلوب في ظل ظهور «بوچقايي قرال»، وأن يؤدي كفار «بچ» الخراج الذي كانوا يعطونه باستمرار إلى أجدادكم»، فيأمر السلطان على الفور ثانية بقوله: «قم بالإعداد بناء على أمري».

(١) الموافق سنة ١٦٠٦ م.

ولما عاد المرحوم «محمد باشا» إلى قصره، راح يبكي ولم تنقطع دموع عينيه لفترة طويلة، وأمر بتحرير تلخيص مرة أخرى، ومع أنه دون في هذا التلخيص كل ما كان يتردد في نفسه من أفكار، فإنه لم يُفد ذلك، أما ذلك الجاهل والباطل [المقصود درويش باشا] فلم يكف عن تحريضه للسلطان صاحب السعادة، وفي اليوم التالي، أتى «نصوح باشا» إلى جوار «محمد باشا» للتهنئة على رتبة «سردار»، وقال: «سلطاني، لماذا تتألمون من هذا؟ ولماذا تتعبون أنفسكم؟»، وطيب خاطره بكلمات نحو: «سأذهب سويًا معكم. وسأتقدم منزلًا أو منزلين، وسأعد لوازمكم، ولن تتضايق من نقص الذخيرة يومًا ما، ولن تعاني ساعة، وسأنسيك حملة بلاد المجر، وإنني سوف أقوم بخدمتكم بالقدر الذي يجعلكم تنسون خدمة خدامكم على الإطلاق، وأيضًا إن شاء الله تعالى ينبغي ألا تقف رغبتكم عند بلاد المجر»، وعمومًا قام بتحبيبه في ذلك الأمر وبتطييب خاطره حتى انفرجت أسارير وجه المرحوم قليلًا وكأنه غدا مظفرًا ومنصورًا في ذلك اليوم. وعلى الفور شُرع في ذلك الحين في تحرير الأحكام الشريفة إلى أمير الأمراء الذي كان في الساحل الآخر المقصود الأناضول وإلى سائر الحكام بناء على الرأي الصائب لـ «نصوح باشا»، وأصبح مقررًا إرسال الرجال الذين يعتمد عليهم والذين كانوا من الأعيان بهذه الأحكام الشريفة. وفي ذلك اليوم، يتوجه «محمد باشا» إلى هذا الفقير «بچوي»، ويسأل: «هل أنت أيضًا ستذهب معنا إلى العجم؟»، فقلت: «يا سلطاني هل أفترق عنك ما لم أدخل القبر؟».

وبعد ذلك، راح يشكو من ذلك الظالم «درويش باشا»، وذرف دموع عينيه قائلًا: «كنتُ قد جعلت السلطان صاحب السعادة منذ أن اعتلى العرش تابعًا لرأيي تمامًا، ومنذ ذلك الحين، كنتُ أعرف أن «درويش باشا» يسعى إلى تحقيق هذا الهدف، وكل ما كنتُ أقوم به من المداراة أي الاستمالة، كنتُ أقوم به لهذا السبب، والآن فإنه وجب عليّ أن أتكلم بوضوح؛ لقد كان هدفي هو أنه بعد أن أصل إلى «أوسك» أسيرًا على طول ساحل «دراوه»، ثم أعبر إلى «مكوموري» من الجانب الأعلى لـ «ويشغراد» ويعبر «بوچقايي» أيضًا من «بوژن» من هذا الجانب، ثم يلتقي كلانا مع جنده تحت «بچ»، ولو

كان الأمر قد تم على هذا النحو، فهل كانت تبقي مملكة في «نمچه»؟ وهل كان أي عدو يستطيع مواجهتنا؟ والآن فإن أصل خوفي هو ألا يحسنوا معاملة «بوچقايي»، وقوم المجر، فيعلنون العصيان ثانية، ويذهب جهدي الذي بذلته لمدة عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة هباءً منثورًا»، ولكن إذا ذهب المرحوم إلى الساحل الآخر؛ أي الأناضول، ربما كان من الممكن أن ينسى بلاد المجر كما أراد «نصوح باشا».

وكان الملعون المعروف باسم «قلندر أوغلو» أقوى الأشقياء الذين أعلنوا العصيان في ذلك الوقت، وبينما كان المرحوم أميرًا لأمراء الأناضول، ورد خطاب طاعة من «قلندر أوغلو» إلى «عبدي كتخدا» الذي كان يعمل في خدمة المرحوم في «كوتاهية»، وأيضًا إلى المرحوم شخصيًا، وكان قد جاء في هذا الخطاب: «إذا أردت أن أخالف أي شخص، فإني سوف أخالفه، ولكن ليس هناك أي احتمال لمخالفة سلطاني، فلو أنكم تحسنون إليّ الآن بإمارة سنجق، فإنني أتعهد بأن أحضر إلى جواري كل الذين يطلق عليهم اسم «جلالي»، وأعلق سيفي في رقبتي وآتي أمامكم في لمح البصر، وإذا لم يُر أن هذا العطاء الآن مناسبًا، فإنني راض بما توعدون به».

وكانت قد أتت خطابات «طويل» العويل أيضًا إلى «شاه ويردي أغا» كتخدا العاصي «دلي حسن»، حيث عرض فيها عبوديته وطلب وساطته، ومن ناحية أخرى وبينما كان طغيان «جان بولاد أوغلو» أيضًا في «حلب» فوق الحد، أرسل خطابات العبودية، حيث طلب ترك ولاية «حلب» له، ولكن الظالم المدعو «درويش باشا» لم يصدق هذا، وأمر بعزل شقيق «طرناقجي حسين أغا» أغا الإنكشارية الذي كان قد سبقت بطولاته العظيمة في فتح «أسترغون» وكان رجلًا يبذل الروح لإسعاد المرحوم «أفندينا محمد باشا» وكان المرحوم يحبه مثل ابنه، أمر بعزله من رتبة الأغاوية وبتوجيه إمارة أمراء «أدنة» إليه. وقام المرحوم الباشا بالتوسل إلى السلطان بقوله: «هذا ابن عبدكم، وربما عينه التي ترى ويده التي تمسك. ويُرجى أن يذهب إلى العجم بجوارنا وهو معزول، وليُحسن عليه بعد ذلك بمنصب ما بأمر السلطان»، ولكن السلطان أجاب على تلخيصه هذا قائلًا: «الكلمة واحدة عند السلطان»، وصدر الخط الشريف بتوجيه سنجق «قسطموني» إلى

«قبوجي باشي مصطفى أغا» الذي كان يعمل في وظيفة أمين المنزل[1] في بلغراد، والذي كان من رجال «فرهاد باشا»، وبسبب هذا أيضًا أمر «محمد باشا» بكتابة تلخيص ورد فيه: «لقد كُلف «حسين أغا» بإعداد الذخيرة في الحملة، ولا يوجد أي رجل آخر بيننا يمكن أن يقوم بخدمته هذه، وإن إبعاد المذكور من خادمكم يعني قتل خادمنا الذي هو ذراعنا»، فأجاب السلطان على تلخيصه هذا قائلا: «ألا يستحسن سنجقنا الذي أعطيناه له»، وعمومًا، فبتحريض ذلك الظالم «درويش باشا»، فعل كل ما يغضب المرحوم «محمد باشا» وكل ما لا يريـده.

وفاة المرحوم «أفندينا محمد باشا» في ١٥ من صفر الخير سنة ١٠١٥ هجرية[2]

عندما تإثر المرحوم من الجانب السلطاني بهذا القدر من كسر العرض وبذلك الحجم من المصائب بتحريض ذلك الظالم أي درويش باشا، فخلاف الانكسار الذي أصابه في الظاهر، فقد إثر ذلك في فؤاده؛ وبدأت قوته في الضعف وضعفه في القوة من يوم إلى آخر. وفي النهاية أصبح أسير الفراش ورقد فيه.

ويروي المرحوم «باقي باشا»: إن حضرة شيخ الإسلام «صنع الله أفندي» قام بدعوة هذا الفقير [أي باقي باشا] في تلك الأثناء. ولما كان يظهر للمرحوم «أفندينا محمد باشا» علاقة البنوة والأبوة، قال لي: «كنتُ أريد استدعاء السكير الذي كان كتخداه، ولكن عقله ليس في رأسه، فينبغي أن أقول وأفشي لك هذا السر الخفي؛ لقد قام عديم الدين المعروف باسم «بورتقال» الذي كان يعمل بصفة حكيم بتعبئة السم في الحقنة التي أعدها

---

(١) أمين المنزل: هو الشخص الذي يكلف بجمع الذخيرة المشتراة بالنقود من الناس خلال الفترة التي يتحرك فيها الجيش من إستانبول وحتى يعبر حدود العدو، ويعمل على إعدادها وتجهيزها في المنازل المختلفة أثناء الحملات. وكان هذا الشخص يتبع قلم محاسبة أمناء المنزل في التشكيلات العثمانية. وكان يقال على الذخيرة المجموعة في هذا الشكل «ذخيرة المنزل».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 238.

(٢) الموافق ٢٢ من حزيران ١٦٠٦م.

لعلاج الإسهال بيده؛ حيث يقصد بذلك إهلاك «محمد باشا» تمامًا. فنبهوا على كتخداه السكير وسائر مقربيه بأن يحذروا عرض «محمد باشا» على ذلك الكافر»، حتى إنني خادمكم [باقي باشا] قلتُ: «إنني رجل من الخارج، فمن يعطي اعتبارًا لكلمتي؟». فيؤكد عليّ شيخ الإسلام قائلًا: «يجب عليك أن ترسل رجلًا وتخبرهم بذلك، لقد اشتركت معه في غزوة غراء على هذا النحو؛ ولذا فإن فعل الخير له، يعتبر فرضًا».

ورأي «باقي باشا» أن الحديث في هذا الأمر أثناء مرض المرحوم غير مناسب، ولكن قام بمنع الحكيم من زيارته، ولما مضى يوم أو يومان، أصبح المرحوم أيضًا كما لو كان يتماثل للشفاء؛ حيث تحسن قليلًا، وبسبب أنه لم يتناقص عدد الزوار الكبار القادمين والذاهبين، دخل المرحوم «محمد باشا» إلى سراي الحرم ورقد في الداخل لعدة أيام. ولكن كان الأجل الموعود قد حان وانتهى عمره؛ فيطلب إحضار الحقنة التي أعدها الحكيم «بورتقال» لعلاج الإسهال بقوله: «إن تقلّص المعدة يؤلمني جدًا». وعلى هذا تُرسل طائفة البوابين «بلوك باشي»؛ أي رئيس البلوك منهم لإحضارها. ولكن ذلك الظالم لا يستشير أي شخص، وهو أيضًا لا يعرف هذا السر؛ فيصل بسرعة ويحضر الملعون؛ فيقوم الملعون أيضًا بعمله في الحال ويذهب.

وفي اليوم التالي، يقوم «صنع الله أفندي» بدعوة «باقي باشا» مرة أخرى، ويتفضل بالقول له: «أيها الظالم لماذا لم تلتزم وتتقيد بها أوصيتك به؟ فقد قام ذلك الكافر بإتمام جريمته»، وبعد ذلك، رأينا أن السم قد سرى في جسد المرحوم، وبدأ في الصياح قائلًا: «لقد احترقت وهلكت». وأتى ذلك الملعون المعروف باسم «بورتقال» أيضًا إلى ذلك المكان، وراح يعرض الأعذار والحجج الواهية، وبدا وكأنه يقوم ببعض المعالجة قائلًا: «ماذا ينبغي عليّ أن أفعل، فقد ذهب كلامي هباءً. لما تحسن قليلًا، دخل إلى الحرم، واختلط بالجواري ورغب في الجمع بهن. وهكذا، وبسبب هذا، أصيب بهذه المصيبة». ولكن كان السم قد تمكن من جسد المرحوم؛ فتوقفت يده وقدمه عن العمل. حتى إنه عجز عن بلع لقمة واحدة، وعلى كل حال، كانت علامات الموت قد شملت جوانبه الأربعة. وهكذا، ودع العالم الفاني في وقت الشروق من اليوم المذكور الموافق يوم الأربعاء، وأراد البقاء السرمدي، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

وكان المرحوم رجلًا ذا ضمير صافٍ وخالٍ من الغل والغش ومتواضعًا جدًا، ومبرأ تمامًا من الغرور والكذب والتعالي، وطاهر العقيدة وحسن الجبلة وثابت القدم وشجاعًا جدًا في مواجهة الأعداء، وكانوا يقولون: إن عيبه الفاحش في الظاهر كان هو البخل. ولكن في فتح «أسترغون» تأكد أنه قام بتوزيع أكثر من عشرين ألف ذهبية من جيبه بيده المباركة على غزاة الإسلام، وذلك عدا مقاطعات الزعامة والتيمار وغيرهما.

في ذكر أيتام المرحوم وتركته ومخلفاته

قبل يومين من وفاة المرحوم، أتى الخط الشريف الذي ورد فيه: «إنك تتمارض كثيرًا. وعلى هذا، ينبغي ألا تخرج ولو ليوم واحد، وسوف أحملك المسئولية»، وللإجابة على ذلك الخط، أمر المرحوم أيضًا بكتابة تلخيص جاء فيه: «سلطاني، سأخرج بناء على أمرك في يوم آخر، ولكن لا أدري هل يمهلنا العمر حتى نصل لذلك اليوم، وسواء كنت هنا أو لم أكن هناك، فإنه يعتمد على القدرة التي سأكون عليها في ذلك الوقت». وفي اليوم التالي، قام المرحوم «محمد باشا» قبل الظهر بإرسال «أوزون كاتب» الذي كان رجلًا يعرفه السلطان صاحب السعادة جيدًا ويعتمد عليه «محمد باشا» كثيرًا إلى أغا الباب الذي كان المرحوم يناديه بقوله «ابني» والذي كان يظهر له المحبة الزائدة، ورجاه بقوله: «فلتكسب ثوابًا، ولترحم حالنا، ولتأت لعيادتنا ولتر حالنا». ولما وصل المرحوم «أوزون أفندي» إلى أغا الباب، قال أغا الباب: «لا أستطيع أن أذهب لزيارة «محمد باشا» ما لم أستشر السلطان»، فوصل أغا الباب إلى السلطان صاحب السعادة وأخذ منه الإذن، وأتى يوم الثلاثاء بعد الظهر، ورأى حال المرحوم؛ فأجهش نفسه بالنحيب والبكاء كثيرًا، فقال المرحوم: «أغا، لما أصبح لا يُعتمد على قوتنا، تم نسيان خدمتنا التي قمنا بها في هذه الدولة العلية، ولكن الأمل ألا يضيع ذلك عند الحق تعالى». وإنني أرجو أن تُقبل الذيل المبارك لثوب السلطان صاحب السعادة نيابة عني، وأن تبلغه رسالتي البسيطة هذه: «لدي ستة أيتام لم ينبت شعرهم بعد، وهم لا يزالون محتاجين للبن أمهم، فأرجو ألا يجعل هؤلاء محتاجين لطرق أبواب الناس، فكلما يحسن عليهم، فليكافئه حضرة الحق قدر إحسانه ألف مرة».

وينصرف الأغا عن المرحوم، ويصل إلى المجلس السلطاني باكيًا. ويتفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «ماذا يبكيك؟». فيقول الأغا: «سلطاني، هكذا يذهب وزيرك الذي يشبه جبل «قره طاغ». فلم يعتقد أي شخص في قدرته ولم يعرف أحد قدره». فيرد السلطان أيضًا: «لو ذهب هذا، يأتي آخر بدلًا من». فيجيب الأغا: «سلطاني سوف تغير وزراءً كثيرين حتى تجد الوزير الذي يمكن أن يحل محله»، وبعد أن أجابه على هذا النحو، يتفضل السلطان صاحب السعادة بإصدار أمره: «فلتصادر الآن ثروته النقدية من أجل مصاريف الحملة، ولا يتم التعرض لأشيائه الأخرى».

ولكن الظالم المعروف باسم «درويش باشا» بمجرد أن أصبح صدرًا أعظم، قام بإرسال «كور علي أغا» من رؤساء البوابين وكان رجلًا عديم الرحمة والشفقة وذا جبلة فظة لاستقبال مخلفات وبعض أيتام المرحوم عند مجيئهم من بلغراد، فأحضرهم جميعًا وأنزلهم بسراي المرحوم ثانية. وأخذ الإذن بالمصادرة قائلًا: «لوازم الحملة لازمة لخادمكم، وواضح أنها ليست لازمة للأيتام»، وفي اليوم التالي، أتى مع «أتمكجي زاده»، وكانت توجد لدى المرحوم نقدية تقدر بمائة وخمسين ألف ذهبية وحوالي مائة حمل «غروش» خلاف النقود الأخرى، فاستولوا على هذه النقود قبل كل شيء،وأحضروا سائر الأثواب والأشياء التذكارية والصناديق أمامهم، وقاموا بفتحها واحدة واحدة، وأخرجوا الأشياء منها، وبعد ذلك، وضعوها في الصناديق مرة أخرى كالأول، وحملوها للحمالين؛ حيث حملوها جميعًا إلى سراي المرحوم. وكان يوجد أكثر من أربعين فروًا من جلد «سمور»، ومن كمال الشفقة والمرحمة اختير فرو لكل واحد من الأيتام!! ولكن أمر لهم بها بقوله: «أعطوا لهم أقلها قيمة»، وبعد ذلك، ظهرت ثلاثة أو أربعة أسبتة وصناديق وأواني فضية وأواني كبيرة وأكواب أتت من بلاد الكفار، وفي تلك الأثناء أيضًا فاض بحر الرحمة، وقال: «أعطوا لكل واحد من الأيتام واحدة من أصغر هذه الأشياء»، وفي تلك الأثناء، لم أتمالك نفسي وقلت: «الظاهر أنهم لا يستطيعون أن يجدوا المكان الذي سيخبئون فيه الكبير من هذه الأشياء!»، فنظر إلي بغضب، وعض «أتمكجي زاده» على شفته وكأنه يريد أن يقول: «الغوث، أمسك عليك لسانك».

ولكن حضرة الله تعالى عليم وعلام بأنني لا أكذب إذا قلت إن وفاة المرحوم كانت ذات وقع أثيم على هذا الفقير «بچوي»، وأن شرب كأس من السم لم يُحدث لِيّ مثل هذا القدر من الألم، وقد عرفت جيدًا أنه كان رجلًا يبذل ما في وسعه لإسعاد الشخص الذي يحبه. وبصرف النظر عن قرابتي للمرحوم، فإنني لم أبعد يومًا واحدًا عن خدمته لمدة خمس عشرة سنة، وعندما لم يكن هناك أي شخص، كنت أنا «بچوي» أصبح حافظ سره وصاحبه، وكنت أكثر المتحدثين إليه من بين رجال الدولة، ولم أسمع منه طوال عمري كلامًا مؤذيًا، وربما كان يغمرني بلطفه، فليرحمه جناب رب العالمين رحمة واسعة، وليدخله جنة الخلد، وخدمتنا التي نستطيع أن نقدمها إليه بعد الآن، هي الدعاء فقط.

قيام المرحوم «محمد باشا» بتنصيب الوزير المبرور «مراد باشا» سردارًا على بلاد المجر بدلًا منه، وقيام المشار إليه بعقد الصلح سنة ١٠١٥ هجرية[1]

عندما كان من المقرر أن يذهب المرحوم إلى العجم، فبمجرد أن قال الشاعر «كسبي چلبي»:

كان مأمور بالذهاب إلى العجم، فقال تاريخه

الغوث، قد ذهب «محمد باشا» إلى العدم

قام المرحوم «محمد باشا» بتنصيب المرحوم «مراد باشا» سردارًا بدلًا منه على بلاد المجر، وقام «مراد باشا» بتشكيل فرقة من رجاله فقط، وخرج من «أدرنه قبوسي» قبل أن يمرض «محمد باشا»، ونصب الخيام عند «خلقه لو»، فلما أتى إلى «بدون» مع العساكر المأثورة بالنصر والتي كانت قد عهدت إليه، اجتمع صهره «قاضي زاده علي باشا» أمير أمراء «بدون» و«هابيل أفندي» قاضي «بدون» و«نصر الدين زاده مصطفى أفندي»

(١) الموافق ١٦٠٦م.

الموجود في «بدون»، و«قاديم أحمد كتخدا» كتخدا «علي باشا» المومأ إليه اجتمعوا مع كبار أمراء «نمچه» والمجر في بوغاز «زيتون» الواقع فيما بين «قومران» و«أسترغون»، وتباحثوا حول أحوال الصلح، واسترضوا «بوچقايي قرال» أيضًا، وهكذا قرروا الصلح؛ حيث كان الصلح الذي عُقد هناك هو بداية للصلح المنعقد الآن. ولكن مع أنه كان قد أُخذ رأي «بوچقايي» في هذا الصلح، فإنه لم يرض بالصلح على هذا النحو، وكان مقصده إدخال كل قوم المجر تحت حكومته، وألا يُعقد الصلح ما لم تعط القلاع التي قرأت فيها الخطبة بأمر السلطان ولو لمرة واحدة سواء في «يانق» أو في «فيلك» أو في غيرهما إلى أهل الإسلام ثانية، وكان كبار أمراء «نمچه» والمجر قد أقروا هذا الكلام مع المرحوم «محمد باشا»، وقدموا التعهدات الكثيرة. وبوفاة المرحوم، لم يتم الاتفاق المنعقد أيضًا، وأخيرًا، لم يمر شهران من الصلح، وتوفي «محمد باشا» بذلك الغم والهم، ويُروى أنه قد تسمم جسده بالوعود الكثيرة من قبل «نمچه»، وأصبح ذلك سبب موته، والله تعالى أعلم بمدى صحة ذلك.

تعيين «درويش باشا» وزيرًا أعظم سنة ١٠١٥ هجرية[1]

لما توفي المرحوم أفندينا شرف «درويش باشا» ذلك المقام الشريف. وفي أول ديوان أي في أول جلسة جلس فيها في مقام الصدارة، نبه على «چاوش باشي» قائلًا: «ينبغي ألا يقيسوني بسائر الوزراء. فكل من يؤخر المصالح اليومية للفقراء إلى اليوم التالي لها، أقطعُ رأسه»، ونبه على الكُتاب بقوله: «إذا طلب أي فرد نقودًا زيادة عما قدره القانون القديم، فإني أقتله بأشد أنواع الإعدام». وفي الحال قال الكتاب: «إن هذا التصريح يعبر عن شخصيته»، وتطير هؤلاء الأرباب قائلين: «أحوال مجربة داخل الديوان، فلا بد أن أي شيء يصدر عن لسان أي من أصحاب الدولة الذين يجلسون في ذلك الصدر العالي أي الوزارة العظمى سواء كان خيرًا أو شرًا، لا بد وأن يأتي على رأسه قبل أن يمضي على جلوسه في ذلك المقام عدة شهور وذلك طبقًا لاستعداده الذاتي»، وفي الواقع، فقد

(١) الموافق سنة ١٦٠٦م.

حدث على هذا النحو، فقد هلك وجود هذا أي «درويش باشا» في الشهر السابع من توليه منصب الوزارة العظمى.

وفي ذات يوم، أتى شيخ ذو وجه نوراني معزولًا من إمارة أمراء الساحل الآخر المقصود الأناضول إلى ديوان العصر، وكانوا قد ذكروا في ذلك الحين أنه كان شيخًا معروفًا بصلاح الحال، حتى إنه كان موصوفًا بالصوم الدائم، فبعد أن قام هذا الشيخ بإلقاء السلام على الصدر الأعظم وذهب، نادى عليه وقال له: «أتى الشاكون من ابنك». وقد كان ابن هذا الشيخ أمير لواء وصاحب طبل وعلم. فلما أجاب الشيخ قائلًا: «سلطاني، ليس في حكمي أن أحمله المسئولية»، قال الصدر الأعظم: «سوف أُحملك أنت المسئولية بدلًا منه»؛ وأمر بقطع رأسه أمام بابه [أي باب الصدر الأعظم]، وكنت قد أتيت مع المرحوم «عبدي كتخدا» إلى ذلك المكان، ورأينا بأعيننا أن الحمالين كانوا يحملون جسد الشيخ في التابوت، وكانت رأسه منفصلة عن جسده وملفوفة، وفي ذلك الحين أيضًا أرسل «درويش باشا» الرجال من أجل مصادرة المتروكات التي تركها الشيخ، وأصبح أهل الديوان مندهشين من هذا التصرف، وهُلك الشيخ مظلومًا على هذا النحو، بلا جرم وبلا جريرة ودون العرض على السلطان، ودون أي تطبيق للشرع الشريف، رحمة الله تعالى عليه.

وكان السلطان صاحب السعادة قد أنعم بمخلفات المرحوم «أفندينا محمد باشا» التي كانت قد بلغت قبل الاقتراب منها أكثر من مائتي حمل أقچه أنعم بها على أيتام المرحوم «محمد باشا»، ولكن «درويش باشا» اغتصبها. وقام بتقدير سعر حوالي عشرين منزلًا موجودًا حول قصره بمعرفة «معمار باشي»؛ فإنه لم يعط أهلها حتى نصف سعرها، وأخرج أصحابها جبرًا وقهرًا منها، وبدأ في بنائها من أجل توسيع قصره، وهذه الأشياء كانت من مظالمه التي بدت خلال يومين أو ثلاثة، ومن الممكن قياس سائر أيامه على هذا.

وكان يُضيّق كثيرًا على المرحوم «أفندينا محمد باشا» وينزل به إيذاءً عظيمًا يتعلق بكسر العرض أي الإهانة من الجانب السلطاني بقوله: «اخرج إلى الحملة»، وفي النهاية، فإنه

لم يجد دواءً لذلك الداء سوى الأجل، وفي اليوم الذي أصبح فيه «درويش باشا» وزيرًا، شرع ببناء نفسه وبإفناء أهل الدنيا، وتوقف عن الخروج إلى الحملة، وكان السلطان صاحب السعادة أيضًا قائلًا وتابعًا لرأيه.

ـ ومن البدائع:

كتب «حسن بك زاده أفندي»[1] في تاريخه أن السلطان صاحب السعادة أمر في تلك الأثناء بدعوة «شيخ الإسلام» «صنع الله أفندي » و«خواجه أفندي» والوزراء العظام وقضاة العسكر إلى القصر السلطاني؛ أي أنه أمر بجمعهم من أجل المشاورة في أحوال الحملة، وفي البداية يتفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «لقد تأخرت الحملة هذا العام، ومن الأولى صرف النظر عن ذلك والإعداد لها من أجل السنة الآتية»، فيُدهش كل الحاضرين قائلين: «في الوقت الذي تمارس فيه الضغوط بهذا القدر على المرحوم «محمد باشا» من أجل خروجه إلى الحملة، فإن تأخير الحملة الآن بلا سبب أعجب من العجب». وعلى الفور لا يتمالك المرحوم «صنع الله أفندي» نفسه، ويقول: «إن الجيش الهمايوني قد انتظر في «إسكدار» لأكثر من شهر كامل، وليس من اللائق إعادة الجيش مرة ثانية أمام هذا العدد من السفراء وأعداء الدين. فعلى الأقل، ينبغي الوصول حتى إلى «حلب»، ثم يُقترح هناك إعداد الحملة للسنة التالية؛ فإن التوجه إلى بلاد العجم مباشرة يتعب جند الإسلام. فقد كان جدكم المرحوم السلطان «سليمان» يذهب بهذه الطريقة في معظم حملات العجم».

وعلى هذا يعارض السلطان صاحب السعادة هذا الرأي ويتفضل بقوله: «كان مقتضى الحال في ذلك الزمان على هذا النحو، ففعلوا مثل ذلك. والآن بينما لم تكن هناك ضرورة لذلك الأمر، فما فائدة الوصول إلى «حلب»». فيقول المُنلا أيضًا: «الفائدة هي أن الجيش الهمايوني لا يكون قد خرج بلا فائدة. فحينما يتم التوجه إلى الحملة، لا يقل

---

(١) وهو من مؤرخي القرن السابع عشر وهو صاحب الأثر التاريخي المعروف باسم "تاريخ حسن بك زاده".

الأعداء إن جند الإسلام ليس لديهم قدرة على الخروج إلى الحملة. فالآن هل يجوز إعادة الجيش الهمايوني على هذا النحو بلا سبب؟! وألا يرسل على الأقل وزيرًا للمحافظة على الممالك هناك؟!». ويتفضل السلطان صاحب السعادة أيضًا بالقول: «فليصل البوستانجي باشي السابق «فرهاد باشا» من أجل المحافظة على المملكة، وليقود الجيش الهمايوني».

ومرة أخرى، ولما كان المرحوم «صنع الله أفندي» مجبورًا على الصدع بالحق، يقول: «يا، ألا يخصص مقدار من النقود من الخزينة الداخلية لشراء ذخيرة الحملة على الأقل»، فيرد السلطان صاحب السعادة: «لا توجد نقود في الخزينة، فمن أين ينبغي أن نعطي؟!». فلما يقترح «صنع الله أفندي» مرة أخرى بقوله: «ألا يمكن أن يُحسن من خزينة مصر على الأقل؟»، يجيبه السلطان صاحب السعادة: «خزينة مصر هي مصروف جيبنا. فكيف يُعطى منها؟!».

ويقول المرحوم «صنع الله أفندي» قولًا حقًا مرة أخرى: «عندما همّ المرحوم جدكم السلطان «سليمان خان غازي» بالتوجه إلى حملة «سكتوار»، قام بإرسال كل ما يوجد من أواني ذهبية وفضية في السراي العامرة إلى دار سك العملة (ضربخانه)، وأمر بضرب الأقچة منها، ثم صرف منها في تلك الحملة، فالسعي للانتقام من العدو هو من شرف الدين والدولة»، وعلى هذا يتفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «أنت لا تفهم كلامي. ولكن لا ينطبق ذلك الزمان على هذا الزمان، فلا يمكن أن يُـقاس كل منهما على الآخر. فلما كان ذلك هو من مقتضيات ذلك الوقت، فعلوا هكذا. فلماذا تورد التصرف في ذلك الوقت مثالًا لهذا الوقت»، ويروى أن المذكور «صنع الله أفندي» قام بتحويل السلطان صاحب السعادة عن شعوره لدرجة أنه عجزت الكلمة عن التأثير. وبعد ذلك تحركوا وانفض هذا الاجتماع، ومن أجل هذا الخصوص، قام السلطان صاحب السعادة بعقاب المرحوم «صنع الله أفندي» وذلك بعزله من منصب الفتوى، ثم نصب مكانه «مصطفى أفندي»، فإن ذلك أيضًا لم يعمر أكثر من ثلاثة أشهر، حيث أصيب بالدعاء السيئ للمرحوم؛ وعاد منصب الفتوى لذلك الرجل الذي هو أهل للتقوى مرة أخرى.

سردارية «بوستانجي باشي فرهاد باشا» للمحافظة على الساحل الآخر أي الأناضول في سنة ١٠١٥ هجرية[1]

كان المذكور رجلًا مستهترًا وغير جاد في مسلكه، وقد نصب سردارًا على الساحل الآخر، والآن لم يعرف إلى أين يذهب، ولم يدر شيئًا عما سيفعل، ومضى معظم أيامه في النزاع والخلاف مع «بلوك خلقي» الذي كان تحت إمرته. فلما كانوا يأتون لطلب العلوفة، كان يقول لهم: «إنني أيضًا سباهيًا وأريد علوفة أيضًا»، وكان يعارضهم قائلًا: «عندما أعطي لكم درجة البلوك يكون مقبولًا، فلماذا لا يكون مقبولًا عندما أعطي لنفسي هذه الدرجة»، وكان يملأ ذيل ثوبه بالحجارة، وبمجرد أن يرى توجه السباهية نحوه، كان يلقي هو في الأول الحجارة على الخيمة. ولما كان هؤلاء يقتربون من الخيمة، كان يقطع حبال الخيمة ويخرج بعض دعائمها؛ وربما كان يهدم خيمته أيضًا ويقف. ووصل وهو على هذا الحال وأتى، وكان معلومًا لكل شخص بعض من تصرفاته التي كان يقوم بها عند مباشرته لجميع المصالح.

قتل «درويش باشا» سنة ١٠١٥ هجرية

لقد امتدت فترة وزارة المذكور عدة شهور فقط. وفي تلك الفترة، كان سمه يلدغ كل من يراه مثل الثعبان الذي ضرره في عينه، حتى إن المقربين للسلطان خافوا من سمه وشره. وفي النهاية، زاد أعداؤه بذلك القدر الذي أصبح كل شخص متفق الكلمة على قتله، واتفق أنه قد أقام إسطبلًا بين برجي السور الملاصق لجدار الحديقة الخاصة. فوضع أعداؤه عدة اقتراحات مثل تلغيم ذلك المكان وإدخال الألغام منه إلى الداخل وإحداث دمار عظيم، وجعلوا السلطان صاحب السعادة أيضًا ينفر منه، ويفقد ثقته به. وفي الحقيقة فقد أوقعوا السلطان في حالة من الوهم، وفي ذات يوم، يقوم السلطان صاحب السعادة بدعوة حضرة «شيخ الإسلام»، ويتشاورا في أحواله. ووفقًا لما قرراه،

(١) الموافق سنة ١٦٠٦ - ١٦٠٧م.

فإن السلطان ينام عدة أيام نوم الأرانب، وعلى إثر أعطاه الإذن لتقديم بعض العروض، يجعلونه ينسى الخاطر الهمايوني المتعب، وبعد ذلك، يدعوه السلطان في إحدى الأيام إلى السراي، ويقطع عمره بخنقه بحبال خيمته، حتى إنه بينما كان يرقد ميتًا لفترة طويلة أمام ديوان سلطان العصر، فبتحريكه لإحدى قدميه بعد موته، يطعنه وهو في ذلك المكان بخنجر في حلقه مرة أخرى، فيسلم بقية روحه إلى قابض الأرواح بتلك الضربة القاضية.

توجيه منصب الوزارة العظمى إلى «مراد باشا» وإرسال الختم الشريف إليه في سنة ١٠١٥ هجرية[١]

كان «مراد باشا» قد باشر أمور الصلح والصلاح وأتى إلى بلغراد، وانتظر السفير الذي من المقرر ذهابه بالهدايا إلى السلطان صاحب السعادة، وفي تلك الأثناء، تفضل السلطان صاحب السعادة بإصدار خط شريف إليه مع إرسال ختم الصدارة العظمى إليه أيضًا، وكان مضمون هذا الخط الهمايوني على النحو التالي: «إني وجهت إليك منصب الوزارة العظمى بمحض إرادتي، وأرسلت إليك ختمي الهمايوني وذلك دون إيحاء من أي شخص أو التماس أو رجاء من أي فرد، والأمل أن يكون جناب رب العزة رفيقك في كل عمل وأن يقدر لك التوفيق في كل أمر، وينبغي أن أراك، وينبغي عليك أن تسعى وتهتم كثيرًا بكل الأمور وأن تبذل الجهد بقدر ما في وسعك في سبيل الشرف الهمايوني».

ولما أنعم بهذا الخط الهمايوني وبذلك الالتفات العظيم على «مراد باشا»، أصبح ذلك باعثًا على ازدياد سروره، وإنني هذا العبد الفقير «بجوي» كنتُ قد أتيت في تلك الأثناء من مهمة تحرير أراضي «أغريبوز» إلى بلغراد، وعندما كان «مراد باشا» أمير أمراء في الحملات برتبة وزير فقط، كنتُ أيضًا أتردد باستمرار على الأماكن التي يوجد بها. وفي

(١) الموافق سنة ١٦٠٦ - ١٦٠٧م.

هذه المرة، اهتم بي كثيرًا، وقال: «لا بد أن تبقي في وظيفة «مقابله جي»[١]، وكن لنا في الوقت نفسه في وظيفة تذكره جي[٢] ولا تفترق عنا». حتى إنه منحني قصر المرحوم الدفتر دار، ولكن على إثر وقوع حريق بمنزلنا الفقير، لم يكن أمامي اختيار، فاستأذنت منه قائلًا: «سوف ألحق بكم».

في ذكر توجه المرحوم السردار المومأ إليـه على «جان بولاد زاده» سنة ١٠١٦ هجرية[٣]

لما زاد قدر وشرف «مراد باشا» المتمرس على الجهاد والعادل بطبعه بين العباد بهذا الاعتبار والالتفات من قبل السلطان، تحرك بلا توقف وجاء إلى «إستانبول»، وقام بتجهيز الحملة كما ينبغي في زمن وجيز، وعقد العزم على التوجه صوب «جان بولاد زاده» الموجود في «حلب» الشهباء، ولما وصل إلى نواحي «كونذرلو» الواقعة في سنجق «عزيز» قاطعًا المنازل، كان «جان بولاد زاده» قد تحرك من «حلب» أيضًا ووصل إلى المكان المذكور، وعلى كل، فقد نزل السردار المغوار مع جند الإسلام صائدي الأعداء عند أحد جانبي الممر المعروف باسم «أرسلان لو بلي»، ونزل «جان بولاد زاده» مع

(١) مقابله جي: هو من أقلام المالية التابعة لخزينة الدولة، وكان يمسك بتدوينات مرتبات جند السوارية والمشاة للقابوقولو، وكان يُقابل هؤلاء بدفتر الخزينة الرئيسي، وكان يسجل مقدار النقود الذي سيخرج من الخزينة للرواتب. وقبل وقت كل راتب أو علوفة كانت تسلم صور دفتر الراتب لقلم الروزنامجي.
وقد انقسم هذا القلم أي مقابله جي إلى قسمين مختلفين. القسم الأول هو «بياده مقابله جي» وهو الذي يرعى مرتبات جند المشاة للقابوقولو. والقسم الآخر هو «سواري مقابله جي» وهو الذي يرعى مرتبات السوارية. وكان يطلق على رؤساء هذه الأقلام «مقابله جي».
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 229.

(٢) تذكره جي : تعني كلمة «تذكره جي» في التركية كاتب التذاكر. وهو مدير القلم الخاص للوزراء العظام والوزراء الآخرين. وكان كاتب تذاكر الصدور العظام أميرًا أيضًا لقلم الصدارة. وكانت عروض الحال التي تقدم لمقام الصدارة العظمى سواء في الديوان الهمايوني أو ديوان العصر كان يقرأها هؤلاء بصوت عال.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 334.

(٣) الموافق ١٦٠٧ ـ ١٦٠٨م.

الكثير من الأشقياء عند طرفه الآخر، وكانت فرسان المذكور وجنده المشاة من فرق «سكبان» أكثر من أربعين ألفًا، وبسبب غروره الزائد، لم يضع في اعتباره جند الإسلام، وعلى الفور، قام بتنظيم طوابيره سعيًا لأن يمحو عسكر الإسلام من عرصة العالم في الوهلة الأولى. وهجموا عليهم، وأحاطوا فلك «أثير» بغبار الحرب والضرب.

ويُروى عن بعض الثقات، كما يؤكد الذين يروون عنه ما سمعوه منه مباشرة بالأيمان، بأن المومأ إليه «جان بولاد زاده» قد أرسل خطابات الرجاء عدة مرات إلى الوزير الأعظم المعتاد الجهاد، حيث طلب منه ما يلي: «إذا كان المطلوب هو محو وجودي، فأرسلوا أحد رجالكم الذين يعتمد عليهم، وليقطع رأسي في خيمتي، ويحملها إلى مجلسكم الموقر، وإذا كان المطلوب هلاك الأشقياء أيضًا على هذا النحو، فاتركوا «حلب» لعبدكم، ولنتوجه كلنا سويًا إلى القزلباش، وعندئذ ينبغي أن أكون «چرخه جي»؛ أي طليعة أو مقدمة لكم. فإما أن أَقتل أو أُقتل، وليُقتل هناك من يُقتل، أما الذين لم يقتلوا، فيمكن أن نقضي عليهم جميعًا بسهولة ويسر بوضع بعضهم في القلاع وبالتخلص من بعضهم بطريق آخر».

ولكن المرحوم «مراد باشا» لم يصغ قط لهذه الأخبار المتواترة قائلًا هذا المصرع: ﴿هل رأيت قط أن يحمل على العدو بغير السيف﴾، ولم يضم الذين تجمعوا ولو مرة واحدة تحت راية العصيان إلى جيش السلطان، ولم يقبل توبته وطاعته، ولم يسلك مُطلقًا طريق الاستمالة مع الأشقياء.

وخلاصة القول، وفي اليوم الثالث من رجب من السنة المذكورة[1] نزل جنود الطرفين إلى المكان المذكور، ويُروى أنه لما وضع «جان بولاد زاده» احتمال الصلح أمام عينيه، بدأ يمنع أشقياءه من القتال، وتوسط جنوده من السكبان الذين هزموا طليعة جند الإسلام المتقدمة يعني طائفة «چرخه جي»، وفي الحال خاطبهم وناداهم بقوله: «أيها الجبناء، أيها المراءون، أيها المنافقون، يا أبناء الجبناء»، وأورد على لسانه كل ما جاء

(١) الموافق يوم الأحد ٢٥ـ١٠ـ١٦٠٧م.

من كلام رطب ويابس، وقال ما قال ووعد ما وعد، وأطلق سراحهم، ثم أتى ووقف تحت رايته المنكوسة، وسارت طوابير عسكر الإسلام من هذا الجانب أيضًا متعقبين بعضهم. وكان المرحوم «تيرياكي غازي حسن باشا» آنذاك أميرًا لأمراء الروم إيلي، وكان المرحوم «إسكندر باشا» كتخداه، فحمل هؤلاء مع غزاة الروم إيلي - الذين يرتدون جلود ذئاب وذوي تيجان مصنوعة من جلد الذئاب أيضًا وأحذية سوداء - على نحو يمكن فيه اصطياد الأسد، وردوا طائفة سكبان المتقدمة على أعقابهم، ومن ذلك الوادي، بعثوا بعدة آلاف من الملاعين إلى وادي جهنم، وأرسل «قوجه مراد باشا غازي» فرقة من جند السلحدار في أعقاب هؤلاء، وهو أيضًا أخرج سيفه من نوع «غداره» من غمده ووقف ثابت القدم في ميدان المعركة.

وعلى الفور، لما رأى «جان بولاد زاده» زحف جند الإسلام، أطلق مدفع الهرب مع فرق جند المؤخرة. وكانت طائفة السكبان التابعين له والذين كانوا في المقدمة، كانوا لا يزالون في المعركة، وفي أخذ وإعطاء الرأس والروح، فلما رأى هؤلاء أيضًا هجوم جند الإسلام وهروب قائد الأشقياء مع أشقيائه الذين كانوا يقومون بمهمة حراسة المؤخرة، أسرعوا في لهفة لإنقاذ رءوسهم، وانحاز كل واحد منهم إلى جهته التي جاء منها؛ وانهزموا تمامًا، وتركوا ذخائرهم ومؤنهم. ولما كان معهم في تلك المعركة «موجي باشا» الذي هو أفضل فصحاء وبلغاء الروم، وأستاذ بلا نظير في النظم والنثر، فقد وضع هذا التاريخ المنقوش وأرخه لفظًا ومعنى، والحقيقة فقد ضرب عملة البلاغة في وجه السماء بقوله: «انكسر السكبان في ألف وستة عشر».

وجاء «جان بولاد» من هناك متوجهًا إلى «حلب»، حيث عين السكبان المشهور والمعروف باسم «جمعه بلوك باشي» لحفظ القلعة. أما هو فقد علق سيفه وكفنه في رقبته، وتوجه إلى الآستانة السلطانية، وكتب رقعة كان مضمونها: «سأذهب لأمرغ وجهي بتراب الركاب الهمايوني السلطاني، ولو أراد العفو عني، فليعفو. ولو أمر بقتلي، فليأمر»، ثم أرسلها مع عمه «حيدر بك» و«حسين كتخدا»، وعلى هذا، أحسن السلطان صاحب السعادة عليه بخط شريف قائلًا فيه: «عفوتُ عنك»؛ واحتجز عمه في الحديقة الخاصة؛ وأصحب «بوستانجي باشي» إلى «حسين كتخدا»، وأرسلهما.

قيام الشقي المعروف باسم «قلندر أوغلو» بالإغارة على «بروسه» وتخريبها سنة ١٠١٦ هجرية

بعد أن قام «مراد باشا» الموصوف بالشجاعة بالتوجه إلى «جان بولاد زاده»، قام العجوز «قلندر أوغلو» و«قرة سعيد» والعجوز «أغجه دن» بالإغارة على مدينة «بروسه» مع حوالي ثلاثين ألفًا من الأشقياء، وخربوها، وقاموا بالسلب والنهب لفترة كبيرة في تلك المدينة التي ليس لها نظير، حتى إن الغنائم التي استولوا عليها والمفاسد التي ارتكبوها كانت غير قابلة للتعبير والتعداد، وصار الكثير من أغنيائها فقراء وجوعى، وصار أصحاب المال الكثير أيضًا يحتاجون للفلس الأحمر.

في ذكر نهاية أمر «جان بولاد زاده»

لما عزم على التوجه من «حلب» إلى تراب باب الدولة مع حوالي خمسمائة أو ستمائة من رجاله، قام «قلندر أوغلو» وسائر رؤساء الأشقياء الذين كانوا بجانبه بإرسال عدة آلاف من الرجال إليه؛ واستقبلوه وأحضروه إلى مقر جيشهم عديم المنفعة، وقام «قلندر أوغلو» بتعطيله لفترة قائلًا: «أنا أيضًا سأذهب معك إلى السدة السلطانية وأرجو من السلطان المرحمة والرعاية». وفي النهاية، كُلف «جان بولاد زاده» بأن يكون على الفكر نفسه والطريق نفسه الذي هم عليه، وأن يستمر في رفع راية العصيان والطغيان. أما «جان بولاد زاده» فكان قد أكل من جند الإسلام ضربة بالقدر الذي جعلته يندم ندمًا عظيمًا على عصيانه، ولما لم يقبل «جان بولاد زاده» ذلك، أرسل «قلندر أوغلو» عليه مائة أو مائتين من جند السكبان، ووضعه في حبس انفرادي محكم.

وفي تلك الأثناء، أتى «حسين» كتخدا «جان بولاد زاده» مع «بوستانجي باشي» من الجانب السلطاني إلى «بروسه»، وبقي «بوستانجي باشي» في «بروسه»، وأرسل «حسين» مع واحد أو اثنين من طائفة بوستانجي إلى «جان بولاد زاده»، وفي تلك الليلة، كان قد صدر من «جان بولاد زاده» ما صدر، وتحين الفرصة وقام بالفرار مع رجلين أو ثلاثة

من رجاله، ولم يتوقف في أي مكان قط حتى وصل إلى «بروسه»، وبعد أن مرغ وجهه بتراب الركاب الهمايوني للسلطان صاحب السعادة، قام السلطان صاحب السعادة باحتجازه أسبوعًا في الحديقة الخاصة؛ وكان يأمر بإحضاره إلى مجلسه الموقر كل يوم، وكان يناقش معه العديد من الأمور، ولما كان «حسين باشا زاده مصطفى باشا» الذي وجد تمام الرعاية في عصر «مراد خان»، والذي كان «مير آخور» أي أمير إسطبل، ثم بعد ذلك ارتقى إلى درجة قبطان، والذي أمر الوزير الأعظم والسردار «محمد باشا» بقتله في «أرضروم» عندما كُلف بقيادة الجند حينما كان وزيرًا خامسًا ـ لما كان في ذلك الوقت صغيرًا، ألحقه السلطان صاحب السعادة بخدام الحرم الهمايوني، وأحسن بـ «طمشوار» على «علي باشا» المومأ إليه والذي كان مشهورًا بلقب «جان بولاد زاده».

وبينما كان «جان بولاد زاده» يحسن المعاملة والألفة لكل شخص دون تمييز بين الفقراء والأغنياء في تلك الحدود لأكثر من سنتين، قام «غازي مراد باشا» في تاريخ ١٠١٨ هجرية[1] بالقضاء على العصاة وقمعهم، ثم أتى إلى «إستانبول»، وهناك قال: «بينما هو واضح أن «جان بولاد زاده» أيضًا من العصاة، فلماذا يجب أن يُترك سليمًا هكذا؟»؛ فأرسل أمرًا شريفًا بالقبض عليه، وكان المرحوم «خادم گورجي محمد باشا» في مقام السردار في بلغراد، وكان الوزير «علي باشا» صهر «مراد باشا» أمير أمراء «بدون» وكان مجتنبًا جدًا قتل النفس وحتى الأمر بقتلها، ويروون أنه أحاط «جان بولاد زاده» علمًا بالأمر قائلًا له: «لا تأتي إلى بلغراد». ولكن، كان قد حان أجله، وكان قد قبض مخلب يد القضاء على قبة ثوب حياته، وجذبه وأحضره إلى بلغراد، وبينما كان ذاهبًا بعد أن التقى بـ «علي باشا»، كان «دياق محمد باشا» في ذلك الوقت رئيس خدم الباب، وقد ورد إليه أيضًا أمر شريف آخر، فقبض عليه وزج به في القلعة، وبعد أربعين يومًا مات مخنوقًا بالقلعة. رحمة الله تعالى عليه.

ويروى أن السلطان صاحب السعادة لم يكن راضيًا بقتل «جان بولاد زاده»، حتى إنهم يروون أن المرحوم «مراد باشا» عرض الأمر على السلطان بقوله: «لقد توفي

---

(١) الموافق ١٦٠٩م.

من مرض السرطان»، وكان المرحوم «مراد باشا» رجلًا غيورًا جدًا وصاحب دولة ومضطرًا للمحافظة على ناموس السلطنة، وكان لم يثق قط في إيمان ولا في إسلام ولا في توبة الشخص الذي يعلن العصيان ولو مرة واحدة، وذلك بموجب فحوى المصرع: *اليهودي لا يؤمن، والرجل الملحد لا يتوب* وكان يعتقد بأنه لا يمكن إحضاره إلى الطريق المستقيم بأي وسيلة سوى القتل.

قيام الوزير الأعظم «مراد باشا» المغوار بفتح «حلب» بعد القتال والاستيلاء عليها وقضائه ذلك الشتاء في تلك المدينة

لما هلك واندثر أشقياء «جان بولاد أوغلو» تمامًا بفضل الله تعالى، قام الوزير عالي القدر بعقد العزيمة على التوجه إلى جانب «حلب» الشهباء، وقام بضرب الخيام عند منزل على بعد مسافة من المدينة وعسكر هناك مع عسكر الإسلام، ومن ذلك المكان أرسلوا رجلًا يحمل تعهدًا بإمارة سنجق توجه إلى «جمعة بلوك باشي» الذي أبقاه «جان بولاد أوغلو» لحماية القلعة الداخلية لـ «حلب» الشهباء، وهذا أيضًا لما فكر في عاقبته، أعلن الطاعة، ونجا من حالة التردد التي كان يعاني منها، وفي اليوم التالي نزل جملة عسكر الإسلام في «گوك ميدان»؛ ودخلوا المدينة والقلعة. وكان المرحوم «باقي باشا» آنذاك دفتر دارًا، وقد حصّل مالًا وفيرًا بدعوى أنه مال «جان بولاد أوغلو». وأمضوا ذلك الشتاء في تلك المدينة التي لا نظير لها بكمال الصفاء والسرور.

قيام السردار المومأ إليه بتجريد الجند على «قلندر أوغلو» سنة ١٠١٧ هجرية[1]

لما هل ربيع الأول، قام السردار المومأ إليه بصرف ما في وسعه في جمع العسكر الكثيرة، وعزم بهؤلاء على التوجه إلى «قلندر أوغلو» و«قرة سعيد» والعجوز «أغچدن» وأيضًا

---

(١) الموافق سنة ١٦٠٨ - ١٦٠٩م.

إلى أكثر من ثلاثين قائدًا من أقران هؤلاء وما يربو على ثلاثين ألف جندي من أرباب الطغيان. والتقى بهم في ساحل «كوكسون» التابع لإيالة «مرعش»، ونشبت معركة عظيمة وجدال وحرب وقتال بتلك الدرجة التي أثنت عليهم ومدحتهم بها الملائكة التي في السماء، وفي النهاية، هب نسيم النصر على جانب الإسلام، وهرب هؤلاء القوم المنحوسون، وقُتل من عدماء الدين ذلك القدر الذي لم يكن ممكنًا إحصاؤه، حتى إن الذين تم تعقبهم والقبض عليهم وقتلوا بأمر الوزير الجليل، كانوا أكثر من المقتولين في عرصة القتال.

وفي أوائل هذه السنة المباركة، كانت الآستانة السعيدة قد وجهت إيالة «الروم إيلي» إلى «أتمكجي زاده وزير أحمد باشا» من أجل توصيل عسكر «الروم إيلي» إلى السردار قبل بدء القتال. ولكن وصل بعد المحاربة، ومع هذا، فقد نُظر إليه بعين الرعاية، وأعز وأكرم بالخلع الفاخرة، وأتى «مصطفى باشا» أمير أمراء «ديار بكر» وأمير أمراء الشام أيضًا بعد ذلك، وأعز وأكرم كل واحد منهم على النحو اللائق، ولم يعاتبوا على الإطلاق بالقول: «أتيتم متأخرين»، ولم يسمعوا من السردار أي كلام زاجر، وعمل الوزير المؤيد بالنصر بمضمون القول: «العفو زكاة الظفر»، وبعد ذلك أتوا إلى «سيواس»؛ وبقوا بها ثلاثة أيام؛ حيث نصبوا الخيام هناك واستراحوا بها.

قيام الوزير الجليل بالهجوم على من يدعى «طويل» وشده لقوس قدرته في السنة نفسها

أصدر «مراد باشا» في المنزل المذكور «سيواس» فرمانًا إلى جملة عسكر الإسلام يقول فيه: «فليعد كل شخص احتياجاته البسيطة والخفيفة في الحمل والزاد الذي يكفي لسبعة أيام فقط، وليبذل ما في وسعه للقيام بهجوم خاطف»، وحتى هو أي «مراد باشا» لم يأخذ أي شيء سوى الأشياء التي تكفي احتياجاته الأولية، وخيمة ذات ثماني خزائن. ونفذ الوزراء والأمراء وجملة العسكر فرمان قائد العسكر، ولم يحضر أي شخص حصانًا أو حيوانًا خلاف ما يكفي احتياجاتهم.

وبالتحرك من «سيواس»، وصلوا في اليوم السابع إلى صحراء «أحشامات» التابعة لأرضروم، التي كانت على بعد عشرة أو اثني عشر منزلًا من المكان المذكور «سيواس»، ولكن لم يغير الوزير الجليل عمامته السليمية في ظل هذا السير العسير بهذا القدر وفي التعب الكثير بتلك الدرجة، ولم يحد خطوة عن طريق الوزراء السالفين، وإنني أعرفه منذ أن كان أمير أمراء، كان لا يتعمم بالعمامة من نوع «قلاوى» مثل سائر أمراء الأمراء، وكانت العمامة التي يرتديها تعرف باسم «پريشاني دستار» ذات مخيط غليظ غير منتظم، وكان لا يغيرها سواء في وحدته أو في الديوان أو في الحصن أو في أثناء الهجمات أو أمام الطوابير أيام القتال، وأيًا ما كان الوضع الذي هو فيه فإنه بموجب عرض وشرف الدولة المتبع منذ القدم، كان يهتم بالوضع القديم وكان لا يختار وضعًا جديدًا كل يوم مثل أرباب الدولة الذين يظهرون بالجديد ويبدون الشغف بالحديث.

وعلى كل حال، كان عدد العسكر الذين خرجوا لهذا الهجوم لا يزيدون عن خمسة عشر ألفًا. أما عسكر الأشقياء فكانوا يبلغون أربعين ألفًا، ولما شن جند الصدر الأعظم المهاجمون في المكان المذكور صحراء «أحشامات» هجومهم على «طويل» العويل وسائر الأشقياء واجبي التذليل، أوقعوا بهم العقاب بعون الله، وعلى الرغم من أن الملاعين حاربوا وجادلوا كثيرًا وقاتلوا أكثر مما في قدراتهم، فإن عناية الباري كانت مع جند الإسلام؛ ففضل الملاعين الفرار إلى جانب القزلباش منهزمين، وقام غزاة الإسلام بتعقبهم، وأسروا الكثير منهم، وأحضروهم إلى الوزير الجليل، ونالوا الإنعام والإحسان الوفير منه، وبعد ذلك؛ أمر الوزير الذي بلا نظير بحفر الآبار، وأمر بإرقاد الملاعين الذين أحضروهم عند حافة البئر، وبقطع رقابهم الواحدة تلو الآخرى، وبهذه الطريقة كان يمتلئ بئر أو بئران كل يوم؟ كان من الضروري حفر بئر آخرى من جديد. وفي النهاية، لقب «مراد باشا» بـ «قويجي قوجه»؛ وملأ الدنيا ضجيجًا، وبهذه الطريقة لم يُقضَ على الذين يعرفون باسم «جلالي» أي عاصي فحسب، وإنما أيضًا على كل الذين كانوا يطعمونهم ويسقونهم وحتى الذين كانوا يجاورونهم.

في ذكر توجه الوزير الشجاع المومأ إليه
إلى الآستانة السعيدة

بعد أن فر «طويل» الواجب التذليل إلى القزلباش مع رجاله المنهزمين الذين كانوا بجانبه، عاد الوزير الجليل؛ ونصب الخيام في صحراء «بايبورد»؛ حيث استراح في ذلك المنزل حتى «يوم قاسم» أي بداية الشتاء. وفي ذلك المكان، أذن بالأنصراف لـ «أتمكجي زاده»، وأرسله إلى الآستانة السعيدة، وبعد أن أقام أربعين يومًا هناك، وعند حلول أيام قاسم أي بداية الشتاء، توجه إلى باب الدولة، ووصل إلى السدة السعيدة بكثير من الإعزاز والإكرام، ونال التفات واعتبار أكثر مما يتوقعه من الجانب السلطاني. وأمضى ذلك الشتاء في الآستانة بكمال المسرة والسرور، وقام بصرف ما في وسعه في دفع الكثير من المظالم، وأدخل السرور على كثير من الأيتام بتقديم المساعدة لهم.

العبور إلى ساحل «إسكدار» ودفع الشرور
بقتل «يوسف باشا» في سنة ١٠١٨ هجرية[1]

لما هل موسم الربيع، تظاهر «يوسف باشا» كتخدا «أويس باشا زاده» وكان من أرباب الطغيان الذين ظهروا في نواحي «آيدين» و«صاروخان»، وأيضًا «پرمقسز» و«صورنا» اللذين كانا من قادة الأشقياء في نواحي «بروسه» والعديد من الأراذل أمثال هؤلاء تظاهروا بالطاعة والانقياد على نحو ملتو وغير مستقيم؛ وقاموا بفرض الأقچة على رعايا بعض المدن والقرى؛ وأخذوا طعامهم بلا ثـمن ومجانـًا، فلما بلغت أنواع تجاوزاتهم وجورهم إلى حد التواتر، قام السردار بالعبور إلى جانب «إسكدار» بنية دفع ورفع هؤلاء أي القضاء عليهم، وبعد أن سلك مسلك الاستمالة مع كل واحد من هؤلاء، استطاع القبض على بعضهم، وقضى عليهم خفية، وراح يوجه الوظائف والخدمات لبعضهم الآخر؛ حيث تمكن من محو وجودهم الذي بلا فائدة من وجه العالم

(١) الموافق سنة ١٦٠٩م.

في تلك الأماكن التي وصل إليها كل واحِد منهم، ومن جملة هؤلاء أن «يوسف باشا» المذكور أُحضر مع كتخداه ومع سائر رجاله إلى «أسكدار» بالوعود الكثيرة الخادعة والاستمالة؛ حيث كان السردار يعاملهم معاملة الوالد والولد ويبرز المحبة والألفة لهم، حتى إنه كان لا يتناول الإفطار دونهم، ولا يأذن بشرب القهوة ما لم يكونوا موجودين بجانبه، ولما مضت فترة من الزمان شهر أو شهران على هذا النسق، أمر في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام بخنق «يوسف باشا» في خيمته، وبخنق كتخداه في خيمة «عمر كتخدا»، ولما أمر بالقبض على سائر رجاله أيضًا في الجيش وفي خيامهم واحدًا واحدًا، وقتلهم، أراح تلك الممالك وربما العالم من شرورهم، واكتفى في هذه السنة بالقيام بهذا الحجم من الخدمة، وعبر إلى جانب «إستانبول» مرة أخرى، وأمضى ذلك الشتاء في «إستانبول» بكمال المسرة والسرور مشغولًا بمهمات حملة العجم أي إيران. التي سوف تكون في ربيع الأول.

في ذكر توجه الوزير الجليل إلى جانب القزلباش سنة ١٠١٩ هجرية(١)

لما هل ربيع الأول، عزم الوزير عالي المقدار مع عساكر الإسلام التي النصر لها شعار على التوجه إلى جانب القزلباش مباشرة، وما إن وصل إلى «تبريز» قاطعًا المنازل حتى قام أهالي «تبريز» جميعهم بترك ديارهم، وهرب كل واحد منهم إلى ناحية، وتركوا تلك المدينة التي بلا نظير خالية وخربة على هذا النحو، وأتى عسكر الإسلام أيضًا وخربوا أكثر مواضعها وحرقوا بعض بيوتها ومساكنها القابلة للحرق، وبعد ذلك عادوا، وعزموا على التوجه صوب «ديار بكر» من أجل تمضية الشتاء بها، وقد أمضى الوزير الجليل ذلك الشتاء في «ديار بكر»، وأعطى إذن الانصراف لعسكر الإسلام، وقام بتعيين المشاتي المناسبة لكل شخص.

---

(١) الموافق سنة ١٦١٠م.

رحيل السردار ذي الوقار من العالم الفاني بينما كان يجمع العسكر وعزمه إلى دار البقاء سنة ١٠٢١ هجرية[1]

لما هل ربيع الأول، قام السردار «مراد باشا» بنصب الخيام في صحراء «چولك» الواقعة قرب «ديار بكر» من أجل جمع العسكر المنصورة، وبينما كان يبذل الجهد البالغ في جمع العسكر، فاجأه أجله المقدر بإرادة الحي القدير، وفي ذلك الموضع، ترك العالم الفاني وانتقل إلى الحياة الباقية، وأرسل نعشه المحفوف بالرحمة إلى تربته الواقعة في «إستانبول»، رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر اعتلاء «نصوح باشا» مقام السردارية في السنة نفسها

لما كان الوزير الشجاع «نصوح باشا» الذي يشبه «أرسطو» في التدبير موجودًا في الجيش الهمايوني آنذاك، قام بأخذ أثواب وأرزاق المرحوم «مراد باشا»، وأرسلها سويًا مع الختم الهمايوني إلى الآستانة السعيدة، وعرض ما جرى، وقام بأمور السردارية في الجيش كما ينبغي. وانتظر منحه ختم الوكالة الكبرى أيضًا. حتى إنه قام بحبس كتخدا المرحوم «مراد باشا» «عمر كتخدا»، ورئيس خدم بابه «صاري حسين أغا» اللذين كانا مسموعا الكلمة وكانا يقدمان الخدمات ـ في قلعة «ديار بكر»، وأمر بخنقهما بينما كانا محبوسَيْن هناك، وبعد ذلك أمر بإلقائهما من فوق سور القلعة إلى أسفل؛ وكأنهما قاما بالفرار من القلعة، وسقطا بصنيعهما هذا، وتكسرت أقدامهما وتوفيا. وقام أيضًا بكثير من الجور ضد سائر مقربي المرحوم «مراد باشا».

تعيين «نصوح باشا» وزيرًا أعظم وطرحه الصلح مع القزلباش

لما وصل الختم الهمايوني إلى مجلس السلطان المقرون بالظفر، وعلى إثر رؤية الوزارة

---

(١) الموافق سنة ١٦١٢م.

العظمى والسردارية لائقة بذلك الوزير الذي ليس له نظير، أُرسل إليه ختم الوكالة، ولوحظ أيضًا أن شرف النسب بالسلطان صاحب السعادة لائق به أيضًا، وفي ذلك الحين؛ جاء شخص من القزلباش أصحاب المذهب الضال معروفًا باسم «قاضخان» وكان شخصًا صاحب معرفة وإذعان وفي مقام «قاضي عسكر» بينهم، جاء برسالة من جانب الشاه، وكان «نصوح باشا» في هذه الأيام موجودًا في «ديار بكر»؛ فقام بأخذ هذا الشخص معه ورافقه إلى السدة السعيدة، وجعله يُقبل يد السلطان صاحب السعادة، وعُقد الصلح بين الطرفين على أن يُرسل القزلباش كل سنة مائتي حمل حرير ومائة حمل أقمِشة وبعض الأمتعة التي ليس لها نظير، ولما سلم «قاضخان» الأشياء الخاصة بتلك السنة إلى الخزينة السلطانية، قفل عائدًا إلى مملكته بعد شهرين.

قيام «نصوح باشا» بالزواج من بنت السلطان حامي العالم

لما عاد الوزير المومأ إليه إلى الآستانة السعيدة، كان قد صرف ما في وسعه في ترتيبات العرس المحاط بالحبور، وكانت قد أُعدت كل الترتيبات كما ينبغي، فبعدما ذهب السفير بدأت مراسم العُرس؛ حيثُ أعدت ثلاث أشجار نخيل موزونة وسائر أسباب العرس المقرون بالبهجة بحسب العادة المعمول بها منذ القدم، ولما أصبح صهرًا للسلطان حامي العالم، تضاعف قدره وشرفه، ولكن كان عمر تلك العفيفة التي لا نظير لها لم يبلغ بعد الثالثة عشرة سنة.

في ذكر توجه حضرة السلطان صاحب السعادة وحامي العالم إلى «أدرنه»

وبعد هذا العرس، أراد السلطان صاحب السعادة العادل بطبعه أن يشرف عرش «أدرنة» التي كانت دار الجهاد لأجداده العظام الذين مأواهم الجنة؛ فتفضل بالتوجه إليها في اليوم التاسع من شوال المكرم الموافق الثالث عشر من تشرين من السنة المذكورة

أي ١٠٢١ هجرية[1]؛ فجعل بقدومه الموجب للسعادة جنة الفردوس تحسد دار السلام هذه، ذات المقام العالي.

وفي هذا الحين وأثناء الطريق، خرج بعض الشاكين من «أتمكجي زاده»، وقاموا بعرض شكواهم على السلطان صاحب السعادة؛ فقام السلطان صاحب السعادة بعزله من رتبة دفتر دار، وعهد إليه بإيالة «قرمان»، وبعد ذلك، نُقل إلى حلب على إثر توسله لجناب الوزير الأعظم، ولكن شاع على لسان الناس أن الشاكين هؤلاء كانوا قد خرجوا بتحريض من الوزير الأعظم.

وأمضى السلطان صاحب السعادة ذلك الشتاء في «أدرنه» بكمال السرور والصفاء، ولم يفرغ في أكثر الأيام من الصيد والقنص، حتى إنه اجتمعت أنواع من الوحوش الزائدة عن الحد في مكان معين ليمتد الصيد عبر الطريق الذي يستغرق مسيرة ثلاثة أيام وأيضًا عبر بعض الصحارى والبوادي؛ وأصبح ذلك الوضع باعث مسرة للسلطان حامي العالم وباعثًا على العبرة لأرباب العقول، ولما هل ربيع الأول، تفضل بالعودة ثانية إلى القسطنطينية دار السلطنة المحمية.

عودة السلطان صاحب السعادة ثانية إلى عرش «أدرنه» في سنة ١٠٢٢ هجرية[2]

بعدما أمضى حضرة السلطان أوقاته الهمايونية في الترفيه والصفاء في فصل الصيف والخريف لتلك السنة في السراي العامرة الهمايونية وأحيانًا في الحدائق الشبيهة بالجنة الواقعة في جانب «أسكدار»، وعند اقتراب أيام الشتاء ثانية، تفضل بالتوجه إلى ناحية «أدرنه»، وأمضى معظم أيامه المحفوفة بالنصر في الصيد والقنص على المنوال الذي كان في السنة الماضية. ولما هل ربيع الأول، توجه السلطان إلى جانب دار السلطنة العلية مرة أخرى.

(١) الموافقة سنة ١٦١٢م.
(٢) الموافقة سنة ١٦١٣م.

قتل «نصوح باشا» في سنة ١٠٢٣ هجرية[١]
بسبب قيام أهالي «قزاق» العاقين بحرق قلعة «سينوب»

بينما كان السلطان صاحب السعادة وحامي العالم في السنة المذكورة يمضي أيامه في هناء وسرور في عرش القسطنطينية المحمية، قام أهالي «قزاق» الذين شقوا عصا الطاعة بإحراق قلعة «سينوب»، وأسروا نساء وصبيان كثيرين، وأسروا رجالًا لا حصر لهم من الفقراء والأغنياء، وشاع أيضًا أنهم قاموا بقتل كثير من الأشخاص وألحقوهم بالخلد السعيد، وجاء المستغيثون إثر بعضهم بعضًا، وعلا نحيبهم واستغاثتهم إلى عنان السماء. ولما استفسر السلطان صاحب السعادة من «نصوح باشا» عن الأمر، أخفى عليه الحقيقة. وعندما سأل «شيخ الإسلام» عن الأمر، أخبره بحقيقة الحال، وعلى هذا، ولما ظهر كذب «نصوح باشا» أمام السلطان، توجه «بوستانجي باشي» مع بعض الجلادين إلى «نصوح باشا»، وهجموا عليه بينما كان في قصره، وربما كان في مكان واحد مع زوجته ابنة السلطان، فيقومون برفع ابنة السلطان ويضعونها أمام نافذة الحجرة التي كانوا بها، وينهون أمر الباشا، وصدر الأمر من الجانب السلطاني بأن يُدفن قرب مرقد الوزير الأعظم المقتول «إبراهيم باشا» محبوب ومرغوب المرحوم السلطان «سليمان خان»، فقاموا بالفعل بدفنه في ذلك المكان، رحمة الله تعالى عليه، وكان ذلك يوم الجمعة في ١٣ من رمضان سنة ١٠٢٣ هجرية[٢].

تعيين الوزير الثاني «محمد باشا» وزيرًا أعظم
ومحاصرته قلعة «روان» وعودته بلا فتح سنة ١٠٢٤ هجرية[٣]

عُهد بمقام الوزارة العظمى إلى «محمد باشا» الذي كان وزيرًا ثانيًا وصهرًا للسلطان أيضًا، ومن ناحية أخرى، لم يف بالعهد الذي تعهد به من قبل، فبينما تعهد بإرسال مائة

---

(١) الموافقة سنة ١٦١٤م.
(٢) الموافق ٢٤-٨-١٦١٤م.
(٣) الموافق سنة ١٦١٥م.

حمل حرير ومائة حمل أقچة وبعض الأمتعة التي لا نظير لها كل سنة، فقد مرت سنة وستتان دون أن يرسل شيئًا من هذا، ولما قال: «هل لزامًا عليّ أن أدفع الخراج؟!»، عُين المشار إليه «محمد باشا» سردارًا وقائدًا على حملة القزلباش.

ووصل «محمد باشا» وقام بمحاصرة قلعة «روان» حوالي شهرين من الزمان. وبينما كان على وشك فتح القلعة، سلك الشاه الضال طريق الحيلة، وأرسل الرجال قائلًا: «لنعقد الصلح». وعلى هذا، قام بتأخيرهم بهذه الحجة لعدة أيام، وأمر ببناء الأماكن التي كانت قد تهدمت من القلعة، وفي النهاية، عندما لم يبق أي احتمال للتغلب على من في القلعة، رأى السردار ضرورة عقد الصلح، وبالفعل جددوا الصلح الذي كان قد عقد مع «نصوح باشا» على أن يعطي الشاه نصف الهدايا والحرير.

وكانت قد ادخرت الذخيرة كلها والأنواع المتعددة من مهمات الحرب والقتال وعدة قناطير من البارود الأسود وسائر اللوازم والمهمات التي كانت زائدة عن الحد والحصر في الجيش الهمايوني من أجل تركها في القلعة عندما تُفتح، فلما حدث هذا الصلح، وهبوها كلها للشاه وذهبوا قائلين: «لقد قمنا بالصلح كما ينبغي!!».

تعيين «خليل باشا» وزيرًا أعظم
وتنصيبه سردارًا على القزلباش سنة ١٠٢٦ هجرية

لما علم السلطان الغيور أن الصدر الأعظم محمد باشا قام بتضييع الأوقات وبإتعاب جند الإسلام بلا فائدة في حملة «روان»، وأنه انخدع بمكر الشاه المكار، وأنه قام بترك الذخيرة والبارود والعتاد الحربي ولوازم القتال الكثيرة للشاه، غضب غضبًا شديدًا على «محمد باشا»؛ وقرر إعطاء الصدارة العظمى إلى وزير آخر، وقبل عدة شهور، كان قد عُزل «گورجي خادم محمد باشا» من منصب قائم مقام، وعُين مكانه «أتمكجي زاده أحمد باشا»، وطبقًا لظنه وحسن اعتقاده أنه لن تُعطى هذه الخدمة العلية أي الصدارة العظمى لغيره، والآن أراد السلطان صاحب السعادة عقد المشاورة بخصوص هذا

الموضوع؛ فأمر أن يجتمع في الصباح الباكر في الحديقة الخاصة كل من شيخ الإسلام وسائر الوزراء والأعيان، ودخل شيخ الإسلام المرحوم «أسعد أفندي» إلى المجلس الهمايوني قبل جميع الأشخاص، وعندما صرح السلطان صاحب السعادة بأنه عزل «محمد باشا» من منصب السردارية، وأنه يريد تنصيب شخص آخر مكانه، يدلي المرحوم «أسعد أفندي» أيضًا برأيه قائلًا: «أليس من الضروري توجيه السردارية إلى «قائم مقام أتمكجي زاده» بحسب الطريق». فيتفضل السلطان صاحب السعادة أيضًا بالرد بقوله: «لقد وقفت على بعض كذبه، فلا أعطيها له». فيصدق «أسعد أفندي» على ذلك أيضًا بقوله: «إنه كذاب وظالم». وعندما تفضل السلطان صاحب السعادة بالسؤال: «أنتم ترون من مناسبًا؟»، يجيب «أسعد أفندي» قائلًا: «إن المعلوم الهمايوني أن عبدكم «خليل باشا» قام بما يبعث على الشرف كثيرًا أثناء شغله لرتبة قبطان، ولو فضل غيره، فالأمر للسلطان». ويتفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث: «إنني أريد أن أوجهها له». وبعد ذلك يسلم «أسعد أفندي» على السلطان ويذهب.

وبعد ذلك يدخل «أتمكجي زاده»، ويسأله السلطان صاحب السعادة السؤال نفسه [الذي سأله لشيخ الإسلام «أسعد أفندي»]، فيقول «أتمكجي زاده» على الفور: «لو تأمر بهذه المهمة، فروحي ورأسي فداءً لإسعاد السلطان». فلا يجيب السلطان صاحب السعادة قط، ويسكت. وكان ذلك أيضًا المقصود «أتمكجي زاده» لا يشك قط في توجيهها إليه بعد شغله هذه المرتبة أي «قائم مقام»، ويخرج للخارج. ولما يأتي دور «خليل باشا» ويدخل، يتفضل السلطان صاحب السعادة بقوله: «لقد جعلتك وزيرًا أعظم وسردارًا. والآن سأرسل لك ختم الصدارة». فيقوم «خليل باشا» بتقبيل اليد ويخرج.

وبعد هذا، انصرف سائر الوزراء من الحديقة الخاصة دون أن يعلموا شيئًا عن ذلك. وعندما يصل «أتمكجي زاده» إلى قصره، يطلب الطعام ببشاشة الصدارة، ويبدأ بتناوله بصفاء خاطر، ولكن يراقب الطرق بأربعة عيون انتظارًا لمجيء ختم الصدارة. وربما وصل الختم الشريف إلى «خليل باشا» بعدما انصرف من الحديقة الخاصة مباشرة. وأرسل «چاوش» إلى سراي «أتمكجي زاده» لدعوة رئيس الكتاب. فلما يصل الچاوش يجد «أتمكجي زاده» على الطعام، فيقول لرئيس الكتاب «يازيجي زاده»: «تفضل، الوزير

الأعظم يريدكم». وعندما يرد رئيس الكتاب بقوله: «ها هو الوزير الأعظم يجلس على رأس المائدة»، يعرف الچاوش أن هؤلاء ليس لديهم خبر قط عن الأحوال؛ فيخبرهم بأن الختم الشريف قد وصل إلى «خليل باشا». وفي ذلك الحين، يقف الطعام على الفور في فم «أتمكجي زاده» وأتباعه. ويصاب كل واحد منهم بالدهشة، وتكف أيديهم وأرجلهم عن العمل.

وبعد ذلك، يبدأ «خليل بشا» بالتقيد والاهتمام والسعي والإقدام بمهمات الحملة كما يختار ويشاء، وكان قد كلف «چاق بك گراي خان» دامت معاليه الذي كان خان «دشت قبچاق» والـ «قيرم» ونافذ الأمر على شعب التتار، بهذه الحملة الهمايونية، وأرسلت له العطايا الوافرة من الذهب والأقچة أكياسًا أكياسًا، ولفات من الألبسة الفاخرة من الجانب السلطاني، وأرسل الرجال الأقوياء وأصحاب الإقدام بالخط الهمايوني المقرون بالسعادة لاستعجاله في التوجه إلى السردار.

ولكن قام «خليل باشا» بإهانة «أتمكجي زاده» وأتباعه. فأمر في البداية بضرب رقبة الشخص المعروف باسم «مهتر» من رجاله ـ الذي كان قد زاد تجاوزه عن الحد في بعض المهام التي قام بها وغالبًا ما كان قد قتل شخصًا من أتباع الوزير المومأ إليه ـ في الديوان الهمايوني، وأمر برد جملة الحقوق الواقعة في ذمة «أتمكجي زاده» إلى أصحابها وإلى الذين قالوا: «أعطيت الرشوة له»، وبينما كان «خليل باشا» عازمًا على التوجه إلى الحملة في ربيع الأول، وبينما كان ينوي توجيه رتبة قائم مقام الصدارة إلى «أتمكجي زاده»، وبينما لم يكن هناك احتمال مخالفة ذلك، فإنه وجه هذا المنصب إلى «صوفي محمد باشا» الذي كان متوجهًا في ذلك الوقت لحماية «بدون».

رحيل المرحوم السلطان «أحمد» من هذه السلطنة الصورية إلى دار البقاء في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هجرية[1]

إن سلاطين الدنيا والشحاذين الفقراء يتساوون في قبضة الأجل، فبينما كان المرحوم

(١) الموافق ٢٢-١١-١٦١٧م.

السلطان «أحمد خان» محبوب العالم والعالمين، وبينما لم يكن قد بلغ عمره الشريف في ذلك الوقت الثلاثين عامًا، فقد ابتُلي بمرض عظيم، وصار أسير سرير العناء حوالي خمسين يومًا، وفي النهاية ترك السلطنة الصورية، ورحل وذهب بالضرورة من هذا الممر إلى دار المقر. رحمة الله تعالى عليه.

قيام المرحوم «إسكندر باشا» أمير أمراء البوسنة بهزيمة فرق القزاق الذين استولوا على «بغدان» سنة ١٠٢٧ هجرية[1]

كانت زوجة الكافر المعروف باسم «أرميه» والي الـ «بغدان» سابقًا ـ التي كانوا يطلقون عليها اسم «دومنه» صاحبة أملاك وقلاع كثيرة في ولاية «له»، وكان الملعون المعروف باسم «قورسقي» من أمراء «له» وأيضًا من أمراء الروس الملاعين، صهرًا للمرأة المذكورة، وعلى هذا قام بجمع عشرين ألفًا من أشقياء الروس فقط والعدد نفسه أيضًا من العسكر الذين شكلوا من سائر كفار «له» من أجل الاستيلاء على ولاية الـ «بغدان» طوعًا وكرهًا وإعطائها لابن «أرميه» المذكور الصغير»؛ فجاء واستولى على الـ «بغدان»، وقام بهزيمة «إستفان ويوده» المُنصب واليًا من الجانب السلطاني، وطرده وأخرجه من البلاد. وعلى هذا قام السلطان صاحب السعادة بتعيين «سرخوش إبراهيم باشا» المتصرف على سنجق «سلستره»، وأمراء «بندر» و«آق كرمان» وعسكر التتار للتوجه إلى ذلك الجانب من أجل أن يقدموا العون لـ «إستيفان ويوده» المذكور حتى يستعيد الـ «بغدان» من جديد، وأرسلهم إليه، ولكن لما حملوا على الكفار، فبسبب أن أعداد الكفار كانت غفيرة، فقد عادوا منهزمين.

وفي تلك الأثناء، كان المرحوم «إسكندر باشا» معزولًا من ولاية «أكره»، وكان موجودًا بصورة دائمة في الآستانة السعيدة، وكان المرحوم «گورجي محمد باشا» قائم مقام الصدارة؛ فوجه «محمد باشا» إيالة البوسنة إلى المومأ إليه [إسكندر باشا]، وأمر

---

(١) الموافق سنة ١٦١٨م.

عسكر البوسنة و«إبراهيم باشا» بأن يتوجهوا مع عسكر «سرم» و«سمندره» و«آلاجه حصار» و«مجترين» وأيضًا «سلستره» إلى «بغداد».

ولما وصل هؤلاء الباشاوات [إسكندر باشا، إبراهيم باشا] مع عسكر الإسلام، التقوا بعسكر «دومنه» المذكورة قرب المدينة المعروفة باسم «إسنفاس» وهي من مدن «بغداد»، وبفضل الله تعالى، قاموا بهزيمتهم، وأسروا «دومنه» مع ابنيها، وأسر «قورسقي» الذي كان صهرًا لها مع زوجته التي كانت ابنة «دومنه» والتي كانت امرأة لا مثيل لها في الجمال. وفي الحال، أمر المرحوم «إسكندر باشا» بضرب رباط من ألياف الشجر يطلق عليه في لغة الكفار اسم «قليقه» على أيدي «دومنه» المذكورة مع ابنيها و«قورسقي» الذي كان صهرها وحوالي خمسمائة من رماة البنادق من أشقياء «قزاق» الذين أُسروا، وقام بإرسالهم جميعًا إلى باب الدولة على هذا النحو، وربما لم يحضر منذ زمن بعيد هذا العدد من الكفار مربوطي الأيدي إلى الديوان الهمايوني دفعة واحدة. ولكن لما سقطت زوجة «قورسقي» تلك التي ليس لها نظير في أيدي التتار، فلم يكن ممكنًا العثور عليها في تلك اللحظة، وحتى إذا عثر عليها، لم يكن ممكنًا أخذها من أيدي التتار، وقام «إسكندر باشا» بتوجيه بلاد الـ «بغدان» ثانية إلى الوالي المعروف باسم «رادول بك»، حيث أحضره وأجلسه على عرش الـ «بغدان»، ونصبه أميرًا عليها.

ـ ومن المضحكات: وبعد فترة أطلق سراح تلك الجميلة زوجة «قورسقي» من يد التتار، وذلك بدفع ثلاثين ألف «غروش» لهم، وكانت قد حملت، وولدت بنتين توأم.

ويروي «موسى كتخدا» الذي كان كتخدا المرحوم «إسكندر باشا» والذي كان قد سقط بعد ذلك أسيرًا في أيدي كفار «له» في واقعة «غاشپاد بك»، وبقي في الأسر لمدة عشر سنوات كاملة يروي قائلًا: كان كفار «له» يقولون لبعضهم في كل وقت: «للأسف! لم تلد المرأة ذكورًا، فعلى الأقل كانوا سيصبحون أبطالًا شجعان كنسل التتار. ولم يكن ممكنًا ظهور شخص يمكن أن يواجه هؤلاء»، وكانوا يتضاحكون فيما بينهم على هذا.

في ذكر الشهزادية أي أولياء العهد
الذين كانوا في عصر أحمد خان

ـ الشهزاده السلطان عثمان خان:

وهو أكبر أولاد السلطان المغفور له، وكان أثناء وفاة والده العظيم صغيرًا جدًا، ولما كان عمه السلطان «مصطفى خان» كبيرًا نسبيًا، فقد جلس على العرش العثماني المحفوف بالسعادة، ولكن بسبب خفة عقله، خُلع وأُجلس «سلطان عثمان خان» مكانه، وتصرف في ملك أبيه حوالي أربع سنوات وأربعة أشهر فقط، وبعد ذلك قُتل ظلمًا وذهب إلى الخلد السعيد، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الشهزاده السلطان «محمد خان»:

وهو الأخ الأصغر لحضرة السلطان «عثمان». وفي أثناء توجه السلطان «عثمان» إلى حملة «حوتين»، قام بقتله بلا سبب وبلا داع، وفي النهاية أُصيب هو أيضًا أي السلطان عثمان بالعاقبة نفسها بموجب مضمون القوّل المأثور: «كما تدين تدان». رحمة الله تعالى عليه.

ـ الشهزاده السلطان «مراد خان» عالي الشأن:

قاموا بإجلاسه على العرش بعد أن خلعوا عمه السلطان «مصطفى خان» في المرة الثانية، وحكم السلطنة حوالي سبع عشرة سنة، وكان قد ذاع صيته وعمت سطوته القاهرة في كل أنحاء الدنيا، وهزم أعداء أهل السنة أمثال القزلباش، وبصفة خاصة، فليس هناك شك في أن ما فعله هذا بخصوص ضبط الأشقياء وربطهم، لم يفعله [من قبل] أي سلطان ذي شأن حتى هذا العصر.

ـ شهزاده سلطان بايزيد خان وشهزاده سلطان سليمان خان:

كان المرحوم «سلطان بايزيد خان» من أم أخرى، وكان أصغر من المرحوم السلطان «مراد» بثلاثة أشهر، وبينما كان السلطان «مراد» مشغولًا بفتح «روان»، أمر كتخدا خدم الباب بخنق هذين الأميرين البريئين.

وكان السلطان «مراد» قد اصطحب المرحوم الشهزاده «سلطان سليمان» لفترة. ولقد رأيناه عدة مرات بينما كان يتجول وهو يقوم بتغيير ملابسه؛ فكانت بشرته المباركة ذابلة يعني بها تجاعيد، وكان ظاهرًا بوضوح أنه لم يبق في وجهه المبارك الرونق والشباب؛ مخافة القتل، وفي النهاية لم ينجُ مما خاف منه، ولكن المرحوم السلطان أيضًا لم يعمر كثيرًا بعد إهدار دم هذا بلا وجه حق، وترك السلطنة الصورية وهو في عنفوانه وفي فترة شبابه مثل ذلك تمامًا.

ـ شهزاده سلطان إبراهيم خان:

كان أصغر الأمراء سنًا، وهو يجلس الآن على العرش الهمايوني مكان المرحوم السلطان مراد الرابع؛ حيث أعاد للعالم شبابه بكمال العدل والإنصاف، وبحمد الله تعالى، إلى الآن لم يُهدر دم أي بريء في أيام دولته، ولم يُصادر مال أي فرد سواء كان غنيًا أو فقيرًا، فنسأل حضرة الحق سبحانه وتعالى أن يصون وجوده الشريف من آفات الدهر، وأن يُلبي جملة حاجاته الدنيوية والأخروية، فاللّهم لا تزيل الظل الظليل لعنايته من فوق الفقراء والأغنياء، ولا عن رءوس الرعايا والبرايا، بحق الحق ونبيه المطلق. (بيت):

يا إلهي هبه عمر «نوح» واحفظه من الخطأ
حتى إذا هدم الطوفان أساس سراي الدنيا

في ذكر تنصيب «تبلن غابور» ملكًا على «أردل» والغزوات التي قام بها جند الإسلام بسبب هذا

كان «تبلن غابور» من أمراء «أردل» ومن نسل البكوات [أي الأمراء] الذين كانوا ولاة على «أردل»، ولما كان «باطوري غابور» الذي نصب ملكا على «أردل» قبله والذي كان قد اشتهر بلقب «أردل قرالي» [أي ملك أردل]، ولما كان أبله في طبيعته، كان يتجول بين نساء وبنات أمراء «أردل» وغيرهن، واغتصب مالهن وممتلكاتهن، ولما زاد تجاوزه، قتل كثيرًا من الذين عارضوه؛ إلا أنه كان قد نجا بعضهم من يده بعناء شديد،

وكان «تبلن» المذكور قد قام أيضًا بالفرار أيام «يمشجي»، وجاء إلى «بلغراد»، وكان «يمشجي» قد جعل المذكور في رتبة «متفرقة»[1] بمائة وعشرين أقچة، وأمضى ذلك الشتاء في «سمندره»، ثم عاد إلى «أردل» ثانية، وفي تاريخ واحد وعشرين وألف هجرية، خاف من المذكور «باطوري غابور»، وجاء ثانية مستغيثا إلى الآستانة السعيدة، وكنت قد وصلت أنا هذا العبد الفقير المملوء بالتقصير «بچوى» والمرحوم «إسكندر باشا» الذي كان كتخدا المرحوم «حسن باشا» في ذلك الوقت مع «ينقرون» سفير «بچ» الذي كان معروفًا ومشهورًا بتحدثه العربية والفارسية، فوجه «نصوح باشا» إيالة «قنيژه» إلى المرحوم «إسكندر باشا»، وفي ذلك الحين، أصبح «إسكندر باشا» بمثابة الوسيط لـ «تبلن» المذكور؛ فقام بإعداد مقابلة بينة وبين «نصوح باشا؛ وبدأ في إعداد التجهيزات المتعلقة بقلع الملك المجنون وقمعه الذي كان في «أردل»، حتى إنهم أقروا ضرورة جمع العسكر بحجة أخرى للتمويه، وإنني هذا العبد الفقير اقترحت اقتراحًا قائلًا: «بسبب أن بعض أماكن «بدون» تحتاج للتعمير من أساسها، فقد وجب جمع العسكر بكثرة». وبموجب ذلك الاقتراح، صدرت الأحكام الشريفة.

وبعد أن جمع المرحوم «إسكندر باشا» العسكر في صحراء «سرم»، تحرك من هذا المكان ووصل إلى «طمشوار»، ودخل «أردل» عن طريق «تيمور قبو» مع جند كاملة العدة والعتاد. ومن الآستانة أيضًا، قام «نصوح باشا» بتعيين «كتابجي عمر باشا» قائدًا على عسكر ذلك الجانب أي «أردل»، وأصحبه «شاهين گراي» وأمراء الأفلاق والبغدان، وعبروا جميعًا من داخل الأفلاق، ودخلوا «أردل»، ولكن الملك المجنون المذكور دخل قلعة «وارد»، وتحصن بها.

---

(١) متفرقة: هو لقب كان يطلق على قسم من أرباب الخدمة الذين هم من نوع الفراش عند السلاطين أو الوزراء. وكان يوجد من بين أمراء القصر من هم يعرفون باسم «متفرقة باي» ... وكان رئيس هؤلاء المتفرقة يعرف باسم «متفرقه باشي». أما عددهم فلم يكن هناك قدر معين للعدد، وإنما كان يزداد ويتناقص العدد طبقًا لأراضي الحاكم.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 637 – 638

ومع أن «إسكندر باشا» وصل مع جند الإسلام، وأجلس «تبلن غابور» على عرش الملك في «بلغراد أردل»، فإن تحقيق هذا الأمر العظيم في حياة الملعون كان عسيرًا جدًا، وقام المرحوم «إسكندر باشا» بتوجيه من «تبلن غابور» ببذل الوعود الكثيرة لبعض ولاة طائفة «حيدود» الذين كانوا يُعتَمد عليهم في «أردل» كما قام باستمالتهم، وكان جميع كبار وصغار «أردل» قد سئموا وضجروا من الملك المجنون المذكور.

ولما عاد «إسكندر باشا» مع عسكر الإسلام، خرج الملك المجنون من «وارد»، وأراد أن يتخذ الاستعدادات من أجل الهجوم على «تبلن»، وكان ولاة طائفة «حيدود» قد وضعوا واحدًا أو اثنين من رماة البنادق في معبر؛ فضربوه بالبنادق في ذلك المكان وقتلوه. وعلى هذا أصبح «تبلن» متصرفًا على الملك بلا مانع أو منازع، وأرسلت البشرى بهذا الخبر إلى «إسكندر باشا» بينما كان لا يزال في «تيمور قبو». ولما أصبح «تبلن» مستقلًا في مملكة «أردل»، ضم وألحق «خوست» و«قووار» و«سقار» و«طوفاى» وسائر القلاع والممالك التابعة لـ «أردل» إليها ثانية سنة ١٠٢٨ هجرية[١].

وفي التاريخ نفسه لما أرسل «إسكندر باشا» الخبر من «آق كرمان» إلى «تبلن غابور» من أجل محاربة طابور «له»، جاء «تبلن» أمام القلعة المعروفة باسم «صوروقنه» وهي من قلاع البغدان مع ثلاثة عشر ألفًا من جند المشاة واثنى عشر ألفا من السوارية، وفي تلك الأثناء، أتى سفير «له» فعقد معه الصلح وقفل عائدًا.

وبعد ذلك وفي سنة ١٠٣٠ هجرية[٢] تحرك «تبلن غابور» مع جيش عظيم ووصل على «بوژون» مع أهل الإسلام وقام بمحاصرتها، وبدأ في ضربها بالمدافع، وقام عسكر الإسلام الذين كانوا معه بحرق تلك الناحية وهدمها، وشن طابور «نمچه» عليه هجومًا، وخاضوا حربًا ضروسًا؛ فانتصر عليهم.

وقام «تبلن غابور» بإرسال أحد قادة جنده المعروف باسم «حليز كورك» إلى حدود «قنيژة»، وأعلن «يكان أوغلو» وجملة عسكر المجر في تلك الأطراف الطاعة له؛ وقاموا

---

(١) الموافق سنة ١٦١٨م.
(٢) الموافق سنة ١٦٢٠م.

بالإغارة على قرى «طوت» «وخروات» و«نمچه» وخربوها حتى أتوا إلى ناحية «بچ» ونهبوا وخربوا أطرافها وأكنافها، وعاد جند الإسلام بغنائم كثيرة جدًا، وبعد ذلك، عبروا إلى الجانب العلوي من «بچ» وقاموا بتخريب وتدمير تلك الديار أيضًا.

وفي تاريخ ١٠٣١ هجرية[1] وبينما كان «مره حسين باشا» وزيرًا أعظم وجه بلاد البوسنة إلى «سرخوش إبراهيم باشا» وأرسله لإمداد «تبلن»، وكان المرحوم «صوفي محمد باشا» في تلك الأثناء موجودًا في «بدون»، حتى إنه بينما كان سفير «بچ» يجلس بجانبه، يرى عبور الجند من جسر «بدون»، فلما سأل قائلًا: «إلى أين يذهب هؤلاء؟»، قال المرحوم محمد باشا: «إنهم يذهبون للتفتيش»، ووصلوا من هناك وقاموا بالإغارة على مملكة «بدون» وخربوها، وعندما وصلوا إلى المكان المعروف باسم «ساقولم»، كان قد أتى طابور «نمچه»، ونزلوا إلى المكان المعروف باسم «ساقونجه»، فيقوم «تبلن» بنصب المدافع، وضرب طابور «نمچه» المقهور، وفي النهاية يتحرك الطابور من ذلك المكان، فتحصن البعض بالقلعة ونزل البعض الآخر بالأطراف المجاورة.

وقد أسر «تبلن» في الثلاث حملات هذه التي قام بها عددًا كبيرًا من الأسرى والغنائم بالقدر الذي كان لا يمكن عده أو حصره، وبعد ذلك جاء «تبلن» مع جند المجر ثانية في زمن «مرتضى باشا» ووصل إلى مناجم المعادن في الجانب العلوي من «فيلك»، واستولى على أموال عظيمة، أما «مرتضى باشا» فلم يبق له سوى العناء فقط، وفي ذلك الحين قام «مرتضى باشا» بمحاصرة «نويغراد»، حيث عانى الصعاب بلا فائدة. ولما تحرك من هناك ونزل إلى سفح حصن «ديره كل»، هجم عليه طابور «نمچه»، وحلت الدهشة بالطرفين؛ فيهرب الكافر إليه، ويهرب هو إلى الكافر، ويتركون في ذلك المكان كل العربات والأثقال والخيام كما هي، وبذلك ألحق عدم استعداد وقلة كفاءة «مرتضى باشا» وشؤمه سوء السمعة بعسكر الإسلام بدرجة عظيمة، وبعد ذلك، قتل المسكين

(١) الموافق سنة ١٦٢١م.

«أحمد باشا» أمير أمراء «أكره» و«بدنلو نصر الدين زاده» بلا سبب وبلا جريرة وذلك بتحريض «تبلن»، وقتل أيضًا بعض الأبرياء من أرباب الزعامة في «آلاجه حصار» ومن أرباب تيار «بدون»، وانتقل عسكر الإسلام إلى «بدون» مصحوبين بسوء السمعة. ولكن عاد «تبلن» إلى «أردل» بالسلامة وبالمال الوفير .

ومع أن عسكر الإسلام اغتنموا غنائم عظيمة وقهروا الأعداء قهرًا شديدًا في ظل «تبلن»، فإن مساعدة ومعاونة عديم الدين هذا لأهل الإسلام لم تكن سوى لمصلحته، إذ كان يبغي توفير الحماية لدولته. ولقد سمعت عدة مرات من لسانه الذي ينثر الهذيان: «إن معاونتي ليست بسبب محبتي لدين أهل الإسلام أو لهم، ولكن كلما كنت أقصد إهانة المسلمين، كنت أشعر بالندم وأرى الشؤم العظيم». والحقيقة، هي أنه إذا تحققت أية فتوحات بمساعدة الكفار فإنها تعتبر من المعجزات النبوية، لأنهم أعداء الدين، والذين يظهرون منهم غاية الصداقة، من المؤكد أنهم لا يريدون انتصار المسلمين.

في ذكر الوزراء العظام الذين كانوا في العصر الهمايوني للسلطان «أحمد خان»

لقد ذكرت أحوالهم فيما مضى، وخصوصًا ظروف وصولهم إلى مقام الصدارة بالتحليل، فلو ذكرتها ثانية، تصير باعثًا على إكثار المسودات بلا فائدة، ولكن رُؤِيَ من المناسب أن تحرر في هذا المكان أسماؤهم فقط .

- الوزير قاسم باشا:

كان أثناء الجلوس الهمايوني يتولى منصب قائم مقام، وبعد ذلك، تم بيان كيف قتل.

- الوزير الأعظم مالقوج علي باشا:

كان قد وجه المرحوم السلطان «محمد خان» والد السلطان المغفور له «أحمد خان» منصب الوزارة العظمى إلى «مالقوج علي باشا» بينما كان متصرفًا على مصر، وذلك بعد أن أمر بقتل «يمشجي حسن باشا»، وبعد ذلك، أبقاه المرحوم السلطان «أحمد خان»

أيضًا في منصبه، أثناء الجلوس الهمايوني، وقام بتعيينه سردارًا على بلاد المجر، ولما وصل إلى «بلغراد»، صاحب الفراش، وبعد أربعة أو خمسة أيام عزم إلى دار القرار، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الأعظم «لالا محمد باشا»:

وهو من السلسلة الجليلة التي تعرف باسم عائلة «صقولو بك» يعني عائلة «شاهين أوغلو»، وكان ابن عم الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل». وقد وفق في فتح قلعة مثل «أسترغون»، ولم تشاهد مثل هذه الهجمات والحملات والغارات والتخريبات التي شنت على الكفار في عصره، منذ أن بدأت حملات المجر، ومن جملة أثاره الحسنة، إخضاعه «بوچقاي» وترسيخ الصلح والصلاح بسبب ذلك، وكانت إرادة الباري غير مواتية، ولذلك فلم يمهله عمره العزيز لإتمامها، فقد نصبه السلطان صاحب السعادة أيضًا سردارًا على بلاد العجم، ولو أنه بقي على قيد الحياة كان من المقرر أن يصبح صلحه مع القزلباش أعظم مرتبة من الصلح الذي كان في عصر المرحوم السلطان «سليمان خان»؛ يعني كان من المقرر أن تصير من آثاره الحسنة مثل أخذ القلاع وجعله «نمچه» تؤدي الخراج، وفي اليوم الخامس عشر من صفر سنة ١٠١٥ هجرية الموافق يوم الأربعاء[1] ترك السردارية الصورية، وصار سردارًا وقائدا لأرواح الشهداء رحمة الله تعالى عليه.

وبسبب قرابتنا بالمرحوم «محمد باشا»، لم أفترق عن خدمته الشريفة لمدة خمس عشرة سنة بالتمام؛ يعني كنت واقفًا على جملة أحواله، وغنيٌّ عن البيان بطولة المرحوم وتدابيره الحسنة في الأمور المتعلقة بالعدو، وقد سبقت أحواله قبل ذلك، والاكتفاء بهذا القدر في هذا المكان أولى وأنسب.

---

(١) الموافق ٢٢ ـ ٤ ـ ١٦٠٦م.

ـ الوزير الأعظم درويش باشا:

صار المذكور قبطانًا بعد أن شغل رتبة «بوستانجي باشي» أي رئيس من يعملون في الحديقة، ثم صار وزيرًا أعظم مكان المرحوم «محمد باشا»، ولكن لم يصل إلى هذه المرتبة حتى الآن شخص فضولي وأحمق ومغرور بهذه الدرجة التي كان عليها درويش باشا.

ـ الوزير الأعظم مراد باشا غازي:

وهو ذلك الوزير الشجاع الذي طهر ممالك آل عثمان من الأشقياء. وقبل خمسمائة سنة ذكره حضرة «الشيخ أكبر» رحمة الله تعالى عليه في كتابه[1] بالإيماء والإشارة قائلًا: «قبوجي قوجه»، وعلى هذا فتفصيل أحوال هذا الرجل، هي من قبيل تحصيل حاصل.

ـ الوزير الأعظم نصوح باشا:

كان رجلًا ذكيا جدًا ومدبرًا وصاحب عظمة. ولما كان شيخ الإسلام خواجه زاده محمد أفندي، وأغا دار السعادة غير آمنين بسبب فطنته، فقد شمرا عن ساعدهما في قتله، واستصدرا أمرا بقتله بلا سبب وبلا جريرة، وقد سبق ذكر هذا الحدث في موضعه.

ـ الوزير الأعظم داماد محمد باشا:

عين وزيرا أعظم مرتين وبعد ذلك، طرد إلى إيالة «حلب» وتوفي في «حلب» الشهباء من قهره.

ـ الوزير خليل باشا:

أصبح وزيرًا أعظم مرتين. وعين سردرًا على حملات العجم [إيران]، وسيرد تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١) «صيحات البوم في حوادث الروم".

في ذكر الوزراء الذين لم يصلوا إلى مقام الصدارة العظمى

ـ الوزير خادم حافظ أحمد باشا:

أصبح قائم مقام الصدارة، وترك العالم الفاني بينما كان متقاعدًا.

ـ الوزير صارقجي مصطفى باشا:

بينما كان قائم مقام، قتل رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير صوفي سنان باشا:

اعتلى رتبة قائم مقام، وبعد ذلك، توفي وهو متقاعد.

ـ الوزير خضر باشا:

وهو أيضًا صار قائم مقام، وتوفي بينما كان معزولًا.

ـ الوزير گورجي خادم محمد باشا:

عين قائم مقام عدة مرات، وصار وزيرًا أعظم في عصر السلطان «مصطفى» وقتل في عصر «مراد خان».

ـ الوزير أتمكجي زاده أحمد باشا:

عمل باش دفتر دار مع رتبة الوزارة لفترة طويلة، وبعد ذلك، أصبح قائم مقام، ثم توفي.

ـ الوزير قورد باشا:

كان موجودًا في مقام الوزارة أثناء الجلوس الهمايوني، وبعد ذلك توفي وهو معزول.

ـ الوزير گوزلجه محمود باشا:

صار وزيرًا بعد الجلوس الهمايوني، ثم عُزل، ومرة أخرى عين قائم مقام، واختفى لفترة طويلة في واقعة «يمشجي»، وبينما كان في زاوية الانزواء توفي.

ـ سنان باشا ابن جغالة الوزير الأعظم السابق:

عين وزيرًا أعظم في اليوم التالي لمحاربة طابور «أكره»، وقد ذكر فيما مضى أنه عزل بعد أربعين يومًا، وبعد ذلك أصبح سر دارًا على العجم في عصره الهمايوني، ومني بالهزيمة وتوفي بسبب ذلك الغم.

ـ الوزير الثاني جغالة زاده محمود باشا:

وهو ابن «سنان باشا»، وبقي مدة طويلة في مقام «وزير ثان» في عصر «مراد خان»، وبعد ذلك كان المرحوم السلطان «مراد» قد صادر ماله وعزله. وهو حاليًا متقاعد.

ـ الوزير صوفي محمد باشا :

كان قائم مقام حتى أواخر سلطنة السلطان المغفور له «أحمد خان»، وقد ذكرت فيما مضى بعض الأمور التي قام بها وسيرد بعضها الآخر فيما بعد.

في ذكر بعض مشاهير العلماء الذين كانوا في عصره الهمايوني

ـ المولى مصطفى أفندي:

كان يشغل منصب «شيخ الإسلام» أثناء الجلوس الهمايوني، وبعد ذلك، عُزل، ثم أصبح مفتيًا مرة أخرى بدلًا من المرحوم «صنع الله أفندي» ثم توفي بعد ذلك، رحمة الله عليه.

ـ المولى صنع الله أفندي:

أصبح شيخًا للإسلام مرتين، وكان رجلًا زاهدًا جدًا ومن أهل التقوى، وتوفي بينما كان معزولًا، رحمة الله عليه.

- المولى الشيخ محمد أفندي الشهير بـ «چلبي أفندي»:

وهو «محمد أفندي بن خواجه»؛ صار مفتيًا مرتين، وكان شغله لمنصب المفتي في المرة الثانية مصادفًا لوزارة «نصوح باشا»، وقد راجت شائعة خطأ بين الناس تقول: «إنه دبت الوحشة بينهما، وصار ذلك باعثا على قتل «نصوح باشا»». ولم يعش لفترة طويلة بعد «نصوح باشا»، وعزم إلى جنة الخلد رحمة الله عليه.

وكان المرحوم يخاف جدًا من الطاعون، حتى إنه يروى أنه أمر بعدم إخراج أحد جواريه المتوفاة من باب المنزل الذي توفيت فيه، وأمر بهدم أحد الجدران وبإخراجها من ذلك المكان، ويروون أيضًا أنه كان لا يدخل قط المكان الذي دخله ميت، وفي النهاية كانت وفاته؛ بسبب مرض الطاعون.

- المولى أسعد أفندي:

كان الأخ الأصغر للمرحوم «محمد أفندي بن خواجه»، ولما توفي المرحوم «محمد أفندي» كان على وشك العودة من الحج الشريف، ولذلك أرسلوا الرجال لاستقباله، وبشروه بتوجيه الفتوى الشريفة إليه بالأمر الشريف.

- المولى معلم السلطان مصطفى أفندي:

كان رجلًا فاضلًا جدًا ومستشار الدولة ومربي العلماء في عصر السلطان «أحمد خان»، وأمر السلطان بتصدره مجلس المفتيين، وتوفي أيضًا في عصره الشريف، رحمة الله تعالى عليه.

- المولى قاف زاده أفندي: كان قاضي عسكر الروم إيلي.

- المولى يحيى أفندي: صار قاضي عسكر الروم إيلي بدلا من «قاف زاده أفندي».

- داماد محمد أفندي: وهذا أيضًا أصبح قاضي عسكر الروم إيلي، ثم تقاعد.

- المولى كمال أفندي: كان قاضي عسكر الروم إيلي.

ـ المولى كتخدا مصطفى أفندي: وهذا أيضًا كان قاضي عسكر الروم إيلي.

ـ المولى بوستان زاده محمد أفندي: تقاعد بينما كان قاضي عسكر الأناضول.

ـ المولى آخي زاده حسين أفندي: كان متقاعدًا من منصب قاضي عسكر الأناضول.

ـ المولى محمد أفندي غنى زاده: وهذا أيضًا عزل من رتبة قاضي عسكر الأناضول.

ولما كان سائر العلماء والفضلاء أكثر من حد التعداد والتصريح، فقد اكتفى بهذا القدر تبركًا بهم.

ومن المشايخ العظام في زمن دولته

ـ الشيخ محمود أفندي الأسكداري رحمة الله تعالى عليه:

إن المناقب الجليلة لهذا الشخص تفوق قدرة قلمي أنا هذا الفقير «بچوي». وليس إلى الشك سبيل في أنه كان قطب الزمان في عصره، وكان خلفاؤه موجودين في كل مكان، وكان يعيش منزويًا عن الناس، ولا يمكن وصف الصفاء الروحي الذي كان يبعث به أحيانًا إلى الأغنياء والفقراء بالوعظ والتذكير، وإن دخولنا إلى مجلسه الشريف لمرات كثيرة، ووصولنا إلى تقبيل يده المباركة إنما هو شرف عظيم لهذا الفقير «بچوي».

ـ الشيخ عبد المجيد السيواسي رحمة الله تعالى عليه:

كان فائق الأقران في علوم الظاهر والباطن، وكانت الحالات التي تبدو في أنفاسه الطيبة وتأثيراتها تزيد عن حد التعريف، وخصوصا كانت قراءته للفاتحة الشريفة في بداية الوعظ والتذكير تحيي الكثير من القلوب الميتة وتهدي الكثير من أهل الهوى إلى طريق الهداية، وكان المرحوم «باقي باشا» الذي كان شخصًا عارفًا من أهل القلوب وحلو الحديث ـ يقول: «هذا العارف لا ريب أنه مخلوق من أجل هذا». وإنني هذا العبد الفقير كنت ذات مرة في مجلس ذكره، فسمعت قراءته النظم الشريف بمقطع «الله» بالبكاء والأنين من كتاب «محمدية» والله يعلم أنه أصبح باعث إنابة الكثير من القلوب القاسية وسبب انضمام الكثير من العصاة إلى حلقة الصوفية .

وقد سمعت أنا «بچوي» من حضرة الوزير «موسى باشا» صاحب السعادة الذي لا نظير له والذي يشبه «أرسطو» في التدبير، ما يلي: لما رحل المرحوم الشيخ من دار الفناء إلى سراي البقاء قمنا بالعرض على الصدر الأعظم «محمد باشا»، ورجونا منه وظيفة الوعظ في الجامع الجديد وسائر الجهات المتعلقة به من أجل إعطائها إلى «چلبي أفندي» ابن الشيخ عبد المجيد؛ فاستمع لكلامنا، فإن السلطان صاحب السعادة لم يقبل ذلك قائلًا: «لا يزال في سن الشباب»، وأمر قائلًا: «ابحثوا عن شيخ صاحب إرشاد ومالك رشد وسداد في صلاته ودعائه»، ولكن مضت أيام كثيرة، وقطعا لم يبحث عن أي شخص ولم يظهر أحد، وبعد فترة يرى السلحدار «مصطفى باشا» الذي كان النديم الخاص له يرى ذات ليلة في عالم الرؤيا حضرة الشيخ، فيقول الشيخ له: «لماذا تتركون مكاننا خاليا، هل وجدتم رجلًا أفضل من ابننا، فلماذا لا تعطوه وظيفة الوعظ»، وفي تلك الأثناء، يرى حضرة شيخ الإسلام مقتدى الخواص والعوام وصاحب الفضيلة والكرامة، المرحوم الشيخ في عالم الرؤيا؛ فيعطيه المرحوم الشيخ ورقة في يده المباركة قائلًا: «أعطوها إلى ابني»، فلما قصت هذه الواقعة على السلطان صاحب السعادة، قام على الفور بإصدار الخط الشريف بإعطاء وظيفة الوعظ إلى «چلبي أفندي» والآن فالذي يجلس على السجادة أي سجادة الإرشاد هو ابن المرحوم الشيخ أفندي.

ـ الشيخ عمر أفندي الشهير بترجمان شيخي :

بينما كان مكلفًا بالوعظ والتذكير في الجامع الكبير «آيا صوفية» انتقل إلى رحمة رب العالمين، وكان كبار العلماء يعرفونه ويصفونه بسلطان المفسرين، وحينما كان يعطي درس التفسير في الجامع، كان يقرأ المتن الشريف للتفاسير المتعددة، ويبدأ بالتفسير والتحقيق فيه دون أن يتناول ورقة قط في يده .

وكان مصاحبًا للمرحوم أفندينا «الصدر الأعظم لالا محمد باشا» في حملة «أسترغون»، فرأينا كثيرًا من كراماته وولايته، ولما كان إيرادها في هذا المكان باعثًا على الإطالة ويمكن حملها على أنه فيها رياء، فلوحظ أن من الأولى تركها.

- الشيخ الكبير المشتهر بواعظ أمير الأشنيبي:

كان بلا نظير في العلم والتفسير والوعظ والتذكير، وكان يأتي أناس كثيرون إلى جامع السليمانية الشريف لسماع وعظه، حتى إن التذاكر التي كان يضعها الخلق على كرسيه لحل بعض المسائل الصعبة كانت لا حد لها. وكان يجيب على كل واحدة منها إجابة واضحة بالقدر الذي كان يجعل فيه المستمعين في دهشة من بيانه، فمثلا كان أهالي «إستانبول» يجلسون في المقاهي ويتحرون مجلسه قائلين: «هل بدأ الشيخ بقراءة التذاكر؟»، ومن ثم كانوا يتوافدون إلى الجامع، ولما كان جريئًا جدًا في وعظه، ولم يخش الخوض في الكلام الذي قد يمس أرباب الدولة، ولما لم يكن مبرئا من الطعن والتشنيع بهم، فقد نُفي إلى وطنه الأصلي مرة أو مرتين ولكن بعد ذلك كان قد أحضر بالدعوة ووقر غاية التوقير، وبالجملة كان عالمًا عزيزًا من بقية السلف، وكان يلتقي بكثير من المشايخ الكرام والأولياء العظام، وكان شيخًا وقورًا ومستجاب الدعوة.

- الشيخ إبراهيم أفندي الشهير بجراح باشا شيخي:

كان خليفة الشيخ أمير الآشنيبي سالف الذكر، وكان صوفيًا عاشقًا بطبعه وواضح المذهب، وكان عشقه وذوقه يغلبان عليه، وقد حدث أكثر من مرة أنه غاب عن وعيه أثناء الوعظ وسقط من فوق كرسيه، وكانت قوة حافظته عطية إلهية له. فمثلًا إذا سأل مائة مسألة من المسائل الصعبة في أي مجلس، فبعد أن يجيب عليها، كان يقول: «وإن هذا أيضًا مصرح به غالبًا بعينه، وعلى هذا المنوال في كتاب فلان وفي فصل كذا وباب كذا وفي عدد من الورق بهذا القدر»، وتأكيدًا على ذلك كان ينبه قائلًا: «يوجد مطول ومختصر لذلك الكتاب، فلو يبحث في مختصره، ولم يوجد فيه شيئًا؛ فليبحث الباحث في مطوله، وبعد ذلك إن لم يوجد به شيء، فلا يقولوا: إنه لا يعرف».

- الشيخ مصلح الدين أفندي النقشبندي:

بينما كان واعظًا في جامع «جراح باشا» أصبح إمام سلطان العصر والأوان، نظرًا لأنه مجودًا ومن أهل القرآن وحافظا وذا صوت جميل، وكان قد أُحسن عليه بالتقاعد

من رتبة قاضي عسكر الأناضول. وكان صاحب دراية بالتفسير وعلم الحديث، وكان قد كلف بكتابة المناقب الجليلة للسلطان؛ نظرًا لأنه كان كاتبًا بليغًا.

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان مصطفى الأول وعثمان الثاني

وتولية مصطفى الأول العرش مرة ثانية

١٠٢٦ ـ ١٠٣٢هـ = ١٦١٧ ـ ١٦٢٣م

جلوس حضرة السلطان «مصطفى خان» ابن السلطان «محمد خان» في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هجرية[1]

لما ترك السلطان «أحمد خان» السلطنة الصورية بإرادة الحي الذي لا يزال، كان أبناؤه لا يزالون صغارًا، ولما كان أخوه السلطان «مصطفى خان» كبيرًا وقد بلغ مرحلة الرشد، أجلسوه على العرش الهمايوني في اليوم المذكور، وقام جملة الوزراء والأمراء والمشايخ والعلماء وسائر الناس بأمر البيعة على الوجه اللائق.

ولكن «مصطفى أغا» أغا دار السعادة في ذلك العصر الذي كانت جميع أمور السلطنة مفوضة لرأيه في زمن دولة «أحمد خان»، لم يقصر هذه المرة أيضًا في قول كلمة الحق؛ حيث عرض ووضح لشيخ الإسلام «أسعد أفندي» ولـ «صوفي محمد باشا» الذي كان في مرتبة قائم مقام أن السلطان مصطفى خان غير قادر على الإصابة في رأيه والتحكم في تصرفاته، ولكن قيل: «إذا تم إجلاس أمير صغير على العرش، في حين أن هناك أمير شاب وكبير على هذا النحو، فإننا سنكون عرضة للسان الناس، وسيكون هناك احتمال لحدوث بعض المحظورات»، وقيل له أيضًا: «في الواقع وبمقتضى الوقت والزمان فإن عرش السلطنة بحسب الوراثة حق للسلطان «مصطفى خان» وإذا لم يحدث هذا، فلا بد أن يصبح هدفًا لسهام طعن وتشنيع جملة الخلق». وهكذا، اضطروا لقبول سلطنة السلطان «مصطفى خان» قائلين: «ربما أن طول مدة حبسه كانت هي الباعث على خفة عقله، وأنه بسبب عدم اختلاطه بالناس، سقط في واد آخر، وأنه يؤمل أن يفيق ويعود إلى الرشد والسداد بالاختلاط والمعاملة مع الناس لبعض الوقت».

وأخرجوا نعش المرحوم السلطان أحمد خان المزدان بالرحمة يوم جلوس السلطان «مصطفى» على العرش؛ وبعد أن أدوا الصلاة عليه، قاموا بدفنه قرب الجامع الجديد وبعد عدة أيام، نزل جملة الأركان والأعيان أمام السلطان الجديد، وحملوه لزيارة حضرة «أيوب» رضي الله تعالى عنه. وهناك قلدوه السيف على عادة العثمانيين، وجعلوه يزور

(١) الموافق ٢٢ـ ١١ ـ ١٦١٧م.

المقابر الشريفة لأجداده العظام وجعل فقراء البلد في حالة الغناء الأبدي بالصدقات الوفيرة، وفي ذلك الأسبوع نفسه أخرج إنعام الجلوس بحسب العادة من الخزينة العامرة.

ولكن في ذلك اليوم الذي كان قد زار فيه أجداده الذين موعدهم الجنة، لم يستحسن الخلق تصرفاته، وكانوا قد تأكدوا من خفة عقله، وكل يوم أيضًا لم يستقر حاله ولم يخل من الحركة الدائبة، فأحيانًا كان يسير في البحر بالزورق، وأحيانًا يمتطي الجواد السريع جدًا، وكان يلقي برأسه إلى أي ناحية ويذهب. وكانت مصيبته في تلك الأثناء، أنه كان يملأ جيبيه بالذهب والفضة؛ وأحيانا كان ينثرها للطيور والسمك في البحر، وأحيانًا لمن هم في الطرقات وكلما دخل الوزراء لعرض أمر ما على السلطان «مصطفى»، كان يقوم بتصرفات غريبة؛ فكان يلقي عمامة بعضهم ويدعو عليهم بالسوء. وعمومًا فقد وقف على أحواله هذه ليس الكبار فقط، بل أصناف الصغار أيضًا، وكانت أحوال البلاد والعباد قد صارت مضطربة على هذا النحو لمدة ثلاثة أشهر وسبعة أيام، وهي الفترة التي بقي فيها على العرش، وأرسل «مصطفى أغا» أيضًا تلك الأخبار إلى حضرة شيخ الإسلام وإلى قائم مقام وسائر أرباب العظمة قائلًا: «إذا استمر الإهمال في هذا الأمر لفترة أخرى، وإذا لم تؤخذ التدابير اللازمة، سيتلف الخزينة العامرة. وإذا اتخذت التدابير بعد ذلك، فلا يمكن قضاء ما فات»، وعلى هذا صدر فرمان باجتماع الجند بحجة أنه ستوزع عليهم العلوفة، واجتمع أيضًا شيخ الإسلام وسائر العلماء الأعلام في الديوان الهمايوني. وفي هذا العصر، توفي «أتمكجي زاده» وصُدرت جملة ما ترك لخزينة الدولة.

جلوس الشهيد السلطان «عثمان خان» ابن السلطان «أحمد خان» على العرش في غرة ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هجرية[1]

لما اجتمع الأعيان والجند والأكابر كما ذكر من قبل قام «مصطفى أغا» أغا دار السعادة

(١) الموافق ٢٦ من فبراير ١٦١٨ م.

بغلق باب السراي الذي يوجد به السلطان «مصطفى»، وأخرج السلطان «عثمان خان» الذي كان أكبر أولاد المرحوم السلطان «أحمد خان» من باب آخر، وأجلسه على العرش السلطاني المحفوف بالسعادة، وبعد ذلك جعل الناس يبايعونه كالعادة. وهذا أيضًا أي السلطان عثمان قام بعد يوم واحد، بناء على العادة القديمة، بزيارة حضرة «أبي أيوب الأنصاري» عليه رحمة الباري مع جملة الأعيان والأركان وعموم أهل الديوان؛ وهناك قلدوا السلطان «عثمان» السيف، وبعد ذلك قام بزيارة قبور أجداده العظام.

فرار «خان زاده محمد گراي خان» الذي كان محبوسًا في «يدي قله» والقبض عليه في السنة نفسها

لما توجه السلطان عالي الجاه من أجل زيارة حضرة «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله تعالى عنه، أخبروا «محمد باشا» الذي كان قائم مقام الصدارة بأن «خان زاده محمد گراي سلطان» المحبوس في «يدي قله» قد تحين الفرصة وقام بالفرار من البرج مع بعض التتار الآخرين. وفي الحال، أرسل صوباشي؛ أي ضابط إستانبول «حاجي صوباشي» بزورق من نوع «صانبكي» من البحر، وأصدر «محمد باشا» الأمر بالتنبيه عليه بحفظ السواحل وحراستها وببذل الجهد في القبض على المذكور، وقام بإرسال الوزير الشجاع المرحوم «إسكندر باشا» من البر من أجل تعقب «خان زاده محمد گراي خان» بسرعة. وعندما وصل «إسكندر باشا» إلى القصبة المعروفة باسم «پره وادي»، ربما كان قد جاء «محمد گراي» إلى ذلك المكان في وقت العصر، واستظل بظل شجرة في الصحراء من أجل إتاحة فرصة الراحة لجياده قليلًا، وعندما وصل أهالي القصبة وبعض أرباب القرى؛ يعني عددًا من جند هذه القرى إليه، وشرعوا في القبض عليه، بدأ «محمد گراي» في القتال وجعل أحد أفراد الإنكشارية هدفًا لسهمه؛ فقتله، وبعد ذلك، ولما علم أنه لا طاقة له في المقاومة، صرف النظر عن القتال، ودخل مع أهالي «پره وادي» القصبة في وقت العصر، وفي اليوم التالي يصل أيضًا «إسكندر باشا»، ويأتي إلى هناك وقت التمجيد أي وقت السحر، وبعد ذلك، رافقه وجعله يسير بجواره، وأحضره إلى السدة السلطانية؛

فأثنى كثيرًا على «إسكندر باشا» من جانب قائم مقام السلطنة، وأحسن عليه بثوبين من الخلع التي تفيض بالبهجة، وأحسن بالخلع الفاخرة أيضًا على عشرة أفراد من رجاله الذين كانوا معه، وبحمل أقچة كبدل نعل، ووبخ «خان زاده» توبيخًا عظيمًا، وضرب على يده؛ وأرسل ثانية إلى «يدي قله».

إخراج الإنعام العام للجلوس الهمايوني وإرساله إلى جانب السردار عالي المقدار

بعد أن تم أمر الجلوس، أخرج أيضًا إنعامه؛ وقام السلطان بتوزيعه وتقسيمه، ولم يكن قد أرسل إنعام جلوس السلطان «مصطفى» إلى العسكر ولا إلى الإنكشارية وفرق بلوك خلقي الذين كانوا لا يزالون في الحملة ولا إلى سائر أهالي الحملة، فأخرج إنعام الجلوسين، وأرسل إلى جانب السردار ذي الوقار مع «قبوجي باشي مصطفى أغا» صهر شيخ الإسلام المرحوم «چلبي منلا» المتوفي، وعهد برتبة أغا الإنكشارية إلى «مصطفى أغا» المشار إليه وبعد فترة وجهت إليه إمارة أمراء «ديار بكر».

عبور «تتار خان» من البحر وقيامه بالهجوم على ممالك القزلباش في سنة ١٠٢٧ هجرية[١]

ذكر من قبل أن «تتار خان» كان قد كلف بالخروج لحملة القزلباش مع عسكر التتار الجرارة، ولما حان وقت السفر والعبور من البحر، وجاء دور العسكر، قام بالعبور من الـ «قرم» إلى «طرابزون» مع حوالي ثلاثين ألفًا من التتار صائدي الأعداء، وأرسل إلى جانب السردار يخبره بعملية العبور ويوضح له أنه إذا توجه إلى ذلك الجانب، قد يحل التعب والعناء التام بعسكر التتار؛ ولذلك طلب من السردار الأذن بالهجوم على ديار ممالك القزلباش مباشرة، فحاول السردار استمالته بكثير من الوعود، وبأنه ينبغي

(١) الموافق سنة ١٦١٨م

عليه الآن أن يكون رجلًا وأن يتصرف بحزم، وفي ذلك الحين توجه الخان مع عسكر التتار لتخريب «چولمه» و«گنجه» و«نخجوان» والقرى والبلدان التي كانت في تلك الأصقاع، وبذل جهدًا جهيدًا في قهر العدو، وأسر حوالي ثلاثين ألف أسير، وقياسًا على هذا، استولى على الدواب الكثيرة والأمتعة الوفيرة جدًا التي لا نظير لها، وبينما كان السردار في ذلك الحين في صحراء «چوليك» جاء إليه «تتار خان» بالغنائم الوفيرة والتقى به. ولقي «تتار خان» كل الرعاية والحماية، ومنح الإذن بتنفيذ كل طلباته.

توجه عسكر الإسلام من «ديار بكر» إلى بلاد العجم أي «إيران» وانهزام الجند الذين ذهبوا إلى «أردبيل» في سنة ١٠٢٧ هجرية

ولما حان وقت خروج الحملة، توجه السردار مع عسكر الإسلام صوب العدو اللئيم. وعندما وصل إلى ناحية «تبريز»، تردد السفراء بين الطرفين من أجل إبرام الصلح، وقام «دفتردار حاكم عثمان» الذي كان قد ذهب إلى القزلباش كسفير وأتى في تلك الأثناء - بإبلاغ السردار بأن «قار جيغاي خان» المملوء قلبه بالسوء يقوم بمهمة الحراسة مع عسكر القزلباش قرب «أردبيل»، وقال: «إذا قام عشرة أو خمسة عشر ألف جندي خفيفي الحركة بهجوم خاطف عليهم، وبالخاصة إذا قام «تتار خان» مع هذا القدر من جند التتار بذلك الهجوم، بفضل الله تعالى، لن يكون هناك ريب في أنه يمكنه تشتيت جملة عسكر القزلباش والإغارة على «أردبيل» أيضًا وتسويتها بالتراب»، وشرح هذا الأمر على نحو أوقع السردار وبعض الأشخاص التابعين له في هذا الطمع الواهي. ولما كان المرحوم «باقي باشا» الذي كان دفتردار الجيش الهمايوني وفي مرتبة «باش دفتردار» رجلًا داريًا بالأمور ومالكًا للعقل السليم، لم يرض بهذا التدبير وقال: «هذا خطأ فاحش». ومع أنه عارض كثيرًا في أمر التحرك، قائلًا: «إن المسافة بين «تبريز» و«أردبيل» ليست أقل من ثمانية منازل، وفي الثمانية منازل تصبح الجياد والحيوانات والناس بلا قدرة ولا قوة بسبب طول السير العصيب، فكيف يحمل جند منهكون ومتعبون على جند أقوياء، ومن أين يعرف أن هؤلاء غافلون ؟!»، ومع أن بعض الأشخاص من أصحاب الدراية

بالأمور مثله رجحوا هذا التدبير، فإن كتخدا السردار والرجل الذي ليس له دراية بأي شيء المعروف باسم «أبازه باشا» والذي كان أمير أمراء لإيالة «حلب» في ذلك الحين، أيدوا كلام «حاكم عثمان» الغافل، وقالوا: «إن الهجوم هذه المرة على قوة القزلباش المزعومة، ليس بقدر الهجوم على الخيمة».

وخلاصة القول، اجتمع في تلك الليلة جملة الأعيان للمشاورة، وذهبوا بـ «تتار خان» أيضًا بالمشاعل إلى خيمة السردار، وقضت حكمة الله، أن وقع أكثر الجند أيضًا في هذا الطمع الواهي، فصار البعض يريدون غنيمة الجياد والبعض الآخر غنيمة البغال، ووضع كل شخص الذهب الذي يملكه في كيسه قائلًا: «فليكن بجانبي»، وصنعوا الأجولة من أجل ملئها بالأثواب والأمتعة. وبعضهم نزل من فوق جواده وركب الحيوانات التي على قدر متوسط من التدريب. وعلى هذا، استعد الخان الذي شعاره الشجاعة وتهيأ للتحرك مع عموم التتار، وأمير أمراء الروم إيلي مع جند الروم إيلي، وجملة أمراء أمراء الساحل الآخر أي الأناضول المشهورين مع جندهم، وعُين الوزير «بيقلي حسن باشا» سردارا على هؤلاء، وصار القادة الآخرون تحت إمرته، وعزموا صوب المقصود. وساروا بغاية الإبرام والإقدام، ولم يتوقفوا ولم يستريحوا في مكان قط سوى أنهم جعلوا الحيوانات تأكل قوتها، وفي حين أنه كانت المسافة تستغرق ثمانية أيام فقد قاموا بقطعها في يومين ونصف فقط.

ولكن ربما كان «قار جيغاي» قد تلقى الخبر مسبقا بأن العثمانيين قادمون للهجوم فجعل جميع القزلباش يمتطون جيادهم، وانزووا في مكمن خلف تبة، ولما ظهر عسكر الإسلام وقت الصباح، وثب جند القزلباش من مكانهم وقالوا بلا مهابة «هو هو»، وهجموا عليهم. وعلى الرغم من أن طاقة الجياد والحيوانات كانت قد نفدت بعد هذا السير الشاق، وعلى الرغم من أن العسكر صاروا بلا قدرة ولا طاقة؛ بسبب عدم النوم والتعب، فإنهم أشعلوا غيرتهم وحميتهم والتقوا بعسكر القزلباش، وقاموا بحرب وقتال لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، ولكن لما لم تعد هناك قدرة لدى الجياد التي كانت تلعب دورًا كبيرًا في القتال، فقد كان لا بد من أن يكسب القزلباش المعركة، ولما كانت الجياد

والحيوانات بلا طاقة، فلم يكن هناك حتى مجال للهرب والنجاة فاستشهد في ذلك المكان «حسن باشا» الذي كان سردارًا، و«أرسلان باشا» أمير أمراء الروم إيلي، و«مصطفى باشا» زوج «عفيفة خاتون»، وأمير أمراء «ديار بكر»، ولحقوا بالخلد السعيد.

وأُسر الحاج «محمد باشا» و«رشوان لى مصطفى باشا»، وكان الذين فقدوا من أمراء الأمراء والأمراء غير المعروفين والذين كان بعضهم معزولًا، وبعضهم الآخر لا يزال في منصبه، وهذا القدر من طائفة «جورباجي» وأيضًا الذين فُقدوا من مشاهير «بلوك خلقي»، كانوا يتجاوزون الحصر والعدد، وقام الخان في ذلك الحين بالهرب ونجا بنفسه، وعلى كل، فقد وقع سوء سمعة لم يحدث مثلها حتى الآن، وربما لم يحدث أنه فُقد في أي معركة هذا العدد من الأعيان مرة واحدة.

في ذكر عودة السردار بعد المعركة

لما كشف الفلك الغدار عن وجهه في هذا الجانب، صار كل شخص منشغلًا في تدبير الوصول إلى بر السلامة على عجل، وأيضًا الذين قالوا للسردار: «ينبغي أن نهجم على القزلباش»، بدءوا في ذلك الوقت في السعي قائلين: «ينبغي أن ننقذ الروح قبل أن يهجم القزلباش علينا». ولكن المرحوم «باقي باشا» قال: «ما دام الأمر كذلك، ينبغي عليك أن تعود من هنا، وإلا فسيصبح العدو في القوة التي تمكنه من القبض على الأسد، وسيهجم علينا من الأمام والخلف، وسيحملون تارة على أثقالنا، وتارة أخرى على عسكرنا، وعلى أية حال، فالتدبير الذي ينبغي أن يُتخذ هو ألا تظهروا الضعف للعدو وأن تشعلوا الحمية وتهجموا عليه ثانية».

وفي هذه المرة، ارتضوا بتدبير «باقي باشا»، ورحلوا من ذلك المنزل ثانية وتوجهوا صوب «أردبيل»، وكان قد تردد سفراء القزلباش من قبل عدة مرات، والآن أتى سفراؤهم مرة أخرى، وكلما قالوا: «ينبغي أن نعقد الصلح»، تكبروا عليهم بتوبيخهم قائلين: أنتم تأتون للحرب.

ـ ومن بدائع المحاضرات: يروي المرحوم «باقي باشا» بنفسه، أن المكار الذي يطلقون عليه «برون قاسم» كان واحدًا من هؤلاء السفراء، وكان قبل ذلك أيضًا متكبرًا، وفي هذه المرة ازداد تكبرًا؛ بسبب المصيبة التي حلت على عسكر الإسلام، وبينما كان كل الوزراء وجميع أمراء الأمراء وسائر أعيان العسكر مجتمعين في خيمة السردار، جاء إليهم، ولكن جاء في الوقت الذي كانت فيه الرياح الباردة والشديدة جدًا تهب؛ حيث مزقت وقوضت معظم الخيام، وألقت بخوف عظيم في قلب كل إنسان، وكان التراب والغبار بذلك القدر الذي أحاط بوجوه الناس وأعينهم، إذ انعدمت فيه رؤية الناس لبعضهم البعض، وكانت الأتربة قد سقطت علينا في المكان الذي كنا نجلس فيه في الخيام، وراح يتراكم علينا حتى صار في سمك إصبعين أو ثلاثة، وفي هذه الأثناء تمامًا أتى «برون قاسم»، وكانت البلطة لا تستطيع قطع شواربه من كمال زهوه بانهزام عسكر الإسلام. وكان لا يعرف كيف سيُعظم، وبدأ بالحديث بأسلوب الطعن والتشنيع قائلًا: «تعقدون الصلح معنا، ثم تعودون وترسلون العسكر علينا. فكيف نثق في كلامكم بعد الآن؟! وإلى أي طريق نسلك ونذهب. فهل كلام سلطانكم ووكلائه على هذا النحو؟! وهل هذا هو قول الحق والرضا بالحق؟!» وخلاصة القول: فقد أخذ وأعطى في الحديث على هذا النحو، وقام بالطعن والتشنيع، وكان مقصده في الظاهر أنه يؤيد الصلح، ولكن في الباطن كان يكذب ويوقعنا في الخجل، ويتكبر علينا.

وهكذا، تحدث لمدة ساعة أو ساعتين دون أن يعطي الفرصة لأحد لكي يتحدث. ولم يكن كبراؤنا قادرين على اقتناص فرصة للإجابة. وبينما كان يتنفس ويبلع ريقه، اقتنص الوزير «دلاور باشا» الفرصة، وأراد تغيير الموضوع، وتحويل الحديث إلى موضوع آخر، فقال: «آ، «قاسم بك» هل رياح هذه الديار شديدة على هذا النحو في كل وقت؟ فما أعجب الرياح القوية لتلك المملكة»، وبينما كان هو بصدد الإجابة، يجيب المرحوم «باقي باشا» قائلًا: «لا يا سلطاني، هذه الرياح التي تهب الآن هي رياح أنف «قاسم بك»». وعلى هذا لم يتمالك ملعون القزلباش نفسه، وقال: «إلهي يا «باقي باشا» نسأل الحق ألا يصيبك بالبلاء، ولتصاب بسيف «علي» المرتضى، إنك لا تترك الشيطنة دائمًا،

ولا تستطيع أن تفعل شيئا سوى أن تسقطنا على لسان الخلق». وضحك الوزير الأعظم وسائر الكبار الموجودين والأغوات والخدم الذين كانوا يقفون على الأقدام بصوت عالٍ؛ وانزوى كل واحد منهم إلى ناحية، وبذلك انقطع صفاء حديث «برون قاسم». حتى إن هذه اللطيفة قد قُصت على الشاه «إسماعيل» فكان يتوجه دائمًا إلى «برون قاسم» ويكرر له هذا الكلام، ثم إنه بسبب هذه اللطيفة، كان الشاه قد أرسل إلى المرحوم «باقي باشا» أنواع اللذائذ من الحلوى والمشروبات وقطع السكر ومن الذخائر المتعددة من أفضل الهدايا وأنفسها مع ثلاثة قطعان من الحيوانات.

وصول عسكر الإسلام حتى صحراء «سراوه» وانعقاد الصلح

وعمومًا فقد تحرك الجند بكل أثقالهم من ذلك المنزل، وتم الوصول إلى صحراء «سراوه» التي كانت عبارة عن وادٍ معمور، ووافر الذخيرة، ومترامي الأطراف، وضربت فيها الخيام، وكانت قد بقيت مسافة قليلة بين «سراوه» و«أردبيل»، وكانت قد أعدت التدابير للوصول إليها في اليوم التالي، ولما وقف القزلباش الأوباش على حقيقة الوضع، أتى سفراؤهم متعاقبين، ومن ناحية أخرى كانوا قد أخلوا «أردبيل» كلها، ورفعوا بصفة خاصة المفروشات والقناديل القليلة والكثيرة من على مشهد الشيخ «صفي» ومن على سائر المشاهد وحملوهم معهم، وفي النهاية، ذهب من ناحيتنا أيضًا السفراء، وسلموا قرارًا بالصلح وفقًا لبنود الصلح على أن يرسل كل عام مائتي حمل حرير، ومائة حمل من بعض الهدايا الأخرى النادرة، وقفل عسكر الإسلام عائدين من ذلك المنزل.

قيام الشاه بإرسال الذخيرة بعد الصلح وعودة سفيره بصك الصلح سنة ١٠٢٧ هجرية[١]

وفي هذا المكان المقصود صحراء «سراوه» وقبل أن ينصرف الجيش العثماني عن أراضي

---

(١) الموافق سنة ١٦١٨م.

القزلباش، فمن أجل تأكيد الصلح والصلاح قام الشاه بتحميل ثمانمائة ناقة ملجمة من أنفس أنواع الذخيرة من أجل العسكر المنصورة، وأرسلها إليهم، وقد وزعت وقسمت على جند الإسلام بمجرد وصولها، وبصفة خاصة، أرسل للوزير الأعظم أنواع السكر والحلويات والفاكهة المتنوعة ومن أجود أنواع الليمون والرمان الذي لا نظير له، ودقيقًا خاصًا وأرزًا وكثيرًا من رءوس السكر التي كانت كل رأس منها أكثر من خمس أو عشر أوقيات، وذلك علاوة على تسع قطعان من النياق، وكأن الشاه كان يريد أن يظهر الصداقة والإخلاص بهذه الهدايا المتعددة، وأرسل إلى كل من أغا وكتخدا الإنكشارية و«باقي باشا» وكتخدا الوزير الأعظم ثلاث قطعان من النياق محملة من الأنواع نفسها وإلى بعضهم خمس قطعان على طريق الهدية، وقام سفير الشاه المعروف باسم «ميرزا محمد حسين» بإحضار كل هذه الهدايا، وبتسليمها إلى أصحابها، وعاد من هذا الجانب أيضًا بمنشور الصلح المختوم بختم الوزير الأعظم وسائر الوكلاء.

عزل «صوفي محمد باشا» من منصب قائم مقام وتعيين «داماد محمد باشا» قائم مقام بدلًا منه ثم تعيينه وزيرًا أعظم بدلًا من «خليل باشا» في سنة ١٠٢٨ هجرية[1]

كان «خليل باشا» قد عرض على السلطان عدم قيام قائم المقام بمساعدته أثناء التوجه إلى الحملة؛ فغضب السلطان صاحب السعادة على قائم مقام قائلًا له: «سوء تدبيرك أثناء جلوس السلطان «مصطفى خان» على العرش، كان سببًا لإتلاف الخزينة». وكان قد غضب أيضًا على حضرة شيخ الإسلام «أسعد أفندي»، وعلى هذا عزل صوفي محمد باشا من منصب «قائم مقام» وأرسل إلى إيالة «سيواس»، ونُصب مكانه «داماد محمد باشا ديكر»، وأُهين شيخ الإسلام «أسعد أفندي» أيضًا من أجل هذا الخصوص أي سوء التدبير وأُنزل من رتبته، وصدر الفرمان بترقية معلم السلطان «عمر خواجة»

(١) الموافق سنة ١٦١٩م

وعُهد إليه بعد ذلك ترتيب سلسلة العلماء أي ترتيب درجاتهم. وعلى إثر تحريض «عمر خواجة» ونظرًا لطمعه المبتلى به؛ حيث صرح بقوله: «لقد قام «خليل باشا» بسوء تدبير وأصبح باعثًا على انهزام عسكر الإسلام»، وبقوله أيضًا: «إن الصلح الذي عقده لم يكن موافقًا للرضا الهمايوني السلطاني»، عزل «خليل باشا» من الصدارة العظمى، وعين «محمد باشا» المومأ إليه بدلا منه.

ولما كان «خليل باشا» قد اقترب إلى «إسكدار» أثناء العودة، وصل كتخدا طائفة البوابين، وأخذ منه ختم الصدارة، وقام بتسليمه إلى جانب السلطان، وفي تلك الأثناء، وجه السلطان إيالة الشام إلى «خليل باشا»، ولكن «خليل باشا» لم يقبل ذلك التوجيه، ولما كان من صوفية حضرة شيخ الشيوخ «محمود أفندي الإسكداري» قبل ذلك، فقد دخل إلى خانقاته، وانزوى في خلوة مع اثنين من خدمه، ومع أنه بذل جهدًا عظيمًا حتى يتوجه إلى الشام، فإنه اعتذر قائلًا: «إنني شيخ مسن لا أستطيع العمل، وليس لدي رغبة بعد هذا في أي من المناصب الدنيوية». وبعد ذلك، تركوه مكانه دون التعرض له وذلك بموجب تذكرة «محمود أفندي»، ولكن بعد ذلك، كان قيامه بتخريب جزيرة «ماوره يه» التي توجه إليها برتبة «قبطان»، ومجيئه إلى الركاب الهمايوني بهذا القدر من الغنائم الموفورة عنوان التواريخ والسير، وكان ذلك في سنة ١٠٢٨ هجرية[1].

تعيين «إستانكويلو قبطان علي باشا» وزيرًا أعظم

لقد حقق «قبطان زاده علي باشا» الذي كان قبطانًا ـ في هذه السنة المباركة، حقق النصر على بعض سفن الأعداء بالأسطول الهمايوني، وجاء إلى السدة السعيدة بالغنائم الموفورة وقدم هدايا كثيرة إلى السلطان صاحب السعادة قائلًا: «إنه مال الغنيمة». ولكن الوزير الأعظم «داماد محمد باشا» قام بتحريض سفير «ونديك» وجعله يرفع دعوى إلى السلطان ويشكو قائلًا: «إن الأموال التي أُخذت منا أوفر وأكثر مما أهدى،

(١) الموافق سنة ١٦١٩م.

وسلم للسلطان صاحب السعادة، وقد أخذت هذه الأموال منا ظلمًا، فلم يقم «علي باشا» بحرب وربما لم يرَ كافرًا قط»، ومن ناحية أخرى تحرك «علي باشا» أيضًا وفعل ما فعل، وقال ما قال، وفي المساء أهدى إلى «محمد باشا» خمسة أو عشرة أحمال أقچة حتى يتغاضى عنه، وقبل يده وحاشية ثوبه لعدة مرات، وفي الصباح، صار وزيرًا أعظم. وفي اليوم التالي أيضًا قام بطرد «محمد باشا» إلى إيالة «حلب»، وأخرجه من قصره واضعًا عليه حراسًا أشداء وأقوياء، وأرسله إلى جانب «حلب»، وحصل على إذن بطلب ثلاثين ألف ذهبية منه، حتى أرسل كتخدا طائفة البوابين ذات يوم بسندات الحوالة خمس مرات. وحصل تلك الأموال طوعًا وكرهًا، وطاف بسائر الأكابر أيضًا مستخدمًا حججًا واهية لكل واحد منهم وحصل مالًا كثيرًا بحجة الاقتراض والإمداد من الذين لم يستطع الأخذ منهم بأي طريقة أخرى قط، وبعد أن وزع معاشات الخدم، قرر إرسال بعض الأكياس إلى السلطان صاحب السعادة كل يوم، ووصل تقربه إلى السلطان إلى درجة أنه بدل حال «مصطفى أغا» أغا دار السعادة باستصداره أمرًا بطرده إلى «مصر» ومصادرة أمواله في حين أنه كان ولي نعمته وسبب دولته أي رفعته، واستصدر أمرًا بنفي «عمر خواجه» أيضًا عن البلد أي خارج إستانبول، وبتوجهه إلى مكة المكرمة، كما قام بمصادرة أموال «باقي باشا» أيضًا وحبسه في «يدي قله» وبعد ذلك نفاه إلى الجزائر. ولم يترك بجانب السلطان شخصًا قادرًا على العرض خلافه.

هزيمة الوزير الشجاع المرحوم «إسكندر باشا» لطابور العدو في سنة ١٠٢٩ هجرية[1]

هذه الغزوة الغراء التي قام بها المرحوم «إسكندر باشا» هي الغزوة التي قهر فيها الطابور الثاني للعدو، وتفصيل ذلك؛ هو أن الكافر المعروف باسم «غاشپار» الإفرنجي الأصل ـ كان يشتري من كفار الفرنك بعض الأسرى من أهل الإسلام الذين كانوا

(١) الموافق سنة ١٦٢٠م

مبتلين ببلاء التجديف في سفن القادرغة، ثم يتاجر فيهم، وقد تردد «غاشپار» باقتراح المرحوم إسكندر باشا ـ بالرسالة إلى جاسار «نمچه» [إمبراطور روما المقدسة وألمانيا] مرة أو مرتين باعتبارها قضاء مصلحة، وفي مقابل تلك الخدمة، وجهت إليه جزيرة «تقشه» كسنجق بطريق الالتزام، وبعد ذلك، لم يكتف بهذا، وأراد ولاية البغدان وصرف مالًا للحصول عليها، حتى إنه بعد أن أخذ ولاية «بغدان»، فنظرًا لأن «خواجه أفندي» لم يأخذ الرشوة، أعطاه عشرة آلاف ذهبية تحت اسم «بشرى». ولما كان المرحوم «إسكندر باشا» متكفلا بهذا ومتعهدًا بأنه سيؤدي وظيفته بصدق على كل حال، فقد حصل على ولاية «بغدان» بسرعة، وبعد أن أصبح متصرفًا عليها ما يقرب من سنتين، أعطيت الإمارة إلى شخص آخر، وفي الوقت نفسه قام بعض الأشخاص بتخويفه، وبناء على هذا أعلن العصيان، وجمع حشود العسكر من «له»، وأتى ونزل إلى الموضع المعروف باسم «چوچوره» تجاه «باش بازاري» التي كانت دار ملك البغدان.

وكان ذلك المكان «چوچوره» هو أيضًا الموضع الذي نزل فيه الملعون «قيجلار» المشهور في مملكة «له»، والذي كان سردارًا لعسكرها ونائبًا للملك في ذلك العصر، مع العسكر الجرارة لحماية ولاية «له» من التتار، وذلك عندما خرج من قبل المرحوم «غازي گراى خان» إلى حملة «يانق» مع عسكر التتار الكثيرة؛ حيث قام بحفر خندق عظيم حول أطرافها، وحارب في هذا الموضع لمدة طويلة مع «غازي گراى خان». وفي النهاية، أبرم الصلح على أن يدفع للتتار كل سنة عشرة آلاف ذهبية كجزية، ومقدارًا من الفرو، وأيضًا مقدارًا آخر من فرو السمور لصنع القلنسوات من نوع قلپاق، وعلى هذا تم فصل قوات الطرفين بهذه الطريقة؛ أي أن عسكر «له» كانوا قد قصدوا ذلك المكان ونزلوا فيه تبركًا وتيمنًا.

ولما وقف «إسكندر باشا» على عصيان «غاشپار» ومجيئه إلى ذلك المكان «چوچوره» مع العساكر الجرارة، وزاد طغيانه بهذه الدرجة، كان يوجد بجواره أكثر من ألف رجل، وأثار حمية تتار «آق كرمان» وأحضر «قالغاي سلطان دولت گراي خان» شقيق الخان مع عدد عظيم من التتار صائدي الأعداء، وساروا جميعًا صوب «غاشپار» واستمرت

الحرب والقتال والجدال العظيم لأكثر من ثلاثين يومًا، وفي النهاية، ولما هب نسيم الظفر على جانب الإسلام، شرع الكفار في الفرار، ولكن يتحرك الكفار بطريقة يصفون فيها العربات حولهم ثلاثة صفوف، وكان الفرسان فقط أكثر من ثلاثين ألفًا، فينزلون من فوق جيادهم، وكان جند المشاة أيضًا أكثر من عشرين ألفًا فيدخلون جميعًا بين العربات ثم يطلقون بنادقهم إلى كل طرف، ويسيرون على هذا النحو وهم قائمون بحرب تشبه حرب الكلاب، وتحف عناية الباري تعالى عسكر الإسلام والتتار المكللين بالنصر؛ فيهجمون فجأة، ويشتتون شمل الكفار. وتم اغتنام مائة وعشرين مدفعًا فقط، وبالقياس على هذا أيضًا تم اغتنام عدد من الغلمان المرغوبين والعربات الكثيرة؛ كما أن الأمتعة الفاخرة وسائر الغنائم التي صارت من نصيب أهل الإسلام كان لا يحيط علمًا بحدودها وعددها إلا حضرة الباري تعالى فقط.

وصار أكثر من مائة أمير من أمراء «له» الكبار بعضهم أسرى وبعضهم الآخر أُسر في وادي جهنم، كما أُسر قائدهم الملعون المعروف باسم «دنلقو»، وقائدهم الثاني عديم الدين «قوتسپولقن»؛ حيث أُرسلا إلى بلاط ركاب السلطان فاتح العالم مغلولة أيديهم ومربوطة بالسلاسل، وبناءً على ما قرره الملعونان المذكوران، كان عدد جندهم المسجلين بالدفتر ثلاثة وخمسين ألف جندي. أما عسكر الإسلام الذين هزموا هؤلاء كانوا عشرة آلاف جندي فقط، وبعد ذلك أطلق «مره حسين باشا» سراح ذلك الملعون الكبير في مقابل طقم أواني فضية بقيمة ألف غروش، وبينما كان مقرر تسليمه إلى كفار «غلطه» مقابل فدية تقدر بمائة ألف غروش تمامًا، وقع تصرف «مره حسين باشا» غير المناسب وغير اللائق على هذا النحو.

وكان كتخدا «إسكندر باشا» قد أسر قبل تلك الواقعة، وأنه كان موجودًا بجانب «غاشپار» أثناء عصيانه، وكان الملعون المذكور قد اشتراه بدفع ثمنه، وحبسه، فعندما دخل الملعون قلعته، يؤكد كتخدا إسكندر باشا أنه اشترى قلعة بنواحيها بخمسمائة وخمسين ألف غروش، وأنه دفع ثمنها من ماله، وهكذا يحمي حكام الكفار الكافر على هذا النحو، أما أمراء أهل الإسلام فهم يسلخون جلد فقرائهم.

ومن نوادر الوقائع

تجمد بوغاز «إستانبول»

لقد أرخ الشاعران الماهران «سيد هاشمي» و«نشاطي» هذه النادرة في أشعارهما، ولم تفصل، نظرًا لأنها لم تثمر عن أي نتيجة. (سيد هاشمي):

تجمدت المياه بين «إستانبول» و«إسكدار» وصار الشتاء قارصًا
ويعبر ويسير الرجل إلى كل اتجاه دون أن يخاف الثلج
وصار البحر والبر واحدًا، فاذهب وانظر لهذا بعين العبرة
فإذا مسحت تلك العناية غبارها في العين وبلغت
فسر وتضرع إلى المولى بما يذيب القلب
إننا نأمل أن تدفع البرودة، وليؤثر الكلام
فقلت: يا «هاشمي» تاريخك في لفظه ومعناه
وتجمد البحر الأبيض وأصبح الطريق إلى «أسكدار» في ثلاثين وألف

- أما تاريخ «نشاطي» فيقول:

الشتاء الذي صار في إستانبول هذا العام بأمر الحق
ربما لم يحدث شتاء مثله منذ أن خلقت الدنيا
تجمد ما بين «أسكدار» و«إستانبول» وجف البحر
والشخص الذي يرى هذا كان يظن أن البحر غدا صحراء
فمن رأى هذا فإنه يرى أنه يتنزه بعضهم
في البحر وفوق الجليد كتنزههم على اليابس بلا خوف
وفي لحظة تجمد نفس الإنسان
وأهلك برد الشتاء كثيرًا من المخلوقات

وأرخ «ناشطي» لهذا لفظًا ومعنى

فالغوث لقد تجمد البحر من البرد في ثلاثين وألف

قيام السلطان صاحب السعادة بقتل أخيه الأصغر السلطان «محمد خان» سنة ١٠٢٩ هجرية[١]

وفي هذا الحين، أمر السلطان صاحب السعادة بقتل الشهزاده سلطان «محمد خان» الذي كان شقيقًا له بلا سبب وبلا جرم رحمة الله تعالى عليه، ويروى أنه ارتكب هذا الجرم بفتوى «طاش كبرى زاده كمال أفندي» ويروى أنه لما أراد السلطان صاحب السعادة الفتوى من شيخ الإسلام «أسعد أفندي» في هذا الموضوع، لم يرض «أسعد أفندي» بإصدارها.

في ذكر وفاة الوزير الأعظم «علي باشا» ووزارة «حسين باشا» ١٠٣٠ هجرية[٢]

بينما كان السلطان صاحب السعادة متهيئًا لحملة «حوتين» وفي الوقت الذي كان فيه «علي باشا» يعد مهمات الحملة، حان أجله المقدر وحاشا عن السامعين فقد زاد عنده مرض المثانة الذي كان قد أصابه منذ القدم، وودع العالم الفاني؛ رحمة الله تعالى عليه، وكان شخصًا ذا وجه ضاحك جدًا، وكان يظهر المحبة لكل شخص وكان صاحب خلق حسن، وربما لم يوبخ أي شخص علنًا في فترة وزارته، وأي شيء كان يفعله فقد فعله من وراء حجاب، وكان حظ «عمر خواجه» عظيمًا؛ حيث كان لا يزال في «أسكدار» لما ذهب «علي باشا» إلى عالم الرحمة؛ ففي الحال عاد إلى إستانبول مرة أخرى، ونصب حسين باشا الذي تولى رتبة بوستانجي باشي سابقًا وزيرًا أعظم ومدبرًا لجمهور الأمم بدلا منه.

---

(١) الموافق سنة ١٦٢٠م.

(٢) الموافق سنة ١٦٢٠- ١٦٢١ م

توجه المرحوم السلطان «عثمان» إلى حملة «حوتين» وعودته بلا فتح في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٠٣٠ هجرية[1]

لما كان واضحًا وجليًا في الضمير المنير لسلطان الآفاق تجاوز الـ «قزاق» العصاة، وسيئ الخلق الذي كان ملكًا على «له» على الممالك المحروسة، وأنهم قاموا بتخريب سواحل البحر الأسود، وأنه تعذر دفع أذاهم، وأن العساكر الذين شعارهم الهزيمة قد رفعوا راية العصيان مرتين، ودخلوا إلى الممالك السلطانية من أجل مخالفة السلطان صاحب الجاه، وأنهم في كل مرة حاربوا فيها مع المرحوم «إسكندر باشا» عادوا منهزمين، ولما كان من الضروري خروج السلطان شخصيًا حماية للشرف السلطاني، فقد خرج السلطان في التاريخ المذكور بالموكب السلطاني من دار الملك القسطنطينية العلية، وتوجه بنية الإغارة على ممالك «له» المنحوسة وتخريبها، وفي اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور[2]، دخل دار الملك «أدرنه». وبعد ذلك، رؤي أنه من المناسب التحرك من «أدرنه» عن طريق «قرين آباد». وغضب سلطان العصر على طائفة «جاشنكير»؛ أي الذواقة الذين لم يتواجدوا للسلام والتحية في المكان المعروف باسم «آخور كويي»، وأمر بأن تقطع علوفاتهم، وفي غرة شعبان[3]، انبسط ظل سعادته قرب قصبة «إيدوس»، وفي الثاني والعشرين من شعبان[4]، وصل إلى صحراء «إيساقجي إسكله سى». وفي اليوم الرابع من رمضان الشريف[5]، قام بالعبور من «طونه» مارًا بساحل الـ «أفلاق»، وقد هل العيد الأكبر في المنزل المعروف باسم «ساسار»، وسعد جملة الأركان، وسروا بتقبيل ذيل ثوب سلطان العصر على النحو المعتاد منذ القدم. وفي اليوم السادس من الشهر المذكور، تم النزول إلى المنزل المعروف باسم «وارباش»،

(١) الموافق ٢٩ من إبريل ١٦٢١م.
(٢) الموافق ١٨ من مارس ١٦٢١م.
(٣) الموافق ٢١ من يونيه ١٦٢١م.
(٤) الموافق ١٢ من يوليو ١٦٢١م.
(٥) الموافق ٢٣ من يوليو.

وأنعم بنصف قرش على كل فرد من طائفة الإنكشارية؛ حيث كان الأفراد يمرون من أمام السلطان فرادى ومثانى. وهكذا، أجرى التفتيش الشكلي عليهم؛ مما كان باعثا على كمال انحراف قلوب تلك الطائفة؛ أي باعثًا على غضبهم.

وكان قد تحصن عدد من كفار «له» ومن بقية سيوف الأعداء الذين هزموا «حاجي باشا» و«كور حسين باشا» في إحدى المغارات، ووصل السلطان صاحب السعادة في اليوم التاسع من الشهر المذكور إلى ذلك المكان، ولما كان من الضروري أن يستريح في موضع ما، جلس تحت مظلة، وبينما كان هؤلاء الملاعين الذين في المغارة على وشك أن تشعل عليهم النيران بالبارود، خرجوا إلى الخارج، وقتلوا واحدًا واحدًا؛ حيث غاصوا في قعر جهنم، وفي اليوم الرابع عشر من الشهر المذكور أيضًا، أقيمت خيام السلطان المكلل بالظفر في مواجهة طابور الكفار، وفي اليوم التالي، شرف «تتار خان» مع عسكر التتار الجرارة بتقبيل يد سلطان العصر، وفي ذلك الحين، وضعت طرة قيمة مزدانة بالجواهر في تاجه المملوء بالبهجة، وربط أيضًا في خصره حافظة سهام، وأحسن عليه بخلعتين ثمينتين ولمعانها مثل شعاع الشمس، وجوادًا سريعًا مع طاقمه المرصع، وكلما كان يأتي ويقبل تراب قدم الركاب السلطاني، كان يحسن وينعم عليه بفروة أو فروتين من حيوان السمور والدويبة الجارحة التي تشبه القط، وثوبين من الخلع التي تورث البهجة.

وبعد ذلك، أمر سلطان المملكة الجند الخفيفة الذين شكلوا من جند التتار والعثمانيين بالهجوم. ووصل الوضع إلى الدرجة التي كان يخرج فيها كل يوم أربعة أو خمسة آلاف رجل إلى النواحي الأربع، وكان ذلك العدد من الجند يعود ويدخل إلى الجيش الهمايوني، وكان قد شرع في حرب طابور الكفار، وكانت الحرب والقتال تشتعل كل يوم بتلك الدرجة التي يمدحها ويثني عليها الملائكة في السماء، وقام «قره قاش باشا» بهجوم ضاري على الطابور في اليوم التالي لمجيئه، ولكن نظرًا لأن الذين كانوا خلفه لم يساعدوه، فقد اعتلى رتبة الشهادة، وفي النهاية، قام السلطان صاحب السعادة بعزل «حسين باشا»؛ بسبب أنه دفع بـ «قره قاش باشا» في مكان غير مناسب بسبب

الخوف على منصبه، ولم يقتحم هو غمار المعركة ولجأ إلى ظل شجرة؛ ونصب مكانه «دلاور باشا»، وقد وقع الهجوم لمرات عديدة بمساعي «دلاور باشا»، ولكن لم يكن الظفر مقدرًا ولا ميسرًا له، وعمومًا فقد استمر القتال والجدال أربعة وثلاثين يومًا، ولم تتوقف الإغارة على تلك الممالك المنحوسة في أي يوم، فإنه لم يتحقق الظفر على الطابور المقهور بأي وجه. فليس هناك من شك في أن جناب الحق قد عاقب السلطانين ساميا الجاه [السلطان عثمان، وتتار خان] بعدم انتصارهما على طابور كفار «له» الذين يعرفون بالتخنث والجبن في الوقت الذي كان فيه المرتد ملك «له» غير موجود في الطابور؛ وإنما كان النجس ابنه سردارًا على جنده.

ـ ومن البدائع: لما توفي الوزير الأعظم «علي باشا»، عين «حسين باشا» وزيرًا أعظما بدلًا منه، ونظرًا لأن «حسين باشا» كان مائلًا للمرحوم «دياق محمد باشا» وراضيًا بكل ما يقوله، قام بتيسير مقابلته بالجناب السلطاني شخصيًا قائلًا في حقه: «إن المرحوم «دياق محمد باشا» خبيرًا بالحدود وكريمًا وشديد المراس، وأنه لا يوجد شخص بين وكلاء الدولة، بعد المرحوم «إسكندر باشا»، أعلم وأدرى منه بأحوال العدو، كما لا يوجد شخص أعلم منه بأمور الحرب والقتال»، ولما كان هذا هو وقت التوجه إلى الحملة، أمر السلطان بأن يسأل «دياق محمد باشا» عن بعض الأشياء.

ويروي المرحوم «دياق» نفسه، أن أغا دار السعادة «سليمان أغا» الذي كان حبشي البشرة وصاحب دراية ببعض الأمور الجزئية، فإنه كان عديم الإحاطة بأحوال العدو وقاصر الدراية بأمور الحرب ومسائل الحدود ـ كان موجودًا في ذلك المكان؛ فيستفسر من «دياق باشا» بقوله: «هل يمكن لملك «له» أن يواجه السلطان، وهل لديه قدرة على أن يجرؤ على هذا؟». فيجيب «دياق»: «ينبغي علينا أن نقول سيأتي، وطبقًا لهذا، علينا أن نباشر إعداد تجهيزاتنا، فإذا أتى، فلن نكون ارتكبنا تقصيرًا في اتخاذ التدابير. وإذا لم يأت فالعظمة للسلطان، ولن تؤخذ من أيدينا»، وعلى هذا يرد الأغا باضطراب: «كنا نظن أنك صاحب دراية بأمور الحدود وبالعدو. والواقع أنه لا يوجد لديك خبر عما في الأرض وما في السماء، فهل يستطيع ملك «له» أن يأتي للقاء السلطان قط أو هل يجرؤ على ذلك عديم الدين؟ إنما أقصد أن أقول: هل يوجد لدى هذا العسكر الذين يمكن أن

يواجهون «آل عثمان»؟ أو هل يوجد لديه الجند الذين سيدبرون معه؟»، فيجيب «دياق محمد باشا»: «سلطاني، لا يمكن أن يستهان بالعدو. فكل الكفرة ملة واحدة. فليكن مؤكد وموثوق لديكم أن «نمچه» و«موسقو» و«قزاق» و«المجر» وأيضًا «فرنك» وربما حتى «رين بابا» يقومون بتقديم المساعدات لهم، فمن لا يعطي منهم العسكر، يقدم المال؛ ومن لا يقدم المال، يرسل العسكر، ويعلن الكفار نفيرًا عامًا من أجل غيره شرف دينهم الباطل، وإن معظم الذين لديهم قدرة على القتال منهم، شديدي الرغبة في التواجد معهم سويًا في القتال»، ولكن كل هذه التصريحات لا تطمئن الأغا؛ ويستمر في الغرور.

ومن المعلوم أنه لم يكن هناك شخص أقرب من ذلك الشخص أغا دار السعادة إلى السلطان صاحب السعادة. وكان تقربه من الوزير الأعظم، وربما من والدته أيضًا عظيمًا. فإذا دخل السلطان في العربة، كان يدخل معه سويًا، وإذا ركب المحفة، كان يركب معه، وربما كان يدفع السلطان صاحب السعادة إلى الغرور في كل لحظة بكلماته التي كانت تبعث على الغرور بدرجة عظيمة، وقد أومأنا وأشرنا إلى شآمة الغرور في مواطن كثيرة، والآن علينا أن نعود ثانية إلى ما نحن بصدده أي إلى موضوعنا الأصلي.

وقام «رادول بك» الذي كان أشهر نبلاء الـ «بغدان» في ذلك الوقت وكان واليًا على الـ «بغدان» من الجانب السلطاني، وكانت لديه حقوق كثيرة على كفار «له»، خلاف حقوق القرابة والمجاورة، وعلاوة على أنه كان مشتركًا معهم في الكفر، قام بالتوسط بين الطرفين وجعلهم يبرمون الصلح، وكانت قلعة «حوتين» عبارة عن سراي صغيرة تقع على حدود الـ «بغدان» منذ القدم، فلما أعلن «غاشپار» اللعين العصيان، سلم هذه القلعة لملك «له» حتى يكون مُعينًا له، وكان ملك «له» أيضًا قد وضع بداخلها مائة أو مائتين من جند المشاة، ولكن هؤلاء كانوا لا ينتفعون منها بفلس أحمر، ولم تتغير حالتهم سواء غناهم أو فقرهم، وبعد ذلك عقدوا العهد والميثاق بشرط تسليم القلعة المذكورة إلى الـ «بغدان»، وألا يتعدى أشقياء الـ «قزاق» على الممالك المحروسة.

ولما حلت أيام الشتاء وجاء موسم البرد، تحركوا من ذلك المكان في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة[1]، وعادوا ووصلوا إلى القسطنطينية المحمية العلية في اليوم الثامن والعشرين من صفر المظفر سنة ١٠٣١ هجرية[2].

في ذكر استشهاد المرحوم السلطان عثمان وجلوس السلطان «مصطفى» مرة أخرى في ٨ من رجب ١٠٣١ هجرية[3]

ومع أن السكوت في هذا الباب أكثر لطفًا من إيراد هذه الواقعة الموحشة، فإنه لما رؤي أن التزام إيراد النوادر في هذه المجموعة مناسب، فإن عدم كتابة هذه النادرة العظيمة غير لائق. وهكذا أوردناها لهذا السبب:

لما وصل سلطان العصر والأوان أعني السلطان «عثمان خان» إلى «إستانبول»، أصابه انكسار قلب وتعب شديد لعدم هزيمة طابور الكفار وانكساره على أي نحو، حيث حمل ذلك على عدم اهتمام العسكر، وقام بالاستعداد لطواف بيت الله الحرام، ولزيارة الروضة المطهرة لسيد الأنام عليه السلام؛ وقام بالتوجه صوب مقصده، وعين فردين من أغوات البلوك اللذين سيذهبان معه من جند بلوك خلقي، وعين «زغرجي باشي» أغا لفرقة الإنكشارية؛ وقرروا الذهاب جميعًا، وشاع على ألسنة بعض العوام أن مقصده كان الحج الشريف، ولكن حقيقة الحال أن السلطان أراد ـ باقتراح أغا دار السعادة ـ أن يجعل قاهرة مصر دار ملك [أي عاصمة] للسلطنة، وكان قد سبق أيضًا أن العوام تأذوا بسبب إقدامه على تفتيش الإنكشارية بحجة توزيع الإنعام كما ذُكر فيما مضى، أما السباهية لما فروا من المكان الذي كان السلطان صاحب السعادة فيه يسير وذلك أثناء استشهاد «قره قاش باشا»، ولما نقلت إليهم بعض الأخبار الموحشة التي تؤذيهم من جانب السلطان؛ بسبب فرارهم، انكسر خاطر تلك الطائفة أيضًا، وهكذا كانت كل هذه الأمور من أسباب الفتنة والفساد.

---

(١) الموافق ٢٢ من سبتمبر سنة ١٦٢١م.

(٢) الموافق ١٤ من يناير ١٦٢٢م.

(٣) الموافق ١٩ من مارس ١٦٢٢م.

وفي ذلك اليوم الذي كان يوافق الثامن من رجب سنة ١٠٣١ هجرية الموفق يوم الأربعاء، كنا نجلس في مجلس المرحوم «باقي باشا»؛ فوصلت إلى الساحل سفينة من نوع «قادرغة» لتحميل خيام السلطان صاحب السعادة وأتى رجل من الديوان قائلًا: «أرسلوا أنتم أيضًا خيامكم»، وكان حضرة «محمد باشا» الذي كان آنذاك وزيرًا عالي القدر مع رتبة «باش دفتردار»، كان في ذلك الحين مشرفًا بوظيفة كتخدا المرحوم «باقي باشا». فتحدث مع هؤلاء الذين جاءوا بالخبر قائلًا لهم: «الغوث يا هو، ينبغي ألا تبقى خيامنا نحن أيضًا»، وبينما كان هؤلاء ينزلون إلى منازلهم السعيدة، وبينما كانوا مشغولين بنقل الخيام، وصلتُ أنا هذا الفقير آنذاك مع «رمضان چاوش» الذي كان صهري.

ـ ومن غرائب الأحكام: لقد أتى في ذلك المكان المرحوم «منجم باشي محمد أفندي». فقال «رمضان چاوش»: «الغوث، فلنأخذ هذا بيننا، ولنجعله يتكلم». وأفسحنا له المكان بيننا، وبدأ بالضحك لانشغال «محمد كتخدا» بإخراج الخيام، وقال: إنهم يتعبون أنفسهم بلا فائدة. ولما قلنا: «ماذا يحتمل بعد هذا ؟ ما دام أن خيام السلطان صاحب السعادة قد عبرت، فهل هناك إمكانية لعدم الذهاب ؟»، أجاب قائلًا: «لا يوجد ذلك الاحتمال من بعد أي عبور السلطان، فذلك لم يعبر، وهذا أيضًا لن يعبر»، وعاندنا وكنا مصرين جدًا في هذا الموضوع، فإنه لم يعد عن كلمته، وفي هذه الأثناء، جاء أحد أفراد خدم «باقي باشا» وهو يركض في عرقه، وأخبر بأن هناك ضوضاء عظيمة عند السليمانية كما لو كان خلق الدنيا قد اجتمعوا عند باب الأغا، وعلى هذا، قال «محمد چلبي» في الحال: «ألم أقل لكم؟ وأيضًا سترون ما سوف يحدث». إلا أننا قلنا: «هل هناك احتمال أن يتكدر السلطان صاحب السعادة»؛ فأجاب على هذا بقوله: «إنني لا أعرف ماذا يحدث؟ ولكن لا يبقي حتى رمضان المبارك».

ولقد سألت بعد هذا المرحوم «منجم باشي» عن مأخذ هذا الحكم مرات ومرات، وتوسلت إليه قائلًا: «قل، من أين استنبطت هذا الحكم»، وفي كل مرة كان ينكر مأخذ أو مصدر هذا الحكم، ولكن اكتفى بالحديث بهذا القدر، إذ كان يقول: «أحيانًا يخرج من فمي كلام غير مفهوم؛ يعني يصدر عني بإفادة لغة العجم القول الخرف أي الهذيان.

وهذه هي واحدة من تلك الأقوال»، ولما قلت له: «أرجوك قل من أين أصدرت حكمك على السلطان صاحب السعادة؟»، أجاب بهذا القدر فقط: «كان قد وقع الكسوف في برج طالع ولادته، فكان ذلك مقررًا طبقًا لعلم النجوم».

ومن ناحية أخرى، وصل جند الإنكشارية والسباهية إلى سراي «دلاور باشا»، ومن هناك جاءوا إلى «عمر خواجه»، وقالوا له: «هل أنتم مع نا في منع توجه السلطان صاحب السعادة إلى الحجاز؟»، فأعاد «دلاور باشا» و«عمر خواجه» هؤلاء بالجواب اليائس. وعلى هذا، اجتمعوا في ساحة «آت ميداني»، ومن ناحية أخرى أيضًا اجتمع العلماء والمشايخ والسادات في مجلس السلطان، وقام السلطان صاحب السعادة بتخويف هؤلاء العلماء والمشايخ والسادات قائلا لهم: «إن انحراف الأشقياء هذا وآثار تلك الفتنة، هي من تدبيركم، والذي سأفعله بهم، سوف أفعله بكم»، وبالفعل يجيب حضرة شيخ الإسلام «يحيى أفندي» قائلًا: «حاشا يا سلطاني، إن دعاتكم من العلماء ليس هم الذين حرضوا الأشقياء، ولكننا كنا فقط لا نريد اعتزامكم هذا من أعماقنا. وسبب هذا أيضًا أن أجدادكم العظام لم يفعلوا شيئًا على هذا النحو، ولم يسلكوا مثل هذا الطريق. فإذا كان لدينا ذنب، فسيكون بهذا القدر فقط».

وكان الجند يريدون رءوس «دلاور باشا» و«خواجه عمر أفندي» و«أغا دار السعادة»، ويقولون: إن هؤلاء هم الذين يقترحون على سلطاننا باستمرار الأمور غير المعقولة. وكان «دلاور باشا» قد هرب في ذلك الوقت، ودخل تكية حضرة «محمود أفندي» الأسكداري مرتديًا العباءات، وفي الحال، أرسل «بوستانجي باشي» زورقًا وأمر بإحضاره، ولكن السلطان صاحب السعادة لم يرض قط بتسليمه إلى العصاة أي الإنكشارية والسباهية، ويبذل العلماء والمشايخ المساعي الجليلة، ويقولون: إنه في زمن أجدادكم العظام خمد هذا النوع من الفتن بهذه الطريقة، ولكنهم لم يستطيعوا إقناعه بذلك. وانفض الاجتماع على هذا النحو.

ويروون أن نقيب الأشراف «غباري أفندي» لما خرج في تلك الأثناء، قال لطائفة الخدم: «لم تقبل كلمتنا، فأدخلوا أنتم وتحدثوا»، وربما أجاب إجابة ماكرة قائلًا: «لا

تتأخروا عما تعرفون». وبسرعة ملأ الخدم أرجاء السراي العامرة، وفتح الباب الهمايوني وسائر أبواب السراي، وكان خدم الداخل قد انزووا، كل واحد منهم في ركن، واقتحم العصاة السراي حتى وصلوا إلى «خاص أوطه»، حتى إن بعض الأشقياء استولوا على بعض الأشياء، وبعد ذلك، عثروا على السلطان «مصطفى»، وسحبوه من شباك علوي وأخرجوه وأجلسوه في الديوان خانه الذي يجلس فيه الوزراء، وقاموا بمبايعته. وكان المرحوم شيخ الإسلام «أسعد أفندي» قد أتى من طرف السلطان، وكان موجودًا في هذه الأثناء في ذلك المكان، وعندما كلفوه بمبايعة السلطان «مصطفى»، فعلى إثر قوله: «إن مبايعة السلطان «مصطفى» ليست جائزة شرعًا»، هجموا عليه بآلات الحرب، وجعلوه يبايعه طوعًا وكرهًا. ولما علم المرحوم السلطان «عثمان» بهذه الأحوال، أرسل «دلاور باشا» وأغا دار السعادة على العصاة، وعندما رأى العصاة أن هؤلاء أي «دلاور باشا»، وأغا دار السعادة يأتون إلى الباب الهمايوني، هجموا عليهما بالسيف، ومزقوهما إربًا إربا، وبعد ذلك، أخذوا السلطان «مصطفى» مع والدته ومربيته، وأركبوهم جميعًا عربة المرضى المستخدمة في السراي العامرة، وحملوهم إلى حجرات الإنكشارية ووضعوهم في «أورته جامع».

وبينما كانوا يحملون السلطان «مصطفى» بهذا الوضع الغريب، كنا نشاهد المنظر من النوافذ التي تطل على الشارع الواسع الذي كان يقع بالقرب من «شهزاده جامع»، وكان الناس قد اجتمعوا كما لو كانت القيامة قد قامت وبعث الناس في يوم المحشر، وكان قد امتلأ ذلك الشارع الواسع بالدرجة التي كان لا يمكن لإبرة أن تسقط من السماء على الأرض، وقد اجتمع الناس حول العربة المعهودة التي تقل السلطان مصطفى، وأخذوا يتزاحمون ويمزقون قطعًا من أذيال أثوابهم، ثم يعلقونها في العربة كعلامة وإشارة، وكان السلطان «مصطفى» يجلس في الجزء الخلفي من العربة في وضع لا يمكن فيه أن يرى. وكانت والدته التي تجلس في الأمام تأخذ تلك العلامات التي يعطيها الخلق، وتعد الناس بالوعود الطيبة، وشاهدنا بأعيننا أنهم حملوهم بهذه الطريقة ونقلوهم على هذا النحو.

أما السلطان «عثمان» فكان بلا خبر عن بلوغ الأمر لهذه الدرجة، وكان قد وجه منصب الصدارة العظمى إلى «حسين باشا»، ومنصب أغا الإنكشارية إلى «قرق چشمه لو قره علي أغا»، وحان وقت العصر، ويشرع «حسين باشا» في القيام بالدورية، ويتجول بالمدينة، وجاء إلى جامع الشهزاده الشريف [شهزاده جامع] مع كثير من الناس، ونزل من فوق جواده ودخل إلى الجامع، وكأنه قام بالاستمالة لبعض الأشخاص، ولم يمكث هناك كثيرًا؛ حيث ذهب ثانية، ومر «قره علي أغا» من أمام منزلنا وذهب إلى داره، وحتى صديقنا «قزانجي زاده أحمد أغا» الذي كان من أغوات الأوجاق والذي كان في رتبة «يايابكي» وهى إحدى مراتب رئاسة السكبان ذهب إلى «علي أغا» ليهنئه على وظيفته الجديدة، وعندما عاد «قزانجي زاده أحمد أغا»، سألته قائلًا: «أيها الأغا ما هذا الوضع؟ لقد اجتمع جميع الخدم في «أورته جامع»، وقالوا: لقد جعلنا السلطان «مصطفى» سلطانًا. وأن هؤلاء لا يزالون في هذا الوادي». فأجاب «أحمد أغا» قائلًا: «إنني هذا الفقير استفسرت الآن من «علي أغا» عن هذا؛ فأجاب قائلًا: لا يوجد هناك شيء، فقد اجتمع بعض الأصاغر والأراذل، وإن شاء الله تعالى سيتم القضاء عليهم الليلة وستدفع هذه الفتنة»، وجاء «عجم حسن أغا» الذي كان يشغل منصب أمير سنجق، وقام بختم سراي «باقي باشا» قائلًا: «لقد هرب باقي باشا». ويبحث أيضًا «حسين باشا» المرشح لأن يكون صدرًا أعظم عن المكان الذي سيقبض عليه فيه بموجب مضمون المصرع: «الصيد الذي يحين موعده، يتجه إلى المكان الذي به الصياد»، ويقول للمرحوم السلطان: «ما دام أن الوضع قد صار على هذا النحو، تعال ولنأخذ ثلاثة أو أربعة أكياس ذهب، ولنذهب إلى باب الأغا، ومن هناك نتوجه إلى حجرات الإنكشارية وإلى كبرائهم، ولنوزع على بعضهم مالًا، ولنتضرع لبعضهم»، وبعد ذلك، أحضروا جوادًا للمرحوم السلطان الذي قبل هذا الاقتراح، ويروي «صدقي چلبي» الذي كان «تذكرة جي» أي كاتب تذاكر «حسين باشا» ما يلي: لقد قلت لـ «حسين باشا» إنني لا أعرف ماذا سوف تكون نتيجة تدبيركم هذا؟ فجملة الإنكشارية بالاتفاق يقولون: لقد جعلنا السلطان «مصطفى» سلطانًا؛ وأنتم تأخذون إليهم السلطان المظلوم ـ الذي لم

يريدوه ـ على أقدامه، ولكن لم يجب قط، فقلت: إنه يسكت من حيرته، وسألته ثانية، ولم يجب أيضًا، وفي المرة الثالثة، وبينما كان يخرج من الحديقة الخاصة وفي أثناء سيري بجانبه ماشيًا، كررت السؤال نفسه، وفي هذه المرة، سفهني وقال: «لا أعرف، ماذا تقول؟! وكيف يحدث ذلك؟! فليصاب العالم بالفزع، ولتقم القيامة ولو يكن الحكم من نصيب أي منهم، فليكن ذلك هو السلطان، وعليه أن ينظم ويرتب أحوال العالم بمفرده»، وذهبنا في تلك الليلة قبل العشاء إلى باب الأغا وأمضينا تلك الليلة في عناء شديد وحتى الصباح تتوارد إلى أذهاننا الأفكار السيئة.

ولما أصبح الصباح، ركب أهل الدنيا على قدم الشيطان ثانية؛ أي أن الألف قدم وقفت على قدم واحدة، وصارت الأسواق لا تسع الناس، وامتلأت الدنيا بالفتنة والفساد مرة أخرى، وفي هذه الأثناء، أرسل السلطان المظلوم، أغا الإنكشارية إلى «أورته جامع». وقام الأغا بمحاولات كثيرة للاستمالة وتقديم الوعود، فإن العصاة لم يتيحوا لو فرصة الحديث قط، وهجموا عليه بالسيوف وقتلوه، ولما علم العصاة أن السلطان المظلوم موجود عند باب الأغا، جاءوا جميعًا إلى هناك، ومزقوا «حسين باشا» أيضًا في ذلك المكان، وبعد ذلك، قاموا بإخراج السلطان المظلوم من المكان الذي اختفى فيه. ومرة أخرى، شاهدنا من نافذة المنزل أنهم وجدوا في الطريق رجلًا حقيرًا، رث الثياب، مهلهل الحال؛ فأنزلوه من فوق جواده، وأركبوا السلطان المظلوم ذلك الجواد، وكانت توجد فوق ظهره عباءة بيضاء قديمة من نوع عنتري، وعلى رأسه قلنسوة ممزقة من القطيفة، وكانت قد لفت عمامة قذرة جدًا فوق عمامة كانوا قد أخذوها أيضًا من شخص صادفوه في الطريق، وألبسوها للسلطان المظلوم، واصطف وأحاط بالمسكين كل من هو موجود في الدنيا من المفسدين والفاسدين، كما أن الأوضاع الغريبة والشتائم الغجيبة التي حدثت لا يمكن خطها ليس بالقلم فحسب، بل ولا إيرادها على اللسان، ومع أننا كنا نشاهد من ذلك المكان، فإننا لم نكن نسمع ما يقولون، ولكن سمعنا بعد ذلك ما قالوه من «قره مزاق». وحملوا السلطان «عثمان» إلى «أورته جامع» بهذه الصورة، وكان «قره مزاق» المذكور في رتبة «أورته جاوش» [أي جاوش الفرقة]

في ذلك الوقت، وكان قد تربى في خدمة المرحوم «أحمد أغا» سالف الذكر، وكان أقرب رجل إليه، وبعد أن حمل «قره مزاق» السلطان «مصطفى» إلى السراي العامرة، انصرف عن مجلس الأشقياء هذا وجاء مباشرة إلى «أحمد أغا» وروى ما جرى في المجلس يعني في المسجد على هذا النحو:

لما دخل المرحوم السلطان «عثمان» المسجد، لم يبق شك لدى والدة السلطان «مصطفى» في إتمام سلطنة ابنها، وأتى إلى ذلك المكان «كتخدا بك»، و«زغرجي باشي» من آغوات الأوجاق، وكنا سبعة أو ثمانية أغوات من الذين كانوا أقل من هؤلاء رتبة. وبدأت والدة السلطان بالتشاور معنا عمن يكون وزيرًا أعظم، وبعد المشاورات، فهمنا أنها تريد «داود باشا» نظرًا لأنه كان صهرها، ونحن أيضًا قلنا: «معقول». وسألت قائلة: هل يوجد شخص بيننا يعرف كتابة الخط. فأشار الأغوات إليّ أنا هذا الحقير «بچوي». وفي الحال أمروا بإحضار الدواية والقلم، وفي البداية كتبت الخط الشريف لمنصب الوزارة العظمى، وبعد ذلك، صدر الأمر بالإحسان بثمانية عشر منصبًا بحسب الطريق بخطنا، حتى إنني كتبت بنفسي خطًا شريفا برتبة چاوش باشي من أجلي.

وفي هذه الأثناء، قامت والدة السلطان بإجلاس السلطان «مصطفى» في المحراب. وأجلست مربيته على ذيل ثوبه وكانت تمسك يديه، ولما كانت الضوضاء تزداد من الناس في الخارج، كان أحيانًا يتخلص من يد المربية ويمسك بحديد شباك الجامع الشريف، رغبة منه في مشاهدة تلك الضوضاء، ولما كان يفعل هكذا، كانت والدته تذهب إلى جواره، ثم تفك أصابعه من حديد الشباك بجهد عظيم وبمساعدة المربية قائلة له: «أسدي، نمري!!»، ثم تحمله إلى المحراب ثانية وتجلسه هناك. ووقع هذا التصرف عدة مرات. أما المرحوم السلطان «عثمان» الذي رأى هذا الوضع فكان يكرر كثيرًا قوله: «انظروا وشاهدوا أيها المساكين! من جعلتموه سلطانًا!! والله ستكونون السبب لانقطاع النسل، وتلحقون بفرقتكم أمرًا تندمون عليه حتى يوم القيامة». وبعد ذلك نزع العمامة القديمة التي على رأسه ووضعها على الأرض، وفي الوقت الذي كانت فيه رأسه عريانة على هذا النحو، انهمرت دموع عينيه المباركة كالسيل، وعاد متوجها إلى الجند وتوسل

إليهم مرات ومرات قائلًا: «أيها الأغوات، لو أنني أخطأت بسبب الجهالة، وبسبب أنني حديث السن، وبتحريض المربين من أرباب السوء، فلا تخطئوا أنتم». وكان يزرف دمع عينيه ويبكي وهو يقول: «انظروا حال الدنيا، فبينما كنت في الصباح سلطانًا، وبينما لم يكن هناك حد ولا حصر لأثوابي وأموالي، فالآن ليس لدي قدرة على شراء عرقية[1] بثمن عشر أقچات»، فقام «طورنه جى باشي» بإخراج رباط عمامة كان في لفافة، وقدمه إليه قائلًا: «سلطاني، إنه نظيف جدًا، لا تبقى رأسكم عريانة، لفوا هذا على رأسكم». ورفض السلطان «عثمان» أخذه في البداية، ثم أخذه ولفه على رأسه بعد ذلك.

وفي هذه الأثناء، جاء «داود باشا» أيضًا إلى ذلك المكان. وكان بجانبه الكافر عديم الدين الذي كان في رتبة «جبه جي باشي»، وربما كان بيده وهق[2]، فبمجرد أن أتى، ألقى على الفور هذا الوهق [الحبل] على السلطان «عثمان»، ولكن المرحوم السلطان «عثمان» أمسك بيده الحبل بشدة، ودفع ذلك الملعون للخلف من شدة خوفه على روحه، ونحن أيضًا قلنا من كل جانب: «يا سلطاني، ماذا فعلت، لو يسمع الآن ذلك من الخارج، سيمزقوننا جميعًا إربًا إربًا»، ومنعناه بقوة، وبعد ذلك، خاطب السلطان «عثمان» «داود باشا» وتحدث إليه بكلام كثير وقال له فيه: «أيها الظالم، ماذا فعلت لك؟ ففي الوقت الذي ارتكبت فيه مرتين أو ثلاثة الجرم الذي كان من الممكن أن تموت على إثره، فإنني لم آمر بقتلك؛ بل وجهت إليك المناصب، وشملتك بالرعاية، فلماذا عداوتك وإهانتك تلك لي ؟!!». ونظر إلينا ثانية وقال: «لن يتركني هذا الظالم، وسيقتلني». أما نحن فكنا نرفع من روحه المعنوية، وكنا نصبره قائلين: «يا سلطاني، هل هناك أي احتمال لحدوث هذا؟ طيب خاطرك المبارك. سيهدأ الناس قليلًا، ويا سلطاننا ستكون أنت حاكمنا مرة أخرى، وحاشا وكلا أن يغدر بك خدمك، وأن يوجهوا الإهانة إليك»، ولكن من ناحية أخرى، كانت والدة السلطان «مصطفى» تهمس إلينا وتتحدث بصوت منخفض

---

(١) العرقية: هي الشيء الذي يمتص العرق الذي يلبس تحت العمامة.

(٢) الوهق: هو الحبل الذي يلقى في أنشوطة لصيد الدواب.

جدًا قائلة: «آه أيها الأغوات، إنكم لا تعلمون من هذا الثعبان، إذا نجا من هنا سالمًا، فلن يترك ذا روح منا أو منكم»، ومرة أخرى أشار «داود باشا» إلى ذلك الملعون الذي كان في رتبة «جبه جي باشي»، وجعله يلقي الوهق [الحبل] على السلطان «عثمان»، وفي هذه المرة أيضًا، منعنا السلطان «عثمان» بقوة من أن يرد عليه.

وبعد ذلك حملوا السلطان «مصطفى» إلى سراي السلطان قبيل وقت العصر. أما السلطان «عثمان» فقد بقي في الجامع الشريف باكيًا، وهكذا فإنني قد أتيت إلى ذلك المكان ونقلت لكم الحساب الذي وقع بين الطرفين بالتمام، فإنني كنتُ لا أجد المكان الذي أستطيع الجلوس أو الوقوف فيه من صفاء ترقيتي إلى رتبة باش جاوش، وكان لا يوجد المكان الذي يسعني.

ومن ناحية أخرى، وبعد أن حمل «داود باشا» السلطان «مصطفى» إلى السراي العامرة، عاد وأتى في الحال، وأركب المرحوم السلطان «عثمان» عربة سوق، واركب بجانبه الحارس الليلي المذموم والمشئوم الذي يعرف باسم «كلندر أوغروسي» الذي كان «كتخدا الصوباشي»؛ أي ضابط المدينة، وأصحبهم بعض الأراذل من رجاله، وسار هو أيضًا خلفهم بعربة؛ حيث حمل السلطان «عثمان» إلى «يدي قله». ولم يتركوا الأمر للمساء؛ وإنما أرسلوا الجلاد، ووقف هو أيضًا عند باب «يدي قله»، وأمر بخنق السلطان «عثمان»، وفي الحال، قام ذلك اللعين المدعو «جبه جي باشي» وكان ملعونًا وعديم دين، قام بقطع أذن السلطان «عثمان» وغالبًا قطع أنفه أيضًا من أجل أن يكون ذلك علامة دالة على الموت، وحملها إلى والدة السلطان «مصطفى»، وفي الصباح الباكر لليوم التالي، أدى حضرة شيخ الإسلام «يحيى أفندي» الصلاة عليه، ودفن عند طرف قدم المرحوم السلطان «أحمد» رحمة الله تعالى عليه.

وبعد ذلك، قبض الصدر الأعظم «گورجي محمد باشا» على ذلك الملعون المدعو «جبه جي باشي»، وأمر بقطع رأسه، وقبض أيضًا على ذلك الملعون المعروف باسم «كلندر أوغروسي»، واقتص منه، وأمر أيضًا بإحضار «داود باشا» أمام سبيل الديوان،

وبينما كان يصدر الأمر للجلادين بقطع رقبته، هرعت إليه جموع الإنكشارية وأنقذوه وحملوه إلى «أورته جامع»، وأخفوه هناك. وبعد ذلك، سار «گورجي محمد باشا» بملابس غير رسمية، وكان «آرنود علي جاوش» الذي كان «جاوش باشي» مراقبًا له، وفي النهاية، كان قد اختفى في مخزن التبن الباقي من حضرة «عرب أرصادي»، فأُخرج وأُحضر واُقتص منه.

جلوس السلطان «مصطفى خان» ابن السلطان «محمد خان» في ٨ من رجب سنة ١٠٣١ هجرية[1]

- في ذكر قطرة من بحر الحوادث والفساد وسائر الاختلافات التي كانت في عصره الشريف:

لما تقرر جلوس السلطان «مصطفى» على العرض المحفوف بالسعادة باتفاق الطوائف المختلفة، امتلأت الأرجاء في الحال بالفتنة والفساد؛ حيث نهبت منازل كثير من الأشخاص، وبينما كان هناك كثير من معلمي العصر، فإنهم صاروا محرومين من الحصول على حقوقهم، واستولى كثير من الأشقياء على الأموال الوفيرة. وقد أسندت الصدارة العظمى أيضًا إلى «داود باشا» بموجب الخط الهمايوني الذي كتبه «قره مزاق»، وقام المذكور بإعطاء كل شخص ما أراد، ولم يتردد في ذلك، ولم يقل إن ذلك كثير، قائلًا في نفسه: «ينبغي أن ألج إلى قلوب العوام، ويجب أن أبقي في منصب الصدارة»، ولما نفدت وظائف الدولة، تحول أيضًا إلى أوقاف المسلمين، فلم يبق منها وظيفة «متولي» ولا وظيفة «ناظر»، ولم يراع الشرع المطهر ولا شروط الوقف، ولما انتهت هذه الوظائف أيضًا، ولما كان يقال لكل فرد: «أوجد لنفسك وظيفة مناسبة»، استحدث الظلمة الوظائف العجيبة والغريبة التي خطرت على عقولهم، وبهذا السبب، ثقبوا كبد الرعايا الفقراء.

(١) الموافق ١٩ - ٣ - ١٦٢٢م.

وقد كان هناك حدث من جملة هذه الأحـداث التي كانت في عصر السلطان «مصطفى»، في قصبة «ذيلة». فقد جاء رجل ذات يوم إلى قصبة «ذيلة» بأمر التفتيش على الكلاب وأفران الخبز فيقول هذا المفتش للذين كانت في دارهم أفران: «إن الشخص غير المحرم يأتي إلى دارك بحجة الأفران»؛ ويقول للذين لم تكن بدارهم أفران: «إنك ترسل أهلك إلى دار غير المحرم لطهي الخبز!!»، وعلى الفور، يباشر عمليات الظلم والتعدي لأخذ أموال الناس طبقًا لقدراتهم المالية.

والأماكن التي ظهرت بها وقائع مثل هذه كثيرة. وقد حُمّل ذلك على عدم قدرة «داود باشا» على التصرف؛ بسبب ميله الشديد للأشقياء، وربما يكون بسبب اتفاقه مع هؤلاء في مثل هذه الأفعال، ثم وجهت الوزارة العظمى إلى «مره حسين باشا» المعزول من «مصر»، باقتراح العلماء الصائب، ولكن لم تبق لـ «حسين باشا» خدمات أو وظائف يمكن أن يعطيها لأحد، وظن أنه يستطيع قطع ألسنة المتكلمين بتوزيعه المال عليهم من الخزينة الداخلية، فإنه لم يخف من الله تعالى ولم يخجل من الناس؛ فكما مصَّ سلفه أي الوزير الأعظم الذي قبله دم الناس، بدد هو أيضًا الخزينة.

وبعد ذلك عُهد بالوزارة العظمى إلى «الفكه لى مصطفى باشا». وهذا أيضًا كان لا يدري شيئًا عن الأرض أو السماء، ولكن بدأ بقبول الرشوة بحجة تبديل المناصب. ومرة أخرى وقبل أن تبلغ فترة صدارة هذا أربعين يومًا، توجه جند «بلوك خلقي» إلى الديوان، وقالوا هذا مرتشي، وعلى هذا، وجهت الوزارة العظمى في اليوم نفسه إلى «خادم گورجي محمد باشا»، وكان قد عُين «محمد باشا» قبل ذلك قائم مقام الصدارة مرة أو مرتين، وكان شخصًا داريًا بالأمور وقادرًا على اتخاذ التدابير. ولكن «مره حسين باشا» اتفق مع الطغاة، وتوجهوا جميعًا إلى الديوان وقالوا: «لا يمكن للباشا الذي عمل ضدنا أن يصير وزيرًا»، حتى إنهم كذبوا بقولهم: «لقد أمر بقتل رجل منا قبل ذلك». وفي الحال أحضر الطغاة «مره»، ورفعوا «گورجي محمد باشا»، وأجلسوا مكانه «مره باشا».

ولكن في هذه المرة، ألغى «مره حسين باشا» العدل والشرع، ولم تكن هناك نهاية لأوضاعه الغريبة، ففي ذات يوم، أمر بإنزال رجل في رتبة أمير أمراء من الديوان، وقام بضربه كيفما أراد، وبعد ذلك، وضع رجلًا ذا شأن من القضاة في الفلكة، وأمر بضربه بشدة، وأخذ ذلك القاضي يستند إلى الأبواب من ألم العصي التي ضرب بها، وأصبح سببًا لاجتماع جملة العلماء في الجامع الشريف للمرحوم السلطان «محمد»، وأرسلوا رجلًا إلى حضرة شيخ الإسلام وطالبوا بإحضاره إلى الجامع، ودعوا الوزير العنيد إلى الجامع الشريف، وقالوا: ينبغي أن يُنظر في دعوانا طبقًا للشرع. ولكن حضرة شيخ الإسلام ذهب قائلًا: «ما دام أنه في مقام الوزارة العظمى، فلن يأتي إلى هنا، وبذلك لا يمكن إجراء الشرع الشريف في حقه. ولكن انتظروا هنا، وينبغي أن أذهب أنا وأحيط السلطان صاحب السعادة علمًا بالوضع، ثم استصدر أمرًا بانتزاع ختم الصدارة العظمى منه»، ولما علم «مره حسين باشا» بتوجه شيخ الإسلام إلى السلطان، أرسل عددًا من رجال السباهية والإنكشارية، فوصل هؤلاء، وقطعوا الطريق على شيخ الإسلام، وأحضروه أيضًا إلى باب الأغا، وأرسلوا رجالًا عدة مرات إلى العلماء والمشايخ وسائر الأعيان الذين كانوا بالجامع. وأخيرًا أرسلوا جماعة تتشكل من غلمان العجم وغلمان السفن وغلمان الجياد لتشتيت العلماء، وكان قد حان وقت المساء، وكان موجودًا بالجامع رجال كثيرون ممن جاءوا للصلاة، فهجمت الجماعة المكلفة بتشتيت العلماء عليهم، وقتلوا معظم الذين كانوا بالجامع، وأخذوا يلقون جثثهم في البحر حتى الصباح.

ولما صار حال العاصمة العلية على هذا النحو، تبادل أمراء الأمراء الموجودين في الأطراف وأمراء سائر التشكيلات الأخبار قائلين: «من المؤكد أن الإنكشارية هم خدم السلطان، أما نحن فخدم من؟». وإنني هذا الحقير[1] كنت دفتر دار «ديار بكر». وعلمت أن هناك رجال يترددون من «حافظ باشا» الموجود في «ديار بكر» في هذه الأثناء إلى «أبازه باشا»، ومن «أبازه باشا» إلى «حافظ باشا»؛ أي أنه كان هناك تعاون بينهما.

(١) المتحدث هنا هو المؤرخ «بجوي إبراهيم أفندي» صاحب هذا الأثر.

ومن جملة هذا الاتفاق؛ أن يعلن «أبازه باشا» العصيان في بداية الأمر، وأن يقوم بقتل أي جندي من الإنكشارية يصادفه بأنواع التحقير قائلًا له: «أنت قاتل خليفة العصر والأوان وسلطان الدنيا»، فإن «حافظ باشا» كان يرى ضرورة أن يتحد جميع الحكام، وأن يتوجهوا إلى «أسكدار» وأن يطلبوا قتلة السلطان، وعلى هذا، فلم تبق لدى طائفة الإنكشارية القدرة على البقاء أو التجوال في الخارج، فجاءوا وملئوا حجراتهم، وفي هذه المرة، كان من الضروري إعداد العسكر لدفع «أبازه باشا».

في ذكر سردارية الوزير «محمود باشا بن جغالة» على «أبازه»

وفي ذات يوم أمر الوزير الأعظم المعتد برأيه والمتجبر بإحضار «محمود باشا» إلى قصره، وقام بتنصيبه سردارًا على حملة «أبازه محمد باشا»، وعُين «قره مزاق» من الإنكشارية أغا على تلك الفرقة وأرسل، وفي تلك الأثناء، كان «أبازه» و«قلاوون يوسف باشا» قد جاءا إلى «أنقرة» مع الأمراء المتفقين معهم علاوة على جندهم من الأشقياء، وعزم «محمود باشا» أيضًا على التوجه إلى ذلك الجانب، ولكنه تمكن فقط من إعداد الذخيرة اليومية للإنكشارية فقط، وعلى الرغم من أنه كان مُكلفًا بالهجوم على المذكور، فإن قول «قره مزاق»: «لا يوجد عندنا الجند الذين يمكن أن يقاوموا هؤلاء»، كان سببًا وراء عدم التوجه. وعلى هذا، عادوا إلى «بروسه»، وأمضوا ذلك الشتاء هناك، ثم أتوا إلى «إستانبول» في ربيع الأول.

استيلاء القزلباش الأوباش على «بغداد» العامرة بالجنان في ١٢ من ربيع الأول سنة ١٠٣٢ هجرية[١]

كان خدم الدولة المحليين؛ أي السكان الأصليين للبلاد قد استولوا على «بغداد» منذ سنوات طويلة، فكانوا أحيانًا يحاصرون أمير أمراءهم بالقلعة ويطلقون المدافع عليه، وأحيانًا يتقاتلون فيما بينهم وأحيانًا أخرى يتصالحون، وهكذا، كانت الأحوال السيئة

(١) الموافق ٣-١-١٦٢٤م.

من هذا القبيل لا تهدأ أبدًا في مقام الخلافة تلك [المقصود بغداد]، ولما عُهد بنظام العالم إلى حكومة أبتر جاهل كـ «مرة حسين باشا»، فقد صدر أمر شريف إلى أمير أمراء «ديار بكر» الوزير «حافظ أحمد باشا»، وكان مضمونه على النحو التالي: «حتمًا ينبغي عليك أن تصل إلى «بغداد»، وأن تقتص من الذين لم ينصاعوا للحكام». وإنني هذا العبد العاجز «بچوي» كنت دفتر دارًا لخزينة «ديار بكر» في ذلك الحين، وكنت أمضي أكثر الأيام والليالي مع الوزير المشار إليه، وكنا نبذل ما في مقدورنا لإعداد لوازم الحملة المشار إليها، وكنا نتحدث باستمرار عن أحوال «بغداد».

وعلم الله وشهد الله وكفى بالله شهيدًا أنني كنتُ أقول للباشا كل يوم وربما عدة مرات في اليوم ذلك القول: «أنتم تتوجهون إلى قوم شؤم، تقولون إن أكثرهم قزلباش، وتؤكدون أن المسافة بين هؤلاء وبين القزلباش منزل واحد. ألا يكون من المحتمل خضوع هؤلاء للقزلباش، ومبادرتهم بتسليم القلعة لهم؛ خوفًا على الرأس والروح وما ملكوا وأهلهم؟»، فكان يجيب قائلًا: «لا، لا يمكن ذلك أبدًا». وكنتُ أقول: «يا، ما الدليل على إقتناعكم على هذا النحو وعلى اطمئنانكم؟». فكان لا يوجد لديه أي إجابة سوى قوله: «ليس ذلك ممكنًا قط». حتى إنني أوردت له هذا المثال مرات عديدة: لقد قتل الخدم المرحوم خالنا «فرهاد باشا» في «بدون»، فأصدر المرحوم السلطان «مراد الثالث» ابن السلطان «سليم الثاني» خطًا شريفًا يقول: «إنه لا بد وأن تجرى مذبحة لبدون». وكان «قوجه سنان باشا» وزيرًا أعظم في ذلك الوقت، فمنع قتل الناس بالمدفع قائلًا: «رجاء يا سلطاني! إنها الحدود، وإنه موقع يبعد عن العدو مسافة ثلاثة أو أربعة أيام فقط، وأنه يجوز أن يسلموا القلعة إلى الكافر؛ بسبب الخوف أو الحرص على الحياة؛ فينبغي علينا أن نعثر على من كانوا سبب الفساد من بينهم، ثم نأمر بالاقتصاص منهم إن شاء الله تعالى»، وبينما لم يكن هناك احتمال لأن يصبح هؤلاء أي أهالي «بدون» كفارًا، ويعلنون الطاعة للكفار؛ نظرًا لأنهم كانوا مسلمين أبًا عن جد، فقد وضع «قوجه سنان باشا» هذا الاحتمال نصب عينيه. وإنني كنتُ أقول: «إن هؤلاء أيضًا أكثرهم قزلباش أبناء قزلباش، لا يتركون دينهم ولا ينفصلون عن مذهبهم، وربما يسعون لتقوية مذهبهم». فكان لا يوجد لدى «حافظ باشا» جواب سوى قوله: «ليس ذلك ممكنًا أبدًا».

وبعد ذلك، وفي الوقت الذي كان فيه الوزير الأعظم «حافظ أحمد باشا» موجودًا في «إستانبول»، ففي ذات مرة، بينما كان «روزنامجه جي إبراهيم أفندي» وقضاة العسكر والدفتردارية وأيضًا بعض الكبار يتناولون الطعام يوم جمعة، قام بعرض عليهم، وكأنه كان يشكو من «مره»، قائلًا: «لقد صحت قائلًا: هل هو ذلك المسلم شاهدًا عليّ، سنصبح السبب لجعلهم يسلمون «بغداد» إلى القزلباش. ولكن «مره» لم يسمع كلمتي». ولكن في الحقيقة كنتُ أنا الفقير الذي قال هذه الكلمة مرارًا، وكان هو بنفسه أي «حافظ باشا» الذي يعارض، وكان مقررًا توجيه منصب السردارية إليه بناءً على رغبته.

وبعد ذلك، لما وصل السردار «حافظ باشا» أمام «بغداد»، تحصن بها العاصي الذي يعرف باسم «بكر صوباشي»، وطلب توجيه «بغداد إليه، على أن يُرسل كل سنة إرسالية قدرها مائة ألف غروش في مقابل هذا، ووعد أيضًا الباشا نفسه بهدايا كثيرة، ولكن «حافظ باشا» لم يوافق على طلبه، وعلى هذا، قام «بكر صوباشي» بإرسال خطاب ورجل إلى القزلباش، فجاء في الحال بعض الخانات وسلاطين القزلباش الموجودين في الحدود، ونزل هؤلاء في الطرف الآخر من «بغداد»، وفي ذلك الوقت، فطن «حافظ باشا» إلى الأمر، وأعطى إيالة «بغداد» إلى «بكر صوباشي»، وأرسل إليه وثيقة البشرى مع أمير «خربوت» «إبراهيم بك»، وعاد عن رأيه الأول قائلًا: «لقد رأيت المصلحة»، وبينما كان «بكر صوباشى» يعد جيدًا للحرب، ويتهيأ للمحاصرة، يقوم ابنه سيئ الأصل والنسب بفتح الباب الصغير للقلعة الداخلية، ويدخل القزلباش إلى القلعة، وبعد ذلك، يدرك «بكر صوباشي» الأمر، لكن حدث ما حدث، فما العمل؟ وهكذا، خضع بهذه الصورة للقزلباش حصن متين كبغداد عاصمة الخلفاء العباسيين ومحسود الملوك والسلاطين، وكان ذلك؛ بسبب الأذى والتحقير الذي وُجه لـ «بكر صوباشي» وتهديده بالقتل بعد ذلك، ثم بسبب محاصرته.

استيلاء القزلباش على الموصل وإخضاعهم الأعراب والأكراد وقيامهم بإرسال «قارچيقاي خان» للهجوم في السنة نفسها

لما عاد «حافظ باشا» من «بغداد» وتوجه إلى «ديار بكر»، قام بإرسال أمير أمراء الموصل «كور حسين باشا» بالوعود الكثيرة من أجل محاصرة «بغداد»، ولكن سكان الموصل كانوا قد سئموا من ظلم هذا الشخص، ورفعوا الشكوى إلى بلاط الشاه، وطلبوا منه حاكمًا ليتولى مهام الموصل، وبناءً على هذا، عهد الشاه بحكم الموصل إلى «قاسم خان»، وبينما كان «قاسم باشا» يتوجه إلى مكان عمله، يتصادف بـ«حسين باشا» في «قزل خان»، فيتحصن «حسين باشا» في «قزل خان»، إلا أنهم يخرجونه منها بعهد وأمان الشاه. لكن القزلباش لا يلتزمون بالأمان، ويقتلونه أمام أعين الشاه.

ولما استولى الشاه الضال على «بغداد»، قام بإرسال الخطابات الممزوجة بالشدة واللين إلى الأعراب القاطنين في الصحراء والأكراد الساكنين في الجبل، ودعاهم إلى طاعته، وفي الوقت نفسه، أرسل «قارچيقاي خان» أيضًا مع عدد عظيم من الجنود إلى ناحية «ماردين» للإغارة عليها وتخريبها، وكان «كوچك أحمد باشا» أمير «ماردين» في ذلك الوقت، ولكن لم يكن اسمه وشأنه مشهورًا بعد، وقد عُرف لأول مرة منذ ذلك الوقت، وفي ذلك الحين لم يكن قد دخل إلى «ماردين» بعد.

وفي تلك الأثناء، قام «حافظ باشا» بتوجيه إمارة أمراء «رقة» إلى هذا الفقير «بچوي» مع إمارة أمراء «قرمان»؛ وأرسله للمحافظة على «ماردين» مع مائتي جندي من طائفة «سكبان»، وزحف «قارچيقاي خان» حتى «نصيبين» و«قره دره»، وقام بالإغارة على أقوام وعشائر تلك الأطراف والجوانب وتخريبها، ويُروى أنه اغتنم مائتي ألف خروف من عشيرة «شقاقى» فقط، وبفضل الله تعالى، فحتى دخل هذا العبد العاجز «بچوي» إلى «ماردين» مع حوالي مائتين من جنود طائفة سكبان، كان «قارچيقاي» قد أخذ ما أخذه، فإنه لم يتعد على نواحي «ماردين»، ولكن عاد من الموضع الذي يبعد عن «ماردين» منزلًا واحدًا، يعني من المكان المعروف باسم «قره دره».

- ومن المضحكات: وبينما كان هذا العبد الفقير «بچوي» في «ماردين»، أُغير - أثناء غارات «قارچيقاي» على عشيرة «آشي»، وفي هذا الحين، يقع أحد الأكراد مع زوجته الحسناء أسيرًا في أيدي القزلباش، ومشهور ومتعارف محبة الأكراد الشجعان الطبيعية للكلاب، وربما كان ذلك نظرًا لفوائد تلك الكلاب للناس، واتفق أنه كان يوجد كلب كبير أسود لدى هذا الكردي، وكان لا يفترق عنه قط. وبموجب مضمون الآية الشريفة ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[1]، كان قد أسر القزلباش ثالثهم أيضًا، ويحملونهم جميعًا، ويميل أحد القزلباش إلى المرأة، وبموجب مضمون المصرع: «الكلب أوفى من المرأة»، تميل المرأة أيضًا إلى القزلباشي، وبناءً على هذا كان القزلباشي يعيش مع المرأة كل ليلة في ود وصفاء، أما الكردي فكان يشاهدهما مع كلبه من بعيد. واتفق أن يتوجه القزلباشي ذات ليلة لخدمة الشاه، فيتحين الكردي الفرصة، ويفك الرباط من يده وقدمه، ويسرع إلى فراش زوجته، ويهددها بخنجر حاد السن صوبه إلى صدرها وهو يقول لها: «هل ستهربين معي، أم أترك جُثتك هنا». فتجيب المرأة قائلة: «يا، ألم يكن تسليمي للقزلباشي خارجًا عن إرادتي، وإن لي أقرباء وديارًا، وخصوصًا، فهل كانت مفارقتي عنك باختياري؟»، وبالجملة يمتطي الكردي جوادًا من جياد القزلباش، ويأخذ زوجته خلفه، ويهرب ويذهب بعيدا جدًا.

ولما جاء القزلباشي إلى منزله في الصباح، يرى أنه تهب الرياح مكان المرأة وزوجها الكردي؛ يعني فرا من ذلك المكان؛ فيتألم بشدة، ويتعقب أثرهما، ويسعى سعيًا حثيثًا في طلبهما قائلًا: «الكردي هو صيدي الذي أريده بالسهم، والمرأة محبوبتي الجميلة»، أما الكردي، فكان قد قطع مسافة بعيدة مع زوجته، وكان قد تعب جدًا، وارتفعت حرارة النهار كثيرًا، فيطمئن الكردي قائلًا في نفسه: لا يستطيع القزلباشي العثور عليَّ بأي وجه كان، ولا يستطيع أن يرى حتى إثري أو غباري، فينزل من فوق الجواد ويتمدد على الأرض حتى يستريح قليلًا، وربما كان القزلباشي قد جعل الغانية زوجة الكردي تعجب

(١) ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بعض من الآية ٢٢ سورة الكهف.

به تمامًا، وكانت قد لبست خرقة قديمة من الصوف لونها أزرق، وكانت باستمرار تقوم بقطع القطع الصغيرة من تلك الخرقة، ثم تلقيها واحدة إثر الأخرى في الصحراء في الموضع الذي يمران عليه حتى يكون أثرهما معلومًا للقزلباشي، وكلما رأى القزلباش القطع الممزقة من الخرقة، يعرف ويعلم أن هذا هو تدبير المرأة. فيكون هذا الوضع باعثًا على زيادة جهده وسعيه، وفي النهاية، بينما كان الكردي في غفلة، يظهر القزلباشي. وتشير المرأة إليه. أما الكلب، فبسبب أنه كان يعرفه، فلم يهجم عليه؛ وينقض القزلباشي على الكردي بينما هو غافل، ويريد أن يربط يده وقدمه. ولكن الكردي يستيقظ من غفلته ويتصارع مع القزلباشي، وينتصر عليه ويأخذه تحته، ولكن في هذه الأثناء، تمسك الزانية زوجة الكردي الرجل الكردي زوجها من قدمه وتسحبه من فوق القزلباشي. وفي هذه المرة يصعد القزلباشي بمعاونة المرأة على الكردي، ويمسك بالخنجر ليقتله، وفي تلك اللحظة يشعر الكلب الأسود أنه يقصد الغدر بولي نعمته، وبناءً على قول حضرة الإمام على رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه: «إن إحدى الخصال العشرة الموجودة في الكلاب أن يأخذ العدو ويترك الصديق»، يتصدى الكلب للقزلباشي، ويمسكه بأسنانه الحادة بالدرجة التي كادت تخرج روح القزلباشي؛ فيكف اليد عن الكردي طوعًا وكرهًا، وينتصر الكردي، ويقتل القزلباشي، وفي هذه المرة، يُركب الكردي زوجته جواد القزلباش، ويحملها إلى عشيرتها، وأخبر كل أهل العشيرة بهذه الحكاية؛ فاجتمع كل أكراد العشيرة، وقتلوا المرأة بأشد أنواع القتل.

في ذكر قيام أعراب قبيلة «طاي» بالهجوم على جيش القزلباش في ذلك الحين

على الرغم من أن أعراب قبيلة «طاي» ليسوا قبيلة كبيرة، إلا أنهم كانوا معروفين بين سائر أعراب البرية بالشجاعة والكرم، فمثلًا كون «حاتم الطائي» من هذه القبيلة، إنما هو دليل وافٍ على هذا الادعاء.

ولما أقام الشاه مع جنده الضالين لمدة طويلة بالقرب من «بغداد»، فإنه يتم اختيار أكثر من مائة فارس من فرسان الطائفة المذكورة أي من قبيلة «طاي»، ويتحركون ليلًا

حتى يصلون على مقربة من جيش القزلباش، ويعثرون على المكان الذي سيختفون فيه، وفي اليوم التالي، وفي شدة حرارة النهار يقومون بالهجوم الخاطف على أحد أجنحة الجيش، وينهبون حوالي مائتي ناقة وبعض الجياد الممتازة جدًا، وبعض البغال وحتى بعض الحُمر، ويهربون إلى البرية أمام أعين القزلباش، ولم يتعقبوهم ولم يُطاردوهم قط، وعادوا بالصحة والسلامة إلى خيامهم قرب «ماردين»؛ وباعوا الغنائم بسعر رخيص جدًا، وإنني هذا الفقير أيضًا كنتُ قد اشتريت قطارًا من هذه الجمال الممتازة بثلاثمائة غروش، وبعد ذلك قمت ببيعهم في «ديار بكر» بستمائة ذهبية.

تنصيب «كمانكش علي باشا» وزيرًا أعظم في سنة ١٠٣٢ هجرية[1]

لما أصبح «مره حسين باشا» مستقلًا في وزارته، معتمدًا على قوة الإنكشارية، يفعل ما يريد ولا يقيم أي اعتبار للسباهية، حتى إنهم قالوا إنه يعد العدة للقضاء على السباهية، معتمدًا في ذلك على طائفة الإنكشارية، ولما شاع وانتشر هذا الكلام الساذج بين الناس، اجتمع السباهية وقالوا: «إن هذا الوزير رجل من أهل الغرض، ونحن لا نريد وزارته»، ولجأ «مره» مرة أخرى إلى أوجاق الإنكشارية، وجعل جند طائفة «أوطه باشي» وبعض الذين كان يعتمد عليهم يمتثلون لأمره ويقولون لهؤلاء: «إن كنتم لا تريدون وزارته، فإننا نريدها»، وأمرهم بالتصدي لهم متسائلين: «لماذا تقومون بالعصيان؟ وما هي علاقتكم بوزراء السلطان؟»، وبعد ذلك، لما سأل السباهية الأفراد بعيدًا عن ضباطهم قائلين: «ليس لدينا علاقة بطائفة «أوضه باشي» وبالأغوات، ولكن علينا أن نرى هل هذه كلمة جند الإنكشارية؛ يعني الذين كانوا أفرادًا مثلنا؟». فربما كان المرحوم «بيرام باشا» في ذلك الوقت كتخدا، فقام بإسداء النصائح النافعة إلى الإنكشارية، وجعلهم

(١) الموافق سنة ١٦٢٣م.

يمتثلون للسباهية؛ حيث نصحهم بقوله: «لو خالفتم السباهية، فإنكم لا تستطيعون التوجه إلى الحملة، وهم أيضًا لن يخرجوكم من خيامكم»، وعندئذ قالوا على الفور: «أينما يوجد السباهية، نكون نحن أيضًا في ذلك المكان، وكلمتهم تكون هي كلمتنا»، واستصدروا جميعًا أمرًا بعزل «مره»، وأعطوا الختم الشريف إلى المشار إليه «علي باشا».

ولكن بعد هذا تيقظ الكبار والصغار من رجال الدولة، وقالوا: «تُعطى المناصب بهذه الطريقة بهجوم الطغاة، ويحرق الرعايا والفقراء في الولايات بنار الطغاة». وعلى هذا، يقوم حضرة شيخ الإسلام «يحيى أفندي» وسائر العلماء العظام والموالي الكرام ومشايخ السادات والوزراء والوكلاء، وأغوات الداخل والخارج بالتباحث والتشاور في هذه الأحوال ليس سرًا، بل علانية، والسبب في هذا كله، أنه لم يكن لدى السلطان صاحب السعادة رشد وسداد؛ وعدم قدرته على التصرف والخفة التي كانت في عُقله. وراح الصدر الأعظم يجتمع مع شيخ الإسلام والموالي الكرام والوزراء العظام، حماية لمكانته وحفاظًا على منصبه، وتباحثوا كثيرًا في الأمر، وفي النهاية قالوا: «لو استمر هذا الحال هكذا، فإنه لا يمكن ضبط وربط طائفة الخدم بأي حال بعد ذلك، وإذا صار حال كبار الحكام في دار السلطنة على هذا النحو، فكيف يكون حال هؤلاء في الخارج؟ وعندئذ فإنه لن تخلُ أي ناحية من العصاة، وأي ركن من الطغاة، وخلاصة القول، فبالتدريج يقع العالم في الخراب والسلطنة في الانقلاب»، ولكن قالوا أيضًا: «كيف تكون أحوال الخزينة عندما يُعطى منها إنعام الجلوس؟»؛ كأنهم رأوا اتخاذ تدبير وإعداد لذلك الأمر أي أنهم رأوا تغيير السلطان، وما سيحل على الخزينة من إخراج الإنعام.

ومن ناحية أخرى، اجتمع كبار طائفة الخدم وكبار متقاعدي الأوجاقات، وقالوا: «لن يُطلب إنعام الجلوس، حتى يعود النظام والانتظام للعالم»، وهكذا اتفقوا على إجلاس الولد الأرشد للمرحوم السلطان «أحمد خان».

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان «مراد الرابع»

١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ = ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م

خلاصة أحداث جلوس السلطان «مراد خان الرابع» ابن السلطان «أحمد خان» في ١٤ من ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هجرية[١]

لما صار عرش الخلافة الكبرى ميسرًا ومقدرًا لجنابه العالي باتفاق الآراء، كان العالم قد انبعثت فيه الحياة من جديد بعد أن كان ميتًا، وضحك وجه وعين الغني والفقير، ولكن بينما كان الخدم لا يريدون أخذ الإنعام، فعلى إثر شيوع بعض الكلام الفارغ على لسان الأنام، اتخذ السلطان «مراد» الحيطة قائلًا في نفسه: «من الممكن أن تشتعل الفتنة ثانية في الأيام الأولى من الجلوس على العرش». وأحسن بإنعام الجلوس على كل الوزراء والعلماء والمشايخ والسادات دون أن يُترك فرد قط، وفي النهاية، فقد عانى السلطان من الضيق الشديد، حتى دبر هذا القدر من النقود الذي أحسن به.

ـ أوصافه الشريفة: كان عالي القامة جدًا، وضخم الجسد، ومستدير الوجه، وخفيف اللحية، ولكن ليس أجرد، أزجّ الحواجب، وعسلي العينين، وخلال الفترة الكبيرة التي جلس فيها على العرش كان جسده اللطيف يملأ العرش الشريف تمامًا؛ يعني كان سلطانًا فائق الأقران؛ حيث كان جسده الشريف ضخمًا على هذا النحو، حتى إنه لم يظهر سلطان قادر على الضبط والربط وقتّال وسفّاك وقاهر لعدوه مثله ليس بين السلاطين السابقين في هذه الدولة العلية فحسب، وربما بين سائر سلاطين الإسلام، وكان طابعه الشريف منشرحًا جدًا، وكان يتحاور مع كل شخص بلا تردد، ولا يمكن تصور أن يكون هناك شخص أفضل منه في الإحاطة علمًا بأحوال العالم.

ومع أنه لم تنقطع حركات العصيان الطغاة لمدة سبع أو ثماني سنوات منذ جلوسه الهمايوني، ولم تتناقص القلاقل والفتن والفساد على الرغم من بذل العطاء للملازمين له مقابل خدماتهم، فإنه بعد ذلك لما حل التيقظ والانتباه إلى ذاته العلية، وحصّل المعارف عن كل ما هو حسن وسيئ، قام بضبط وربط العالم على نحو لم يبق شخص يمكن أن يتصرف خلاف ما يرضى، وربما لم يأخذ شخص حبة من مزروع شخص آخر، ومال

---

(١) الموافق ٩ من سبتمبر ١٦٢٣م.

المتمردون الذين كانوا في أراضي السلطنة إلى الصلاح؛ لخوفهم وخشيتهم منه، وصاروا إلى الانزواء، فمثلًا أورد المرحوم «نفعي چلبي» المشهور بأنه شاعر حلو الكلام وناظم باهر، هذا الوضع في قصيدته الجميلة بهذا الأداء البليغ (المرحوم نفعي چلبي):

لو يعود الفلك إلى هذا الزمان
لكان يقدمك على السلطان سليم
يا، لماذا عندما تقول يا سلطاني
فإني على الفور أفهم أصله
فإن كان السلطان سليم غازي
قام بكثير من الفتوح العظيمة
فإنك فتحت العالم من جديد
ولم تدع مرتكبًا للرشوة
وجعلت ذلك القدر من الناس يعلن إسلامه
ولم يستطع الشيطان الرجيم الوسوسة

في ذكر بعض الأحداث التي ظهرت عقب الجلوس على العرش

أراد الوزير الأعظم «علي باشا» إطلاق يده في الحكم والتصرف كيفما شاء قائلًا: «لقد كنت سببًا لجلوس السلطان على العرش»، ولم يستفد من النصح والوعظ الذي أسداه إليه شيخ الإسلام «يحيى أفندي» قبل ذلك فيما يتعلق بضرورة التنزه عن الرشوة، حيث صار ذلك النصح باعثًا على إيذاء خاطره؛ ولذا قام «علي باشا» بنقل ما هو خلاف الواقع إلى حضرة السلطان الجديد بقوله: «كان شيخ الإسلام غير راضٍ على الإطلاق بجلوسكم الهمايوني، كما كان هو الباعث على عصيان «أبازه»؛ بسبب فتواه»؛ وعلى هذا، عُزل شيخ الإسلام من منصب الفتوى، وعُين مكانه المرحوم «أسعد أفندي»، وعلى إثر عرضه أيضًا على السلطان قائلًا: «إن الخطابات التي أرسلها الوزير الأعظم السابق

«خليل باشا» و«گورجي محمد باشا» من أجل إثارة «أبازه» والتي هي الآن موجودة تحت أيدينا، إنما كانت هي الباعثة والمؤدية لهذا الحجم من الفتن والفساد وتعذيب العباد»، قام بحبس هذين الشخصين في منزله ذات يوم، وجعلهم ييئسون من أمل الحياة، وبعد ذلك، قال هؤلاء: «فلتخرج خطاباتنا، ولتُطابق بأختامنا. فلو تطابقت، نستحق في الواقع الإعدام». ولما كان لا يوجد أصل لما يقول عنه إنه خطاب، وتم التأكد من أنه بهتان صريح، أطلقوا سراحهما.

قتل «كمانكش علي باشا» وتنصيب «جركس محمد باشا» وزيرًا أعظم سنة ١٠٣٣ هجرية[١]

لما أصبحت بعض أوضاع «علي باشا» موجب اغبرار الخاطر السلطاني، فقد تم حبسه ذات يوم من الأيام في الحديقة الخاصة؛ حيث قُتل بعد ذلك؛ ونصب مكانه في ذلك المقام الجليل «جركس محمد باشا» علاوة على شغله مقام السردارية، وكُلف بالخروج إلى «أبازه» والتوجه صوب «بغداد».

قيام السردار جليل الشأن بقهر «أبازه» سنة ١٠٣٤ هجرية[٢]

كان المشار إليه سردارًا ذا وقار وصالحًا ومتدينًا ومترفعًا عن الرشوة حتى لا يُعرف أنه أتى مثله إلى ذلك المنصب حتى الآن، وفي عصره لم يُعزل أي فرد بلا ذنب، ولم يهدر دم أي فقير بلا سبب، ولم يأخذ حبة واحدة كرشوة من أي شخص على الإطلاق، وكان زهده هذا غير موجود حتى عند المشايخ الكبار، وكانت محاسنه الحميدة كثيرة جدًا.

ولما نزل «جركس محمد باشا» إلى الصحراء الواقعة قرب «قيصريه»[٣] مع الكثير من

---

(١) الموافق سنة ١٦٢٣ - ١٦٢٤م.

(٢) الموافقة سنة ١٦٢٤ - ١٦٢٥م.

(٣) هي مدينة ومركز سنجق بولاية أنقرة وتقع جنوب شرق «أنقره» بحوالي ٢٥٦ كيلو مترًا.
- قاموس الأعلام ٥ / ٣٨٠١-٣٨٠٢.

جنده، خرج عليه عديم الدين المعروف باسم «أبازه» مع عسكره الشياطين، وانهزم بعد محاربة عظيمة؛ وقام بالفرار إلى ناحية «أرضروم»؛ حيث اتخذ من قلعة «أرضروم» مقرًا له ولجنده المقهورين، وأظهر العبودية والتوبة والندامة على ذنبه؛ يعني أعلن الطاعة. وقام السردار عالي المقدار أيضًا بحسن معاملته، والتمس من السلطان صاحب السعادة عفوه عن زلاته، وقرر السردار التوجه صوب «بغداد» في ربيع الأول. ولما حل وقت الشتاء وزمن البرد، أعطي إذن الانصراف إلى العسكر المنصورة، وعينت المشاتي المناسبة لبعضهم. وتوجه السردار أيضًا مع الدفتردار الوزير «باقي باشا» وأغا الإنكشارية «خسرو أغا» إلى «توقات»، وتفضل كل واحد منهم بالنزول في منزل مناسب على أن يمضوا ذلك الشتاء في البلدة المذكورة «توقات».

ـ ومن الغرائب الظلم: في ذلك الحين، كان هناك رجل ظالم في قرية تقع في سنجق «قسطموني» الذي عُين لجند «بلوك خلقي» من أجل قضاء فصل الشتاء به، فيطلب ذلك الظالم شيئًا من فقير تركي أكثر من مقدوره، وفي النهاية، ولما لم يبق شيء بيد الفقير التركي، يُعطى الفقير ابنته كأسيرة، فيأخذها هذا الظالم، وقام بإحضارها إلى «توقات»، بينما كان موجودًا بها الوزير الأعظم وأغا الإنكشارية وأغوات الفرق الست، ونصب لها مزادًا في سوق «توقات»، وقام ببيعها، وفي ذلك العصر ـ الذي لم يكن قد طرح عنه حتى الآن شؤم عصر السلطان «مصطفى» كما ينبغي، والذي كان قد وصل العالم فيه إلى حالة على هذا النحوـ بينما كان يوجد هذا العدد من كبار الضباط في المدينة، لم يجرؤ شخص على منع ذلك الظالم ولم يستطع أن يقول له كلمة واحدة!! وبعد ذلك لما رووا ذلك الحدث إلى «باقي باشا» كنتُ بجانبه، فحزن حزنًا شديدًا على ذلك، وقال: لو كان لدينا خبر، كنا سندفع الأقچة ثمنها ونُرسلها إلى والدها.

وهكذا، كانت أحوال العالم قد أصبحت في هرج ومرج على هذا النحو بشؤم سلطنة المرحوم السلطان «مصطفى»، فليغرق حضرة الحق سبحانه وتعالى المرحوم السلطان «مراد» في بحر رحمته الذي لا حد له ولا ساحل، فقد اختار الأشخاص بعناية، ووضعهم على الطريق المستقيم.

وفاة السردار المومأ إليه «محمد باشا» وتولي «حافظ باشا» الوزارة العظمى وبعد ذلك وفاة «باقي باشا» وتوجه «خسرو باشا إلى «ديار بكر»

بعد أن دخل السردار ذو الوقار إلى «توقات»، أتيت أنا هذا الفقير «بچوي» عديم القيمة من محافظة «ماردين»، وكنتُ قد دخلت إلى المدينة المذكورة «توقات»، وغُمرت بالرعاية التي ليس لها نهاية من قبل الوزير جليل الشأن، وكنتُ قد كُلفت هناك بخدمة الضربخانة؛ وأمرتُ بقطع حوالي ثلاثمائة حمل أقچة صحيحة العيار من الأقچة العثمانية الفاسدة الموجودة في الخزينة العامرة في زمن قليل، وبينما كان المذكور «بچوي» يتهيأ للمنصب حسب المهلة التي أعطيت له، فلما لم تكن هذه الدنيا الدنيئة مقرًا للغني أو الفقير أو الأمير أو الوزير، ترك ذلك الوزير الذي بلا نظير هذه النعم الكثيرة، وودع العالم الفاني ورحل إلى دار الخلود في اليوم الثامن عشر من ربيع الآخر من السنة المذكورة[1]، رحمة الله تعالى عليه.

وبعد ذلك فكر المرحوم «باقي باشا» و«خسرو أغا» أغا الإنكشارية قائلين: «حافظ باشا حاليًا موجود في منطقة الحدود وبابه [أي خدمه] كامل العدد والعدة، وهو وزير قديم وذو خبرة، وإذا عُين وزير آخر من الآستانة، فإنه يمر الوقت حتى يصل إلى هنا؛ وربما تسقط الحملة في عقدة التأخير»، وكتبوا ذلك في صورة عرض، وأرسلوا رئيس الكتاب «دوراق أفندي» بهذا العرض، وهكذا وجهت الوزارة العظمى إلى «حافظ باشا» بموجب عرضهم هذا.

ولكن قالوا في الآستانة: «عجبًا، لِمَ لَمْ يرجو «خسرو أغا» الصدارة العظمى لنفسه؟»، فلما سمع «خسرو أغا» هذا، ندم على عرضه هذا؛ ولكن لم يظهر شعوره هذا بسبب أن «حافظ باشا» كان قد صار وزيرًا فعلًا.

---

(١) الموافق ٢٩ من يناير ١٦٢٥م.

وبعد ذلك، فبموجب مضمون القول: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[1]، نفض المرحوم «باقي باشا» ذيل ثوبه من متاع الحياة الدنيا في سلخ جمادى الآخرة، رحمة الله تعالى عليه، وكان قد أوصى بوظيفة الدفترادارية لهذا العبد القاصر «بجوي»، وأراد أغا الإنكشارية أيضًا أن أعمل في ذلك المنصب الجليل بطريق رتبة قائد مقام، وبعد ذلك، لما وصلنا إلى «ديار بكر»، قام الصدر الأعظم «حافظ باشا» باقتراح ذلك عليّ أيضًا وأصر على ذلك، ولكن على إثر ملاحظة قصورنا في العمل؛ بسبب ضعف الشيخوخة، امتنعت عن ذلك، ورضيت بدفترادارية «توقات» فقط.

قيام «ماوراو» من ملوك «گورجستان» بقتل «قارچيقاي خان» وجعله «گورجستان» تعلن الطاعة سنة ١٠٣٤ هجرية[2]

كان الملك المعروف باسم «ماوراو» المذكور ملكًا كبيرًا يحمل لقب كتخدا مملكة «گورجستان»، وكان صديقًا ونديمًا للشاه عباس، فيقوم الشاه بحسب مقتضى الحاجة باصطحاب خانين أو ثلاثة خانات مع عسكرهم إلى «ماوراو» المذكور؛ ويرسلهم إلى «گورجستان»، فإنه بسبب أنه كان هناك خلاف بين الگورجيين والشاه، وأيضًا بسبب تحين «ماوراو» الفرصة للانتقام من القزلباش، فقد قام بقتل «قارچيقاي» والخانات الذين كانوا معه سويًا، وقضى على ألف أو ألفي قزلباشي من عسكرهم.

ووصلت رأس «قارچيقاي» ورءوس سائر القزلباش وألسنتهم وآلاتهم الموسيقية؛ الناي وطبولهم ومائتين أو ثلاثمائة من أعلامهم مع ابن «ماوراو» ومع بعض ملوك «گورجستان» إلى الجيش الهمايوني في اليوم السابع والعشرين من رمضان الشريف من السنة المذكورة[3]، وعرضوا على السردار باسم «ماوراو» التالي:

---

(١) سورة الفجر، جزء من الآية رقم (٢).
(٢) الموافقة سنة ١٦٢٥م.
(٣) الموافق ٣ من مارس ١٦٢٥م.

«إنـه لم تتيسر هذه الفرصة لآل عثمان حتى الآن، فينبغي ألا يحدث تأخير أو توانٍ وتراخٍ أبدًا، ومـن الضروري الإسراع بالتوجه إلى هذا الجانب مع عسكر الإسلام، فليسَ هناك شك في أن «قره باغ» و«گنجة» و«يروع» ومملكة «شيروان» سيعلنون جميعًا الطاعة بمجرد أن تصلوا، وليس هناك حاجة لبيان أن هـؤلاء جميعًا قد أعرضوا عن القزلباش وصاروا مسلمين سنيـين، وبعد ذلـك، سيكون الاستيلاء على «أردبيل» و«مشهد» وإشعال النيران في ممالك القزلباش أمرًا سهلًا جـدًا، وعليكم ألا تنشغلوا قط بنقـل الجمال والبغال والذخيرة والمدافع والمهمات، وسائر الأشياء، فـإن كل ما تطلـبون موجود هنا أي في گورجستان، وبفضل الله تعالى، ينبغي أن يكون من نصيب عسكر الإسـلام ذلك القدر من الغنيمة والرفعة والقدرة التي ينبغي أن تُروى على الألسن إلى انقراض العصور».

فلما خرج هؤلاء الگورجيون إلى مجلس «حافظ باشا»، كنت جالسًا في مجلسه؛ فقدموا عروض «ماوراو» لـ «حافظ باشا»، وفصَّلوا وشرحوا مضمون هذه العروض شفويًا، وكان المرحوم «حافظ باشا» رجـلًا غريب الجـبلة، ونحن قد أكلنا من نعمه الوفيرة ورأينا من لطفه المتناهي، ولكن ما أكتبه هو حقيـقة الحال، وليس به غرض أو بهتان، والله تعالى شاهد على الحال، إنه لم يعط إجابة قاطعة لهؤلاء أصلًا. وقد ترددوا عليه مرات كثيرة، ورجوا منه جوابًا شافيًا، فإن «حافظ باشا» لم يقل أذهب أو لا أذهب، حتى إنني هذا العبد الفقير قلت له بإصرار: «هذه الفرصة لن تتكرر». فرد «حافظ باشا» عليّ بقوله: «لقد عيننا السلطان صاحب السعادة لفتح «بغداد»، ونحن غير مكلفين بـ «گورجستان» و«شيروان»». فداومت على إصراري قائلًا: «لو أن سلطاننا صاحب السعادة يعلم أنه سيظهر «ماوراو»، ولو كان قد وضع احتمال اندلاع فتنة عظيمة على هذا النحو في صفوف العدو، كان سيكلفكم بذلك أولًا، وربما كان يقرر أن يتكبد مشقة السفر شخصيًا، ولدينا تجربة في مثل تلك الأمور. ففي حملات المجر، وقبل ظهور «بوچقايي» بين الكفار، لم نستطع الانتصار على الكفار، ولم نقدر أن نخطو خطوة واحدة إلى ممالكهم. وأنتم الآن إذا ضيعتم هذه الفرصة، فإنكم ستندمون إلى يوم

القيامة»، ولكن لم يتم ذلك، وكان جوابه الأخير هو قوله: «أنتم لا تعرفون طبيعتي حتى الآن، فما دام عقلي لا يطاوعني على فعل شيء ما، فإنني لا يمكن أن أسعى إليه، ولا حتى أخطو خطوة واحدة في ذلك الطريق». فقلت: «وهل علم أولًا السلاطين العظام ووكلاؤهم الكرام [أي وزراؤهم] الذين وفقوا في هذا العدد من الغزوات والفتوحات أنهم سيهزمون الأعداء، ثم بعد ذلك ذهبوا؟ فعلى الذين يكونون في مقام السردار [القائد الأعلى] الإقدام في العزيمة والتوجه، ثم التوكل التام على جناب صاحب العزة تعالى، والآن، هل تثقون في أنكم سوف تصلون إلى «بغداد»، وتنتصرون عليها ثم تفتحونها؟». فقال «حافظ باشا»: «إن شاء الله تعالى، ذلك هو ظني الغالب، واعتقادي القوي، وربما ليس لدي شك قط في ذلك».

وحقيقة الحال، إنه لما أخذ السردار يكرر أمر سهولة الفتح، صرنا نعتقد ذلك، ومن أجل ذلك، كان قد سقط ذلك الأمر أي التوجه إلى گورجستان في عقدة التأخير، وبعد ذلك أقدمت إلى أغا الإنكشارية «خسرو أغا»، وقلت له: «إذا قررتم عدم الذهاب، فلتسعون في إرسال عسكر بقدر كاف، كتدبير جيد»، ولكن قال «خسرو أغا»: «نحن من التابعين، فأيما يأمر به سردارنا، فإننا نطيعه»، وعندئذ، لم يعد لديّ شك في أن «خسرو أغا» كان لا يريد أن يصير «حافظ باشا» منصورًا.

وبهذا السبب لم ينصره حضرة الحق تعالى هو أيضًا، وبعد ذلك، يُعد قيامه بقتل «ماوراو» مع ابنه وحوالي أربعين من رجاله دفعة واحدة في زمن سرداريته من الغرائب، وكان قد قام بظلم صريح على هذا النحو، دون خوف من الله أو حذر من سفك الدماء، وذلك في الوقت الذي كان لا يمكن أن يحدث فيه ذلك لو أعطى الشاه ألف حمل أقچة أو منحه مملكة عامرة، وكان قد مضى أربعون عامًا منذ أن أصبح الشاه عباس شاهًا حتى ذلك التاريخ. والحقيقة، أنه لم يقع خطب فوق رأسه أصعب أو أعسر من هذا خلال الأربعين سنة تلك، وكان قد هلك في ميدان القتال سبعة من خاناته المشهورين الذين لم يكن هناك نظير لواحد منهم في جملة ممالك القزلباش؛ بسبب «ماوراو»، وفُقدوا أثناء نشوب المعارك مع «ماوراو»، وكان من جملة هؤلاء «قارچقايي»، وخان «شيروان» «يوسف خان»، و «أمير كونه»، وغيرهم.

قيام «حافظ باشـا» بمحاصرة «بغداد» وعودته بلا فتح سنة ١٠٣٥ هجرية[1]

لقد وصل «حافظ باشا» مع العساكر فاتحة الممالك إلى «بغداد» العامرة بالجنان، وبينما كان مشغولًا بأمر محاصرتها واستعمال المدافع والألغام وسائر أسباب الفتح التي كانت لازمة لأمور الفتح والاستيلاء، أتى الشاه الضال مع جنده المأثورين بالهزيمة، ونصب الخيام أمام عسكر الإسلام، وراح يهتم بدفع الضرر عن القلعة ليل نهار، واحترز عسكر الإسلام من كيده ومكره؛ فحفروا خندقًا واسعًا في أطراف الجيش الهمايوني. وضاعفوا مساعيهم وجهدهم مرة أخرى ليل نهار لفتح القلعة، ولكن لما كان العسكر الذين وضعهم الشاه في القلعة من خيرة عسكره المأثورين بالهزيمة، وربما كانوا كثيرين جدًا، فلم يكن هناك مجال للهجوم عليها بأي وجه، ولم يبق هناك أي احتمال لأن تؤخذ القلعة أيضًا بالأمان، ومن ناحية أخرى، كان الشاه موجودًا في مكان قريب من القلعة، وكان لا يخلو من التضييق على عسكر الإسلام في معظم الأوقات، وكان يرد على هجمات العثمانيين، ولكنه لم يجرؤ هو شخصيًا أن يهجم على عسكر الإسلام، ولم يستطع عبور الخندق والدخول إلى الجيش الهمايوني.

وعسكرنا أيضًا كانوا لا يستطيعون القيام بحرب القلعة كما ينبغي، ولا لقاء عدو قوي على هذا النحو كما يجب، وأحيانًا كان البارود والمهمات تنفد ولا تكفي، وأحيانًا أخرى لا تصل الذخيرة ولا الخزينة في وقتها، وحاصروا «بغداد» على هذا النحو لمدة تسعة أشهر كاملة، تحملوا فيها هذا البلاء العظيم، وفي ظل هذه الظروف، أشعلت طائفة الخدم نار الحمية، ولم تُقصر في السعي والجد، ولم يقولوا في أي يوم: بدأ الشتاء وعلينا أن نعود، كما لم يقولوا: مضى وقت توزيع علوفتنا، وينبغي أن توزع علينا.

ولما صارت الأحوال على هذا المنوال، قالوا: «علينا أن نعقد الصلح»، وتردد السفراء بين الطرفين، وفي النهاية، عادوا وذهبوا، وحقيقة الأمر، أنهم لم يصنعوا عسلًا ولا شمعًا.

---

(١) الموافقة سنة ١٦٢٥-١٦٢٦م.

وإنني هذا الحقير كنت قد أرسلت الإرسالية[١] من «توقات»، فيروي رجلنا الذي حمل الإرسالية ووصل إلى هناك ما يلي: لما بدأ عسكر الإسلام بالتحرك من مكانهم، خرج القزلباش من القلعة، وساعدوا الثيران في سحب المدافع، وحملوا حتى أشيائنا، وقالوا: «إن السلطانين يختصمان من أجل الملك، أما نحن فرقة أو فرقتان من المسلمين، فلماذا نتخاصم ونعادي بعضنا بعضًا؟». ولكن بعد ذلك، تعقبوا عسكر الإسلام لمدة يومين، وشنوا عليهم هجومًا شديدًا مرة أو مرتين، وحاربوا كثيرًا، فإنهم لم ينتصروا على عسكر الإسلام ببركات المعجزات المحمدية عليه السلام، وبحسن همة ومعاونة الخلفاء الراشدين، في حين أنه كان قد حل ضعف ووهن شديد بالجند وكان قد أصبح أكثرهم مشاة. وهكذا، كان إجمالي نتيجة تلك الحملة على هذا النحو.

عزل «حافظ باشا» وتعيين «خليل باشا» وزيرًا أعظم للمرة الثانية سنة ١٠٣٦ هجرية[٢]

لما تقرر عودة «حافظ باشا» خاسرًا من «بغداد»، تأثر السلطان الغيور صاحب السعادة؛ وقام بتوجيه الصدارة العظمى مرة أخرى إلى «خليل باشا»، وعهد بأغاوية الإنكشارية أيضًا إلى جاوش باشي على خلاف العادة، وعلى الفور كُلفوا بالتوجه إلى «حلب» الشهباء التي كانت دائمًا مشتى للعساكر المأثورة بالظفر دون إعطاء أي اعتبار لوقت الشتاء أو شدة البرودة، ولكن كان عمر أغا الإنكشارية قد انتهى؛ حيث توفي قبل مرور وقت طويل، وعلى هذا، وجهت رتبة أغا الإنكشارية إلى «خليل أغا» الذي كان في رتبة «مقابله جي» سابقًا والذي كان أغا بلوك في ذلك الحين، وأُقرت تلك التعديلات في المناصب من الآستانة السعيدة.

(١) إرسالية: هي النقود التي تأتي كل سنة من مصر كمصاريف جيب للسلطان. ويطلقون على المكان الذي تبقى أو تودع فيه هذه النقود اسم «الجيب الهمايوني» أو «خزينة الحرم الهمايوني"، وكانت توجد في وزارة كاتب السر. وكانت قد بلغت الإرسالية في أواسط القرن السابع عشر ستة آلاف ذهبية في السنة.
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 163 – 164.

(٢) الموافق سنة ١٩٢٦ - ١٩٢٧م.

وصول «ديشلن حسين باشا» إلى جانب السردار مع العسكر ثم توجهه من هناك إلى «أبازه» واستشهاده بعد ذلك

لما لزم تعيين وزير جليل على العسكر، على أن يصل بهم إلى السردار عالي المقدار، وبسبب أن «گورجي محمد باشا» الذي كان قائم مقام في ذلك الوقت يحترز من أن يوجهوا إليه هذه الخدمة، قام بإحضار «ديشلن حسين باشا» الذي كان رجلًا ذا خبرة ودرايًا بالأمور، وكلفه بذلك الأمر، ولما وصل إلى «حلب» الشهباء مع مقدار كاف من العسكر، سُر السردار عظيم الشأن سرورًا عظيمًا، وفرح فرحًا شديدًا، وخرج «ديشلن حسين باشا» أيضًا إلى الخيمة، وانشغل بتدبير أمر التوجه إلى جانب «بغداد». ولكن في تلك الأثناء، أتت خطابات الاستغاثة من الأمراء الذين كانوا في الحدود، وقد ذكروا في هذه الخطابات: «أن القزلباش قاموا بمحاصرة قلعة «أخسخه»، وأن الوضع سيكون حرجًا ما لم يتم إرسال الإمدادات»، وعلى هذا، قام السردار بتعيين مدد يتشكل من سبعة أمراء رفيعي الشأن مع الجند الذين كانوا في إيالاتهم على أن يسرعوا للإمداد قبله، ونصب «حسين باشا» المذكور سردارًا مؤيدًا بالنصر عليهم، وأرسلهم، وكتب الأحكام الشريفة وأرسلها أيضًا إلى «أبازه» على أن يلتحق معه عسكر «أرضروم» بالقوة التي تحت قيادة «حسين باشا» عندما يصلوا إلى «أرضروم»، فلما وصلوا إلى «أرضروم»، شرع «أبازه» أيضًا بالتظاهر في الإعداد للحملة قائلًا: على العين والرأس.

وربما ظن «أبازه باشا» أن هذه القوة لم تتوجه إلى «أخسخه» مباشرة، وأنهم جاءوا إلى «أرضروم» سعيًا لإسقاطه في الشراك وإمحاء وجوده المملوء بالخبائث من عرصة العالم. وفي ظل هذا الاعتقاد قام بإعداد وليمة، ودعا الأمراء وأمراء الأمراء الذين أتوا. ووجه الأوامر إلى جنده بالحضور وأن ينتظروا أوامره، وبينما كان عسكرنا آمنين من كيده ومكره، وكل واحد منهم منشغلًا في مشاهداته وتصرفاته وفي العمل والكسب داخل المدينة، خرج عسكر «أبازه» فجأة من باب القلعة، وأغاروا على جيشنا، وقضوا على معظمهم خلال ساعة، وغنم أهل الفساد ما ملكوا؛ فركب العسكر المأخوذون على غرةٍ

الجياد المجردة من السروج واحتضنوها وركب بعضهم الجمال وحيوانات حمل الأثقال، وأسرعوا بالفرار إلى جانب السردار، وبعد يومين، وصلوا إلى السردار، وأخبروه بما جرى، وعلم السردار بهذا الخبر الموحش، ولكن ما الفائدة؟ فقد حدث ما حدث، وماذا ينبغي أن يفعل؟ وجاء وشمر عن ساعده لفتح قلعة «أرضروم»، وسعى لقمع هؤلاء الأشقياء وقلعهم، ولكن لا يوجد لديه مدفع ولا حتى حطبة من سائر المهمات، فشرع بالضرب بالمدفع الذي أحضره «ماوراو» ملك «گورجي»، وضيع الأوقات حتى حلت أيام الشتاء، وبعد ذلك، اضطر إلى التحرك خائبًا وخاسرًا. وهكذا، كانت نتيجة هذه الحملة ومآلها.

تعيين «خسرو باشا» وزيرًا أعظم وسردارًا وفتحه قلاع «أرضروم» و«أخسخه» سنة ١٠٣٨ هجرية[1]

لما وصل هذا الخبر المورث الكدر إلى السمع الشريف لسلطان البحر والبر، قرر في الحال تنصيب «خسرو باشا» سردارًا لعسكر الإسلام ووزيرًا أعظم، نظرًا لثقة السلطان في جسارته، وفي ضبطه للعسكر المنصورة، وبعد ذلك، وبمقتضى الرأي الصائب لقائم مقام «رجب باشا»، أمر السلطان بإخراج «خسرو باشا» من القسطنطينية المحمية برتبة تعادل رتبة أمير أمراء «ديار بكر»، وإرسال الختم الهمايوني خلفه، وبعد ذلك، وصل السردار إلى «توقات» المحمية، وقام بصرف ما في وسعه هناك لإعداد الأمور اللازمة.

وفي تلك الأثناء، أصبح «أبازه» في تمام الخوف والرهبة من مجيء «خسرو باشا». وعلى إثر ورود الخبر بأن «أبازه محمد باشا» ينوى اتباع الشاه، وأنه ينوي تسليم القلعة له، ترك السردار وراء ظهره المدافع والجبة خانه وسائر المهمات التي كان من المقرر أن تكون هناك صعوبة في نقلها، وقام على الفور بامتطاء جواده بأحماله الخفيفة فقط، وامتطى عدة آلاف من الإنكشارية بجيادهم السريعة، ونزلوا بعد سير سريع بالقرب

(١) الموافقة سنة ١٦٢٧-١٦٢٨م.

من «أرضروم» البهيجة السمات، وحاصروا قلعة «أرضروم» في اليوم السابع من محرم الحرام سنة ١٠٣٨ هجرية[1]، وفي ذلك اليوم، قام السردار على الفور بوضع أبطال الإنكشارية في التحصينات، وفي اليوم التالي، أحضر المدافع، وبدأ في اتخاذ أنواع التدابير، ومن جملة هذه التدابير: أنه قام باستمالة وحسن معاملة الأشقياء الذين كانوا بجانب «أبازه» والضالين الذين كانوا يعرفون باسم «سكبان»، وبذلك صاروا يهربون من داخل القلعة خمسات وعشرات، ويعلنون الطاعة للسردار.

وقد مُنح كل واحد من الذين هربوا وجاءوا إلى السردار ما وعد به. ولما كان هناك احتمال لتبعية مزيد من هؤلاء للسردار، اضطر «أبازه» لإرسال ستة أشخاص من مشاهير «أرضروم» ومن علمائها ومشايخها، وطلب الأمان، وبموجب مضمون القول: «العفو زكاة الظفر»، قام السردار كريم الشأن بالإحسان عليه بالأمان، وهكذا، أخرجه من القلعة السلطانية في اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور؛ وصارت القلعة السلطانية تحت سيطرة عساكر الإسلام كالأول، وبعد ذلك، أُرسل رجل إلى «أخسخه» أيضًا، حيث تم الاستيلاء على تلك أيضًا.

في ذكر توجه السردار عالي المقدار إلى باب الدولة في السنة نفسها

لما اقترب فصل الشتاء وحلت الأيام الباردة، عاد السردار منصورًا ومظفرًا، وأحضر معه «أبازه» إلى باب الدولة، وعندما أذن لـ «أبازه» بتقبيل قدم العرش الذي مصير العالم، عوتب من الجانب السلطاني، وتفضل السلطان بقوله: «لماذا كان عصيانك هذا أيها الكافر؟». فقال «أبازه» أيضًا: «سلطاني العظيم، لما قتل الإنكشارية المرحوم أخاكم، تبادلنا المراسلة مع جملة أمراء الأمراء طلبًا لدمه، وبقيت أنا عبدكم على كلمتي، ولكن هؤلاء فروا وشهروا بعبدكم، وإلا فإنني المملوك «أبازه» لم أكن لأصير سلطانًا، وكنت

---

(١) الموافق ٦ـ٨ـ١٦٢٨م.

أعرف أنه لا يمكن أن يعتمد على كلام الوزراء الذين أتوا عليّ؛ ولذا فلم أنقادُ لهم؛ بسبب الخوف على الروح. والأمر للسلطان، وها هي رقبتي، وها هو سيفك»، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالحديث: «اذهب، الآن عرفت حدك أيها الكافر، فإني قد عفوت عنك».

وكان السردار قد أعطى إيالة الـ «بوسنة» إلى «أبازه»، وأقر ذلك السلطان صاحب السعادة، وبعد ذلك، كان قد عُزل من إيالة الـ «بوسنة»، وراح يتقرب كثيرًا إلى الجانب السلطاني، وكان يدخل إلى المجلس الهمايوني للسلطان في الوقت المناسب وغير المناسب. وفي النهاية، حبس في الحديقة الخاصة، ونال جزاءه، وقُضي عليه جزاءً للعصيان والطغيان الذي قام به، وللدم الذي سفكه بلا وجه حق.

في ذكر توجه الوزير الجليل بنية الذهاب إلى «بغداد» سنة ١٠٣٩ هجرية[١]

لقد أمضى السردار جليل الشأن ذلك الشتاء في «إستانبول». وما إن هل ربيع الأول حتى تحرك مع العسكر المؤيدين بالظفر، وبعد أن استراح عدة أيام في «ديار بكر»، توجه إلى جانب الموصل، ولما وصلوا إلى الموصل، وعلى إثر فيضان نهر شط العرب وسائر الأنهار بأمر القادر المنان، كان الماء قد أحاط صحراء «بغداد» كلها، وبدت «بغداد» وتوابعها كما لو كانت جزيرة وسط بحر، وعلى هذا، كان من الضروري الإقامة في الموصل حتى ينخفض منسوب الأنهار، ولكن بسبب شدة الشتاء وكثرة الماء في الأنهار، بقي الجاموس والجمال والبغال التي تجر الستة والعشرين مدفعًا من نوع «باليمز» المخصصة لضرب القلاع والتي أحضروها بقيت بلا علف وهلك معظمها. وحتى يتم شراء بديلًا لها من جديد، كان السردار قد عرض على الركاب الهمايوني السلطاني أنه يلزم أربعمائة ألف غروش، كما أنه يلزم ألفين حمل أقچة من أجل توزيع مرتبات الجند.

(١) الموافق سنة ١٦٢٩م.

وعلى هذا، فبمجرد أن وصل التلخيص والعرض إلى السلطان، أعدت خزينة بالقدر الكافي، وأخرج السلطان صاحب السعادة وحامي العالم مالًا بالقدر الكافي أيضًا من خزينة الداخل، وأُحسن بسنجق القدس الشريف بالخط الهمايوني المقرون بالسعادة إلى «عمر باشا» الذي كان من رجال الوزير الأعظم السابق المرحوم «حافظ أحمد باشا»، وكان معروفًا بلقب «دلي عمر»؛ حيث عُين خزينة باشي عليها؛ أي رئيس الخزينة أو مسئول الخزينة، ثم أُرسل.

قيام السردار عالي المقدار ببناء قلعة «گل أحمر» وذهابه لتخريب ممالك القزلباش سنة ١٠٣٩ هجرية[١]

لما وصل «عمر باشا» المومأ إليه بالخزينة إلى الجيش الهمايوني، لم يكن قد حان وقت التوجه إلى جانب «بغداد» بعد؛ ولذا أمر السردار ببناء حصن متين ومحكم في الموصل، ووضع بداخله المدافع وسائر اللوازم التي أُحضرت من أجل محاصرة «بغداد»، وعُين «إبراهيم باشا». ومن أغوات الأوجاق «صامصونجي باشي مصطفى أغا» الذي كان رجلًا قادرًا على الضبط وحسن الإدارة وبطلًا نادر الأقران في الأوجاق، للمحافظة على الحصن مع قدر كافٍ من رماة البنادق، وتركهم به، وتوجه هو مع عسكر الإسلام من أجل تخريب ممالك القزلباش اللئام، وعندما نزلوا بالقرب من قلعة «گل أحمر» التي كانت دار الإمارة في إيالة «شهرزور»، كانت قد صارت خرابًا وموطنًا للبوم والغربان منذ عدة سنوات. ولما كان بناؤها من جديد من أسباب مقدمات فتح قلعة «بغداد»، بدأ السردار في بنائها، وأتم وأكمل هذا الأمر خلال وقت قصير، ووضع بداخلها رجالًا بالقدر الكافي، وأعطى إيالتها إلى «آرنود زاده أحمد باشا»، وكُلف «عمر باشا» المشار إليه الذي أتى بالخزينة، و«أبدال باشا» من أمراء الأكراد المجبولين على الشجاعة، و«پرمقسز علي باشا» بحمايتها، وتركهم بها، وأتم سائر المهمات والمستلزمات اللازمة.

(١) الموافقة سنة ١٦٢٩ - ١٦٣٠م.

فتح قلعة «مهربان» وانهزام «زينل خان»
في ٢٣ من رمضان المبارك سنة ١٠٣٩ هجرية[١]

قام السردار بإمداد أمير أمراء الـ«روم إيلي» «دلي يوسف باشا» الأرناءوطى الأصل، و«خليل باشا» و«حسن باشا» من أقرباء الوزير الأعظم السابق «جركس محمد باشا» بقدر كاف من الإنكشارية، وأصحب إلى جانبهم أربعة من فرق «أشاغى بلوك»[٢] مع أغواتهم، وكلفهم بفتح القلعة المذكورة. وبعد أن قاموا بحصارها لعدة أيام، كان الوزير الشجاع أي السردار مشغولًا ببناء قلعة «گل أحمر»، وفي هذه الأثناء، جاء خطاب من أمراء الأمراء المذكورين، وأخبروا بأن «زينل خان» الذي كان سيئ الظن وكان يعرف باسم خان الخانات عند القزلباش قد هجم عليهم مع أربعين ألفًا من القزلباش أصحاب المذهب الضال، وطلبوا إرسال العسكر للإمداد، وعلى هذا كان السردار «خسرو باشا» يستعد لاختيار ثلاثة أو أربعة آلاف رجل من الإنكشارية ومقدار آخر من الغزاة من بعض الأمراء وسائر العسكر، وإرسالهم كمدد، فإن جند الإنكشارية ترددوا في الذهاب، واعتذروا ببعض الأعذار، وأعلنوا العصيان، وهدموا خيمة كتخداهم.

ولما كان بناء القلعة قد اقترب على التمام، وبينما كان السردار على وشك التوجه شخصيًا إليهم، تعاقب في ذلك الحين، خبر بشرى انتصار عسكر الإسلام وانهزام الأعداء اللئام.

ـ وهذا هو إجمالي الحرب: لما اقترب «زينل خان» إلى ذلك المكان مع هذا القدر من الجند، قام عسكر الإسلام أيضًا بتنظيم طوابيرهم؛ حيث انفصلوا عن جيشهم وأسرعوا لمواجهة عسكر القزلباش. ولكن بدت في الوهلة الأولى ملامح الانتصار من القزلباش، وتشتت عسكر الإسلام، فيقتحم القزلباش جيشهم بلا مهابة، ويستولون على جميع

---

(١) الموافق ٦ من مارس ١٦٣٠م.
(٢) أشاغي بلوك: وهي تعني بالتركية الفرق السفلى. وهو لقب أطلق على فرق غرباء يمين ويسار من فرق سوارية القابوقولو.
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 21.

الخيام، ولما صار الحال على هذا المنوال، وبينما كان أمير أمراء الروم إيلي ينتظر بعيدًا عن الجيش، يسرع في جمع عسكره، ويجمع جملة العسكر الذين تفرقوا تحت لوائه، ويقوم «خليل باشا» و«حسن باشا» أيضًا بجمع طوابيرهما، وينظرا إلى بعضهما لترقب الفرصة والهجوم على القزلباش.

ولما رأى «زينل خان» أن العثمانيين قاموا بتنظيم طوابيرهم ثانية على النحو السابق، فإنه على الفور لم يعطهم الفرصة، حيث راح يشعل حماس جنده بالوعود قائلًا: «ينبغي أن نهجم عليهم»، وهجم على طوابير الروم إيلي. وقام غزاة الروم إيلي أيضًا بالتوكل على جناب الحق والتوسل إلى المعجزات المحمدية، وبمجرد أن هجموا على العدو بغتة، تفرق جند القزلباش من أمامهم، وحملوا الكرة على «خليل باشا». ولكن «خليل باشا» ثبت وصمد ووقف مكانه، حتى إن القزلباش لما رأوا صموده هذا، يُروى أنهم لقبوه بـ «تيمور قازق»؛ لأن طابوره كان بالنسبة إلى القزلباش لا يمثل الثلث ولا الربع ولا حتى الخمس، وفي تلك الأثناء، يقوم عسكر الروم إيلي وعسكر «حسن باشا» وبلوكات السباهية أيضًا بتعقبهم، والهجوم عليهم، فكانوا يقطعون رءوسهم، وربما يمزقون أكبادهم أيضًا، وبعد هذا، لم يستطيعوا المقاومة، وعلى الفور تلجأ جملة طوابيرهم لإنقاذ الروح، ويحاولون برغبة شديدة في أن يسبق بعضهم بعضا للعبور من الجسر العظيم الذي كانوا قد عبروه وهجموا على عسكر الإسلام، أما غزاة الإسلام، لما رأوا أن القزلباش يقومون بالفرار على هذا النحو، فإنهم قاموا بتعقب إثرهم، فراحوا يقتلون ويأسرون الذين يصلون إليهم.

ويسعى «زينل خان» بجهد عظيم لجمع الذين عبروا من الجسر مرة أخرى، وإذا كان قد استطاع جمع طابور عظيم منهم، فإنه لم تعد لديهم قدرة على المقاومة، وفجأة يأتي جيش القزلباش، وعندما يصل إلى الممر صعب المرور الذي كان يقع على طريق عودته، يتوقف به أكثر الجند، ويتراكمون على بعضهم، وينزع غزاة الإسلام بزيادة الإقدام الألسن والرءوس التي لا حد لها، ويغتنمون الجياد والحيوانات وأطقم الخيول؛ أي عدتها والأشياء الأخرى بذلك القدر الذي كان زائدًا عن حد القياس، حتى كان قد

اغتُنم أيضًا الكثير من السيوف المرصعة بالذهب والخناجر المرصعة والطرات المزدانة بالجواهر، وإن الرواية التي تقول: إن الفريق الذي هلك من التزاحم أثناء العبور من ذلك الجسر، وتلطخ بالدم والتراب، والذي سقط وغرق في ذلك النهر العظيم، كان أكثر من الذين هلكوا بسيف العثمانيين البتار، إنما هي حقيقة، وبحمد الله تعالى، فقد وقعت الغزوة التي لم تحدث منذ وقت بعيد، ويمكن أن يقال: إن جند القزلباش لم يأكلوا ضربة على هذا النحو من أهل السنة منذ زمن بعيد.

تحرك الوزير الشجاع مع العسكر

عندما كان السردار يهم بالعزم على التوجه صوب «مهربان»، كانت أنباء بشرى انتصار عسكر الإسلام على عدوهم سيئ العاقبة قد وصلت، حيث صار ذلك باعثًا على المسرة والسرور، وفي اليوم التالي، تحرك السردار من قلعة «گل أحمر»، وجاء إلى قلعة «مهربان»، واصطف أمراء الأمراء والأمراء الذين وفقوا في هذا الفتح وتلك الفتوح وجملة الألسن والرءوس المأخوذة من جند القزلباش على الترتيب أمام طوابيرهم، واستقبلوا السردار صاحب الوقار عازفين على الناي وداقين الطبول التي أخذوها من القزلباش، وتبادل الطرفان الفرح والسرور، وقام السردار بإلباس الخلع لأمراء الأمراء والأمراء على قدر مراتبهم، ووجهت الترقيات ووزعت الإنعامات على سائر الغزاة الأبطال، ونال كل واحد منهم مأموله.

التوجه إلى قلعة «باغ جنان»

بعد أن أُقيم يومًا في صحراء «مهربان»، تم التوجه إلى قلعة «باغ جنان». ولكن كانت القلعة المذكورة تقع في مكان صخري وصعب، وفي حالة حصارها، فإن نصفها لن يتعرض للحرب، ولذلك لم يُـر أن حصارها مناسب، فإنه تم إشعال النار في قصور الظالم «علي خان» الواقعة في صحرائها أي صحراء «باغ جنان» والتي كانت تُـفضل عن قلاع كثيرة مثل هذه، وعلاوة على هذا، كان قد تساوى بالتراب هذا القدر من القرى

الواقعة في أطرافها ونواحيها والتي كانت كل واحدة منها عامرة كالمدينة. وكانت القلعة المذكورة معروفة باسم قلعة «ظالم علي»، وكانت قد ضُمت في عصر «سليمان خان» إلى الممالك العثمانية مع حوالي عشر قلاع كانت تابعة لها، وبعد ذلك، لما أخضع «الشاه عباس» المستأنس بالشيطنة مملكة «شهرزور»، أصبحت تلك القلاع أيضًا تابعة له. وكنا قد تحدثنا عن ذلك الموضوع في عصر «سليمان خان».

قيام السردار بقيادة العسكر من ذلك المكان أي صحراء «ظالم علي» إلى مدينة «همدان»[1] في السنة نفسها

خلال الثلاثة أيام التي أقيم فيها في صحراء «ظالم علي»، شُنت الهجمات وأُغير على كل جانب فيها واغتنمت الغنائم الكثيرة، وبعد ذلك جاءوا إلى «همدان»؛ حيث أغير على مدينتها أيضًا وعلى أطرافها وجوانبها وخُربت، ولما وردت الأخبار للقزلباش بمجيء عسكر الإسلام، حرقوا بأيديهم أكثر أماكن المدينة ومنازلهم التي كانت ليس لها نظير وهدموها.

وكانت «همدان» مدينة لا شبيه لها، حتى إن جميع من شاهدوها أكدوا أنها تشبه الشام الشريفة، وخلاف مدينتها، كان هذا العدد من حدائقها وأشجارها وقصورها الباهرة الموجودة في كل بستان، ومصاطبها وفساقيها وأحواضها المتعددة الموجودة في قصورها، وقصورها ومواضع مجالسها بأنواعها الغريبة، كانت خارجة عن حد التعريف والتوصيف، حتى إنهم كانوا لا يستطيعون الإقدام على هدم حديقة الشاه وقصورها الموجودة بداخلها، فلما جاء الوزير الذي ليس له نظير، ساق جواده إلى هناك، وصحب معه الإنكشارية، وخدمه وطائفة «آت أوغلاني» وجعلهم يهدمونها ويساوونها بالتراب، وأمرهم بقطع مزارع النخيل والورد ومزارع الأشجار المثمرة التي وصلت إلى مرحلة النضج، وجعلهم يخربونها بتلك الدرجة التي صارت فيها محتاجة لمدة طويلة جدًا لإعادتها إلى حالتها الأولى مرة أخرى.

(١) هي من أعمال إيران.

وفي الوقت نفسه نظمت الهجمات على تلك الأطراف والنواحي، وكان يوجد في المدينة وأطرافها خنادق ومخازن كثيرة؛ فأخذت الغنائم التي تزيد عن الحد والحصر، ولكن لما عجز عسكر الإسلام عن حمل كل هذه الأشياء، أحرق بالنار الكثير منها، ومن أثاثات البيوت، والأبسطة الفاخرة التي لا حصر لها والأواني الكثيرة وبعض الأمتعة والألبسة والكثير من الأشياء الرخيصة التي بقيت مكانها؛ فأضيف لقلب القزلباش المجروح، جرح فوق جرح.

وبعد أن أقيم في ذلك المكان ثلاثة أيام، تم التحرك منه والوصول إلى «درگزين». ولكن كان قد تجمع في مضيق «درگزين» الكثير من رماة القزلباش؛ فقطعوا الطريق على عسكر الإسلام، ودارت رحى حرب وقتال ضروس، وقُطعت رءوس الكثير من القزلباش، وذاق الكثير من جند الإسلام أيضًا شهد الشهادة، وسلكوا طريق العدم.

وكانت «درگزين» أيضًا مدينة باهرة مثل «همدان»، وفي «درگزين» أيضًا تم شن الغارات نفسها التي قام بها عسكر الإسلام في «همدان»، بل وأكثر منها، وكانت توجد أمتعة فاخرة كثيرة في خنادق ومخازن هذه المدينة أيضًا. وأحرق أيضًا كل ما لا يقبل النقل منه.

وصفوة القول، فإن الإغارة والتخريبات التي تمت في هاتين المدينتين اللتين كانتا بلا نظير، وفي القرى الكثيرة التي كانت تشبه المدن والتي كان بعضها موجودًا في الصحراء وبعضها الآخر في الجبال، والضرر والخسارة والإغارة والتخريب الذي ألحقه عسكر الإسلام بالقزلباش يزيد مائة مرة عن مرتبة التفصيل والتحرير، ولكن لما كانت هناك مغارات تقع في أماكن صعبة الاجتياز من الجبل المطل على مدينة «همدان» فقد دخل بعض الأشخاص من أهالي المدينة إلى داخل هذه المغارات؛ وتحصنوا بها، وأحضروا أمتعتهم وأثوابهم التي أمكن نقلها ووضعوها بها، فقام بعض الأشخاص من الغزاة بالتوجه إلى هناك من أجل الغنيمة، فإنهم لم يظفروا بذلك، نظرًا لأنه كانت قد وضعت المتاريس في أماكن كثيرة من ذلك المكان، علاوة على أنه كان موقعًا صخريًا في غاية

الصعوبة، وكان الوزير عالي القدر قد منع التوجه إلى هناك، ولم يرضَ بأن يقوم الغزاة بالقضاء على أنفسهم من أجل أشياء لا قيمة لها.

العودة من هذا المكان ومحاصرة «بغداد»

كان الوزير الشجاع يخطط للإغارة على المناطق حتى يصل إلى «أصفهان»، ولم يكن يرضى بالعودة من ذلك المكان بأي حال، ولكن الإنكشارية اتفقوا على أن يتوجهوا إلى أغاهم، وأصروا على قولهم: «إننا فرقة مشاة، ففي حالة الوصول إلى مسافة بعيدة بهذا القدر، سيكون الحال صعبًا عند العودة، خاصة في أيام الشتاء، ولا يمكن تصور أي قهر أو نصر على العدو أكثر من هذا، فبعد هذا، علينا أن نذهب لمحاصرة «بغداد»»، وبناءً على هذا، عادوا من هذا المكان، وتوجهوا إلى «بغداد».

وفي اليوم السابع والعشرين من صفر المظفر سنة ١٠٤٢ هجرية[1] تم الدخول إلى التحصينات أمام قلعة بغداد، وحُوصرت القلعة، وضُربت ليل نهار على مدى أربعين يومًا بالتمام، وذات مرة شن هجوم عليها بعظيم الإقدام والاهتمام، ولكن، كان فتحها مرهونًا لوقته؛ ولذا لم يتيسر الظفر في ذلك الحين، وعلاوة على هذا كان قد حل على العسكر أيضًا الفتور والملل من مشقة السفر الذي كان على هذا النحو. ومن ثم، لوحظ أن من الأولى صرف النظر عن فتح القلعة، فإن أكثر الجاموس الذي كان سيحمل المدافع كان قد هلك لعدم وجود العلف اللازم له. حتى إن الذي بقيَ منهم على قيد الحياة، لم تبق لديه أي قدرة ولا طاقة، وفي النهاية، عُين من كل فرقة مقدار من الرجال يكفي لكل مدفع، وقام هؤلاء بتوصيلها جميعًا إلى الموصل بالسلامة، وذلك بربطها بجيادهم.

نزول العسكر إلى قلعة «حله» وبناء قلعة «الموصل»

كانت مدينة «حله» تقع شرق «بغداد»، وكان قد أقيم حولها من قبل سور لا يمكن أن يطلق عليه اسم قلعة، وكان عبارة عن سور من طوب لبن محشو بالتراب، وفي هذه المرة،

---

(١) الموافق ٥-١٠-١٦٣٠م.

لما قام الوزير صاحب التدبير ببناء قلعة «گل أحمر»؛ يعني قلعة «شهرزور» على إحدى جانبي «بغداد»، قام في الجانب الآخر بجمع المهمات والمستلزمات الكثيرة ووضعها داخل سور «حله» كتدبير يرمي لأن تكون قلعة «بغداد» محاصرة في حالة محافظته على «حله»، وملأها بفرقة من المحاربين بشرط ترقيتهم إلى «عسكر بلوك»، وعين «خليل باشا» و«ذو الفقار باشا» وبعض الأمراء الآخرين للمحافظة عليها، وتوجه هو إلى الموصل، وبدأ في بناء قلعة عظيمة ومحصنة؛ حيث أتم بناءها في زمن وجيز، ووضع بداخلها المدافع وكل المهمات والمستلزمات.

ولكن لما رأى القزلباش أن طرفي «بغداد» قد دخلت تحت تصرف أهل الإسلام، وأن القزلباش الموجودين في «بغداد» قد شعروا بالضيق، هجموا في الحال على قلعة «گل أحمر»، ولما علم المكلفون بالمحافظة عليها أنهم لن يستطيعوا بحال المقاومة، تركوا القلعة، وتوجهوا صوب الموصل، ولما علم الوزير بهذه الأحوال، قام بقتل الأربعة أمراء الأمراء الذين كلفهم بالمحافظة على القلعة دفعة واحدة، وبعد هذا، هجم عسكر القزلباش على الـ «حلة»، ومع أن المحاصرين بداخلها ثبتوا بالدرجة التي كانت في حد الإمكان، فإنه في النهاية لم يستطيعوا المقاومة؛ وأُجبروا على امتطاء الجياد المجردة من السروج، وولوا الأدبار إلى أطراف البرية، وقام القزلباش أيضًا بتعقبهم؛ حيث أسروا «ذو الفقار باشا»، أما «خليل باشا» فقد نجا بصعوبة.

قيام الوزير الشجاع بقضاء الشتاء في «ماردين» وإعداده للحملة من «أرضروم»

بعدما أتم الوزير بناء قلعة الموصل، وأكمل مهماتها ولوازمها كما ينبغي، حل الشتاء، وقام بقضائه في «ماردين»، وفي هذه المرة، رأى أن يزحف على ممالك القزلباش من ناحية «أرضروم»، والتوجه من هناك إلى «بغداد» كما فعل من قبل حضرة المرحوم والمغفور له «سلطان سليمان خان غازي» رحمة الله عليه رحمة واسعة، وبهذا القصد، أمر بإعداد

جميع مهمات الحملة وإكمالها في «أرضروم» التي تفيض سماتها بالبهجة، وما إن حل ربيع الأول حتى تحرك من «ماردين»، ودخل «ديار بكر»، وبذل الجهد اللازم في جمع الجند، واهتم بإكمال المهمات التي ظن أنها كانت ناقصة، وقام بإرسال الرجال أصحاب الهمة والأقوياء إلى كل جانب، وبذل ما هو زائد عن الحد والحصر.

عزل الوزير المومأ إليه «خسرو باشا» وتعيين «حافظ باشا» وزيرًا أعظم للمرة الثانية

إن هذا الحجم من السعي والهمة التي قام بها الوزير الذي ليس له نظير، وسعيه وانتقامه من العدو، لم يُعتبر عند أرباب الغرض؛ حيث أغضبوا السلطان صاحب السعادة منه، وقالوا: «لا يمكن أن تُفتح «بغداد» بهذه الطريقة، وسيذهب كل هذا هباءً»، وجعلوا السلطان صاحب السعادة يدفع بختم الوزارة إلى «حافظ أحمد باشا». أما «خسرو باشا»، بعد أن أخذ الختم الشريف من يده، تحرك من «ديار بكر» متوجهًا إلى الآستانة السعيدة، وبإرادة الله تعالى مرض، واشتد انكساره يومًا بعد يوم؛ فكان من الضروري أن يتوقف ويستريح ويقيم في «توقات»، وبينما كان يسعى لأخذ بعض العلاج، لم يكتف أعداؤه بعزله، بل سعوا لقتله، وفي هذه الأثناء، كانت قد وجهت «ديار بكر» إلى «مرتضى باشا»؛ فخرج من الآستانة متوجهًا إليها، وأمر السلطان بإرسال خط شريف في عقبه لقتل الصدر الأعظم «خسرو باشا». وقطع «مرتضى باشا» أربعة أو خمسة منازل بسرعة، ووصل إلى «توقات»، وهجم عليه على غفلة بينما كان يرقد في فراشه؛ ونفذ الفرمان الذي صدر في حقه، ولكن بسبب هذا الإجراء امتد سهم الفتنة والفساد إلى ذروة الفلك. ولا بد أنه سيُوضح إجمالي ذلك.

قتل «حافظ باشا» وتعيين «رجب باشا» وزيرًا أعظم

لما وصل خبر مقتل المرحوم «خسرو باشا»، ظهر منذ مساء تلك الليلة بين الناس ضجيج وهرج ومرج وفتنة، وصارت مدينة «إستانبول» كما لو كانت أشبه بخلية النحل،

ولم ينقطع طنينهم من كل ناحية، ولم يسكن تذمرهم وشكواهم من كل جانب في المدينة، وكان يتردد في حجرات الإنكشارية وعلى نواصي الشوارع وفي كل الأماكن التي كانت مواضع تجمع للناس ذلك القول: «أيها الزائلون كنتم تخافون من حياة «خسرو باشا»، عليكم أن تروا ماذا عساه أن يفعل موته لكم». وكان يخرج من فم كل شخص صوت مختلف على هذا النحو، حيث وضع الناس أقدامهم على ربوة الفساد.

ولما كان «خسرو باشا» في ذاته رجلًا جريئًا وبطلًا، فقد احتل مكانًا خاصًا في قلوب عسكر خلقي، وتألموا جدًا على قتله، ومُنع الصغير والكبير عن فعل أي شيء بصعوبة، وفي اليوم التالي، يوم الاثنين الموافق الثامن عشر من شهر رجب، اجتمع الوزراء وسائر الأعيان على العادة في الديوان الهمايوني، وفي تلك الأثناء دخل الصدر الأعظم «حافظ باشا» من الباب الهمايوني، ولما أتى أمام حجرات المرضى، تقابل بأفراد الإنكشارية الذين كانوا يذهبون ويعودون، فيقومون بإسقاط «حافظ باشا» من فوق الجواد، ويهجمون عليه، ويستولون على طاقم جواده وعمامته التي من نوع مجوزه وثوبه، فيلجأ هو إلى حجرات المرضى بصعوبة، ويقفز من فوق الجدار بسلم ويدخل إلى الحديقة الخاصة. ويأخذ من «بوستانجي باشي» ثيابًا ومجوزه، ويتوجه إلى المجلس الهمايوني، ولما يسأل السلطان قائلًا: «ما أصل هذا الذي بك؟»، يجيب: «قام بعض الغلمان والخدم بالتحرش بي؛ فاستللت الخنجر وشتتُ جمعهم»، حتى يُروى أنه عندما تألم السلطان صاحب السعادة منه، قال: «لم يترك كذبه». والعهدة على الراوي.

وفي اليوم التالي، امتلأ العالم ثانية بالفتنة والفساد. وأخرجوا السلطان صاحب السعادة بالعرش الهمايوني إلى الخارج، وأحضروا «حافظ باشا» المسكين إلى ميدان الإعدام، واستلوا الخنجر أمام النظر الهمايوني السلطاني وقتلوه، رحمة الله عليه، حتى يرووا أن ظالمًا طعنه بخنجر حاد كان بيده في رأسه، فخرج من ذقنه. وقالوا: «إن ذلك الظالم كان من المقربين لـ «خسرو باشا»»، وفي ذلك المكان، أقسم عصاة الإنكشارية للسلطان صاحب السعادة بالأيمان بعدم أخذ الرشوة، وحصلوا على التعهدات الهمايونية بعدم أخذ المناصب من الجورباجيه بلا ذنب وإعطائها إلى آخرين، وقالوا:

«لم يبق العسكر الذين يمكن أن يواجهوا العدو ويدخلون التحصينات بإلغاء زعامة السيف [قليچ زعامت]، ولا بد أن يهتم السلطان بهؤلاء»، وبعد ما قيل بعض الكلام مثل: سُحقت طائفة الرعايا بالأقدام؛ بسبب التكاليف الشاقة، وزاد الخراج، أحسن بختم الصدارة إلى الوزير الثاني «رجب باشا».

وكان العصاة قد أخذوا التعهدات الهمايونية من السلطان صاحب السعادة من أجل ألا تؤخذ الرشوة وألا تباع المناصب، وبعد ثلاثة أيام من ذلك، أحسن على هذا العبد الفقير «بچوي»، وكنت معزولًا في ذلك الوقت من دفتردارية «طونه»، بدفتردارية الأناضول؛ يعني بمنصب «أورته دفتر دار» في الديوان الهمايوني.

في ذكر قتل «دفتر دار مصطفى باشا» وأغا الإنكشارية «حسن خليفة» و«موسى خليفة»

وبعد هذا، فمع أن الخدم قد هدءوا لعدة أيام، وأصبحوا لا يتجاوزون في تصرفاتهم، فإنه بينما كانوا يتجولون بحجة أداء الوظيفة والخدمة، كانوا يسيرون على شكل أربعينات أو خمسينات وربما مائة مائة أو مائتين، وكانوا يتوجهون ويأتون معًا على هذا النحو إلى الديوان الهمايوني وأيضًا إلى سائر الأركان، وكان قد اختفى الدفتردار «مصطفى باشا» والإنكشاري «حسن خليفة».

فكان هؤلاء الخدم يقولون: «فليظهر هؤلاء ولتُقطع رأسهما، وليقتل «موسى چلبي» أيضًا»، وكان «موسى چلبي» نديمًا خاصًا للسلطان صاحب السعادة، وطويل القامة، ومحبوبًا وشابًا مرغوبًا، وفي النهاية، وقع في عشرين من شعبان المعظم[1] الهرج والمرج الذي كان أسوأ ألف مرة من الذي حدث من قبل، وقالوا: «قطعًا لا بد وأن يكون السلطان صاحب السعادة قد أخفى هؤلاء في الحديقة الخاصة، ونحن نريد رءوسهم،

(١) الموافق ٢٢-٣-١٦٣١م.

وأيضًا سنقوم بالأمر الذي لا تريدونه»، وعلى هذا، وُزع المنادون على كل ناحية من أجل تسكين الفتنة، ووعدوا بثلاثة أو أربعة آلاف غروش كبشرى لكل واحد منهم.

وفي اليوم التالي، امتلأت ساحة «آت ميداني» ثانية بأجناس مختلفة من البشر، ولكن تغير الجو في ذلك الحين، وبدأ سقوط الثلوج على نحو لم يتمكن فيه أي فرد من الوقوف في ساحة «آت ميداني»، واضطروا للتجمع في جوانب الجامع الجديد، وإيوان المهترخانه ودكاكين سوق «آيا صوفيه»، وبعد ذلك جاء حوالي خمسة عشر شخصًا من رؤساء الأشقياء إلى قصر الوزير الأعظم، وكان موجودًا في القصر، شيخ الإسلام المرحوم «حسين أفندي» وقضاة العسكر الذين لا يزالون في مناصبهم والمعزولين منهم وكثير من الموالي الكرام والوزراء العظام، علاوة على سائر أرباب الديوان.

وأعاد ممثلو الأشقياء أي الخمسة عشر شخصًا هؤلاء كلامهم السابق، وأحكموا أساس بناء الفتنة والفساد، وبعد كثير من القيل والقال والمناقشة والجدال، أمر حضرة شيخ الإسلام، بتحرير حجة بإهدار دم ودين هؤلاء «مصطفى باشا»، و«حسن خليفة»، و«موسى خليفة»، وقام هو بالتوقيع أولًا، وبعد ذلك جعل جملة الموالي العظام يوقعون، وأعطى الحجة إلى العصاة.

وأقسم الصدر الأعظم «رجب باشا» الموجود في ذلك المكان بالأيمان المغلظة وقال: «إن هؤلاء ليسوا موجودين عند السلطان صاحب السعادة، وحرصه الهمايوني في العثور على هؤلاء أكثر منكم؛ لأنه لما كان «موسى چلبي» يعمل في خدمته الشريفة، فقد أرسله ليلًا، فمن المؤكد أن ميله الهمايوني إلى «موسى چلبي» أكثر من ميله لهؤلاء، ولم يتردد في إرساله، فلو كان هؤلاء أيضًا في الحديقة الخاصة، فلم يكن هناك أي شك في إرسالهم قبل «موسى چلبي»»، وحتى الآن لم يكن هناك من يذكر اسم المسكين «موسى چلبي». أما الآن فلا يُعرف هل قال ذلك بصدق، أم من أجل أن يأتي الاطمئنان إلى طائفة الخدم؟ ومهما يكن من أمر، فعندما ورد هذا الجواب على لسانه، توجه ممثلو الأشقياء هؤلاء إلى المكان الذي يوجد فيه الأشقياء.

وفي تلك الأثناء، قام الصدر الأعظم بإرسال هذا العبد الفقير «بچوي» من أجل مصادرة متروكات «حسن خليفة» التي كانت في داره وفي حديقته، وأمرني قائلًا: «ابحث عنها في كل مكان»، فلما أديت خدمتي التي كُلفت بها، وأتيت لأبلغ ذلك إلى الوزير الأعظم، رأيت أن «موسى چلبي» المسكين مُلقى على الأرض ميتًا قرب السراي في ساحة «آت ميداني»، فربما جاء العصاة في الحال، وطعنوا «موسى چلبي» المسكين بالخنجر، وقتلوه وألقوه إلى أسفل من السراي.

وفي اليوم التالي، عثروا أيضًا على «حسن خليفة»، وألحقوه بزمرة الشهداء بسيف جلاد السلطان، وفي غرة رمضان الشريف[1] أخرجوا أيضًا «دفتر دار مصطفى باشا» من المكان المختفي فيه، وأمروا بقتله بالفرمان السلطاني في ساحة «آت ميداني». رحمهم الله رحمة واسعة.

وليس هناك ضرورة للحديث أكثر من هذا عن الأحداث التي تمخضت عن هذا الموضوع، وعن القيل والقال الذي وقع على إثر ذلك، وربما عدم كتابتها أفضل من كتابتها؛ لأنه مهما يبالغ في توضيحها فهي أكثر من ذلك.

ـ ومن آثار انكسار القلب: كان «مصطفى باشا» المذكور على غاية العداوة والإهانة لهذا العبد الفقير «بچوي»، وإذا فصل ذلك، فقد لا يتمخض عن ذلك نتيجة سوى الإطالة التي بلا فائدة، ولكن، بسبب أنني كنتُ أسلك طريق الدفترداري‌ة، كنا لا نخلو من الالتقاء به بالضرورة.

وفي أحد الأيام دخلت على مجلسه مع «دفتر دار زاده إبراهيم أفندي» أمين الترسانة في ذلك العصر، فمع أنه ليس لدينا قيمة شخصية ولا بضاعة تجارية، فإننا تقدمنا في الدخول؛ بسبب أن ذقني كانت بيضاء، وبحسب الاستحقاق في المنصب، وعلى عادة ذلك الزمان، مددنا اليد لتقبيلها بعد السلام؛ فأصبح كما لو كان يتحرك بكراهية وقال:

---

(١) الموافق ٣-٤-١٦٣١م.

«أتيت أهلًا»، ولما مد «إبراهيم باشا» اليد بعدي من أجل تقبيل ذيل الثوب، قال له: «هاي يا ولدى، لقد أتيت متأخرًا، ولم تدرك صفاء «كلبه شكر»»، فقال «إبراهيم أفندي» أيضًا: «يا سلطاني، ما هو «كلبه شكر»؟ هل هو مؤذي لدولتكم؟ فليحضروه أيضًا من أجلنا». ولما أُحضرت «كلبه شكر»، أخذها بيده المنحوسة قاطعة الأرزاق، وبدأ بتوزيعها. وبينما كنت أنا هذا الفقير «بچوي» بجانبه الأيمن، لم يتلفت إليَّ قط؛ بل لم ينظر إليَّ حتى بطرف عينه، وبعد أن قام بالتقسيم على كل الذين كانوا على يساره، وزع بقيتها أيضًا على الخدم الذين كانوا يقفون في ذلك المكان.

وقد جاء هذا التصرف منه شاقًا جدًا على هذا العبد الفقير، وأصبحت منكسر الخاطر بذلك القدر الذي لا يمكن التعبير عنه، وبعد ذلك، تصرفت على اعتدال، ولُمت نفسي وقلت: «هل الآن عرفت أنك لست في عداد الرجال؟». ونهضت وذهبت بهذا الانكسار.

وعلم الله، ربما قبل مرور خمسة عشر يومًا، كانت مقدمات هذا الحادث قد بدأت في الظهور، وبينما كان الدفتر دار «مصطفى باشا» لا يزال في المكان المختفي فيه، أصبحت دفتردارًا، وكُلفت ببيع مخلفاته، وصادرت الأشربة المتعددة التي تحويها ثلاثين أو أربعين جرة، والـ «كلبه شكر» المكرر والممسك، والسكر الهندي من نوع المربعات، ووضعت يدي على كل ما وجدته، واحتجزت لنفسي جرتين مملوئتين بـ «كلبه شكر» قائلًا: «هذا من عند الله مكافأة لنا على انكسارنا»، وقد مضى على هذه الواقعة أكثر من عشر سنوات حتى الآن، وقد احتفظت ببقيتها حتى الآن من أجل التبرك بها، وكلما أتناول شيئًا منها وأتذكر ذلك، أشكر وأحمد حضرة الحق تعالى، وإنني معترف بأنني لم أوفه الشكر حتى ولو أصبح عمري ألف عام ولو لم أرفع رأسي من السجود الدائم له تعالى.

قتل الوزير الأعظم «رجب باشا»
وتعيين «محمد باشا» وزيرًا أعظم

توافقت وزارة «رجب باشا» مع زمن الطغيان الشديد الذي قام به العصاة، ومن

جملة ذلك: أنه لما اقترب العيد الشريف، بدءوا في نصب الأراجيح، وعندما وصلوا إلى جند المتفرقة والجاوشية المعينين من قبل الوزراء وقضاة العسكر بشموع العسل، قاموا بدعوتهم، وكانوا قد علقوا أوراقًا على الشمع الذي أحضروه مكتوب عليها: «شمع القائمين على الأراجيح التي في المكان كذا»، ويتوجه رجل من بينهم إلى من لم يرسل ما طلبوه؛ حيث كانوا يأخذون الثمن عدة أضعاف.

وإنني هذا الحقير التقيت في تلك الأثناء في ذلك المكان بالقرب من «إيلچي خاني» بأحد أغوات «جان بولاد زاده وزير مصطفى باشا»، وكان قد حمل فوق أحد الحمالين ملء جوال من قماش الجوخ والأقمشة الأخرى، وكان يذهب من أرجوحة إلى أرجوحة؛ وقس على الباقي، وكان المرحوم «رجب باشا» أيضًا يظهر لهم غاية الاعتبار والرعاية، وكان واحد أو اثنان من بينهم يعتبران من مقربيه يحملان ألقاب «قبوجي باشي»؛ أي رئيس خدم الباب، ويلاحظ أن ذلك كان بسبب الخوف من شرهم الظاهر. ولكن أعداءه وشوا به إلى السلطان صاحب السعادة قائلين: «كل هذه المفاسد إنما هي بتحريضه ورأيه»، حتى يُروى أنه كلما دخل إلى المجلس الهمايوني يخاطبه السلطان صاحب السعادة بالقول: «زوربا باشي» أي رئيس المستبدين. وأخيرًا، خُنق في اليوم السابع والعشرين من شوال المكرم سنة ١٠٤١ هجرية[1]، رحمة الله تعالى عليه، وأُحسنت الصدارة على الوزير الجديد «محمد باشا» الذي حضر من «مصر».

ومن حكمة الله تعالى أن اليوم الذي خُنق فيه كان يوم الديوان، وكانت الغفلة قد غلبت عليه في الديوان، فكان لا يستطيع أن يرفع رأسه من فوق صدره قط، واقترب منه «باش دفتردار» مرة أو مرتين حتى يعرض عليه بعض المصالح، فإنه لم يكن داريًا بالإجابة، وعندما كان يفيق كان يمر وقت طويل، وكنتُ قد قلت أنا الفقير لطيفة: عجبًا إنه في غفلة، لم يحصل على مقام سلطان حتى الآن، ولو حصل على ذلك لبقي بلا نوم.

---

(١) الموافق ١٧ ـ ٥ ـ ١٦٣٢م.

ومن تأثيرات تطابق النجوم بأمر الله تعالى القادر القهار القيوم

ومع أنه ذهب بعض العلماء إلى الاهتمام بعلم النجوم، فقد قال البعض: إن الاعتقاد بتأثير بعض الكواكب بالذات إنما هو حرام، ويُروى عن حضرة الإمام الشافعي أنه قال: «إذا اعتقد المنجم أنه لا توجد قوة مؤثرة غير الحق تعالى، ولو قال: سنة الله تعالى جارية على أنه لو تقع حركات واتصالات الكواكب على ذلك النحو، فإنه تقع الأحوال على ذلك النحو، فلا بأس في ذلك من وجهة نظري». فمثلًا إذا قال أحد الأشخاص وقت العصر إنه بعد ثلاث ساعات تغرب الشمس، وتغطي الظلمات العالم، فهذا أمر ظاهر، وليس هناك شك لدى أي شخص في هذا، وهكذا، فإن المنجمين يعرفون اتصالات الكواكب مثل هذا تمامًا، وقد كتب حكماء السلف الأحكام التي ستقع في عالم الكون والضرر من بعض الاتصالات استنادًا إلى تجاربهم، ولكن المؤثر الحقيقي هو الله تعالى،ويؤمل ألا يكون هناك خطأ في الاعتقاد على هذا النحو، وألا يُكفّر معتقده، وأما القول: إن المؤثر هو الكواكب فهو حرام، وربما لا يجوز القول عليه إنه كفر.

والمقصود من هذا الإيضاح هو أن من عجائب الاتفاقات أن ذلك اليوم الذي أصبح فيه «حافظ باشا» وزيرًا أعظم، كان خاليًا تمامًا من إشارات اليُمن، ولكن كان غير خالٍ من النُحس؛ حيث كان القمر في حالة محترقة، وتحت الشعاع وتشوبه الظلمة وفي منزل الاحتراق؛ حيث إن كل هذه الأشياء معدودة عند المنجمين من الأمور المشئومة. والحقيقة، ظهر تأثير هذه الشؤم: فقد قُتل «حافظ باشا» في اليوم العاشر بعد المائة من توليه الصدارة، ففي اليوم الذي قُتل فيه كان القمر أيضًا في طريقة محترقة ومشوب بالظلمة وفي منزل الاحتراق، وفي اليوم نفسه، عُهدت وأسندت الصدارة العظمى إلى «رجب باشا»، وخدمة الفتوى الشريفة إلى المرحوم «حسين أفندي»، وقد خُنق «رجب باشا» في اليوم السابع والتسعين واستشهد المرحوم «حسين أفندي» أيضًا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر، واليوم الذي قُتل فيه «رجب باشا» كان القمر تحت الشعاع، وفي مقابلة

زحل المريخ، ولكن مع أن وجود القمر تحت الشعاع يُعد من اليُمن، فإنه لم يصل إلى درجة الشرف العليا، وكان يوجد يُمن تقابل كوكب الزهرة والمشترى في برج واحد، وعلى هذا، فبإرادة القادر الدائم، رُدَّ نحسه إلى «رجب باشا»، ورجع يُمنه إلى «محمد باشا» الذي عُين وزيرًا أعظم بدلًا منه.

قيام السلطان صاحب السعادة بالقصاص من الطغاة

لما علم السلطان صاحب السعادة بالتصرفات الغريبة لأرباب الطغيان، أصدر ذات يوم خطًا شريفًا إلى حضرة الوزير الأعظم جاء فيه: «ينبغي رفع وظيفة «ملازمت»، وبعد ذلك يجب ألا تُوجه الخدمات التي لم تكن موجودة في زمن أجدادنا العظام»، ولما علم الملازمون وتلك الزمرة المعاندة بهذا الفرمان، حشدوا جمعًا عظيمًا في ساحة «آت ميداني»، واجتمع أيضًا الوزراء والعلماء وسائر الكبار في المجلس الهمايوني للسلطان عالي المقدار، وقالوا: «فليأت بعض الرجال من بينهم أي من بين العصاة إلى المجلس الهمايوني». ولكن هؤلاء خافوا، ولم يأت أي فرد منهم. وأدلى أغا طائفة سلحدار «أحمد أغا» ببعض الكلمات المتعلقة نوعًا ما بتربيتهم فقال: «سلطاني صاحب السعادة، إنهم خدمك، وحاشا أن يرتكبوا شيئًا سوى الامتثال لأمركم الهمايوني»، وفي تلك الأثناء، يقوم واحد من أغوات الأوجاق، الذين يقفون أمام السلطان بمعارضة «أحمد أغا» قائلًا: «إذا كانت إحدى الفرق العاصية مطيعة للسلطان، فما سبب اجتماعهم هذا؟ ولماذا تترك سيف العصاة طليقًا على هذا النحو؟». فيرد «أحمد أغا» أيضًا بقوله: «عليك غضب الله، لو كان لديك خبر عن آداب السلطنة، هل كنت تتحدث بكلام على هذا النحو في المجلس الهمايوني السلطاني».

وعلى كل حال، فما إن أتى الوزير الأعظم في اليوم الثالث إلى الديوان الهمايوني، وجلس في مكانه، حتى أحضر كتخدا طائفة البوابين خطًا شريفًا، وقام حضرة الصدر الأعظم أحيانًا بفتحه وقراءته مرة أو مرتين وأحيانًا أخرى بلفه وطيه، ثم وضعه بجانبه. وبعد فترة، دعا كتخدا طائفة البوابين، وهمس بشيء في أذنه، وبعد ذلك، أصدر الإذن

العام بالدخول، وامتلأ الديوان بالشاكين المنحوسين، وفي تلك الأثناء، يصيح شخص قائلًا: «ظلم يا سلطاني»، وربما قام كتخدا طائفة البوابين برفع المسكين «أحمد أغا» من مكانه قائلًا: «الوزير الأعظم يريدك». ولما اقترب من السبيل المعهود أي قرب الموضع المعروف باسم «جلاد جشمه سي»، كان الجلاد حاضرًا هناك، فقام في الحال بضرب عنقه وألحقه بزمرة الشهداء، رحمة الله عليه، وبعد ذلك، انصرف كبار المغروفين باسم «ملازم» فرادى. وغضب الذين كانوا متهيئين للحصول على منصب «والي» أمثال مخادعين وتركمان «حلب»، ولكن لم يبق الذين يمكن أن يحصلوا على الوظائف مثل وظيفة «حواله» و«باقي قول» التي كانت خاصة بالسباهية منذ القدم.

وبينما كنت أنهض ذات يوم مع «الباش دفتردار» من جانب الوزير الأعظم، وقف لأداء السلام بلوك من الملازمين للوظائف المتعددة عند رأس ساحة «آت ميداني»، وبلوك آخر في الطرف الأعلى منه، وحوالي سبعين أو ثمانين رجلًا في شكل مجموعات في موضع أو موضعين حتى الوصول إلى موضع «والده حمامي»، فطلب منا هؤلاء بأدب بقولهم: «بعد الآن، أعطوا لنا وظائفنا». فرد عليهم «الباش دفتر دار»: «لقد تباحثنا الآن هذا الأمر مع الوزير الأعظم، تعالوا، فلنباشر العمل على الفور في هذه الساعة». وبينما كان يأتي من خلفنا بلوكان كبار أو ثلاثة من هؤلاء، أتى من أمامنا شاب يبدو عليه ظهور الشارب حديثًا ومرتديًا فروًا مبطنًا بقماش من نوع القطيفة الذي كان لونه أحمر وفي غاية الكمال، وأتى وعبر من جانبنا، وربما كان من السباهية، فقال الذين جاءوا من خلفنا له: «أيها السباهي المغرور، لو حقيق بك أن تموت، فلماذا لم تكن معنا؟». فنادى بعضهم عليه بعد ذلك قائلين: «أسقطوه واضربوه بالحجارة». والذين كانوا في الأمام والخلف اعتقدوا أن هذا الهجوم على الدفتردارية؛ فألقوا بعض الحجارة، ولكن، الحقيقة أنهم لم يقصدوا الضرب. ونحن أيضًا أسرعنا قليلًا، ويقع «الباش دفتردار» في الخوف؛ ويذهب من الطريق الذي يتجه من خلف سراي «إبراهيم باشا» إلى ساحة «آت ميداني»، حيث يختفي في «طوب خانه» وإنني هذا الفقير عبرت من أمام المقابر، ووصلت إلى المرحوم «روز نامه جي إبراهيم أفندي»، فلما قصصت عليه ما جرى تأثر جدًا.

وفي اليوم التالي، اجتمع جملة الوزراء والعلماء والكبار وأغوات الأوجاق وأغوات وكبار البلوك في سراي الوزير الأعظم، فعرض «شيخ الإسلام» المرحوم «حسين أفندي» وجهة نظره في هذا الوضع قائلا: «إن فساد هؤلاء القوم على هذا النحو لا ينقطع كل يوم، ولا بد من بحث التدابير ضد هؤلاء، فقد استُخدم معهم أحيانًا الوعظ والنصيحة وأحيانًا أخرى الضرب على الأيدي والتخويف، والآن، فقد وجب في الحال إعلان أهل الإسلام النفير العام عليهم، وينبغي أن يسير هذا الإجزاء ليس على الطغاة والعصاة من هؤلاء القوم فقط، وإنما أيضًا على الذين كانوا في حالهم».

وأجاب كبار جند الإنكشارية والسباهية الذين كانوا حاضرين في ذلك المكان باتفاق الكلمة قائلين: «حاشا، لا يرضى بهذا من كان مسلمًا، فكل ما يأمر به سلطاننا صاحب السعادة، فإننا لا نخالفه»، وفي النهاية، وفي هذا المكان، وصل إلى السلطان صاحب السعادة التلخيص مرة أو مرتين أو ثلاثة، حتى إن واحدًا من الكرام؛ أي العلماء قام بالتذكير بقوله: إنه حان وقت الجمعة وصار الوقت ضيقًا، وقام المرحوم شيخ الإسلام بتوبيخ ذلك الرجل بقوله: «إن دفع هذه الأحوال مقدم على الجمعة، فبينما يكون العالم في هرج ومرج على هذا النحو، هل تجوز صلاة الجمعة؟»، وفي الواقع قام بتوبيخ ذلك الرجل بالدرجة التي أصبح فيها نادمًا على ما قاله.

وبعد ذلك، وردت أيضًا إجابة السلطان على التلخيص، حيث نبه على أغوات البلوك، والجاوشية، والصوباشي وعسس باشي أنه ينبغي أن يقبضوا على كل من يجدوه من هؤلاء، فقام هؤلاء بإحضار الكثير من العصاة إلى سراي الوزير، ولم يكن الديوان قد انفض بعد، وفي الحال، أنهوا أمورهم بالقصاص منهم، وبعد هذا، كانوا يقبضون كل يوم على خمسة أو عشرة أشخاص أو أكثر أو أقل من ذلك؛ حيث كانوا يوقعون الجزاء بهم، وأصبح الأمر بتلك الدرجة التي لم يتركوا فيها في الشرق أو في الغرب أي فرد من الذين اشتهروا باسم عصاة أو ممن اشتهر بين الأبطال بلقب «فلان بك»، وأحضروهم جبرًا وقهرًا، ومحوهم من عرصة الدنيا، وكان يُقتل أمثال هؤلاء ليلًا، كما كان يحدث منذ القدم وحتى هذا العصر، ويلقونهم في البحر، وأثناء التوجه الهمايوني للسلطان صاحب

السعادة إلى حملة «روان»، ربما كان يأمر بإحضار من يراه من هؤلاء خلال الطريق، ويأمر بقطع رءوسهم في الحال أمام العسكر، فكان العسكر يقومون بالدعاء والثناء قائلين: «فليُطل حضرة الحق تعالى عمر السلطان صاحب السعادة، هذا جزاء الذي لم يكن في طاعته ولم يعرف حده».

إجمالي الحملة الهمايونية على «روان» والإغارة على «تبريز» وهذه المملكة، والعزيمة الهمايونية للخروج في يوم السبت غرة رمضان المبارك سنة ١٠٤٤ هجرية[١]

لما أصبح مقررًا التوجه الهمايوني لحضرة السلطان حامي العالم وظل الله، تفضل بالعبور إلى جانب «أسكدار» في اليوم المذكور بحسب المراسم والقوانين العثمانية، وبعظمة وشهرة حماية الدنيا وبرفقة الحظ الميمون، وهناك أتم إعداد لوازم الحملة المقرونة بالظفر خلال عدة أيام، وفي اليوم الخامس من شهر شوال المكرم[٢]، تحرك من ذلك المنزل المستحب، ونزلوا إلى مدينة «قونية»، ولما نزل السلطان من هناك إلى «قيصرية» و «سيواس»، صارت تلك الصحراء موضع حسد جنة المأوى، وأمضوا عيد الأضحى أيضًا في ذلك المنزل المبارك، وفي ذلك المكان قام السلطان بإخراج «سلحدار مصطفى باشا» الذي كان نديمًا خاصًا له ومن أخص الخواص إلى الخارج أي خارج الحرم برتبة الوزارة الثانية أي وزير ثان، ولكن لم ينقطع «سلحدار مصطفى باشا» عن الحرم المحترم أيضًا، ولم يُحرم من شرف حديث السلطان ليل نهار.

ولما تحرك من هذا المنزل، قاموا بحط رحالهم في المكان المعروف باسم «سورچايرى»، ورفع أيضًا درجات عسكر خلقي؛ حيث أنعم على عموم جند «قبوقولي» سواء جند اليمين منهم أو جند اليسار، وعلى طائفة الإنكشارية وغيرهم بألف أقچة لكل فرد

(١) الموافق ١٨-٢-١٦٣٥م.
(٢) الموافق ٢٤ـ٣ـ١٦٣٥م.

منهم بمقتضى قانون أجداده الذين كان الظفر لهم عادة، ونال بذلك أدعيتهم المصحوبة بالخير.

- ومن بدائع الوقائع: كان الوزير الجليل والمشير صاحب التجليل حضرة «موسى باشا» صاحب السعادة في خدمة الخيمة الهمايونية في هذه الحملة المأثورة بالظفر؛ أي أنه كان قد فاز بشرف وظيفة «قوناقجي»(١)، وروى «عثمان أغا» من طائفة «قبوجي باشي» السراي [أي رئيس خدم باب السراي] الذي كان قد شرّف «بدون»؛ بسبب أنه كُلف بمباشرة أمور الصلح مع الكفار، روى باتفاق الكلمة ما يلي:

في أثناء توجه عسكر الإسلام من «قيصرية» إلى صحراء «دوه لي قره حصار»، لما أراد الطبع الهمايوني لحضرة السلطان صاحب السعادة وعالي الجاه وظل الله الذي كان موضع حسد سلاطين العالم لما أراد ركوب العربة، فقد ركبها، واتفق في تلك الأثناء، أن ظهر كبش بري، فما إن وقع هذا الكبش على المنظور الشريف للسلطان «مراد» حتى صرخ قائلًا: «يا هو! إنه حصان»، وأسرع في امتطاء الجواد وتحرك بسرعة كما لو كان ممتطيًا للجواد من قبل، وأخذ في يده المباركة حربة حادة الطرف، وهجم عليه على نحو يشبه صقرًا حاد الرأس ينقض على صيده، فكان كالبرق الخاطف إذ تواجد في طرفة عين عند الباب المعهود الذي يدخل منه الكبش؛ حيث أصابه بضربة بذلك الرمح بالدرجة التي مرر فيها الرمح من الكبش، وجعله يغوص إلى الأرض، وقام عسكر الإسلام الذين كان تعدادهم يفوق الحد والحصر بإيصال أدعيتهم الخيرة إلى العرش الأعلى قائلين: «عليك عون الله يا من أنت أحسن الحسان، فيا أيها السلطان حامي العالم، فلتنفلق الأعين الحاسدة عنك، وليحفظ حضرة الحق تعالى سلطاننا من الخطايا والخطر، فقد أصبحت حتى يوم القيامة باعث افتخار ليس لطائفة عسكر خلقي فقط،

---

(١) قوناقجي: حينما يتجه السلاطين إلى الحملات، كان يوجد دائمًا في الأمام على بعد منزل أو اثنين من تيوغات السلطان أي اثنين من أمرائه. وكان يعين شخصًا في رتبة أمير سنجق أو أمير أمراء ليوجد في الأمام على بعد منزل سويًا مع من يحملان هذه التيوغات، وكان يطلق على هذا لقب «قوناقجي».

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 189.

بل لجملة المسلمين، وربما للكفار وللرعايا وللمساكين»، والحق فإن بطولة السلطان صاحب السعادة وشدة الجلد والجسارة التي أظهرها في هذه المرة كانت زائدة عن حد التعريف والتوصيف، ويجب القول بإنصاف: هل نقل عن أي من سلاطين السلف الذين أتوا في الدولة الإسلامية أن كان لديهم المهارة والجسارة على هذا النحو، أو حتى كتبت في كتب التواريخ؟

ولكن يروي حضرة الوزير المومأ إليه صاحب السعادة ما هو أغرب من هذا، فيقول: عندما نلت شرف الخدمة في وظيفة سلحدار في الحرم الهمايوني، حدث أن قال السلطان لي عدة مرات: «تعال يا سلحدار»، ثم يمسكني بيده اليمنى المباركة من منطقة حزامي، ويرفعني بيده على رأسه المباركة، وكان يتجول بي وهو على هذا الوضع الحجرة الخاصة إذا كان ذلك في السراي العامرة أو حول المصاطب إذا كان في إحدى الحدائق، حيث كان يدور بي ذلك المكان مرة أو مرتين، وكنتُ أخاف من ذلك قائلًا في نفسي: «احذر، لا بد وأنه سيُلقيك على الرخام من فوق رأسه»، ولكن لم يُلقني، فكما رفعني كان يضعني على الأرض بالهدوء نفسه، ومن الواجب أن ننظر لهذه الأحوال بعين الإنصاف، فلم نر بطل مصارعة قويا من الذين أظهروا الكفاءة والمهارة في عصرنا استطاع أن يظهر مهارة على هذا النحو حتى الآن!

وقد شاهد معظم رجال هذا العصر حضرة «موسى باشا» صاحب السعادة، فكان طويل القامة، ومع أنه كان ليس سمينًا أو جسيمًا، فإنه طبقًا لتعبير أهالي الروم إيلي كان وزيرًا بلا نظير، ضخم العظام؛ يعني كان عظمه كبيرًا طبقًا لقامته. وعلى هذا، فإن رفع جسد على هذا النحو على الرأس بيد واحدة، والتجول والدوران به على هذا الوضع، من طرف سلطان نشأ في غمرة من الدلال والنعم، فإنما هو ناشئ من القوة البالغة التي كان يتمتع به السلطان. فلو شاهد «أفراسياب»[1] و«كستهم»[2] اللذان جمعا في نفسهما

(١) هو «ألب أردوغان» حاكم الترك الذي مدحه الفردوسي الشاعر الإيراني المشهور في شهنامته، وكانت وفاته ٦٢٤.

- Bekir Sitki Baykal: peçevi Tatihi, cilt 2, S. 405.

(٢) هو الابن الشجاع للحاكم المعروف باسم «نوزر بن منوجهر».

- Bekir Sitki Baykal: Adı gçen eser, cilt 2, S. 405.

السلطنة وبطولة المصارعة، السلطان «مراد»، كانا سيُصفقان له قائلين: «إن بطولة المصارعة والسلطنة لائقتان بك».

وعلاوة على هذا، فإن ثقبه تسع مجنات [تروس] دفعة واحدة برمح عصا التحطيب المستخدمة في الفروسية، وقصمه لحمار إلى نصفين بضربة سيف واحدة، وإسقاطه حمارًا على الأرض، بينما كان واقفًا على قدميه بضربة واحدة من عصا التحطيب المستخدمة في الفروسية، وقتله بضربة على رأسه، وقيامه بهز دبوس حديدي في وزن مائتي أقچة وإظهاره لأنواع المهارات أمثال هذه، وعمومًا فإن أموره التي تعتمد على الكفاءة والقوة كثيرة وخارجة وزائدة عن حد التعداد والحصر.

في ذكر بعض الأخلاق الحسنة لحضرة «موسى باشا»

لقد ذُكر حضرة الوزير المومأ إليه في عدة مواضع في هذه المجموعة المتفرقة أي «تاريخ بچوي»، كلما اقتضى الأمر ذلك، ومع أن ذكر أخلاقه الحسنة خارج عن حدود الذين يمتهنون القراءة وتسويد الأوراق أمثالنا، فإن غرضنا من ذكره هو جلب خير الأدعية له. ومع أن هذا خارج عن الدأب والأصول، فإنه يؤمل أن يُصفح عنا في ذلك.

فقد بلغ عمري أنا هذا الفقير «بچوي» الشكر لجناب الباري تعالى ـ السبعين. وبينما كنا في سن الرابعة عشر فقط، دخلنا تحت حماية خالي المرحوم «فرهاد باشا»، وبعد ذلك مضى أكثر عمرنا ـ الذي منحنا إياه جناب رب العزة جلت نعماؤه ـ في خدمة الأكابر. وعلم الله وشهد الله أنني لم أر آدابًا ووقارًا وحلمًا باعث الافتخار عند شخص من كبار المشايخ أكثر من «موسى باشا»، فمثلًا في أثناء جلوسه، كان يجثو على ركبتيه، وبينما كان في وظيفة «الطغراي» الشريفة [أي في وظيفة نشانجي[1]]، كان يجلس متربعًا، وكان

---

(١) نشانجي: هو اسم لواحدة من الوظائف العليا في عهد العثمانيين. وقد أطلق العثمانيون على صاحب الوظيفة الذي كان يسمى في الحكومات الإسلامية السابقة باسم «صاحب قلم أعلى»، و«صاحب ديوان الإنشاء»، و«موقع»، و«طغرائي»، و«برفانه» أطلقوا عليه اسم «نشانجي» أو «توقيعي» كنية عن الوظيفة التي يشغلها وهي أمور الكتابة داخل الديوان الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C.II, S. 697.

لسانه الشريف نظيفًا بتلك الدرجة التي كان يعجب فيها جميع الناس بألفاظه ويرغبون في الحديث معه، فمثلًا كان لا يجري لفظ مبالغة على لسانه الشريف مطلقًا، ولا يصدر عنه أيضًا أي كلام ممنوع شرعًا، ولم يصدر عنه أيضًا أي سب قد يستحق عليه القتل، وكان مالكًا لعقل سليم ولا يحيد عن طريق الحق، وخصوصًا كان يحترز من مكر وخداع الكفار الذين مأواهم النار عند الحدود الإسلامية.

وكانت كل المكاتبات والمراسلات تكتب على يده، وكان تجنب الجواب الذي سيصدر، هو ركن أعظم ومن الضروزيات في سياسته، فهذه الأخلاق كأنها موهبة عظيمة من جناب العزة إلى هذه الذات العظيمة، وكنا نأسف دائمًا قائلين: «لو أن هذه الأحوال المتعددة التي شاهدناها، والصلح المنعقد مع الكفار حاليًا مقرونًا برأيه الرزين وتدبيره الصائب، ربما كان ينسى الصلح الذي عقده حضرة المرحوم والمغفور له «سلطان سليمان خان» عليه الرحمة والرضوان».

وكان يبدأ أعماله اليومية بأداء الأوقات الخمسة جماعة في أول وقتها، وبعدها الدعاء لسلطان العصر بتلاوة القرآن عظيم الشأن، وبعد ذلك، إذا لم يوجد شخص من أرباب الحاجات أو لم يأت شخص قادر على الخطاب والمصاحبة، فإنه يقضي أوقاته الشريفة بمطالعة كتب سير الأنبياء والمرسلين وتواريخ فتوحات السلاطين السالفين، وحقًا إنه لائق بالقول «تربى في الحرم المحترم السلطاني وتعلم آداب السلاطين»، ولو افتخر معلمو الحرم بوجوده الشريف، فإن كلامهم مطابق للواقع، وكان يتحدث مع الصغير والكبير. ولا توجد لديه خصال ذميمة من كبر وحقد لفرد من أفراد البشر، وكان شفوقًا ورحيمًا جدًا، ولكن كان في همته وعزيمته مثل السيف الصارم. والآن نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يطيل في عمره الطيب، وألا يزيل ظلال عدله عن بلاد المجر المأنوسة بعدله والتي كانت ديارنا بحق الحق ونبيه المطلق.

ومرة أخرى، أتت الكلمة بالكلمة، وخرجنا عن الصدد، وعلى هذا، ينبغي علينا الرجوع ثانية إلى المقصود الأصلي، فمع أن فراسة السلطان المغفور له غنية عن البيان، فإنه من الواجب علينا أن نشرع في إتمامها.

عقد السلطان العزم على التحرك بعد الإنعام على العسكر

لما تحرك من صحراء «ستور» ووصل إلى «أرضروم»، أصبحت بقدومه المحفوف بالبهجة موضع حسد كل البلاد، وأصبح المسكين «خليل باشا» والي «أرضروم» الذي كان البطل المشهور والذي أثنى عليه ومدحه الأعداء والقزلباش الأوباش ـ موضع غضب السلطان عالي المقدار بوشاية «مرتضى باشا» و«سلحدار باشا»، وأحسنت ولاية «أرضروم» على «كوچك أحمد باشا» المتصرف على ولاية الشام، ووجهت ولاية الشام الشريفة إلى «سلحدار باشا» بطريق «أربه لق»[1]، وتم التوجه من هذا المنزل إلى جانب «روان» عن طريق «قرص».

ولما تم النزول السلطاني بالعظمة على مقربة من «روان» طاويًا المنازل والمراحل، اتفق أن طريق جند عسكر خلقي يصعد إلى القلعة بعينها أي يمر من مرمى نيران المدافع التي في القلعة، فلما كانت تلك الأماكن صعبة الاجتياز، ولما لم يكن ممكنًا الابتعاد عن القلعة بأي شكل؛ أي أنه لما لم يكن ممكنًا ابتعاد العسكر الذين نهايتهم الظفر عن القلعة بأي مسافة، كان القزلباش يطلقون المدافع العظيمة ومدافع «ضربزن» من القلعة، وكانت الدانات تمر وتعبر من فوق أعلام السلطان صاحب السعادة شخصيًا التي كانت مآلها الظفر، ولكن سلطاننا صاحب السعادة لم يأمر بتغيير وضعه درجة قط، ونزل إلى الخيمة السلطانية بسكون ووقار وبالنظام والثبات السلطاني.

من التصرفات المرغوبة والبطولية للسلطان المغفور له

كان نهر «ديكي» الواقع قرب القلعة والذي يعتبر من الأنهار العظيمة في حالة فيضان عظيم في ذلك الحين، ولما لم يكن هناك مجال لإقامة جسر فوقه، اضطر عموم

---

(١) أربالق: هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامي» في «قاموس تركي»: هي المخصصات التي تعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. I, S. 84.

عسكر الإسلام للعبور بالأقدام، وفي أثناء تقدم السلطان صاحب السعادة أيضًا في العبور بجواده الذي يمشي في تبختر ودلال والذي كان يمتطيه على الوجه المشروح، كان قد انزلق أحد أفراد طائفة صولاق التي كانت تسير في الموكب الهمايوني إلى مكان عميق من النهر، وبينما كانت المياه تحط وترفع ذلك الصولاقي صاحب الرفعة، وكان غرقه يبدو أمرًا مقررًا، شاهده السلطان صاحب السعادة، وقام بنخس جواده، وتعقبه وسط المياه، وأمسك ياقة الصولاقي بيده اليمنى المباركة، وخطفه بيده المباركة كما لو كان تفاحة وأخرجه من الماء، ولم يتركه فيه، ولم يخلع يده من ياقته حتى خرج إلى الساحل بالسلامة، ولما وطأت قدم الصولاقي على البر، قام السلطان صاحب السعادة بترك ياقته من يده المباركة، وبالإحسان عليه بحفنة ذهب، يكون قد أحيا الصولاقي مرتين؛ إحداهما: أنه أنقذه من الغرق، والأخرى أيضًا أنه أعطاه رأس مال لا حد له، يكفيه حتى نهاية أجله المقدر، وأوصل هذا القدر من عسكر الإسلام الذين كان حدهم وحصرهم لا يسعه دفتر أو أرقام، أوصلوا ثناءهم ودعاءهم الصادر من فم واحد إلى عنان السماء، ولهذا السبب، تولد عند عسكر الإسلام شعور عظيم بتلك الدرجة التي سكب بعضهم دموعًا كنهر «ديكي»، واتجه بعضهم بالدعاء له، وأقسموا ببذل الروح في سبيل إسعاد السلطان.

تحرك عدد من الأشخاص من أهل المعرفة والكبار من ذلك المنزل، وعاينوا الأماكن التي سينزل بها الجيش الهمايوني، والأماكن اللائقة بنصب الخيمة الهمايونية للسلطان صاحب السعادة عليها، وفي اليوم التالي، تحركوا ونصبوا الخيام التي سوف يقيمون فيها في الأماكن التي حددوها وعينوها، وبعد ذلك، قام السلطان صاحب السعادة المؤيد بالنصر، بتنظيم الطوابير والصفوف، وتفضل بالدخول إلى خيمته الهمايونية في أشرف ساعة بالزينات وبمظاهر العظمة والنصر التي لم يرَ الفلك ثاقب البصر مثلها، وبعد ذلك، وبلا تأخير وتوقف، أمر بالشروع في ترتيب المتاريس؛ حيث أقام الوزير «جان بولاد زاده مصطفى باشا» أمير أمراء الروم إيلى متراسًا عند باب «تبريز»، وأقام والي الأناضول الوزير «گورجي محمد باشا» مع عسكر الإيالة المذكورة متراسًا آخر في

الجانب الأيمن، وأقام الوزير الأعظم «محمد باشا» البطل متراسًا بين هذين المتراسين الكبيرين، وأقام حضرة الوزير الجليل «مصطفى باشا» صاحب السعادة الذي كان بالفعل وزيرًا أعظم والذي كان موجودًا في تلك الحملة بصفته أغا الإنكشارية، أقام متراسًا تجاه إحدى زوايا القلعة، ودون أن يعطوا مهلة أو أمانًا للعدو، راحوا يضربون القلعة بعشرين مدفعًا كبيرًا ليل نهار بإبرام وإقدام، بتلك الدرجة التي لا يمكن تصور حدودها.

ولم يُكتفَ هنا بما بُذل من جهد جهيد وما قام به غزاة الإسلام من إقدام عظيم؛ وإنما شرف السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بقدومه المحفوف بالسعادة شخصيًا المتراس الذي كان عند فرقة الروم إيلي لعدة مرات، وقام بنفسه بالتنشين ببعض المدافع، وأشعل النيران فيها، وكافأ غزاة الإسلام الذين كانوا في ذلك المكان، وأسعدهم بالإحسان عليهم بالذهب حفنة حفنة، ولم يُـرَ في أي تاريخ، ولم يُسمع من لسان الناس أن سلطانًا ذا شأن قد أتى إلى المتراس، وقام بالتنشين بالمدفع حتى عهده الهمايوني أي عهد مراد الرابع.

ومن ناحية أخرى، كان أمير أمراء «أرضروم» «كوچك أحمد باشا» المتمركز أسفل فرقة الروم إيلي يقوم بالتنشين على الأعداء اللئام الذين كانوا يظهرون من فوق سور القلعة، ببعض مدافع «ضربزن»، وكان يضرب أسوارها وأبراجها على الدوام، وكان «قبطان باشا» العاقل وصاحب الدراية والمعروف باسم «دلي حسين باشا»، يقوم بقصف داخل القلعة وخارجها بمدافع «ضربزن» السلطانية من فوق الربوة المطلة على القلعة، وكان يحدث التقيد والاهتمام بذلك القدر الذي كان لا يستطيع فيه أي أحد من القزلباش أن يرفع رأسه أو يظهر سواء عند السور أو عند البرج أو حتى في شوارع القلعة، وربما كانوا لا يستطيعون أن يرفعوا إصبعهم، وكان «مرتضى باشا» يقوم بوظيفة «قراول»[1] مع عسكر سباهية وأغوات فرقة «أشغه بلوك» على طرق قلعة

(١) قراول: هو بلوك العسكر الذي يجوب ليلًا لحفظ الأمن. وهو أيضًا الجند الذين يقفون في النقاط المناسبة لتأمين الجيش.
ـ شمس الدين سامي : قاموس تركي، إستانبول ١٣١٧هـ، ص ١٠٦٧.

«طبراق»، وكان حضرة الوزير «موسى باشا» وحضرة «كنعان باشا» مكلفين بحماية الخيمة الهمايونية لحضرة السلطان حامي العالم مع متفرقة البلاط العالي، وكانوا يؤدون تلك الخدمة بالمناوبة كل ليلة.

وهكذا، فبينما كان الإقدام والاهتمام يجري ليل نهار بهذا الأسلوب المرغوب والطرز المحبوب، طلب القزلباش اللئام وخاناتهم التعساء الذين كانوا محصورين الأمان من الركاب الهمايوني لسلطان العصر والأوان في اليوم التاسع، وقام «مير عبد الفتاح» الذي كان أغا رماة بنادق الشاه بتعفير وجهه في التراب أمام الركاب السلطاني في الصباح، وبموجب عادة العثمانيين الحسنة، أُحسن عليه بخلعة غالية الثمن، وأحسن الإذن الهمايوني للذين يرغبون في الذهاب إلى أوطانهم والتوجه إلى ممالك القزلباش، حيث أرسل معهم أفرادًا من طائفة «يساقجي» و«قروجي» حتى يصلوا سالمين ولحمايتهم من غارات عسكر الإسلام. واتجهوا إلى ديارهم دار الفجور.

وكان «أمير كونه خان» الذي كان خان مملكة «روان»، وحاكمًا في تلك المنطقة قد سلم القلعة بشرط البقاء في خدمة السلطان، وقام بإعداد مجلس شراب على طراز العجم ونظام «جم»، وضايف السلطان صاحب السعادة، ومنحه الهدايا والملك، وصرف المال وبذل ما ملك بقدر مقدوره، وسعد السلطان صاحب السعادة من أوضاعه الأعجمية ومن مراسمه الشريفة النادرة، ورعاه بأنواع الرعاية، وحماه بأصناف الحماية، وأحسن وأنعم عليه بإيالة «حلب» الشهباء، وعلى كتخداه «مراد أغا» بإمارة أمراء «طرابلس» الشام.

في ذكر الأمور التي وقعت بعد فتح «روان»

لما صارت قلعة «روان» في قبضة السلطان عالي المكانة، أمد «مرتضى باشا» الذي كان من الوزراء رفيعي المقام بعشرة آلاف جندي، وعُين للمحافظة على القلعة المذكورة. وقد سلمت للمومأ إليه ذخيرة بقدر يكفي الجند؛ وكلف بتعمير القلعة وترميمها،

وإصلاح الأماكن التي خربت فيها؛ بسبب ضرب المدافع، كما ينبغي، وعلى كل؛ فقد رممت كل الأماكن الخربة دون أي تقصير يذكر.

قيام الوزير فائق الأقران حضرة «كنعان باشا» بفتح قلعة «أخسخه»

وبعد الفتح أي بعد فتح «روان»، رُشح حضرة الوزير الشجاع «كنعان باشا» الذي هو ذو شأن عظيم ويعد من صلحاء الأمة، وليس له نظير في تقواه وزهده ـ لفتح قلعة «أخسخه»، حيث عُين مقدار كاف من العسكر تحت إمرته، وبفضل الله تعالى أيد بالنصر والظفر، وفتح القلعة المذكورة بملحقاتها، وعاد مسرورًا بذلك.

العزيمة الهمايونية للسلطان صاحب السعادة وحامي العالم إلى جانب «تبريز»

بعد أن أُكملت مهمات قلعة «روان» واحتياجات العسكر الذين سيتوجهون إلى «أخسخه»، أسرع حضرة السلطان بالتوجه إلى جانب «تبريز»، فتحرك من أمام «روان» وأطلق العنان للتوجه إلى جانب «تبريز»، وفي اليوم السادس عشر أقام الخيام في نواحي «تبريز» المالكة للقلوب وأصبحت الجوانب الأربعة للمدينة المذكورة والمملكة العامرة بها وخصوصًا تلك البلاد الفاتنة للقلب الواقعة على اليمين واليسار على طول الطريق، متساوية بالتراب من شدة قهر خيول عسكر الإسلام؛ حتى إنه لم يبق منها حجر فوق حجر، وحصل كل فرد من جند عسكر خلقي على غنيمة، وبعد أن تفقد السلطان فاتح الأقاليم قصور مدينة «تبريز» ذات القباب العالية والمشهورة في الآفاق، وبصفة خاصة المنزل الذي كان بلا نظير الذي كان سراي الشاه، أمر بأن تسوى بالتراب؛ لتكون دليلًا على القهر والانتصار على العدو، ومهما يكن من أمر، فبعد أن أقيم ثلاثة أيام في تلك المدينة الفاتنة للقلب التي كانت عاصمة «أذربيجان»، وبعد أن أغير على أطرافها وجوانبها وخربت تمامًا، عُقد العزم على العودة، والتوجه إلى جانب «روان».

ولما أصبحت صحراء «روان»، على إثر قدوم السلطان بالخيام الحمراء والبيضاء موضعًا لحسد العالم، أتى في تلك الأثناء، ساعي حضرة الوزير «كنعان باشا»؛ وبشر

سلطان الأنام وجملة عساكر الإسلام بفتح قلعة «أخسخه». وعندئذ ضمت وألحقت إيالة «الروم إيلي» إلى صدارة الوزير الأعظم «محمد باشا» كـ«أربه لق» ووجهت إليه بينما كان موجودًا في هذا المكان، وكان المرحوم والمغفور له حضرة السلطان «سليمان خان» عليه الرحمة والغفران قد قام بالإحسان على النحو نفسه على وزيره الأعظم «إبراهيم باشا»، ولكن لم يقم أي سلطان عالي الشأن بعده بهذا الإحسان العظيم بتلك الدرجة على أحد خدمه، وبعد ذلك تحرك الصدر الأعظم من جوار السلطان صاحب السعادة؛ وكلف بإعداد مهمات مناطق الحدود كما ينبغي، وبإتمام لوازمها الناقصة. وعزم السلطان صاحب السعادة أيضًا على التوجه من هناك إلى «ديار بكر» المحمية، وفي ذلك المكان أي «ديار بكر»، وجه حضرة السلطان إيالة «مصر» إلى «دلي حسين باشا» سالف الذكر، وقضاء «مصر» إلى «خواجه زاده عبد الله أفندي» الذي كان قاضي عسكر الروم إيلي. وبعد أن أقام حوالي خمسة عشر يومًا في «ديار بكر» عاد الوزير الأعظم المومأ إليه إلى جانب السلطان، وبعد ذلك توجه حضرة السلطان إلى العاصمة العلية القسطنطينية المحمية التي كانت دار ملك ممالك الإسلام، أما الوزير الأعظم فقد ذهب مع السلطان لتوديعه حتى إلى المكان المعروف باسم «حسن باردق»، وتباحثوا كل الأمور والخصوص أثناء الطريق بالمشافهة، وأمر السلطان الصدر الأعظم بالسعي والجد في إعداد المهمات اللازمة لفتح «بغداد»، وعندما وصلوا إلى المكان المعروف باسم «حكيم خاني»، سلك السلطان صاحب السعادة طريق دار الملك أي توجه صوب إستانبول. أما الصدر الأعظم فقد قفل عائدًا إلى جانب «ديار بكر».

في ذكر أحوال «أمير گونه خان»

بعد فتح «روان»، اتجه «أمير كونه خان» إلى جانب حلب الشهباء التي أُعتبرت إيالته، فلما بَعُد عدة منازل عن مكان تواجد السلطان الواسع الصدر كالبحر، وقع الجفاء بينه وبين «مراد أغا» الذي كان كتخداه، وأخيرًا، تحين الفرصة وقام بقتله. فما إن

انعكست هذه الأحوال على جناب السلطان طيب الحال، حتى قام بتوجيه «حلب» إلى «كوچك أحمد باشا» ونبه على «أمير كونه» حتى يأتي إلى الآستانة السعيدة. فقام «أمير كونه» بلا تردد بتعقب السلطان حامي العالم؛ وسعد بتقبيل ركاب السلطان في المكان المعروف باسم «أزنكميد»؛ حيث جاء معه إلى الآستانة، وأكرم «أمير كونه» غاية الإكرام في عصر السلطان المقرون بالسعادة. وبينما كان قد عين له مقاطعة «الخاص» المخصصة لمقام الوزارة بالكامل، كان يعطي أيضًا مصاريفه اليومية من الخزينة العامرة. وعدا هذا، كانت تعد لوازم مجلس الفسق من وكر الخمر، وبالإضافة إلى هذا، كان كثيرًا ما يحدث أن يعطي القروش والنقدية أكياسًا أكياسًا وأيضًا أكياس الذهب الأحمر في بعض الأعياد وفي سائر الأيام أيضًا.

دخول السلطان صاحب السعادة إلى الآستانة السعيدة

بعد أن ترك الوزير الأعظم سلطان العالم، لم يسترح السلطان صاحب السعادة في منزل قط، وشرف عرشه الهمايوني المقرون بالسعادة في اليوم التاسع من رجب سنة ١٠٤٥ [1]، وكأن العالم بلا قدرة ولا قوة وجنس البشر كقالب بلا روح، ثم رُدت روح كل شخص إلى مكانها بقدوم السلطان، وضحكت وجوه وأعين الخلائق، وقاموا بفرش سجاد «باي أنداز» على طول الطريق الذي سيعبر فيه السلطان؛ وزينوا المدينة، وراحوا يأكلون ويشربون ليل نهار، وأقاموا المسرات والأفراح بدرجة لم تحدث في عصر السلاطين السالفين، ونسأل حضرة الحق تعالى أن يجعل أهل الإيمان دائمًا في سرور وفرح، على هذا النحو، بغزوات وفتوحات السلاطين الغزاة الموفقة بقدومهم، بحق الحق ونبيه المطلق.

---

(١) الموافق ١٩-١٢-١٦٣٦م.

إجمالي حملة «بغداد» دار الجهاد في ذي الحجة سنة ١٠٤٧[١]

قام حضرة السلطان في اليوم المذكور بعبور البحر ومر إلى جانب «أسكدار» بعظمة وسعادة بحسب العادة، وبقي في ذلك المنزل يومين حتى أكمل اللوازم والمهمات، وعبر جند عسكر خلقي وخدم الحرم الهمايوني من البحر أيضًا، وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر المذكور[٢]، تحرك مرة أخرى من ذلك المنزل، وقصد طريق الغزوة.

وكانت تجهيزات الحملة التي قام بها السلطان المغفور له ودرجة إعدادها تفوق تلك المرتبة التي يمكن تسجيلها والتعبير عنها، فمثلًا قام الشاعر الماهر المرحوم «نفعي» بالإيماء والإشارة إلى هذا المعنى في إحدى قصائده الجميلة؛ حيث عبر عن أرباب الأدب في مضمون هذا البيت: (كيف يُشبهك السلاطين السابقين * فهل طيران العنقاء كطيران الجراد)، فعلى سبيل المثال فإنه كلف حضرة صاحب السعادة الوزير فائق الأقران «خليل باشا» الذي كان يشغل وظيفة أمير الإسطبل الكبير أثناء هذه الحملة المكللة بالنصر- والذي كان أستاذ فارس الخير وقوي السير السلطان المغفور له في لعبة «جريد»، وعماد فن الفروسية - بالمسؤلية عن «طمشوار» في الوقت الذي كنت فيه أنا هذا الفقير «بجوي» مشغولًا بوظيفة دفتردارية «طمشوار»، وبهذا ألقى بظلال إقباله على تلك المملكة [طمشوار]، ويروون أن الخدم والدواب التي كانت تحت يده تفوق العمليات الحسابية، ولذلك كانت لا تحسب دواب وخدم الآخرين، وإنما كانت تحسب دواب وخدم من ذُكرت أسماؤهم فقط في الدفاتر السلطانية، أما ما هو خاص بحضرة السلطان حامي العالم وفقًا للقاعدة المتبعة للعثمانيين فهناك تسعة أرسن تستخدم عادة في الموكب السلطاني، وأيضًا لُجُم مرصعة، وسروج مزدانة بالذهب ومرصعة بأنواع الماس واليواقيت، وبعد ذلك فهناك أربعون رأس جواد من خيرة الجياد والتي يعرف نسب كل واحد منها، وكان هؤلاء يُستخدمون فقط في اللعبة المعروفة باسم «جريد»،

(١) الموافق ١٦-٤-١٦٣٨م: ١٥-٥-١٦٣٨م.
(٢) الموافق ٩-٥-١٦٣٨م.

وخلاف هؤلاء كان يوجد ثلاثمائة وأحيانًا أربعمائة جواد أمثالهم؛ حتى إنه كان كلما يريد الطابع الهمايوني للسلطان أن يتريض الفروسية، كان يستعمل واحدًا منها، وكانت هذه الجياد من جميع جهات المملكة، ومن ثم لوحظ أنها لائقة بالإسطبل العامرة الهمايونية، وقد أقيم إسطبلات لحماية هذه الجياد من حرارة الشمس ومن الرياح والأمطار. فمثلا كان يقام ثلاثة إسطبلات في المنزل، ويتحرك ثلاثة إسطبلات أخرى بالإشارة الهمايونية إلى الأمام من المنزل؛ وكانوا ينصبون بجانب الأوتاق الهمايوني؛ حيث كان يربط في كل إسطبل نحو سبعين أو ثمانين جوادًا، وكانت الإسطبلات الخاصة مصنوعة من الفضة الخام. ولم يرض السلطان أن يفترق لحظة واحدة عن قسم الخيول؛ بسبب ميله وحبه العظيم لها، وكان يربط في اليوم الواحد عشرين أو ثلاثين جوادًا تحت مظلة سرادق الأوتاق الهمايوني من رقابهم أمام نظره الهمايوني بأوتاد من الفضة الخام، وعدا هؤلاء، كان يوجد أيضًا نحو ألف ومائتي قطار من الجمال التي كانت رقابها تشبه المجرة ومزدانة بالأغطية المزركشة، وكان قد عين أربعمائة من الجمال من أجل الإنكشارية، وما تبقي منها كان يعين لنقل الخزينة العامة ونقل الإسطبل الهمايوني والمطبخ والذخائر والأوتاق والعتاد الحربي وأفراد الموسيقى العسكرية وسائر اللوازم، وبالإضافة إلى هذا، كان يوجد سبعمائة بغل من الذين يسيرون ويذهبون بسرعة، وما قاله المرحوم «عالي بك» في وصف بغله:

كان مسـمار نـعله يمـر من الصـخر
وكانت أذنه تسمع الشيء الخفي عند الفلك
فكلما حل الربيع، من كان يصعد إلى السماء
كـان ينظـر بالمنـة إلى حمـار عيسى[1]

وكأنه وصف لكل واحد من الحيوانات التي كانت في جيش السلطان.

---

(١) حمار عيسى: هو حمار حضرة سيدنا «عيسى». ويستخدم شعراء الديوان هذا الاصطلاح من أجل الثناء على أي حيوان من جنس الحمار.

وخلاف كل هذا، كان يوجد لدى كل فرد من أغوات الحرم الهمايوني وخدمه الذين يطلق عليهم خدم الداخل عشرون أو ثلاثون جوادًا وسائر أسباب العظمة وذلك على قدر مراتبهم، وبسبب أنه لا يمكن بيان ذلك تفصيلًا ينبغي أن نكتفي بهذا القدر.

وهكذا فمنذ أن قام حضرة السلطان بالتوجه من منزل «أسكدار» بالعظمة والإجلال كان يقيم أوتاقه أي خيمته وأعلامه كل يوم في مكان لطيف تكثر به الخضرة، ويقع على ينبوع ماء يعني على ساحل جدول، وكان قد شيد ورتب أيضًا قصرًا باعثًا على البهجة ولائقا بجلوس الملائكة أن تفصل كل أجزاء البناء التي يتشكل منها القصر من بعضها البعض عن التحرك من منزل إلى آخر، ثم تربطها ببعضها ثانية بالمسامير من نوع البورمة في المنزل الجديد، وكان يفصل في منزل سابق وينظم في منزل لاحق بالدرجة التي كان مدققو النظر متحيرين ومتعجبين في وصفه وترتيبه، والأمر الغريب، أنه كان يوجد في هذا القصر من أسباب العظمة السلطانية ما لم يتيسر لأي سلطان عالي المكانة حتى الآن.

ولما وصل حضرة السلطان إلى مدينة «قونية» التي كانت دار ملك للـ«يونان» طاويًا المنازل وقاطعًا المراحل، ودخل إلى تلك المدينة التي لا نظير لها والتي كانت تعد من بروج الأولياء، قام سكانها بفرش الأبسطة المعروفة باسم «باي أنداز»، واستقبلوه. وبعد ذلك، قصد السلطان عالي القدر وسامي الجاه، وكان معتقدا في أولياء الله، بزيارة الأولياء الكرام الذين كانوا راقدين في تلك المدينة التي لا نظير لها، تبركًا؛ واستمد الهمة من مراقدهم الشريفة، وهناك أغدق العطاء على بعض الفقراء بحيث أغناهم عن السؤال إلى الأبد بالصدقات الوفيرة والعطايا الكثيرة، وفي ذلك المكان لما ألقى إلى السمع الهمايوني للسلطان أن «بكر چلبي» الذي كان من نسل حضرة مولانا «جلال الدين الرومي» قدس الله تعالى سره والذي كان شيخ طريقة زاويته الشريفة، طماعًا جدًا ومقلًا في توزيع الطعام إلى الفقراء، قام بعزله؛ ونصب مكانه «عارف چلبي» الذي كان من الأولاد الكرام لحضرة مولانا «جلال الدين» وأيضًا كان شيخ الطريقة في «قرة حصار»، وأمر بنفي «بكر چلبي» إلى «إستانبول».

وكان المرحوم «قاضي زاده» الذي كان واعظًا وناصحًا في جامع السلطان «سليمان خان» المبارك في القسطنطينية المحمية أفضل فضلاء عصره؛ ونادر الأقران في تدريسه ووعظه، ولكن كان قد عرف واشتهر على لسان الخلق بلقب منكر الأولياء، وهو أيضًا كان يقر بأنه كان ينكر الذين يدعون الولاية في زماننا، وبينما كان المشار إليه أيضًا مشتركًا في الحملة المأثورة بالنصر بأمر من السلطان المقرون بالظفر؛ بسبب أنه كان ذا بنية ضعيفة جدًا وكان قد ابتلي ببعض الأمراض المهلكة، فقد أحسن عليه بمنحه إذن الانصراف.

وفي هذا المنزل أيضًا المقصود منزل «قونية»، وعلى إثر ظهور الشاكين من «بولي بكي عبدي باشا» و«شمس باشا زاده» الذي كان متصرفًا على سنجق «نيكده»، سجل وحرر العدم والممات بدفتر حياتهم؛ أي قضيَ عليهم.

وبعد ذلك تم الوصول إلى «حلب الشهباء»؛ حيث نزل حضرة السلطان إلى السراي العامرة الموجودة في «گوك ميداني»، وبعدما أقيم بها حوالي شهر، توجه صوب قلعة «بيره جيك». وقام «بيرام باشا» بتحميل قطعتين من المدافع الكبيرة وكان قد أمر بتصنيعهما في ذلك المكان، وقام بتحميلهما على السفن، وبعدما وصل إلى الموصل عن طريق نهر شط العرب، نقلت على العربات وأرسلت من هناك إلى جانب «بغداد».

صهر دانات المدافع الكبيرة

لقد كنت أنا هذا العبد العاجز دفتردار البوسنة في عام خمسة وأربعين[1]، وفي تلك الأثناء، ورد أمر شريف ممزوج بالوعد والوعيد صادر بالخط الشريف أي الخط السلطاني، ومكتوب لطيف من «بيرام باشا» بمناسبة العلاقة السابقة بيننا ورد على يد القائمين بأعمال صهر المعادن وصبها في القوالب من أساتذة الطوبخانة العامرة، وكان قد أرسل حضرة السلطان معهم القوالب من أجل صهر المعادن وصبها بها، ويتضمن الفرمان العالي الشأن الذي صدر عن السلطان التهديد والتأكيد عليَّ بصنع خمسة آلاف

---

(١) الموافق سنة ١٦٣٥ ـ ١٦٣٦م.

دانة مدفع والتي ينبغي أن تكون كل دانة منها زنة خمسة وعشرين أوقية وإرسالها إلى حملة «بغداد»، ولكن تجاويف القوالب التي أحضرت لم تكن تصلح لصب الدانات المطلوبة فيها، ولهذا كان من الضروري العودة إلى الآستانة السعيدة ثانية، ولكن الأساتذة الذين جاءوا من أجل هذا العمل تملكهم الخوف، وبعد ذلك تكفل أحد أساتذة مصنعنا بهذا العمل؛ وطلب إنعامًا وإحسانًا؛ فلبينا ما طلب، وبفضل الله تعالى أتم عمله في زمن وجيز، وأمرنا بتحميل دانات المدافع على السفن ونقلها إلى الآستانة السعيدة.

وبعد فترة كنا قد ذهبنا إلى «بدون». فلما ذكرت هذه الحادثة أثناء الكلام مع حضرة الوزير صاحب السعادة «موسى باشا»، أمر حضرة الوزير بإحضار بعض الدانات من كرات المدافع التي أطلقت على «بدون» أثناء محاصرة الكفار لها، فكانت بعض كرات المدافع تزن ستا وثلاثين أوقية، وبعضها الآخر يزن ستا وأربعين أو ثمانية وأربعين، فكم ضربت «بدون» من أيدي الكفار وكم تلقت من صفعات، وبالقياس على هذا، يعتقد أنه كان يطلق كل يوم ألفان أو ثلاثة آلاف مدفع، وعلى أدنى تقدير فإن ما يطلقونه كان لا يقل عن سبعمائة أو ثمانمائة مدفع، ومهما يكن من أمر، فينبغي علينا الرجوع إلى ما نحن بصدده ثانية.

وفي اليوم الذي تحرك فيه «بيرام باشا» من المنزل المعروف باسم «أورمه»، توفي بإرادة الله تعالى، رحمة الله تعالى عليه، ولما تفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول قرب قلعة «بيره جك»، قام بالعبور إلى الجانب الآخر بالزورق المعد لذاته الشريفة، ثم توجه من هناك إلى «ديار بكر»، وأتى «طيار محمد باشا» الذي كان قد أصبح وزيرًا أعظم بدلًا من «بيرام باشا»، حيث سعد بتقبيل الركاب السلطاني، ولما وصل الموصل، توفي المرحوم «روز ناجي إبراهيم أفندي» في المكان المعروف باسم «جراح صويي». وذفن جسده المبارك بجانب المرقد الطاهر لحضرة النبي «جرجيس» عليه السلام، ولما شرف حضرة السلطان الموصل بظلال إقباله، أمر بإخراج المدفعين الكبيرين اللذين حُملا على السفن؛ ونقلهما من البر إلى «بغداد».

ولما تم النزول إلى قرب «بغداد» في أشد الأوقات، أقيم الأوتاق الهمايوني قرب المرقد الطاهر لحضرة الإمام الأعظم. رحمة الله تعالى عليه، وفي الساعة نفسها التي حل فيها السلطان، توجه إلى المتاريس، وأقام الوزير الأعظم «طيار محمد باشا» متراسًا تجاه القلعة الكبيرة ووضع في ذلك المتراس اثني عشر مدفعًا من نوع «باليمز»، وبعد ذلك دخل الـ «قبودان مصطفى باشا» إلى المتراس الثاني، ووضع في ذلك المتراس أيضًا تسعة مدافع كبيرة. ثم أقام أيضًا «حسين باشا» المشهور بلقب «أر» والذي كان معروفًا باسم «دلي حسين باشا» متراسًا، ووضع بداخله ثمانية مدافع، أما المتراس الرابع فقد كان فيه «درويش محمد باشا» الذي كان أمير أمراء «ديار بكر»؛ حيث وضع أربعة مدافع من نوع «باليمز» تجاه البرج الكبير المشهور بـ «عجم برجي»، وإن شاء الله تعالى سيذكر سبب تسمية «عجم برجي» (أو برج العجم) بهذا الاسم في موضعه. وكان «سلحدار باشا» يضرب قصور «بكتاشي خان» وسائر المنازل التي ينزل بها كبار القزلباش بالتسعة مدافع الموضوعة في قلعة «قوشلر» الواقعة تجاه «بغداد» مرة واحدة، وكان قد عين الوزير «گورجي محمد باشا» الذي كان معزولًا من إيالة «الروم إيلي» و«أبو أشواره رضوان بك» من أمراء «مصر» في وظيفة «قراول» لموضع «قراكلق قبو».

ولما أطلقت المدافع على القلعة ثمانية وثلاثين يومًا ليل نهار بهذه الطريقة والأسلوب الرائع، دب تمام الضعف والانكسار بالأعداء المحاصرين وعلا صياحهم واستغاثاتهم إلى السماء قائلين: «الأمان» وذلك في اليوم الثامن والثلاثين الموافق يوم الأربعاء قبل صلاة الصبح.

ويروي الوزير المومأ إليه «خليل باشا» صاحب السعادة ما يلي: لقد أُطلقت المدافع والبنادق بهذا القدر ليلة ذلك اليوم الذي طلبوا فيه الأمان، كما لو كانت قد انطبقت السماء على الأرض وربما كانوا قد أرسلوا واحدًا من طائفة «قورجي» إلى الصدر الأعظم خارج القلعة في وقت السحر الذي نادوا فيه بالأمان، وصرفوا النظر عن القتال قائلين: «الحمد لله تم المطلوب»، ثم دخلت مجلس السلطان صاحب السعادة وحامي العالم في وقت الإشراق. وبعد أن قبلت الأرض دعوت له، ووقفت تجاهه، ومضى وقت ولم

يفتح الكلام، وفي النهاية؛ تجرأت على السفالة وفتحت الكلام المتعلق بالقتال الذي كان بالليل. فتفضل حضرة السلطان قائلًا: «هل أنت أيضًا سمعت؟ علمت أنك لم تنم، فلم تنقطع زلزلة وخشخشة الخيام التي انعكست علينا؛ بسبب صوت المدافع، فكم تكون قوة المدفع الذي يصل إثر زلزلته إلى موضع على مسافة بعيدة بذلك القدر ثم يهز الأبنية والأشياء التي كانت بجواري؟ ولكن ما هو سبب الميل إلى الهدوء منذ الصباح؟ فامتطِ جوادك السريع، وأحضر إليّ الخبر»، وبمجرد أن خرجت من الأوتاق الهمايوني، صادفت حامل البشرى بالرسائل[1] ولكن لم أعد، وذهبت امتثالًا لأمر السلطان الشريف فلما وصلت إلى مجلس الصدر الأعظم، رأيت أن السفير يجلس أمام الصدر الأعظم. ولما رآني الصدر الأعظم قال: «ماذا لديك من أخبار خليل أغا؟» فقلت: «سلطاني، لقد تفضل سلطاننا صاحب السعادة والعظمة بالسؤال عن سبب صرف النظر عن الحرب الممتدة منذ هذه الليلة وتوقفها إلى الآن؟ ألا يعرف السردار أن القزلباش قوم غدارون، وأنهم ذوو دهاء وقادرون على إيجاد الحيل؟ وألا يتذكر الحيلة والخدعة التي قاموا بها ضد «حافظ باشا» و«خسرو باشا»؟، احذر ألا ينخدع بكذبهم العقيم وألا يعتمد على مكرهم وألا يتوقف عن أمره»، وبعد ذلك تحدث الصدر الأعظم إلى السفير وعاتبه قليلًا، ثم أمر قائلًا: «فليبتليكم الحق تعالى، قد جعلتموني مستحقًا للّوم عند سيدي؛ فلتشتعل المدافع مرة أخرى وليستمر القتال كما كان»، أما السفير فقال: «أليست القلعة هي المقصودة؟ فها هو «بكتاشي خان» قد أتى، انتظروا لحظة أيضًا»، أخبروا بأنه «بكتاشي» قد أتى، وقالوا: «فليُرسل رجل لاستقباله»، ورأيت «بكتاشي خان» بينما كان يدخل إلى متراس الصدر الأعظم مع أربعة من طائفة «شاطر»[2] وأربعة سواري

(١) هذا المبشر كان مكلفًا بالإخبار بأنه يأتي سفير من الأعداء من أجل التسليم.

(٢) شاطر: هم فئة توجد في الخدمة الخارجية للقصر، ويؤدون وظيفة تشبه وظيفة السعاة في معية السلاطين. ويلبسون ملابس تعرف باسم «دييادات». وكانوا يتوشحون بأحزمة مرصعة. ويوجد على رءوسهم طاس ذات نجمة ذهبية في شكل طربوش. وكانوا في المراسم يسيرون في ركاب السلطان وأمام الصولاق. وقد ألغيت هذه الطائفة في أواسط القرن السابع عشر.

Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 321.

سائرين خلفه، وفي الحال أسرعت إلى تقبيل تراب قدم السلطان الذي يشبه البحر في عطائه، وربما كان حضرة الوزير الأعظم قد أخبر قبلي أنا هذا الحقير أن «بكتاشي خان» على وشك الظهور وأنه يُرسل على الفور لتقبيل تراب قدم السلطان.

وفي تلك اللحظة أمر السلطان «مراد» بعقد الديوان. وتسنم على عرش مصنوع من أشجار الأبانوس، وكان مرصعًا من أوله إلى آخره باللؤلؤ والجواهر والزينة وسائر الزخارف، وكان يوجد على رأسه المباركة تاج عظيم غطى على نور الشمس من شعشعة الياقوت والماس المزين به، كما لو كان ضوء القمر قد دخل الأوتاق الهمايوني، وكان على جانبه الأيمن بعض الغلمان من رماة القوس ذوي الأجساد الفضية والمتزملين بالحديد من أولهم إلى آخرهم، إذ كانت وجوههم محلوقة وشواربهم بادئة في النبت وكانوا من الأبطال والشجعان والمقاتلين، وفي الجانب الأيسر أيضًا كان يقف ذلك القدر من رماة البنادق الفدائيين الذين كانت بندقية وقوس كل واحد منهم لا تخطئ ولا تقع بعيدًا عن الهدف، وأيضًا بلوك من السوارية ذوي الرماح الذين لو ضربوا حمارًا بعصا فروسيتهم لسقط على الأرض، فمات، ولو دفعوا جيادهم على طابور لشتتوا شمله.

ويتفضل حضرة الوزير المومأ إليه بالقول: «لما وصلت لتأدية خدمته الشريفة، وبينما كنتُ أمام نظره الشريف في كل لحظة وكل ساعة، شاهدت هذا الوضع والنظام؛ وبقيتُ فترة متحيرًا ومندهشًا له، ولما زالت دهشتي، مرغَتُ وجهي بتراب مجلسه، وذكرت الهيئة التي سيأتي عليها «بكتاشي خان»، وفي تلك اللحظة، جاء «بكتاشي خان». وعلى عادة السلاطين العثمانيين، التصق «سلحدار باشا» بأحد جوانبه ورئيس خدم الباب إلى الجانب الآخر، وبعد أن قبّل الأرض، أوقفه السلطان على أقدامه، ثم تحدث السلطان قائلًا: «من أنت؟». فأجاب «بكتاشي خان»: «أنا عبدكم». فسأله السلطان: «ألست تعلم بمجيئي حتى تعاند بتلك الدرجة؟»، فأجابه: «لقد أخبرنا جواسيسنا بذلك، فإن بعضهم كان يؤكد وبعضهم الآخر كان يكذب. والسلطان صاحب السعادة يعلم جيدًا أننا نسعى بقدر ما في وسعنا لإسعاد ولي نعمتنا الذي نأكل خيره فذلك واجب علينا؛ وأن خدم السلطان صاحب السعادة يصرفون ما في وسعهم لإسعادكم، فها هو دمي

ورأسي وروحي! فإني قد أتيت إلى مجلسكم الموقر، والأمر للسلطان، فليعفو إن أراد وليقتل إن شاء».

وعلى هذا، عفيَ عن «بكتاشي خان»؛ وألبسه قفطانًا عظيمًا من القماش من نوع «سراسر» المبطن بالفرو الفاخر، وأمر بوضع طرة مزدانة بالجواهر على رأسه، وخنجر مدبب ومرصع في خصره، ثم أعاده إلى خيمة الصدر الأعظم ثانية.

وقبل أن يمر وقت قليل، دوى صوت أصوات البنادق وضجيج الحرب والقتال والولولة من جديد، فقام السلطان بإرسال حضرة الوزير المومأ إليه إلى الصدر الأعظم مرة أخرى، فقال الصدر الأعظم: «إنني أذنت لبلوك واحد وصرفت النظر عنهم وأطلقت سراحهم. فمن منهم الذي يجرؤ على هذا الفساد ويخالف رأيي؟»، وعلى هذا اجتمع جملة الحكام بجانب الوزير الأعظم؛ وأجابوا متفقين على كلمة واحده: «لما عين حراس من طائفة الإنكشارية لحماية قصر وحرم «بكتاشي خان»، وقع الخوف بالقزلباش؛ فقاموا بقتل بعض من الإنكشارية، ولما علم الغزاة الموجودون في الأطراف والجوانب بهذا الأمر، تجمعوا عليهم بقصد إمداد طائفة الإنكشارية، حيث قطعوا في تلك الأثناء، رءوس نحو ثلاثة أو أربعة آلاف من القزلباش، ثم تحصن القزلباش الذين بقوا في «قراكلق قبو»، ثم فتحوا الباب بعد ذلك وانصرفوا وتوجهوا بساحل نهر «دياله»، ولكن كان هؤلاء هم أغلب الذين حُصروا في قلعة «روان» قبل ذلك، وكان عسكر خلقي نادمين جدًا لتركهم سالمين هناك، فقاموا في هذه المرة بتعقبهم؛ وقتلوا معظمهم بالسيف. وأما الذين عبروا نهر «دياله» فقد نجوا.

وخلاصة القول، فبموجب دفاترهم، كان عدد المحصورين نحو أربعة وثلاثين ألفًا من القزلباش، ولم يُعرف ما إذا كان قد نجا عشر هذا العدد، فنسأل الله رب العالمين أن يلحق بالملحدين أصحاب المذهب الباطل القهر دائمًا.

في ذكر سبب تسمية البرج الكبير الذي كان مشهورًا باسم «برج العجم»

لقد جمع المرحوم والمغفور له السلطان «مراد خان الثالث» ابن السلطان «سليم خان الثاني» الذي كان سلطانًا عالي المكانة ومعتقدًا في الأولياء ومائلًا لمناقبهم الشريفة وقائلًا بالتصوف وطقوس المتصوفة، جمع المناقب الحميدة للصوفي حضرة الشيخ «عبد القادر كيلاني»[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكتبها بالتراكيب العربية، وأراد ترجمتها إلى اللغة التركية العثمانية؛ فأمر حضرة شيخ الإسلام «سعد الدين أفندي» بذلك العمل، وأشار «خواجه سعد الدين» في نهاية ذلك الكتاب النادر هذا النظم الشريف، إلى أنه كُلف بالأمر السلطاني بهذه الخدمة وهذا الأداء المستحسن، وأنه قد أعانه في هذا العمل ابناه المكرمان اللذان المكرمين اللذين شرّف كلاهما أيضًا بعد ذلك مقام مشيخة الإسلام:

نظم

حمدًا لله فقد تم هذا الكتاب
المستحسن بعون المُلهم الوهاب
تم بالهمة خلال ستة أشهر
نهايتهِ عند المائة عقد
فليخلُد ابنيّ محمد وأسعد
من الدهر القاهر منهمك
وأنا في هذا ليل نهار
أعانوني في العمل
كان محمد معينًا لِيَ في أكثره
وكان نظمه ونثره در ثمينًا
فمن يرى ذلك ينبغي أن يميل إلى هذا الفن
وتندمج نفسه بمحتوى هذا الكتاب
فقالوا السلف أكلوا السكر

---

(١) عبد القادر كيلاني: هو مؤسس الطريقة القادرية. واسمه الأصلي «محيي الدين أبو الحمد» وهو من نسل النبي ﷺ. وعاش في القرن الثاني عشر الميلادي.

وقالوا الولد سر أبيه
وطاعة الأمر صارت باعثًا لإتمام هذا الأمر
فأمر السلطان واجب الطاعة
إنه سلطان ممالك الإسلام
صاحب التاج مظفر الأعلام
الأخ الأعظم للأزمان
والسلطان الثاني عشر لآل عثمان
فلويكن السلطان مراد بن السلطان سليم خان
صديقه الدائم، فمن يكون عدوه

نـثر: وتوجد في يد هذا العبد الفقير «بجوي» نسخة شريفة لهذا الكتاب نفسه الذي لا شبيه له والذي هو بخطه الشريف، وهي تحتوي على ذكر مجاهدات ورياضات حضرة الشيخ عبد القادر كيلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أشير بين الأشياء الموضحة في هذا الكتاب أنه كان هو يلقب باسم «برج العجم»، ولما كان من الضروري إيراد النوادر خلاف أحداث التاريخ في مجموعتنا هذه، فقد وجدنا من المناسب إيراد واحدة أو اثنين من مناقبه الشريفة تبركًا وتيمنًا، وبالله التوفيق.

ـ ومن مناقبه الشريفة:

لقد ورد إلينا الخبر بالأسانيد الصحيحة أن «عبد القادر كيلاني» بينما كان جالسًا على كرسيه في بغداد سنة ثمان وخمسين وخمسمائة قال: لقد قمت بالتجوال في براري العراق لمدة خمسة وعشرين سنة، وأقمت في أماكنها غير المسكونة، وابتعدت عن كل شخص، وقد أديت صلاة الصبح بوضوء العشاء لمدة أربعين سنة، ولمدة خمس عشرة سنة كنت أقوم بأداء صلاة العشاء؛ وأستفتح قراءة القرآن حتى ختمه، حتى إنني كنت اضغط على إحدىَ قدميّ وأقف، وكنت أقف مربوطًا بمسمار مثبت في الجدار؛ بسبب خشيتي من غلبة النوم، وهكذا كنت أصلي حتى أختم القرآن العظيم الشأن في وقت السحر.

وبينما أصعد من السلم ذات ليلة، تحدثت نفسي: «لو أنام ساعة»، وحتى أخالف نفسي، انتصبت واقفًا على قدم في ذلك المكان الذي ورد فيه على خاطري ذلك التفكير. وافتتحت القرآن عظيم الشأن، وختمته بينما كنت على هذا الحال، وأحيانًا كان يحدث أنني لم أجد شيئًا آكله لمدة تمتد من ثلاثة أيام حتى أربعين يومًا، وكان يأتي لي النوم في شكل صورة، فكنت أهجم عليه صائحًا حتى يهرب؛ وأحيانًا كانت تأتي إلي الدنيا وزخارفها وشهواتها في الصور الحسنة والقبيحة، لكنى أيضًا كنتُ أصيح فيها، فكانت تهرب وتفر من أمامي.

وقد بقيت إحدى عشرة سنة في البرج المسمى الآن «برج عجمي»، وبعد ذلك، وكان قد اشتهر باسم «برج عجمي» لطول إقامتنا به، وبينما كنت مقيمًا في ذلك البرج، بايعت وعاهدت الله عز وجل أنني لم آكل أي شيء ما لم تُوضع في فمي أية لقمة ولم أشرب شيئًا ما لم أُسقى، فأمضيت مدة «أربعين»؛[1] لا أتناول لقمة ولا أشرب قطرة ماء؛ حتى نفدت طاقتي، وبينما أنا على هذا الحال، جاءني رجل، وكان بيده خبز وطعام، فوضعهما أمامي وذهب، ومن شدة الجوع كادت نفسي تسقط عليه. فقلت: «والله، لا أنقض عهدي مع ربي ولا أتناول هذا الطعام»، وفي هذه الأثناء تضورت معدتي جوعًا وصاحت قائلة: «الجوع!»، ولكن لم ألتفت إلى تلك الصرخة، وبينما كنت في هذه الحالة، أتى الشيخ «أبو سعد مخرمي». وكان أيضًا قد سمع صوت الصرخة التي صدرت من داخلي. وقال لي: «يا عبد القادر كيلاني، إن ما تفعله هذا هلاك للنفس». وأنا أيضًا قلت: «ولكن روحي على سكون واطمئنان بمولاها عز وجل». وبعد ذلك ذهب قائلًا لي: «اخرج من بابي هذا وتعال إليَّ في منزلي». فقلت من قلبي: إنني لا أخرج من المكان دون أمر. وفي هذه الأثناء حضر «أبو العباس خضر» عليه السلام؛ وقال: «انهض واذهب إلى أبي سعد». فوصلت إليه، ورأيت أن «أبا سعد» واقف ومنتظر أمام باب داره، فلما رآني، قال: «يا عبد القادر ألم تكف دعوتي؟! إن لم يقل الـ «خضر» عليه السلام ما قلت،

(١) أربعين: هي فترة أربعين يومًا يمضيها دراويش الطريقة في العزلة من أجل الرياضة الروحية.

لم تأت»، وبعد ذلك أدخلني إلى منزله. ورأيت أنه يعد ويهيئ الطعام، وبعد ذلك جلس الشيخ «أبو سعد» وأطعمني بيده لقمة لقمة، واستمر في ذلك حتى شبعت، وبعد ذلك ألبسني خرقة بيده واشتغلت بخدمته.

وبعد هذا، وفي أثناء تجولي، أتى إليّ ذات مرة شخص لم أره حتى ذلك الوقت من قبل، وقال لي: «هل لك حظ الحوار والحديث؟». فقلت: «نعم». فقال: بشرط ألا تخالفني. فقلت له أيضًا: «نعم». فقال: «اجلس هنا حتى آتي». ثم غاب دون أن يعود لمدة سنة كاملة. ولكنني لم أنقض الشرط؛ ولم أترك مكاني ولما أتى بعد سنة، وجدني في مكاني، فجلس بجانبي ساعة. وبعد ذلك نهض وقال: «ينبغي ألا تبرح مكانك حتى أعود». وبعد ذلك غاب أيضًا سنة. ولما عاد، وجدني في مكاني. وبعد أن جلس بجانبي ساعة، نهض أيضًا وأمرني قائلًا: «لا تتحرك من مكانك». وأنا أيضًا قلت: «نعم». وكما كان لم أتحرك من مكاني. وبعد غياب حولٍ، عاد وأحضر معه لبنًا وخبزًا. وقال لي: «إنني الـ «خضر عليه السلام»، وإنني كلفت بالأكل معك». وعلى هذا أكلنا. وبعد ذلك نهض وقال لي: «أنهض، يجب علينا أن نذهب إلى «بغداد»». ودخلت معه «بغداد». وإذا سأل عن تناولي الطعام في السنوات الثلاث هذه، أُجيب أيضًا قائلًا: «كنتُ أجمع البقايا التي يلقيها الناس في البرية وكنتُ أكتفي منها بالقدر الضروري». انتهى.

ولما نقلت إلى هذه المجموعة أحوال ورياضات ومجاهدات «عبد القادر كيلاني» بعينها بعبارته اللطيفة من ذلك الكتاب الشريف [المقصود كتاب المناقب]، علينا أن نورد أيضًا واحدة أو اثنين من كراماته العلية بقصد التيمن والتبرك.

ـ ومن كراماته:

لقد أخبرنا الشيخ أبو الحسن القرشي رضي الله عنه أنه قال: لقد كنت أنا والشيخ «علي ابن إلهى» رضي الله تعالى عنه، في مجلس سيدنا الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان ذلك في سنة تسع وأربعين وخمسمائة هجرية[1]. وفي ذلك الوقت، حضر «أبو غالب فضل الله بن إسماعيل» البغدادي الأزجي التاجر؛ وألقى السلام وقال: «يا سيدي، لقد قال جدك رسول الله عليه صلوات الله: «من دُعيَ فليجب». والآن فإني أدعوك إلى منزلي وأتمنى الإجابة». فقال الشيخ «محيي الدين»: «لو يؤذن لي سألبي»؛ وحنى رأسه وبقي فترة على هذا الوضع. وبعد ذلك رفع رأسه من المراقبة، وقال: «نعم»، وبعد ذلك ركب بغله. ومسك الشيخ «علي بن إلهى» كاب السرج اليمين، وأنا أمسكت كاب السرج اليسار، وهكذا وصلنا إلى دار التاجر المقصود أبي غالب فضل الله، ورأينا أنه اجتمع في ذلك المنزل مشايخ «بغداد» وعلماؤها وأغنياؤها. فقاموا بإكرام الشيخ وأجلسوه، وأعدوا له مائدة، وأحضروا الطعام من الحلو والحامض. وحمل شخصان صنية مغطاة وغطاؤها مختوم وأحضروها ثم وضعوها على آخر السفرة. وقام «أبو غالب» صاحب الدعوة بالدعوة إلى الطعام، وكان الشيخ «عبد القادر كيلاني» في حالة طُهر ومراقبة. فلم يرفع رأسه من المراقبة، ولم يأكل ولم يعط الإذن بالأكل ولم يمد أحد من أهل المجلس يده إلى الطعام، ومن هيبة الشيخ كانوا يجلسون في أدب على هذا النحو كما لو كان الطير على رءوسهم. وبعد ذلك رفع الشيخ رأسه وأشار إلي وإلى الشيخ «علي ابن إلهى» قائلًا: «أحضروا هذه الصنية». فقمنا نحن وأحضرنا الصنية حيث كانت ثقيلة، ووضعناها أمام الشيخ، وأمر قائلًا: «ينبغي أن تفتحوها»، ففتحناها ورأينا أنه يرقد غلام بداخلها، وربما كان هذا الغلام الذي كان أكمه ومشلولًا ومصابًا بالجذام ومفلوجًا ابن «أبو غالب». فلما رآه الشيخ، قال: «قم بإذن الله تعالى معافى» يعني قم بإذن الله تعالى صحيحًا وسالمًا[2]، وعلى الفور في التو والحال، صار ذلك الصبي بصيرًا بإذن الله تعالى؛ ونهض وركض وذهب، وبرئ في تلك اللحظة من الأمراض

(١) الموافق سنة ١١٥٤ـ١١٥٥م.

(٢) من الواضح في هذه الجملة التي تبدأ بـ«قم بإذن الله تعالى معافى» حتى نهاية الجملة «سالمًا» أن فيها تكرارًا للمعنى ولكن مؤلفنا ذكر في هذه الحالة المقولة العربية للشيخ كما هي بنصها العربي ثم ترجمها إلى العثمانية مسبوقة بكلمة «يعني»، فالجزء الثاني من الجملة هو ترجمة العثماني للمعنى الأول.

المذكورة، وعوفيَ من العاهة، وبكى الحاضرون وصاحوا متعجبين، وخرج الشيخ «عبد القادر كيلاني» من بين ازدحام الناس وذهب، ولم يتكلم ولم يأكل شيئًا.

وبعد ذلك ذهبتُ إلى الشيخ «أبو سعيد فلوي»، وقصصت عليه هذه القصة. فقال: إن الشيخ «عبد القادر» يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، وقال الرواة المذكورون: إن الشيخ «أبو الحسن علي القرشي» المذكور قال لنا : «كنت موجودًا ذات مرة في مجلس الشيخ سنة تسع وخمسين وخمسمائة هجرية[٣]. فقام جمع من الرافضية بإحضار قفتين مخاطتين ومختومتين، وقالوا للشيخ: «ماذا يوجد في هاتين القفتين؟ نبئنا». ونزل الشيخ أيضًا من على كرسيه، ووضع يده على إحدى القفتين المختومتين وقال: «يوجد في هذه صبي مشلول»، وبعد ذلك أمر ابنه «عبد الرازق» بفتحها؛ فقام بفتحها. وكان يوجد بداخلها ـ كما قال الشيخ ـ صبي مشلول، ولمسه الشيخ بيده وقال: «قم بإذن الله تعالى». فنهض الصبي في التو والحال وجرى. وبعد ذلك وضع يده على القفة الأخرى وقال: «يوجد في هذه صبي بلا عاهة وصحيح وسليم». وبعد ذلك أمر ابنه بفتح تلك أيضًا. فخرج صبي من داخلها، وبدأ في المشي. فوضع الشيخ يده على رأس الصبي وقال: «اقعد» فقعد الصبي في التو والحال، وبقي دون حركة. ولما رأى جماعة الرافضية الذين أتوا لامتحان الشيخ هذه الكرامات من الشيخ، تابوا عن الرافضية على يد الشيخ.

وفي المجلس نفسه، في ذلك اليوم، سلم ثلاثة أشخاص أرواحهم. واستمر في كلامه المقصود الشيخ أبو الحسن القرشي قائلًا وفي صدر قرب الماضي أي حتى الآن كنت على صلة بأربعة أشخاص ممن وصلوا إلى درجة المشيخة وكان يطلق على هؤلاء «بررة»، وكانوا يبرءون الأكمه والأبرص، وهؤلاء هم الشيخ «محيي الدين عبد القادر» والشيخ «بقا بن بطؤ» والشيخ «أبو سعيد فلوي» والشيخ «علي بن هسي»، رضيَ الله تعالى عنهم، ورأيت أربعة أشخاص من المشايخ يتصرفون في قبورهم مثل تصرف الأحياء، وهم

(٣) الموافق سنة ١١٦٣م.

الشيخ «عبد القادر» والشيخ «معروف كرخي» والشيخ «عقيل منحي» والشيخ «حيات ابن قيس حرابي»، رضيَ الله تعالى عنهم.

وقال أيضًا عنهم: كلفني الشيخ «عبد القادر» ذات يوم بأمر، وأسرعت في أداء هذا الأمر. وبعدما أديت هذه الخدمة، قال لي: «اطلب ما تريد». فطلبت منه بعض مراقبات الأحوال المتعلقة بأمر الباطن. فقال لي: «أين يدك؟»، ولكن لم تصدر منه أداة الإعطاء وهي القول: «خذ إليك»، وفي التو والحال ظهرت أحوالي الباطنية تلك التي رجوتها. رضيَ الله تعالى عنه.

- ومن الكرامات:

وأخبرنا أيضًا «أبو المعالي عبد الرحيم» بالسند الصحيح بقوله: لقد تقابلت برجل من دمشق يعرف باسم «طريف»، فقال لي ذلك الشخص: «لقد تقابلت بواحد في طريق «نيسابور» أو طريق «خوارزم»، وكان يوجد معه أربعة عشر حملًا من السكر، وعلى هذا قال لي: كنا قد نزلنا في صحراء مخيفة؛ بحيث لم يكن ممكنًا أن يقف فيها أخ مع أخيه من الخوف منها، وعندما قمنا بتحميل الأحمال في تلك الليلة، لم أجد أربعة من الجمال. وبحثت عنهم، فلم أجدهم، ورحلت القافلة، وانقطعت عنهم وأخذت في البحث عن الجمال، ولكن كان صعبًا عليّ أن أجدها، وكلما بحثت عنها، لم أتمكن من العثور عليها. ولما انبلج الفجر، تذكرت الكلام الذي قاله الشيخ «عبد القادر» قُدِّس سره: «لو ألمت بك شدة وألم، نادي عليّ، وسيدفع ذلك الألم والشدة». فناديت قائلًا: «يا شيخ عبد القادر فرت جمالي، يا شيخ عبد القادر فرت جمالي»؛ يعني يا شيخ «عبد القادر» ذهبت جمالي. وبعد ذلك نظرت إلى الجانب الذي يبزغ منه الشفق. وعلى هذا، فلما بزغ ضوء الفجر، رأيت رجلًا على تبة عليه ثياب ناصعة البياض، ويلوح لي بيده فلما وصلنا وصعدنا إلى تلك التبة، لم نر أي شخص، ثم رأينا الأربعة جمال هؤلاء يبركون في واد تحت التبة، وعلى هذا، أخذتهم، ولحقت بالقافلة.

وقال أيضًا «أبو المعالي»: «أتيت إلى «أبو الحسن علي جباري» وقصصت عليه هذه الحكاية». فقال: إنني سمعت من الشيخ «أبو القاسم عمر بزازي» يقول: إنني سمعت

سيدي الشيخ «محيي الدين عبد القادر» قُدّس سره يقول: «لو أي شخص يستغيث في حالة ألم وكرب ، أكشف الألم والكرب عنه. ولو ينادي أي شخص عليّ باسمي في زمان الشدة وأوان المحنة، أكشف العناء عنه ولو يتوسل أي شخص إلى الحق سبحانه وتعالى بذكر اسمي في حاجته، ستُقضى حاجته، ولو يصلي أي شخص ركعتين ويسلم بعد قراءة فاتحة الكتاب في كل ركعة، ثم يصلي على حضرة الرسول المعظم والحبيب الأكرم عليه السلام ويذكره، وبعد ذلك يسير إحدى عشرة خطوة إلى جانب العراق ويذكر حاجته، من المؤكد ستُقضى حاجته؛ يعني سيصل إلى مراده وينال مطلوبه». طيب الله تعالى ثراه وجعل الجنة مثواه ونفعنا بمطالعة كلماته وعمّنا بأنواع بركاته.

وخلاصة القول: إن ما كتب من المناقب الشريفة لحضرة الشيخ إنما هو قطرة قليلة من محيط واسع، بمناسبة «برج عجمي»، والآن ينبغي علينا الرجوع ثانية إلى موضوع غزوة السلطان المغفور له. وبالله التوفيق.

ـ ومن بدائع الوقائع:

ذكر المال الكثير المأخوذ من الفرنجة دون مشقة وعناء:

وفي الوقت الذي كان فيه سلطان العالم عازمًا على فتح «بغداد» دار السلام مع عسكر الإسلام المكللين بالنصر، قام غزاة قلعة الـ «جزائر» التي كانت أفضل ديار المغرب ومشحونة بغزاة الإسلام بإعداد ست عشرة سفينة من نوع «چكدورر»؛ وأقلعوا بهم مع الرياح المناسبة، واتجهوا صوب سواحل بلاد الفرنجة وقاموا بالإغارة على عدة أماكن من ممالك الأعداء ونهبوها، والتقوا بالأعداء في بعض الأماكن؛ فبعد حرب وقتال، يأسرون بعضهم ويربطونهم بالسلاسل ويلحقون بعضهم بمقام الجحيم والسعير، وعمومًا كانوا يعبرون ويذهبون بهذه الطريقة، وفي النهاية يظنون أن الميناء الواقع قرب القلعة المعروفة باسم «أولونية» في سواحل الروم إيلي دار أمان؛ فيدخلون إليها. ولما رأوا أن يربطوا السفن في ذلك المكان أي الميناء، ثم يطلقون عنانها مرة أخرى إلى ساحل الكفار، ويكوون أكباد الأعداء كالمرة السابقة، يخرجون المدافع من السفن

وسائر الآلات والأسلحة والمجدفين، ويدخلون في السفن وينشغلون بأمر ترتيبها، وفي هذه الأثناء يتعقب أسطول البندقية اللعين هؤلاء، ويأتون إلى ذلك المكان أي الميناء بسرعة.

ويروي بعض الأشخاص أن دزدار [أي حارس] «أولونية» قام بإرسال الخبر إلى أسطول الكفار؛ حيث قال: إن هؤلاء الجنود من طائفة اللوند(١) وهم ليسوا تابعين لسلطاننا وليسوا ممن يقومون بحماية سفننا وإنما عبارة عن بلوك أشقياء.

وفي النهاية يأتي أسطول الكفار، ويحتل مدخل الميناء. ولما يرى الغزاة أنه ليس من الممكن القيام بالإصلاح والتعمير المطلوبين، يرغبون في التحصن بالقلعة، ولكن الدزدار اعترض على هذا، وعندئذ اضطروا أن يتركوا في ذلك المكان هذا القدر من المدافع المكملة وجملة المراكب والأشرعة وسائر آلات الضرب والحرب؛ ولكن حملوا الأثواب التي كان من الممكن حملها على الظهور؛ حيث حملوا بعضها على ظهورهم وبعضها الآخر حملها أتباعهم المعروفين باسم «فورسه»(٢)، وكان يحيط أفراد اللوند بأفراد الفورسة من الأمام والخلف، وكانوا ينسحبون بهذه الطريقة، ولما وصل معظمهم إلى «سلانيك»؛ يشترون من هناك سفينة من نوع «قره مرسل»؛ ثم يقلعون بها ثانية صوب الجزائر.

ولكن كان قادتهم وقباطنتهم، وأصحاب الأعلام والإشارات منهم قد جاءوا إلى «إستانبول» وفي تلك الأثناء، كان حضرة «موسى باشا» صاحب السعادة قائم مقام الصدارة، ومكلفًا بالحفاظ على ملك الدولة مفوضًا من الجانب السلطاني. فما إن عُرضت عليه الأحوال حتى أرسل ساعيًا إلى جانب «بغداد» دار السلام؛ ولخص ما

(١) هو اسم يطلق منذ القدم على صنف من الجنود العاملين في البحرية.
-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II, S. 358.

(٢) فورسه: هو اسم أسرى الحرب المكلفين بالتجديف في السفن التي تسير بالمجداف. وكان المجرمون المحكوم عليهم بعقوبة التجديف يعاملون بالمعاملة نفسها. وكان يقال على هؤلاء «بايزن».
Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser, S. 115.

كان وانتهى للركاب الهمايوني السلطاني، وفي الحال تفضل حضرة السلطان بإصدار خط شريف جاء فيه: «ينبغي أن يُحبس ممثلو الفرنجة سواء الموجودين في الآستانة أو حلب أو الإسكندرية؛ وأن تُمنع سفن الفرنجة من الذهاب والإياب ومن أن تعطى حبة ذخيرة لهم».

ويُروى عن الثقات أن كفار البندقية كانوا يرسلون الرسل إلى «رين بابا» و«الجاسار» إمبراطور ألمانيا وإلى ملوك «إسبانيا» و«الفرنجة» وإلى سائر الملوك؛ ويرجون منهم المدد قائلين: «لقد عزم وقام سلطان الإسلام بتجريد العسكر والهجوم علينا فيجب أن تغاروا على دين عيسى وأن تساعدونا». فيرسل كل واحد منهم على الانفراد ردًا يقول فيه: «لا تتسببوا بعد ذلك في إخراج السلطان عالي الجاه إلى البحر، فلتدفعوا ما كنتم تدفعونه من قبل. وإن لم يفِ ما عندكم، سنمددكم بالمال، وإلا ليست هناك القوة التي يمكن بها محاربة هذا السلطان ومواجهته».

وبعد ذلك فعلوا، وارتضوا إرسال جزية مقدارها ستمائة ألف غروش فضية إلى السلطان وأعطوا لكل من «سلحدار باشا» والصدر الأعظم نحو مائة ألف غروش أيضًا؛ حيث كلف هؤلاء بتسليم المال المذكور بالتمام إلى الخزينة العمرة، ومرة أخرى علينا الرجوع إلى ما كنا بصدده.

العزيمة الهمايونية إلى جانب «ديار بكر»

لما تمت أحوال الفتح والفتوح على ما يتمناه قلب السلطان حامي العالم، استراح في ذلك المكان المحبوب والمرغوب المقصود به بغداد حوالي عشرين يومًا بعد الفتح، وخلال هذه الفترة، صدر الفرمان السلطاني الشريف بتعمير الأماكن الخربة وترميمها من سور «بغداد» وبرجها والجزء المهدوم من جراء ضرب المدافع والألغام من سورها، وقام السلطان أيضًا بتنصيب حضرة «مصطفى باشا» صاحب السعادة الذي كان الصدر الأعظم والوكيل المطلق لسلطان العالم سردارًا على العسكر، واتجه هو إلى جانب «ديار

بكر» مع خدم حرمه الهمايوني ومع «سلحدار باشا»، وتفضل بالنزول في أسعد الأوقات إلى السراي العامرة الواقعة في «ديار بكر» قاطعًا المنازل وطاويًا المراحل إليها.

في ذكر استشهاد الشيخ «رومي»
رحمة الله تعالى عليه

سبقت الإشارة إلى هذا الخصوص فيما مضى. ففي الأيام التي جلس فيها السلطان المغفور له على سرير الملك، كان قد وصل الوضع العام في الدولة إلى حالة من الهرج والمرج، فأخذ كل واحد من طغاة السباهية ناحية من الأناضول تحت سطوته؛ حيث بنوا القلاع في بعض الأماكن هناك؛ وألقوا بقبضة القهر والظلم على فقراء تلك النواحي.

وبصرف النظر عن هذا، فقد اقتحمت هذه الفئة السراي العامرة، وقتلوا الوزير الأعظم «حافظ باشا» أمام عين السلطان، وأخرجوا بالقوة أولياء العهد أحباء السلطان قائلين للسلطان: «لقد قتلت إخوتك»، وكان مقصدهم إجلاس أكبر أولياء العهد وخلع السلطان من العرش، ولكن منع بعض العقلاء ذلك بصعوبة، ولهذا السبب كان صدر السلطان المغفور له يدمى حزنًا.

وبعد ذلك وجد السلطان «مراد» وسيلة للقضاء على الطغاة؛ فأقدم على سفك دم هؤلاء قتلًا وقهرًا، ومن أجل تحقيق هذا ضحى بعض الأبرياء أيضًا بأرواحهم، ولحق بعض المظلومين بهؤلاء الظالمين، ومن جملة هؤلاء حضرة المرحوم الشيخ «رومي» الذي كان صوفيًا، وظهرت كرامته وولايته أبا عن جد، وقد صار رفيقًا لحضرة السلطان أثناء حملة «روان» عدة مرات وكان يخبر السلطان عن حال البلاد التي يمران بها، ولكن لما كان معظم أهالي «كردستان» بعضهم من أحباء أبيه وبعضهم من أحباء أخيه وبعضهم من أحبائه هو، كانوا يأتون إلى الجيش الهمايوني كثيرًا ويسألون عن خيمة العزيز أي الصوفي «رومي»، وبموجب مضمون القول الملك عقيم، كان قد أصبح ذلك الحال سببًا لغيظ السلطان.

ولما وصل حضرة السلطان إلى «دياربكر» بعد فتح «بغداد»، جاء ومعه المرحوم الشيخ سويًا، ويروى أنه: «ربما كانت قد دعت «خاصكي سلطان» ذات يوم زوجة الشيخ وغضبت جدًا من إحدى تصرفاتها، حتى إنها ضربتها ببعض الشعر الملفوف»، وعندما أتى السلطان صاحب السعادة، شكت إليه ؛ وربما قالت كلام لا أساس له من الصحة، فأصبح ذلك البهتان باعثًا على رحيل الشيخ إلى رحمة الرحمن، رحمة الله تعالى عليه.

ويروى عن بعض الثقات في «طمشوار» أنه كانت قد ظهرت علامات مرض النقرس عند السلطان صاحب السعادة، أثناء حملة «روان» أيضًا، فإنه أُصيب بالشلل يوم وفاة المرحوم الشيخ؛ حيث توقف نصفه الأسفل عن الحركة، وبعد ذلك اليوم لم يستطع امتطاء الجواد وأصبح محتاجًا لمحفة، وبينما كنت أنا هذا الفقير في صحبة مع بعض الأحباء في منزلنا، جاء شخصٌ وأخبر باستشهاد الشيخ المغفور، وحضرة الله تعالى عليم وعلام.

«بيـت»

سقط رجل الله هذا في المرض

فلم يخذل الله قومه قط

وفي الحال تذكرت استشهاد الشيخ «مجد الدين بغدادي» وأحوال «خوارزم شاه سلطان محمد»، وحزنت قائلًا: «واأسفاه لقد خضع السلطان صاحب السعادة لتحريض ندماء السوء، وغدر بعمر العزيز، ولهذا نسأل الله ألا يُبتلى أهل الإسلام ببأس الأعداء سيئي العاقبة؛ بسبب هذا الدم الذي أُهدر بلا حق».

وبينما كنتُ دفتردارًا في «ديار بكر» كنا قد تعرفنا على المرحوم، وانضممنا لمجلسه الشريف عدة مرات، ولما أصبح استشهاد المرحوم باعثًا على تذكر أحوال «مجد الدين بغدادي» و«خوارزم شاه»، سأل الإخوان الموجودون عن تلك الأحزان، فكان كتاب

«نفحات الأنس»[1] للمرحوم «جامي بن سامي» موجودًا، فأحضرناه في الحال؛ وقرأت منه تلك الأحوال، وعلى أيه حال، فبسبب أن الإخوان الذين سوف يطالعون مجموعتنا المطبوعة هذه لن يهتموا بهذا الحدث، فسوف ينقل بعينه من كتاب «نفحات الأنس»، ومع أن ذلك يكون بعيدًا جدًا عن الموضوع وسقوطًا في واد آخر فإن هذه الأحوال هي من أعجب العجائب وأغرب الوقائع التي وقعت على وجه الأرض، ولهذا فقد عُزم على إيرادها باختصار. وبالله التوفيق.

وتفصيل الحكاية هو أن الشيخ «مجد الدين بغدادي» كان ذات يوم يجلس مع جماعة من دراويشه، فغلب عليه السكر والوجد وقال في أثناء كرامته: «كنا بيضة أوزة، وبقينا بساحل البحر»، فوصلت هذه الكلمة إلى حضرة «نجم الدين كبرى»، فصدر عن لسانه هذا القول: «فليكن في البحر»، فسمع الشيخ «نجم الدين» ذلك، ولحق به غاية الخوف. وفي ذات يوم بينما كان الشيخ «نجم الدين» في حالة وجد (خوش حال)[2] أثناء السماع[3]، جاء حافيًا وملأ إناء بالنار ووضعه على رأسه، ووقف في المكان الذي جردوه فيه من الخف، ونظر الشيخ «نجم الدين» إلى الشيخ «مجد الدين» وقال: «إذا اعتذرت عن الكلام القاسي الذي قلته في حق الدراويش، فإنك ستوصّل الإيمان والدين إلى السلامة، ولكنك ستعُطي رأسك. ونحن أيضًا سنذهب من خلفك وسيتحول العالم إلى خراب، فسقط الشيخ «مجد الدين» على قدم الشيخ «نجم الدين كبرى»، وبعد فترة وجيزة حدث ما قاله الشيخ «نجم الدين».

(١) نفحات الأنس: هو أثر «مولا جامي» (١٤١٤ - ١٤٩٢م) من شعراء إيران الصوفيين، وهو يوضح معيشة وفكر وأحاسيس المتصوفة المشهورين، وترجمه إلى اللغة التركية «لامعي» من الشعراء العثمانيين في القرن السادس عشر.

(٢) خوش حال: هى حاله الوجد؛ أى: حالة الخروج عن نفسه أثناء السماع، أى الذكر.

(٣) السماع: الذكر والمراسم التي يجريها دراويش المولية بالناي والأصول المخصصة حيث يُقال: يوجد سماع اليوم في التكية.

سبب استشهاد الشيخ «مجد الدين بغدادي» رحمة الله تعالى عليه

كان الشيخ «مجد الدين» واعظًا في «خوارزم»، وكانت أم السلطان «محمد» امرأة جميلة جدًا؛ وكانت تأتي إلى دروس وعظ الشيخ «مجد الدين»، وأحيانًا كانت تذهب إلى زيارته، فترقب المغرضون الفرصة، وقالوا للسلطان ذات ليلة بينما كان في غاية النشوة: «لقد تزوجت أمك الشيخ «مجد الدين» على مذهب الإمام أبي حنيفة». فغضب السلطان جدًا، حتى أمر بإحضار الشيخ وقتله، ولما وصل الخبر إلى الشيخ «نجم الدين»، قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، لقد ألقوا ابني «مجد الدين في الماء ومات». وبعد ذلك سجد سجدةً؛ وبقي على هذا النحو لفترة طويلة، ولما رفع رأسه من السجدة، قال: «طلبتُ من حضرة رب العزة أن يأخذ المُلك من السلطان «محمد» مقابل حياة ابنى «مجد الدين»»، فأجاب الله طلبه، وأخبروا السلطان بذلك، فندم جدًا على ما فعله، وأتى إلى حضرة الشيخ راجلًا وأحضر إناء مملوء تمامًا بالذهب، ووضع عليه كفنًا وسيفًا، وقام بتعرية رأسه ووقف وقال: «لو تجب الدية، فها هو الذهب، ولو تريد القصاص، فها هو السيف والرأس».

وقال الشيخ في جوابه: «﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[1]، إن ديته مُلكك وستذهب رأسك وستذهب رأس كثير من الناس أيضًا؛ وسنذهب نحن أيضًا من بعدك». ويئس السلطان «محمد»؛ حيث قفل عائدًا، وبعد زمن وجيز ظهر «جنكيز خان» ؛ وحدث ذلك الذي قاله الشيخ «نجم الدين»، وتمت ترجمة النفحات.

في ذكر السلطان «محمد خوارزم شاه»

ولما ذُكر السلطان «محمد خوارزم شاه» في هذا الموضع ولما كانت أحواله من النوادر وربما من أغرب الغرائب، فسوف يدفعنا هذا على تفصيلها؛ لأن إيرادها موجب وباعث نصيحة.

---

(١) سورة الإسراء – الآية ٥٨.

فيروى أن «خوارزم» هو ابن «يافث ابن نوح» عليه السلام، ولما قام بتعمير تلك الممالك، نُسبت إليه، و«خوارزم» هي المملكة العامرة والتي تشتمل على القرى والبلدان الكثيرة الواقعة على طرفي نهر «جيحون»، ويطلقون على عاصمتها «أوركنج»، وهى مدينة عظيمة، والآن هي تحت تصرف القزلباش [أي «إيران»] . ولما كان ظهور سلاطين «خوارزم» من تلك البلاد، فقد انتُسبوا إليها، والسلطان «محمد بن نكش» المذكور هو السلطان السادس عالي الجاه من تلك الأسرة، وفي نهاية عصره كانت قد اتسعت وقويت دولته كثيرًا، وفي البداية تنازع على الملك مع «مظفر الدين غوري»، وعلى إثر وفاة «مظفر الدين» في تلك الأثناء، استولى السلطان «محمد» على جميع ما ملك، وبعد ذلك شن حربًا ضروسًا ثلاث مرات مع «كورخان فراخطاي»، وانتصر في المعركة الأولى، أما في المعركة الثانية فقد هُزم وأُسر.

ويروى أنه لما قام «خطايي» بأسر السلطان «محمد» والأمير المعروف باسم «شهاب» وهو من أمرائه، قال ذلك الأمير للسلطان «محمد» : «هذا هو مقتضى الحال، فيجب عليك أن تقوم أنت بدور خادمي أنا، وعندئذ سأدبر حيلة لإنقاذك»، وقام السلطان «محمد» بدور خادم في خدمة ذلك الأمير وربط حزام الخدمة في وسطه. فتعجب «خطايي» من خدمة هذا، وقال: «لو لم يكن قد أُشيع أسرك مع هذا الغلام بين العسكر، فإنني كنتُ سأطلق سراحكما»، فلما رأى الأمير «شهاب» هذا القدر من الشفقة والمرحمة من «خطايي»، قال: «إن الأكثر أهمية من إطلاق السراح بالنسبة إليّ الآن، هو أن أُرسلَ بريدًا إلى وطني، وأُخبر بأنني ما زلت حيًا؛ لأنهم لو قالوا: مات، ستُنهب أملاكي. أما إذا وصل الخبر ببقائي على قيد الحياة لن تنهب أملاكي، وعلى هذا سُتخصص حصة من مالي وتُرسل من أجلك». وبعد ذلك رشح الأمير شهاب إرسال السلطان «محمد» [الذي كان يمثل غلامه] ـ دون إرسال أي رجل آخر، وأرسل مع «خوارزم شاه» [أي السلطان محمد] رجلًا آخر كدليل، وما إن وصل السلطان «محمد» إلى دار ملكه حتى تزينت المدينة وأُقيمت الأفراح والمسرات على مدى ثلاثة أيام.

ومن ناحية أخرى، لما شاع غياب «خوارزم شاه» بين جند «خطايي»، استفسر «خطايي»[1] عن الوضع من الأمير، فقام الأمير «شهاب» بإفشاء السر ووضح ما جرى، وبعد ذلك تعقب «خطايي» والأمير أيضًا «خوارزم شاه» حيث غمرا بالرعاية أكثر مما توقعا.

وفي المرة الثالثة، قام السلطان «محمد» بجمع العسكر ثانية، وسار بهم صوب «قرة خطايي»، وأحاط غبار أقدام خيول العسكر بفلك أثير، وأوقعوا بالخطائيين الضربة الشنيعة التي لم يأكلوا مثلها حتى اليوم من قبضة الإسلام، وكانت جيفة الأنجاس الذين سقطوا على الأرض قد ملأت تلك الصحراء العظيمة من أولها إلى آخرها.

وبينما كان السلطان المذكور يلقب حتى ذلك الوقت بـ «قطب الدين»، ففي هذه الأثناء [أي بعد هذه الحرب العظيمة]، لُقب بـ «إسكندر الثاني»، ولما توفي «تاج الدين الذكر» وهو من أمراء «غور»، استولى على «غري» و«كابل» وأيضًا على الممالك التي كانت تابعة له؛ وقوي بذلك أمره، وعلى إثر سقوط السلطان «سنجر» السلجوقي في هذه الأثناء، أسيرًا في يد طائفة الـ «غز»، استولى أيضًا على جملة ممالكه، وفي هذه المرة، لقبوه بظل الله في الأرض.

وبعد ذلك وعلى إثر وقوعه في حالة من الغرور الزائدة، دبت العداوة بينه وبين الخليفة العباسي «ناصر دين الله»؛ وبدأ في جمع العسكر بمقصد عزل «ناصر دين الله» وتنصيب «سيد على الملك ترميذي» الذي كان من السادات صحيحي الأنساب، والذي كان رجلًا صاحب اعتبار وصالحًا ومشهورًا في تلك الممالك بلياقته لمقام الخلافة قائلًا: «إن العلويين أحق بالخلافة من العباسيين»، وطبقًا لما كتبه أرباب التاريخ مع أنه مبالغ فيه، قام بجمع ثلاثمائة ألف جندي؛ وتوجه صوب «بغداد» دار السلام.

ولما علم الخليفة «ناصر دين الله» أيضًا عن هذا الوضع، قام بإرسال حضرة شيخ المشايخ الشيخ «شهاب الدين سهروردي» كسفير لاستقباله، فلما تم التصادف بجيشهم

(١) المقصود بكلمة «خطايي» هذه ليس «قره خطايي» ولكن المقصود بها فردٌ من «خطايي».

في مكان قريب لـ «حلوان»، استقبلوا الشيخ بعسكر جرارة وأمروا بالنزول إلى ربوة عالية؛ وفي اليوم التالي، عقدوا الديوان، وانتظروا قدوم الشيخ، وكتب بعض أهل التاريخ بالنقل عن حضرة الشيخ ما يلي:

عندما وصلت إلى بلاطه [أي بلاط السلطان محمد]، دخلت إلى خيمة من نوع أوتاق واسعة ومزدحمة، وكانت الخيمة منقوشة بسبعة ألوان من النقوش المعمولة من القماش من نوع أطلس والحرير، والبساط الذي كان مفروشًا كان أيضًا حريرًا صافيًا، والنقش الموجود عليه كان مُزينًا أيضًا بالحرير المحبب للقلب. وكان يجلس في هذه الأوتاق أمراء وخانات ما وراء النهر، و«تركستان» و«غريه» و«غور» و«زابلستان» و«ميرهراز» و«ميرصد»، وعندما عبرتُ أيضًا من ذلك المكان، مررتُ من أوتاق لا نظير لها، وهذا أيضًا كان مصنوعًا من القماش الصافي من نوع «زرباف» ومن القماش من نوع «سراسر» المرصع والقماش من نوع «ديبا»، وكانت جملة أطنابه مصنوعة من «الأبريشم» والتُلّ المرصع. وفي هذه الأوتاق كان يجلس خانات وسلاطين «خراسان» و«خوارزم» و«نيشابور» والعراق والعجم و«طبرستان» و«ميرهزار» و«ميرصد». ولما عبرتُ من تلك الأوتاق، دخلت إلى بلاطه، فكانت زينة وبهاء هذا المكان لا يمكن مقارنتها بسائر الأماكن، وكان العرش الذي يجلس عليه السلطان مصنوعًا من أشجار «عابع» و«وأبنوس»، وكان مرصعًا باللؤلؤ والياقوت وأنواع الزمرد والفيروز، وكان بساطه عبارة عن مجموعة حصر مبهجة منسوجة من الذهب الخالص.

وكان من لوازم العظمة في ذلك العصر، أن يكون البساط الملكي من الذهب الخالص فمثلاً طبقًا لما ورد في التواريخ الموثوقة التي كتبها «مولانا اللاري» رحمة الله تعالى الباري عليه قائد قافلة أرباب النظم والنثر، ومن بعده «سعد الدين أفندي» معلم السلطان المرحوم «مراد خان الثالث»، أنه عندما تزوج الخليفة المأمون بالفتاة اللبقة المعروفة باسم «پوران» وهى البنت العفيفة لـ «حسن ابن سهل» ، الذي كان من أمرائه الكبار، كان يوجد بين سائر جهازها الملوكي أربعون حصيرًا ذات خيوط طولية وعرضية من

الذهب الخالص، وكانت أصغر وأقل واحدة فيهن حوالي عشرين ألف مثقال[1] ذهبية. وفي ليلة الزفاف قامت والدة البنت بنثر ألف قطعة در قيمة، كان لا يوجد مثيل لواحدة منها في خزانة الملوك، وبالإضافة إلى هذا، أشعلت شمعة ذات رائحة عنبرية تزن أربعين «باتمن»[2]، وقد نقل هذا الكلام عن تاريخ «خواجه أفندي» بعبارته اللطيفة لعرض بعض المعلومات عن الحُصر المنسوجة من الذهب الخالص، والآن ينبغي علينا أن نعود إلى موضوعنا:

وقد قام حضرة الشيخ «شهاب الدين سهروردي» بتقديم رسالة الخليفة «ناصر دين الله» إلى السلطان «محمد»، ولما لم يُؤذن له بالجلوس، أنشأ خطبة بليغة في تعريف الخلفاء العباسيين وتوصيفهم وهو واقف على الأقدام، فقال «خوارزم شاه» في جوابه: «لا توجد هذا الصفات في العباسيين. ولكن سأقوم بتعيين خليفة عليكم به هذه الصفات». فأجاب الشيخ أيضًا: «إن إظهار الفرقة بين المسلمين بشأن من سيكون سلطان الزمان وتفويض هذه الأسرة المباركة ليس أمرًا لائقًا. وربما الأولى والأنسب لدولتكم الدنيوية والأخروية هو أبقاء هؤلاء مكانهم، وسحب أدراج العودة إلى دار سلطنتكم». فأجاب السلطان قائلًا: «إن سلالة هؤلاء ليست من سلالة النبوة المباركة، ولو أن لديك ذوقًا من محبة الله، ما كنت تدخلت بيني وبين «ناصر»، فالذين يصفون هؤلاء بصفة «مبارك» هم أمثالكم». وبعد هذه الكلمات، قام بإخراج الشيخ من أمامه.

وبعد ذلك يتفضل حضرة الشيخ بالقول: لقد خمنت تخمينًا صحيحًا قيمة ثيابه التي كان يرتديها وتاجه المنسوج من فرو الخراف، مع هذا القدر من التجمل والزينة والبهاء حوله، قُدرت قيمتها بثماني أقچات، أما هو فكان لا يزال غلامًا بلا شارب ولا لحية.

وعلى هذا، عاد حضرة الشيخ «شهاب الدين» من عند السلطان «محمد» منكسر الخاطر وقفل راجعًا إلى جانب «بغداد»، وتحرك السلطان «محمد» من ذلك المكان،

---

(١) وحدة وزن تساوي خمسة جرامات أو درهمًا ونصف.

(٢) وحدة وزن تساوي (٣) كجم.

وعندما وصل إلى قرب «حلوان»، وفي الوقت الذي لم يحدث فيه أن يسقط الثلج قط في تلك الممالك، هطل الثلج عليهم، واستمر في السقوط ليل نهار دون توقف لمدة عشرين يومًا حتى دُفنت خيامهم تحت الثلوج، وبقيت الدواب والخيول بلا زاد أو علف؛ وتلف معظمها. وفي النهاية بقيَ بلا حيلة وفضل العودة، وكانت الدواب وأسباب السفر والخدم ورؤساء العسكر الذين تلفوا لا حدّ لهم، ولما وصل السلطان «محمد» إلى دار ملكه بعد عناء ومشقة بالغة، انشغل مرة أخرى بالعيش والشراب؛ نظرًا لغروره لأنه كان لا يزال في فترة الشباب ولم يفق من هذا الأمر، ولم يدرك أن صفعة القلم التي أكلها كانت بسبب انكسار خاطر حضرة الشيخ، وبعد ذلك، أصبح هذا أي السلطان محمد باعثًا على إفناء الوجود الشريف لحضرة الشيخ «مجد الدين بغدادي»، واعتبر العلماء والمشايخ أن هذه الأحوال هي السبب المعنوي لإدبار دولته أي دولة السلطان محمد ولتخريب تلك البلاد.

ظهور «جنكيز» عديم التمييز المولع بسفك الدماء وإهدارها ومجمل أحواله

إن العلماء والحكماء وكتاب التواريخ أولي النهى، متفقو الكلمة واللسان في هذا الموضوع؛ وهو أنه لم تحل مصيبة أعظم من هذه على أهل الإسلام منذ عصر «آدم»؛ وربما لم تحدث حادثة عظيمة على هذا النحو بعد طوفان نوح، ويقولون: إنه لو استمر التناسل ألف سنة بناء على ما هو جار في سنة الله، ولم يمت أحد، فلن يتيسر لممالك «إيران» و«توران» ذلك العمران الذي كانت عليه قبل هذه الفاجعة.

وكان ذلك الظالم عديم الدين قد خرج من مملكة الصين في تمام سنة ٦١٠ هجرية[1]، واستولى على بلاد «كاشغر» و«ختن» حتى وصل إلى حدود نهر «فتاك»، وكتب رسالة إلى السلطان «محمد» [سلطان خوارزم] ، وأرسل «محمود يلواج الخوارزمي» كسفير

(١) الموافق سنة ١٢١٣م.

بكثير من المسك وحجر العقيق وأيضًا بعض الهدايا المتعددة، وكان مضمون الرسالة ما يلي:

«إن عظمة كل منا أوضح من النهار، وبمجرد الجلوس على عرش السلطنة علمنا أن صداقتك واجبة علينا؛ فليس لي أعز منك، فقد منحني الله تعالى ملكا واسعًا يمتد من منطقة الشرق وحتى حدود ولايتك؛ والمعادن الفضية عندنا كثيرة والرجال الأبطال بلا عدد، وممالكنا الفسيحة تغنينا عن سائر الديار والممالك. وإذا رغبت في الصداقة والسماح بذهاب التجار وإيابهم إلى هذه الديار، وبتبادل المصالح الأخرى، فسيكون ذلك موجب ازدياد المحبة والوداد بيننا وسببًا لتأكيد الاتحاد مع بلادنا، وعندئذ يتقرر علينا مدكم بالمساعدة وقت الحاجة بجزء من العسكر والفضة الخالصة، فعندما نبقي أصدقاء مع بعضنا، تزداد أواصر القوة والعظمة فيما بيننا».

وفي النهاية، حرر السلطان «محمد» معاهدة كرد على خطاب «جنكيز» حيث ورد فيها ضرورة الالتزام بالوفاق وعدم النزاع ونهب ديار بعضهما البعض، وألا يرد بخاطرهم الخروج على بعضهم البعض، فأقر «جنكيز» من قلبه هذه المعاهدة وقال: «ينبغي ألا يخالف «جنكيز» وألا يقرب من نقض العهد».

ولما أُقر العهد والميثاق من الطرفين على هذا الوجه، جاء أربعمائة تاجر مسلم من ولاية «جنكيز» إلى «أترار»، وكان حاكم «أترار» شخصًا يُعرف باسم «أبناء الحق»، وكان ابن خال سلطان «خوارزم»، فقام «أبناء الحق» بدعوة بعض من هؤلاء التجار إلى جواره، وفي أثناء حديث «أبناء الحق»، قام أحد هؤلاء المدعوين، وكان قد رأى «أبناء الحق» مرة قبل ذلك وناداه قائلًا: «أبناء الحق أبناء الحق»، وعلى هذا، ظن «أبناء الحق» أن هذا الخطاب سوء أدب من هذا الشخص، فاشتعلت نار غضبه لهبًا عظيمًا، فأخذهم جميعًا. ثم أخبر السلطان «محمد» بهذا الوضع المنحوس؛ حيث كتب قائلًا: «جاء جمع من ولاية «تتار» بأسباب الاحتشام إلى هذه الديار، وإن مقصدهم التحقق من الأخبار والتجسس وتتبع أحوال الديار، وتبليغها إلى كفار «تتار» أصحاب المنهج السيئ، وفي

مقابل هذا، أمر بقتل هؤلاء الأبرياء؛ ثم بلا موجب جرّد العسكر على «تركستان»، وقام بحرب مع «جوجي خان» ابن «جنكيز» وعلى هذا قام «جنكيز» بجمع أبنائه وأمرائه وخاناته وأبناء الخانات، وعقد ديوانًا عظيمًا، وقال لهم ما يلي:

«لقد بذلتُ هذا العام جهدًا لإقامة الصداقة ولازدياد روابط الوداد والاتحاد مع سلطان «خوارزم» بإرسال الرسل والرسائل، ولكن لم يفد ذلك؛ ولذا وجب دفع هذا وقطع العلاقات.

وفي تاريخ سنة ٦١٥ هجرية[١] تحرك «جنكيز» من دار ملكه بعسكر جرارة بقصد تسخير الممالك، وعقد عنان العزيمة، ولما علم السلطان «محمد» بهذه الأحوال، قام بإرسال جاسوس، ولما تحقق الجاسوس من الأوضاع والأطوار وعاد، أخبر بأنه يوجد لدى «جنكيز» جيشٌ كثيرٌ لا يحصى مثل النمل، وسيوفهم بتارة وسهامهم خارقة للأرواح، وكل واحد منهم بطل في القتال بتلك الدرجة التي لو أرادوا أن يربطوا الفلك بالوهق[٢] بشجاعة بالغة لفعلوا وأنزلوه إلى الأرض وأغاروا على برج السعادة. وهم مرتبطون بسلاطينهم روحًا وقلبًا، ولا يهتمون قط بالتنعم واللذة الفارغة، وسلاحهم وملبوساتهم من مصنوعاتهم، ولا يحتاجون للماء ولا يجوعون بقلة الطعام، ويحملون معهم مواشيهم، فيكتفون بلبنها وزبدها، حتى يعدون لحم الكلب والخنزير من ألذ-اللذائذ ، ويقومون بذبح الجمال ويشربون دمها المسفوح.

وبالجملة، فقد خرج «جنكيز» مع جيش جرار على هذا النحو، وجاء إلى «بخارى»، وهدم القلعة حتى ساواها بالتراب، ثم توجه من هناك إلى «مرو»، فأمر أهالي «مرو» بأن يخرجوا من المدينة وأن يكتفوا بقليل من المال ويتركوا في المدينة جملة ما ملكوا حتى يتثنى للجيش أن ينشغل بنهب المال، ثم وصل إلى «بخارى» في سنة هجرية ٦١٥ [٣]؛ ونزل

---

(١) الموافق سنة ١٢١٨ ـ ١٢١٩م.
(٢) الوهق : الحبل الذي يُرمى في أنشوطه فتؤخذ به الدابة.
(٣) الموافق سنة ١٢١٨ ـ ١٢١٩م.

بجوار البوابة الكبيرة (أو الباب الرئيسي) للمدينة، وخرج أمراء السلطان «محمد» مع عشرين ألف رجل قوي للحرب، ولكن اتجه عليهم قادة جيش «جنكيز»، ولم يتركوا أي أثر من هؤلاء، وفي اليوم التالي، فتح أهالي «بخارى» باب المدينة؛ وذهب جمع كثير من أئمة العلماء إلى «جنكيز»، وعندما دخل ذلك إلى المدينة، ووصل إلى الجامع، دخله ممتطيًا جواده حتى المقصورة، ثم نزل من على جواده وصعد المنبر وقال: «لا يوجد علف في الصحراء، أشبعوا خيولكم!». وعلى هذا فتح المغول أبواب العنابر وأفرغوا صناديق المصاحف الشريفة، وأقاموا إسطبلًا لخيولهم بهذه الصناديق، وجعلوا العلماء والمجتهدين يمسكون لُجم وأعنة خيولهم، فقال واحد من السادات إلى أحد المشايخ المجتهدين: «مولانا ما هذا الحال؟»، فقال ذلك المجتهد: «اسكت إن هذا إثر من هبوب رياح عدم التضرع إلى الله، ومن قطع روابط الرجاء في الله بالسيف الإلهي القاهر».

وبعد ذلك، وصل «جنكيز» إلى «عيدكاه» وصعد المنبر. وبعد الحمد والتمجيد، ذكر معائب المسلمين، وأشار إلى غدر السلطان «محمد»، وخطب في الخلق وقال: «لقد صدر منكم جرمٌ عظيم، حتى سلّطني اللهُ تعالى عليكم كالبلاء النازل من السماء وكالقضاء المفاجئ، وإن الأغراض والنقود الموجودة في مدينتكم لا تحتاج لدليل، فأخرجوا أموالكم المخفية». وكان العالم «حاجب» يترجم كلام «جنكيز» إلى الفارسية، وفي الحال أحضر أصحاب الأموال ما ملكوا، ولهذا لم يُعذب أي شخص. ولما كان قد اختبأ جمعٌ كثيرٌ من رجال السلطان «محمد» أي من عسكره داخل المدينة، أمر بإحراق المدينة المقصود مدينة «بخارى»، ولما كانت أكثر العمارات مقامة من الأشجار، لم يبق في الحال أثر من هذه العمارات. وبعد ذلك قاموا بالهجوم على قلعة «بخارى»، فأبلى أهل القلعة بلاء البطولة، ولكن، في النهاية قام المغول بملء الخندق الذي حول القلعة بجيف الحيوانات؛ وبهذا انتصروا على القلعة، وقتلوا الرجال منهم، وأسروا أهلهم وعيالهم.

ـ قصة «أترار»:

أرسل السلطان «محمد» خمسين ألف سواري ممن لهم دراية بالحروب لمعاونة «أبناء

الحق» الذي كان حاكم «أترار» وقاتل التجار، وبعد ذلك أرسل عشرة آلاف جندي أخرى لإمداده، ولكن لما لم يستطيعوا المقاومة اضطروا للخروج؛ حيث التجئوا إلى جوار قادة المغول المُحاصرين للقلعة، الذين كانوا من أبناء «جنكيز» المولع بسفك الدماء. فإن هؤلاء المقصود أبناء «جنكيز» قالوا: «إنكم لم تكونوا أوفياء لولي نعمتكم، فكيف يمكن أن تكونوا أوفياء لنا؟»، ثم قاموا بقتلهم جميعًا.

وبعد ذلك اتجه كل واحد من أبناء «جنكيز» هؤلاء «جوجى» و«جغتاى» و«أوكتا» على رأس فرقة من جند المغول سافكي الدماء الذين كانت أعدادهم كثيرة كالنمل؛ حيث اتجه بعضهم إلى «سيسان»، وبعضهم الآخر إلى «محيد» وغيرهما من البلدان، بقصد الإستيلاء عليها وإفناء وجود أهلها؛ وقاموا بقتل النفوس في كل مكان بأعداد لا يمكن حصرها.

أما «جنكيز» الذي لم يميز بين الحسن والقبيح فقد أتى إلى «سمرقند». وفي هذه الأثناء، كان قد وضع السلطان «محمد» في «سمرقند» مائة ألف سواري وعشرين فيلًا؛ وأمر بحفر خندق عميق حول أطراف المدينة يمتد حتى النهر، وكان اعتقاد أهل «سمرقند» أنه لا يمكن احتلال المدينة حتى ولو سُعي إلى ذلك أيام مديدة وشهور بل وأعوام. فكيف يُستولى على قلعة كانت قد أحكمت إلى حد الكمال؟

ولكن بدأ «جنكيز» في الاستيلاء على أحياء «سمرقند» أولًا، وبعد ذلك قصد «سمرقند» نفسها، وفي اليوم الرابع، أتى قاضي المدينة وشيخ الإسلام صاحب الهداية «أبو الحسن علي مرغيناني» إلى «جنكيز»، فوعدهم بالعفو، وفي اليوم التالي، كان يُخرج الرجال والنساء إلى الصحراء ثم يقتلهم، وبقيَ حوالي خمسين ألف رجل على قيد الحياة، بعد توسل القاضي وشيخ الإسلام.

ولما توجه «جنكيز» إلى «سمرقند»، وصل السلطان «محمد» إلى «خراسان»، وتحصن بها، وقسم جنده، وأرسلهم إلى البلدان المجاورة لحمايتها؛ وقد بقيَ معه جمع قليل، وعلى هذا، قام «جنكيز» بإرسال ثلاثين ألف جندي مع بعض أمرائه، من أجل تعقبهم

قائلًا: «الآن، أتيحت الفرصة». وأمرهم قائلًا: «فليُعطى الأمان للذين يعلنون الطاعة والانقياد، وأن تُمحى ديار الذين لم يعلنوا الطاعة»، وفي الواقع قاموا بمثل ذلك، فلما أعلن حاكم «مرات» الطاعة، لم يتعرضوا له، وبعد ذلك جاءت فرقة أخرى ملعونة، فقضت عليهم.

وجاءوا إلى «زويه» و«نيشابور»، ثم وصلوا إلى «مازندران» و«طوس»، فقاموا بقتل أهلها جميعًا، فإنهم أوقعوا الإيذاء الشديد بأهالي «راوكان»، وقاموا بقتل أهالي «چوشان» و«أسفراين» قتلًا عامًا بحجة تقصيرهم في الخدمة، وأجروا أيضًا عادتهم الخبيثة في «دامغان»، وكانت أم السلطان وحرمه في قلعة فيها، فاستولوا على هذه القلعة وأسروا هؤلاء، ومن هناك اتجه الجند الشياطين إلى «رى». واستقبل شيعة الـ «ري» هؤلاء وحرضوهم على قتل الأحناف، وبعد ذلك قام المغول أيضًا بقتل هؤلاء الشيعة. ويروى أنه قُتل في الـ «ري» أكثر من ألف ألف رجل. ومن هناك وصلوا إلى «قُم»؛ وقضوا على أهلها تمامًا. ثم وصلوا إلى «همدان»؛ وقضوا على أهلها أيضًا؛ وربما لم يجعلوا لهم أثر، وقد قال «أوحد رازي» في وصف بلاد العراق والعجم في ظل هذه الأحداث]:

(نظم)

تخيلوا أن أرض العراق أربع مدن
كانت طولًا وعرضين مائة في المائة لا أقل من ذلك
اعلم أن أصفهان بين مدن الدنيا عظيمة
ولم تنل مدينة في الدنيا عظمتها
وهمدان نالت مكانة عالمية مرموقة بطقسها البديع
ولم يكن في الدنيا مكان يكون كعبة على رأس الجنان مثلها
ولا يرى جمال أبهى من جمالها
فلا سبب لتكون «قم» أقل من «السها» ولكن هي أيضًا
هي معدن شعوب الوجود وهي ملكة البلاد
ومدينة الري لا يوجد مثلها في العالم

وبعد ذلك قاموا بتخريب «كردرود» و«نهاوند»، ثم وصلوا من هناك إلى «قزوين»؛ وقاموا بقتل نحو خمسين ألف رجل، ولما وصلوا من هناك إلى «مراغة»، أصرّ أهلها وعزموا على المواجهة والحرب، ولم يستسلموا طائعين كغيرهم؛ ولذلك أراق المغول دماءهم، وخلال مدة أسبوع لم تبق نفس واحدة على قيد الحياة هناك.

وفي ذلك الوقت كان أهل الإسلام في خوف وفزع بتلك الدرجة التي كانت المرأة من المغول تدخل إلى أي سراي وتقتل الجمع الكثير، ولما وصلوا إلى «خوي» و«سلماسن» ومنها إلى أطراف «نخجوان»، لم يتركوا وهم في طريقهم شيخًا أو شابًا؛ حيث أجروا نهرًا من الدماء في كل شارع، واتجهوا من هناك إلى طرف «سلعان»، فأرسلوا رسولًا إلى أهلها حتى يعلنوا الطاعة، فإن أهلها أيضًا قاموا بقتل الرسول، ولم يتخلوا عن الجهاد. وعلى هذا جاء المغول أيضًا، وفي البداية ـ حاشا ـ قاموا بالفسق بالنساء، ولم يدعوا فردًا من الرجال أو النساء إلا وألقوهم جميعًا في صحراء الفناء. أما أهل «گنجه» لما رأوا أن مقاومة هؤلاء أدت إلى الفناء والألم، صاروا في مقام خدمتهم؛حيث تمكنوا في ظل ذلك من النجاة، وفي هذه الأثناء، جاء عدة آلاف من جنود «كورجي» وأرادوا أن يحاربوا هؤلاء. فإن الملاعين قاموا بسحب هؤلاء إلى الكمين، وأسقطوا أكثر من ثلاثين ألف «كورجي» على تراب الهلاك.

وبعد أن استولى «جنكيز» على «سمرقند»، قام بإرسال «جوجى» و«جغتاى» من أبنائه لفتح «خوارزم»، وكانوا يطلقون عليها «جرجانيه» منذ القدم. والتركمان يطلقون عليها «أوركنج»، ووصلت مجموعة من هؤلاء المغول على مقربة من المدينة، ثم ساقوا دوابهم ومواشيهم، واغتر أهل المدينة بقلة هؤلاء؛ فتعقبوهم. وفجأة خرج المغول من الكمين؛ وأحرقوا ما يقرب من مائة ألف رجل بنار السيف، وفي اليوم التالي جاء الأمراء من أبناء جنكيز مع جندهم الذين هم أوجه البلاء، وحاصروا المدينة. وقصدوا نهر «جيحون» الذي كان أهل المدينة قد مدوا مجراه إلى مدينتهم، وذلك حتى يصرفوه عن مجراه ويلحقوا العطش والمعاناة بأهل المدينة، وانشغل بذلك العمل ثلاثة آلاف مغولي، ولكن المدنيين أرسلوا بهؤلاء جميعًا إلى مدينة العدم وأهلكوهم، وفي اليوم التالي

وصل «أوكتا بن جنكيز» الذي كان موصوفًا بالرأي السديد وحسن التدبير؛ وكان أكبر الإخوة؛ وكان قد كلفه «جنكيز» بأن يكون قائدًا على الجند، وفي الحال استولى المغول على المدينة؛ وقتلوا أكثر من مائة ألف رجل من الأعيان وأسروا الغلمان والفتيان والنساء والشباب بالذل والهوان، ولم يلمسوا الشيوخ ومن لا طاقة لهم من بقية الناس. وقد كان من نصيب كل قاتل أربعة وعشرون قتيلًا، وقد كتب بعض أهل التاريخ أنه سلك طريق العدم على يد شؤم كل جندي من المغول نحو خمسين رجلًا، وقد أكدوا أن عدد القاتلين كان أكثر من مائة ألف.

ولما توجه «جنكيز» إلى «بلخ» و«ترمذ» أبلى أهالى «ترمذ» بلاء حسنًا كله بطولة؛ حيث قاموا بالمواجهات البطولية، فإنه في النهاية انتصر الملاعين، وقاموا بالقتل العام. وبينما كانوا يقتلون امرأة، قالت: «لا تقتلوني لأعطي لكم الدر النفيس الذي بلعته». وفي الحال قاموا ببقر بطنها، فوجدوا الدر بها، وبعد ذلك شقوا بطون جميع النساء على أمل أن يجدوا درًا بها، ويروى أنه وصل إلى درجة الشهادة في ذلك اليوم على هذا النحو حوالي مائة وأربعين ألف امرأة، ثم قاموا بقتل ونهب أهالي «لنكوت» و«سمات»، ومن هناك توجهت طائفة من هؤلاء الملاعين إلى «بدخشان»، وفي منطقة «بدخشان» جعلوا النهار أشبه باللؤلؤ من كثرة دماء المقاتلين.

وعبر «جنكيز» من «ترمذ» حيث وصل إلى «بلخ»، وكانوا في الماضي يُكرمون «بلخ» كالبيت الحرام؛ حيث يذكر في تاريخ «بلخ» أنه كانت في ذلك الوقت عامرة لدرجة أنه كانت تُؤَدى فيها صلاة الجمعة في ألف ومائتي موضع، وكان يوجد بها ألف ومائتان حمام، ويُروى عن حضرة «خواجه محمد پارسا» أنه كان يوجد في «بلخ» في ذلك الوقت حوالي خمسين ألف رجل من السادات والمشايخ والموالي، فلما جاء إليها «جنكيز»، خرج جماهير المشاهير بالهدايا، وقام «جنكيز» بطرد جميع أهالي المدينة إلى الخارج باستثناء هؤلاء الذين حملوا الهدايا، حيث قام «جنكيز» بتقسيمها على عسكره وأمر بقتلهم. ومن هناك وصل إلى «طلعان»، ولم يعلن أهالي هذا المكان الطاعة، وأداروا رحى الحروب ببطولة واستشهدوا جميعًا، وفي «سبزه وار» سُحق حوالي ألف وسبعين مسلم تحت أقدام المغول

وسُحقت «سبزه وار» أيضًا تحت أقدامهم، ومن هناك وصلوا إلى «نيشابور» ؛ وقاموا بتخريب جميع أبنيتها. وخلال سبعة أيام وسبع ليال ألقوا الماء وزرعوا الشعير، وبلغ عدد القتلى خلاف النساء والأطفال سبعة وأربعين ألفًا سبع مرات، ولما جاء «جنكيز» إلى «هرات»، أمر بقتل كل ما هو موجود من عسكرها، وعلى مدى خمسة عشر عامًا كان لا يوجد ذو روح سوى أربعين شخصًا من ساحل «جيحون» حتى «نيشابور».

وبعد هذا، روى المؤرخون قصة غريبة ومضمونها: أنه كانت قلعة «أرك» من قلاع «سيسان» الحصينة، فأرسل «قولي بن جنكيز» مجموعة من جنده لمحاصرتها، وكان قد ظهر بين أهل القلعة وباء عظيم؛ حيث كان هذا الوباء يبدأ بألم الفم وتهيج الأسنان، حيث حمل معظمهم المرض على مدى ثلاثة أيام، وفي ذات ليلة قام صاحب القلعة بتعيين سبعمائة شخص بأسمائهم حتى يمنعوا دخول أي شخص من الباب الشمالي، ووقفت مجموعة أخرى عند الباب الشرقي حتى يتم الاستعداد لسل سيف الجهاد على أعداء الدين وقت السحر إذا ما حاول أحد منهم الدخول فإنه لم يبق ذو روح من هؤلاء حتى الصباح.

ـ قصة «مرو»:

لما توجه «قولي بن جنكيز» على «مرو»، جاء في ذلك الحين الإمام «جلال الدين» وهو من أئمة «مرو» جاء إلى «طوي»؛ حيث أصبح واسطة صلح، وفي الوقت نفسه جاء «عجير الملك» بالهدايا، ولكن لم يقنع «قولي» بتلك الهدايا؛ وأراد أن يعرف كم عدد أغنياء المدينة، فقال له الإمام «جلال الدين» أسماء مائتي شخص. فأمر «قولي» بتسجيل هؤلاء في الدفتر، وبعد أن أوقع بهم الإيذاء الشديد، وأخذ أموالهم، قتلهم جميعًا، وبعد ذلك دخل العسكر إلى المدينة، واعتدوا على النساء؛ ثم انتقى أربعمائة شخص من أهل الحروف، وقسم ما تبقي على العسكر لقتلهم، فكان نصيب كل رجل ثلاثمائة أو أربعمائة رجل. ثم قاموا بعادتهم الخبيثة هذه في «نيشابور» و«هرات» وسائر البلدان والقصبات، وأغرقوا جميع سكانها في بحر الفناء.

ويروى عن قاضي «عرجستان»: أنه في أثناء الانشغال بالقتال في محاصرة «هرات»، سقطتُ على الأرض من البرج الذي كان مواجهًا لـ «قولي» من غاية الازدحام، فأمطر المغول عليَّ السهام من كل جانبٍ، ولكن لما لم يتجه سهم القدرِ لإهلاكي، لم تصبني سهامهم وبقيتُ سالمًا، فقبضوا عليَّ وحملوني إلى «قولي». فنظر إليَّ بتعجب وقال: «هل أنت من جنس الآدميين، أم أنت جمل، أم جن؟». فقلتُ أنا: «لما كان نظر سلطان عالي الشأن مثلك لا يحيد عني، فقد بقيت سالمًا ببركات ذلك النظر العالي». وقد وقع كلامي هذا من «قولي» موقع الاستحسان، فأرسلني إلى والده قائلًا لي: «إنني لائق بمصاحبة السلاطين عالي المكانة».

وكان والد «قولي» يدعونني باستمرار إلى مجلسه الخاص ويجعلني أتحدث إليه. وكان يطلب مني إحاطته علمًا بالروايات التي وردت في حق الترك، وكان الترجمان يترجم له كلامي، وفي ذات يوم قال لي: «إن الأمور التي قمنا بها مع «محمد أوغري»؛ يعني «محمد خوارزم شاه» يجب أن تبقي ذكراها زمنًا طويلًا بين الناس». فقلت له: «إذا أمنني الخان على روحي سأعرض له كلامًا». فلما قال: «ليكن لك هذا»، قلتُ: «إذا كان الخان قد قضى على كل الناس، فمن سيذكر اسمه؟». فاحمرّ وجهه كالنار من هذا الكلام ونظر إليّ بغضب وقال: «كنتُ أظن أنك من العقلاء، إلا أنك كنت جاهلًا. فماذا فعلتُ أنا بسائر الناس خلاف الأماكن التي وصلت إليها يد وقدم وحافر «محمد أوغري»؟»، وبعد ذلك أعرض عني، ورأيت أن البقاء في جيشه، بعدئذ ليس مناسبًا؛ فأخذت رأسي وذهبتُ.

ويُروى أنه لما وصل «جنكيز» إلى «بخارى»، قال لـ «صدر جهان برهان الدين محمد» الذي كان رئيسًا لـ «بخارى»: «أرسل إليّ شخصًا يكون عارفًا جيدًا بلغتكم يعني شريعتكم ومذهبكم، فأرسل «صدر جهان» «قاضي أشرف» مع واعظ، فسألهما «جنكيز» عن عقيدة أهل الإسلام. فقالا ما يلي: «إن أول أركان الإسلام هو الاعتقاد بوحدانية الخالق الذي هو المعبود الحقيقي؛ وتنزيهه عن النقائص». فقال «جنكيز»: «ليس لدي شك أو تردد في هذا». وبعد ذلك قالا: «إن الله تعالى أرسل الرسول ليبلغ

أحكام الدين للعباد»، فقبل «جنكيز» هذا الكلام أيضًا؛ وقال: «إنني عبد الله، أرسل الرسل إلى الأطراف، وأكلفُ العسكر أيضًا بالوظائف»، ثم أضافا: «وقد فرض الله علينا خمس أوقات للصلاة في الليل والنهار، وأمرنا بأن نترك كل شيء في تلك الأوقات ونقوم لعبادة الله»، واستحسن «جنكيز» هذا الأمر أيضًا. ثم قالا : «لقد أمر الله بصيام شهر كل عام؛ ونهى عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات». فقال «جنكيز» : «هذا الأمر أيضًا مقبول ومناسب ومعقول؛ لأن الناس يمضون أحد عشر شهرًا من السنة في غفلة ويتناولون أكثر من الحاجة، ثم ليأكلوا بحساب في شهر حتى يعلموا قدر النعمة». ثم قالا: «وقد أمر الله أصحاب المال بأن يعطوا كل عام نصف دينار عن كل عشرين دينارًا إلى الفقراء». فاستحسن «جنكيز» هذا كثيرًا وقال: «لقد قدر الله رزق الرجل وعمره ما بين كثرة وقلة، فلما تُعطى زيادة المال إلى الفقير، توجب اعتدال السريرة». وبعد ذلك قالا: «إن العباد المؤمنين مأمورون بطواف بيت الله مرة في مدة عمرهم لو استطاعوا ذلك». فقال «جنكيز»: «جميع العالم بيت الله، ولكن طلب على هذا النحو حتى ينبغي أن يساعدوا أرباب الحاجات في الطريق، وليكتسبوا اسمًا طيبًا».

وبعد ذلك المجلس، قال «قاضي أشرف» :«إن جنكيز مسلم»، أما الواعظ فقد قال: «إنه كافر؛ لأنه لم يؤمن بالحج كما يجب»، وخلاصة القول: إنه عندما وصل «جنكيز» إلى «بخارى» أسرع أرباب الكمال لاستقباله. فقال لهم: «لقد يسر لي الحقُ تعالى الظفر على سلطانكم. فيجب أن تنشغلوا بالدعاء لمزيْد سعادتي»، فأراد الأئمة والمشايخ منه فرمان الإسلام. وسأل «جنكيز» قائلًا: «هل كان السلطان يأخذ منكم مؤن ديوانية [خراج كحق للديوان]»، فأجاب هؤلاء أيضًا قائلين: «كان يأخذ». فقال جنكيز : «فكيف كان يستجاب دعاؤكم من أجله [المقصود السلطان محمد]؟، فإن راحة القلب وهدوء الخاطر منوط بتأثير الدعاء، والأحاديث مشروطة به، فإن راحة القلب وهدوء الخاطر كانت بعيدة عنكم».

وبعد ذلك أصدر أمرًا إلى القضاة والسادات والموالي يقضي بأنهم معافون من الخراج والمؤن الديوانية، وفي أثناء الربيع ذهب وأمر بما يلي: ينبغي على أم السلطان وحرمه أن يصلوا أمام العسكر؛ وأن يبكوا بصوت عال وأن يرفعوا أنينهم إلى السماء.

وبعدئذ، لما تم إيراد هذا القدر عن أحوال «جنكيز» عديم التمييز، علينا أن نكتفي بهذا، ونبدأ في ذكر نبذة عن المظالم التي قام بها «هلاكو» الظالم في «بغداد» العامرة بالجنان.

قصة «هلاكو» وغارته على بغداد العامرة بالجنان
واستشهاد الخليفة المعتصم بالله

ومع أن كتاب التاريخ وأصحاب العلم والإنشاء قد كتبوا كثيرًا عن هذه المصيبة العظيمة، فإنهم لم يفصلوا ذلك بقصد أن الاختصار مطلوب، ولما كانت طبيعتي أنا هذا الحقير سباقة ومائلة إلى ضبط سياق الكلام، فسأجد في نفسي الجرأة للدخول في قدر من التفصيل في هذا الموضوع.

وعلى أية حال، فقد كان «ابن العلقمي» وزير المعتصم بالله الخليفة العباسي رافضًا وسبابًا وعدوًا للصحابة، واتفق أنه ذات يوم نشبت معارضة ونقاش بين جماعة من أهل السنة وطائفة من الروافض حيث أدى ذلك إلى القتال؛ فجرح وقتل بعض الأشخاص من الطرفين، فلما وصل «ابن العلقمي» إلى الديوان، أيد الروافض وأهان أهل السنة. فلما وصل الأمر إلى الخليفة، أنصف أهل السنة وأمر بإعدام الروافض، فيؤثر هذا الفرمان في نفس «ابن العلقمي» ويبدأ في الإعداد للقضاء على وجود الخليفة؛ وربما في محو الدولة العباسية، ففي البداية، وجد درويشًا غير محلوق الرأس؛ فيحلق رأسه تمامًا، وينقش على رأسه بمسمار حاد هذا المضمون: «يا خان الخانات إذا أردت أن تلحق مُلك العراقيين وسائر ممالك الخلفاء العباسيين بملكك الموروث، فعليك أن تتحرك مع عساكر التتار الذين هم كالنمل في عددهم وتسعى في المجيء إلى «بغداد» دار السلام. وعليك أن تعلم من هذا العبد الفقير أنه سوف تتحقق هذه الأمنية العظيمة، وأن تحلق رأس هذا الصوفي غير المحلوقة»، ثم بعد ذلك قام الوزير «ابن العلقمي» بإرسال هذا الدرويش إلى «هلاكو»، وفي هذه الأثناء، تصادف أن «هلاكو» كان مشغولًا بالاستيلاء على قلاع الملاحدة.

ـ قصـة :

كان «هلاكو» أبنًا لـ «قولي خان» وهو الابن الرابع لـ «جنكيز» عديم التميز، فلما جلس أخوه الأكبر «منكوقا آن» على عرش المُلك، أمد «هلاكو» بالعسكر؛ وكلفه بالاستيلاء على قلاع الملاحدة، وبعد أن أنهى أمر هؤلاء، أمره قائلًا: «عليك أن تصل إلى الشام على القاعدة الجنكيزية، ولو أعلن الخليفة الطاعة، ينبغي عليك أن تدعه على حاله؛ ولو يخالف فعليك أن تجري القاعدة الجنكيزية هناك أيضًا».

وبالفعل استولى «هلاكو» على معظم قلاع الملاحدة. ولما جاء إلى «حرقان»، قام بإرسال سفير إلى «خور شاه» الذي كان من ملوك الملاحدة، فقام «خورشاه» أيضًا بإرسال ابنه وأخيه «خواجه نصير الدين محمد الطوسي» الذي كان منشأه «طوس» وأصله من «ساوه» مع السفير، كما أرسل السفراء أيضًا من المكان نفسه إلى «بغداد»، ولما لم يقم الخليفة بإرسال الإمدادات له أثناء فتح قلاع الملاحدة، قام بتأنيبه. وخلاصة مضمون رسالته التي أرسلها إلى الخليفة جاء فيها: «إنه يمكن للخليفة أن ينجو من سخطنا إذا أتى بنفسه إلى بلاط «هلاكو» أو إذا أرسل ابنه مع وزيره، وإلا سوف يتقرر توجهنا إلى «بغداد»»، وهكذا أرسل رسالة شديدة اللهجة، درج فيها كلام يورث التهديد والوعيد، فقام الخليفة بإرسال «ابن جوزي بدر الدين نخجواني» برسالة إلى «هلاكو»، وأخبره بأنه لما كان ابنه لا يزال صغيرًا وأنه ليست لديه تجربة، وأنه من الممكن أن يقع في بعض الأخطاء؛ بسبب حماقته، فقد أرسل شخصًا آخر ناشئًا من الشباب، وهو بلا دراية في هذا الأمر، وهو مطيع لله ورسوله، وبهذه الأسباب فهو مطيع وخادم للبلاط.

ولكن عند رجوع السفراء الذين جاءوا إلى الخليفة من قبل، من «بغداد»، كانت صحراء «بغداد» مزدحمة بالعوام الذين يشبهون الهوام؛ فقاموا بسب وقذف السفراء كثيرًا حتى إنهم قاموا بأمور دنيئة ضدهم، مثل البصق على وجوههم، وفي النهاية أرسل الوزير طائفة من الذين يعرفون باسم «حراس»، وخلصهم من أذى العوام وأعادهم إلى جانب «هلاكو».

ولما وصل السفراء إلى بلاط «هلاكو»، وأخبروه بما حدث زاد لهبه وغضبه، وقال لسفراء الخليفة: «قولوا للمستعصم أنه قد استولى عليك حب المال والجاه بتلك الدرجة التي صار فيها غير متأثر بكلام الذين يحسنون التفكير وغير متدبرٍ لعاقبة الأمور».

ولما جاء السفراء وعرضوا جواب «هلاكو» على الخليفة، استرشد «المستعصم» بوزيره. فعرض الوزير عليه قوله: إنه ينبغي علينا أن نرسل أموالًا جزيلة وهدايا جميلة؛ وأن نطلب الصلح بشرط ذكر اسمه على السكة والخطبة. والذين كانوا مخالفين للوزير حقروا رأيه قائلين: «إن مقصده كسب المنفعة لـ «هلاكو»، ولكن الأولى والأنسب هو جمع العسكر والتوجه عليه»، وعلى هذا قال «المستعصم» للوزير: «لحيتك طويلة وعقلك قصير»، ولما اشتد الأمر، استشار الوزير مرة أخرى. ولكن لم يظهر شيء من صاحب اللحية الطويلة والعقل القصير سوى التقصير، وعمومًا لا داعي لتفصيل وتحرير أي واحدة من المصائب التي وقعت.

فعندما أصبحت صحراء «بغداد» منزلًا لهؤلاء الجند ذوي الأصل الشيطاني، أقاموا بلاط «هلاكو» تجاه «برج عجمي»، وقرعوا طبول الحرب والقتال من ناحيتين دون توقف لمدة خمسين يومًا، وبعد اليوم الخمسين بدأ «ابن العلقمي» بسلوك مسلك الشيطنة وفتح أبواب الفتنة؛ وقال للخليفة: «ينبغي أن يتوجه أحد الرجال الثقات إلى بلاطه حتى يتم وقف القتال، وليرجو ويتوسل إليه وإلى وكلاء دولته، وأن يسعى في رفع هذا البلاء العظيم عن أهل الإسلام ببذل الأموال لهم في الوقت الحالي، وبعد ذلك يوافق على إعطاء ثلث أو ثلثي محصول «بغداد» إلى حصته».

وعلى هذا، قام الخليفة أيضًا بإخراج الوزير من باب القلعة قائلًا له: «لا يستطيع أحد تنفيذ هذا الأمر، فإنت»، ثم أرسله إلى بلاط «هلاكو»، فلما التقى الوزير بـ «هلاكو»، قال له: «لقد حملت الخليفة على أن ينهى الأمر على ضمانتي، فالرأي والأمر بعد ذلك لكم»، وعندما عاد وأتى إلى الخليفة، قال: «إن مقصده الوحيد أن يقيم علاقات الأبوة والبنوة معكم أو يزوج ابنته أو أخته بابنكم، والآن ينبغي علينا أن نذهب إلى مجلسه مع أعيان المدينة وأشرافها».

وفي اليوم التالي، وصل الخليفة مع ابنيه وحوالي سبعمائة من الأعيان والأشراف وأمراء وحكام الأطراف بأنواع الزينة والبهاء إلى جيش «هلاكو»، فأدخل المغول الخليفة مع ابنيه سويًا إلى داخل الخيمة، وقتلوا الآخرين بالسيف وأسقطوهم جميعًا على تراب الموت في لحظة واحدة، وفي تلك اللحظة، أمروا الدلالين بالنداء بأن يترك كل شخص سلاحه وتجهيزه ويأتي إلى الجيش، فكان يأتي عسكر الإسلام فوجًا فوجًا، وكانوا يُلحقون بزمرة الشهداء، ويروون أنه غرق في بحر العدم بهذا الوجه ثلاثمائة وسبعين ألف رجل، كما أن الذين كانوا مختفين في أماكن ضيقة والذين خرجوا بعد ذلك من الأماكن التي كانوا مختبئين بها والذين ماتوا وتركوا الزوجات والوجود وهم في حاجة إلى قطرة ماء، أعدادهم لا حصر لها وغير معدودين من هذا العدد.

ولما وصل «هلاكو» إلى «بغداد» يوم الجمعة، خاطب الخليفة وقال له: «نحن ضيوف عليكم أحضروا لنا كل ما هو لائق»، ففتح الخليفة أبواب الخزائن؛ وعرض أمام نظر «هلاكو» الأثواب النفيسة والأموال التي لا حصر لها، فقال «هلاكو»: «هذه الأموال ملك لنا، وليس لديك حرج في تسليمها لنا، ولكن أظهر ما هو مختبئ ومستور وأحضره إلي». وعلى هذا، قاموا بحفر صحن دار الخلافة بإشارة من الخليفة، فظهر حوض مملوء بالذهب، ويروون مع أن «هلاكو» كان يظهر اللطف تجاه الخليفة كلما التقى به، فإنهم لم يقدموا له الطعام لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أحضره «هلاكو» إلى جواره؛ وقال له: «لقد أهملنا في الضيافة»، وأحضروا بشكيرًا ومائدة وأواني الأطعمة، ووضعوها أمامه بالتعظيم والتكريم؛ ووضعوا أمامه أيضًا طبقًا أو طبقين مملوئين بالذهب قائلين عليهما «طعام»، ولما رأى الخليفة هذا، تغير لونه وتنهد بشدة. فقال «هلاكو» أيضًا: «أيها الخليفة المغرور، لماذا لم تجتهد في دفع الأعداء؟ فإن المقصود من المال ليس خلاف هذا»، ولكن «هلاكو» كان مترددا في قتل الخليفة، فكان «حسام الدين منجم» الذي كان مصاحبه يمنعه من قتل الخليفة، وكان يقول له: «سيصبح العالم مكدرًا بقتل الخليفة». ولكن يروون أن «خواجه نصير طوس» كان مؤيدًا لقتل الخليفة، وفي النهاية علقوا «المستعصم» في عمود؛ وضربوه بالأقدام وبالأيدي حتى قضى نحبه، رحمة الله تعالى عليه.

وبعد عدة أيام عفا «هلاكو» عمن تبقي من سكان «بغداد»، ومنذ فترة طويلة، كانت أعمال المغول من القتل والنهب على الاتصال، وبعد هذا كانوا يبعدون الناس عن الشوارع؛ ويعمرون بروج القلعة، وينظفون أيضًا أطرافها. فإن «ابن العلقمي» حُرم من رجائه، ولم يُلتفت أو يُنظر إليه قط، وقد نظم الشيخ «مصلح الدين سعدي شيرازي» قصيدة غراء في رثاء «المستعصم» والتي مطلعها:

لو سُكبت دموع العين الدامية من السماء على الأرض

على زوال مُلك المستعصم أمير المؤمنين

وكان كبر وغرور المستعصم بالدرجة التي لم يُسمع عنها عند الخلفاء والملوك وسائر السلاطين الذين جاءوا حتى عصره، فكان ذلك سببًا لموته في النهاية على هذا الحال، وباعث عبرة وسبب نصيحة السلاطين والحكام الذين سيأتون بعد موته؛ لأنه بينما كانت لديه القدرة والاستطاعة على هذا النحو، لم يمد الخلافة ولم يعينها بجنده أو ماله قط، ويروون أنه عدا الأفراد الذين كانوا موظفين في مناطق الحدود، كان يوجد في «بغداد» نحو مائة وأربعة وعشرين ألف رجل تحت اسم «خدم الباب»، وكان يوجد بقصره نحو أربعمائة خادم مكلفين بتنظيم الخدم الذين يخدمون في هذا القصر، وكان لا يستطيع واحد من هؤلاء أن يدخل إلى خلوة الخليفة، وكان قد وضع حجرًا أسود في ساحة هذه الخلوة، وكانوا قد أسدلوا عليه كُم ثوب من القماش الأسود من نوع أطلس من باب صغير جدًا، فكان الملوك والسلاطين الذين يأتون من الأطراف لتقبيل يد الخليفة يقومون بزيارة كم الثوب الأطلسي هذا، وكانوا ينهون الزيارة بتقبيل ذلك الحجر الأسود مثل «الحجر الأسعد»، وكان قد اهتم بمظاهر العظمة والاحتشام بهذا القدر، حتى إنه عندما كان يذهب إلى مكان ما، كان يمتطي جوادًا ضخمًا جدًا، ويسدل على وجهه الطرف المرصع بالتُّلي للعمامة السوداء التي على رأسه كالنقاب؛ وكان لا يمكن رؤية وجهه الجميل بالتمام، وكان الخواص والعوام يتزاحمون في الشوارع حتى إنهم كانوا يؤجرون الأبواب والأسقف والنوافذ العلوية لمشاهدة طلعته البهية، حتى تم حساب هذا الإيجار عدة مرات، فقيل إنه وصل إلى ثلاثين ألف ذهبية، ولكن كان في ذاته

مجتنبًا جدًا للفواحش، على أنه كان مبتلى بسماع الموسيقى والشراب، وهو يعتبر البطن الخامسة والثلاثين من هذه السلسلة الشريفة لآل العباس، والخليفة السابع والثلاثين. وقد وصف بالخلافة حتى الجد التاسع، وكان قد وقع خروجه من «بغداد» بناء على رأي «ابن العلقمي» يوم الأحد الموافق الرابع من صفر سنة ست وخمسين وستمائة هجرية[1]، وهكذا تبلغ الفترة التي أمضتها هذه السلسلة الجليلة في مقام الخلافة نحو أربعة وعشرين وخمسمائة عام. (انتهى).

لقد أضعنا الوقت فيما لا يعني، ولم يكن لائقًا لمجموعتنا هذه، وسلكنا طريق الخرافة بتوضيح الأحوال المتروكة منذ سنوات كثيرة، فماذا عسانا أن نفعل؟ لما كانت طبيعتنا تميل إلى ذكر الجراح القديمة مثل هذه، وإلى أحوال السلف التي تصبح باعثًا للنصح والعبرة، اخترنا مثل هذا العمل، ومقصدنا الأصلي، هو أنه لو يقرأ شيخ مثلنا هذه الخرافات أو وقعت من الذين لم يقفوا على هذه الأحوال من قبل، موقع الاستحسان، أن يبعثوا في روحنا وقلبنا الحزين السعادة بقولهم: «فليرحمه الحق تعالى»، وبعد هذا علينا الرجوع إلى موضوعنا الأصلي.

توجه السلطان إلى جانب دار السلطنة العلية سنة ١٠٤٩ هجرية[2]

لما استراح السلطان «مراد الرابع» عدة أيام في محمية «ديار بكر»، نزل إلى السراي المُذكر بالجنة الواقع في «أسكدار» في اليوم الخامس من شوال من السنة المذكورة تحفه العظمة والسعادة، وبعد ثلاثة أيام، قام بالعبور من البحر؛ فلما دخل إلى دار السلطنة العلية، جعل تلك المدينة الجميلة مكانًا تحسده الفردوس.

---

(١) الموافق ١٠ / ٢ / ١٢٥٨م.

(٢) الموافق ١٦٣٩ ـ ١٦٤٠م.

وفاة السلطان مراد خان غازي رحمة الله عليه
في ١٤ من شوال المكرم سنة ١٠٤٩ هجرية[١]

أيها الفلك الدنيء ليست لديك مروءة   وامتلأت بالعداوة الجمة لأهل الإيمان

- نثر: فبينما كان سلطان عالي الشأن بالدرجة التي كانت نعمه الوفيرة مبسوطة من الشرق والغرب، وقبل أن يشبع من نعمة العمر، طويت أيها الفلك المشئوم بساطه في عالم الشباب، وبينما كان العالم يشرب سيف قهره وكدره كأسا كأسًا، طويت عمره بمخلب ظلمك، فلو أنك ظللت تدور آلاف السنين، فإنك لم تجد مثله، ولو ظللت تدور عدة آلاف من السنين فإنه لا يمكنك أن تجد نظيره، فوآسفاه، ووآسفاه مئات المرات ووأسفاه مائة ألف مرة!.....

حي مدد حلّت المصيبة العظيمة بالواصلين
وحل بهم غم عجيب وبلاء غريب ومصيبة غير كل مصيبة
فمن الذي مزق قبة ثوبه بهذا الغم
ومن ذا الذي أورده موارد الردى

الحكم لله الواحد القهار، فليس هناك حيلة في اليد سوى الدعاء! فلينعم حضرة الحق سبحانه وتعالى عليه داخل جنة عدن بقدر ما قام به من همة، وليرحمه بقدر جهاده في أمور السلطنة. وألاّ يؤاخذه بذنوبه؛ نظرًا لأن مقصده من استقلال السلطنة كان حماية الفقراء والمسلمين، وليعامله بلطف وإحسان وألا يعاقبه بعدله ولطفه وكرمه تعالى.

---

(١) الموافق ٧/ ٢/ ١٦٤٠م.

ـ المؤلف في سطور:

ـ إبراهيم أفندى

لُقب بـ «بچوي» نسبة إلى مدينة «بچ» من مدن المجر، ولد عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م فى مدينة «بچ»، بداية من عام ١٠٠٠هـ عمل بجوار «لالا محمد باشا».

ـ كانت الجندية أول وظيفة يشغلها بجانب «لالا محمد باشا».

ـ شغل وظيفة كاتب لـ «لالا محمد باشا».

ـ شغل وظيفة «بياده مقابله جي» عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م.

ـ أسند إليه السلطان أحمد الأول وظيفة «سواري مقابله جيسى» عندما حمل خبر فتح قلعة «أسترغون» إلى الآستانة؛ حيث صار يشغل وظيفة «بياده وسواري مقابله جيسي» فى آن واحد.

ـ شغل وظيفة دفتردار «ديار بكر» عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، وظل فى هذه الوظيفة حتى عام ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٥م.

ـ كلف بمنصب «باش دفتردار» لكنه لم يقبل ذلك؛ لكبر سنه وقنع فقط بوظيفة

«دفتردار» لمدينة «توقات» عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م، ثم نقل من وظيفة دفتردارية «توقات» إلى دفتردارية «طونه».

ـ عين «بچوى» واليًا على سنجق «أستونى بلغراد» فى الفترة من ١٠٤٢ـ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٢ ـ ١٦٣٥م، ثم تولى دفتردارية البوسنة عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ـ ١٦٣٦م.

وفى عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٨م نقل عن منصب دفتردارية البوسنة إلى دفتردارية «طمشوار»، واعتبارًا من عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م انزوى عن الحياة الوظيفية؛ حيث عاش مع خواطر الحروب القديمة التى خاضتها الدولة وانشغل بتحرير الغزوات والفتوحات.

ـ كانت وفاته عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م فى مدينة «بچ»؛ حيث دفن بها.

ـ المترجم فى سطور:

الدكتور/ ناصر عبد الرحيم حسين محمد

ـ حصل على ليسانس الآداب ـ قسم اللغات الشرقية ـ اللغة التركية عام١٩٩١م.

ـ حصل على درجة الماجستير عام ١٩٩٩م.

ـ عين مدرسا مساعدا بكلية الآداب ـ قسم اللغات الشرقية جامعة حلوان عام ٢٠٠٠م.

ـ حصل على درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٥م.

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور
الإشـراف الفـنـى: حسـن كـامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب